المجلس الأعلى للثقافة
لجنة القصة

من عيون القصة المصرية

(مختارات قصصية)

المجلد الأول

إعداد وتحرير

حسين حمودة

تقديم

خيرى شلبى

المجلس الأعلى للثقافة
لجنة القصة

من عيون القصة المصرية

(مختارات قصصية)

المجلد الأول

إعداد وتحرير
حسين حمودة

تقديم
خيرى شلبى

المجلس الأعلى للثقافة

لجنة القصة

حمودة، حسين

عيون القصة المصرية، مختارات قصصية،

إعداد وتحرير: حسين حمودة، تقديم: خيرى شلبى.

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، طبعة خاصة بمناسبة انعقاد

مؤتمر القاهرة الأول للقصة القصيرة، مج١، ٢٠٠٩.

٧٠٨ ص ، ٢٤ سم

١- القصص العربية

أ- شلبى، خيرى (تقديم)

ب- العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٧٣٤ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 2- 639 - 479 - 977 - 978

طبع بـ: مطابع الأمل للطباعة والنشر

الأفكار الواردة فى إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها، ولا تُعبر بالضرورة عن رأى المجلس

شارع الجبلاية بالأوبرا — الجزيرة — القاهرة

ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

Fax: 27358084. TEL: 27352396

قصة هذا الكتاب

بانوراما القصة المصرية القصيرة

بقلم: خيرى شلبى

حينما تحمست لجنة القصة لإقامة أول ملتقى دولى للقصة القصيرة يعقده المجلس الأعلى للثقافة، وبعد أن وافقت الأمانة العامة للمجلس بصفة مبدئية، وفى انتظار الموافقة النهائية لمعالى وزير الثقافة، شرعنا فى الحال نفكّر فى مطبوعات خاصة بالملتقى. وكنت منذ وقت طويل مضى أفكر فى كتاب يضم بين دفتيه مختارات من عيون القصة المصرية القصيرة، بل لقد عرضت الفكرة على أحد الناشرين فوافق عليها وشرعت بالفعل فى كتابة مقدمة أربط فيها بين هذه القصص جماليًا وموضوعيًا، ذلك أن تاريخ القصة القصيرة فى الأدب المصرى عريق وحافل بالمنجزات الفنية السامقة أسَّست لهذا الفن البديع فى الأدب العربى الحديث، أنجزها رواد عشقوا هذا الفن وأخلصوا له: محمد ومحمود تيمور، ومحمود كامل المحامى، ويحيى حقى، ومدرسة الواقعية المكونة منه وأحمد خيرى سعيد ومحمود طاهر لاشين وعيسى عبيد وحسين فوزى، ناهيك عن توفيق الحكيم، وطه حسين، ومحمود البدوى، وأمين يوسف غراب، وصلاح ذهنى، ويوسف جوهر، وإحسان عبد القدوس، ويوسف السباعى، وإبراهيم المصرى، وإبراهيم الوردانى، وسعد مكاوى، والشرقاوى، والخميسى، ناهيك عن نجيب محفوظ، ثم يوسف إدريس، وصلاح حافظ، ويوسف الشارونى، ومحمود السعدنى، وإدوار الخراط، وفهمى حسين، وصالح مرسى، وعبد الله الطوخى، وصبرى موسى، وسليمان فياض، وفوزية مهران، وأبو المعاطى أبو النجا. ثم أعلام جيلنا المتميزين فى القصة القصيرة: يحيى

الطاهر عبد الله، ومحمد حافظ رجب، وضياء الشرقاوى، وأصلان، وبهاء طاهر، وجمال الغيطانى، والقعيد، وأحمد الشيخ، وزينب صادق، وسكينة فؤاد، وإقبال بركة، ورضوى عاشور، ثم إبراهيم عبد المجيد، ومحمود الوردانى، ومحمد المخزنجى، ويوسف أبو رية، والمنسى قنديل، وسعيد الكفراوى - ترتيب الأسماء غير مقصود - وعائشة أبو النور، وسحر توفيق، وعفاف السيد. حتى نصل إلى الجيل الشاب المعنى بالتجريب.

لكل هؤلاء وأولئك قصص قصيرة بلغت ذروة النضوج فى الأداء الفنى، فبات لها نفوذ فى الوجدان العام واستقرار فى الذاكرة لا يمحوه الزمن، حيث القصة الواحدة من هاتيك القصص يمكن أن تؤرِّخ للعصر الذى كتبت فيه، أن تكون مرآة له بمعنى أو بآخر، كما تؤرِّخ لتطور كاتبها الفنى. وكانت الأمثلة على ذلك كثيرة فى ذاكرتى: قصة "البوسطجى" ليحيى حقى، "سخرية الناى" لمحمود طاهر لاشين، "أبو على كامل أرتيست" لمحمود تيمور، "الأعرج فى الميناء" لمحمود البدوى، "الزمن الوغد" لسعد مكاوى، "أحلام صغيرة" لعبد الرحمن الشرقاوى، "قمصان الدم" لعبد الرحمن الخميسى، "العملية الكبرى" ليوسف إدريس، "الزحام" ليوسف الشارونى، "جنة رضوان" لمحمود السعدنى، "حيطان عالية" لإدوار الخراط، "فى ضوء القمر" لعبد الله الطوخى، "الديك الأحمر" لفاروق منيب، "الطريق" لصالح مرسى، "يوميات موظف مفصول" لعباس أحمد، "شرخ فى جدار الخوف" لمحمد صدقى، "الحريق" لعلى الدالى، "التراث" لعبد النور خليل، "رجل بلا تفاصيل" لصبرى موسى، "الجايات أحسن" لفهمى حسين، "مخلوقات براد الشاى المغلى" لمحمد حافظ رجب، "سقوط رجل جاد" لضياء الشرقاوى، "القاهرة" لعلاء الديب، "الطواف" لإبراهيم أصلان، "حديث من الطابق السادس" لمحمد البساطى، "الخطوبة" لبهاء طاهر، "جبل الشاى الأخضر" ليحيى الطاهر عبد الله، "الركض فى سرداب موحل" لمحمد

إبراهيم مبروك، "اليوم أربعة وعشرون ساعة" لإبراهيم منصور، "عيش وملح" لعباس محمد عباس، "حمير ترانزيت" للدسوقى فهمى، "خطاب من قبلى" لمحمود دياب، "ولد وبنت" لمحمود الوردانى، "الضيف" ليوسف أبو رية، "وقصة الرجل الذى عثر على أبيه فى المرآة" لسعيد الكفراوى... إلخ.

كنت أتصور كتابًا يضم هذه المجموعة من القصص المنتقاة، التى تمثل أصحابها خير تمثيل، وفى نفس الوقت تمثل محطات مهمة جدًّا على طريق صعود القصة القصيرة فى الأدب المصرى، من يقرؤها يلم بالمسيرة الفنية التى قطعتها القصة القصيرة حتى تأسَّس هذا الفن فى الأدب العربى الحديث ثم المعاصر. المقصود من الكتاب كما تصورته أن يكون "بانوراما" مصغَّرة ليس لتاريخ القصة المصرية، بل لتجلياتها المتوهجة، التى بفضلها أصبحت القصة القصيرة فنًّا جماهيريًّا، وزادًا شعبيًّا يقبل عليه قراء الصحف بشغف واهتمام.

فما إن تلقينا الموافقة على إقامة الملتقى حتى قفزت فكرة هذا الكتاب إلى ذهنى، فعرضتها على زملائى أعضاء لجنة القصة ليكون من بين مطبوعات الملتقى، فقوبل الاقتراح من الأعضاء بتأييد حار، لدرجة أننا أمضينا تسعين فى المائة من جلسات اللجنة منذ منتصف الموسم الماضى فى تقليب وجداننا الجماعى نستروح تلك الأيام التى قرأنا فيها تلك القصص حين صدورها. ليس بين الأعضاء من ليس له علاقة وجدانية عميقة جدًّا بقصة أو أكثر لكل كاتب من الكتَّاب على امتداد الأجيال القادمة، من يحيى حقى وسطوع عصر الواقعية الفنية إلى محمد المخزنجى وقد طُعِّمت الواقعية بأمصال حداثية.

الجميل حقًّا أننا قد جمع بيننا الافتتان بتلك القصص المذكورة آنفًا ها هنا، بل إن الكثيرين من الزملاء - ونحن نستعرض جماليات هذه القصص - أضافوا إلى ذائقتى إضاءات كانت قد خفتت فى ذاكرتى فإذا هى تضىء جوانب فنية عميقة فى هذه القصة أو تلك.

الأجمل أن اجتماعاتنا طوال نصف الموسم الماضى (٢٠٠٨- ٢٠٠٩) تحولت إلى جلسات للتذوق الفنى كأننا، من فرط ما يصيبنا من تهدج عاطفى فى أثناء أحاديثنا الحميمة عن شىء حميم، نتعبَّد فى محراب القصة القصيرة، كأننا نتلو صلوات وتعاويذ ونطلق البخور ابتهاجًا بما أحدثته القصص الجميلة فينا من وجع أو بهجة أو هزة أو فكرة، ما قدمته لنا من شخصيات إنسانية أصبحنا على علاقة بها، كأنهم ناس عاشرناهم وخالطناهم شعوريًا وماديًا، وما أضافته إلى أرصدتنا الخاصة من تجارب وخبرات حياتية كأننا عشناها بأنفسنا.

معنى ذلك أننا حين نصف هذه القصص بأنها من عيون القصة القصيرة المصرية لا نكون قد بالغنا أو خلعنا عليها ما ليست تستحقه من هذه التسمية. فأعضاء لجنة القصة ليسوا مجرد قراء، إنما هم - فضلاً عن كونهم كتَّابًا لامعين ولهم مكاناتهم المرموقة فى الأدب المصرى الراهن - قيمة تذوُّقية عالية لا يمكن التقليل من شأنها أو تجاهلها أو اتهامها بالتحيُّز أو فساد الذوق. أن نصف هذه القصة أو تلك بأنها من العيون، وهذا الكاتب أو ذاك بأنه من الأعيان، فذلك وصف وليس حكمًا نقديًّا. ولما كان الفن وجهات نظر ويعتمد على التذوُّق بالدرجة الأولى قبل أن ينشأ نقاد ودارسون، فمن حق المتذوق إذن أن يصف العمل الفنى بما قد تركه العمل الفنى فيه من تأثير شعورى، وما أضافه إليه من تجربة. إننا قد نعجب - كقراء - بقصة قد لا يعجب بها النقاد والدارسون. وقد تبقى القصة المرفوضة نقديًّا فى ذاكرة القارئ زمنًا طويلاً جدًّا فيما تتبخَّر آراء النقاد والدارسين من رأسه. ذلك أن الناقد والدارس يتعاملان مع قواعد ومقاييس ونظريات، أما القارئ فيتعامل مع الجوهر الإنسانى، سيما وإن كان ثمينًا.

حماستنا لإصدار هذا الكتاب كانت تزداد حرارة من جلسة إلى التى

تليها - وحسبما أتذكر الآن حرارة الحديث وإشعاعاته المتقابلة المتقاطعة أحيانًا أشعر بالندم على أننا لم نسجّل هذه الجلسات على أشرطة نحتفظ بها كمادة ثقافية تجدَّدت بها مهمات لجنة القصة. ولو فرّغناها على الورق لجاءت بدورها كتابًا مستقلاً فى التذوق الفنى تعاشقت فيه حوارات المذاهب والمدارس الفنية، وتقابلت حقب التاريخ الاجتماعى المصرى فى رؤى أعضاء تباينت وتباعدت فيهم فروق السن والخبرة والتجربة، من أستاذنا يوسف الشارونى أكبر الأعضاء سنًّا - خمسة وثمانون عامًا باسم الله ما شاء الله - إلى زميلتنا الرقيقة أختنا الصغيرة عزة بدر وهى أنشط الأعضاء جميعًا.

صرنا على يقين بأهمية صدور هذا الكتاب بصرف النظر عن أن يكون من مطبوعات الملتقى أو لا يكون. فليكن من مهمات لجنة القصة إصدار هذا الكتاب على وجه التحديد خدمةً وتكريسًا لفن القصة المصرية القصيرة وإنعاش ذاكرتها التاريخية والفنية. وعهدنا إلى زميلنا الدكتور حسين حمودة بالإشراف الكامل على هذا الكتاب تحريرًا وتنفيذًا. فوافق عن طيب خاطر.

إلا أن المناقشات المستفيضة أدت إلى هذا التوسع الذى لا نظنه قد حاد عن غرضنا أو تناقض معه. ثمة آراء كان لها وجاهتها رأت أن الأجيال الجديدة لا بد أن تكون ممثّلة فى هذا الكتاب ذى الدلالتين التاريخية والفنية وما لهما من مردود إيجابى على نفوس الشبان الذين ستنشر أعمالهم فى هذا الكتاب.

وقد خامرنا الشك أحيانًا فى جدوى هذا التوسُّع، وخوفنا من أن يقودنا التوسع إلى التنازل عن طموحنا الباحث عن القيمة فى مستوياتها العالية، فبدلاً من الانتخاب والتخيُّر الدقيق لنماذج منتقاة صمدت على طول الزمان وبقيت أصيلة حية، بدلاً من هذا سنضطر إلى الأريحية فى الاختيار نزولاً على مبدأ "التغطية" والتوسُّع. وفى نفس الوقت كنا على قناعة بأن الشبان لا بد أن يكون

لهم حضور فى هذا الكتاب. ذلك أن الملتقى الذى انشقت منه فكرة هذا الكتاب قد وضع فى خطته تمثيل الشباب وإتاحة أكبر فرصة ممكنة يحقِّقون فيها حضورهم الفعلى.. فلا معنى إذن لأن نحرمهم من التمثيل فى هذا الكتاب بذريعة أننا نحتفى بالنخبة، أو أننا نتوقف عند نماذج بعينها حققت حضورًا قويًّا وأمجادًا ملموسة، أو نختار دررًا شهد الزمان بأصالتها واجتمعت الذائقات على حبها واحترامها.

ثم إننى فكرت فلم يطل بى التفكير فى وسيلة تساعدنا على تنفيذ التزامنا بالمستوى الفنى اللائق بهذه المناسبة التاريخية، فسرعان ما أسعفتنى حقيقة ماثلة، تلك هى أننى، والدكتور حسين حمودة والدكتور بدوى وعدد آخر من الزملاء، قد تابعنا كل من كتب من الشبان المحدثين قصصًا أو روايات أو شعرًا. وإنى لمعجب بشبان كثيرين يكتبون القصة والأقصوصة والرواية والقصيدة. ومن حسن الحظ أن هؤلاء الشبان هم المطلوب تمثيلهم فى هذا الكتاب. ولكن قراءتنا - نحن الزملاء - لهم لا تعطينا الحق فى أن نختار نيابة عنهم قصصًا نزعم أنها أفضل ما كتبوا، سيما والمقاييس الفنية التى يؤمن بعضنا بها قد تكون غير ذات أهمية فى نظر الكثيرين من الشبان.

ثمة آراء أشارت إلى أننا وقد تخيَّرنا القصص التى أعجبتنا واتفقنا على قيمتها بالنسبة إلى الكتَّاب الراحلين فإن الكتَّاب الباقين على قيد الحياة - متَّعكم الله بالصحة وطول العمر - يجب أن يكون لهم رأى فى القصص التى سنختارها من نتاجهم. فإن أقروا اختيارنا كان بها، وإن امتعضوا وقالوا إنهم كتبوا ما هو أعمق وأحكم وأنضج تركنا لهم مهمة الاختيار. وهكذا أخذنا بهذا المسلك مع الكتَّاب جميعًا، وبخاصة كتابنا الشبان حديثى العهد بالنشر. طلبنا من كل كاتب أن يتخيَّر من قصصه قصة يرى أنها تمثله فينا وقد كان.

والرأى عندى أن الدكتور حسين حمودة قد أحسن صنعًا حينما أعفانا من حرج الترتيب فى هذا الكتاب. كان ذلك مأزقًا وإشكالية تستعصى على الحل. فمعظم الكتَّاب فى جميع الأجيال يرون أنهم يجب أن يكونوا فى المقدمة بين المتميزين، بل والأكثر تميزًا بصرف النظر عن واقع الحال، وعما إذا كان من الممكن أن يكون الآخر أحق منه بهذه المكانة على جميع الأوجه. وكان سهلاً أن نرتبهم حسب الأجيال، ولكن الدكتور حمودة اعتمد الترتيب الألفبائى ثم شرح مبرراته فى كلمته المنشورة بجوارنا. صرنا بإزاء خلطة مصرية، المدارس والمذاهب الفنية والرؤى المختلفة وأساليب التعبير المتنوعة ومذاق عصور متعددة، كل ذلك اختلط بعضه ببعض دون أن يتنافر. إن القارئ قد يرهقه افتقاد الهارمونية التى تؤلف بين الأصوات فى فلك النغم، ولكنه لن يلبث حتى تستغرقه الإثارة فى تكسير الحواجز بين الأجيال، وتقديم الصغير على الكبير.

ولا بد من الإشارة إلى أننا فى البداية توجَّسنا من تضخُّم عدد القصص إلى حجم يصعب أن يحتمله كتاب من المفترض أن سيتداوله القراء. فإذا بالدكتور عماد أبو غازى أشد حماسة منا للكتاب، قدم لنا دعمًا يستحق التنويه بالشكر والتقدير. إنه صاحب الاقتراح بأن يضم الكتاب أكثر من مائة قصة لمائة كاتب من مختلف الأجيال، وأن يصدر فى ثلاثة أجزاء.

نرجو أن نكون قد قمنا بعمل على شىء من القيمة والأهمية. تحياتنا لكم جميعًا.

وسلام عليكم.

خيرى شلبى

١٧- ١٠- ٢٠٠٩

المعادى- شارع النصر

هذه المختارات.. هذا البستان

حسين حمودة

(١)

تضم هذه المختارات "من عيون القصة المصرية" قصصًا تجتاز رحلة طويلة على مستويات: الزمن، والتناولات، والتوجهات الجمالية، جميعًا. على مستوى الزمن تقطع القصص مسارًا يمتدُّ فيما بين العقد الثانى من القرن الماضى وهذا العقد من هذا القرن. وعلى مستوى التناولات تعبِّر هذه القصص عن أهم الانشغالات التى اهتم بها كُتَّاب القصة المصرية خلال فترة ممتدة، متأثرين بما طرح فيها من قضايا وتساؤلات وهموم اتصلت بتغيرات لا حصر لها، تتعلّق بوضع الإنسان فى واقع متعيِّن، محدَّد، وربما محدود، لكنه موصول بالوضع الإنسانى كله. وعلى مستوى التناولات الجمالية تجسد هذه القصص الانتقالات والنقلات الأساسية فى تطوُّر فن القصة القصيرة المصرية، منذ بداياتها الفنية الناضجة، مع تجربة محمد تيمور (صاحب القصة الأولى، تاريخيًّا، فى هذه المختارات)، مرورًا ببعض نتاج "المدرسة الحديثة"، ثم بما ارتبط بـ"الاجتهادات" و"القفزات" الفنية التى اقترنت بتيارات وبأسماء مثّلت علامات كبرى، باتت معروفة، فى تاريخ الفن القصصى المصرى.

لكن، مع ذلك كله، لا تقدم هذه المختارات "رصدًا" أو "مسحًا" لكل التجارب المهمة فى تلك المساحة الزمنية والفنية الرحبة، إنها تتوقف ـ فحسب ـ عند ما تصورنا أنه يمثّل أعمالاً أساسية على سبيل تنامى الفن القصصى فى مصر، وعلى سبيل التعبير عن تجاربه المتنوعة. وبذلك فقد حضرت فى هذه

المختارات "أسماء"، وحضرت "نصوص قصصية"، وغابت - بالطبع - أسماء ونصوص أخرى، نأمل أن نستكملها فى هذه "العيون" التى نتطلّع إلى أن تصبح "سلسلة" سنوية تصدرها "لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة"، بحيث يضاف إليها، كل سنة، ما يمكن أن يستدرك النقص القائم فى السنة الماضية، أو ما يمكن أن يمثّل أهم إصدارات نتاج سنة جديدة فى الإبداع القصصى المصرى الذى لا يتوقّف عن النمو والمغامرة والتجدُّد. وعلى أية حال، فمع الغياب الماثل فى هذا الكتاب، فإن ما حضر ومن حضر يكفيان لإلقاء نظرة شاملة وسريعة، لكن لعلها كافية، على مسيرة هذا الفن الأدبى الثرى الذى تنامت، وترامت، تجاربه فى الأدب المصرى والعربى الحديث فيما بعد تلك المراحل المتتالية، المتعارفة، من الترجمة ثم التقليد ثم التأليف، إلى أن بلغ ذلك الازدهار الذى نشهده الآن.

(٢)

لا نستطيع، ولا يستطيع أحد، الزعم بأن هذه "المختارات" تمثّل أفضل ما خطّ كُتّابها وكاتباتها. ففضلاً عن كون فكرة أن هناك قصة واحدة يمكن أن تمثّل كاتبًا أو كاتبة فكرة مواجَهة دائمًا بالجدال والمناقشة، وربما بالاعتراض، وأن هناك - دائمًا - إمكانًا لوجود عدد كبير أو قليل من النصوص القصصية لدى كل كاتب أو كاتبة تستحق "مجتمعة" أن تمثّل تجربته أو تجربتها.. فضلاً عن ذلك فإن اختيار هذه القصص، فى هذا الكتاب، تأثر - فى غير حالة - بحيز الوقت الذى أتيح للقراءة والمفاضلة، وارتبط - فى غير حالة أيضًا - بمشاركة بعض الكتاب والكاتبات أنفسهم/ أنفسهن فى تسمية القصة التى يرونها أكثر قدرة على التعبير عن عالمهم/ عالمهن الفنى. وعلى ذلك فالمأمول أن

ُتقرأ هذه القصص بوصفها محض "تمثيلات" مهمة من تجارب أصحابها الإبداعية، لا اختزالاً لهذه التجارب، ولا تعبيرًا "نموذجيًا"، كافيًا ونهائيًّاء عن ملامحها ومعالمها جميعًا.

(٣)

سيتجول قارئ هذه القصص فى بستانها الكبير ما شاء له التجوال. لن ترشده "لافتات" معلّقة تصنّف أشجار البستان وأزهاره فتضعها فى "ترتيب" تاريخى أو فنى، أو ترسم له دروبًا وممرات فتحدّد له الحركة عبر "خطوط سير" مفروضة سلفًا، أو تنصب من ذاتها مرشدًا أو دليلاً يقود تجواله، وربما يوجهه، فى وجهات بعينها. سيكون القارئ نفسه - بعبارة أخرى، وباختصار - هو مرشد ذاته ودليلها. لكن القارئ، مع ذلك، لن يجد نفسه - فيما نتوقع ونأمل - متخبطًا فى أرجاء هذه المساحة الكبيرة المتنوّعة، ولن تتحوّل جنبات هذا البستان - فيما نرجو - إلى "متاهة" مربكة؛ فثمة ترتيب "ألفبائى" لأسماء كتّاب هذه القصص وكاتباتها، يمكن أن يقدّم للقارئ العون الأكبر فى "نزهته الحرة" الطويلة، وهذا الترتيب يتلافى - فيما نتصور - كل الثغرات والهوات المفتوحة، وربما أيضًا العثرات القائمة، فى سبيل كل ترتيب آخر، زمنى أو فنى.

وقد آثرنا هذا الترتيب الألفبائى لأسباب شتى؛ فمجموعة من القصص فى هذا الكتاب ليست منشورة، بعد، فى أى مكان آخر (إذ هى جزء من مجموعات قصصية قيد الصدور) بما يجعلها لا تندرج فى أى ترتيب زمنى ممكن. وكثرة من قصص هذا الكتاب نُشِرَت، فى دوريات أو فى مجموعات، متزامنة أو شبه متزامنة، بما يجعل أى ترتيب زمنى لها مواجهًا بمشكلات شتى. ولعل هاتين الملاحظتين، وحدهما، تغلقان الباب أمام إمكان وجود ترتيب زمنى دقيق للقصص اعتمادًا على تواريخ نشرها.

سيقول قائل: كان من الممكن الاعتماد على الترتيب التاريخى للكُتَّاب والكاتبات، من الأقدم إلى الأحدث، اعتمادًا على تواريخ نشر قصصهم الأولى (وهى فى الأغلب قصص أخرى غير تلك التى اخترناها فى هذا الكتاب). وقد قمنا بالفعل باختبار هذا الترتيب واكتشفنا أن الاعتماد على ترتيب تواريخ نشر القصص الأولى للكُتَّاب والكاتبات، كمدخل لترتيبهم، هم أنفسهم، ترتيبًا تاريخيًّا، لا يمكن تحقيقه بشكل دقيق تمامًا (باستثناء عدد من القصص الأولى لبعض الكتاب، التى نشرت فى العقود الأولى من القرن الماضى)، إذ إن تواريخ نشر تلك القصص الأولى للكُتَّاب والكاتبات، فى أية "ببليوجرافيا" متاحة، يجانبها الصواب فى غير حالة (وقد تفحَّصنا مدى دقة هذه التواريخ وتوصلنا - للأسف - إلى هذا الحكم).

سيقول قائل آخر: كان من الممكن اعتماد تصنيف "فنى" ما، ولو كان "أوَّليًّا"، للكُتَّاب والكاتبات أو لقصصهم ولقصصهن. وهذا رأى أثبت تاريخ القصة القصيرة نفسه، وتاريخ الأدب والفن بوجه عام، ما ينطوى عليه من تعسُّف. فمهما تقاربت تجارب الكتاب، على مستوى من المستويات، فى بعض أعمالهم، فإنها يمكن أن تتباعد على مستويات أخرى فى أعمال أخرى لهم. ومهما التقت عوالم بعض الكتاب، من وجهة ما، فإنها يمكن أن تفترق فى وجهات مغايرة. وعلى ذلك، فالظواهر "الجماعية" الإبداعية التى برزت فى تاريخ القصة المصرية، من مثل تجربة "المدرسة الحديثة" فى عشرينيات القرن الماضى، أو تجربة "كتاب الستينيات" فى القرن نفسه، أو ما سُمِّىَ "الحساسية الجديدة".. إلخ، لم تتحوَّل أبدًا - فيما نرى - إلى ما يشبه مفهوم "الثريا"، وظلَّ كلُّ كاتب - ينتمى، بشكل أو بآخر، إلى تلك الظواهر الفنية - نسيج وحده، متفردًا بتجربته، حتى وإن تقاطع عالمه الفنى - أحيانًا أو غالبًا - مع عوالم مبدعين آخرين.

الترتيب الألفبائى الذى اخترناه سيكون، إذن، أكثر دقة من كل ترتيب آخر، وسينفى هذا الترتيب - فيما نتطلّع - "التخبُّط" بين مساحات هذا البستان الفسيح واتجاهاته، إذ ستكون أسماء الكُتَّاب والكاتبات أشبه بـ"علامات" إرشادية، أو ببطاقات صغيرة، لكنها عظيمة الشأن، فهذه الأسماء تقدم مفاتيح التجوال بين هذه القصص والحركة بين تجاربها المتنوعة. وسوف يرتبط بهذه الأسماء، فى أحيان كثيرة، "هوامش" توضيحية حول بعض القصص المختارة أو حول بعض أصحابها أو حولهما معًا، وسوف تبين هذه الهوامش - فى حالةٍ - تواريخ نشر بعض القصص الأولى للكُتَّاب والكاتبات بما يضعهم/ يضعهن فى السياق الزمنى الخاص بهم وبهن (وهى تواريخ "تقريبية"، إذ إن هناك، دائمًا، "قصصًا أولى" أخرى أقدم من تلك التى توصّلت إليها "الببليوجرافيات" المطروحة، كما أشرنا)، أو سوف تشير هذه الهوامش - فى حالة ثانية - إلى زمن نشر القصة المختارة، أو سوف تكشف - فى حالة ثالثة - عن الاهتمامات "القصصية" - لا الروائية - فى نتاج بعض الكُتَّاب والكاتبات، فتشير إلى بعض مجموعاتهم القصصية المنشورة. والتباين الماثل بين توجُّهات تلك "الحالات" فى هوامش الكتاب يرتبط بما تصورناه، خطأ أو صوابًا، من أهمية حراك "مركز الثقل" فى "المعلومة" التى يتضمَّنها الهامش: حول القصة المختارة، أو حول زمن أو مكان نشرها، أو حول الاهتمامات القصصية لكاتبها/ كاتبتها، بما يساعد على استدعاء السياق المناسب الذى يمكن أن توضع كل قصة فيه. وقد حضرت هذه الهوامش مع قصص عدد من المبدعين وغابت عن قصص عدد آخر ممن لا تزال تجاربهم تتنامى، أحيانًا موزعة بين الفن القصصى والفن الروائى، وأحيانًا مخلصة لفن القصة وحده. وعلى أية حال، فنحن نأمل أن تكتمل هذه الهوامش التوضيحية للقصاصين والقصاصات جميعًا فى الطبعة القادمة من هذا الكتاب.

وقد استعنّا فى إعداد هذه الهوامش جميعًا بمصادر كانت - مع مجموعات الكتاب والكاتبات - جمة الفائدة: "ببليوجرافيا القصة المصرية القصيرة" التى أعدها الدكتور الراحل سيد حامد النساج (إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠)، "قاموس الأدب العربى الحديث" من إعداد وتحرير الدكتور حمدى السكوت (إصدار دار الشروق بالقاهرة عام ٢٠٠٧)، "ببليوجرافيا القصة القصيرة المعاصرة فى مصر (١٩٦٧ - ١٩٨٤) من إعداد الدكتور مراد عبد الرحمن مبروك (إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٤)، موقع البيانات الذى شيَّده "اتحاد الكتاب" بمصر على شبكة الإنترنت، كتاب "القصة القصيرة: دراسة ومختارات" للدكتور الطاهر مكى (إصدار دار المعارف بالقاهرة) - وقد أخذنا عن هذا الكتاب بعض قصص لهذه المختارات - السير الذاتية المتاحة عن بعض الكتاب بالمجلس الأعلى للثقافة، فضلاً عن مواقع عدة بشبكة الإنترنت باتت تهتم اهتمامًا محمودًا بفن القصة القصيرة.

(٤)

ما من "كلام نقدى" يمكن أن يقال فى هذا السياق الذى يسمح فحسب بـ"الاستمتاع" بهذا العدد الكبير من القصص، فى هذه المساحة المترامية. وما من "توجيه" يمكن أن يسوقه أحد بشأن كيفية أو كيفيات تلقى ثمار النتاج الوافر فى هذا البستان الكبير. هذه قصص تمثل، فى البدء وفى الختام، تجارب أصحابها وصاحباتها، وإن كانت - من منظور ما - يمكن أن تومئ إلى أهم القسمات فى تطور القصة المصرية، مذ كانت فنًّا وليدًا يحبو، موزعًا بين وجهتين أساسيتين (ضمن وجهات أخرى فرعية): التطلُّع، من جهة، إلى ما يساند

أو يغذّى هذا الفن الجديد من جماليات وافدة، وربما جاهزة، مستمدة من الميراث القصصى الغربى.. والطموح، من جهة أخرى، إلى تحقيق رغبة "الانفطام" عن هذا الميراث، والاتصال بمنابع سردية محلية فى الموروث العربى، "الرسمى" و"الشعبى" معًا، إلى أن استوت القصة المصرية فنًّا مكتملاً قادرًا على أن يستقل بملامحه وقسماته.

وبجانب "المتعة" التى نراهن - رهانًا أساسيًّا - على أن تقدمها هذه القصص لقرائها وقارئاتها، فإننا نتصور أن من الممكن لكل دارس، ولكل قارئ، أن يتلمَّس فى هذا العدد الكبير من القصص، بهذا الكتاب، المعالم الأساسية لأغلب القضايا الفنية التى أحاطت بتطوُّر القصة المصرية القصيرة: العلاقة بين تقنيات الفن القصصى الحديث، الغربى، وجماليات الموروث العربى القديم، بما فى ذلك جماليات "الحكاية الشعبية" (ولنستعِد معًا قصة محمود طاهر لاشين بهذه المختارات).. محاولات التنظير - أو "التقعيد" لفن القصة القصيرة، التى كانت قد بدأت فى التراث الغربى - ربما منذ محاولة إدجار آلن بو - ثم "انتقلت" إلينا على مستوى ما، وبشكل ما (حول "العقدة" و"الحل" و"لحظة التنوير" و"وحدة الانطباع".. وما إلى ذلك)، وعلاقة هذه المحاولات بالتحقُّقات الإبداعية التى ارتابت فى التقعيد وفى التنظير، اختبرتهما وتمرَّدت عليهما، محقّة فى اختبارها وفى تمردها معًا.. قضية "التوحُّد" التى ألح عليها بعض النقاد، هنا وهناك، كمكوّن ثابت فى تناولات القصة القصيرة، ثم فكرة "الجماعة المغمورة" التى ألح عليها نقاد آخرون، هناك وهنا، وعلاقتهما بفن ظل يتناول دائمًا، فيما يتناول، العلاقة القديمة المتجدِّدة، متعدِّدة الأبعاد، بين الفرد والجماعة.. التقنيات والأساليب السردية التى قطعت شوطًا طويلاً، تخلَّصت خلاله القصة المصرية من قيود "البلاغة" المتوارثة وبلورت - عبر مغامرات متنوِّعة - صياغات أسلوبية جديدة.. تغيُّرات وتغايرات التناولات القصصية التى تحركت

عبر رؤى متعددة، من الاهتمامات الرومانتيكية، و"الواقعية"، إلى الاحتفاء التحليلي، إلى التجسيد "الأمثولي"، إلى الجنوح العجائبي والفانتازي.. إلخ.. الإشكالات التي أحاطت بقضايا استخدام اللغة في القصة القصيرة، وحدود التلاقي أو التباعد أو التمثُّل أو التفاعل بين العامي والفصيح فيها، على مستوى السرد وحوارات الشخصيات.. المساحات الهائلة التي يمكن أن يتداخل خلالها الفن القصصي القصير مع فنون وأنواع إبداعية أخرى، أدبية وغير أدبية، يراوح فيها الصوت السردي بين النزوع القصصي القصير والنزوع الروائي، أو يتمثل فيها لغة الشعر، وطرائق السيناريو، والعلاقات البصرية في السرد السينمائي والتشكيلي.. إلى آخر هذه القضايا التي تجعل هذه المختارات، لمن يشاء، "منجمًا" يكشف مسار الفن القصصي المصري، ويفصح عن كثير من قضاياه الجمالية، عبر حوالى تسعة عقود من الزمن.

(٥)

ليس هناك شكر يكفي للتعبير عن الامتنان لمن يستحقونه. ورغم أني، هنا، أقدِّم لعمل جماعي شارك فيه أعضاء لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة (وهذا الكتاب، بمعنى من المعاني، ثمرة جهد لهذه اللجنة: مقرِّرها الأستاذ خيري شلبي، وأعضاؤها: الأستاذ إبراهيم أصلان - الأستاذ إبراهيم عبد المجيد - الأستاذة إقبال بركة - الدكتور سامي سليمان - الدكتور عبدالحميد شيحة - الأستاذ الراحل: عبد العال الحمامصي - الدكتورة عزة بدر - الأستاذ محمد أبوالمعاطي أبو النجا - الدكتور محمد بدوي - الأستاذ محمد جلال - الأستاذة هالة البدري - الأستاذ يوسف الشاروني - الأستاذ يوسف القعيد، وأمينة اللجنة: الأستاذة رشا على محمد)، فإني أشكرهم جميعًا، وأخص منهم - بوجه خاص -

من ساعد فى "جمع" أو "اختيار" بعض هذه القصص: الأستاذ خيرى شلبى (ا لذى جهّز للكتاب مجموعة مختارة من هذه القصص)، والأستاذة هالة البدرى (التى أتاحت، بكرم، مكتبتها العامرة وأسهمت فى اختيار بعض القصص)، والدكتور سامى سليمان (الذى زوّد هذا الكتاب ببعض المراجع الأساسية). كذلك الشكر موصول للأستاذ مصطفى الحسينى (الذى قام بالبحث عن بعض القصص فى دار الكتب المصرية)، وللأستاذ وائل حسين (الذى أمدّنا بعدد من السير الذاتية لبعض الكتاب والكاتبات)، وللروائى والناشر محمد هاشم (الذى زودنا ببعض القصص)، وللشاعر شعبان يوسف (الذى لم يبخل ببعض المعلومات)، وللأستاذ محمود مراد والأستاذة زينب فاروق (اللذين قاما بـ"تجهيز" الكتاب للطباعة)، وللشاعرة آمال الديب (التى قامت بجهد مضنٍ ومخلص فى "التدقيق" اللغوى لنصوص قصص الكتاب جميعًا، كما قدّمت مساعدة كريمة للعثور على بعض هذه القصص بمكتبتها ومكتبات صديقاتها). والشكر، مع هذا كله، قبله وبعده، للأستاذ على أبو شادى أمين المجلس الأعلى للثقافة، وللدكتور عماد أبوغازى المشرف العام على الشعب واللجان بالمجلس، اللذين قدما اقتراحات جليلة الفائدة بشأن ترتيب أسماء القصاصين والقصاصات فى هذا الكتاب، وذلّلا كل الصعاب من إجل إصداره.

من عيون القصة المصرية

الكُتاب والكاتبات

من حرف الألف الى حرف السين

شاب وفتاة

آمال الميرغني(*)

بدأ ذلك كله فى ظهر يوم قائظ فى أول الصيف، حين استدرجهما حلمهما الذى تأجل طويلاً بأن يكونا وحدهما لبعض الوقت. كانت هى قد دبرت أمر المفتاح منذ وقت طويل، ولكنهما كانا كلما التقيا يؤجلان ذهابهما، حتى أتى ذلك اليوم الذى حسم فيه القيظ مماطلتهما، جاعلاً الاحتماء من لهيب الشمس تحت أى سقف بمثابة إنقاذ لا يحتمل التأجيل.

لم تستطع أن تتذكر بسهولة كل التفاصيل المتعلقة بموقع شقة أخيها الذى هاجر إلى الخارج منذ سنوات، وكانت حينذاك ما تزال طفلة. لكنها بعد عدة جولات خاطئة بالشوارع المجاورة، وجدت نفسها بجوار البناء. وبينما تجتاز مدخله، بدت لها أعمدته الوردية وبلاطاته الكبيرة أليفة وحميمة.

تسللا تباعًا، محاذرين الالتقاء بسكان العمارة. وسيطرا بعناء شديد على رعشة أيديهما وهى تتبادل المفتاح، إذ كانا راغبين فى أن ينفتح لهما ذلك الباب بأقصى ما يمكن من الهدوء والسرعة.

كانت الشقة المهجورة منذ عدة أعوام فى حال بائسة. غارقة تحت طبقات من الغبار وخيام العنكبوت. والأسوأ من ذلك، هو ما اكتشفاه منذ الدقائق الأولى، وهو أنها مقطوع عنها الماء والكهرباء. لكنها بالطبع كانت كافية

(*) آمال الميرغنى، من مجموعاتها القصصية: (جبل وبحر ووردة)، على نفقة الكاتبة، القاهرة، ١٩٩٨، (دميتان فى ليلة باردة)، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٧.

لتحقيق حلمهما. جلسا على أريكة الصالون اليابسة بعد أن رفعا عنها الملاءة القديمة التى صارت بلون الرماد. وراحا يستنشقان الروائح الراكدة فى الشقة، وانتابهما إحساس غائر بالوحشة. لكن أيديهما التى لم تكف لحظة عن التجاذب والتماسك والتماس العون، فتحت الطريق أمامهما، فتخلصا من الأحذية التى كانت أقدامهما تتصهر داخلها، وغابا فى عناق صاعق كالمفاجأة.

بعد قليل، صعد شخصان السلم وراحا يتحدثان بحدة عن أمر ما، فاضطربا وبدت لهما الأريكة التى كانت فى مواجهة الباب غير آمنة، فبحثا عن غرفة النوم.

كان حبهما الذى يقترب من نهاية عامه الثانى، قد نضج وسط ضجيج الأرصفة وزحامها. بين الحدائق والملاهى ودور السينما، حيث كانا يختلسان اللمسات والقبلات كلما أمكنهما ذلك فى تلك الزوايا والأركان التى نادرًا ما تخلو من البشر فى هذا البلد المزدحم. وكانا يقولان أن ما أمضياه معًا، يبدو لهما عمرًا طويلاً أضيف إلى عمرهما السابق. وحين مضت بهما السيارة، فى ذلك اليوم، فى الطريق إلى الشقة، تملكهما شعور عميق بأنهما يتأهبان بحبهما لغوص أعمق فى هذه الحياة. وكان ذلك مفرحًا ومخيفًا فى آن.

جلسا على الفراش فى غرفة النوم، التى كانت مكدسة بالصناديق التى حوت مكتبة أخيها وأدوات مطبخه، إلى جانب بعض الأجهزة القديمة وعددًا من السجاجيد المطوية، وبدا الهواء لبضع دقائق أثقل من أن تمتصه رئتى مخلوق بعد أن نفثت فيه هذه الأشياء جميعًا روائح هجرانها الطويل. وكانت النافذة الوحيدة مغلقة بإحكام وقد غطى خصاصها بأكمله بالأقمشة، ومع ذلك فلقد كانت أكوام الغبار عصية على الفهم، حتى إنهما اضطرا لأن يجرفانها من فوق الفراش بجاروف الأرضية. لكن ذلك كله قد جعلها أشبه بأحد المخازن النائية

المهجورة، وأسبغ عليها حالة من العزلة الآمنة، فدخلا فيها إلى عالمهما الجديد كرجل وامرأة. ثم ضحكا من نفسهما فحين يكون لهما فى المستقبل غرفة نوم حقيقية، كم ستصبح ذكرى مرتهما الأولى هنا مثيرة لتندرهما.

قالت: ولكنها ستكون عزيزة علينا.

فسأل: ترى حين يصبح لنا بيتًا، سنأتى إليها من حين لآخر لنتذكر؟

ولم تجب، فقد نامت من فورها مخدرة بالإرهاق، وشدة الحر، وسرعان ما لحق بها.

حين استيقظا، كان الظلام فى غرفة النوم يزحف فيخفى مساحات من جسديهما وأجزاء من وجهيهما، فاضطر للخروج إلى الصالة ليرى ساعته على هدى الضوء الشحيح بها. كانت تقترب من السابعة. وحينما عاد، كانت تتقلب فى الفراش. قالت بصوت ناعس:

- حلقى جاف، مت من العطش.

فقال وهو يحتضنها وينهضها: كلها دقائق ثم تشربين.

وأعقب هازًا إياها بمرح: ولكن اصحى أولاً.

عدلا ثيابهما، وبذلا كل ما وسعهما فى نفض الغبار عنها، ومحو ما علق منه برأسيهما وأهدابهما. وبعد أن أعادا كل ما لمساه من أشياء إلى ما كان عليه، تحسسا طريقهما إلى الباب بين أشباح الجدران وقطع الأثاث.

وعند الباب لم يجدًا المفتاح. فتذكر أنه عند دخولهما أغلق به الباب وأنه وسط ارتباكه وضعه بجيبه. لكنه لم يجده بأى من جيوبه. فعادا يفتشان عنه فى الطريق المؤدى إلى غرفة النوم، ثم بحثا فوق الفراش وبين الوسائد، ولم

يكن هناك أيضًا. حاولا أولاً ترتيب أفكارهما ليتذكرا بدقة ما الذى حدث فور دخولهما. فتذكر أنه دخل الحمام، وتذكرت أنها سمعت من هناك رنين قطعة نقود، ولكنها أدركت الآن أنه رنين المفتاح. ذهبا إلى هناك وكان الظلام قد أطبق تمامًا، فمسحا البلاطات المتربة بأيديهما، ودسا أذرعهما فى المرحاض وسيطر عليهما الذعر.

مسحا بجنون كل قطعة أثاث بالبيت، وجثيا يمسحان الأرض فى غرفة النوم والصالة، وحتى فى المناطق التى لم يدخلاها فى الشقة واستنفدا خلال ذلك أعواد الثقاب القليلة المتبقية لديهما، ثم سقطا منهكين.

قال: ليس أمامنا غير الانتظار للغد. ولكن هل سيأتون ويبحثون عنك هنا؟

قالت شاردة: لا أظن، لن يخطر ببالهم أننى ما زلت أذكر هذا المكان.

ولما تحتم عليهما أن يقضيا الليل هنا، فقد راحا يقلبان فى تدبير الحجج والأعذار التى سيقولانها فى الغد لعائلتيهما، وكيف سيدعمانها، ومن الذى يمكنهما الاعتماد عليه من الأصدقاء حتى يكشفان سرهما له.

وهكذا قضيا ليلتهما الأولى بها، يضنيهما الجوع والظمأ، ويمرضهما الهواء الراكد والكوابيس.

فى اليوم التالى نهضا مع بداية الضوء، وعاودا البحث بحماسة جديدة على هدى ضوء النهار. قلبا حشية الفراش وكادا يمزقانها. نفضا كل الملاءات المعفرة التى كانت تغطى الأثاث، وحركا كل قطعة أثاث بحذر وعناء، وتقيآ أمعاءهما الخاوية وهما يتناوبان البحث فى المرحاض والبالوعة، وعادا إلى الباب. فانهارت على المقعد وقالت ذاهلة:

- إننا لن نجده أبدًا. لقد سقط فى المرحاض أو فى البالوعة أو الله يعلم ماذا ولن نجده أبدًا.

واستسلمت للبكاء. تلفت حوله حائرًا، ثم قال:

- ولكن لا بد أن هناك وسيلة أخرى.

وراح يبحث بين متعلقات البيت عما يمكن استخدامه فى فسخ الباب. لكنها لحقت به وسألته مضطربة:

- هل يمكنك أن تفعل ذلك بدون صوت؟

توقف ونظر إليها طويلاً، متتبعًا بخياله ذلك الضجيج الهائل الذى سيحدثه، والذى قد لا ينجح مع ذلك فى فتح الباب، ولكنه سينجح بالطبع فى جذب الجيران وتحلقهما عند الباب. لسوف يساعدونهما على الخروج، بلا شك، ولكنهم سيسمحون لأنفسهم بعد ذلك بالتصرف فيهما كيفما يشاءون. هناك احتمالات عديدة، وكل منها أسوأ من الآخر، حتى أنه لا يرغب فى التفكير بأى منها كأمر يمكنهما احتماله. كانت واقفة أمامه وسؤالها المرتجف ما زال عالقًا بشفتيها اليابستين المزرقتين، وعيناها الملتمعتان رعبًا تتلهّفان على إجابته، فأحس بالوهن يتملكه وارتمى على مقعد قريب.

بعد قليل قرّرا أن يتفقّدا النوافذ، آملين أن يجدًا خارجها ما يمكنهما التعلّق به، كمخاطرة لا مفر منها. ولكن كان عليهما أن ينتظرا الليل. فأمضيا بقية النهار ثملين بالنعاس الذى كان الطريقة الوحيدة للتغلب على ما يحسانه من تشوش ووهن. بينما كانت أصوات أقدام الجيران وأحاديثهم ونداءاتهم لا تنقطع عن السلم.

وحين هدأت الأصوات وتباعدت، نهضا، وراحا يديران مقابض النوافذ،

ويفتحانها عن شقات ضيقة تسمح لهما بأن ينظرا إلى ما حولها. تطلعا مرارًا، بلهفة أولاً، ثم بتدقيق وتأنٍّ، ليذعنا أخيرًا بأنه ليس ثمة شيء يمكنهما التعلق به. فعادا إلى الفراش، تعانقا، وأجهشا طويلاً حتى أسلمتهما الدموع للنوم. مستسلمين بنومهما للغوص فى ذلك المجهول الذى ينتظرهما.

وفى اليوم التالى صحيا عند المغرب، لكنهما لم يستعيدا صحوهما تمامًا. وفى الليل انتابتها رعشة وراحت تهذى، فأفاق وتخبط فى الظلام باحثًا عما يدفئها به. سحب الملاءات المتربة ووضعها فوقها، لكنها زادت من ارتعاشها، فانسلت من بينها مبتعدة إلى طرف الفراش، وتكوَّرت على نفسها وغاصت فى غيبوبتها.

فى الصباح ماءت قطة ملتاعة على السلم، وأغلق أحدهم نافذته بصخب، وطفا صوت بعيد لنداء بائع خضار، وعبر نفير واهن لسيارة بعيدة كأنما يمضى من الماضى إلى الماضى. وكانا يقطعان غيبوبتهما من وقت لآخر، فيهيمان بين الصالة والحمام وغرفة النوم، ثم يعودان إلى الباب، حيث استقرا أخيرًا بجواره وعيونهما شاخصة إليه.

بَدَد

ابتهال سالم(*)

صحوت - ناقصة نوم - أحتاج كوب شاى.

"أُف.. الحوض بشع.." الصحون مكومة فوق بعضها.. أمسكت كوبًا لأنظفه، تزحلق من يدى.. انكسر.

أدرت ظهرى للمطبخ.. فتحت التلفزيون، مر برنامج سخيف عن الأطفال تلاه فيلم قصير أسخف منه.

وقفت أمام مكتبى... أقلب الأوراق، من المفترض أن أكتب اليوم... ولكى أكتب لا بد من كوب شاى.

عدت إلى المطبخ، شمرت أكمامى، غسلت الصحون والأكواب، ولملمت الزجاج المتكسر.

أخيرًا... حصلت على كوب الشاى.. لكن يبدو أن مجهود التنظيف أصابنى بالجوع.

فتحت الثلاجة... الثلاجة خاوية إلا من قطعة جبن، بحثت عن الخبز، تذكرت أنى نسيت شراءه ليلة أمس.

من المفترض أن أكتب... حسنًا.. لكن فلأنزل أولاً لأحضر الخبز والسجائر وبعض لوازم البقالة.

(*) من مجموعاتها القصصية: (النورس)، (دنيا صغيرة)، (نخب اكتمال القمر)، (يوم عادى جدًا).

أدخلت جسدى فى دوران فستانى، انتعلت حذائى.

"أف.. السلم متعب".

رددت.. وأنا ألقى بجسدى على أول مقعد صادفنى بعد عودتى من السوق.

أعددت طبقًا سريعًا لسد جوعى، شربت بعده كوبًا آخر مضبوطًا من الشاى.

تمطعت "الآن... أجلس لأكتب"

يا ساتر... جلدى لزج.. رائحة عرقى تزعجنى، فلآخذ دشًا، ربما ينعشنى.

رن الهاتف

- آلو

- مش عارفة صوتى

- ....

- مش فاكرانى

فركت شعرى... الصوت ليس غريبًا، لكنى لا أتذكر صاحبته.

- رحتى فين؟

- أبدًا.. باحاول!

- معقولة تكونى نسيتى..

طاخ...

أغلقت السماعة فى وجهى.

نفخت غيظى فى المكان الضيق، خرجت إلى الشرفة، أتنسم هواء خريفيًّا.

الغسيل مرصوص على الحبال.

"ليس عندى رداء مكوى، أذهب به إلى عملى غدًا.

لملمت الغسيل، وعلى سخونة المكواة، تذكرت صاحبة الصوت.

أحيانًا أرى وجوهًا لا أتذكر أسماءها، وأوقاتًا العكس، حدثت صديقة لى ذات مرة عن ذلك الأمر، قالت:

– إن هذا يحدث لنا جميعًا.

علقت الرداء بعد كيه على الشماعة.

– يا الله.. كم الساعة الآن؟ كان من المفترض أن أكتب.

استجمعت نفسى... وجلست مستعدة للكتابة.

رن الهاتف

سقط القلم من يدى...

خفت أن أرد.

الطواف (*)

إبراهيم أصلان

فى البدء أخبرونى أن الأمر لن يتطلب مرانًا، علىَّ أن أعطى ظهرى لمصر وآخذ أول الطريق، بعد ذلك ستتوالى القرى واحدة إثر الأخرى فى دائرة كبيرة. وعندما أترك القرية الأخيرة ورائى وأكمل الدورة، سأجدنى بالضرورة حيث بدأت، ويسلمنى الطريق مرة أخرى إلى المدينة التى ستكون هذه المرة فى مواجهتى، كما أخبرونى أن علىَّ إذا ما شعرت بالخوف من الضياع بين الحقول، أسأل أقرب القرويين إلىَّ حتى يردنى إلى الطريق الصحيح، ولا سبيل الآن إلى نكران مساعدتهم لى، أنا الطواف البديل الذى يعمل على هذا الخط، ويقوم بتجربته للمرة الأولى.

السبيل

كانت قطعة أرض صغيرة ممهدة، وشجرة الجميز الكبيرة تلقى بظلالها على المصلى الملامس للمياه والسبيل الصغير تحت جذعها الكبير، والرجل يقف بجوارها، ولاحت الأزيار القصيرة المبتلة فوق المقاعد المصنوعة من الأسمنت. أوقفت الدراجة وهبطت من عليها وأسندتها إلى سور المصلى، وفتحت الحقيبة الجلدية وأخرجت رسالتى الوحيدة وقلت محدثًا الرجل:

(*) نشرت بمجموعة (بحيرة المساء)، ١٩٧١.
إبراهيم أصلان، من مواليد ١٩٣٥، من مجموعاته القصصية: (بحيرة المساء)، (يوسف والرداء)، (حكايات من فضل الله عثمان).

- حضرتك الشيخ عبد العزيز؟

كان هناك تحت الأغصان. قال:

- أهلاً وسهلاً.

قلت:

- أهلاً بك.

اقترب منى بجسمه الكبير وجلبابه النظيف:

- من أخبرك؟

- أخبرنى بأى شىء؟

- إننى الشيخ عبد العزيز.

- هناك فى البلدة.

مد يده وتناول الرسالة:

- من مصر.

- آه.

هز رأسه واتسعت ابتسامته، وابتعد عنى خطوات. خلع جلبابه ووقف أمامى عاريًا من كل شىء دون أن ينظر إلىَّ. طوى الجلباب بعد أن وضع الرسالة بداخله واتجه إلى سور المصلى الملامس للمياه وتخطاه وهو يستند عليه بيده الأخرى وهبط إلى الترعة وراح يخوض داخلها وقد رفع ذراعه التى تحمل الجلباب إلى أعلى. رأيت الماء وهو يعلو ركبتيه ويصل رويدًا إلى ما قبل كتفيه ثم وهو ينحسر ثانية عن جسده. تسلق الجانب الآخر ووقف أمامى وهو يعطينى ظهره

المبتل وارتدى جلبابه وراح ينحدر وينحرف بين الحقول حتى غاب عن عينى تمامًا. ابتسمت. لقد انتهت مهمتى إذن، صحيح إنه ما زال بينى وبين المدينة مشوار طويل للغاية، وأنا متعب. ولكن فى مقدورى الآن أن أستريح بعض الوقت. وفككت الحقيبة الجلدية من الدراجة المستندة إلى المصلى، وتخطيت السور وجلست على الحصيرة القديمة التى تغطى أرضها، وثنيت الحقيبة ووضعتها بين ظهرى وجدار السور، ورفعت رأسى ورأيت طرف مقود الدراجة قريبًا من يدى. وأخرجت علبة سجائرى من جيب سترتى وكذلك أوراقى المصلحية. وشعرت أننى أفضل حالاً. وفكرت أن فى مقدورى الآن أن أعد تقريرى، ورحت أقرأ: "اكتب ملخصًا صغيرًا عن رحلتك وحاول أن تجيب خلاله عن الأسئلة التالية: هل تأكدت من وصول الرسائل إلى أصحابها؟ هل اعترضك شىء فيما يختص بالعمل؟ هل لفت نظرك شىء فيما لا يختص بالعمل؟ ما هو مدى تقدير الجماهير وتعليقاتهم بخصوص الخدمات البريدية؟ هل ذهبت إلى قرية واحدة مرتين بدلاً من مرة واحدة، وهل ترتب على ذلك عدم مرورك على بعض القرى الأخرى؟ هل لديك ملاحظات خاصة؟" وانحدرت بجذعى قليلاً وأسندت رأسى على الحقيبة الجلدية الخالية، وراح صفير وابور الطحين المتقطع يتردد فى سمعى من بعيد.

التقرير

فى بداية الصيف أعطيت ظهرى للمدينة، أنا الطواف البديل، ورحت أتقدم بدراجتى متجهًا إلى القرية الأولى، كنت أفعل ذلك على الطريق الذى تحده المزارع من جهة، والترعة المنخفضة من جهة أخرى، وهو نفس الطريق الذى تفضلتم وعينتموه لى. وكانت حقيبة الرسائل الممتلئة التى تسلمتها مقيدة بشدة إلى المقود المعدنى الصلب ومرتكزة على غطاء العجلة الأمامية، والحق أن الطريق من المدينة إلى هذه القرية الأولى (وهو يعادل الطريق من القرية الأخيرة

إلى المدينة)، يبدو لى طويلاً جدًّا على الرغم من اتساعه ونعومته، بل أطول مما ينبغى، ومهما يكن من أمر فقد كنت أتقدم بقوة، وكان الهواء فى ذلك الزمن يأتى من خلفى ويدفعنى ويقلل من تعبى. وعندما لاحت القرية الأولى عبر الأشجار، صعدت بى الدراجة منحدرًا صغيرًا، وانتبهت فجأة إلى مجموعة من الصبايا عاريات فى مياه الترعة وراء شجيرات الخروع الخضراء التى تغطى الحافة المائلة، نظرن إلىَّ بعيونهن فى صمت، وانحدرت بى الدراجة ولم يعدن موجودات، هدأت من حركة الدراجة ثم أوقفتها واستندت بإحدى قدمىَّ إلى الأرض وفكرت أن أعود وألقى بنظرة أخرى، ولكنى واصلت طريقى، ثم رأيت جمعًا من الأولاد الصغار يحيطون بى ويضعون أيديهم على الدراجة ويقودوننى بينهم إلى قلب القرية، حيث وجدت عددًا من وجهائها فى انتظارى بينهم عامل التليفون وشيخ الخفراء، وفى هذه القرية الأولى أفسحوا لى مكانًا وفتحوا الحقيبة وهم حريصون على أن أرى ما يفعلون، وأخذوا ما يخص قريتهم، وأعادوا الباقى إلىَّ، وفى بقية القرى الأخرى كان نفس الشىء يحدث، كان الأولاد دائمًا فى انتظارى، وكذلك رجال القرية، إلا أننى لم أسمح لأحد أبدًا أن يفتح الحقيبة كما حدث فى القرية الأولى، بل كنت أحرص على أن أفعل ذلك بنفسى، رأيت أحدهم يحرث حقلاً، ورأيت اثنين يتحدثان بحدة على جانب من الطريق وكنت أستطيع أثناء ركوبى الدراجة أن أرى مدخل بيت أو آخر، وفى أثناء اتجاهى إلى إحدى القرى رأيت قرويًّا يركب حمارًا من الخلف وأمامه كومة هائلة من أعواد الذرة الجافة، كان يسد علىَّ الطريق، ولم يكن أمامى إلا أن أغادر الدراجة وأسير وراءه على قدمىَّ، رأيت الكثيرين، وتحدثت مع بعضهم فى شتى الموضوعات ولكنهم لم يتقدموا بأى شكوى، كما أنهم لم يفصحوا فى أحاديثهم العابرة إلىَّ عن اعتقادهم فى تقصير الخدمات البريدية، ومن قرية إلى قرية راح حمل حقيبتى يتضاءل، ولقد كان ذلك كفيلاً بأن

يخفّف من جهدى، إلا أن الهواء، بعد أن تقدمت فى طريقى الدائرى ء بدأ ينحرف عن ظهرى ليأتينى من جانبى، ولولا يقظتى لألقى بى فى حقل أو ترعة، وبعد أن قطعت منتصف الرحلة فوجئت به يأتينى من أمام، وبات علىَّ كلما تقدم بى الزمن أن أبذل جهودًا مضاعفة، وعندما وصلت إلى القرية الأخيرة كانت حقيبتى خالية إلا من رسالة واحدة، وقد أخبرنى أهل البلدة، وكذلك عامل التليفون وشيخ الخفراء، أننى سألتقى بصاحبها حيث ينتظرنى من زمن هناك عند أرضه، بجوار السبيل، وعندما وصل إلى هناك منذ فترة، قابلت الرجل الذى كان فى انتظارى، تأكدت من اسمه، وأعطيته الرسالة الوحيدة التى بقيت لدىَّ، وهكذا انتهت مهمتى.

العودة

عند الغروب، قمت على حركة خفيفة، رفعت جذعى، أعدت الأوراق المصلحية وعلبة سجائرى إلى جيبى، وحملت الحقيقة ووقفت، كان كهلاً يتكئ على عصا ويعصب إحدى عينيه بخرقة بالية، يقف بعيدًا عنى فى غبشة المساء، قيدت الحقيبة الخالية إلى مقود الدراجة، ومشيت بصعوبة إلى سور المصلى الداخلى وتخطيته، ووقفت على حافة الترعة، وفككت أزرار سروالى وتبوّلت، عدت مرة أخرى وتخطيت السور واعتليت الدراجة وقد شعرت بأننى أفضل حالاً، وسمعت الصوت الخافت يأتينى من هناك:

– أهلا وسهلاً.

التفت إليه، كان يقف فى الناحية الأخرى بجوار الجذع الكبير، ورأيت وجهه الملوح القديم تحت الأغصان.

– أهلاً بك يا حاج.

- أليست معك رسالة لى؟

قلت:

- لا.. لم تعد معى رسائل.

اتسعت عينه الوحيدة الوادعة:

- ألم تصل رسالة باسم الشيخ عبد العزيز؟

- الشيخ عبد العزيز؟

- نعم.. لقد طلبت منهم فى البلدة أن يخبروك.

- ولكن.. أين كنت؟

- كنت هنا طول الوقت، ولكنى لم أشأ أن أوقظك.

ظللت أتطلع إليه. ولاحظت شعيرات حاجبه الكث التى كانت عينه الواضحة تتطلع من تحتها، هززت رأسى ومسحت وجهى بكفى، هز رأسه بدوره وتراجع إلى الوراء بهدوء وهو يتكئ على عصاه، دار حول جذع الشجرة الكبيرة وذهب عنى فى شجيرات الخروع ذات الأوراق العريضة الداكنة، رفعت ساقى الأخرى وانحرفت بى الدراجة، وغادرت قطعة الأرض الصغيرة الممهَّدة، وراحت قدماى المجهدتان تتحركان فى وهن والريح العنيفة تدفعنى إلى الوراء، وراح الوقت يمضى وضاق الطريق وازدادت وعورته، وكثر الظلام، وثقلت عيناى ولم يعد أمرى سهلاً، وتذكرت القرية الأولى، والأولاد الصغار، والصبايا العاريات فى ماء الترعة وعيونهن التى كانت تتطلع إلىَّ فى صمت.. أنا الطواف البديل الذى هدَّه الأعياء، وتقدمت به الأيام.

نار الغيرة

إبراهيم المصرى(*)

كانت الست "إلهام" تتأمل زوجها وهو يتكلم، والفرح يفعم قلبها، والعزة تملأ نفسها، والزهو العميق يخلع عليها حلة رائعة من جمال مطمئن أخاذ.

كانت تتمنى لو استطاعت أن تسدل قناعًا على وجه زوجها الملىء وعينيه السوداوين المتألقتين، وحلو حديثه، وسحر أناقته الذى كان مضرب الأمثال.

كنا تتمنّى لو استطاعت أن تسدل قناعًا على وجه زوجها فتحجب جماله الباهر عن أعين الحساد...

وجلست على مقعد بجواره، وطوّقته بذراعيها، وأمالت رأسها على كفه، ومضت تتأرجح فى بطء كالأطفال. وهى تمر بيدها على شعره وخديه، تتأمّل محياه الجميل تارة، وتختلس منه القبل تارة أخرى، وهو مستقر فى مكانه، هامد فى جلسته، ينظر إليها من خلال أهدابه المستسرة نظرة صابرة متضجرة متعبة.

هكذا كان يعيش رشدى "بك" منذ سبعة أشهر مع زوجته إلهام التى لم يعرفها طويلاً قبل الزواج، والتى خلبت لبه بأنوثتها الخالصة ودلالها الشرقى، فغض الطرف عن فقرها، واقترن بها رغم إرادة والديه.

(*) إبراهيم المصرى (١٩٠٠ - ١٩٧٩)، من مجموعاته القصصية: (خريف امرأة) ١٩٤٩، (نفوس عارية) ١٩٥١، (الغيرة) ١٩٥٦، (الأنثى الخالدة) ١٩٥٧، (الباب الذهبى) ١٩٦٣، (صراع مع الماضى) ١٩٦٧، (الكأس الأخيرة) ١٩٦٩، (أرواح ظامئة) ١٩٧٣، (الوجه والقناع) ١٩٧٣، (خبز الأقوياء) ١٩٧٣، (أغلال الجسد) ١٩٧٦.

وكانت إلهام وقد ذهب بلبِّها الفوز بشاب غنى وجميل، تحب زوجها إلى حد العبادة، وتغار عليه إلى حد الهوس والجنون..

كانت تحرص على راحته، وتتفانى فى خدمته. ولكن خوفها الشديد عليه كان يحيِّرها، وكان يعذِّبها، ويضرم فى صدرها نار غيرة طائشة آكلة.

كانت تغار عليه من كل نظرة وكل امرأة وكل صديق.

كانت ترقيه وتبخِّره، و"تسمى" عليه وتحرسه، وتتشد "العمل" الناجح الذى يشده إليها ويربطه.

كانت لا تزور السيدات الجميلات لكيلا تُزار. وكانت تحتال على زوجها، وتغريه بقربها، وتصرف عنه الأهل والأصدقاء، ثم تندس فى صميم فكره، وتراقب حركاته وسكناته وتعدُّ عليه كلماته، وتحاسبه على أبسط الهفوات يجسِّمها خيالها الملتهب الأنانى المريض.

كانت تستولى على نقوده ولا تعطيه منها إلا بقدر، خشية أن ينفقها فى الخارج كما تتوهَّم على الممثلات والراقصات.

كانت تتسلَّل إلى مخدعه فى الليل كاللص، وتنبش جيوبه، وتبعثر أوراقه، عساها أن تعثر على رسالة حب تفضحه، وتجرِّده أمامها من كل سلاح...

وكان إذا أسرف فى التأنُّق تجهَّمت واعتقدت أنه إنما يتجمل لسواها وإذا بدا ضاحك السن منشرح الصدر، عبست وتوهَّمت أن مصدر سعادته امرأة غيرها. وإذا بالغ فى التلطُّف مع صديقة لهما، كشرت له عن أنيابها وأحرجته. وإذا أعرب اتفاقًا عن إعجابه بصوت إحدى المطربات اتهمته بأنه يحبها، وإذا استهجن صوت أخرى قالت إنها حيلة منه لإخفاء علاقة بها، وإذا زين عروة سترته بزهرة قام فى نفسها أنه ذاهب ولا شك إلى موعد غرام...

كانت تريد أن يحيا لها وحدها، ويفكر فيها وحدها، ويتنفس لها وحدها. وكانت لفرط كبريائها وغرورها، تهوى فى نفس الوقت أن يبدو أمام الناس متأنقًا جميلاً، كى تفاخر به أترابها، على شرط أن يظل جامدًا متحفظًا مهيبًا، أشبه بدمية مؤدبة لا إحساس لها ولا شعور...

وحين كان يجمعهما البيت بعد عودة رشدى "بك" من الديوان، كانت إلهام تحس أن ملك الدنيا قد أصبح لها، فتنشر جناحيها على زوجها المسكين، وتطويه تحتهما. ولا تزال به تلهيه عن أفكاره، وتصرفه عن تأملاته، وتشغله عن مطالعاته، وتباعد بينه وبين العالم، حتى تضمحل قواه، وتذوب إرادته، ويستحيل إلى عاشق مفتون لا يعنيه من أمر الحياة سوى المرأة والكسل والهوى.

ولم تشعر إلهام على مر الأيام، أن قلبها يخدعها، وخوفها يغرِّر بها، وهواجس نفسها المضطربة لا تنفك تورطها فى أعمال وتصرفات مزرية بكرامتها وكرامة زوجها. لم تشعر أن حبها المستبد المقرون بغيرة حمقاء، يؤثر على مهل فى شخصية زوجها، ويبدل من جوهر هذه الشخصية شيئًا فشيئًا.

تحمل رشدى "بك" أول الأمر هذا الحب مغتبطا، ولكنه لم يلبث أن تبرم به...

أجهدته من امرأته عواطفها العنيفة، وانفعالاتها الشديدة، ونزواتها الطارئة، وقبلاتها الملهوفة المحمومة التى لا تنتهى.

أرهقته وساوسها، أضنته شكوكها، حاصرته غيرتها، ضيقت عليه الخناق وسدت فى وجهه السبل...

أحس أنه لم يتزوج لينعم بالحياة بل ليودعها، ولا ليستقبل الهدوء بل الفوضى، وبات يشعر أن زواجه أصبح قيدًا، وبيته أصبح سجنًا وامرأته جاسوسة عليه وسجانة.

وكان رشدى "بك" رجلاً طيبًا مسالمًا فلم يثر ولم يتمرد. لاطف امرأته، خاطبها بالحسنى. توسل إليها أن تكبح أهواءها، وتحكّم عقلها فى ميولها، وتخفف من وطأة حبها وغيرتها، فارتاعت إلهام وجزعت ثم استنكرت وثارت، واتهمت حبه بالفتور، وأخلاقه بالجمود، وراحت تبكى نفسها، وتندب حظها، وتشكو ضيعة الحب والوفاء فى هذا الزمن الغادر المشئوم.

ولما أعيته مداواتها، ذهب إلى أمها وقص عليها قصتها. فدهشت الأم واستغربت، ولم تفهم كيف يمكن أن تحبه ابنتها فيغضب، وتغار عليه فيستاء ويتبرم، فى حين يتمنى الرجال لو ظفروا بزوجة كإلهام، تعرف كيف تحب وتغار لأنها تعرف قدر الفضيلة ومعنى الشرف والوفاء...

وحار رشدى "بك" فى أمره، وضاق ذرعًا بحياته، وخشى وهو الرجل الهادئ الوديع أن يثور فيفقد سلام بيته، فأعاد الكرَّة على امرأته، وأجزل لها الود والنصح. ولكن إلهام لفرط ما انتابها من خوف وتملكها من جزع، أغرقت فى حبه بدل أن تتزن، وأسرفت فى الغيرة بدل أن تعتدل، وأرسلت نفسها على سجيتها، توكيدًا لسلطانها، ورغبة فى الاحتفاظ بالرجل الذى اعتقدت أنه على وشك أن يفلت منها.

عندئذ لم يطق رشدى "بك" احتمال الحب ولا احتمال الغيرة. أراد أن يتخلص، أن يتحرر، أن يخرج إلى الحياة، أن يرى أصدقاءه، أن يتصل بالناس، أن يلهو ويعبث، أن يمرح ويعيش.

وكان مثال الظرف والكياسة والأناقة والجمال، وكانت إلهام قد أحبته لكل هذا، وازدادت تشبثًا به وهى تراه محط أبصار النساء. فلما رأته ينصرف بغتة عنها، ويتبرم فجأة بحبها، ويبالغ فى التأنق والتجمل، ويخرج مرفوع الرأس شامخ الأنف متهللاً متحديًا إلى حيث يلهو ويمرح مع الأصدقاء والخلان، اضطرم

حبها، واتقدت هواجسها، وتضاعفت غيرتها، وبدأت عواطف الكمد والحنق تستأثر بها، وتنتشر فى نفسها، وتفسد أخلاقها وطباعها على الرغم منها.

وكانت حنونًا فأصبحت قاسية، ورقيقة فأصبحت غليظة، وباشة فأصبحت متجهمة، سريعة التأثر، سريعة الانفعال، عصبية متكبرة متغطرسة.

ولكن رشدى "بك" لم يكترث لها وأراد أن يؤدبها، أراد أن يلقى عليها درسًا. أراد أن يروضها لا أن يخدعها، فأطلق العنان لرغباته البريئة المحتجزة وشرع يحيا وفق هواه...

وطفق يمعن فى زيارة الأصدقاء، ويسهر فى الخارج مرة أو مرتين فى الأسبوع، ويقيم فى بيته الحفلات يدعو إليها نخبة مختارة من السيدات والرجال.

وخيل إليه أن امرأته لا بد أن تثوب إلى رشدها، وتقلع عن تهورها، وتصبح آخر الأمر إنسانًا اجتماعيًا عاقلاً. بيد أن عكس ما قدَّره هو الذى وقع.

توهمت إلهام أن زوجها لم يعد يحبها على الإطلاق، وأنه قد أفلت منها بالفعل. فازداد سخطها، واستفحلت غيرتها، وبدت مروعة الأخلاق ناقمة، تفتن فى التحرش والاستفزاز، وتثير المنازعات لأسباب تافهة، وتصد وتعرض، وتصيح، وتصرخ، ثم تبكى وتنتحب كالأطفال...

وأحس رشدى "بك" أن حريته انقلبت عليه وبالاً، وأن بيته يتحول شيئًا فشيئًا إلى جحيم.

أحس أنه لن ينعم بالحرية فى الخارج ما دام لا ينعم بالراحة فى البيت.

أحس وهو ذاهل مبهوت أن المرأة قوية، وأنها عنيدة، وأنه هو الذى سيفقد هدوءه، وهو الذى سيفقد هناءه، وهو الذى سيفقد سلامه البيتى. وكان طيب القلب كريمًا فلم يفكر فى الطلاق بل تراجع وانكمش وفكر فى الخضوع والتسليم.

يئس من نفسه ويئس من زوجته، فأراد أن يستريح..

أراد أن يشترى راحته بأى ثمن.

أراد أن يعيش فى السجن وأن يكون سعيدًا ولو فى حيز ضيق محدود.

وكما كان يجد بالأمس فى طلب الحرية كذلك أراد تحت تأثير يأسه أن يجد اليوم فى طلب الهدوء والاستقرار.

ونزل على حكم امرأته وأجابها مختارًا إلى كل ما تريد!..

أنكر نفسه وكبح عواطفه ولفظ الحياة، ودع أصدقاءه وكف عن الخروج ولزم البيت. أولع بالسكون وهام بالوحدة واستراح إلى الكسل. نبذ الأناقة وعاف البشاشة وهجر المرح. غشيته البلادة وتولاه الخمول، وأصبح يغدو فى البيت ويروح كالكهل المتقاعد، لابسًا طاقيته، جارًا شبشبه، تائهًا فى صحراء جلابيته، يرسل كل ليلة فى طلب جاره وصديقه الحاج عبد الكريم أفندى الموظف المحال إلى المعاش، ليخلو به ساعة، ويلاعبه "عشرة طاولة"!..

وظن رشدى "بك" أن حياته الجديدة سترضى امرأته، ولكن إلهام لم ترض مع ذلك ولم تهدأ...

كانت تريده لها وحدها، ولكن محتفظا بأناقته ورشاقته، مبقيًا على فتنته، حريصًا على سحره، كى تباهى بحبها له، وتفاخر به أترابها النساء. فلما رأته يعبس ويتجهم، وينكمش ويتبلد، ويسمن ويرتهل ويستحيل من شاب إلى كهل، ومن فتى عصرى إلى درويش، عز عليها أن يتبدد حلمها، فانهالت عليه لومًا وتأنيبًا، وتبكيتًا وتعييرًا، وزجرًا وتقريعًا، تحاول أن تبدل شخصيته مرة أخرى. وترده كما كانت تحبه رجلاً ساحرًا جميلاً رشيقًا...

وبهت لانقلابها، وحار واضطرب ولم يعد يدرى كيف يرضيها. فأمعنت

فى لومه ، وأوغلت فى زجره ، وأبت إلا أن يعود كما كان ولكن رشدى "بك" أرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، ولأول مرة فى حياته ثبت أمامها ، وتحدى جبروتها ، وتشبث بموقفه ، ودافع عن راحته ، ورفض كل الرفض أن يعود إلى الماضى خشية أن تغدر به المرأة ثانية فتعذبه وتنكل به..

ولكى يقطع كل أمل لها فى تبديل حياته الجديدة ، أمعن فى طلب الخمول والانزواء كما كان قد أمعن فى طلب النشاط والحرية. فماتت همته. غاض جماله ، انحطت شخصيته ، وأمسى قعيد بيت ، لا يهمه من أمر الحياة سوى الأكل والنوم والصمت والحلم.

وتأملته إلهام وجن جنونها!..

لم تستطع أن تصدق أن هذا الرجل التافه الغبى الدميم كان بالأمس زوجها؟!

لم تستطع أن تتصور أن هذا المخلوق الفانى يمكن أن يكون حبيبها؟

لم تستطع أن تسلم بأن فى مقدورها أن تمنحه بعد الآن قلبها وجسدها. هالها منه أن يطعنها فى خيالها ، ويصيبها فى عزة نفسها ، ويذل كبرياءها أمام أترابها!..

حقدت عليه وخجلت منه وعافت ملمسه ، واستفاقت ذات يوم وإذا بها تحس على الرغم منها أنها تحتقره وتكرهه!..

كرهته بقدر ما أحبته!

كرهته وتمنت لو يطلقها.. ولكنها كانت فقيرة وكان غنيًا وكانت فوق ذلك معتدة بنفسها ، مزهوة بمكانتها ، تحب الترف ، وتخشى المجتمع ، وترتعد من شماتة النساء. فلم تجد بدًا من كظم غيظها ، وخنق عواطفها ،

والحرص على بيتها، والنزول صاغرة على حكم هذا الشقاء المروع اليومى الذى جلبته بغيرتها على نفسها.

وهكذا أصبحت تعاشر زوجها وهى تكرهه، وتحتمل قربه وهى تمقته، وتبيحه نفسها وهى تبغض نفسها وتبغضه، متمنية من صميم فؤادها لو يطرأ عليه داء عضال يقتله، فتموت فيه حرارة الجسد كما ماتت فيه حرارة القلب والروح. ولكن القدر الساخر أبى أن يهب إلهام نعمة الحرية..

صبرت طويلاً على غير جدوى، وتعذبت طويلاً على غير جدوى وظل زوجها البغيض ينتهك روحها، ويغتصب جسدها، أيامًا وشهورًا وسنين على غير جدوى..

وفجأة، وفى مثل نوبة المرض، أو وقدة الحمى، أو صرعة النوم العميق، ضاقت ذرعًا بصبرها، وأناخ عليها السأم، فانطفأ أملها، وتداعت أعصابها، وترنحت واستسلمت هى الأخرى.

استسلمت وهى ذاهلة، رضيت بحظها وهى تائهة، ولم تعد تدرى لماذا كانت تبكى، ولماذا كانت تتحسر، ولماذا كانت تملأ حياتها لوعة وقلقًا وغمًّا...

وشاع فيها نفس الكسل، وسرى فيها نفس الخمول، واستحوذت عليها وتمكنت منها نفس البلادة. فقرت أعصابها شيئًا فشيئًا، وهدأت حواسها، وبدأت على دهش منها، تتذوق هى أيضًا لذة الراحة وعدم الاكتراث..

وكان رشدى "بك" يتأملها وهو مرتاح...

أما هى فكانت تخالسه النظر وتهز كتفيها وتحاول أن تضحك.

فإذا ما هبط الليل، وخيم الصمت على البيت الموحش، وناء زوجها بعمل

العزلة والضجر، كانت تنهض لساعتها، تنهض من تلقاء نفسها وتفتح باب بيتها، وتنادى الحاج عبد الكريم، وتقول له فى رجاء وهى تبتسم:

مش تتفضل يا حاج عبد الكريم افندى تلعب مع البيه "عشرة طاولة؟!".

الشجرة والعصافير

إبراهيم عبد المجيد(*)

١

لا يزال اليوم الأول فى عينى "سالم". الشمس تحتوى السماء. الفضاء الواسع ضيَّقه الجفاف. الأرض أجدبها الحسك. والملاحظ قال له أن لا يتحرَّك من هنا. فعليه تزويد القطارات بالمياه من "الغراب".

لم يعرف، ولا يزال، لماذا أسموا هذا الجهاز بالغراب. ماسورة واسعة ترتفع عمودية لثلاثة أمتار فوق خزَّان تحت الأرض، تتحنى عند النهاية لمسافة متر لتتصل بخرطوم من المشمَّع يتدلَّى طويلاً إلى أسفل. يأتى القطار يقف بجوار "الغراب" فيدخل "العطشجى" طرف الخرطوم فى خزان مياهه، بينما يفتح سالم الصمام المركَّب فوق الماسورة لتندفع المياه من الخزان الأرضى. لكن القطارات كانت لا تزيد عن اثنين وثلاثة فى كل يوم. لا يتكرَّر حضورها أبدًا، ولا يتكرَّر حضور أى سائق أو عطشجى أتى من قبل. حتى قطار المياه الأسبوعى والذى ينقل المياه إلى الخزان الأرضى، كان يأتى دائمًا مختلفًا وبسائق وعطشجى مختلفين. وتحت السقيفة الهزيلة المكوَّنة من ثلاثة ألواح من الخشب

(*) إبراهيم عبد المجيد: من مواليد ١٩٤٦، من مجموعاته القصصية: (مشاهد صغيرة حول سور كبير)، وزارة الثقافة ١٩٨٢، (الشجرة والعصافير)، هيئة الكتاب، مختارات فصول، ١٩٨٥، (إغلاق النوافذ)، هيئة الكتاب، مختارات فصول، ١٩٩٢، (فضاءات)، سلسلة أصوات الثقافة الجماهيرية، ١٩٩٢، (سفن قديمة)، دار ميريت للنشر، ٢٠٠١، (ليلة أنجيلا)، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣.

يتساءل سالم ويفكر لماذا لا يبادله "حسان" الحديث؟ إنهما ينتصفان اليوم، يعمل كل منهما نهارًا أو ليلاً شهرًا ثم يتبادلان ذلك، لكن حسان متجهم لا يلقى أو يرد تحية فى الصباح أو المساء.

أدرك سالم أن الأيام ستمضى لا معنى لها فغرس شجرة. كبرت فرأى معنى السنين، لكن ظل كل شىء حوله كما هو. الحسك لا يرتفع أو يختفى. الغراب يركبه الصدأ ولا يتزعزع. طريقا القطارات على جانبى الغراب يمتدان ساكنين إلى الأفقين. السور البعيد الذى يفصل المنطقة عن المدينة لا يتهدم. الملاحظ اختفى ولا أحد يأتى ليتابع العمل. وسالم يعرف أن الدنيا أوسع ما حوله. إن القطارات لا بد تذهب إلى القرى والمدن البعيدة. إن عمله هام فالقطارات بلا ماء تحترق. وكان ما يدهشه حقًّا هو أن الشجرة التى صارت وريفة لم تجلب العصافير. الفضاء حوله واسع، وربما لا يوجد عصفور يستطيع الطيران هذه المسافة كلها، لكن ما معنى شجرة بلا عصافير أو أعشاش؟

وفى صباح خريفى وجد الشجرة مقطوعة من أسفل جذعها وساقطة فوق الأرض، وقد تهشّمت، والتوت معظم أغصانها. انحدر قلبه ليسقط بين القضبان ويدوسه قطار ثقيل. ولأنه لم يجد حسان فى انتظاره لم يشك فى أنه قد فعلها.

كانت الشجرة رغم أى شىء واحدة خضراء فى فضاء بليد. زهت كثيرًا فى عينيه حين كانت تسقط فوقها أشعة الشمس وندى الصباح. رطب ظلها لحمه وعظامه، وكم ساعدته على احتمال النظر إلى "الغراب" الموحش. و لم يشأ أن يطول حزنه. غرس غصنًا من أغصانها. أقام من أفرعها الباقية كوخًا ليتخلّص من السقيفة المضحكة، وكان يومًا عامرًا بالعمل. أتت قطارات، كثيرة سوداء تحمل معدّات عسكرية ضخمة. حين سأل سائقًا متردّدًا؟ "ماذا جرى؟"، أجابه بكلمة واحدة "الحرب"، وأتى حسان فى المساء باسمًا:

- لماذا قطعت الشجرة؟
- لا أحب العصافير.
- لكن العصافير لم تأت.

هكذا قال سالم الذى سرعان ما دهش لإجابة زميله ولنفسه أكثر.

وما يدريك؟ (قال حسان بلا مبالاة) أراك غرست شجرة جديدة.

قال سالم فى عزم وثبات:

- إذا قطعتها قطعتك، وهذا الكوخ لا تدخله.

كان حسان أقوى من سالم وبارد الأعصاب قال:

- حتى برغم السنوات الخمس التى مضت على صداقتنا.

انصرف سالم فى ضيق. كيف مضت سنوات خمس بسرعة هكذا!؟

٢

فى غرفته الصغيرة فوق البيت المنخفض فكّر سالم فى أنه لم تقم علاقة بينه وبين أحد من السكان وكان قد استيقظ منذ عام على ضجة هائلة. رأى بلدوزرات وعربات وعمالاً يهدمون البيوت، وسكان المنطقة يحملون متاعهم، ويركبون مركبات اصطفت فى طابور طويل. عرف أنه سيتم نقلهم إلى الطرف الآخر من المدينة. وأنه سيقام محل البيوت القديمة مصنع كبير للغزل. لكن أحدًا لم يهدم البيت الذى يسكن فوقه. ظل وحيدًا وسط الأطلال التى سرعان ما اختفت. اشتراها تجار بالنهار وسرقها لصوص بالليل. ولأن العمل يجرى بالمصنع فلم ينقطع الضجيج بالليل والنهار. واستيقظ مرة أخرى فوجد المصنع قد

أحيط بسور عال جعل البيت خلفه. لم يعد ممكنًا للسكان، ولا له، أن يروا غير السور. لم يعد ممكنًا أن يراهم أحد. ومنذ أيام فكر سالم أن يهجر العمل الذى يسرق الشهور والأيام، لكنه لاحظ فى عودته أن حجرات البيت صارت مغلقة بأقفال غليظة. والليلة يفكر أن ينتقل ليعيش فى مكان آخر. قرَّر أن يعيش بجوار الشجرة والغراب والعصافير. لقد كبرت الشجرة الثانية، وأقبلت العصافير الكثيرة تقف فوق الغراب. جلب سالم أخشابًا، وجعل الكوخ أكثر اتساعًا وقوة. لاحظ أن حسان يقيم كوخًا أيضًا. نقل أثاثه القليل إلى الكوخ. فعل حسان مثله. قال سالم فى نفسه قد يؤدى هذا إلى صداقة حقيقية. لم يقدم حسان أكثر من تحية فى الصباح والمساء. صار كل منهما يمضى نصف اليوم فى العمل، والنصف الثانى داخل كوخه. قرَّر سالم أن يسقط "حسان" من الحساب، وإذا قطع الشجرة يقطعه بالفعل كما هدده يومًا. وانصرف للعصافير التى تأتى الآن كل يوم. إنه يغرق لها الأرض بالمياه، تشرب، تتقافز، تتقلب، ترقص.

لكنها لا تقف فوق الشجرة. تقف فقط فوق الغراب. اشترى لها حبوبًا من المدينة نثرها فوق الأرض. تلتقطها وتصوصو وتزهو. جرَّب أن يروِّضها. يشير إليها أن تصعد إلى الغراب فتصعد. تهبط واحدة إثر أخرى فتفعل. تتصرف واحدة فأخرى فتمتثل. يفتح لها كفيه فتقف عليهما متواترة وصار بعضها يقف فوق كتفيه ورأسه، وفى المساء قبل أن يخرج حسان من كوخه تتصرف. لم يخش سالم عليها من حسان فهو – سالم – حين يعمل ليلاً لا تجىء بالنهار، لكنها أيضًا لم تكن تأتى إلى سالم بالليل. كان يحلم بها وهو يقظ، وأيضًا فى النوم. وحدثته كثيرًا فقالت إن "حسان" يمضى نصف الليل الأول يلملم ما تبقى من حبوب على الأرض ويأكله. يمضى نصف الليل الثانى يهز الشجرة لتسقط الأعشاش. وتضحك العصافير لأنه لا توجد أعشاش بالشجرة. ويتعذَّب سالم لأنه

فشل فى أن يجعلها تعشّش فوق الشجرة أو تقف فوق أغصانها ، وتكبر الشجرة فى عينيه حتى تملأ الفضاء الواسع، ثم تعود تتكمش حتى تصبح عودًا جافًا هشًا ، وصوت العصافير يدغدغه فيضحك ويتقلب فى الفراش. وكثيرًا ما فكر سالم أن أحدًا من السائقين أو العطشجية لم يندهش له حين يراه يعمل والعصافير فوق كتفيه ورأسه. أدرك أن القطارات صارت قليلة جدًا. ربما يمر الأسبوع ولا يأتى غير قطارين أو ثلاثة. وحين رأى قطارات خضراء كثيرة تمر دون أن تقف لتتزوّد بالمياه، ولا تنفث دخانًا مثل القطارات السوداء، قال فى نفسه إنهم لا بد يتخلون عنه. لكن الملاحظ ظهر قادمًا من بعيد فبدا طوق نجاة. كان يعرج فى مشيته. وحين اقترب رأى سالم وجهه متغضنًا وشعر رأسه الأبيض لا يخفيه "البيريه" الأسود.

- أخيرًا عدت يا سيدى.

تلفّت الملاحظ حوله.

- هل صرت تعيش هنا؟

- أجل.

- ألا تذهب إلى المدينة؟

- تغيرت المدينة كثيرًا.

لم يشعر سالم أن ذلك يعنيه فى شىء. كانت العصافير تنتقل من كتف إلى الأخرى ومن رأسه إلى أعلى الغراب، ولا تبدو دهشة على وجه الملاحظ الذى استطرد مبتسمًا:

- هدم مصنع الغزل وبيتك القديم. أقيمت مكانهما عمارات وفنادق جديدة.

– "لا بد أن سنين كثيرة قد مرت حقًا". هكذا فكر سالم بينما سأله الملاحظ:

– أين حسان؟

– لعله نائم فى كوخه.

– أما يزال يقطع الأشجار؟

"هذا الشيطان يعرف كل شىء".

– لقد صار العمل قليلاً. أعرف ذلك. القطارات الخضراء لا تعمل بالفحم ولا تحتاج إلى ماء كثير لكن لا تقلق ولا تبرح المكان حتى أعود إليك.

– متى يا سيدى؟

قال سالم ذلك وهو يشعر بنفسه وقد صار صغيرًا جدًّا، وبأنه يسأل شيئًا بعيدًا بعيدًا جدًّا لا يراه.

– ربما بعد عشر سنوات أخرى أو أكثر. ربما غدًا. لا تقلق.

ومد الملاحظ يده فأمسك عصفورًا من فوق كتف سالم اليمنى ليضعه على الكتف اليسرى وانصرف تاركًا سالم وحده فى الفضاء. حين اختفى من المنطقة كانت العصافير قد صارت جميعها تقف فوق الغراب. نزلت إحداها لتشرب فصرخ فيها سالم. ذعرت. فتح لها كفه فطارت إليها. قال فى ضيق:

– مضى وقت طويل أعلّمكم فيه المحبة؟

– ....

– لماذا تنزلين دون إشارتى؟

- ....

- اشربى.

لكن العصفورة لم تشرب. طارت وخلفها العصافير. انتشرت فى الفضاء فأحس سالم أن للكون جانبين ظالمين يطبقان عليه. توقّف القطار العجوز الأسود، الذى ينفث الدخان الكثيف الأبيض، ليتزوّد بالمياه.

حين انتهت أول حرب اختفى كثير من السائقين والعشطجية صغار السن. أخبره سائق عجوز أن كثيرًا منهم استُدعوا إلى الحرب وأنهم ماتوا فى الصحراء تحت القنابل. أو تاهوا فى الرمال، أو قتلهم البدو، وأخذوا سلاحهم والماء.

كان القطار الأسود يجر عرباته محملة بالعتاد العسكرى الثقيل. مرت بعده قطارات خضراء كثيرة تحمل عتادًا عسكريًّا ولا تقف. كانت هناك حرب أخرى.

٣

حين رأى سالم حسان واقفًا والفأس بين يديه، وشرر يطل من عينيه، لاحظ اهتزاز ساقيه. صار حسان هرمًا. قرر سالم أن يهاجمه. لقد ظل معظم ليل أمس يسمع صوت ضربات قوية ظنها الريح تطير القضبان. القطارات السوداء العجوز تضرب الأرض الخضراء الفتية.. وكعادته منذ طارت العصافير كان يسمع صوت العصفورة التى نهرها وهى تقول إنه لا يمكن لأحد أن يقاوم العطش، وأن الطيور تنسى كل شىء فى الفضاء الواسع. لم يخطر بذهنه أن حسان يقطع الشجرة. لكنه وجد ساقيه أكثر اهتزازًا. اتجه إلى الشجرة محزونًا وجعل ينزع أوراقها الكثيفة. قال حسان:

- **ماذا تفعل؟**

– أريد الفروع. نجففها ونشعلها بالليل.

كان الفضاء حولهما أوسع من الأرض. الأرض أوسع من السماء. أحس كلاهما أنه لا بأس أن تكون السماء أرضًا، والأرض سماء، فليس بالكون أحد. لكن حسان قطع غصنًا قدَّمه إلى سالم.

– قم واغرسه حتى يصير شجرة.

– لماذا قطعت الشجرة الثانية؟

قال حسان مبتسمًا:

– إنها الخامسة وأنت تنسى.

كان وجه الأرض أشد قتامة من اليوم الأول. ارتفعت أشجار الشوك وتضخَّمت. باتت القضبان خارجة عن أماكنها فى أكثر من موقع. بدا الغراب الذى ينحنى عند الهامة، ويتدلى منه خرطوم أجرب مهترئ، مثل "مقاتل قديم يلقى السلاح". تناول سالم الغصن وغرسه. وبالليل قال:

– هذا شتاء لا يرحم.

كان حسان ينفخ فى النار الموقدة. لقد نقل متاعه إلى كوخ سالم وصارا يعيشان معًا. وحين أفزعهما صوت ارتطام قوى قال حسان:

– لقط سقط الغراب. تآكلت الماسورة، وانكسرت.

وحين انتهت الحرب الثانية اختفت القطارات السوداء تمامًا. لاحظ سالم أن الثقوب انتشرت فى ماسورة الغراب، وكان حين يفتح الصمام ليشرب أو يغتسل تخرج المياه من الثقوب مثل النافورة، وصار قطار المياه الأسبوعى يأتى

كل شهر ليملأ الخزان الأرضى، ثم اختفى بدوره. حفر سالم بئرًا لنفسه ليشرب منها. حفر حسان لنفسه بئرًا أخرى. الآن يشربان من بئر واحدة.

شرد سالم وفكر فى اليوم الأول. ترى كم يكون عمره الآن؟ فاجأه حسان قائلاً:

– ألا تود العودة إلى المدينة؟ لقد تغيرت كثيرًا.

أجاب سالم:

– قال الملاحظ ذلك منذ زمن.

قال حسان:

– لقد هدموا العمارات وأعادوا بناء مصنع الغزل.

جذب سالم أسمالاً قديمة وضعها خلف ظهره. فكر (كأنما كان المقصود فقط هدم بيتى القديم). قال حسان:

– إنهم يتحدثون عن حرب أخرى.

لم يعلّق سالم. قال:

– هل ستقطع الشجرة الجديدة؟

كان ما يزال يحلم بالعصافير. لقد سقط الغراب، وربما إذا عادت تقف فوق الشجرة. لكن الرياح كانت تصفر فى الخارج. صوت الرعد يتعاقب كأنه جبل يسقط من فوق جبل. البرق يتسلّل ليملأ الكوخ بالرهبة. ووضع حسان براد الشاى فوق النار وهو يقول:

– لدينا حطب يكفينا عامًا آخر، ولا يجب أن نموت بردًا بأى حال.

ذيل حصان

إبراهيم عيسى[*]

ذيل حصانها هو أجمل ما أراه في شعرها مع هذه الخصلات النبيلة الموزعة على جبينها، وكنت أحبها دائمًا على هذا النحو، هذا الشعر الساحر في تأثيره على تفاؤلى واكتئابى، هل يمكن لإنسان أن يحدد مدى ما يحصل معه من حزن أو فرح، بتصفيف شعر امرأة؟ أنا كذلك:

كلما رأيتها يومًا بشعرها معقوصًا على هيئة ذيل حصان كلما شعرت براحة وأمن وتفاؤل فى الحياة، وكنت ترانى مقبلا محبًّا على أوراقى من مكامن سطورى، وإذا حاولت نسائم غم ثقيلة أن تتسال تحت قميصى أستعيد هذا الانطلاق الحالم لشعرها وأراه أمامى مائلاً كانفتاح نهر للعبور، وحتى لحظات هذه الكتابة أحس تدفقًا نبيلاً فى صدرى كأن ذيل حصانها لون من دمى، وأدفس السؤال – طيلة أيامى – فى قلقى الملح، هل يمكن أن يستمد بشر تفاؤله وسعادته من تصفيف شعره ولا أعرف الإجابة على وجه الدقة (سأتركها للأطباء النفسيين!) لكن الإجابة الوحيدة التى أملكها أنها حين تعود مرة من لدى مصفف شعر تحمل على شعرها معالم تدخُّله وحين أرى شعرها مصففًا على غير ذيل الحصان ووجدت فيه صناعة وعملاً وقصًّا وحذفًا وإضافة وكواه ودقة و.....

---

[*] إبراهيم عيسى، من مجموعاته القصصية: (صباح النهايات)، مدبولى الصغير، القاهرة، ١٩٩٤، (العصافير لا تعشق الطيران)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، (وجه بعيد لامرأة بعيدة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.

كلما أحسست كآبة ما فى صدرى وكانت تسألنى – وهى لا تفهم شيئًا مما داخلى- ماذا بك؟ وكنت لا أجيب.

بحر النيل

إبراهيم فهمى(*)

لا البلاد.. بلاد، .. ولا الدنيا، دنيا، ولا القمر، قمر، ولا الشمس نبت السماء، بلت أجنحتها فى بحر النيل، ودلته على مكاننا، ومن ورائها الإوز، مواكب - غن لنا يا ضراب النار، غن، والبلاد فى أفواه الناس أسامى، غن لنا، واضرب على الغاب، فنرقص، رقصة الشمس لما تشرق، ولما تغيب.. وغابت عن بلاد الكنوز، فغابت عن الدنيا، أمانة تضرب لنا يا ضراب الغاب، وضراب النار، فنغنى، حتى تغنى الدنيا معنا، وحتى يسمعنا بحر النيل، هناك من الوطن القديم، فيرجع لنا، ينادى الشمس بنت السموات العلى، كى تبل أجنحتها فيه، وتدله على مكاننا الجديد، ومن خلفها الإوز مواكب - ساعتها، لا يؤجل الكنوز الكبار مواعيد الزفاف إلى ساعة تنطفئ فيها نار البنات، اضرب لنا يا ضراب النار، وضراب الغاب، فنغنى كما كنا نغنى والدنيا معنا، والبلاد.. بلاد، فيعرف كل حبيب غناء حبيبته، فيترك ما فى يده، إن كان شراع مركب مسافر، إن كان بيتًا يبنيه على يده، نتلاقى جماعة على الجانبين، نهرب من عيون الكبار بين المراكب، تسألنا الأمهات عن السحر فى يدنا، نقول:..الحب وغرام الأحبة، وعن السحر فى قلوبنا، لا نعرف سره، واسألى يا أمى الحبيب الغالى، والقلب سرُّه فيه، وما كان فى اليد، وما كان فى القلب..! .. كنت يا عثمان، تضرب لنا على الغاب ونحنا خارجات بالزيديات على

(*) إبراهيم فهمى، من مجموعاته القصصية: القمر بوبا (١٩٨٩) بحر النيل (١٩٩٠) العشق أوله القرى (١٩٩٢) رمش الصبايا (١٩٩٤).

رءوسنا، تضرب لنا أغنية، نرقص عليها، ومعنا الشمس، والحريم، يرقصن بعد كل السنين، كنت تضرب لنا يا عثمان، فنرقص، ولا أحد يمنعنا، حتى تكسرت الزبديات، وشربت الأرض من اللبن الرايب، وخاب فينا أمل الرجال

عند بحر النيل على المراكب، قالوا:.. لا بنات، ولا لبن، وضربنا الآباء، ضربتنا الأمهات، يقول الكبار: للرقص ساعة، للحب ساعة، لكننا لا نعرف إلا ساعة واحدة، هى ساعة هوى، والدنيا يا هووى، وهى ساعة واحدة، ساعة الحبيب الغالى هى ساعة غرام.

.. هناك لما كانت الأرض، أرضا، والسماء.. سماء، والشمس.. شمسًا، قالت نساء الكنوز:.. نهاجر يا عثمان بشير، نهاجر يا سيد الكنوز، فيقول ولد الكنوز: نهاجر يا بنات، وبحر النيل، الساعة، غاضب علينا، يقول الكلام المنقوش على كف الملك العظيم، إذا خالف الكنوز الوصايا، وكذبوا، ثم نسوا أن يرموا لبحر النيل الهدايا، يطردهم من الأرض التى ولدوا عليها، ولا تتحلى النساء بذهب الملوك، قالت البنات:.. هى هانم حسين، أخذت من ذهب الأميرات، تحلت، وتزينت، ثم قالت:.. يا بنات، كل الخير من عرق زوجى عثمان بشير.

.. تقول صفية مكى:.. أضع أذنى على الأرض، أقول:.. دقة القلب، دقتان، دقة لحبيب القلب، بشورى، ودقة لك يا بحر النيل، أقول، وأنا صفية بنت الكنوز: بالله عليك يا بحر، النار فى القلب، والجسد مواجع يا بحر، نكبر نحن البنات من دون بنات العالمين، قبل العام بعام، ترجع يا بحر، ويتزوجنى بشورى، ولو ما رجعت، يعايرنا الناس الكنوز، بعد الزمان، بزمان، يقولون:.. أول المحبين، أول العشاق، أول المتزوجين فى غيابك يا سيد الدنيا، بشورى، ولد عثمان، وصفية بنت مكى.

.. تسأل صفية مكى عثمان بشير، سيد الكنوز أجمعين، عن بحر النيل..
يا صفية: أخبرى النساء، والبنات:.. راجع يا هوى، والشمس بنت السموات العلى، قالت لى: يا هووى، تأتينى ساعة، أنزل فيه، أبل أجنحتى فى مائه، أدله على مكانكم الجديد، فى البلد الجديد، وقالت لهانم حسين، تقول صفية:.. كذاب يا عثمان بشير، كذاب، الساعة تكذب علينا يا عثمان، كما هالبلاد الكدابة، وبحر النيل لا يرجع، ولا تبل الشمس أجنحتها فيه، وتشير له على مكاننا، كانت البنات يتزين له، يلبسن أجمل الملابس، يحتفظن له بأحلى العطور، يتدربن على رقصة الفيضان العظيم، يقول عثمان بشير:.. لا يا صفية، الشمس، هى أول القادمين، ووراءها الإوز، مواكب – وبعد النيل، العريس، تفتح له صفية، مجرى، فيأتى عند بيتها، والصغار يأخذون الورق، يصنعون له مراكب صغيرة، يسمونها بأسماء البلاد القديمة، والبحارة شدوا السوارى على المراكب، ساعتها، تجرى الفلك بأمره، على مياهه، باسم الله مجريها، ومرسيها، فتقول صفية:.. هالفرح كله، ولا ترجع، يا سلام، يا بحر النيل، لك ساعة شوق وتساوى الدنيا..!

تقول بنات الكنوز، لما تأخر سيد الكون – بحر النيل – عنهن فى الوطن الجديد: دمع العين، لا ترجع به البلاد، يا هووى، وعددن الأسباب، قلن:.. غضب عليكن بحر النيل يا بنات، لأنكن لا تحتملن العشق بالجوابات مع الأزواج المسافرين، فأعطيتن أنفسكن لعثمان بشير، فى آخر الليالى بيتها، والعذر لك يا شامية، لما فاتك الزوج المسافر بالسنين، وحزن بحر النيل، وأما هى هانم بشير، لما دخلت المعبد فى نصف الليالى، مع عديلة دهب، وفاطمة دهب، وتبادلن على التماثيل العارية بكامل أشيائها، المزاج، وخلعن السراويل، وكل واحدة تعرف أن عثمان بشير بذاته، يقف بين التماثيل، فيتعاركن عليه،

بعدها يرسل عثمان بشير للرجل المسافر، يقول له:.. جماعتك فى خطر، فيرجع لها، يذوق لحمها بعد السنين الطويلة، فتحبل، وكأن الولد من أصلابه، وأما هو عثمان بشير أغضبك يا بحر، وأما هن بنات الكنوز، لكن بحر النيل، لا ينسى أحبابه، وبعد الهجر، يرجع الحبيب، وأما هم المسافرون نسوا، ولا أرسلوا لنا بالاسم فى الجوابات هداياهم محبة لبحر النيل، قالت صفية ساعتها هناك:.. أرمى نفسى فيه يا هووى عنكم يا مسافرين، لكن بحر النيل لا يحب إلا باسمه، والساعة يسأل الصغار عثمان بشير عن موعده، لما يرجع، كيف؟.. والبلاد غير البلاد، .. احك لنا يا عثمان بشير، كان عثمان بشير، وحده يعرف فيضانه، ومشرق الشمس، ومغيب الفصول، وعدد البنات، وعدد الحريم، وحكايات الجدود الأحبة، وأسماء الكنوز جميعهم، من حلفا، حتى مصر المدينة، ويخطئ أحيانًا، حتى فى اسم عياله، تقول له البنات الساعة، أخبرنا، يا انباب، فى أى ساعة، فى أى شمس، يرجع الجميل، أخبرنا..!.. يعرف عثمان بشير:.. إن بحر النيل، لا يرجع الساعة، ولا يرجع أبدًا، وعثمان بشير، الساعة، ولا هو عثمان بشير، إلا إذا رجع بحر النيل عرش من فضة، يضرب فى نصفه بعصاه، فينشق له نصفين، بينهما طريق، فتعبر النساء والبنات حتى الضفة المقابلة، فى وقت الفرح، ووقت الحزن، ولو شاء يمشى عليه، دون أن تبتل له قدم، ولا طرف جلباب، لكنه الساعة غاضب عليك يا عثمان بشير، ولا يرجع أبدًا، وأنت يا عثمان بشير من دون بحر النيل، لا تساوى الرخيص، ولا الغالى.

.. الساعة يبكى عثمان بشير، سيد الكنوز، وللعشق أحكام، لما تحلف هانم عليه، تقول:.. ولا جد أبوك، ولا جمعك، ولا أنت تلمس شعرة واحدة من رأسى، إلا إذا رجع بحر النيل ورأيته بنفسى، ساعتها، كما وعدتك، أعطيك نفسى، وألبس لك، وأتعطر، وأنزل بحر النيل كإوزة مهاجرة، أرقص لك،

وأغنى، وأستحم فيه، من كل شهر من العربى، حتى أكمل تسعة شهور بالتمام، فيعطيك ولدًا، الله عليه من ولد، أمانة يا عثمان، لا تلمس شعرة واحدة من رأسى، إلا إذا رأيت بحر النيل ساعتها، لا أعاند الشوق القاسى على قلبى العاشق لك يا سيد الدنيا، وأتدلل عليك كدلال بنات الكنوز، اللاتى لا يمسهن من بين أفخاذهن بشر، وإلا فى غيابك يا بحر النيل، ألد من بطنى، ولدًا كما تمساح، خرج كوحش من البحر، فى ساعة فيضان عظيم.

.. تقول صفية مكى:.. تقول لى يا بشورى، يا حبيبة القلب يا صفية، أمانة بحر النيل راجع، وأمى هانم تقول لابناب عثمان، لما يقول لها: تاج الشطين، تقول له: العشق فى غيبة سيد الدنيا حرام، فيجن، تقول أمى هانم: الله يا مزاج الرجال، نعشقكم طول العمر، وعشقنا عندكم ساعة زمن، تنامون بعدها جوارنا كما الكلاب، فأضحك، أقول لك.. بكم تعشقنى يا ولد هانم؟.. بالدنيا يا صفية..! بكم تعشقنى يا ولد عثمان؟.. بانباب عثمان ذاته يا صفية!.. بكم تعشقنى يا ولد هانم؟ بأمى هانم تاج الشطين يا صفية!.. بكم تعشقنى يا بشورى؟.. ببحر النيل، سيد الدنيا، فأقول لك، وهبتك النفس، والروح من بعدك هوان يا بشورى..! كانت البلاد غير البلاد، والوطن غير الوطن، لا البلاد، بلاد، ولا الشمس، شمس، ولا القمر.. قمر!.. كلما سألتك واحدة من البنات عن (بحر النيل) يا عثمان، تضحك، وتخاف أن يموت قلبك الحى من الضحك، فتجده مات من زمن، بعدها تبكى على طيبة قلوب البنات، والدنيا لا هى على حالها، ولا الناس، ناس، الغريب بكى، وأنت ما بكيت يا عثمان، بكى البحارة الغرباء، ولما رأوا البنات الكنوز، قبل الرحيل، يأخذن العهد منك يا عثمان، أن يرجع بحر النيل وراءهن كما الطير الأليف، شرطًا حتى يرحلن إلى بلاد غير البلاد، والبنات حتى الساعة أمانة فى عينيك، ولو سألتك واحدة من البنات،

تقول: الحمد الله، لا يفهم كلام الحريم غيرك يا عثمان، الساعة لا ترى عيناك إلا بلادًا غير البلاد، وشمسًا غير الشمس، كأنك صغير السن يا عثمان، تخاف أن تخرج إلى الشارع فى هالبلاد فتتوه! والبيوت مرصوصة أمامك بلا روح، تتمنى البنات، فيقلن:.. هنا تتجمع مواكب الإوز، لما يرجع بحر النيل بعد غياب، وقريب من البيوت قطار يصفر، يرجع من مصر المدينة، فلا تطرب له البنات كما كن يطربن لما تصفر الباخرة البوستة، وكأن صفافيرها زغاريد، فتهتز خصورهن، ويرقصن، الساعة، حول البيوت، عريات، تصرخ كما الحزانى على الطريق..!

.. يقوم عثمان بشير، فى نصف الليالى، ويغنى كى تسمعه هانم، فتقوم من النوم، وتفتح عينها، تهز صدرها على السرير العنجريب تتقلب بجسدها، كما تتقلب على الجمر، تفك شعرها، تلاعبه بالعين والحاجب، فلا يحتمل ولد الكنوز، عثمان بشير، يخلع سرواله، وينصب العرس، فتترك له العنجريب، وتنام على الأرض، فيقول لها: الله.. الله عليكن يا بنات الكنوز، أمانة أحبك، يا هانم، أغلى من بحر النيل، بشوية، وأول مرة تبدلى قمصانك يا هانم بعيدًا عن عينى فلا تعطه نفسها إلا إذا رجع سيد الكونين بحر النيل، وسيد الدنيا بالسلامة، فيقول عثمان:.. لا شىء أبدًا يغلب قلب العاشق يا هوى، لا شىء يغلبنى يا هانم..!

.. كان عثمان بشير، يكذب فى العادة على هانم، يقول لها:.. أعبر الغرب بالمراكب، يا هانم، للسلام على العائدين من مصر المدينة، لكن فى الحق، تكون قد أدارت، رأسه من بنات الغرب، ولما يرجع لها، يقول:.. لا يعرف قيمة البلح الأبريمى يا هانم، إلا من ذاق الصص بعدها يستحم فى بحر النيل، ويخاف، أمانة تخاف يا عثمان من هانم قيراط، ومن بحر النيل أربعة وعشرين،

تقول:.. بحر النيل، حولنا، نغسل فيه الذنب، والكذب، الساعة لا تحتك ولا فى يدك، البحر، يا عثمان، لكن غرام هانم، وغرامك فى الخلف السعيد غرامان، عندك ولد يا عثمان، بشورى، والخلفة على الدنيا، ولدان، وهالبلاد، لا يرقص لها القلب، وتخاف لو يرقص قلبك، فيسكت، وتخاف لو سكت قلبك، قبل أن تنام معك هانم ليلة فى الغرام على سرير عنجريب واحد.
.. كان عثمان يكذب على هانم، كذبة بيضاء كقلبه، يقول لها: عبرت بحر النيل، حتى بلاد النوبة – الفاتجا – رأيت بنات الفاتجا البيض، من نسل المجرب، و القائمغاب، والكشاف، يا سلام يا هانم، البنت كأنها اللبن الحليب الصابح، العيون، زرق كماء الجميل بحر النيل، وخضر كزرع الربيع، رأتنى يا هانم، واحدة أغنى على مركبى، فغنت لى وقالت: تزوجنى يا زينة شباب الكنوز: عندى ثلاثة فدادين، وخمسون نخلة، وأبى حسه على الدنيا، واسمى قمر، وأمى اسمها داريا، وأبى اسمه عبد الفضيل، فتقطع هانم عليه الكلام، تعرف بنت الكنوز، إن عثمان، الساعة، يكذب عليها، كذبة بيضاء، وبنات الفاتجا الكشاف لا يتزوجن الكنوز أبدًا، فتقول له:.. تزوج يا عثمان بشير، تزوج، وافعل ما بدا لك، الساعة، والأرض، لا هى أرض، ولا السماء، سماء، ولا الشمس بنت السموات العلى، دلت بحر النيل سيد الكونين، على مكاننا، وصارت له دليلاً، وأنا عثمان لا تغلبنى حيلة، كانت أيام القلوب البيضاء، والكذب الأبيض، كانت تتدلل على هانم ليلة، فتفتح لى بنات الكنوز البيوت، ليالى، الساعة تخاف الحريم، أن يلدن من بطونهن، عيالاً كما التماسيح وأرسل إلى الأزواج فى مصر المدينة، فلا يكون لكلامى معنى، و بحر النيل غائب عنا، الساعة، بحر النيل، قدام عينى، فأخاف منه، لما أكذب، والكذب لاجل عيون هانم حلال..!

.. قال عثمان:.. يا هوى، يا بنات، يا حريم، بحر النيل، الغالى، سيد الدنيا، والشمس بنت السماء، صارت له دليلا، اخلع يا عثمان بشير عمامتك، ورفرف بها كأعلام المراكب، وشاور بيدك على سراب الصحارى، كأنه بحر النيل راجع من بعد غياب، ساعتها: تصدقك البنات، ويخرجن للحبيب، وتعطيك هانم نفسها، وتكون ليلة من ليالى العيد.. شاور على سراب الصحارى كأنه بحر النيل راجع بعد غياب.

.. ساعتها سمعتك صفية، قالت:.. يا بنات الكنوز، يا هوى.. رجع الجميل، رجع سيد الكون من بعد غياب، لبست صفية ثوبها الأخضر الجديد، وشبارتها الحرير الخضراء، خلعتها، بنت الكنوز، وحزمت خصرها، كى ترقص الساعة، تركت مركوبها فى البيت، فردت الملاءات مع النساء تحت قبة الشمس، تفرح صفية، فتزين الفرحة الوجه، وكأن القمر فى جبين، والشمس فى آخر، ترفع صفية ذيل جلبابها، تدور حول نفسها دوائر، دوائر، وبشورى جوارها، وبحر النيل وحده يا بشورى، يعرف سر العشق فى القلوب، لبست الحريم، كل واحدة، أحلى ما عندها، أشعلن المسك والصندل فى المباخر، رفعن الصغار على الأكتاف ليروا بحر النيل الراجع بعد غيبة سنين، وغنين، طلبن من عثمان بشير، أن يضرب لهن على الغاب، فقال ساعتها:.. أنا مع حبيبة القلب هانم، وتخلف عن المواكب، قال عثمان:.. وأنا معك يا هانم، قالت سيدة الناس:.. فى حضرة بحر النيل، وهبتك الروح، والنفس يا عثمان، ولما وضع عثمان يده على لحمها، غابت هانم عن الدنيا، قالت كلاما لم يسمعه عثمان من زمن، العين فى العين، اليد فى اليد، الصدر فى الصدر، والقلب فى القلب، والعين على بحر النيل، الراجع بعد غيبة، حتى تلد هانم على كرامته ولدا قمرا، لا هو كما وجه تمساح خرج من بحر النيل فى ساعة فيضان عظيم..!

.. تجرى البنات وراء سراب الصحارى، ويخلعن المراكيب، حزمت فضيلة موسى خصرها، وفكت عويضة باشرى شعرها، تجرى البنات وراء سراب الصحارى، تغنى صفية، ويضرب بشورى على الغاب، تجرى البنات وراء السراب كأنه بحر النيل، ولا يلحق به أحد، ترمى كل واحدة نفسها على تراب الأرض، ولا الأرض أرض، ولا السماء سماء، وصفية تنادى النساء، الساعة كى تستريح كل واحدة على صدرها، فتسقيها بنت الكنوز من ريقها، كأنه الماء السلسبيل، فتقول لها :.. يشرب.. بشورى من ريقك الحلو، وتظللها.. بشعرها من نار السماء، ولا السماء، سماء، تقول صفية :.. يا إلهى، ما رأيت مثلكم يا كنوز أحدًا يموت من العشق، اثنان لو غابا فى الدنيا أموت، بحر النيل، وبشورى، تجرى البنات وراء سراب الصحارى، كأنه بحر، لا له أول، ولا آخر، حتى مالت شمس المغارب، وانطفأ سراب الصحارى، لما حسبته بنات الكنوز، على رأى عثمان بشير، كأنه الماء السلسبيل، وكأنه يلامس الأرض كبحر فياض، تقول صفية مكى:.. كانت أمى شريفة، تشير لى على سراب الصحارى، كأنه بحر النيل تريد أن تلاعبنى، فيكون بعيدًا علينا، ولما تغيب الشمس منى، لا أجده، فأقول: ضحكت علىَّ يا أمى شريفة، وبحر النيل تركنا إلى بلاد، غير البلاد، لكنه ينادينا، فنعود إليه فرحين، الساعة لا الشمس.. شمس، ولا البلاد.. بلاد، ولا الأرض.. أرض، ولا رجع لنا بحر النيل، ودلته الشمس على مكاننا الجديد، ومن ورائها، الإوز مواكب، وعثمان بشير، لا هو عثمان بشير، ولا هو سيد العالمين، عثمان الكداب، ولد الكداب..

.. لا الشمس.. شمس، ولا القمر، قمر، ولا البلاد.. بلاد، ولا الناس.. ناس!.. الساعة ترجع بنات الكنوز، من دون بحر النيل، ودون الشمس بنت السموات العلى، ودون الإوز، مواكب، تقول هانم حسين، كذبت على

ياعثمان، قلت لى:.. يا بنت الكنوز، ها بحر النيل هناك، راجع الجميل واليوم عيد، الليلة عيد، وكل الليالى، فوهبتك النفس والروح، قلت لك:.. يولد من بطنى فى زمانه، ولد من زمانه، وأعطيتك الروح، وأعطيتك الجسد، الساعة، يولد من بطنى ولد فى غيابك يا سيد الكون، كما تمساح خرج لتوه من فيضان عظيم، الساعة يا عثمان، لا للحب معنى، ولا للبلاد معنى، ولا الشمس بنت السماء، دلته على مكاننا، ومن ورائها طيور الإوز، مواكب سلام، لا الشمس.. شمس، ولا القمر.. قمر، ولا الأرض.. أرض، ولا الدنيا.. دنيا، ولا الناس.. ناس..!

الوهم والحقيقة(*)

أبو المعاطى أبو النجا

من العسير أن أحدد اليوم أو اللحظة التى بدأت ألاحظ فيها ذلك الشىء، ومن المؤكد أنه لم يكن فى البداية بهذا الوضوح، وأن إحساسى به لم يكن بهذه القوة!

ويوم إثر يوم أصبح ذلك الشىء الذى لا أستطيع حتى الآن أن أمسك به فى يدى، الحقيقة الوحيدة التى تملأ كل حياتى، تملؤها بالمرارة والأسى، وتملؤنى بالعجز.. العجز عن التعامل مع هذه الحقيقة كما يتعامل الناس مع حقائق حياتهم، لأن هذه الحقيقة التى تثقل قلبى بالألم لا تزال تفلت من أصابعى كالشعاع!

وما جدوى أن أتذكر اليوم أو اللحظة، وهذه الحقيقة تبدو لى الآن وكأنها قديمة قدم علاقتى بزوجتى، حتى لقد حاولت كثيرًا أن أتذكر وجه زوجتى القديم فلم أفلح، ولم تفلح حتى صورها القديمة فى أن تعيد إلى ذاكرتى تلك الملامح التى ألفتها طوال خمسة أعوام هى عمر زواجنا، ومع ذلك فلست أملك دليلاً على هذه الحقيقة سوى وجه زوجتى.. ذلك الوجه الذى بدأت ملامحه تشى بهذه الحقيقة كما تشى الحقول بمقدم الربيع، لماذا لا أنطق بهذه الحقيقة

(*) نشرت فى مجموعة (الوهم والحقيقة)، ١٩٨٤.

أبو المعاطى أبو النجا (من مواليد ١٩٣١)، من مجموعاته القصصية: (فتاة فى المدينة)، (الابتسامة الغامضة)، (الناس والحب)، (الوهم والحقيقة)، (مهمة غير عادية)، (الجميع يربحون الجائزة)، (فى هذا الصباح).

بنفس البساطة التى لاحظتها بها! لماذا لا أقول إننى نظرت فى وجه زوجتى ذات يوم أو ذات لحظة فتأكد لى أنها تحب.. نعم زوجتى تحب.. تلك هى المسألة!

ليس من الصعب أن تدرك أن زوجتك تحب، فنظرة المحب لا تخطئها العين، إنها نظرة قريرة هانئة، وهناؤها آتٍ من هناك من الأعماق، لا صلة له بأحداث حياتكما اليومية. وقد لا تثق بذلك فى أول مرة، قد تظن أن لهذه النظرة القريرة الهانئة أسبابًا فى حياتكما، وقد لا تعنى بمعرفة السبب، وقد تخمنه إذا كنت لا تعرفه، ويمضى يوم وآخر، وتختلف الظروف والأسباب، ويتغير إيقاع الحياة اليومية، ولكن النظرة ذاتها.. النظرة التى تمسح أحداق العيون بالفرح، والتى تومض ومضًا خفيفًا ولكنه دائم كومض النجوم، تلك النظرة التى تحيل العينين إلى نبعين دائمين يرويان ملامح الوجه كله بذلك الرضا العذب وبمسحة من الحلم لا تختلف بين النهار والليل، هذه النظرة تبقى دائمًا رغم تغير الظروف والأسباب، ولكنها أبدًا لا تبقى كشىء ثابت جامد منعزل عن حياتكما.. إنها تشارك فى هذه الحياة، تشارك فى أفراحها وأحزانها، تغسل الأحزان والمتاعب والمشكلات وتتجاوزها أحيانًا وكأنها لا تراها، تقفز فوقها كعصفور يتخطى الأعشاب والمستنقعات، وتلتمس الأفراح والمباهج، تلتقطها كما يلتقط العصفور الحبات الغائرة فى قلب التراب والحصى تلتمسها التماسًا كأنما لتبرر نفسها، وكما تلتمس الشعلة أنفاس الهواء لتبقى مشتعلة دائما.!

إنها تشارك فى هذه الحياة ولكنها أبدًا لا تندمج فيها، ولا تنتمى إليها، فولاؤها الحقيقى لأعماق القلب الذى تصدر عنه، ويمضى يوم وأيام وشهور ويتأكد لك أن هذه النظرة تخضع لدورة أخرى مجهولة، ولإيقاع آخر لا صلة لحياتكما به!

إنها أحيانًا تتألق وتترنم وترقص وكأن ثمة لحنًا مجهولاً تستقبل وحدها أنغامه الشجية، وأحيانًا تشرد وتخبو كأنها تطارد النغم الشجى الهارب أو تخشى أن يسمعه أحد، فهى تتكسر عليه وتكاد تغلق دونه أبوابها الرقيقة التى كانت مشرعة وأحيانًا يلفها قلق حزين غامض فتصبح أو تمسى مقروحة هامدة ليوم أو أيام يعود بعدها الصفاء والضياء، ولكنها لا تفقد أبدًا مسحة الحلم الجميل الرقيق الذى يغلف الأسى والفرح معًا.

ويتأكد لك يومًا بعد يوم ما قد تكون (لبعض الوقت) فى شك من أمره، وهو أن هذه النظرة تخضع لدورة أخرى مجهولة تدور فيها زوجتك مع شخص آخر لا تراه ولا تعرفه، ولكنك تؤمن بوجوده دون أن تكون فى حاجة إلى دليل من أى نوع آخر!

وقد يكون لك مثلى صديق من النوع الذى لا تتحرج أن تفتح أمامه قلبك، وقد تكون مثلى من النوع الذى يحتاج إلى شهور طويلة من العذاب حتى يجد الشجاعة على أن يبوح له بمثل ما بحت به ومهما يكن نوع صديقك فغالبًا ما سوف يتهمك بالجنون، وبأنك مريض بالوهم، وبأنك من النوع الذى يخلق لنفسه آلاما يتعذب بها حين لا يكون هناك ما يعذبه، خاصة إذا كان هذا الصديق يعرف زوجتك قبل ذلك، ويقدر على أن ينتزع من حياتكما عشرات الأمثلة التى تؤكد حبها لك ووفاءها!

آنذاك سوف تندم مثلى على أنك بحت له بما لا ينبغى أن تبوح به لمخلوق.

وقد تفكر للحظات أنه قد يكون هو نفسه، ذلك الصديق، من تحبه زوجتك، ولكن بالنسبة لى، لم أفكر فى ذلك مرة واحدة، قد تتهمنى بالغفلة خاصة إذا اعترفت بأننى لا أملك دليلاً على ذلك سوى شعورى الخاص الذى أصبحت أثق به ثقة كاملة، ذلك الشعور الداخلى الشخصى وحده هو الذى

يؤكد لى أن زوجتى تحب، وأن من تحبه ليس هو الصديق الذى فتحت له أبواب قلبى!

وقد ينجح هذا الصديق فى أن يضع بذور الشك فى إيمانك بمعنى تلك النظرة القريرة الهانئة!

ولكن هذه الشكوك سرعان ما تتبدد حين تكتشف أن زوجتك كلها وليست نظرتها فقط أصبحت تخضع لتلك الدورة الغريبة المجهولة وعبثًا تحاول مرة أخرى أن تجد فى حياتكما مصدرًا لتلك الطاقة العارمة وتلك الحيوية النادرة التى تعصف بزوجتك وهى فى الواقع تعصف بك، تلك الحيوية التى توشك أن تخرج زوجتك من جلدها ومن ثيابها، والتى تجعل كل شىء فى بيتك وفى حياتك يتمرد على إطاره ويتجدد، كل شىء فى بيتك وفى حياتك يتنفس بهذه الحيوية ويتحرك بها وينعم بآثارها، الزهور والمفارش والستائر وقطع الأثاث وثياب الأولاد وحتى ثيابك أنت وقبل كل شىء ثياب زوجتك، كل شىء يتجدد ويتأنق ويبرق، ولا يستقر فى حال أو مكان، تلك الحركة الدءوب المرحة المتغيرة فى بيتنا جزء من تلك الحركة الغامضة التى تهدر فى قلب زوجتى، تلك الموسيقى التى لا أعرف كيف تضبط زوجتى وقت إرسالها فى محطات الراديو وتلك الأغنيات الهامسة التى أصبحت تترنم بها هنا وهناك وهى تتحرك كالفراشة بسرعة وبخفة لا يتطلبهما شىء!!

وهذه الرقة التى هبطت فجأة كالملاك، هذه الرقة التى تتحدى كل أنواع الغضب وتصبر على شقاوة الأطفال، وسخافة الجيران، ولا أقول سخافتى فقد استلت زوجتى فى براعة مذهلة كل ما يمكن أن يجعل منى شخصًا سخيفًا، لم تكن يومًا كما هى فى تلك الأيام سماحة ولطفًا ومحبة.. أجل محبة! كأن ثروة هائلة من العواطف قد هبطت على زوجتى من السماء ثروة

يستحيل إخفاؤها ويستحيل أن تحتفظ بها، ولا تبذل منها، ويستحيل أن تشعر وأنت تأخذ نصيبك منها أنك صاحبها أو أنك تستحقها ولكن كيف ترفض أو تتمرد؟

زوجتى تحب، تلك هى الحقيقة الوحيدة التى تواصل نموها الضارى فى بيتى، تحت سمعى وبصرى وفى فراشى، أصبح لزوجتى جمال المحبين، وهو جمال غريب، ونادر، جمال لا يعبأ بالوقت ولا بالثياب ولا بالأسباب لا يعبأ بالراحة أو التعب، بالصحة أو المرض! جمال يتوزع على الروح والجسد وعلى أوقات النهار والليل، فى العيون والكلمات والمشاعر والإرادة والفكر، جمال قادم من هناك.. من شعور المرء بأن الحياة ولا شىء أقل.. الحياة تريده وتتمناه وتعبده وتختاره دون غيره طريقًا تعبره إلى المستقبل، إلى الخلود تتحدى به الموت والذبول وكل النهايات!

جمال يصدر عن الثقة بالنفس ليصنع الثقة بالعالم، يصدر عن الشعور بالكمال ليصنع الكمال فى الحياة، جمال مكتسح جارف مقتدر يرغمك على رؤيته والإحساس به وأكثر من هذا يرغمك على الإعجاب به وحبه والتماسه رغم يقينك المروِّع أنه ليس منك وليس لك، وأنه يدين بوجوده لشخص آخر لا تراه رغم وجوده!

زوجتى لها ضحكات المحبين، وهى ضحكات صادرة من القلب تلتمس أوهى الأسباب لتصدر فى قوة ونقاء حين تنتهى الأسباب تبقى هى قوية وصادقة تخلق أسباب بقائها خلقًا، وترعاها كما ترعى أم مقتدرة وحيدها، زوجتى لها سعادة المحبين، وهى سعادة أبية راسخة ذات كبرياء، وذات مسام كالفلين تمتص كل شىء، وتفيض على كل شىء، وكل أحد، لا شىء يمكن أن يتهدد قدرتها على الأخذ والعطاء، لا شىء سوى حزنها الخاص، وهو حزن مثلها

مجهول المصادر، لا أحد يمكنه أن يعتذر له أو عنه وحين يجيء، يتقنع بالأمراض النسائية المجهولة المعلومة وبالأحلام والرؤى، لا شيء يفضحه سوى ذبول العيون، وساعات الأرق، وكميات الطعام الناقصة، والحكايات التى تروى باقتضاب عن مشكلات فى العمل ومضايقات فى الطريق..!

من المستحيل أن تحتمل أنت أو أنا أو أى مخلوق هذا كله دون أن تبحث عن صديق، دون أن تخلقه خلقًا.. ودون أن تفكر فى أية عاقبة، أو ندم!

ولم أشعر بالمفاجأة حين قال لى صديقى الذى لا أتردد فى أن أفتح له قلبى!

- سوف تجن.. أراهن أنك سوف تجن!
- ولهذا أبوح لك.. حتى لا أجن!
- ولكنك تعشق الجنون.. تسعى إليه.. تريده!
- ما أقوله لك حقيقى تمامًا..!
- أنت لا تريد أن تعرف الحقيقة.. الواقعة.. لو أردت أن تعرف فهناك ألف طريقة.. ولكنك لا تريد، نعم لا تريد!

ودون تفكير قلت له: قل لى طريقة واحدة!

- يمكنك أن تلاحظ سلوكها مع أصدقائك، وتلاحظ أيضًا سلوكهم معها..

ولم أقل له إننى فعلت ذلك من قبل، لم أقل له إننى لاحظت حتى سلوكها معه، مع ثقتى الكاملة بأنه هو بالذات لا علاقة له بهذه المسألة!

لم أقل له إنه أصبح لزوجتى ذكاء المحبين، هو ذكاء قادر ملهم، فهى

توزع اهتمامها على الجميع فى عدالة، وكأنها تحبهم جميعًا بنفس المقدار! وحتى لو أخطأت مرة فأى معنى للزيادة أو النقصان، فى تلك المرة!

لم أقل له إنه من الجائز أنها تحب زميلاً فى العمل، أو أن حبًا قديمًا قد بُعِث فجأة، لم أقل له إننى لاحظت وتابعت ومضيت فى كل الطرق التى يمكن أن يشقها العقل والظنون والهواجس، وأننى وجدتها جميعًا طرقًا مسدودة، يسدها ذكاء زوجتى المحبة، وربما أنها ككل الطرق التى يشقها العقل وحده يمكن أن تتسع لألف احتمال واحتمال!

لم أقل له إننى سوف أضيع.. وسوف أفقد يقينى كله لو تخليت عن ذلك الشعور الداخلى الذى يتغذى بما لا يحتمل الشك، بما لا يقدر سوى على الإحساس به، وعلى رؤيته!

وفوجئت بصديقى هذه المرة.. فوجئت به يقول لى وكأنما اهتدى إلى حل!

- حاول أن تفاجئها مرة.. المهم عنصر المفاجأة.. قل لها مثلاً وأنتما تتناولان الطعام.. والحديث يدور حول أى موضوع "سناء.. أنت تحبين.." ولم أرد..

واستطرد صديقى: المهم أن تلاحظ رد الفعل.. المهم ما يمكن أن تكشف عنه تداعيات الحوار.. المهم أن..

وصمت صديقى، ويبدو أنه لم يلاحظ إلا مؤخرًا رد الفعل بالنسبة لى!

وبذلت جهدًا لكى يستمر الحوار بيننا.. شبه طبيعى..

وحتى لا يشعر صديقى بما يدور فى داخلى! ولكن هل نجحت فى ذلك؟؟

وفى الحقيقة أنه لم يدر بينى وبين صديقى أى حوار حقيقى من قبل كنت

واحدًا من اثنين مؤمنًا أو مجنونًا، وكلاهما لا يقدر على الحوار.. وكنت قبل ذلك كله قد أخفيت عن صديقى أخطر جزء فى قصتى..

وربما لو أخبرته به لما قدم اقتراحه البرىء أو الماكر، والذى يدينه بقدر ما يبرئه..

كان مثل هذا الحوار المقترح قد حدث بينى وبين زوجتى، حدث بالفعل.. الغريب أننى كنت أريد أن أستعمل نفس كلمات صديقى ولكن حين بدأت الحديث مع زوجتى أقول:

- سناء.. أنا أحب..

وكمن يمثل الدهشة قالت:

- أعرف..!

ودهشت أنا بحق هذه المرة:

- تعرفين ماذا؟

- أنك تحب.

قالت محاولاً أن أمثل دور المشاكس.

- ناقص أن تقولى أنك تعرفينها..

- أعرفها طبعًا..

- من؟

- أنا..

ثم لم أشعر سوى بملمس ذراعيها الناعمتين وشعرها الغزير يعجزاننى عن

أى حوار.. وبريق عينين سعيدتين إلى الحد الذى لا تسمحان فيه لشخص أو شىء أن يفسد هذه السعادة..

وجاهدت لكى أقول فى سذاجة مرعبة:

- لماذا لا تأخذين المسألة بجد..؟

- طبعًا آخذها.. أنت تحبنى.. أليس كذلك؟

- وأنت، قلتها بلا وعى.

- أحبك!

- ماذا تريدين؟.. قلتها وأنا أحاول أن أفك وثاق الذراعين برفق..

- أنت؟.. قالتها وهى تعيد إحكام الوثاق برقة..

- الآن؟

- نعم.!

- أنت..

ولم أكمل عبارتى.. لم يكن ثمة معنى لشىء ولا حتى لما تريد.. وحتى حين أصبحنا شخصًا واحدًا.. رغبة واحدة.. جنونًا واحدًا.. كنت أثق كما لم أثق من قبل بأن زوجتى تحب.. تحبه هو.. ذلك الشخص الآخر المجهول الذى لا أعرفه.. حتى وهى بين ذراعى تغمض عينيها على صورته.. لتراه.. لتعتقد أنه هو ما تلمسه ما تحس به.. حتى فى لحظة الصدق الأعظم كنت أتوقع أن تنطق باسمه، ولكنها لم تنطق حتى باسمى.

كانت تنطق باسم الحب وحده.. وكانت تتوجه له.. وتصلى فى محرابه..

أكان من الممكن أن أروى له.. لصديقى هذه القصة.. ولكنها هى يمكن أن ترويها لمن تحب.. ومع أن العقل وحده هو الذى يتصور أن الخطأ الشنيع أو العبقرية الفظيعة هى التى تدفع صديقى لو كان هو من تحبه زوجتى.. إلى تقديم هذه النصيحة لأنها تصلح دليل براءة بقدر ما تصلح دليل اتهام!

فإن ثقتى فى براءة صديقى بعد تقديم هذه النصيحة لم تهتز تلك الثقة التى لا تعتمد على شىء أكثر من شعورى الخاص الذى يتأكد لى كل يوم أننى سأضيع إذا تخليت عنه مع أنه يمكن أن يقودنى إلى الجنون..

ولكن الجنون الحقيقى لا المتوقع هو الذى كان فى انتظارى حين فوجئت باختفاء صديقى.. كنت أبحث عنه فى كل مكان يمكن أن يذهب إليه، وحتى بعد أن أخبرنى جيرانه أنه سافر دون أن يعرفوا إلى أين؟ ظللت أبحث عنه وأنتظر عودته!

كنت أود أن أؤكد له ثقتى فيه، وثقتى فى براءته، كنت أود أن أبوح له بما لا أقوى على البوح به لغيره.. كنت أود أن أكمل له القصة التى شهد بدايتها ثم بدا وكأنه ملنى أو مل النهاية، أو ضاق ذرعا بالحوار من جانب واحد..

كنت أود أن يشاركنى اليقين بأن زوجتى تحب، وبأنها تعيش فى هذه الأيام آلام المحبين.

وبأنه يجب أن يثق فى طريقتى لأننى لو تخليت عنها فسوف لا أملك دليلا واحدا على براءته!

ولكن صديقى رغم انتظارى لم يعد.. ولست أدرى متى يعود؟ وحاجتى إلى صديقى لا يمكن أن تنتظر، فلتكن أنت صديقى ومنقذى من الجنون، وشاهدى على ما يمكن أن يصبح له غياب صديقى من معنى بعد أن أصبح لزوجتى آلام المحبين!

فـى البدايـة لم تفزعنـى آلام زوجتـى، كـانـت هـذه الآلام جـزءًا مـن تلـك الدورة التى ترتبط فيها زوجتى بذلك الشخص الآخر الذى تحبه! كانـت جـزءًا من السعادة والمرح والنشوة.

وكنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن تتوارى الآلام المجهولة المصدر فجـأة، كما جاءت فجأة!! ولكن أحزان زوجتى بدت وكأنها لا تبغى الرحيل!

عقلى وحده هو الذى يصر أن يلتمس علاقة ما بين صديقى الذى لا يجىء وأحزان زوجتى التى لا ترحل!

عقلى وحده هو الذى دفعنى ذات لحظة لأن أقول لها، لزوجتى:

- شريف لم يعد يزورنا..
- الغائب له عذره..
- متى عرفت أنه مسافر؟
- لا أعرف إن كان مسافرا أم لا.
- أيمكن أن يكون هنا ولا يجىء؟
- كل شىء ممكن!

نعم.. كل شىء ممكن لو أننى ظللت أفكر فى المسألة بهذه الطريقة..

لو أننى تخليت عن مشاعرى الخاصة التى تؤكد لى براءة صديقى، وأن زوجتى تعانى فى نفس الوقت. آلام المحبين..

لم يضننى شىء مثل محاولة زوجتى أن تكتشف لحزنها أسبابا كل يوم.. كان بحثها عن الأسباب يكلفنى بأن أبحث بدورى عما يثبت كذب هذه الأسباب!

حزن زوجتى لا ينتهى، ومحاولاتها تجهد محاولاتى، وصديقى الغائب لا يعود!

- سناء.. أنت حزينة!

ابتسمت زوجتى ابتسامة فضحت حزنها..

- أنت تعرف الأسباب! قلتها لك!

- نعم.. ولكن هل تستحق كل هذا؟

- جائز أنها لا تستحق.. لكن..

زوجتى أصبحت شبحا، وليس من المعقول أن أنتهز هذه الفرصة لأحقق انتصارا رخيصا على هذا الشبح، ولكن هل من الممكن حقًا أن أحرز هذا النصر.. هل من الممكن أن أظفر من هذه الشفاه الشاحبة باسم الرجل الذى تحبه؟

لو أنها تعرف أن كل ما أريد أن أعرفه هو أن هذا الرجل ليس صديقى..؟ ترى هل تغضب أم ترضى؟

لو أننى حاولت الآن بالحيلة أو بالقوة مع هذا الشبح الذى كان يومًا زوجتى.. لانتفضت عن قوة هائلة لتحتفظ إلى الأبد باسمه.. نعم هذا ما تنم عنه الملامح الشاحبة الهزيلة المصرة، ستبقى وحدها التى تعرفه وتحبه وتحزن من أجله!

هل أعتذر عن ضعفى أم عن ضعف زوجتى، كلانا غارق فى ضعفه، فى أحزانه الخاصة، كلانا يدرك آلام الآخر من طرف خفى فلست أظن أنها حتى الآن وبعد كل محاولاتى لا تدرك أننى أدرك!

كلانا يتهاوى تحت مطارق ثقيلة.. تسحقه وتمزقه.

ورغم ذلك فكلانا وحيد تمامًا، منعزل عن الآخر، تعجز الآلام المشتركة عن أن تقيم بيننا جسرًا..

ربما ما يربط بينى وبينها الآن خيط دقيق من الشفقة المشتركة فلا أحد غيرها ولا أحد غيرى يدرك معنى الهزيمة التى تحيق بنا معًا..

شىء واحد هو الذى أتخيله وأتمناه، أن ترحل أحزان زوجتى لبعض الوقت.. أن تعود لها سعادة المحبين واقتدارهم.. آنذاك سوف ألتمس مسدسى الصغير الذى تخفيه قبضة يدى لا لأقتلها فهذا ما لا أفكر فيه، لكن لأرغمها.. أرغم كبرياءها واقتدارها على أن يبوحا باسمه، باسم الرجل الذى لا أزال أؤمن بأنه ليس صديقى.

أحيانًا أعتقد أن هذا الهدف الصغير هو كل ما أعيش من أجله أن أعرف ما لا يستحق المعرفة، وأحيانًا أعتقد أننى لا أخشى شيئًا مثلما أخشى أن تعود لزوجتى سعادة المحبين واقتدارهم، لأنها آنذاك سوف لا يرهبها شىء، ولا حتى فوهة مسدسى الصغير، ما أخشاه وما أتوقع حدوثه أنها سوف تضن بسرها الغالى.. وسوف تواجه الموت من أجله.. وربما أنها لن تواجهه أبدًا، فإن قتلها سوف يعنى بالنسبة لى أن أقتل بيدى الدليل الوحيد الذى يمكن أن يؤكد يومًا ما براءة صديقى! وصدق مشاعرى، وبراءتى من الجنون.

لو عاد صديقى اليوم لفتحت له قلبى كما أفتحه لك.. ولكنه لا يريد أن يعود.. لا يريد أن يشارك فى هذه اللعبة التى تقتل لاعبيها جميعًا.. فهأنذا ألمح فى عينيك أنت.. يا من اتخذته لبعض الوقت بديلا لصديقى ألمح نفس الاتهام الذى كان يوجهه لى، اتهاما بأننى لا أريد أن أعرف الحقيقة، أو أسعى لها، وأننى أسرع الخطى فى طريق واحد لا غير سوف ينتهى بى إلى الجنون.. ألمح فى عينيك

هذا الاتهام، ولكننى أرفضه منك، كما رفضته منه.. وأستميحك أن تسمع قصتى حتى النهاية..!

❖❖❖

فصديقى حتى الآن لم يعد من رحلته الغريبة.. ولكن أحزان زوجتى هى التى بدأت ترحل.. نعم بدأت ترحل.. يجب أن تصدقنى فى هذا، فهذا أمر لا يحتمل الكذب.. هذا أمر أنا مصدره الوحيد ويجب أن تصدقنى.. وجه زوجتى القديم الذى لم أتعذب بشىء مثلما تعذبت بمحاولة تذكره يعود.. الملامح القديمة، لزوجتى تعود.. نظراتها وضحكاتها وسعادتها وأفراحها وصوتها وضعفها وأحزانها.. تعود لتصبح جزءًا من حياتنا اليومية.. تتسق معها وتتآلف، تنبع منها وتصب فيها، تعود دون طلقة رصاص، دون اكتشاف حقيقة الرجل الآخر الذى كانت تحبه، والذى حل ضيفا على حياتنا بعض الوقت، تعود كسيرة حزينة لا تبعث فى نفسى حبًّا أو كراهية أو شفقة أو حقدًا، تعود كما ذهبت، وأنا بلا دور، أو لعله كان لى دور الخائف العاجز المروع.. ذهبت دون أن أملك لها منعًا، وتعود دون أن أملك لها رفضًا أو قبولاً!

عادت إلى بيتنا كما كان، وإلى أولادنا الذين يكبرون ويتطلعون وتخفى عيونهم أكثر من سؤال عما يجرى فى هذا البيت. يكبرون ويمضون سراعًا نحو سنوات الحب والألم والنشوة والوهم والحقيقة.

أما أنا فسأظل أنتظر عودة صديقى الغائب الذى يمكن أن تجد أنت لغيابه ألف معنى.. أما أنا فسوف أنتظره لأننى واثق من براءته.. وأثق من قدرته على إثباتها، ولا مفر لى من صداقتك حتى يعود صديقى!

ألمح فى عينيك نظرة ارتياب وكأن نهاية القصة لم تقنعك بشىء.. أو لعلك لم تقتنع بعد بأنها قد انتهت..! وهذا بعض حقك، ولكنى لا أسمح لك لحظة واحدة بأن تشككنى فى براءة صديقى، فلو سمحت لنفسى بهذا الشك فعليك أنت أن تشك فى هذه القصة كلها من البداية حتى النهاية! فى كل ما رويته لك!

أسمعك تهمس بأن جنونى مؤكد، ولست أطلب منك سوى أن تتريث قليلاً فى إصدار هذا الحكم القاسى فمن يدرى يا صديقى.. فقد تفتح عينيك ذات صباح لتكتشف بدورك أن زوجتك تحب!

إلى أين تأخذنى هذه الطفلة؟

إحسان عبد القدوس(*)

كانت سميرة جالسة كعادتها تقرأ كتابًا بينما البنت الصغيرة فوزية جالسة بجانبها تشخبط بأقلام الألوان المتعددة تحاول أن ترسم شيئًا لا تدرى هى نفسها ماذا ترسم.. وفجأة قفزت البنت الصغيرة وألقت بنفسها على سميرة كأنها تختبئ بين أحضانها وصاحت سميرة:

- جرى إيه يا فوفو..

وقالت فوزية كأنها تهمس:

- بابا وصل..

ولم يكن الأب قد دخل عليهما بعد، ولكن الصغيرة فوفو قد أحست بوصوله ربما من صوت باب الشقة أو من وقع خطواته، أو ربما تعودت أن تشم رائحته، أو أن مجرد اقترابه منها حتى دون أن تراه يثير فيها كل هذا الخوف.. إلى أن ظهر أمامهما.. ليس على وجهه أى ابتسامة.. كل ملامحه معقدة صارمة كأن هذا هو شكله.. كأنه هكذا خلق.. صارم التقاطيع.. ولم يتعود الابتسام أبدًا.. وقال بمجرد ظهوره أمامهما:

(*) إحسان عبد القدوس (١٩١٩- ١٩٩٠).
نشر قصته الأولى "الفستان" بمجلة روز اليوسف العدد ٥٥٣ بتاريخ ١٩٣٨/١٠/١٦.
وهذه القصة "إلى أين تأخذنى هذه الطفلة" نشرت فى (١٠ قصص قصيرة من أدب جيل الرواد)، كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، القاهرة، سبتمبر ١٩٩٣.

- كيف حال البنت يا آنسة سميرة..؟

وقفزت سميرة واقفة بمجرد أن رأته وشدت البنت الصغيرة واقفة معها وهى ممسكة بيدها قالت وهى تبتسم ابتسامة كبيرة كأنها تتعمد سد الفراغ الذى يصحب تبويزة الأب وصرامة وجهه:

- فوفو هائلة.. النهاردة كانت تقرأ وتكتب أحسن منى.. إنها فى منتهى الذكاء يا رحمى بيه.. ولم يكن الأب قد اقترب من ابنته فوفو ليقبلها ولا مد يده ليصافح سميرة ولكنه أخذ يتطلع إلى ما ترك على المائدة من أوراق، وأمسك بالورقة التى كانت فوفو تملؤها بخطوط ملونة كأنها لا تدرى ماذا ترسم.. ثم رفع هذه الورقة وألقى بها فى وجه البنت الصغيرة ثم مد يده وصفعها على خدها.. وهو يصيح:

- إيه الشخبطة دى يا بنت..؟

ثم التفت إلى سميرة صائحا:

هل تقصدين أنها أحسن منك فى الشخبطة..

وكانت الطفلة فوفو قد ألقت رأسها على صدر سميرة وبدأت فى البكاء.. والغريب أنه بكاء صامت.. بلا صوت.. كأنها تخاف أن تصرخ ببكائها حتى لا يسكتها أبوها بمزيد من الصفعات.. وقالت سميرة وقد تجهّم وجهها وتنظر إلى الأب فى سخط:

- لقد كنا فى فترة إجازة وهى تلعب بالأقلام الملونة.. وكنا قد انتهينا من الدراسة من قبل..

وكأنه لم يسمعها وأدار لهما ظهره يهم بالخروج من الغرفة قائلاً:

- من كانت قبلك كانت تقول إنها هائلة.. إلى أن اكتشفت بنفسى أنها خيبة.. إنكن تدافعن عن أنفسكن وتحاولن إثبات أنكن قادرات على الارتفاع بالبنات إلى قمة العظمة.. أو ربما تشفقن على فوفو وهى ترفض أن تتعلّم شيئًا.. أو تعجز عن فهم أى شىء.. ربما كانت مريضة.. هل أنت ستتركين البنت الآن؟

وقالت سميرة:

- أمامى نصف ساعة وسأبقى مع فوفو إلى أن تتناول العشاء وتنام..

ثم تركت فوفو وخطت نحوه بعد أن خرج من الغرفة وقالت له وهى تواجه عينيه بعينيها كأنها تتحداه:

- لماذا ضربتها الآن..؟

وارتعشت عيناه أمام عينيها كأنه فوجئ بإنسان يحاسبه على أعماله وقال وهو يلوى شفتيه أمام وجهها كأنه يحذرها:

- لأنى اكتشفت أنها لم تفعل شيئًا سوى الشخبطة بالأقلام الملونة.. وأنك كنت تكذبين علىَّ عندما قلت لى: أنها أصبحت هائلة فى دراستها..

وقالت سميرة:

- إنها فعلا درست.. هل تريد أن أمتحنها أمامك..

قال وهو يهم بالابتعاد عنها:

- لا يهم.. إنك تجالسينها وتعملين عندى منذ قريب.. وأمامى

فرصة لأختبرك.. وعلى كل حال إن ضرب البنات هو أحسن الوسائل لتربيتهن.. إنى أربى ابنتى على الخوف.. يجب أن تخاف منى حتى تخاف من أن ترتكب أى خطأ.. وحتى تخاف أن تخرج عن طوعى عندما تكبر..

وقالت سميرة:

- هذه أسوأ طريقة لتربية البنات.. البنت الخائفة هى البنت المعذبة.. والبنت المعذبة هى التى تلقى بنفسها فى أول مصيبة تصادفها.

وقال رحمى وهو يلوى شفتيه احتقارا لما يسمعه وربما احتقارا لسميرة نفسها:

- لقد عاشت أمها معى وهى خائفة دائما.. كلها خوف.. وكانت من أنظف وأشرف وأعقل الزوجات..

وقالت سميرة برنة ساخرة:

- ولهذا ماتت.. رحمها الله..

وتجهم وجه رحمى أكثر وقال بلهجة جادة:

- إنها خالفتنى وتحررت من الخوف منى بأن ماتت.. لم أكن قد سمحت لها بالموت.. وأحطتها بكل ما يضمن لى أنها لن تموت.. ورغم ذلك ماتت.. وأبشع ما فعلته أن تموت وتركت لى ابنتنا فوزية لأحمل همها وحدى، ودون أن تقدر أنى لا أستطيع أن أكون أما وإن كنت أعتبر خير أب..

وقالت سميرة وهى تنظر إلى رحمى فى تعجب ودهشة:

- ربما ماتت من الخوف..

وتركها رحمى دون أن يرد عليها ولعله لم يسمعها ودخل إلى حجرته المجاورة وأغلق الباب وراءه..

وعادت سميرة إلى الطفلة فوزية واحتضنتها إلى صدرها وقلبها يتمزق عليها.. إنها فتاة يتيمة الأم بين يد أب مجنون.. وأخذت تضفى عليها من الحنان والتدليل حتى هدأت وتناولت طعام العشاء وظلت معها حتى نامت.. وارتدت معطفها وجمعت حوائجها ثم خرجت.. وعلى الباب قابلتها أم أمينة التى تقوم بمهمة الشغالة فى البيت.. قابلتها كأنها تواجهها ثم مدت لها يدها بورقة مالية قيمتها عشرة جنيهات.. قائلة فى سخط:

- البيه ترك لك هذا المبلغ، وأراد منى أن أسلمه لك.. والله خسارة.. أنا الأولى بكل هذا..

ولم ترد عليها سميرة.. أخذت ورقة الجنيهات العشرة ووضعتها فى حقيبتها بهدوء وفتحت الباب وخرجت حتى دون أن تحيى أم أمينة بكلمة..

❖❖❖

وعادت سميرة إلى البيت ودخلت حجرتها بخطوات واسعة دون أن تبحث عن أمها أو أختها الأصغر كأنها تحاول أن تختبئ.. إنها فى حالة لا تطيق معها أن تلقى أمها أو أختها وتناقش معهما أو مع من تجد منهما شئون حياتهن..

إنها تحس كأنها مغتاظة غيظا كأنه قنبلة داخل صدرها على

وشك الانفجار.. والسبب هو الفتاة الطفلة فوزية.. إنها تعيش فى كل فكرها ولا تتركه وهى لا تحاول أن تطردها منه.. كيف تنقذها من صرامة وكراهية أبيها لها.. لعله لا يكرهها ولكن هذا ما يؤمن به.. وهو أن الفتاة – أى فتاة – يجب أن تعيش على الخوف حتى تحتفظ لنفسها بالسلامة.. ولا تخاف أباها وحده.. بل تخاف كل من فى الدنيا ممن يقتربون منها ويفرضون حقًا عليها..

ولكن ماذا تستطيع هى بالنسبة لهذه الفتاة.. إنها ليست ابنتها.. ولا قريبتها ولا حتى صديقة من صديقات العائلة، إنها مجرد جليسة معها تقضى معها ساعات متفقا عليها نظير أجر.. وهو ما يسمى بالإنجليزية وينطق بكل اللغات BABYSITTER.. جليسة أطفال.. وإن كانت لأول مرة فى حياتها تتفق على أن تكون جليسة لطفلة طوال النهار نظير عشرة جنيهات فى اليوم.. إنها طفلة بلا أم.. وأبوها مشغول فى عمله طوال النهار وإن كان يتعمد أن يتفرغ بالليل للإشراف على ابنته.. وعشرة جنيهات فى اليوم ليست كثيرة.. لقد مرت عليها أعمال كانت تتقاضى فيها عشرة جنيهات فى الساعة أو كل ساعتين..

إنها ليست المرة الأولى التى تعمل فيها كجليسة أطفال.. وقد تنقلت بين مسئوليات أعمال كثيرة.. لقد ولدت لتعمل وتكسب عيشها بعرق جبينها.. وقد فتحت عينيها على الحياة وأبوها مسئول عنها.. أب رائع مثالى ينفق كل مليم يصل إليه على أولاده.. ولم يكن له أولاد إلا هى وأختها.. وقد وضعها عندما شبت فى مدرسة سان جوزيف تتلقى العلم باللغة الفرنسية.. وظلت بها إلى أن وصلت إلى السنة النهائية، وكان المفروض أن تتفوق فى امتحان التخرج وتتم تعليمها فى باريس.. ولكن الأب مات.. لقد مات فجأة.. واتضح أنه لم يترك وراءه أى قرش..

لقد كان ينفق كل ما يصل إليه على العائلة.. ولم يهتم بأن يكون له رأس مال يحتفظ به فى البنك لتواجه به العائلة الأحداث.. بل إنه لم يكن له معاش، فهو لم يكن موظفا فى الحكومة..

لقد كان يعتبر نفسه من رجال الأعمال وقد ترك وراءه ديونا لعمليات صغيرة كان يقوم بها.. كما أن بعض زملائه وأصدقائه أضافوا مبالغ لمساعدة العائلة.. وكلها مبالغ لا تحتمل إلا شهورا بل يمكن أن تضيع كلها فى أيام..

وكان أول ما واجه الأم هو التساؤل عن المستقبل.. كيف تعيش هى والابنتان.. إنهن نساء وليس أمامهن من طريق إلا الزواج من رجل لكل منهن يتحمل مسئوليتها.. والأم نفسها لم تعد تصلح للزواج.. إنها عجوز وليس لديها أملاك أو أموال تغرى أى رجل بأن يمد يده إليها رغم أن كثيرًا فى مثل سنها تزوجن للمرة الثانية..

إنها لم تتجاوز الحادية والأربعين من عمرها.. ورغم ذلك فهى تتمنى لنفسها رجلاً يتزوجها.. لقد كانت تحب زوجها وأبا ابنتيها.. ولكنها فى حالة لا تتيح لها الاحتفاظ بالحب، إنها حالة تفرض عليها أن تتدبر ما يكفل لها الحياة ولابنتيها..

لا أمل إلا أن تتزوج سميرة.. ولكن سميرة لا تتميز بجمال يمكن أن يفرض نفسه على الرجال.. وإن كانت تتميز بشخصية رقيقة مهذبة واسعة المعرفة تعتبر شخصية تجذب كل من حولها وكل من يتعامل معها.. ستجد من يتزوجها.. رجل يستطيع أن يضمن حياة العائلة.. وعليها أن تبذل مجهودا كبيرًا لتجد هذا الرجل.. ولكن سميرة ترفض هذا التخطيط لتدبير حياة العائلة.. إنها لن تتزوج.. ولن تسعى للزواج..

الطريق الوحيد الذى ستسير فيه بعد أن مات أبوها هو أن تعمل.. وتكسب..

وتركت مدرسة سان جوزيف قبل أن تنال الشهادة النهائية.. لتؤجل هذه الشهادة إلى عمر آخر.. وبدأت تقضى كل دقائق عمرها فى البحث عن عمل.. عمل ليس فى حاجة إلى أن تكون فى منتهى الجمال.. لأنها ليست جميلة.. ولكنه فى حاجة إلى مهارتها فى التقاط وسائل الخدمة.. كل الخدمات.. وقد استطاعت فى أسبوع واحد أن تكون موظفة فى كباريه كل مهمتها أن تستقبل الزبائن وتجلسهم وتنادى لهم الجرسون.. أى لم تكن ممن يبعن أجسادهن للزبائن بل ترحب بهم.. وانتقلت إلى عمل آخر وصلت إليه كبائعة كتب فى إحدى مكتبات شارع قصر النيل.. وتعتمد على اللغة الفرنسية التى تعلمتها فى سان جوزيف للتفاهم مع الكتب ومع الشارين..

لقد وجدت نفسها تقضى معظم ساعات يومها فى القراءة.. فالزبائن الذين يترددون على المكتبة لا يزيدون على مجرد بضعة أفراد، وقد يمر يوم كامل لا ترى فيه أى زبون.. وهى تهوى القراءة، ولكنها لا تريد أن تكون مجرد قارئة، إنها تريد أن تكون عاملة..

واستقالت من العمل فى المكتبة خصوصا أن المرتب كان ضئيلا لا يتجاوز ثمانين جنيها فى الشهر.. والجنيهات هذه الأيام لم تعد لها قيمتها واحترامها.. وقضت أيامًا تبحث عن عمل جديد..

ولم تطل بها الأيام وأصبحت عاملة فى فندق شيراتون وعهدوا إليها بأن تخدم فى الكافيتريا.. وبسرعة استطاعت أن تكشف أسرار العمل كله، وأسرار التعامل مع الزبائن أو مع العاملين فى الفندق

نفســه.. وأصــبحت تكســب أكثــر.. مــائتى جنيــه فــى الشــهر عــلاوة علــى نصيبها من البقشيش..

ولم تهـتم بـأى رجـل.. إنهـا تتعامـل كأنهـا معهـم مـن جنس واحـد.. والواقـع أنـه لم يتقـدم إليهـا أى رجـل يغازلهـا ويحـاول أن يقـيم معهـا عـلاقـة خاصـة.. إنهـا ليسـت مغريـة كـامرأة.. وجاذبيتهـا الخاصـة لم تفكـر فـى استغلالها إلا فى حدود مجرد المعرفة وتقديم الخدمات..

وقـد اسـتطاعت فـى هـذه الحـدود أن تكسـب كـثيرًا مـن الأصـدقاء والصـديقات.. بـل اسـتطاعت أن تكسـب صـداقة كـثير مـن الصـديقات ممـن تعـودن الـتردد علـى الكافيتريـا لتنـاول الإفطـار أو الغـداء.. وأغلـبهن أجنبيات، وقد قالت لها إحداهن يوما:

- إن صـديقتى فـى حاجـة إلى مـن تجـالس أطفالهـا فـى غيابهـا علـى أن تكـون قـادرة علـى التفـاهم بالفرنسـية.. فهـل يمكـن أن نجـد واحـدة.. وكيف؟

وقالت سميرة وعيناها تلمعان كأنها وجدت ما يبهرها:

- أنا.. إنى أحب أن أجالس الأطفال..

وقالت السيدة الأجنبية:

- ولكنك تعملين هنا..

وقالت سميرة وهى تسلط كل لباقتها من خلال ابتسامتها:

- أسـتطيع أن أوفـق بـين العملـين.. وأدبـر الأوقـات التـى أحتـاج فيهـا للتفرغ لكل عمل..

ووجدت سميرة نفسها تعمل جليسة طفلين فى السادسة والرابعة من عمريهما وأمهما سيدة فرنسية تعمل فى إحدى الشركات الفرنسية فى مصر.. والمرتب محترم.. خمسة جنيهات فى الساعة.. ومطلوب منها أن تجالس الطفلين من الساعة التاسعة صباحا حتى الثانية بعد الظهر..

وفى أيام كثيرة تخرج السيدة مع زوجها فى المساء وتطلب من سميرة أن تجالس طفليها فى المساء أيضًا.. بل حدث أكثر من ذلك.. فإن كثيرًا من الزوجات الأجنبيات أصبحن يلجأن إليها لتجالس أطفالهن فى غيبتهن.. والساعة بخمسة جنيهات ورفعتها بعد أن عرفت المجتمع الأجنبى الواسع فى مصر إلى عشرة جنيهات..

إنها تكسب كثيرًا.. ثلاثمائة جنيه فى الشهر على الأقل وقد تصل إلى أربعمائة أو إلى خمسمائة.. إنها تكسب ما يكفيها للتفرُّغ لتكون جليسة أطفال فحسب..

واستقالت من عملها فى فندق شيراتون.. وتفرَّغت لتلبية مطالب الأمهات لمجالسة أطفالهن أثناء غيبتهن.. وكانت قد أعدت ودبرت نفسها على النجاح فى مهمتها.. إنها أصبحت تعرف كيف تلاعب الأطفال فى مختلف الأعمار.. وكيف تتعامل معهم.. ثم كيف تشغلهم بما يريحها منهم وتجلس هى وتقرأ ما تحمله معها من كتب.. إنها تقرأ كثيرًا وتعد نفسها لنيل الشهادة التى تؤهلها للالتحاق بالجامعة.. ولكنها كانت تصادف العجائب فى التعامل مع الأطفال..

لقد كان بينهم طفل أو صبى فى السادسة أو السابعة من عمره.. قدم لها وهو مرتد أزياء عسكرية تغطيه من رأسه إلى قدميه وفى يده بندقية وحوله ألعاب كلها ألعاب قتال.. مسدس.. وقوس وسهم.. وعصا..

ومجموعة من الرصاص الذى يطلق من البنادق.. وطبعًا كلها ألعاب.. ليس بينها أى شىء سوى مجرد لعبة.. واستقبلت كل ذلك مبتسمة.. ربما كان والده هو الملحق العسكرى فى سفارة بلده. وأخذت تلاعب الصبى.. ألعابا أقرب إلى التحركات العسكرية.. إلى أن تعبت وطلبت منه أن يترك اللعب ويقرأ فى الكتب التى حوله ويتفرج على الصور وكلها صور عسكرية.. وقالت له: إنها ستستريح قليلاً وتقرأ فى الكتاب الذى معها هى الأخرى.. وإذا بالصبى المسلح يصرخ أيضًا قائلاً لها:

- أنت هنا لتكونى دائمًا معى لتلبى كل ما أريده.. أنت أسيرة تحت سلطة الجيش..

وكان يقول هذا الكلام وهو يوجه البندقية إلى صدرها ثم ترك البندقية وأمسك بالقوس وأطلق عليها السهم.. وكل تحركاته اعتداءات.. وصحيح أنها مجرد لعب ولكنها خافت وطاوعته وأخذت تلعب معه ألعابا عسكرية.. إلى أن عادت أمه ومعها أبوه فسلمته لهما وقبضت حقها.. خمس ساعات بخمسين جنيها.. ومن يومها لم تذهب لتجالس هذا الطفل.. وتعتذر أيضًا عن تلبية الدعوة لمجالسته.. والعجيب أنه طفل ألمانى لا أمريكى ولا إنجليزى.. ومفروض أن ألمانيا لا تربى أولادها على خوض الحروب.. والإيمان بالحرب.. ولكن لقد ثبت لها العكس.. ربما كان الأمريكان ينشئون أولادهم على الإيمان بالحروب ليشتروا كرامتهم بعد الهزيمة القديمة التى لا يستطيعون التخلص من آثارها..

كان هذا واحدا من الصبية الذين أثاروا عجبها واعتبرته شخصية شاذة.. إلى أن دعيت يومًا لمجالسة فتاة ستغيب عنها أمها بضع ساعات..

إنها ليست طفلة بل هى صبية ربما كانت فى الحادية أو الثانية عشرة من عمرها.. واستقبلتها الصبية بترحاب كبير، ثم أخذت وهما جالستان وحدهما تقدم لها كل ما فى البيت من قطع الحلوى والشيكولاتة.. ثم فجأة أخرجت من جيبها عشرة جنيهات أعطتها لسميرة وأخذتها منها فى دهشة وسألتها فى تعجب:

- ما هذا..

وقالت الصبية:

- هذا ما استطعت أن أحتفظ به لنفسى لأعطيه لك حتى تحبينى وتشملينى بعطفك.

وقالت سميرة ضاحكة وهى لا تفهم ما تريده الصبية:

- إنى أحبك.. إنك حلوة إلى حد أن لا أحد يستطيع أن يقاوم حبك..

وقالت الصبية وهى تتكلم باللغة الفرنسية.. رغم أنها من أهل السويد:

- إذا كنت تحبيننى.. فإنى أرجو أن تسمحى لى بالخروج من البيت..

وسألت سميرة فى تعجب:

- لماذا..؟

وقالت الصبية:

- أريد أن أريح نفسى من هذا البيت.. وأمى لا تخرج منه وتحبسنى معها بين هذه الجدران..

وتحرك عقل سميرة بسرعة عنيفة كأنه بركان.. لماذا تريد هذه الصبية أن تخرج.. ربما تريد أن تهرب من البيت.. ولكن لعل هناك دوافع أخرى..

وقالت لها وهى تربت عليها وتدللها:

- سنخرج.. أنت وأنا وحدنا..

وصاحت الصبية:

- لا.. أريد أن أخرج من البيت وحدى..

وقالت سميرة وهى تحتضنها بابتسامتها تريدها أن تستسلم لها حتى لو كانت تخدعها:

- ستكونين وحدك حتى وأنا معك.. أنا لست أمك رغم حبى لك ولن أقول شيئًا لأمك عما تريدينه من الخارج.. ولكنى مضطرة أن أخرج معك..

وقالت الصبية فى سخط:

- تعالى..

وسبقت سميرة على السلم للوصول إلى الشارع وسميرة تجرى وراءها.. إلى أن وجدتها تقف أمام شاب كان ينتظرها قريبا من البيت.. إنه قطعا شاب مصرى أسمر.. وهو ليس كبيرًا.. ربما كان فى الخامسة عشرة من عمره.. والتصق الشاب بالصبية وخطت إليهما سميرة.. واحتفظت بابتسامتها ومدت يدها تصافح الشاب.. وقالت له:

- سأكون معكما.. ولكن بعيدة عنكما.. وصحب الشاب

الفتاة وسميرة تسير بجانبهما ولا تحاول أن تسمع كلامهما ولكنها غارقة فى الدهشة وفى الحيرة.. ماذا تستطيع أن تفعل.. لا شىء.. إنها حتى لن تقول شيئًا لأمها بعد أن تعود.. هكذا وعدت الصبية..

وسار الشاب والصبية إلى أن دخلا فى إحدى الحدائق.. وأخذا يجريان كأنهما يلعبان استغماية.. ثم يجلسان على الحشيش.. ومال الصبى وقبل الصبية.. وسميرة تتلقى القبلة البريئة كأنها صفعة على خدها هى.. إنها قطعا قد أخلت بمسئوليتها عن الصبية.. وقد يأتى يوم يلتقيان بين الجدران ليلعبا بما هو أكثر.. إنه أمر عادى فى المجتمع الأوربى وخصوصا فى مجتمع السويد.. إن كل ما تستطيعه هو أن تهرب من هذا المجتمع ومن هذه الصبية.. وقد ظلت تراقبها حتى أعادت الصبية إلى البيت.. ومن يومها أصبحت ترفض أن تكون مسئولة عنها.. ولكنها قالت لها قبل أن تتركها:

- يجب أن تقدمى كل من تلعبين معهم إلى ماما وبابا .. حتى تلعبا فى البيت كما تلعبان فى الشارع..

وقالت الصبية فى زهو كأنها فخورة بصديقها المصرى:

- إنه لا يريد أن يدخل البيت.. ولا يشرفه أن يعرف ماما وبابا.. ومالنا والعواجيز.. لذلك فنحن نلعب دائمًا فى الشارع أو فى بيته بعيدًا عن أمه وأبيه..

وأقنعت سميرة نفسها بأنه مهما كان ما يحدث بين الفتى والفتاة فهو ليس غريبا عن مجتمع السويد، أى المجتمع الذى تنتمى إليه الفتاة.. إنه مجتمع مفتوح لا قيود فيه بين الفتى والفتاة، وكل ما هنالك أنها لا

تستطيع أن تحتمل هذا المجتمع وتقبل تقاليد الحياة فيه.. إنها ليست سويدية إنها مصرية..

وقد تنقلت خلال هذه الفترة بين عشرات من العائلات وتقوم بمجالسة الأطفال.. وكلها عائلات أجنبية.. إن العائلات المصرية لا تعترف بحاجتها إلى جليسة أطفال.. وغاية ما يمكن أن تصل إليه هو التعامل مع دور الحضانة.. إلى أن جاءتها صديقتها عزيزة وطلبت منها فى رجاء أن تعمل جليسة للطفلة فوزية.. وقالت لها إنها يتيمة الأم وأبوها رحمى بيه من رجال الأعمال ويعيش وحده مع ابنته الطفلة حائرا معها ويتعذب بمسئوليته عنها.. وهو غنى مستعد أن يدفع لمن تتحمل معه مسئولية معاشرة هذه الطفلة.. إنه مقتنع بنظام جليسة الأطفال أو "بيبى سيتر" على الأقل لترعى ابنته إلى أن يعود من العمل إلى البيت.. وترددت سميرة فترة.. ولكن صديقتها عزيزة ظلت تلح عليها وأكدت لها أنها لن تعامل كخادمة فى هذا البيت ولكن ستعامل كما تعامل فى بيوت الأجانب.. جليسة أطفال.. وأخيرًا قبلت عملها الجديد.. لتجرب العمل مع العائلات المصرية..

❖❖❖

وذهبت إلى عملها الجديد وكل ما وصفت به صديقتها عزيزة صاحب البيت وأبا الفتاة الصغيرة هو أنه رجل جاد.. إنها تعمل فى مكتبه منذ سنوات مطمئنة إلى أنه فى منتهى الجدية.. ولكن سميرة رأته أكثر من رجل جاد.. إنه رجل مخيف.. صارم التقاطيع.. يتكلم فى صوت جاف.. ولا يبتسم أبدًا ، بل يتكلم من خلال شفتين مطبقتين كأن لسانه فى صدره.. ورغم ذلك فهو ليس منفرا.. إن فيه شيئًا خفيا يريح من

يقف معه.. وقد قال لها فورا بعد أقصر وأسرع تحية مما تسمعه فى استقبالها:

- إنى أريد أن تكونى مع ابنتى فوزية من الساعة العاشرة صباحا حتى السادسة بعد الظهر.. وتكونى مسئولة عنها خلال هذه الفترة إلى أن أعود أنا إلى البيت.. والمسئولية تشمل كل ما تتطلبه تربية فتاة صغيرة.. أى العلم والأدب والتعامل الاجتماعى.. كل شىء.. وسأدفع لك عشرة جنيهات فى اليوم..

وكان يتكلم كأنه يلقى أوامر ولا ينتظر ردا عليه.. إنه لا يعلم أنها تتقاضى عشرة جنيهات فى الساعة الواحدة فى بيوت العائلات الأجنبية التى تخدمها.. ولا يمكن أن تقبل أن تكون الجنيهات العشرة أجرا لليوم كله وفى بيت مصرى.. بيت بلا عائلة.. بيت رجل يبدو كأنه الحاكم بأمر الله.. لا.. لن تقبل..

وقبل أن تتكلم دخلت امرأة ترتدى زيا كأنه زى إحدى الفلاحات.. ووجهها أسمر كالح ليس فيه أى بادرة حلاوة.. وكانت تحمل فتاة.. لا شك أنها فوزية.. إنها حلوة فى منتهى حلاوة الأطفال.. ولكن منكمشة على نفسها وتبدو كأنها ترتعش.. وقال رحمى بسرعة:

- هذه نفيسة بنت بلدنا وتقيم معنا منذ قديم.. ولا تزال فلاحة كما هى، لهذا ظلت معنا منذ سنوات لأنها لا تتغير..

ثم مد ذراعه وشد الطفلة فى عنف وقدمها إليها كأنه يلقى بها إليها قائلاً:

- هذه ابنتى فوزية التى ستكونين مسئولة عنها..

ثم أدار ظهره وخطا ناحية الباب قائلاً:

- سأعود إلى البيت فى الساعة السادسة تمامًا..

لم ينتظر أى مناقشة مع سميرة.. لم ينتظر أن ترد عليه بالقبول أو الرفض.. وسميرة تعلق عينيها بالطفلة فوزية، ومدت يديها إليها وهى تحس أنها تنشلها من جحيم ألقوها فيه.. وتنازلت عن الرد على رحمى.. وستقبل الجنيهات العشرة فى اليوم كله.. ولا تدرى لماذا هذا الاستسلام.. إن المعروف عنها أنها تحب الأطفال ولكن حبها لهذه الطفلة فاق أى حب مر بها مع الأطفال..

إن مجرد التقائها بها فى نظرة واحدة جعلها تحس بأنها مكلفة بإنقاذها.. مم تنقذها؟ لا تدرى.. ولكنها لاحظت أنها كانت تنظر إلى أبيها فى خوف.. وإلى الفلاحة نفيسة فى خوف.. مم تخاف.. لا تدرى..

ووجدت نفسها قد وافقت على أن يدفع لها عشرة جنيهات فى اليوم لا فى الساعة.. وأحست كأنها مقبلة على مغامرة تستحق أن تضحى فى سبيلها..

على كل حال فهى تستطيع الآن أن تضحى ببعض مكاسبها.. إنها تكسب دائمًا ما يكفيها ويكفى أمها وما يكفى جنون أختها الأصغر التى تعيش بلا عمل سوى البحث عن رجل يتزوجها..

لقد قدمت لها أختها الأصغر ثلاثة شبان على أن كلاً منهم يريد الزواج منها.. ولم يتزوجها أى واحد.. وهى فى انتظار أن تقدم لها أختها الشاب الرابع..

وسميرة تستعرض حالها وحال عائلتها وهى ممسكة بيد الطفلة

فوزية تطوف بها فى أرجاء البيت.. لا شك أن كل شىء فى البيت كان جميلا وموضوعا فى مكانه.. ولكنها الآن ترى كل شىء "مبعزقا" بلا ترتيب.. الأثاث.. والتحف.. والسجاجيد.. حتى لوازم المطبخ.. كلها مبعزقة فى فوضى مما يجعل البيت كأنه بلا صاحب.. إنه فعلا بلا ست بيت.. والمرأة الوحيدة فيه.. نفيسة.. تسير بجانبها، وهى تنظر لها فى سخط كأنها تقول لها مالك ومالنا.. ومالك والبيت بما فيه.. ولكنها لا تتكلم.. وسميرة لا تسألها.. على كل حال ليس مهمتها أن ترتب أو تشرف عليه..

وصلت إلى الحجرة المخصصة للطفلة فوزية وكانت قد ابتكرت لها اسما تدللها به.. فوفو.. إنها حجرة ليس فيها شىء يحتاج إليه الطفل.. بل إنها معفرة بالتراب ملطخة بأكوام الزبالة.. واستطاعت أن تحصل على مكنسة وفوطة وأخذت تعد الغرفة وتنظفها من جديد وهى تقول لفوفو ضاحكة نظفى معى يا فوفو.. وفوفو لا تدرى ماذا تفعل ولكنها تتحرك وراء سميرة وتقلدها كأنها هى الأخرى تنظف الحجرة.. وسميرة تمسك بها بين كل خطوة وأخرى وتقبلها..

إنها تحب فوفو حبا آخر له طعم آخر عما كانت تحس به ناحية كل الأطفال الذين صاحبتهم.. ربما كان هذا الحب هو ما دفعها إلى كل هذا الجهد الذى تبذله لإعداد غرفتها.. بل إلى كل هذا التطلّع ومعرفة حقيقة كل ما تعيش فيه الطفلة..

وعندما حانت الساعة السادسة سمعت باب البيت يفتح ويغلق.. لا بد أن رحمى قد عاد.. والطفلة فوفو التصقت بها وأمسكت بثوبها كأنها تحتمى بها وهمست فى خوف:

- بابا عاد.. لا تتركينى يا ماما.. ورفعتها سميرة إلى صدرها وقبلتها وقالت لها:

- أنا لست ماما.. ماما الله يرحمها.. أنا نينة.. أو طنط.. أفضل أن أكون نينة.. ولا تخافى من بابا.. انتظرى إلى أن يأتى إلينا وابتسمى له ودعيه يقبلك..

ولكن رحمى بيه لم يظهر بينهما.. ودخل غرفته مباشرة.. وتركها تتصرف فى الساعة السادسة، وكانت الفلاحة نفيسة هى التى أعطتها أجرها عن يومها.. الجنيهات العشرة..

ومضت أيام ورب العائلة لا يراها.. هى تحس مع الأيام كأنها تعمل فى بيت بلا أم وبلا أب.. وهى تتصرَّف داخل البيت فى حرية تامة كأنها سيدته.. وقد اكتشفت أن فى البيت رجلاً يعمل كطباخ.. ولكنه مجرد فلاح من نفس بلد نفيسة ربما كان أخاها أو قريبًا لها.. ولا يعرف كيف يقدم طعامًا على الطريقة المودرن المتطورة.. لا يعرف إلا ما يعرفه أى فلاح.. فأخذت تدخل المطبخ وتعلمه كيف يعد الطعام لها وللطفلة فوفو.. إن فوفو دائمًا معها أصبحت كأنها قطعة منها.. وهى لا تدخل هذا البيت إلا لتكون مع فوفو..

ولم يظهر لهما رحمى بيه إلا فى هذه المرة التى قلب فيها أوراق فوفو ثم صفعها بالقلم.. ضربها.. وصارح سميرة بأنه يؤمن بأن الخوف هو الذى يربى البنات.. لذلك فهو لا يدلل فوفو.. إنه يفرض عليها الخوف.. وقطع الكلام معها وانصرف عنهما ودخل غرفته..

ويومها لم تترك سميرة البيت فى الساعة السادسة كما ينص

الاتفاق.. خافت على فوفو بعد أن رأت فى أبيها هذه الشخصية، وبقيت معها حتى قدمت لها طعام العشاء وإلى أن وضعتها فى فراشها وا طمأنت إلى أنها نامت.. وكانت الساعة قد أصبحت التاسعة.. إنها تقدم ساعات عمل مجانًا.. ووضعت نفيسة فى يدها الجنيهات العشرة كما هى العادة..

وقد قضت هذه الليلة بعد أن عادت إلى بيتها وهى ساهمة كأنها تائهة حتى إنها لم تحس بأمها وأختها وهما معها داخل البيت.. ماذا تفعل حتى تنقذ فوفو من هذا الأب الذى يفرض الخوف على ابنته؟ يجب أن تفعل شيئًا.. وإن كانت لا تستطيع أن تحدد هذا الشىء..

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى فوفو فى الساعة الثامنة صباحا لا فى العاشرة كما ينص الاتفاق.. إنها خائفة أن تترك فوفو وحدها حتى لا ينفرد بها أبوها ويضربها لمجرد أن يبذر فيها بذور الخوف.. وبمجرد أن دخلت البيت وجدته فى مواجهتها جالسا فى الصالون الكبير يقرأ الصحف.. ونظر إليها فى دهشة ثم رفع يده ينظر فى ساعته.. وقالت فى صوت متحفز لأى خناقة:

- لقد جئت مبكرة قبل الموعد حتى أحمى فوفو..

وقال ووجهه المتجهم لا يخفى دهشته:

- تحميها من ماذا؟

وقالت فى حدة:

- من الخوف الذى تربيها عليه.. لعلك تصعد إليها وتضربها، كما ضربتها بالأمس.. يا رحمى بيه أحب أن أقول لك إنى لا أؤمن بفرض الخوف على الأطفال لتربيتهن.. المفروض أن تعتمد فى التربية على الإقناع..

وقاطعها دون أن يبدو عليه الغضب:

- إن الخوف هو أضمن طريقة للاقتناع.. إن المقتنع بالله يخافه أكثر مما يخافه الكافر به..

وقالت وهى لا تزال محتدة:

- هذا كلام رجعى.. إن الإقناع لا يحتاج إلى الخوف.. بالعكس إن الإقناع مع الخوف يسمى الاستسلام.. إنك تريد من فوفو أن تستسلم لك، وهو ما يدفعها إلى أن تستسلم لغيرك.. لكل ما يخيفها.. وكأنك جعلت منها حيوانا أليفا..

ونظر إليها نظرة ليست غاضبة أو مهددة:

- ماذا تريدين؟

وقالت كأنها تفرض أوامرها:

- أريد أن تترك لى حق تربيتها كاملا.. أى شىء تريده اطلبه منى أولاً.. حتى لو أردت أن تضربها يجب أن أوافق أنا أولاً على ضربها، إنها أول مرة أضع شروطا للاستمرار فى الخدمة..

وقال فى هدوء:

- كما تشائين..

ثم قام من أمامها ودخل غرفته..

وتتبعته إلى أن أغلق الباب وراءه.. غريبة.. إنه ليس حاد الطباع كما كانت تتوهَّم.. وهو يحتمل أن يوجهه غيره مهما اختلف معه.. وقد أصبحت تذهب إلى فوفو فى الثامنة صباحا ولا تتركها إلا بعد أن تتناول

العشاء وتنام.. وفى مرات كثيرة كانت تلتقى به فى الصباح جالسا يقرأ الجرائد، وتكتفى بتحيته من بعيد هو يرفع رأسه عن الجريدة ويرد تحيتها.. ولم تر أبدًا ابتسامة يستقبلها بها.. ولكنها ترى فى عينيه خطوطًا مرحبة بها، كأنه يبتسم بعينيه.. ولم يكن يدخل غرفة فوفو كل يوم.. كان يدخل أحيانًا ويكتفى بأن ينظر إليها من بعيد ثم ينقل عينيه إلى سميرة ثم يخرج.. وفى مرة استوقفته قائلة:

- إن فوفو ستتم السادسة ولم تدخل مدرسة حتى الآن..

وقال وهو يقلب شفتيه كأنه قرفان:

- إننا نستدعى لها مدرسات ثم إنك معها.. وهذا يغنيها عن المدرسة.. وقالت كأنها تتحفز لمعركة طويلة:

- لا.. هذا لا يكفى..

قال مقاطعًا وهو يبتعد خارجًا من الغرفة:

- لنؤجل المناقشة إلى العام القادم..

ووقفت مجمدة مغتاظة.. إنه أصبح يحل المشاكل بالهرب منها.. وكانت قد تتبعته طوال هذه الأيام والأسابيع التى قضتها مع ابنته، وهى تحاول أن تكتشف شخصيته.. ما هو؟.. وقد استقرت على أنه يعيش شخصية فلاح من الجيل القديم.. إنه فلاح.. ابن فلاح.. وكل ما عاشه فى المدينة لم يغير من شخصيته كفلاح.. إنه يؤمن بالخوف كطريق وحيد لتربية الأطفال والتعامل مع الناس وهو نفس ما كان يؤمن به أسياد القرى من سادة الفلاحين فى معاملة أهل القرية.. وهو لا يريد أن تذهب ابنته إلى المدرسة كما كانت بنات العائلات الكبيرة فى الريف

لا يذهبن إلى المدرسة.. ونفيسة التى تخدمه ويعتمد عليها كل الاعتماد من أهل قريته.. كذلك الرجل الذى يعتبر نفسه الطباخ والسفرجى إنه أيضًا فلاح.. والبيت الذى يقيم فيه انقلب إلى دوار فلاحى بمجرد أن توفيت زوجته.. وهو لا يكره ابنته.. ولكنه يعاملها معاملة البنات فى عائلات الريف الكبيرة أيام زمان.. وأحيانًا تحس أنه يعتبر ابنته عورة.. قد تفضحه..

هكذا كان ينظر رجال زمان من الفلاحين إلى بناتهم.. بل إنه عندما يجلس إلى المائدة ليأكل ويكون وحيدًا لا يستعمل الشوكة والسكين وهو يأكل.. إنه يأكل بأصابعه.. وبمنتهى حرية التعامل مع ما يأكله.. إنه ابن فلاح.. ولا يزال هو فلاحًا..

ورغم ذلك فقد بدأت تحس أنه يمكن أن يحتمل.. بل بدأت تحس بالاطمئنان إليه.. وتحس أن شخصيته تهب شخصيتها منتهى القوة.. لقد دخل عليها إحدى المرات النادرة التى يدخل فيها حجرة فوفو.. ورأى البنت جالسة وصدرها عار فرفع كفه وهمَّ أن يضربها ولكنها أمسكت بيده قبل أن تصل إلى صدغ فوفو وقالت له:

- إنك لم تتفق معى على ضربها.. كما عاهدتنى..

وهبطت ذراعه وأطبق على كفه دون أن يضرب ابنته.. ولوى شفتيه كأنه يحتقر ما حوله.. أو ربما يحتقر نفسه.. إنها تربيها وتنشئها بكل ما تحتاج إليه التربية.. ثم إنها أصبحت تصارح نفسها بأنها تهتم أكثر من الاهتمام العادى بتحليل شخصية رحمى وتتبعه فى كل تحركاته..

إنها تحس بأنها أصبحت متعلقة بهذه الشخصية الفلاحى رغم

كل ما فيها من شذوذ.. ربما أصبحت تحبه.. لا.. إنها حرمت على نفسها حب أى رجل.. ثم من أدراها أن رحمى يمكن أن يحبها هو الآخر.. إنها ليست جميلة جمالاً يغريه بها حتى يحبها ويريدها أكثر..

لعل ما هناك أن شخصيتها الجذابة هى التى دفعته إلى تحملها كل هذه المدة.. وتحمل كل ما تريده لابنته.. على كل حال فقد تعودت على العمل فى هذا البيت كأنها لم تعد تستطيع الاستغناء عنه.. وعن ابنتها فوفو.. إنها تحبها كأنها فعلا ابنتها.. تعودت على العمل فى هذا البيت حتى إنها لم تعد تفكر فى المطالبة برفع أجرها.. إنها إلى الآن تعرف الطريق إلى عائلات السلك الدبلوماسى الذين يدفعون عشرة جنيهات فى الساعة لا فى اليوم..

إلى أن دخلت يومًا البيت فى الصباح الباكر كما تعودت، وقام من على مقعده واقترب منها وقال، وليس فى صوته ابتسامة ولكن فيه رنة رجاء وتحايل:

- إنى مضطر أن أسافر غدًا إلى بورسعيد.. وسأضطر إلى أن أغيب يومين.. فهل يمكن أن تبقى مع فوفو هذين اليومين ولا تتركيها وحدها؟

ولم تفكر سميرة طويلاً، وقالت وهى تبتسم:

- لا.. لا يمكن.. إنى سأبقى معها إلى أن تنام ثم أعود إلى أمى.

وقال فى صوت آمر:

- قولى لأمك أنك ستقضين الليل هنا مع فوفو..

وضحكت سميرة كأنها تستهين به كرجل يستطيع أن يأمر:

- أمى لا يمكن أن توافق على أن تختفى البنت عن البيت طوال الليل إلا إذا كانت قد تزوجت..

وقال رحمى فى صوت لا يبدو فيه المفاجأة وكأنه يقول ما قرَّره من زمن طويل:

- لنتزوج.. اليوم سأذهب معك إلى والدتك ومعنا المأذون..

وقالت سميرة وهى ترتعش من الدهشة..

- ماذا تقول؟

وقال فى هدوء:

- سنتزوج.. وإن كنت أرجو إعفائى من أى حفل لزواجنا.. وثقى أنى سبق أن فكرت طويلاً فى هذا الزواج.. لا من أجل التخلُّص من عبء تربية فوفو فحسب.. ولكن لأنى فى حاجة إلى هذا الزواج..

وكان يقول كل هذا دون أن تبدو بين شفتيه ابتسامة، ولكن نظرات عينيه فيها رجاء لها.. وقالت وهى ساهمة دون أن تنظر إليه:

- إنى لا أستطيع أن أعيش خائفة..

وقال بسرعة:

- أعرف.. أنك تعيشين بالمنطق والإقناع لا بالخوف..

وقالت فى صوت متردد:

- إذن كما تريد..

وتم الزواج.. وعادا وحدهما إلى البيت.. وفوفو فى انتظار سميرة ولا تبكى لغيابها عنها.. وأخذتها سميرة بين أحضانها ودخلت بها إلى غرفتها.. وقال رحمى من بعيد:

- سأنتظر فى غرفتى..

وقالت وهى تضحك ضحكة لم يسمع البيت مثلها من قبل:

- لا.. سأنام مع فوفو.. كان الزواج لها ولننتظر إلى أن يصبح لك.. وأكون كأنى أصبحت زوجتك لا زوجة فوفو وحدها..

ودخل غرفته وقذف الباب وراءه يغلقه فى عنف كأنه يصفعها على وجهها..

وبدأت القصة من جديد..

ممنوع دخول الزوجات

إحسان كمال(*)

ما كان ينبغى أن يكون صدمتها مروعة لهذه الدرجة، ماذا كانت تتوقع إذن؟ أن تمضى سفينة حياتهما فى بحر هادئ رقراق؟ كيف وقد أساءت ا ختيار السفينة.. وأيضًا المجرى الذى تبحر فيه؟ كانت البداية خاطئة.. فلا بد إذن أن تكون النهاية من نفس النوع.

تتعدد الأسباب فى حالات اختيار الفتاة - أية فتاة - لشريك حياتها .. تبعا لاهتماماتها، منهن من ترجح الحب.. وغيرها اليسر المادى.. أو المكانة الاجتماعية.. أو الأخلاق والأصل الطيب.. أو.. أو.. أو.. لكن.. هل سمع أحد فى الدنيا كلها عن فتاة تختار شريكها من قبيل العناد؟ تدافع عن نفسها:

- لم أكن فى حالة عادية.. كنت أمر بفترة يأس قاتلة!.. لكن ضميرها يواصل اتهاماته:

- وأنت بنفسك التى خطوت إلى هذه الحالة وأغلقت من خلفك الأبواب.. حتى لا يلحق بك أحد ممن حاولوا الأخذ بيدك.. كافة الأبواب.. عقلك وضميرك وأذنيك!..

(*) نشرت قصتها الأولى "جاء الشتاء" فى مجلة "الإذاعة المصرية" العدد ١٢١٦ بتاريخ ١٩٥٨/٧/٥، وهذه القصة "ممنوع دخول الزوجات" من مجموعتها (ممنوع دخول الزوجات)، كتاب اليوم، العدد ٢٨٧، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، أكتوبر ١٩٨٨.

كفت عن الاستمرار فى الهروب.. حيث الطريق طويل، إن أطول طريق للهرب هو ما يجريه الإنسان بعيدًا عن نفسه، لا مفر من المواجهة.. الحقائق عنيدة.. مثل الصخور الصلدة.

فعلاً لم تكن أول فتاة يتزوج والدها بعد وفاة أمها، وقد تأسى أية فتاة تجد نفسها فى هذه الظروف.. لكن ثورة إلهام كانت عارمة.. مضت تصرخ:

- كان المفروض أن يظل وفيا لذكرى من وهبته كل حياتها حتى الثمالة.. كان المفروض أن يضحى من أجل وحيدته فيكرِّس لها ما بقى من سنوات عمره.. الكثيرون يفعلون هذا..

حاول خالها أن يهدئ من غضبها:

- لكل شخص ظروفه.. ربما هو لا يستطيع تقبل جفاف الحياة دون شريك.. ربما بسبب طبيعة عمله لا يستطيع أن يدير أمور المنزل.. ربما بسبب تدينه لا يريد الوقوع فى الخطأ..

لكنها أبدًا لم تقتنع.. من أول يوم ناصبت زوجته – بل ناصبته هو نفسه – العداء، دائمًا حزينة باكية من أجل أن تستعدى ضميره عليه وتحمله إحساس الشعور بالذنب، لا يكاد يمر شهر واحد دون أن تترك المنزل إلى بيت خالتها لفترة قد تطول أسبوعًا.. وأحيانًا أسبوعين.

الوالد المسكين ظل على حلمه معها.. فلم يقسُ أو حتى يخشوشن فى معاملته إياها، قدر ظروفها رغم أنها لم تقدر ظروفه.. تخيل أنه بذلك يقنعها عمليا بعظم عاطفته تجاهها.. وأنها ما زالت الأثيرة لديه، كان مقتنعا أن الأمر الواقع سيفرض نفسه آخر الأمر.. وأن غضبها لا بد سينقشع وثورتها لا بد ستخمد مع الأيام.. ككل ثورة وأى غضب، لكن الشهور تمر حتى تكمل العامين وهى على نفس حالها رغم رقة تصرفاته معها.. أو ربما بسبب هذه الرقة.

بل وصل الأمر لدرجة اتهامه أنه بهذا الزواج قد تسبب فى تشتت ذهنها من الاستذكار.. فكانت نتيجتها هذه المتواضعة فى الثانوية العامة.. من ثم رفضت كافة الحلول التى طرحها عليها.. أن تدخل أحد المعاهد العالية أو أن تعيد امتحان الثانوية العامة، الخ، قررت أن تذهب إلى السودان وتلتحق بفرع الجامعة فى الخرطوم، حاول أن يثنيها عن عزمها بأنه سيفتقدها وأنه لا يستطيع على بعادها صبرًا.. لكنها أصرت على رأيها مكتفية بالرد على حججه بنظرة ساخرة جعلته يغض بصره. أكدت له أن بعدها عن "الواقع" الذى يثير الأسى والمرارة ربما يساعدها على أن تتفرغ للمذاكرة. عندها لم يجد مناصًا من الموافقة.. بل شد الرحال معها إلى هناك لمساعدتها فى تقديم الأوراق وتسهيل الإجراءات.. مؤكدًا لها أنه لن يعود إلى القاهرة إلا بعد أن يطمئن أنها بدأت الدراسة بالفعل.. وانتظمت فيها.. فيما بعد قالت لوالدها:

- كما ترى كان لا بد أن أسافر إلى الخرطوم.. وإلا فأين كنت سألتقى بزاهر.. ذلك الشاب الذى قدرت له الأقدار أن أرتبط به؟!

هكذا هى.. تتصرف برأيها غير ملقية بالاً إلى نصائح أو توجيهات أحد.. وبعدها تلقى تبعة اختياراتها على الأقدار، فى الخرطوم التقت بزاهر إذن.. فى النادى الرياضى.. ليلقى شباكه حولها من أول يوم.. كعادته كلما رأى فتاة حسناء وهو لم يكن يبذل فى ذلك أى جهد.. أغلب الفتيات كن يدخلن شباكه من قبل أن يلقيها.. وسيم جدًا، بل فاتن.. إذا جاز أن يطلق هذا الوصف على رجل! شديد الجاذبية.. التى ربما كان اكتسابه إياها امتزاج خفة الدم السودانية.. ممثلة فى والده.. بالجمال الإنجليزى.. الذى امتلكت منه والدته القدر الكبير..

وبدأ يتابعها.. فى النادى.. فى الفندق.. فى التليفون، خجل سنها المبكرة يحول دون تجاوبها فيتقدم طالبا يدها، دهش الوالد، لكنه استمهله حتى يرد

عليه، مجرد حركة مجاملة.. لا يليق أن يقول له مباشرة.. أنت مرفوض، مرفوض بكل المقاييس.. والسبب؟ عشرون سببًا وسبب، البنت صغيرة جدًا.. لم تكمل التاسعة عشرة، أى تصغره بستة عشر عامًا، عدا أنها لم تلتحق بعد بالجامعة.. فطبعًا يخشى أن يصرفها الزواج عن الدراسة، كذلك فإن فترة تعارفهما ضئيلة.. لا تكفى للحكم على مشاعر أىٍّ منهما، أيضًا فالسمعة التى يلوكها الناس عن تنقُّله من زهرة إلى زهرة لا تشجع على قبوله، ثم إنها وحيدته.. فكيف يزوجها بعيدًا عنه؟ لكن إلهام تقبل الخطبة.. وتصرف عليها، قالت له فى مواجهته:

- لم أكن موافقة على زواجك.. فهل عملت برأيى؟..

ثم أضافت لزوجة صديق له يعمل بالتدريس هناك:

- السبب الأخير لرفض أبى هو السبب الأول لموافقتى! ألا يدرى أن زواجه حرمنى منه.. ولو بالفكر؟.. إذن لا بد أن أتزوج بعيدًا عن مصر حتى أحرمه منى بالفعل!

ذهلت الصديقة:

- تسوقين العناد إذن؟!..

لم ترد إلهام فعادت الأخرى تردف:

- هذا أغرب سبب زواج سمعته فى حياتى.

مثل كل مرة.. ومثل كل أمر.. اعترض الأب.. وناقش.. وساق الحجج والأسانيد. احتد ثم دلل.. ثم ثار.. ثم ترفق لكن شيئًا من كل ذلك.. لم يُجدِ فتيلا!

أقيم حفل الزفاف الأنيق فى أجمل فنادق العاصمة السودانية، وبعد أيام عاد الأب إلى القاهرة.. وحده، قال لزوجته:

- ذهبت معها إلى الخرطوم كى أدخلها الجامعة ولكنى أدخلتها فى عصمة العريس!..

كان يتكلم بسخرية.. لكنها كانت سخرية مريرة، هونت عليه زوجته:

- فى كلتا الحالتين كنت ستتركها هناك.. بعيدة عنك، الآن المفروض أن تكون أكثر اطمئنانًا عليها وهى فى رعاية زوجها وحماتها عنها لو كانت فى المدينة الجامعية.

زفر: فى الجامعة كنت سأصبر نفسى أنها فترة وتنقضى ثم تعود إلى مصر، أيضًا فإن أكثر ما يقلقنى خشيتى أن تترك الدراسة..

- أوه يا حامد.. لا تشغل نفسك بدون داع.. هذا غير معقول طبعًا بعد أن التحقت بالكلية التى كانت ترغبها.

لكن ما خشيه الأستاذ حامد تحقق فى أقل من سنة، تركت إلهام الكلية نهائيا واكتفت بأن تكون زوجة متفرغة للثرى الأمثل زاهر.. وليتها كانت زوجة سعيدة، دائمًا خطاباتها لوالدها تمتلئ بالشكوى.. من انشغال زاهر عنها بأملاكه ودراساته.. وأيضًا من تحكم حماتها فى كل كبيرة وصغيرة فى حياتها.. حتى جاءت "نرمين".. الحفيدة الأولى لحامد، بكى وهو يقلب الصور:

- بعد ولادة إلهام تمنيت أن يرزقنى الله بأخ أو بأخت لها.. لكنها كانت أحلام.. بددتها الأيام، من ثم حولت أمنيتى إلى حفيد أو حفيدة.. وها هى ذى تأتى ولكن.. بعيدًا بعيدًا..

لم يعد يرى إلهام أكثر من مرتين فى العام، مرة فى الشتاء عندما يسافر هو إليها.. والأخرى فى الصيف عندما تحضر مع زوجها وحماتها للقاهرة، هو

معذور فى قلة الزيارات.. صحته لم تعد تساعده.. مضى العمر ولم تبق إلا فلوله، ولكن ماذا عن إلهام؟.. تراها ما زالت ناقمة على زيجته الثانية، لكنها تفاجئه عند زيارته الأخيرة لها.. ألقت برأسها على كتفه وانفجرت تبكى:

- أخطأت كثيرًا فى حقك يا أبى.. لكنى أطمع فى عفوك.

كنت صغيرة السن قليلة التجارب، إننى نادمة على كل تصرفاتى التى كنت أعاندك بها.. كلها كلها عدا شىء واحد.. زواجى من زاهر، حيث أصبحت أحبه.. أحبه لدرجة لا يتصورها أحد، إننى الآن أراه كل العالم.. عالمى أنا على الأقل، هذه المشاعر العاطفية الرقيقة.. وأيضًا مشاعر الأمومة العذبة – وكلها جديدة علىَّ.

غيرت نظرتى للحياة، بل أعادت صياغتى إنسانة جديدة، من حق كل إنسان أن يحب ويحب.. كان من حقك تمامًا أن تتزوج.. كيف كنت ستعيش وحيدا بعد أن تتقدم فى العمر وأتزوج أنا؟

إننى سعيدة أن غضبتى وثورتى لم تنجح فى أن تجعلك تعدل عن مشروعك.. كان ذلك حريا بأن يجعلنى الآن فى منتهى الألم والعذاب.. وأيضًا إحساس الشعور بالذنب.. الذى ربما حطم نفسيتى وبدد السعادة والبهجة كلية من حياتى!

بدون أن يدرى يجد الأستاذ حامد نفسه يبكى هو الآخر.. لتمتزج دموعهما معًا، حلم طويلاً بهذه اللحظة. منذ بداية زواجه وتعقد المشكلة وهو يتوقع.. ثم يتمنى حدوثها.. تأخر تحقيقها كثيرًا، لكن حمدا لله.. أخيرًا أتت..

وهو يهنئ زاهر لحصوله على الماجستير.. اقترح عليه أن يحضر إلى القاهرة لعمل رسالة الدكتوراه لكن والدة زاهر تضحك ساخرة:

- معقول؟.. يترك جامعات لندن ليذهب إلى القاهرة؟!..

وقد كان.. انتقل الركب بأكمله إلى لندن، لكن ما تكاد تمضى عليهم شهور هناك إلا وترحل الأم، وكأنها كانت تحس باقتراب منيتها فصممت على السفر إلى إنجلترا لتموت فى بلدها! عندما سمع الأستاذ حامد بالنبأ خبط كفا بكف وهو يقول فى أسف:

- ترى لو أن سفر إلهام وزوجها تأخر بضعة شهور.. لما بعد وفاة مسز عثمان.. أكان زاهر يستجيب لاقتراحى ويكمل دراسته فى القاهرة؟.. وتحاول زوجته التهوين عليه.

- لا أحد يستطيع أن يجزم بالضبط، لكن لو حتى كان الرد بالإيجاب فقد انتهى الأمر.

تنهد: نعم سامحها الله.. زرعت ابنتى فى لندن.. ثم رحلت.

رغم صقيع لندن إلا أن الخطابات التى ظل الأستاذ حامد يتلقاها منها كانت تتسم بالدفء، تعودت إلهام أن تكتب إليه بكل ما يحدث لها يومًا بيوم.. وكأنه معها. كتبت إليه عن انتقالها وزوجها للإقامة فى شقة أنيقة، يتقاسمانها مع مبعوث مصرى آخر وزوجته.. التى سرعان ما ارتاحت إليها وتآلفت معها.. وكأنها أخت شقيقة.. مما خفف عنها ضجرها لانشغال زاهر عنها بدراسته..

فى أول العام الجديد كتب حامد لابنته يهنئها.. ويلفت نظرها إلى أن موعد زيارته السنوية لها بالطبع سوف يتغير.. بتغير مكان إقامتها.. لتصبح صيفية:

- ومن الآن حتى يحل شهر يونيو.. اكتبى لى بكافة طلباتك.. كى أصطحبها معى حين آتى إليك بإذن الله..

لكن قبل أول زيارة له وقعت الواقعة، ذات يوم خرجت إلهام مع اعتدال - شريكتها فى المسكن - كى تشتريا بعض الملابس الشتوية من شارع أكسفورد.. الذى يبعد عن حيهما بمسافة طويلة، وإذا بالأمطار تفاجئهما قبل أن يركبا المترو الذاهب إلى هناك.. فتقررا العودة.. وتأجيل الشراء ليوم آخر، أمام باب المنزل يتصدى لهما البواب.. معلنا إياهما أن أوامر "السيدين" تقضى بعدم السماح لأحد بالدخول وتحتج اعتدال:

- نعرف هذه الأوامر.. حيث هما يريدان الاستذكار.. لكن المقصود بهذه الأوامر طبعًا الزوار.. خشية تعطيلهما.

وصرخت إلهام: أجننت؟..

نحن زوجتا السيدين.. أنت حقًا جديد فى عملكم هنا.. لكنك بالتأكيد رأيتنا أمس وتعرفنا جيدًا.

ويرد البواب نافد الصبر:

- بالطبع أعرفكما.. لكن الأوامر كانت صريحة.. "ممنوع دخول أى إنسان.. وبالذات الزوجتين.. لمدة ثلاث ساعات".

تتبادل إلهام واعتدال النظرات فى دهشة.. تتحول إلى ذهول.. ثم غضب.. وأخيرًا إلى ثورة وتهددانه.. إذا لم يفتح لهما ستبلغان البوليس، أسقط فى يد البواب فلا يجد مفرا من فتح الباب، وتدخلان مندفعتين.. لتجدًا الشقة وقد تحولت إلى ماخور حقير الزوجان المبجلان فى حالة تبذل.. ومعهما فتاة ليل رخيصة.. من أدنى مستوى. لا تساوى قلامة ظفر أى منهما!

فى الطائرة المسافرة إلى القاهرة.. بدا الذهول فى نفس إلهام يخلى مكانه لشعور الأسى المرير.. لذلك مضت تناجى نفسها:

- ما كان ينبغى أن تكون صدمتى مروعة لهذه الدرجة.. ماذا كنت أتوقع إذن؟ أن تمضى سفينة حياتنا فى بحر هادئ رقراق؟.. كيف وقد أسأت اختيار السفينة.. وأيضًا المجرى الذى تبحر فيه. كانت البداية خاطئة.. فحتما أن تكون النهاية – كما حدث بالضبط – من نفس النوع.

❖❖❖

شجرة وامرأة وفتاة

أحمد أبو خنيجر(*)

نفسى ضيقة، مكتومة.

ولجسدى رائحة تطلب النهر.

الجو خانق، تسيطر الدميرة على الحقول مخرجةً صهد التزاوج لافحًا، ولاذعًا، له رائحة حريفة، تزيد إحساسى بالاختناق.

كنت قد هربت من زحمة البيوت، وحيدًا بدروب وحيدة، أسير منومًا بهدى جسدى تجاه النهر، واحتياجى الطاغى لوجودى عاريًا بالماء.

فى ظل شجرة كبيرة وعالية، وقفت أبرد اشتعال جسدى، وقدمى تعبث بالسطح الساكن للماء. أخرجت سيجارة ورحت أشربها على مهل ريثما عرقى يجف.

كل شىء حولى صامت، والجوار خالٍ، لم يكن سوى قارب صغير مربوط إلى جذع الشجرة. البيوت الآن بعيدة، والناس والدواب محتمين بقبضتها من هذا الصيف المدارى بشمسه القاتلة ورعونته المطلقة. سرب الصمت إلى أذنى هسيسًا

(*) أحمد أبو خنيجر، من مواليد ١٩٦٧، من مجموعاته القصصية: (حديث خاص عن الجدة)، هيئة قصور الثقافة، إبداعات، القاهرة ١٩٩٥، (غواية الشر الجميل)، جماعة سوبك، أسوان، ١٩٩٨، (جر الرباب)، الهيئة العامة للكتاب، إشراقات أدبية، القاهرة ٢٠٠١، (مساحة للموت)، الهيئة العامة للكتاب، كتابات جديدة، القاهرة ٢٠٠٣.

خفيفًا، تلفّت كى أستطلع مصدره، كل شىء ساكن، لا هبّة نسيم تلطف الأجواء، أو تتحرك أوراق الشجرة، دوامات النهر بعيدة، خمنت أنه امتداد همس الدميرة للنهر.

لم تخفف السيجارة- التى انتهت الآن- من طبقة الصدر، وظلت رابضة، ألقيت العقب فى الماء، فأصدر الانطفاء وشيشًا ضعيفًا سرعان ما ضيعه الصمت، بقيت للحظات أرقب الدوائر الصغيرة التى أحدثها العقب فى الماء، بسرعة وهدوء عاد السكون إلى سطح الماء.

بدأت فى خلع ملابسى، وأنا أنظر للجزيرة القابعة بمنتصف النهر، وقد غمرتها مياه الدميرة الجارفة تاركة جزءًا صغيرًا منها طافيًا. تبسمت وأنا أتخيل هذا الجزء كفارس نبيل يقف وحيدًا مواجهًا التيار العاتى.

لم يبق سوى السروال، مددت يدى، لكن الصمت عاد وسرب إلى صوت خطوات تقترب، توقفت وأنا أنفض رأسى: هواجس. قلت، هى هواجس الوحدة. استدرت، كانت امرأة ترتدى الأسود وفتاة شابة بفستان مورد بألوان زاهية، جمدت للحظات غير قادر على التصرُّف السريع.

وقفت المرأة والفتاة فى ظل الشجرة، فى الطرف البعيد عنى، التقطت ملابسى وأخذت فى ارتدائها، نبهت حركتى الفتاة إلى وجودى، فغمزت المرأة، وبقيتا ساكنتين ترقباننى وأنا أرتدى ملابسى على عجل.

من ناحيتى أرى أن الوضع هكذا شاذًا وشائكًا، فأنا أرغب فقط أن أكون وحدى عاريًا تمامًا أغطس فى الماء، علَّ الحرارة التى تتصاعد من حولى تهدأ، وتروح طبقة النفس، لكن من المرأتان؟! وما الذى جاء بهما إلى هذا المكان المقطوع؟! وفى هذا الوقت تحديدًا كن ينظرن نحوى، وكنت أنظر إليهن، فيما شعور بالعداوة الحقيقية المتبادلة كان يفترش المسافة بيننا.

لم يكن أمامى سوى أن أغادر، والجزيرة مكان الفرار، رحت للقارب وفككته من الشجرة، وأخذت أجدف مبتعدًا، وأخذت المرأة والفتاة فى الحركة الخفيفة، رويدًا كانت ملامحهما تبهت وأنا أقترب من الجزيرة.

درت حول الجزء الطافى من الجزيرة، كى أحقق رغبتى الكاملة فى الوحدة والعرى، وأيضًا حتى لا أبقى تحت رحمة عيونهما، على غير توقُّعى كانت الدورة طويلة ومنهكة، أوقفت القارب ورحت أستطلع الضفة الأخرى للنهر، هالنى ما رأيت: كانت امرأة ترتدى الأسود وبجوارها فتاة شابة بفستان مورَّد بألوان زاهية، تقفان تحت شجرة كبيرة وعالية، تنظران نحوى. لم أصدق، علّنى لم أدُر حول الجزيرة. قلت: واصلت التجديف وكلما واجهت الضفة، كانت ثمة امرأة ترتدى الأسود وفتاة شابة بفستانها المورد بألوان زاهية، تقفان تحت شجرة كبيرة وعالية تظلل عليهما.

كانت الشمس تزداد حرقة، وأنا مستمر بالتجديف، دون الوصول إلى طرف يحجبنى عن المرأة والفتاة والشجرة، لا أدرى كم مرة درت حول الجزيرة، لكن فى كل مرة كانت هناك شجرة عالية وكبيرة، تحتها امرأة وفتاة، ينظرون نحوى.

حين تعبت وصار العرق يكسو جسدى ونشع من ملابسى، وأصبحت رائحتى لا تطاق، قدت القارب نحو الشاطئ، مباشرة إلى الشجرة، نزلت وربطت القارب دون أن أنظر نحو المرأة والفتاة.

أخذت فى الابتعاد عن الشجرة، وأنا أحس بأن تنفسى صار صعبًا، وخطوتى على الأرض ثقيلة، التفت نحو المرأة والفتاة، لا أدرى لماذا رأيتهما، وأنا بالكاد أفتح عينى، تبتسمان ابتسامة غامضة يجللها سحر شفيف.

قطعة ليل(*)

أحمد الخميسى

واصل الثلاثة سيرهم منهكين على طريق تعلو وتهبط وتلتوى كالثعبان.

الشمس فى قلب السماء كالحريق، والقمر مثبت فى الجهة الأخرى، أبيض، بلا ضوء.

فى اليوم الأول كانوا جماعة كبيرة من نحو خمسين شخصًا، ثم تساقط أفرادها من التعب واليأس واحدا بعد الآخر على جانبى الطريق. فى اليوم الثالث تهاوى رجل وأمه، فى اليوم الخامس حطت أسرة بأطفالها تحت شجرة، ثم شابان عاشقان، ثم ذلك الرجل الذى قال إنه لا يرى جدوى من هذا البحث، ولكنه ينضم إليهم من باب الفضول. وبعد ذلك لم تعد لدى أحد رغبة أو جهد لمراقبة الذين ينسلون بهدوء.

كان الثلاثة يجرجرون خطواتهم والغبار يتصاعد حول أقدامهم والعرق يسيل من أعناقهم إلى ظهورهم. من وقت لآخر كان أحدهم يتطلع إلى جانبى الطريق المقفرة بحثًا عن ظل شجرة، أو إلى السماء ربما تعبر سحابة مثقلة بالماء، أو يرهف السمع إلى خرير مياه فى نهر بعيد متخيل.

قال البدين الذى احمرت عيناه وهو يدفع جسده إلى الأمام:

- لو أنها أمطرت على الأقل.

(*) من مجموعة (قطعة ليل)، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٤.

ولم تكن لدى الاثنين الآخرين: النحيف، والقصير، قدرة على النطق بشىء. فى اليومين الأخيرين كانت الكلمات تخرج من الفم كأنها أحجار ثقيلة ساخنة وملتهبة.

ابتلع القصير ريقه يرطب به حلقه:

- قيل لنا إن قطعة الليل مسدلة خلف الجبل، وها نحن قد تركنا الجبل منذ أيام، ثم جبلا، وآخر، والآن نمشى فلا نصادف سوى سلاحف تطل بأعناقها من جحورها، وشجيرات صبار، وضوء متدفق من كل ناحية. ما من شىء، تلاشى حتى نباح الكلاب الضالة الذى رافقنا الأيام الأولى.

قال النحيف:

- لو كان الليل فى مكان قريب لشاهدنا ولو ظلاً من عتمته يعبر السماء.

توقف البدين لاهثا، ثم ارتمى على الطريق جالسا وهو يغطى رأسه بيديه الضخمتين.

توقف الاثنان الآخران أيضًا.

نظر البدين إلى ساعة يده وقال بصوت مذبوح:

- الثالثة فجرًا، والضوء ساطع كالجحيم، حتى ذرات التراب مضاءة متوهجة.

ألقى النحيف بنفسه إلى جوار البدين متسائلا:

- ألا يجدر بنا أن نفكر فى الرجوع؟

أجابه القصير:

- نرجع؟ ألا يحتمل أن نكون قاب قوسين من الليل؟

زفر البدين:

- نعود إلى حياتنا دون شىء؟

تبرم القصير:

- الضوء أربع وعشرين ساعة يبعث على الجنون.

تعجب النحيف:

- يحدق الجميع فى أعين بعضهم البعض صراحة، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئًا، لم يعد هناك مكان لشائعة، أو مال متدفق، أو خطة تدبر.

أوضح البدين:

- لا بد أن قطعة الليل مرمية فى مكان ما. كيف يمكن للحياة أن تستمر هكذا؟

علق القصير:

- جفت حلوقنا، ونفدت قوانا.

قال النحيف:

- ما زال القمر يقف قبالة الشمس أبيض بلا ضوء.

تناول كل منهم جرعة ماء، ومسحوا جباههم بقطرات منه، ثم استأنفوا السير.

زحف البدين إلى الأمام والعرق يغطى عينيه والملح يحرق جلده متطلعا إلى نهاية الطريق. وكان النحيف يرسل بصره إلى السماء بحثا عن طير يضرب الجو بجناحيه، أما القصير فراح يدفع أنفه إلى الهواء لعله يتنشق شيئًا غير رائحة الدخان والحريق.

سحابة رمادية ركضت مسرعة فى السماء. أشار النحيف إليها صائحا بلهفة:

- انظرا!

تطلع الاثنان الآخران إلى السماء.

هتف النحيف وركبتاه تصطكان من التعب:

- لعلها الظلمة قريبة منا فى مكان ما.

اضطربت عينا البدين المحمرتان بهوس وغمغم:

- لا بد أنها وراء هذه الرابية.

غذ ثلاثتهم السير، وانحرفت الطريق بهم يمينا، ثم ارتفعت إلى أعلى، وظهرت رابية عالية توقف عندها الثلاثة يلتقطون أنفاسهم. وضع الطويل حافة يده فوق عينيه:

- لا أرى شيئًا.

- ألم نقترب قليلا؟

- ربما. لكن لا يبين شىء من هنا ولا يسمع صوت.

- دقق النظر!

- لا شىء. بحر من الضوء!

مكثوا فوق الرابية يفتشون فى الأفق عن خيط من ظلمة.

تقدم البدين باقتراحه:

- نستريح اليوم ونواصل السير غدا؟

- كلا.

- فلنمض.

واصلوا سيرهم منهكين من الضوء.

الزوجة الثانية(*)

أحمد رشدى صالح

عاشت قريتنا، شأن الكثرة الكثيرة من قرى مصر، تقبل عليها السنين وتدبر، ويطالعها الزمن والناس ويغربون، وهى منسية مهملة، لا يرقى منها أحد سلم المجد، ولا تذيع لكائن شهرة باستثناء اللصوص وقطاع الطريق بالطبع.

لكن هذا التاريخ البسيط يلهمنا نحن الذين لا نكتب للنساء خلف ظهور رجالهن، ولا للمراهقين الذين طالما تملقهم أصحاب القلم من جيلنا الرائع الزاهر!

ومن هذا التاريخ البسيط ذلك الحدث الذى أحدثه عثمان، حين اقتنى فاطمة، فأتاح للفلاحين أن يضيفوا همومهم الكبيرة إلى ذلك الحادث العادى الصغير.

اشتهرت قرية (...) بالبراعة فى السخرية وإشاعة النكات، خاصة فى موسم الفيضان، حين يغمر النيل الأرض، ويمنح الفلاحين إجازة من الذهاب إلى الحقول... فيسندون ظهورهم إلى الجدران ويثرثرون كثيرًا.

وكان الحاج "علوانى" عمدة الناحية موضع جانب وافر من السخريات

(*) أحمد رشدى صالح نشر قصته الأولى "صديق العطار" بمجلة "القصة" العدد ٣٢ بتاريخ ١٩٥١/١/٢٠.

وهذه القصة "الزوجة الثانية" نشرت فى مجموعة (الزوجة الثانية)، المكتب الدولى للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥.

اللاذعة، برغم أنه مستور العورة بمائتى فدان غير كروم النخيل والسواقى وماكينة الرى، زوج بدينة طيعة أعطته عشرة رجال كأنهم فلائق نخل.

ولعل العمدة استفز تشهير الفلاحين به، لأنه كان يوشك أن يرث عثمانا أخاه، وكان عثمان جثة لا أكثر، عاشر "رقية" عشرين عامًا ولم ينجب ولدا، فقال الفلاحون إنه شحيح حتى فى ماء رجولته.

ولو أنهم أنصفوا عثمان وزوجته، لنظروا إليهما كزوجين متفاهمين، ينزل المرض بأحدهما فينهض الآخر بتدبير البيت والحقول، ويتقاسمان العمل فى أوقات العافية، فيسهر عثمان على وقاية زرعه وصيانة ماله، بينما تتصرف رقية وراء الخدم فى البيت، تمنع "ستيت" من أن تختلس كسرة من خبز، وتكف "على العلاف" عن أن يحفن لنفسه من العلف بدل البهائم.

لقد كانت بين عثمان ورقية أخوة فى فهم الحياة، وكان لهما تمييز واحد للخير والشر، فعثمان جلد بلا ريب، لكن رقية أستاذة فى البخل وصمام أمنه، تكبح جماحه إذا سولت له نفسه أن يرتكب إثمًا من كرم.

ثم كان بينهما إحساس مشترك بالأرض الواسعة، فكلاهما ورث عن أبيه: عثمان تلقى مائتى فدان فأحبها قبلما يضع يده على خيرها، وجن بها بعد ما أصبحت تترامى أمام عينيه من حيث كان يقعد فى فتحة الباب، فيجرى نظره إلى زرعها المتموّج كالبحر، وينتابه الأرق والاضطراب، عندما يلمح فى السماء أسراب الحمام تطير من أبراج أخيه، إذ كان يخشى على زرعه مناقير الطير، ولا أحدثك عن يد إنسان أو فم دابة، فأرضه كانت حرامًا، لا تطأها قدم غريبة إلا ويدفع بصاحبها إلى دوار العمدة.

وأما رقية فنقلت إلى اسمها مائة فدان عن أبيها السيد الناظر ولكنها لم

تُجن بالأرض جنونها باستعباد عثمان زوجها، فقد أصبح همها أن تطبق على رقبته، وتثقل كاهله، فراحت تستكتبه كل عام صكا بإيجار أرضها ولا تطالبه الوفاء.

وكان عثمان يحسن الصمت عن أداء الدين، ويؤثر أن يقع صريع الصكوك على أن يدفع مئات الجنيهات، ولم يكن يقيم أدنى وزن لكلام الفلاحين من أنه امرأة، ومن أن رقية هى رجل البيت، ولم يحفل بما فعلوه يوم أن دقوا على باب الجامع قصيدة هجاء فيه وسخرية من بخله وتفاهة قدره.

وكان ذلك الفهم الأصيل لمقدسات الحياة يزكو على مر الأيام، تلحم الحادثات أجزاءه، وتبرهن الكوارث على أن عثمان ورقية متلازمان كالليل والنهار.. خذ مثلاً الكارثة التى أنزلتها ستيت الخادم عندما غافلت سيدها - وكان موكلا بحراسة الكرار وبيت الدجاج فى غيبة رقية - فوضعت الخادم ديكا فيوميا أملس الرقبة فى القدر، ولم يعرف عثمان بفعلة الخادم لولا أن رقية كشفت غطاء القدر بعد عودتها، ورأت الديك مقنطرا فيه، فلم تتوان السيدة الفاضلة فى علاج الموقف بحسم حاسم وبصيرة نافذة، إذ طردت الخادم وشيعتها بشتائم منتقاة، وانبسطت أسارير عثمان وهو يقول إن تلك المرأة ستيت شؤم عليهما، كلفتهما الكثير طوال العشر سنين الماضيات، ولم تؤمن تلك الشرهة بأنه ينبغى ألا يؤكل اللحم فى غير أيام السوق، وهكذا تضامن الزوجان بإزاء الكارثة، ولم يختلج فى جسميهما شىء، وهما يريان الخادمة تطرد من الدار، بعد عشر سنوات، فتخرج حافية يطل الشعر الرمادى من شالها الممزق.

◆◆◆

كانت الملاريا قد اجتاحت صعيد مصر منذ أحد عشر عامًا وأكلت ما استطاعت من رعاة الجاموس الساكنين فى درب من دروب القرية، وأشمتت بهم جيرانهم الفلاحين الأجراء الذين كانوا يبغضونهم، ويعلنون أن رعاة الجاموس قوم خنازير يستأهلون نصيبهم وزيادة، فهم برغم نعمة الله عليهم، لا يجرؤ الرجل منهم على أن يحسو حسوة من لبن، أو يزدرد كسرة من زبد أمام امرأته، وما كان لرجل منهم أن تأخذه الحمية إذا رأى رجلاً آخر يحوز امرأته، وما كانت الفتيات السارحات الأعواد ليخجلن وهن يخلعن ثيابهن عند شاطئ النيل ليسبحن مع الجاموس ويركبنها، فتبدو نهودهن الوافرة وما أمر الله أن يستر من عورة..

وكان عثمان يسمع أنباء الشوطة وضحاياها، فيمص أنفه ازدراء لهم، ولكن سرعان ما أتته فنفضت فى جسمه رعشاتها وذاع الخبر على ألسنة الفلاحين الأجراء، وإذا هم يشمتون به شماتة عرضها عرض السماء والأرض، ويتمنون على الله أن تقهره الحمى، فيعرف حساب القبر، ويكوى على ظهره وبطنه بعدد الجنيهات الذهبية التى يكنز، ويسأله الملكان عن اغتيال حق الفقراء، وأكل عرق الأجراء..

وهكذا أقبل رمضان وعثمان يتمدَّد فوق لباد من الصوف مزركش الأطراف، يتفصد منه العرق، ويجف حلقه فيعب من الماء المسكر الذى كانت رقية تملأ به إبريقا من زجاج رخيص وزادت رقية الإسراف، فأتته بالمقدس ينى حلاق القرية المجاورة الذى كان يركب حمارا ملجما كالأعيان، ويحمل معه أنى ذهب عدته فى حقيبة جلدية ذات قفل معدنى كبير، ويأخذ عن كل زيارة نصف ريال بالتمام.

وأبدى الفلاحون الأجراء كريم اهتمامهم بمرض عثمان، فسارعوا

يمضغون لحمه مصبحين وممسين، وحسبوا زمام الأرض مرة ومرات، واختلفوا حول خير أحواض الوسية، أتراه حوض "الطويلة" الذى يجود فيه قصب السكر؟ أم الأربعين الذى يعطى الفدان منه ثمانية قناطير قطنًا؟ أم الخرائب التى يرمى عود الذرة فيها كوزًا طوله ذراع؟ وعندما أشيع أن عثمان قد أوشك على النهاية، نشطوا فى استراق الأخبار والإشاعات ومراقبة العمدة ورقية، ولم يكن من النادر أن تسمع "أبو دومة" السقاء يوحى إلى جمهور من رواد الدكان بأن العمدة قد فاتح رقية فى أن يتزوج منها بعد انقضاء العدة.. وعلى ذلك النحو أماتوا عثمان وحاسبوه فى القبر وشووا لحمه بنار جهنم وزوجوا رقية للعمدة، واختاروا أفضل الأحواض ليتقاسموا إيجارها.. ولكن يا لهم من أشرار ساذجين؟ هل كان من المعقول أن يموت عثمان بهذه البساطة وظهره مشدود بثلاثمائة وخمسين فدانا؟ انظر إلى ما فعلته رقية لتعرف أن الملاريا يمكن أن تسحق سحقًا وأن ينتصر عليها الصريع! لقد أقسمت رقية برأس السيد الناظر أن تنصب لعثمان السرير النحاسى ذا الأربعة أعمدة، وأن تحضر طبيب المركز وتجلب له الدواء، ولو كان فى بلاد الواح!

وصحا عثمان من غفوته الطويلة، بعد جرعتين أو ثلاث، واستيقظ معه بخله وهو سر حياته، فما إن رأى جسمه غائصا فى المراتب ومعلقا فى السرير النحاسى، وأدرك من مرأى زجاجات الدواء أن رقية تكلفت إحضار طبيب، حتى أسر لها بألا تعود إلى مثل ذلك التبذير، فالمقدس ينى فى يده الشفاء، ويكفيه أن يضرب على نافوخه بالموسى ضربة هنا وأخرى هناك، أو أن يشد بكئوس الهواء بعض الدم من ظهره.

❖❖❖

على أن الحمى أحدثت بعثمان حدثًا، وجعلت قلبه يطن كدائر الساقية، ويزقزق كالعصفور، ذلك بأنها أرجعت إليه أوهام الصبا، أيام كان يرجو أن يتخذ امرأة ثانية وثالثة، وحين لم يكن يستحى وهو ينام لصق رقية من أن يفكر فى امرأة سواها.. امرأة رخية الجسم، ناعمة كالتفاحة، ليست كابنة الناظر، تلك الحرباء العجوز، التى لا يكاد يلمس منها موضعا إلا ويقع فيه على عظمة!

وكان عثمان فى شبابه قد جرب الحرام، عندما كان يصادق "عيسى العطار" البارع فى تجهيز المعاجين والمساحيق، الخبير بالطريق إلى كل امرأة لا تمتنع، وكل فتاة تأكلها الرغبة فى رجل، أو تهزمها الحاجة إلى مال.

فى تلك الفترة، وصل عيسى عثمان بامرأة من نساء الفلاحين، كانت قد طردت زوجها لأنه لم يكن رجلاً كما ينبغى، وآثرت أن تفسح فى فراشها للرجل والفتى والصبى على السواء، وأن تدع الشفاه الظامئة تتمرَّغ على فمها، فقد كانت – تبارك الله – ذات فم دافئ وشفتين قادرتين، وكان لها جسم فحل يزن أكثر من قنطار ونصف معظمه فى الأرداف والصدر، وكانت ذات مزاج فى الاكتحال والاختضاب، وذات خبرة فى المشية اللعوب.

هذه المرأة نفيسة عاشرها عثمان معاشرة الأزواج، بل كانت رفقته لها هى الضعة والعبث واختراع التدلى فى إرضاء النزوات، وكان كلما زاد فى مجونه معها، ركبه الشيطان فى أن يقتنيها على سنة الشرع، ويحجزها عن بقية الرجال، ولكن ماذا كان ذلك المسكين يستطيع أن يفعل وقد لاحت له مائة فدان لصق أرضه؟ لقد تزوجها.. أعنى بالطبع تزوج رقية صاحبتها.

ومنذ ما دخل بابنة الناظر، أرخى على قفاه عذبة، وأرسل على صدره قبضة من لحية كثة، وصار من أبناء الطريق.. وترك نفسه ينزلق شيئًا فشيئًا تحت صكوك رقية، وكلما زادت صكًا، ارتفع منسوب ورعه قيراطًا، حتى

أصبح قبيل مرضه أتقى أهل قريتنا جميعًا.. وظل على ورعه ذاك إلى أن هرأته الحمى وشقت عنه ملاءة الزهد، فأصبح يلوح له جسم المرأة نفيسة، وراح قلبه مشغولا بالمرأة الثانية تأتيه بوريث من صلبه.

وصار عثمان يرفع عينيه فى عينى رقية، يعارضها مرة، ويزور بكلامها مرة، وهو الذى كان قد أطاعها فأحسن الطاعة، وصغر لها فأتقن.. وتقطعت نفس عثمان، فهو يريد أن يكشف لها عما فى قلبه، ويخشى إن فعل أن تتركه رقية وتعزل المائة فدان، بل لعلها أن تقطعه وتقتضيه الإيجار المكدس.. ولو حدث ذلك لكانت نهاية أجله! وبعد تدبير دقيق، وتقليب للرأى كلما خلا لنفسه فرسم فى التراب خطوطا بعصاه، حزم شجاعته وفاتحها الأمر، متمهلا محاذرا لأنه كان يعلم بأنه يسير على الصراط، فليس له أن يخطئ أدنى خطأ، وإلا وقع إلى الهاوية.

قال لها إن من حقهما وقد كبرا أن يصرفا أيامهما الباقية فى الصلاة والصوم وزيارة قبر الرسول فأية منفعة لهما فيما يكنزان؟ سوف يموتان فيشمت بهما الناس.. أقرب الناس: علوانى أخوه والحاج حسنين أخوها.. وسوف يشمت الورثة؟ ولعل زوجة أخيه أن تهدم الحائط الفاصل بين داريهما وتضم البيت إلى دار العمدة، بل ومنذا يضمن بأنها لن تختار حجرة نومها بالذات فتلك المرأة تشتهى لها السم!

وقالت رقية إن الموت كأس يدور على الناس وهل أحد يعيش إلى آخر الزمان!

ومال الليل عن منتصفه والثعلبان يروغان، وأخيرًا اضطر عثمان إلى أن يحتال حيلته المعهودة، فنفض عن رغبتها الرماد، وتملق المرأة فيها، وبالرغم من أنها كانت تعرفه كما تعرف أصابع يدها، ولا يخالجها شك فى أنه كاذب

مخادع، إلا أنها كانت تسكر بغزله، وتحب منه أن يثير فيها الفخر بأنها امرأة، ثم هى كانت تحب أن يساومها على أى أمر، مساومة لا تخلو مون عبث الأزواج، وهكذا فقد تلقت كلماته بوجه باسم، وعينين براقتين وشفتين نديتين، وما كان عثمان ولدًا صغيرًا ليقف بالمسرة عند ذلك الحد، وإنما هو مضيف إليها عرضا مغريا بأن يترك لها خمسين فدانًا فقد قال لها:

- "إنى لأخاف أن أموت فيعذبك علوانى وزوجته، ويضعان يديهما على أطيب أرض.. وحتى أضمن لك الراحة، قررت أن أتنازل لك عن حوض الطويلة وماكينة الرى الجديدة".

واختلط على رقية ذلك العرض، فقبلت عثمان على لحيته وفوق جبينه، ولكن سرعان ما تحول الكلام إلى طريق شائك فعثمان يقول:

- "ويجب أن نفكر فى الغد يا حاجة فما فائدة الأرض ولو كانت آلافا مؤلفة إذا لم يحمها رجل! هل يرضيك يا حاجة أن نكب الدم عشرين عامًا لنحافظ على نعمة الله ونزيدها ببركته ثم نتركها لقمة باردة لعلوانى وزوجته؟ أليس من حق نعمة الله أن نحافظ عليها فأتنازل لك عن مائة فدان مقدمًا.. أقول لك مائة يا حاجة.. ونضمن المائة والخمسين الأخرى بولد من صلبى فلا يخرج قيراط عن يدنا".

واشتبك صوت رقية المعدنى الثائر، بصوت عثمان العريض، ولم يسمح لها عثمان بأن تقطع حديثه، ولم يأخذ عنها شيئًا من اعتراضاتها، بل استرسل، وقد جلس فواجهها، وكأنهما قطان متحفزان.. قال عثمان:

- "مائة فدان خالصة لك غير ميراثك منى.. وسنقف بقية الأرض على مسجد نبنى فيه ضريحا لنا، فينفق عليه من دخل الأطيان، يتلى به القرآن كل مساء، ويقام به ذكر كل خميس، وننال ثواب الآخرة

ونعمة الدنيا.. وأما المرأة الأخرى فنحرمها الميراث، وكذلك نحدد للولد منها عشرة أفدنة لا تزيد.. وستكون تلك المرأة عبدتك وا لولد خادمك".

سخرت رقية منه وهى تسأله ما إذا كان قد وجد شابة أجمل منها.. وأكدت له مقسمة أغلظ الأيمان، بأنها لن توافق على زواجه من ثانية ولو أعطاها مال الدنيا كلها، ولن تخضع إلا إذا قطعوا رقبتها.

قال عثمان جادًا غير هازل:

- "وهل تسمينها زوجة ثانية؟ إنها مجرد ماعون يعطينا وريثًا ينفعك أنت فأنا رجل وأنت على أية حال امرأة.. ولن تكون الأخرى إلا خادمة، تأتمر بأمرك، وانتقيها أنت بنفسك، ولتسكن الأخرى حجرة الكرار بجوار الحظيرة.. أم تظنين أننى – لا قدر الله – أريد العبث بعد ما شاب رأسى".

وبدت خيوط الفجر الباهتة، وقد تمت صفقة لم تكن سهلة علم الله.. فقد أضافت رقية إلى شروط الصفقة أن يهبها عثمان مصاغًا من ذهب بندقى: سوارين وخلخالا وحلقا وخاتمين، وأن يشترى لها بذلة من حرير مقصب، وشالاً من قطيفة، وأن يطلى حجراتها طلاء جديدًا، يصنعه نقاش المركز فيزوق الحوائط جميعًا..

واشترطت رقية ألا ينام عند الأخرى إلا ليلة واحدة كل أسبوع على ألا تكون زيارته للثانية ليلة الجمعة!

أول شىء فعله عثمان فى صباح غده، ثم كل صباح من بعد، أن استمرأ النظر المحموم إلى نساء البيوت الواطئة التى كان الفلاحون الأجراء ورعاة الجاموس يسكنونها، فالنساء فى هذه الناحية لا يكلفن كثيرًا، وبوسعه أن

يتحقق من صلاحيتهن إذ أنهن وحدهن الحاسرات، ولذلك فقد صار ينفق الضحى مختبئًا وراء شجرات الخروع فى الحقل الغربى، لا يزعج أمنياته أحد، ولا يقطع اشتهاءه إنسان، بل أصبح مشوقًا إلى أن يتابع بعينيه المحمومتين، الفلاحات الأجيرات يملن على الزرع، أو يمشين فرادى وجماعات مقبلات ناحيته أو مدبرات، وكن لا يشعرن به، فيتضاحكن ويتجاذبن، وأحيانًا ما كن يجلسن أمام شجرات الخروع، يحكى بعضهن حكايات فاضحة، ويلهب النسيم شفتيه برائحة أجسامهن.. ويا شد ما غرسن فى قلبه أسنة ملتهبة، وهن يتحدثن عن العشق المستور والمفضوح فى القرية.. فذلك أمر كان عثمان ذات يوم، وحرمته إياه ابنة الناظر، وباعد بينه وبينه شيخ الطريق.

وفى تلك الأوقات المحمومة كانت تمر به براكين سريعة هوجاء.

... ذات مرة أقبلت على الشجرات البنية سواكن الدرس، والريح تلفح ثوبها إلى الوراء فتلصقه بجسمها الفارع الممتلئ، ويتبدى نهداها جالسين، ويهيأ له أنه يرى تعاريج بطنها الخمران، ولحظة أن جسدت الريح جمالها، خطف بذهنه بارق من أغنية معروفة تصف الحبيبة بأنها "مشمش طرى دبلان يتاكل بعيدانه" إنه ليتمنى أن يتخذها زوجته الثانية.. ويود لو وضع ذراعه حولها وأسند رأسه على صدرها.. و"دعا على الشمس تطلع بعد ستة أيام" كما تقول أغنية أخرى.. ولكن عثمان لم يكن قد أنفق خمسا وخمسين سنة بغير فائدة.. إنه رجل مجرب وذو خبرة.. يعلم أن سواكن هذه بكر، والبكر قد تكون عاقرا، فماذا يكسب من ورائها إذا هو أعطى أباها مصطفى الدرس عشرة جنيهات كاملة - فأبوها خنزير طامع – ثم لا تنجب له ولدا! أضف إلى هذا أنها قوية فتية، فلا مفر من أن تزيده رهقا، فتمص نخاع سيقانه وتخلخل ركبتيه فى شهر.. وإذًا فسواكن ليست له.

أتراه يختار عائشة الصعيدية؟ عائشة لا تصلح له ولا لرقية، فهى صبية أنفها فى السماء، تظن أن أباها ملك، ولا تريد أن تعترف بأنها ابنة تجار السواقى.. إنها متكبرة غير مهذبة، أسخطت رقية فأقسمت ابنة الناظر ألا تدخل عليها بيتا.. ولكن كم هى فائقة فى طلعتها!.. وكم ذا تضحك عيناها ويحلو الوشم الأخضر على شفتها السفلى! ويا لمشيتها الساحرة من مشية! فهى لا تسير كما تسير بقية النساء، وإنما تخطر كالغزال المطمئن، واثقة من أن عيون الرجال تتعلق بها.. فما دخل رقية بها؟

- "هل أريد امرأة لى وحدى! هل أتزوجها أنا، أم نتزوجها أنا ورقية؟".

وكان الرد الداخلى بالطبع أنه يريد زوجة لهما كليهما.

ومرة أخرى، وكانت الشمس توشك أن تغيب، لمح حسيبة أخت صابر أبو الروس، تملأ الجرة من النيل، وقد كشفت ثوبها عن ساقيها، ومالت بجسمها، فاقتحمت قلبه فكرة اختيارها غير أنه سرعان ما عدل عنها فقد كان يعلم علم اليقين أنها رفيقة حسنين الطويل ذلك اللص الغادر اللئيم.

❖❖❖

وتكاملت فى ذهنه المواصفات التالية للزوجة التى تصلح له ولرقية ابنة الناظر.. فينبغى ألا تكون من الفتوة بحيث تورثه الرهق، ولا جميلة فتجن رقية، ولا بكرا حتى لا يكون ثمة مجال للمخاطرة، ويجب ألا يغضب لخسفها أحد وألا تستكثر على نفسها بعد زواجه منها - أن تنادى رقية بـ "يا سيدتى".

وهذه المواصفات لم تتوافر إلا فى امرأة واحدة وتلك هى فاطمة النمكى التى تسكن ببيت أولاد صادق فى آخر الدرب الضيق، تجاور رعاة الجاموس وإن

لم تكن منهم، وكانت تمر به كلما ذهبت إلى النيل أو عادت منه تحمل جرة الماء على رأسها، فيلاحظ أن جسمها موزون جيد البناء، ويعلم أنه لا بد وأن يكون جسما طيبا، فساقاها مستديران، وإذا كانت قد ولدت ثلاثة ذكور لزوجها أبو العلا فليس من المتعذر أن تهبه ولدا واحدا.

ولكن فاطمة هذه زوج لبعل يؤاخيه الطريق.. إنها امرأة أبو العلا الذى تصفه القرية بأنه تيس، لا لشىء يتصرف بشرف فاطمة بل نظرا إلى أن لحيته كلحية التيس.. فكيف ينالها.. أليس أبو العلا رجلاً؟

نقل عثمان من حيث كان يجلس وراء شجر الخروع وهدر:

- "ليس رجلاً بالطبع فأمه قحبة يعرفها أبناء جيلنا.. أم يخيفنى أبو العلا بلحيته النجسة، وزبيبة الصلاة رباها الباطل.. إنه قحب مثل أمه وسنرى".

والحق إن أبا العلا كان خليطًا من هذا وذاك.. فقد كان تيسًا بمعنى أنه قفز ذات ليلة إلى بيت المرأة تمام جارته عندما علم بأن زوجها محجوز فى النقطة، وكانت له أرومة فى الضعة، فخالته فرت مع الغوازى، ولم تتحرج من أن تهز بطنها فى قريتنا بعد ذلك.

وعندما عرض عثمان اسم فاطمة النمكى على رقية، أضافت فيها صفة أخرى ترجح اختيارها، وأضافتها فيما بينها وبين نفسها وتلك أن فاطمة لم يكن يبقى على بلوغها سن اليأس إلا أربع أو خمس سنوات، وذلك يقلل خطر إنجابها أطفالاً كثيرين.

بيد أن المسألة لم تكن مجرد عملية حسابية ووزن بسيط، إذ لم يكد عثمان يلقى بعرضه تصريحا على أبى العلا حتى تضاءلت سحنته وشالت لحيته إلى أعلى حيث كان الدم قد ضرب عينيه المبرومتين.

لقد أحس أبو العلا بأصابع من حديد تعصر قلبه ورجع إلى بيته الـواطئ ترتعش شفتاه ولا تترك يده لحيته وظنت فاطمة أن رجلها لم يفرغ بعد مـن ورد العشاء، فلم تأبه له، واسترسلت تستعد كما يستعد النساء فى قريتنا ليالى الجمعة، وكانت قبل وصوله مشت بمرود الكحل فى عينيها فأضافت ذيلا هنا وآخر هناك ودلكت خديها بشاش أحمر، ولكنها أخذت الآن تخلع الملبس، لتلبس ثوبها الموعود يتقاسمه الأبيض والأحمر، وكان ضيقا عند الصدر مزموما، وكان واسعا رافلا فيما عداه، وكانت فاطمة تتخذه بغير ثياب تحته كلما أهلت ليلة الجمعة..

ولكن رجلها كان فى ليلتنا تلك واجمًا أصفر اللون، يصطك وينزف العرق، وكان صامتا بليدا لم يستعجلها لتنيم الأطفال، ولم يسألها أن تأتيه بكوز الماء ليتوضأ، بل استقر قرب الحائط مكوما أول الليل ثم أدار وجهه عنها وأطبق فمه.

وعندما صحت فاطمة لترضع عويسا طفلها، وجدت أبا العلا مستلقيًا على قفاه جاحظ العينين فلم تتكلف سؤاله عن سهره، لأنها كانت من أولئك النسوة اللائى يحترمن أنفسهن.

وكانت ليلة سوداء مزقت قلب أبو العلا شر ممزق، واستفزت العروق تضرب رأسه المصدوع.. وكان غريقًا فى بحر مضرب، لا يفكر فكرة ويتمها، ولا يبدأ رأيًا ويمضى فيه، ولا يعرف أحق أنه سيقطع فاطمة – أم أنه سينجح فى إبقائها إلى جواره، وانتاشت رأسه أشتات من الأفكار الناقصة والذكريات القديمة والجديدة، وتتابعت على حلقه طعوم مريرة وأخرى آسنة، واختلف جسمه بين الحرارة والبرودة.. إن فاطمة هذه مسكينة مقطوعة من شجرة، ولن ينسى أنها قالت له كلما طوقها بذراعيه إنه أبوها وأخوها وكل شىء لها فى

الحياة، وأنه سندها والسماء التى تظلها، وكان يشعر فى تلك اللحظات بأنه رجل كأقوى رجل فى القرية، وكانت تنتشى بجسمه نشوة الرجولة والاعتزاز بأنه بنو آدم، .. وطوال عشرتهما لم تكل من رتق ثيابه، تمريض أبنائه، وتدبير بيته بالقليل الذى كان يكسب بل وإن اعتداءها عليه بالضرب أحيانًا كان قد فقد معنى الإهانة لديه، فما كانت تلطمه إلا إذا نعتها نعوتا قبيحة. إنها أعز لديه من أولاده ومن بيته الذى اشتراه بتوفير العمر.. لا.. لن يدعها لعثمان؟ وكيف يدعها؟ أليست هى أم أبنائه وامرأته؟ هل بلغ الظلم أن يغتصب عثمان زوجته؟ ولكنه لا يلبث حتى يتصور عثمان يصفعه ويشتمه "يا ابن..!" وإذا فعل عثمان ذلك فلن يستطيع أن يرد عن نفسه الضرب ولا الشتم.

ولسوف يطرده عثمان من القرية أو يرميه العمدة – مجاملة لأخيه – فى أول جناية تقع فى القرية، وإذا حبسوه فمنذا يمنع عثمانا من أن يسطو على فاطمة؟

وتخلّل ذلك نشيج مكتوم، أنت تستطيع أن تفهم مداه متى علمت بأن الفلاحين إذا بكوا مخلصين فإنما يبكون ذوب دمائهم.

وكأن الدموع ألهبت شجاعة أبى العلا فبرق فى خاطره أن يقتل عثمان: بأن يأتيه من ورائه ويضربه بالفأس.. ولكن ذلك الخاطر غام فى لجة من الخوف.. هل يهرب بفاطمة والعيال؟ وإلى أين؟ إلى مصر.. وكيف يبلغونها ؟ وماذا يفعل هناك؟ أيشحذ؟ إن المرة الوحيدة التى ذهب فيها إلى القاهرة أخافته خوفًا عظيمًا وأكدت لديه أنه لا شىء على الإطلاق إذ ما كاد يستقر فيها بضع ساعات حتى قبض عليه البوليس وأخذوه إلى القسم يتحرون عنه وضربه الجاويش لأنه تشبث بالخمسين قرشًا التى كانت معه.. فإلى أين؟ إلى أين؟ إنه يخاف العزية أكثر مما يخاف الموت! أيشكو عثمان لشيخ الطريق! ومن يكون شيخ الطريق بإزاء عثمان!

ماذا يفعل!

أشرقت الشمس وهو لم يزل الغريق تتقاذفه الأمواج.. أمواج الضياع والذلة والتمرُّد والخوف.

وفاضت أشعة الشمس من طاقة صغيرة مشقوقة فى الحائط الشرقى، وأدار أبو العلا عينيه فى هذا الركن الذى بناه بلحم أكتافه حين كان يضرب الطوب على حافة الترعة وكانت فاطمة حاملاً بابنها البكر ومع ذلك كانت تساعده فى تخمير الطين وخلطه بالتبن والرمل، وترفع على رأسها "القصعة، الثقيلة وتناوله الطوب.. واستقرت عينا أبو العلا على فاطمة وكانت قد جلست وفى حجرها رأس ابنتهما "سالمة"، وشعاعات النور تحطُّ فوق وجهها حيث أخذ الذباب يتجمع على عينيها وفمها.. وفاطمة على غير عادتها سأمانة لم تغسل للبنت وجهها ولم توقظ الأطفال ولم تكلم أبا العلا حرفًا واحدًا. وكان الدرب خارج البيت الواطئ قد صحا منذ وقت طويل، ودبت فيه الماشية والنساء والأطفال وانطلق منه إلى داخل البيت، كل بجارهم طه فدخل يتثاءب ويتمطى ويتمسح بالأطفال، ويشم الأرض مستجديًا لقمة..

لشد ما أراد أبو العلا أن يفتح الدمل الذى فى قلبه فيقول لفاطمة ذلك الحديث القطرانى الذى دار بينه وبين عثمان، ولكن رجولته كانت تربط لسانه فيصمت.. وقامت فاطمة بعد أن صحا الأطفال، وسروا من البيت إلى الدرب بغير أن يطعموا شيئًا أو يغسلوا وجوههم.. ثم عادت فاطمة بكوب من الشاى لم يكد أبو العلا يرشف بعضه حتى راحت تعاتبه ذلك العتاب المألوف لفلاحى قريتنا، والذى يكون فى ظاهره، سلسلة من الشتائم الخفيفة والإغاظات، وفى جهره مماحكة لإرجاع المياه إلى مجاريها.. سألته ما الذى لواه بالأمس؟ هل أكل العمدة حقه كالعادة؟ وكان ذلك يجرح كرامته ورجولته،

وطلب إليها أبو العلا أن تتقلب عن وجهه وتترك الواحد وشأنه، وشيئًا شيئًا التهب العتاب وانقلب عراكا.. ولأول مرة دق أبو العلا أنفها فأدماها، وأذهلها الدم فقذفته إلى الوراء وشتمت أمه شتائم كتلك التى اعتاد عثمان أن يقذفه بها.. واشتبكت الأيدى، وكان الأطفال قد عادوا ليأكلوا كسرة، فالتفوا حول أبويهم يصرخون كالكلاب الجريحة.

وأنا أدع لك أن تتصور أثر هذا العراك المشئوم فى نفس أبى العلا بعد ليلة فاجعة وفى قمة ضياع أسود كضياعه.. ولك أن تتصور جرح روحه وفاطمة تشتمه نفس الشتائم التى يقذفه بها ظالمه عثمان.. ثم تستطيع أن تتخيل افتراس الغضب الذى نزل بافطمة وقد هجرها زوجها الليلة السابقة بغير ذنب جنته، وباكرها هذا الصباح بوجهه المقلوب وألفاظه الغليظة. لقد أقسم أبو العلا لئن لم تصمت وتقطع لسانها فهى طالق ثلاثًا. أم تحسب أنه ليس رجلاً؟ ولم تسكت فاطمة.. وجرت بقية الحادثة سريعة مجنونة: فقد انطلق أبو العلا إلى المأذون وطلق فاطمة.

❖❖❖

أتراه طلقها لهذه المشاجرة؟ أم قطعها إشفاقًا عليها؟ أم لأنه لم يجد حلاً لمشكلته فآثر الهرب من مواجهة مصيره؟ أم تراه طلقها لكل تلك الأسباب وغيرها!

لست أحب أن أحلل أسباب تصرفه ذاك، ولا أحب أن أصف لك فاطمة وقد وقع الطلاق على رأسها، فراحت تعوى كالوحش الجريح، ترسل أخلاطًا من الشتائم والتوسُّل والبكاء وتنبش الأرض بأظافرها، وتضم إلى صدرها طفلها الرضيع عويس كأنها تخاف أن يخطفه الموت.

ولتمض معى سريعا عبر السنين، ولنطو معًا زواج عثمان بفاطمة ، فما أيسر أن يحقق أمثال عثمان ما يبغون من أمثال فاطمة.. ولنقف عند وقفة عيد الفطر منذ عام مضى، ففى ذلك اليوم نهضت فاطمة قبل الشروق كعادتها، وشقيت بالخدمة حتى شعرت بأن جسمها ينهار.. وبعد الظهر غافلت سيدة الدار واستقبلت طفلها الصغير عويس من زوجها أبو العلا، فغمرت وجهه بالقبلات والدموع، وملأت جيبه بكسر الخبز المتبقى من طعامها، وأوصته بألا يقول لأحد إنه زارها.. وعندما أوشكت الشمس على المغيب، كانت ساعة الزيارة الأسبوعية قد اقتربت، فدلفت إلى حجرتها وخلعت ثيابها، وارتدت غيرها، بعدما غسلت وجهها ومشطت شعرها، واكتحلت.. ورتبت الفراش فى انتظار عثمان.

❖❖❖

وغرقت الشمس فى لجة النيل الذى لا يبعد كثيرًا عن البيت الكبير، واستقرت العصافير وطائر أبو قردان على فروع شجرة اللبخ التى كانت تتوسط الباحة..

ومن باب حجرة أرضية رطبة، خرج عثمان بعد ساعة، منفوخًا كالديك الذى هبط لتوه عن ظهر دجاجة.. وكانت الحجرة مظلمة، فعثمان لم يكن يحب أن ينام معها إلا فى ظلام!

وخطا السيد صوب أريكة خشبية، كانت عند الباب الداخلى للدار، وكان فانوس كبير معلقا فوقها يرمى عليها ظلاله وشيئًا من نور مصباح، وعلى الأريكة جلست الحاجة رقية وأمامها طبق من نحاس فيه فنجالتا قهوة، وثمة طفل واسع العينين، يلبس ثوبا جديدا وحذاء وعقدا من خرز أزرق وأحجبة،

يحاول أن يصعد إلى حيث كانت سيدة البيت، ليحسو حسوة من القهوة التى عودوه أن يلعق حثالتها.

وعندما أنيرت الحجرة الأرضية الرطبة كان من الممكن أن نرى على وجه صاحبتها كحلا أسالته الدموع..

تلك الباكية هى فاطمة، وذلك الكحل المختلط بدمع عينيها تزويق اعتادت أن تتخذه كلما زارها عثمان، والطفل ينتظر حثالة القهوة هو ابنها "مرزوق" الذى ولدته لعثمان.

❖❖❖

وسمعت فاطمة صوت "على العلاف" ينهر البهائم فى الحظيرة فتذكرت أنه ينبغى أن تنهض فتساعده فى رش أرض الحظيرة بتراب الفرن، وقبلما تخطو عبر العتبة غسلت وجهها، فما كان لها أن تظهر فى ساحة الدار وهى مكحولة أو مخططة.

وعندما عادت من الحظيرة، جلست تتسقط النور من مصباحها وتغزل صوفًا أحمر لتصنعه طاقية لطفلها.. ذلك الطفل الذى ولدته ذات يوم وتركته ينام تحت أقدام سيدة الدار، وينادى رقية بيا أمى، ويضربها هى بعصاه ليضحك رقية.

❖❖❖

وانهمرت فى روحها بكائية لرجل غريب.. بكائية تندب شريدًا مات بعيدًا عن الأرض التى أنشأته.. وجعلت فاطمة تهدر بالبكائية فى صوت حبيس.. وفى ذهنها صورة أبى العلا الذى غادر القرية منذ سنتين، وقد مزق ثيابه وانعقد

الزبد على فمه ولحيته.. وقال الفلاحون إن ابن خديجة قد أصبح منذ ما طلق فاطمة من المقربين إلى الله! وسوف يصنع معجزة عندما يموت!

وأما هى فكانت تعرف لماذا فقد أبو العلا اتزانه وتجهل مصيره وحظه من الحياة.

وأتبعت البكائية بأخرى، بينما كان عثمان قد فرغ من شرب القهوة وتجشأ ، فحمد الله على نعته بصوت عريض.

مفتاح قديم

أحمد زغلول الشيطى(*)

لهنيهة لم أر سالم وفتحى السباك، ناديت: يا اسطى فتحي. جاءنى صوته، فى العتمة الخفيفة، قريبًا للغاية.. كان خلفى، وإلى جواره سالم يعبث فى صندوقه المعدنى الصدئ، قلت: هووه، ما فيش نور هنا..؟

لم يُحر أى منهما جوابًا، كانا منهمكين فى البحث عن مفتاح.. فى حين كنت أتفحص الردهة الواسعة.. كانت صور العقاد وأم كلثوم، وسعد زغلول مترتبة ومركونة على الأرض، أو معلقةً كيفما اتفق..

فاجأنى سالم، قائلاً: كانت بتيجى البيت وهى صغيرة.. وأشار إلى صورة أم كلثوم، هززت رأسى بينما أستوعب.. صاح فتحي: يا سلام؟ مفخمًا من وضع البيت وأهله.. تقدمَنا سالم إلى السلم الجانبى المقوس، وخلفه السباك.. ثم أنا...

انتبهت على صوت ارتطام الصندوق الصدئ ببلاط الردهة، وتناثر ما به من مفاتيح. وصوت فتحى يقول فى نفاد صبر: ما فيش ولا مفتاح عايز يفتح.

قلت: يعنى إيه انحبسنا هنا؟

فوجئ بهبوط عتمة تدريجية، ولاحظ مصعوقًا أنه محبوسٌ فى هذا المكان مع اثنين لا يعرفهما إلا من دقائق، ربما خمس دقائق، ربما عشر دقائق،

(*) أحمد زغلول الشيطى، من مواليد ١٩٦١، من مجموعاته القصصية: (عرائس من ورق)، ١٩٩٤.

ربما أكثر لم يعد يدرى. نظر إلى سالم كأنما يراه لأول مرة، كان فى نحو الخمسين قصير القامة نحيلاً جدًّا، حتى بدا له مقوسًا قليلاً. ومما زاد فى نحافته ارتداؤه حزامًا جلديًّا أبرز خصره الذى يشبه خصر طفل. وكان يرتدى نظارة مربَّعة العدسات، ويمسك الصندوق المعدنى بيديه. انتبه سالم لقلقه، وقال مهدئًا: أكيد هنلاقى مفتاح.

كان السباك متوسط القامة فى الثلاثينيات من عمره يعالج مقبض الباب بتؤدة دون جدوى، وتدريجيًّا لم يكن هناك مصدر ضوء. شعر بأن المكان يضيق، وأن الهواء ينفذ، وأنه لا يدرى ما الذى جاء به إلى هذا المكان، وهو لا يريد شيئًا منه، ولا من سالم ولا السباك.

مؤكدٌ يتكاثف الليل فى الخارج، فى المنطقة المطلة على الأثر المهدَّم المهجور، وقد سمع ما حكاه سالم عن انهيار حائط قديم، ومشاهدة الناس معبدًا يهوديًّا مبنيًّا خلف السور. لم يكن أحد يتصور وجود المعبد فى المكان، وتساءل الجميع أكانت تقام الشعائر سرًّا دون علم جيران المكان.

صاح السباك معنفًا سالم: بيتك دة خرابة، لأ لأ لأ دة.. جبَّانة. لم يرد سالم على السباك متجاهلاً إياه. كانت الرؤية قد أصبحت ضعيفةً للغاية. لم يعد يتصور ما يحدث وما إن كان واقعًا حيًّا أم كابوسًا. جلس على درج السلم، واستند برأسه على يديه اللتين ارتكزتا على ركبتيه. كان فتحى يتحسَّس الحيطان وينظر إلى الشُّراعات العالية المسلحة بقضبان حديدية، محدثًا جلبة وتعنيفًا متواصلاً لصاحب البيت الذى ترك الصندوق المعدنى يسقط من يده ثم تكلم بأعلى صوت يقدر عليه: البيت دة مش بتاعى، أنا شغال هنا.

راح السباك يضحك ضحكًا هستيريًّا ويردد: وانت مين يا ساكت؟

انزوى صاحب البيت فى ركن، وقد انكمش على نفسه. كنا كمن أصابتهم لعنة، أو كمن سقطوا فى بئر زلق. لم يعد أحد منا يدرى من الآخر، وما إذا كان هذا الجدار جدارًا، أم أنه حائط وهمى سيسقط من أول لمسة. كان السباك خلفى تمامًا حين صرخ فى أذنى: ومين صاحب البيت؟

قلت: إننى لا يهمنى. حين قال الرجل النحيل إن صاحب البيت مقيم بالخارج لأنه يملك مصنع أخشاب فى رومانيا، ولا يأتى سوى مرة واحدة فى السنة، وأنه اشترى هذا المنزل منذ عامين، من أصحاب البيت الأصليين وهم من الأعيان القدامى، وإن إحدى سيدات البيت كان أميرة... أميرة حقيقية، ويقال إن الملك فاروق زارها مرات عديدة فى هذا البيت، وإنها دفنت فى مقبرة ملكية.

كان السباك يتابع كل كلمة بانتباه شديد. بدا كل شيء مستحيلاً، بما فى ذلك هذا السرد، تتداخل التفاصيل، ويدق الفارق ما بين الحقيقة والخيال، ما بين مدينة أقيمت تدريجيًّا على أنقاض مدينة أخرى لا تزال فاعلة، وأزمنة لا تزال تشق لنفسها مجرى دون هوادة. هكذا رأيتنى معلقًا بأربعة أيدٍ، بينما أسقط فى بئر عميقة ضيقة، وسالم والسباك يحاولان مد أيديهما بأقصى ما يستطيعان.

بالكاد راح جسمى ينزلق داخل فوهة البئر إلى أن سقطتُ فى مجرى مائى معتم وبارد. كان صوت فتحى يتباعد، فيما كل شيء يؤكد كلامه، من أن المجرى هو أنبوب تحت الأرض يمتد من البئر إلى النيل. تتسارع كلماته فى أذنى: أنبوب مكون من عقود من الطوب، بنيت كقنوات تمد بيوت الأعيان بالمياه العذبة حين فيضان النيل، بحيث يبقى المخزون طوال العام. يرفع يده مؤكدًا: ما زالت أنابيب من عقود الطوب تشغل مساحة واسعة غير مرئية تحت السطح.

ينظر سالم إلى وجه السباك مأخوذًا. يتابع فتحى دون أن ينظر إلى أحد: يتم هدم وردم أى جزء منها قد يظهر أثناء عمليات البناء، باستخدام الآلات العملاقة. هكذا، رحت أخوض فى المياه الباردة مرعوبًا من العتمة ومن احتمال أن يكون النفق المائى مسدودًا، تناهى إلىَّ صوت كلاكسات بعيدة.

احتمالات بداية

أحمد الشيخ(*)

وكانت غفوات الصحو والتأمل الغويط تقودنى إلى سراديب الرؤى الغامضة، أسأل نفسى إن كانت لحظات الخروج من بطنها كانت على هذا النحو فعلا أو أنها محض رسوم اقتحمت الذاكرة على مهل؟ لعلها لم تكن منبتة الصلة بما جرى بالفعل ولعلها تكوَّنت فى اللاوعى مسنودة على خبرات قديمة قدم الحياة نفسها، لكننى فى كل الحالات كنت أرانى منفلتا على غير ما كانوا يتوقعون، وبحسب ما كانت تحكى لى ولكل الحاضرين من الأهل والأقارب بعد أن كبرت وصرت بحسابات الكبار رجلا، تحكى مزهوة بنفسها أنها أفلتتنى بكل اليسر برغم أننى اتولدت قبل الموعد المحسوب بأكثر من شهرين، كنت أشاركها الحديث الجالب للضحكات أحيانًا قائلاً إننى استشعرت خروجى من داخلها مندفعا إلى أرضية القاعة الجوانية الرطبة وكيف اختلط السائل اللزج ودم خلاصى بالرماد الناعم قبل نزول الخلاص نفسه، أقول إننى تشممت رائحة الرماد واستشعرته ساكنا فوق مقدمة الرأس وأجزاء من البدن العريان فيضحكون، أسرح فوق حياتى قائلا لهم بينما أتأمل ملامحها أو أبوح لها بينى وبينها: إنه من المحتمل جدًّا أن أكون قد أحسست بأصابع أم يوسف وهى تلتقطنى وتربط حبلى السرى من فوق بطنى بخيط متين قبل أن

(*) أحمد الشيخ، (من مواليد ١٩٣٩)، من مجموعاته القصصية: (دائرة الانحناء)، و(مدينة الباب)، و(كشف المستور)، (الحنان الصيفى)، (البحر الرمادى)، (نصف الساعة السعيد)، (المنام المراوغ).

تفصله عن الخلاص ثم ترفعنى مقلوبا وتربت على ظهرى بخبرة السنوات الطويلة فى التوليد والإرضاع. أقول واثقًا ومسنودًا إلى إمكانية تصديقى: إنه حدث أننى بكيت لأول مرة بينما أتنفس فى ذلك الركن هواء تلك القاعة الذى ما زلت أميزه. هل كان هواء تلك القاعة المهجورة مميزا بالفعل فى تلك اللحظات: أزعم أنه كان كذلك ولا يزال، لكننى كنت أشعر أننى سوف أبالغ فى وجود الآخرين لو أكدت قدرتى على تمييز رائحة ذلك الهواء الذى كنت قد تشممته فى أول تجربة شم فعلى عبر تلك اللحظات، وأننى سوف أصادر على نفسى لو قلت إننى لم أستشعره أو أتشممه بشكل لائق، كنت أستند إلى احتمالات إحساسى بحدوث ما حدث لأننى كنت قد قرأت وأنا فى سن الإدراك و محاولة الفهم أن الجنين فى بطن أمه يحس بمثل ما يتغذى ويتحرك ويفرز الفضلات، أحيانًا كنت أقول لنفسى إنها محض تخيلات ترسبت فى الوعى من اللاوعى بعد أن قرأت تفاصيلها مئات المرات فى الكتب، لكنها كانت بحساباتى وحسابات الوقائع التالية أول سقطة تحدث لى وإن بدت زيارة غير مألوفة أو متوقعة من كل الناس فى ذلك الزمن القديم لأننى جئت قبل موعدى بشكل مؤكد بحسب كلامها ولم أكمل حتى شهرى السابع فى بطنها، وكثيرًا ما كانت تحدثنى وهى تشير بإصبع سبابتها القصير مفرودًا وحده من كفها الصغير إلى تلك البقعة أو مكان السقطة على وجه التحديد فى دار المرحوم والدها الذى لم أره أبدًا بينما تبتسم:

- هنا كان مسقط رأسك يا سيد.

أتأمل المكان الذى صار مألوفًا لى وتربطنى به على نحو غامض مشاعر حنو متبادل إن كانت الأرض الرطبة المهجورة تعرف الحنو كما نعرفه، أسأل نفسى إن كانت تلك البقعة من الأرض على وجه التحديد هى التى استدعتنى

رجلاً فى الخفاء فأتيت كى أتأملها وأتأكد من جذورى؟ أتساءل بينى وبين نفسى إن كانت أمى هى التى لفظتنى قبل موعد خروجى المألوف لتتخلص منى أو أننى تعجلت الخروج رغم إرادتها؟ أتساءل ولا أجيب.

تحكى دليلة أو أم يوسف عن صرختى العالية التى كانت صاخبة أكثر من كل الصرخات التى سمعتها هى لحظة أى ميلاد فأسرح بخيالى مرتبكًا، يتضاحك الحاضرون لأننى بكل الحسابات سرحت فى البعيد عنهم، تهمس أمى بمودة ساخرة بينما تتصب نظراتها ناحية العينين بلوم ناعم:
ـ عملت لنا فضيحة.

كنت فى المرات الأولى التى أسمع منها تلك العبارة أشعر بالخجل من نفسى لأننى صرخت بصوت عال، وربما لو كنت أملك القدرة على صياغة عبارات الاعتذار المناسبة ما ترددت أبدًا، كان فى داخلى خجل حقيقى لأننى أتيت أو خرجت على غير موعد ثم صرخت عاليا وعملت لها فضيحة على النحو الذى كانت تؤكده كل من حضرت الواقعة أو الوقعة، لكننى بتكرار تلك الرواية عشرات المرات لم أعد أستشعر ذلك النوع من الخجل، ربما لأننى عرفت أن الصرخات تصاحب كل من يولد كإعلان على وجوده الجديد تختلف حدة الصرخات، لكنهم جميعًا يصرخون، ولا بد أننى تآلفت مع المكان وصرت أتشمم رائحته، أستعيدها وأستكشف الفروق بينها وبين كل الروائح التى تفح أو تصدر عن الأماكن الأخرى، أقول لنفسى إنها نفس الرائحة القديمة التى تسربت إلى أنفى وعبرت حلقومى، امتزجت بتلك الخلايا الحية التى شكلت مولودا كنته أنا فى الزمن القديم، كان يتأكد لى أن ذلك الرماد الناعم الذى التصق بجزء من رأسى وأجزاء من بدنى تفاعل مع كيانى وتسلل ليكون فى الدماغ أولى خبراته مع الحياة، يبدو لى أننى على نحو غامض كنت قد انعجنت

برماد تلك البقعة ثم تنفست هواءها وأننى لأول لأول مرة سمعت فيه أصواتًا وصرخات وهمسات لم أميزها، تحسست الأرض أو تحسستنى، انطبعت على بدنى بمثل ما انطبعت أنا على سطحها، تلقتنى بحنو يليق بمولود سقط لتوه فوقها، وكانت المساحات تتسع بمرور الأيام، أنظر إلى مكونات القاعة والدار وأسمع أصوات ناسها، أتآلف أكثر مع صوت أمى وأشبع من لبن صدرها وأطمئن وأنا فى حضنها، تحتوينى بحنو أحتاجه وأحتجُّ صارخا لو لم أحصل عليه فى كل الأوقات، بعدها زحفت وقعدت فى الأركان قبل أن أخرج من باب الدار بمساعدتها أو بمساعدات غيرها، شاهدت بوعى حقيقى ذلك الزقاق وميزت أصوات ناسه، رأيت تفاصيل الوجوه التى لم أكن قد رأيتها من قبل، كانت المساحات تتسع يومًا فى إثر يوم ثم انقطع الخيط تمامًا ودرت حول نفسى فى فراغ لفترة لم أستطع تحديدها، رأيتنى فى مكان آخر وسط ناس غير الناس، أبحث عنها بين الوجوه فلا أراها، أبكى وأبكى تعبيرا عن عدم الموافقة على ابتعادها عنى أو ابتعادى عنها، يحاولون إسكاتى فلا أسكت، عاجزا عن الكلام بمثلما يتكلمون ومتشوقا لصدرها وهمساتها ورائحتها التى كنت أطمئن إليها وأنام، حتى فى الحالات التى كنت أشعر فيها بالجوع أو العطش أو إخراج الفضلات كنت أثق أنها سوف تأتى وتحملنى، تنفذ رغبتى وتبعث فى قلبى السكينة والإحساس بالأمان، لكنها لم تأت أبدًا ولا استشعرت أنفاسها إلى جوارى مرة أخرى، لا بد أننى كنت أغيب عن الوعى فى ساعات الصحو وأشعر بالأنامل الغريبة وهى تتحسسنى لتتأكد أنى كنت ما زلت أعيش أو أننى فارقت الحياة معاندًا، كان الجوع يعتصر أمعائى برغم كل محاولاتهم لإطعامى أو إرضاعى من صدور أخرى غير صدرها، كنت أرفض وأرفض ثم أستسلم مغصوبا بغريزة الجوعان الراغب فى مواصلة الحياة وفى داخلى رغبة أخرى فى الخلاص من حياتى ومكابداتى، لكن إرادة الحياة

انتصرت وجعلتنى أعيش حسبما قالوا لى بعد ذلك وأنا على عتبات الوعى أو الفهم، لا بد أننى من داخلى كنت أرغب فى مواصلة الحياة لكى أحاسبهم وأسألهم عنها أو أعاتبها وأسألها عن سر غيابها عنى، أنتظرها لتأتى وتأخذنى أو يساعدنى أحدهم فى الوصول إليها لتحوطنى بذراعيها وتدفئنى فى حضنها ولو مرة وحيدة أخيرة، تتحسس بدنى وترضعنى أو تطعمنى وتسقينى ثم أموت، تغمغم لى أو تهدهدنى لأنام باطمئنان كنت قد افتقدته تمامًا وظللت أفتقده، كانت الرغبة فى داخلى غير منطوقة ويستحيل الخلاص منها حتى وأنا فى مراحل الوعى التالية، لكنها لم تتحقق على امتداد السنوات، كنت أحزن فى داخلى أملا فى استعادتها بينما أسمع حكايات جدتى لأبى عنها وكيف أنها تعيش هناك فى نفس القرية التى تركناها وابتعدنا عنها، فارقناها وعشنا بعيدًا بالغصب عنا، كانت تضيف أن أولاد الحرام كانوا وراء انفصالها عنه وابتعادى عنها، كانت أمى بالنسبة لى خيالا منسوجا فى فراغ بلا تقاطيع ولا ملامح محددة، لكن طيفها تباعد عنى بعد أن أكدت لى الجدة فى واحدة من تلك الأمسيات الصيفية أن أمى دخلت بيت رجل من الناس الشلبى وصارت له زوجة، أتذكر ما كانت هى تقوله فى السابق عن الناس الشلبى الذين هم ناس أمى وعائلتها والذين لا ترتاح لهم جدتى ولا تحب سيرتهم، ناس بلا أصل، غرباء عن الكفر الذى تركناه وابتعدنا عنه، لكنه كفرنا وفيه ناسنا وأرضنا، ميراث أبى وميراثى من ذلك الجد الذى افترى عليها وعلينا، أستعيد ملامحه وأراه ماثلا أمامى بعوده الفارع وشمروخه المركون إلى جواره إذا قعد والمسوك فى يمينه إذا وقف أو سار، أستعيد ابتسامته لى بينما يضع فى حجرى الصغير زرع الغيطان بعد أن يمسحه بطرف جلبابه ويطلب منى أن آكل بالهناء والشفاء، بلح زغلول أو رطب أو جوافة ناعمة، حمراء أو بيضاء، جميز أو توت أبيض وأحمر وأسود، عناقيد عنب فيها بذور أو خالية من البذور من فوق التكعيبة الساكنة فوق،

الخارجة الواسعة المسكونة بالبقر والجاموس والماعز والخراف من كل الأحجام، وأحيانًا خيار أخضر أو قثاء أو بطيخة صغيرة أو حتى حزم قصب تنحط بيننا فأكتشف ما سبق أن اكتشفته بأنه هناك أعواد قصب قشرتها حمراء أو بيضاء أو فيها خطوط حمراء وأخرى بيضاء بصفرة، يهمس لى بمودة لأنه اكتشف إعجابى بتلك الخطوط وكأنه يمنحنى سرًا بينما يربت على ظهرى مبتسمًا:

- دة بقى يا سيد اسمه خد الجميل

كان يأتينى بكل شىء من زرع المساحة الواسعة الكائنة بين الترعة الصغيرة والترعة الكبيرة على رأس الغيط، ولا يزال وجهه الباسم بشاربه الأبيض الكثيف الناعم فى الذاكرة ولا أزال أحب الرجل، أتشوق لرؤيته مثلما أتشوق لرؤية تلك الأم التى كانت بلا ملامح، لكن ملامح الرجل ماثلة ومطبوعة فى الذاكرة ويستحيل نسيانها، حتى شمروخه المميز وعباءته الفضفاضة أكثر من كل العباءات والتى كان يغطينى بها لو شعرت بأى برد، لعل جدتى كانت تقرأ ما يدور فى ذاكرتى أو أتوهم أنا ذلك، أسمعها وهى تؤكد أن الظفر لا يخرج من اللحم وإن خرج فإنه يخرج بالدم، كأنها تطمئننى بأنه فى الزمن القريب الآتى سوف تعود المياه إلى مجاريها ويعود الحق لأصحابه، كان فى إيقاع كلماتها شىء شبيه بالأحلام أو الأمنيات مستحيلة التحقيق، شىء يشبه إمكانية حصولى فى الصباح التالى على دراجة تخصنى أتمكن من ركوبها والجرى بها فى شوارع المدينة دون أن يختل توازنى وأسقط سقطة موت كتلك التى سقطها جدى القديم من سطح داره فوق حجر الطاحونة القديم قبل أن أراه، لا بد أننى بمرور الأيام تأكدت من استحالة رؤيته حيًا يتحرك بخفة ونشاط فتشبثت بملامحه بديلاً عن وجوده دون أن أدرى، ولعلنى فى تلك المراحل

الأولى من عمرى كتمت رغبتى فى الذهاب إلى أمى البعيدة رغما عن إرادتى، استشعرت على نحو خفى أنها فى مكان لا يخصها وحدها، مكان لا يحق لى دخوله لأنه كان مملوكا لرجل آخر غير أبى اتخذته زوجا، بينى وبين نفسى كنت أتشكك فى كلام جدتى عن عدم قدرتها على الخروج من دار الرجل الغريب عنا لترانى ولو مرة واحدة، تبرر لى غيابها وتبرر ابتعادها عنى كل هذا الوقت، لكننى كنت أشعر أنها فى تلك الحالات لم تكن تصدق نفسها وتعرف أننى لن أصدق.

❖❖❖

كان أبى يحادث جدتى همسا فى واحدة من تلك الأمسيات عن مشواره الذى تأجل، وأذكر أنها وافقته على مرافقته فى المشوار، كلاهما كان ينظر ناحيتى نظرات غريبة إلى الحد الذى جعلنى أتشكك فى أنهما سوف يتركاننى وحدى، هل همست لجدتى محتجا على تركى وحيدًا أو أننى بكيت فأحاطتنى بذراعيها وضمتنى إلى صدرها وهى تقول بصوت عال:

- مش ح نسيبك لوحدك أبدًا يا ضنايا، نسيبك إزاى؟ حد يسيب ضناه؟ إحنا ح نأخدك معانا يا سيد.

وفى الصباح التالى استأجر لنا سيارة خصوصى وقفت أمام باب البيت ودعانا للركوب فنركب وتسير بنا السيارة فى اتجاه كفر عسكر كما قال للسائق ولها ولى، كأنه كان محبوسا فى المدينة التى كنا نعيش فيها، كفر عسكره، اسم سمعته آلاف المرات، سكننى ولم أكن ساكنه فى تلك السنوات لكننى كنت منسوبا لناسه، لأولاد عوف الذين لهم ينتمى هو وهى

وأنا على العكس من أمى التى هى من جماعة شلبى، وصلنا إلى كفر عسكر فى الظهيرة، دخلنا دار ناس لم أشهدهم من قبل، كنت أشعر بالجوع ولا أبوح، وبأصوات خافتة كانوا يتحدثون وعندما دخلت امرأة فى وسط القاعة وحطت كفها مفرودا ومحنيا فوق شفتيها العليا وأطلقت زغرودة قام رجل من بين الرجال وضربها بالكف فسمعناها تصرخ بينما ترمح هربا وهو يسبها ويلعنها:

- يا بنت المراكيب.. عاوزة تجيبى لنا نصيبة لحد عندنا؟

دا الراجل الكبير ميت ما فاتش عليه سنة.

وساد صمت إلا من نهنهات آتية من خارج باب المندرة المزحومة بالرجال والنساء، سمعنا بوق سيارة فكأنه كان للكل علامة أو أمرا بالوقوف، خرج أبى وجدتى وأنا ممسوك فى قبضة يدها، ركبنا نفس العربة فى ساعة المغيب المبكر وركبت إلى جوار أبى بنت كبيرة جميلة التقاطيع تلبس فستانا أبيض وتضع على رأسها طرحة بيضاء، كانت جدتى تحادثها بمودة طول الطريق وتناديها باسم روحية فترد عليها بصوت خافت أو تطرق ولا ترد، ترفع عينيها ناحية أبى خلسة وتربت على كتفى صامتة بنصف ابتسامة، وعندما وصلنا إلى بيتنا الكائن فى المدينة دخلت هى معنا، وعند باب حجرة حملها أبى ودخل بها بينما سحبتنى جدتى إلى الغرفة الأخرى، أطعمتنى فتخلصت من جوعى، راحت تحكى لى حكايات فنمت وصحوت فى الصباح التالى على لمساتها وهمساتها الخافتة بنغمات ساحرة:

- اصحى بقى يا سيد... مش تقوم تبارك لابوك؟ إيه رأيك فى روحية؟ حلوة؟ هى حلوة.. بس يا رب يكون طبعها حلو برضه، ما هى دى ح تبقى مرات أبوك وبدل أمك.

مستسلما لكف جدتى الممسكة بكفى سرت إلى الحجرة الأخرى ورأيتها بثوب ناعم وشعر مفرود وتقاطيع حلوة، أسرعت هى ناحيتى وحملتنى، قبلتنى عدة قبلات كنت أسمع همسات أبى وجدتى ولا أميزها، أقعدتنى على حجرها وهمست:

- من النهاردة يا سيد انت ح تبقى ابنى وانا أمك، أعمل لك اللى انت عايزه، أى حاجة عاوزها تقوللى عليها، بس تقوللى يا امه، تقولى إيه؟ هيه، ح تقوللى إيه يا سيد يا ابني؟ لم أرد.. نظرت إلى جدتى وأبى عدة نظرات، لعلنى كنت أستفسر منهما إن كانت هذه بالفعل امى الجديدة، وأوشكت أن أسأل جدتى عن تلك الحكايات التى كانت ترويها لى عن أمى الأخرى والساكنة بحسبما قالت فى كفر عسكر حيث كنا فى اليوم السابق، لكننى لم أحصل على جواب أو حتى غمزة بعين أو إيماءة من رأس، كنت أرى على الوجهين فرحة وانشغالاً بمن وفدت إلينا وسوف تبقى، هزت جدتى رأسها عدة هزات قبل أن تهمس لى ولروحية فى نفس الوقت:
- قول لها يا نينة، يبقى يقول لك يا نينة، مش كدة برضه يا حسن ياابنى؟
- كله زى بعضه يا امه، وماله، نينة نينة

لا بد أننى تعايشت خلال تلك الأيام مع كل من كانوا يحيطوننى، وكنت أكبر، أمشى وأرمح وأنطق الكلمات الجديدة فى المدرسة وأميز بحساسية لا أعرف مصدرها من يتعاطف معى بصدق ومن يكرهنى بلا أسباب، كانت جدتى فى ذلك الزمان القديم هى الصدر البديل الأكثر حنوًا، تطعمنى وتسقينى وتلبى رغباتي الصغيرة، لعلنى لم أطمئن تمامًا للوافدة

الجديدة بقدر اطمئنانى لها وتصديقى لكل ما كانت تقوله لى أو تهمس به أو حتى تغمزنى لأفعله أو لا أفعله فأستجيب، لعلها كانت حساسية موروثة كما قال الكبار عندما كبرت، وكانت فى بعض الأحيان تتباكى على مصيرى التعس وحرمانى من أمى البعيدة، تسخر فى كل الأوقات من روحية لأنها احتلت مكان أمى زوجة لأبى وأما كما كانت تقول. لكنها كانت برغم جمال تقاطيعها ونعومة صوتها لحظة التودد شحيحة فى كل شىء، الخبز والغموس والملاليم التى أطلبها إذا سافرت جدتى وغابت، أحيانًا كانت تدفعنى للعب فى حوش البيت مع العيال، تعطينى كسرة خبز جاف وتبتسم قائلة:

- انزل العب تحت يا حبيبى..

وكنت أنزل مغصوبًا ومغلوبًا، أسمع كلامها وأنفذه مخافة العقاب والتخويف إذا قالت لأبى أو جدتى شيئًا مما يحدث بينها وبينى فى غيابهما، وكانت بارعة فى التودد لأبى ومداعبته، تطمئنه على حالى وتلبية كل مطالبى إذا سألها لأننى حسبما كانت تؤكد له سوف أكون أخا أكبر لضناها الآتى فى علم الغيب، أحيانًا كنت أتسمع صوته يسألها إن كنت قد تناولت وجبة العشاء فتقسم له بأننى تعشيت وانبسطت، أكون صاحيا تحت الغطاء لكننى لا أتقلب أو أجرؤ على رفعه عنى أو أقدر على تكذيبها، كنت أخاف منها وأشتكى لجدتى فى الخفاء فكانت تلعنها وتعاركها إذا شافتها أو سمعتها تتحرش بى، تهددها بأن تقول لأبى بعد رجوعه من الشغل ليتخلص منها، تعايرها بأصلها الوضيع وتزدريها إذا أقسمت بأنها تخدمنى لوجه الله وقد تركتنى أمى وتخلت عنى وما فكرت فى طلب رؤيتى مرة أو السؤال عنى فى أى مناسبة وكيف أنها انشغلت بعيالها من زوجها الثانى، تقاطعها جدتى وهى تتحسسنى بيديها:

- اخرسى يا غسالة يا بنت الغسالة، يا لحاسة الصحن، إنتى نسيتى روحك يا روحية ولا إيه؟ أيش أوصلك لامه يا بنت المراكيب؟ دا المداس اللى بتلبسه برقبة عشرة زيك وتسألها أحيانًا باستنكار ساخر وعينيها مركزتان على وجهها الذى كان يتلون باللون الأصفر.

- بقى هى لو كانت لسة على ذمته كنت تطولى تشتغلى عندها خدامة؟ دى ما كانتش ترضى تشغلك خدامة.. تسكت روحية ولا ترد أو تنسحب من المكان وهى تبرطم بكلام غير مميز، لكن جدتى كانت تنصحنى بأن أطاوع روحية وأسمع كلامها فى غيابها لأن روحى بين يديها، تطلب منى أن أناديها قائلا يا خالتى.

لكننى إذا طاوعتها وفعلت تبتسم ساخرة منها ثم تهمس فى أذنى بأن روحية لو طلعت السماء برجليها ما طالت أن تكون شقيقة لأمى، كنت أسرح بخيالى وأتخيل أمى البعيدة وهى أعلى من السماء ذاتها، أتعجب وأسمع جدتى وهى تهمس:

- أنا بس خايفة عليك منها، دى قادرة ولو طالت تسمك ح تسمك، أمك يا ضنايا كانت ست الستات، إنما يا خسارة.

تقول عبارتها وتسكت فترة تتفكر خلالها قبل أن تضيف:

- بس الناس الشلبى أهل أمك مالهمش أمان، الواحد منهم يحفر البير بإبرة، قلبوا دماغها بكلام فارغ، انعوج ميزانها وساقت اللوع، بس ابوك ما طاقش، خلصها قبل ما تولدك بشهرين، يا ريته ما كان خدها م الأول وخلاك يتيم وهى عايشة على وش الدنيا.

أحاول أن أرسم صورة لوجه أمى الذى لم أره فتتوه منى الملامح وتختلط، أتجاسر أحيانًا وأسأل جدتى عن شكلها فتنظر إلىّ بإشفاق وتهز رأسها،

تحكى عن تقاطيعها الحلوة وشطارتها ونظافتها ثم تسكت، أشعر أنها تتحسر على ضياعها وقد يئست من التفكير فى استعادتها بعد أن تزوجت وخلفت وانشغلت عنى إلى حد أنها لم تعد تسأل عن أحوالى نفسها وهى تنظر إلى البعيد وكأنها نسيت وجودى إلى جوارها:

- . كان وشها فى وشى وعملت روحها ما شافتنيش، هما بيولدوهم وينسوهم؟ طيب تسأل وتطمن على ضناها، والعيل ذنبه إيه يا رب؟ العيل ذنبه إيه؟

تلتفت ناحيتى وكأنها اكتشفت وجودى إلى جوارها، تحتوينى وتقبلنى وربما تمنحنى قرشا وتوصينى بأن اشترى أى شىء أريده من الدكان فأفرح وأرمح وأنسى.

حفر

أحمد غريب(*)

(١)

عندما تحرك العصفور تهاوى الجذع المائل، وسمعت صوت ارتطامه وخشخشة الفروع القليلة التى تكسرت داخل الحفرة، كان الصوت مماثلا لتآكل الخشب عندما يلقى فى النار، وقد ظلت السحب القليلة المتبقية تلقى بالمطر بينما تنحرف به الريح ليسقط على ظهرى وقفاى.

كان الجو باردا وفى اللحظة التى تحركت فيها عيناى لتتابعا حركة الصعفور – عاد إلى جفنى الإحساس بالتحجُّر والحرقان. كلما اقتربت مقلة العين من حافة الجفن شعرت باللسع، ولم يكن أمامى حل لمواجهة الهواء الداخل إلا الإغلاق. توقعت الإحساس الحارق الذى سيشيع السخونة فى المحجرين اللذين تجمدا، توقعت الذوبان أيضًا ولم أجد استعدادا لتلقى الدموع. ظللت أنظر محتفظا بآخر اتساع للفتحتين، وعندما التفّت دوامة الريح لتلطم وجهى بالمطر أغمضت دون أن أدرى، وبحركة لم أدركها إلا وهى تحدث اندفع ذراعى الأيمن لأسفل، دافعا يدى داخل جيب الجاكت، بينما لحق به ذراعى الأيسر إلى الجيب الآخر، وأدركه عندما بدأ الجيب الأيمن يتمزق، وصل صوت التمزق إلى داخل أذنى مع حبات صغيرة من المطر انزلقت هى الأخرى، ربما لأننى ملت قليلاً بجذعى إلى الأمام، تحركت خطوة حتى أستقيم.

(*) أحمد غريب، من مجموعاته القصصية (خيوط على دوائر)، بالاشتراك مع هيثم الورداني، أحمد فاروق، الراحل وائل رجب، نادين شمس.

(٢)

كان الرمل ممتزجًا بالتراب – يمتد أمامى نحو نهاية الأفق – تتخلله بعض حشائش متفرقة، تبدو محنطة وسط هذا الفراغ، الإضاءة رمادية لا تحدد إن كان الوقت شروقًا أو غروبًا، ثمة تراب عالق فى الهواء، يزيد من صعوبة الرؤية، ركزت بصرى فى السماء الرمادية، الممتلئة بسحاب كثيف متزايد، مرت لحظات وأنا أنظر فوقى إلى الكتلة الرمادية الغامقة، وكنت أسمع صوت الريح ينفخ فى الرمل ويطيّره، هبطت ببصرى وفى داخلى إحساس بأنى رأيت هذا المكان من قبل بنفس الطريقة، مثل غلطة المونتاج السينمائى تكررت اللقطة وربما كنت بحاجة للنوم، تنبهت إلى العامل الذى يحفر، والتفت إلى الرجل الذى يوجهه متحدثا لى أيضًا، ورغم صوت الريح كانت أذنى تستمع إليه وإلى صوت تنفسى المنتظم، درت ببطء حول نفسى موليا للرجل جانبى دون أن أفقده اهتمامه بالكلام، نظرت إلى البيوت البعيدة من خلفى، كانت السماء الرمادية تمتد منحنية لتغطى خلفيتها وجزء من الأسطح ولم يظهر منها إلا حوائط، ازداد تنفسى بطئا وانتظاما – كان لصوت الرجل رنينا فى هذا الفراغ – وبدأت أسمع دقات منتظمة مع صوت التنفس اندهشت عندما تخيلت أنها – ربما – دقات قلبى، شعرت بهزة خفيفة مع كل نقلة يأخذها عقرب الثوانى الدائر فوق معصمى. أكملت الدورة عائدا إلى مواجهة الرجل، الذى تباطأت كلماته قبل أن يلقى جملته الختامية: لذلك أهم خطوة هى الحفر ثم سقف الحفرة بعد ذلك. بدأ وجهه يبتسم ناظرا إلى رد الفعل على وجهى، وقبل أن يبدأ فى انتظاره لى حتى أتكلم هبط المطر غزيرا، فجرى فى حين ترك العامل الذى يبدو لى وراءه بأمتار عديدة – ترك آلة الحفر وجرى بسرعة حتى وصل إلى كوخ خشبى

صغير، متهالك، وعندما هم بإغلاق الباب وراءه وصل الرجل، واستغرق لحظات ينظر إلى قبل أن يدخل، بينما أطلت رأس العامل مبتسما، فى هذه اللحظة شعرت بحبات من الماء تنزل بين ياقة الجاكت ورقبتى منزلقة إلى ظهرى، وكانت باردة، فعدلت بيدى الياقة لتلتصق أكثر بالرقبة، التى أخذت تنكمش.

(٣)

السيارة التى نركبها مكيفة، أدار الرجل جهاز التكييف عندما بدأنا نتجاوز حدود المدينة، كان يقود بتمكن وصمت من يعرف الطريق، فى البداية أيد رؤيتى كل شىء على الطبيعة، وعندما أدار المكيف استحسن ارتدائى ملابس ثقيلة، فالجو بارد ويبدو أنها ستمطر، وكانت البرودة قد بدأت تسرى داخل السيارة عندما تجاوزنا البيوت، وبدأ الطريق يزداد وعورة، فارتجت السيارة. كان العامل الجالس خلفنا فى المقطورة قابضا على آلته بيديه الاثنتين، وعندما ارتجت السيارة اهتز أمامى فى المرآة الجانبية. وكان الرجل يدير عجلة القيادة منحرفا إلى اتجاهات بعيدة عن الطريق لتفادى الحجارة والسيارة تتأرجح. ولم تكن المرآة تسكن حتى تتلقى هزة أخرى. ظللت أحرك رأسى متابعا اهتزاز المرآة التى يعتليها التراب، واهتزاز العجلة فى يديه، لاحظت حبات العرق التى ظهرت فى أعلى جبهته، وكان منفعلاً، قال إننا سنواجه طقسا سيئا والمكيف الدافئ سيسبب نزلة برد، أوقفه، أشار بيده إلى شجرة يابسة وقال إننا اقتربنا ها هى، ملت بجذعى للأمام وأنا فاتح عينى على اتساعهما، كان الزجاج قد اكتسى بطبقة من التراب، وهدأ محرك السيارة ولحت الكوخ الخشبى الذى يبعد عن الشجرة عدة أمتار، وفى المنتصف بينهما حدد الرجل مكان الحفر،

فانطلق العامل وآلته، بينما اخترقنى البرد المفاجئ بعد التكييف، حتى تخيلت أننى أقف عاريا، كنت أقف على رأس المثلث بين الجذع اليابس والكوخ، والتفت لى الرجل وعينه تلمع من وراء التراب وقال إنهم قريبون هنا مائة متر فقط، وإننى أول من يستفيد بقرار التوسع، التفت ورائى إلى البيوت الأخيرة، المسافة تزيد عن كيلو متر، رغم التراب الحائل بينى وبين الرؤية، ومن الجهة التى أشار إليها - تبينت فى منتصف المائة متر طائرا صغيرا قادما، كانت الريح تعوقه، وارتجفت من الريح عندما صفقت باب الكوخ، وكان الرجل يتكلم.

قبل الكتابة

أحمد فاروق(*)

الرغبة الجميلة فى أن تصرخ تتبدد حينما تكتشف عدم جدواها. إذن لا تصرخ. كل شىء متناقض وشديد التعقيد، وعندما توشك أن تفتح فمك أو حتى تحرك لسانك داخله تأخذ الأشياء أوضاعًا طبيعية ومنطقية. كل شىء صالح لإثارة الدهشة وغير صالح فى ذات الوقت. كيف؟

أن تفتح بابًا صغيرا جدًّا محكم الإغلاق فى سراديب القلب الغائرة لكى تبكى ويكون فى بكائك نشيج تعشقه، حين يحدث ذلك يمكنك أن تكون مندهشًا وطفلاً.

لكن الدموع لا تسيل لأن هناك هاتفًا يأتى ليخبرك كل مساء أن الباب لن يفتح أبدًا وأن كل شىء عادى، وإن كنت تصر فعليك بالانتظار. ستتمدد فى توابيته اللانهائية حتى يسلمك لـ....

أنت تعرف النهاية. التوابيت ذهبية موشاة بأحلامك، على كل تابوت تاريخ مؤجل لبكائك المنشود.

(*) أحمد فاروق، من مجموعاته القصصية (خيوط على دوائر)، بالاشتراك مع هيثم الورداني، أحمد غريب، الراحل وائل رجب، نادين شمس.

اللصوص(*)

أحمد هاشم الشريف

كان يحدث نفسه وهو فى طريقه إلى شارع شبرا..

ينبغى أن يكون المرء حريصا فى مدينة كهذه، شوارعها تحتضن المجرمين والأبرياء، ترضعهم من ثدى واحد، أمى الريفية قالت لى وهى تضغط على يدى مودعة عند السفر: "احذر وتتبه، هناك يرقد اللصوص فى وداعة الحمام، لكنهم ينقرون البيضة فى الوقت المناسب..".

العرق يغمر جبهتى مع أننا فى نهاية شهر ديسمبر. فى بداية يناير، تحمل حقيبتى فى البنك، كعادتها، وبين يدى الموظفين تضع المولود، طول الطريق يدى على بطنها ترتعش فى إشفاق، حتى لا يجهضها اللصوص.

مدير الشركة قال لى يوم استلام العمل: "اعتبر هذه الحقيبة زوجتك"، ثم لبس نظارته الذهبية الإطار، وانشغل عنى بمراجعة أوراق أمامه على المكتب، فانسحبت فى صمت.

وصل أخيرًا إلى شارع شبرا.. خلال ذلك قابله عشرة أشخاص لا يعرفهم، صافحوه بحرارة تثير الريبة قبل أن تبعث على الاطمئنان، وبإيماءة من الرأس كان يرد تحياتهم، إيماءة سريعة يستأنف بعدها السير ليتجنب الدخول معهم فى حديث، من العبث أن يصغى مثلاً لهذا الرجل الذى تأمل وجهه لحظات، ثم تكلم وهو يهز كتفه بيد ويداعب ذقنه بالأخرى:

(*) نشرت فى مجلة "جاليرى ٦٨"، العدد ٥، أبريل ١٩٦٩.

ماذا جرى لك يا صديقى.. ماذا جرى؟ طلق الوظيفة بالثلاثة وترمل، الموظفون لصوص، الكبير منهم يقص ثوب الصغير ولا يهمه بعد ذلك أن يتعرى جسمه.. والصغير إذا واتته الفرصة لا يتراجع عن الاختلاس..

قبل أن يبدأ فى عبور الشارع قابله جاره فى المسكن. أخبره أنه ينتظر خطابا هاما من البلد، ثم بدا على وجهه الشحوب وهو يهمس فى أذنه طالبا بعض النقود..

قال لنفسه: "الناس تفهم أن النقود معى على الدوام، حتى فى آخر الشهر، يرون الحقيبة الجلدية فى يدى.. جارى لم يصدق عندما اعتذرت له ورجوته أن ينتظرنى فى البيت حتى أعود..".

بدأ يعبر شارع شبرا من ناحية الدوران وهو يدرك أن اللصوص يتعقبونه، يرصدون حركاته، ينتظرن غفلته لحظة واحدة، يفتحون فيها، يتسللون منها واحدا بعد الآخر، لذلك سار فى يقظة تامة، يفكر فى كل خطوة يقدم عليها..

عندما أسرع فى عبور الشارع، أدرك أنه يقوم بهذا العمل ليتفادى العربات النزقة التى تكاد تخطف الأقدام وليكسب الوقت أيضًا، هناك فى الشركة تقف الخزانة قلقة فى انتظاره، خرساء حتى وقت حضوره، عنده تنحل عقدة لسانها، تبدأ فى الثرثرة بلا انقطاع.

بعد دقائق وجد نفسه محشورا فى زكيبة هو وحقيبته يتنفسان بصعوبة ويحدث نفسه..

قد أكون مدركا وواعيا لنفسى.. قد أكون مالكا لزمام تفكيرى الآن.. ولكن قبل ذلك لا أدرى.. أمس صعدت السلم حتى السطح وفتحت باب حجرتى ثم ألقيت بجسمى على الفراش فى صمت والحقيبة بجوارى.. كانت

حجـرة جـارى مظلمـة مشـلولة، لا صـوت ولا حركـة، جـاء البـواب ودق البـاب طويلا، لم يجبه جارى بكلمة، وجدت نفسـى أحـاول أن أنطـق بصـوت مسـموع فشلت فى ذلك، فكرت فى أن أتحامل على نفسى وأنهض لأشعل النور، لكنى خفت أن أسقط على الأرض من فرط التعب، كان حلقى جافا ومع ذلـك نمت دون أن أشرب..

وتنبه إلى حركـة غير عادية فـى العربـة، ولام نفسـه علـى غفلتـه وشـرود تفكيره، كانت فتاة شقراء تصفف شعرها على صورة كعكة وترتدى فستانا أحمر، تقف بجواره، بجوار الحقيبة بالذات، تتأمل وجهه ثم تنظر إلى الـركاب وتبتسم بلا سبب، فيهرب لون فستانها الأحمر إلى خديها..

فى وسعه أن يرتاب، أن يتأمل وجوه الركـاب جميعًا بحثا عن اللصوص، ولكن ريبته لم تصل بعد إلى مرحلة اليقين، وراح يقول لنفسه وقد ضاق بكل شىء:

لا شك أن زحام العربة وجوها الخانق وحرصى على الحقيبة، مضافًا إلى ذلـك تلـك الابتسـامة المريبـة واللـون الأحمـر الـذى صـاحبها، كلـها أمـور تـثير الأعصاب..

أمس عندما استسلمت للنوم، حلمت أنى أسير فى شارع يشبه شارع شبرا، كان الوقت متأخرا، وجرس كنيسة الأقباط يدق بلا انقطاع، والشارع خال إلا من تاجر يركب حمارا وقد تأخر فى العودة من سوق روض الفرج، كان الهواء ساكنا يترقب حادثة غير مألوفة، أو مألوفة ولم تعد تثير اهتمامه..

نسيت أن أتذكر شيئًا تافها بالنسبة لما حدث فيما بعد، قابلنى صـاحب البيت وخاطبنى بلهجة عنيفة عن تأخر جارى فى دفع الإيجار، وكان معه البقال

والمكوجى أيضًا، ولما أخبرت الثلاثة أنى غير مسئول عن ذلك، هددونى بأنهم سينتزعون شعر رأسى، ثم انصرفوا وهم يضحكون قائلين: سنضحك أكثر من رأسك الأصلع..

لا أدرى لماذا أسرعت فى السير تاركًا الثلاثة خلف ظهرى، وجدت نفسى أقترب من التاجر وسمعت صوته الخافت يحث خطا الحمار، كان يبدو واضحا بمجرد تخطيه أعمدة الإضاءة، ولكن ما إن يتعداها بمسافة قصيرة حتى يفرش ظله على الأرض..

ولم أكن مستعدا للاقتناع بأن السر فى اقترابى من التاجر راجع إلى تأخر الوقت أو ركود الهواء أو جرس الكنيسة الذى يدق بلا انقطاع، والتهديد بانتزاع الشعر من رأسى، أبدًا، ولا هو راجع إلى ذلك الإحساس الغامض بالخوف الذى يسير متمهلاً مع الدم داخل العروق ثم يتجمع فى مفاصل الأطراف.. لم أستطع الاهتداء إلى سبب واحد يفسر لى ما أراه، ذيل الحمار كان يتحرك بعصبية متوهما أن الذباب يحط عليه الآن، التاجر لا يكف عن حث الحيوان حتى تدلت أذناه تحت ثقل الكلمات، وتراكمها بطريقة تفوق الاحتمال..

وفجأة توقف جرس الكنيسة وقد أصابه الدوار من تحذير يطلقه لا جدوى من ورائه..

وخرج من أحد الشوارع الجانبية رجل اعترض طريق التاجر..

توقف الحمار ورفع أذنيه فى انتباه.. وتدلى ذيله نحو الأرض..

هبط التاجر من فوق حماره، وحاول أن يدخل مع الرجل فى حديث، لكن ذلك كله لم يستمر لحظات.

كانا يقفان أمام مخبز مجاور لشارع الراهبات، تناثرت أمامه ألواح وقضبان حديد ملقاة على الأرض فى إهمال.. سحب الرجل قضيبا حديديا وأهوى به فوق رأس التاجر ثلاث مرات متلاحقة..

لم تأت الضربة الأولى فوق رأسه، هبطت فوق إحدى أذنيه ثم حطت على كتفه.. لكن الضربة الثانية كانت أكثر إحكاما، بعدها ركع التاجر أمام الرجل كأنما يطلب منه العفو..

حتى هذه اللحظة، كان فى إمكان التاجر، لو أنه بذل أقل مجهود، أن ينهض على قدميه ويجرى تاركا وراءه اللص وحافظة النقود والحمار، لكنه لم يفكر فى ذلك، أو أنه فكر ثم استقر رأيه على البقاء، ركع للقاتل لا ليكف عن ضربه ولا ليطلب منه الرحمة وإنما ليجهز عليه فى الحال.

قبل الضربة الثالثة خرج من المخبز ثلاثة عمال، وقفوا يرقبون الصراع فى صمت كأى شىء مألوف، رأوا بوضوح التاجر وهو يعتمد على يديه حتى لا يهوى على وجهه دفعة واحدة، ثم وهو يحاول القيام، ويقوم بالفعل، ويسقط بعد ذلك على ظهره.

وأصبح عدد العمال الواقفين أمام المخبز ستة، راحوا يتهامسون ويشيرون بأصابعهم نحو التاجر المقتول..

وبعد هروب القاتل بحافظة النقود، وتدلى أذنى الحمار كما تدلى ذيله إلى الأرض، واختفاء العمال الستة داخل المخبز، اقتربت من التاجر المقتول، وانحنى رأسى يتأمل منظره، كان الدم يبدو متجمدا على فمه، كف عن التدفق، مات هو الآخر..

أصبح عدد ركاب العربة أقل بكثير مما كان عليه، لم يعد يشعر بأنه

محشور فى زكيبة، رغم ذلك كان يحس بالعرق يسيل على رقبته.. وكانت الفتاة ذات الفستان الأحمر ما زالت تنظر إليه ثم تنظر إلى الركاب الباقين وتبتسم بلا سبب، وعندما جاء المحصل وناوله ثمن التذكرة راح يتفرّس فى وجهه ثم قال:

- ياه، إن منظره يثير الدهشة.. ويدعو إلى الضحك أيضًا.. راح الركاب يتأملون وجهه فى فضول، لعلهم تأملوه من قبل بما فيه الكفاية، ظلوا ينتظرون واحدا يبدأ فى فتح الثغرة ليتسللوا بعد ذلك..

- لماذا كل هذا العرق.. انظروا إليه فثيابه مبتلة أيضًا..

- إنه مريض بالحمى.. يداه ترتعشان على الحقيبة.. مريض بالحمى..

كان يقابل هذه التعليقات بالصمت، وإن كان يتأمل وجه قائلها ليعرف بالضبط ما يعنيه، فى طريقه إلى شارع شبرا حرك رأسه عشر مرات ليرد على تحيات الناس، كيف يعرفه هؤلاء جميعا؟ وهنا فى العربة يتبعونه أيضًا بنفس الفضول..

دخل إلى حجرة مكتبه فى الشركة ونظر طويلاً إلى وجهه فى المرآة المثبتة خلف الباب، ورغم الشحوب الذى رآه، بدأ يخاطب نفسه قائلاً:

سأبعث بخطاب إلى أمى أطمئنها فيه على سلامة الحقيبة، وخيبة أمل اللصوص فى انتزاعها من يدى، وجلس بالفعل إلى مكتبه وراح يكتب دون توقف، وكانت آخر عبارة انتهى إليها قوله "رغم أنهم تتبعونى هذا الصباح فى الشارع وفى العربة، وتحسسوا الحقيبة عن عمد وسط الزحام ثم حاولوا مضايقتى بالتعليقات، إلا أنهم فشلوا تمامًا وأنا يا أمى لا أحتفظ فى الحقيبة بأى نقود ولكن التعليمات كما فهمتها تقتضى بالحرص عليها.. وفى صباح اليوم

قابلنى جارى فى السكن وهو موظف مفصول من الخدمة، يشيع البعض أنه متهم بالاختلاس ويقول الآخرون إن أحدا لم يملك دليلا ضده، وأنه استقال من الوظيفة بمحض اختياره، والمهم فى الموضوع أنه نظر إلى الحقيبة وطلب منى بعض النقود ولكنى اعتذرت بسرعة وأنا أصافحه..".

بعد أن انتهى من كتابة الخطاب، اعتقد أنه تصرف بحكمة لأنه لم يخبرها بالضعف الذى استولى عليه اليوم..

لكِن ما إن أغلق الخطاب حتى شعر بالحزن، وود لو فتحه من جديد ليخبرها فيه أنه ينقص جزءًا من نفسه كل يوم، ويحس بصوته يزداد خفوتا، حتى أصبح لا يقوى إلا على الحديث مع نفسه..

وظل بقية الوقت يفتح أدراج المكتب ويغلقها ويقلب فى الكشوف والاستمارات مدة طويلة وهو فى غاية الاهتمام، ثم يكتشف فى النهاية أنه لا يبحث عن شىء محدد..

وقبل موعد الانصراف بقليل جاءه ساعى المدير وسأله عن موعد صرف المكافآت.. وكانت الكشوف معدة للصرف، والنقود فى الخزانة، لكنه أرجأ الصرف إلى الغد..

وفى طريق عودته إلى البيت بعد أن ركب العربة، تنبه إلى أنه نسى الحقيبة لأول مرة فى مكتبه، لأول مرة منذ أن تسلم العمل وعقد المدير قرانه عليها، وبدلا من أن يلوم نفسه كان يهمس فى صوت خافت وهو يضحك..

اعتبرها زوجتك ها.. ها.. اعتبرها زوجتك.. كيف سكنت هذه الأكاذيب رأسى واستقرت فيه؟ يا لى من ساذج.. يا لى من ساذج..

ولفت نظره راكبان يتحادثان بجانبه..

كان الأول يقول ضاحكا:

- سمعت آخر نكتة.. واحد سأل موظفا صغيرا: مرتبك كم؟ فقال: أنا والمدير معًا نقبض مائة جنيه وعشرة.. ها.. ها.. ها..

ورد الثانى وهو يحرك يده فى الهواء:

- ولماذا تضحك.. إن الموضوع له جانب آخر..

وكان يتحدث بهدوء من يحاول ضبط أعصابه وهو يستأنف حديثه:

- أنا مثلاً.. عملى لا يختلف عن عمل أى صراف وإن كنت بلا حقيبة.. أتسلم مرتبى من خانة الشركة لأسلمه للآخرين وأنا راض عن ذلك.. تصور أنا راض عن ذلك..

نزل من العربة، وضع الخطاب فى صندوق البريد، دق على الصندوق بيده عدة مرات، بدأ يجتاز شارع شبرا، قابله الرجل الذى نصحه فى الصباح، صافحه بنفس الحماس الذى يثير الريبة، هز كتفه وداعب ذقنه ثم قال:

- اسمع يا صديقى.. أنت بدأت تجف.. شعر رأسك تساقط أغلبه.. مع ذلك تنظر إلىّ شاردا دون أن تعى أو تفهم..

وبعد أن فحصه بنظراته استأنف حديثه همسا وهو يزداد اقترابا منه:

- أين حقيبتك الجلدية.. كنت تحملها فى يدك هذا الصباح..

لم يقو على مصافحته، تركه مسرعا وهو يشعر بدوار فى رأسه، عند باب البيت أعطاه البواب خطابًا باسم جاره قائلاً:

- طرقت باب حجرته حتى يئست.. ولا أعرف مكانه..

فأخبره بأنه قابله صباح اليوم، وأنه ينتظر هذا الخطاب.

ارتمى على فراشه وحلقه جاف، سينام دون أن يشرب قطرة ماء، حقيبته الجلدية لم ترقد بجانبه هذه المرة، خطاب جاره فى يده، الخط على المظروف باهت، وجه جاره كان شاحبًا هذا الصباح.

فى الليل استيقظ على صوت طرق متواصل يقطعه حديث أشخاص، تبين أن الطرق على باب الغرفة المجاورة، وأن المتحادثين هم صاحب البيت والبقال والمكوجى، كانت أصواتهم تبدو واضحة، تسب وتتهم ثم تهدد بتوقيع العقوبة، وعندئذ يؤكدون ذلك بطريقة قوية..

لم تبد أية حركة تدل على وجود جاره، ولكن ما إن انتهى الطرق وتباعدت خطوات اللعنات مع هبوطهم درجات السلم، حتى سمع جاره يتحدث إليه بصوت غير واضح..

أنا مريض.. أنا لست مريضًا.. معى مسدس فارغ لكنى سأخيفهم به عندما يحطمون الباب.. أتركهم يتأملون فوهته ساعات طويلة قد تمتد إلى أيام وأنا أصوبه إلى رءوسهم وإصبعى على الزناد دون أن تضغط عليه.. قلوبهم ستقف فى الحال متجمدة من الدهشة، لتختنق توسلاتهم الزائفة، ثم تقفز من أفواههم وهى تعوى كالكلاب المسعورة.

واستيقظ مرة أخرى وهو يتحسس شعر رأسه، كان يعلم أنهم يتعقبونه، وأنه لا يمكن أن يظل هكذا تحت رحمة النوم المتقطع، وتذكر الفتاة ذات الفستان الأحمر، والدم المتجمد على فم التاجر المقتول، وكان جاره ما زال يتحدث إليه بنفس الصوت الضعيف:

- سأبصق فى جيبى حتى لا ينتقم التراب من قدمى وتحل علىَّ لعنة الأرض.. وعندما يأتون أتركهم يفتشون جيبى..

فتح خطاب جاره، لم يجد فيه شيئًا مهما كما كان يتوقع، والده يعتذر له عن إرسال نقود، ووالدته تدعو له بالخير..

كف جاره عن الهذيان.. يبدو أنه نام أخيرا..

وساد الصمت فترة طويلة.. جلس خلالها يتأمل الخط الباهت على المظروف.. وأحس لأول مرة بالإشفاق على جاره.. وندم لأنه تسرع وكتب لأمه عن التهمة الموجهة إليه..

ودقت الساعة مرتين فى الراديو، فأدرك أن الانتظار عبث.. ارتدى ملابسه بسرعة وهبط السلم، وفى الشارع أسرع فى السير عندما أحس بلسعة البرد فى ساقيه، وراح يبحث عن صيدلية تفتح أبوابها ليلا..

وعند المخبز المجاور لشارع الراهبات توقف وهو يلهث ويتحسس شعر رأسه، وينصت لأقل حركة تنبئ عن وقع أقدام، ودق جرس كنيسة الأقباط، لكنه لم ينجح حتى فى تحريك الهواء الساكن..

حيطان عالية(*)

إدوار الخراط

وقف على الباب، فى الطريق الضيقة بين مخازن القطن. ومزقة من سماء الغروب الباهتة معلقة من فوقه، من بعيد.

كان قد حيا زملاءه الذين انصرفوا من قبل إلى شئونهم. وكأنه يتردد إذ يترك يومه الطويل الممل من الكتابة فى دفاتر حسابات المخزن، ويهم بالعودة، وخطواته تنقله من حياة إلى حياة.

وضاع فى سيل من الناس يهرولون فى الطريق التى تجرى إلى جانبها ترعة المحمودية، والمخازن تقفل أبوابها وخفراؤها يتحقّقون الأقفال، ويتحدثون فى كسل، ويحسون الليل لما يكاد يبدأ.

وسحابة مقطعة تترك ذيلها المحمر على كوبرى القبارى، وعربات الترام تصلصل فى الشارع بين سيارات النقل المسرعة المكوَّمة بالقطن، والكوبرى يبدو من بعيد لعبة من الحديد الرقيق تضطرب فوقها الناس والعربات، دون معنى.

وقف ينتظر الترام، فى حشد من العمال وصغار الناس، وجوههم قاتمة مريدة تضيئها لمعة عابرة إذ يتركون عمل يومهم ويعودون ينشدون شيئًا من نسيان أو شيئًا من حياة.

(*) نشرت فى مجموعة (حيطان عالية)، مطبعة أطلس، القاهرة، ١٩٥٦.

إدوار الخراط (من مواليد ١٩٢٦)، من أعماله القصصية: (حيطان عالية)، (اختناقات العشق والصباح)، (إسكندريتى)، (كولاج).

وأحس الميدان تملؤه العربات والدبدبة وطنين الناس، والسماء تتسع فجأة فوقه فإذا هى فسيحة براح يخامرها ضوء آخر النهار، وأحس وحدته فى هذا الغمار تتفتح فى داخله كحفرة، لأنه يعود إلى بيته، ولكنه لا ينتظر شيئًا، فهناك امرأته تقف أمام موقد الجاز فى المطبخ، وسائر الغرف مظلمة مقفلة، وبنته فى غرفة النوم - مريضة. وفى البيت خمود وملل رازح. لكن نفسه لا تنزع به مع ذلك إلى القهوة ولا إلى أصحابه فيها. وهو الليلة لا يكاد يطيق شيئًا. يعود إذن يقرأ الجريدة ويتعشى وينام، فهو قد ضاق بيومه كله، ويود لو انتهى منه سريعا. بل ضاق بكل شىء، وقلبه ينقبض من الضجر والقهر كأنه أضاع شيئًا عزيزا إليه، أضاعه بلا رجعة.

ومد للكمسارى قرشا فوق أكتاف الناس، والتزام مندفع يهتز، يقطع الشارع الطويل، ونسى نفسه لحظة، فى زحمة الأجسام المتعبة يفوح منها فى الحيز الضيق صنان العرق وشغل النهار.

وهو يخبط على الباب ولا يرد عليه أحد.

فخبط فى شدة وضيق. وألقى بالتحية إلى امرأته وسأل عن البنت، فأجابته باقتضاب:

- كويسة.

- نايمة ولا إيه؟

- مش عارفة، أهى فى السرير.

وجلس على حرف السرير. وطالعه من العتمة وجه بنته، أسمر منحوفا، مشتت الشعر ضئيلا، هذا الوجه الصابح الغض وقد تهضمه المرض ونشف ماءه، وعيناها الكبيرتان تقفان عليه، فى تساؤل. كأنها حيرانة، لا تفهم. وعلى

جبهتها المدوَّرة ندى خفيف من العرق. فوضع ذراعه حول كتفها الصغيرة وهو ينحنى عليها، وقد در قلبه بالتحنن، كأنه يعتذر لها من صحته.

وسألها هل أكلت، وماذا تحس الآن؟

ولم تكن هذه الغرفة بالذات مضاءة، فأسلاك النور متعطلة فيها، ولم يتح له أبدًا القليل من الفراغ، ولا القليل من النقود، حتى يصلحها.

وامرأته تأتى فتقف بالباب هنيهة، ثوبها قديم ينحسر عن بضعة من صدرها الصغير المرتخى. وإذا اندلاعة من حبه القديم تحرق صدره فجأة.

وقد انقضت خمس سنوات منذ تزوجها، لكنه لم يستطع أبدًا أن يستقر إلى حبها. أهى تحبه، هذه المرأة التى تزوجها والتى تقف بالباب، وثوبها الذى كاد يبلى يلف جسمها الصغير الناعم، جسمها اللدن الضيق؟ إنه يعرفه على الأقل، هذا الجسم. يعرف طراوته الغضة، وجلدته المرهفة الحريرية، يعرف رجفته إذ يستجيب له، وحرارته وتقبضه بالنشوة، ويعرف ملامسته واستكانته ووداعته تحت أصابعه الملاطفة، ويعرف برده إذ يكون جائعا إلى الحنو، وجائعا إلى رجولته، ونداءه الخائف، من غير صوت. ويعرف نفرته أيضًا ورفضه، وانكماشه وانزواءه كحيوان خجول وحشى يدفع عن نفسه، ويقفل أبوابه على ظلامه الداخلى. نعم يعرفه، جسمها، لكنه لا يعرف أبدًا ما سر الهوى الذى يعيش فى هذا الجسم، أهناك هوى، على الإطلاق، يعيش فيه؟ شىء يشبه، ولو من بعيد، هذا الحريق الذى يأكل نفسه الآن، سعر من التوق إلى الزمالة وإلى الفهم، ونار تشتعل من نسيج النفس وحدها، لا صلة لها بالدماء، حريق من حسه بالوحدة، بأنه مرمى وحده، فى عزلة نهائية، دون أمل فى النجاة.

وهو إنما يطلب من حبه أن تتهدم فيه أسوار هذه الوحدة، ويمضه شعوره

أن لا جدوى هناك، فامرأته صامتة وغريبة، أجنبية. وهو وحيد أبدًا. وهو يهم أحيانًا أن يهتف بها أن يزعق فيها، لكى تكلمه، لكى تقترب منه، لكى تمد إليه يدها، تفعل شيئًا، أى شىء، يشعره أنه ليس غريبا، هو، ليس شيئًا، هو، آتيا من مكان آخر غير معروف، ليس منفيا ملقى به فى العراء، أنه فى النهاية ليس وحده، وحده، وحده مقضيا عليه دون خلاص بهذه الوحدة التى لا تطاق.

لكنه لا يجد مقدرة أن يهتف بها، بل أن يهمس لها. ويشعر فجأة أن لا طريق إليها، فهى فى معزل، لا تنال، ويده لن تطولها قط. وحبه لها يأكل نسج نفسه، لأنه يود أن يطويها بين ذراعيه، أن يأخذها إلى حضنه قريبة حميمة كأنها بضعة من قلبه ولحمه، كأنها تنبض فى داخله، ويعرف أن لا سبيل، وترمضه معرفته.

وسوف يدوسه القهر، لأنه فى كل مرة يعود محبوطا. ومهما عصرها فى لياليه ودعك لحمها إليه، فهى أخرى ما تزال، غريبة، بعيدة، منفصلة. وهذا الشوق جائع أبدًا لن يعرف الرضا. هذا الشوق الذى لا يعرف أن يسميه، لكنه هناك، لا يتبدد، لا ينحل.

وها هى ذى تقف بالباب، وحول عينيها حلقات سوداء من التعب والهم، لعلها هى أيضًا أن تعرف معنى الوحشة فى هذا البيت، موقد الجاز يفح، وأسلاك النور معطلة، وبنتها مريضة. وهى محبوسة بين هذه الحيطان. لا يدرى، فحتى وحشتها صامتة، غريبة عنه، لا صلة لها به. وامرأته لا تعرف أن تتكلم، أن تعطى لنفسها أصواتا، بل لا تعرف أن تعبر عن نفسها بشىء آخر غير الكلام. مسدودة تمامًا، كأن نفسها لم تولد أبدًا وظلت برعما خشنا خاما مغلقا على عصاراته الكثيفة، لن ينفتح.

- أحضر لك العشا؟

- عندنا إيه؟

- بطاطس ورز.

بطاطس ورز، من طبيخ الأمس. هذا الأكل الذى تقدمه له، معجونا دائمًا لزجا فى الزيت والدمعة. قوام حياته التى ألف طعمها الآن. وهو متعب فجأة مهدود، ولا شهوة له لشىء. لكن فراغا فى أحشائه عليه أن يملأه بهذا العجين المطبوخ، دأبه كل ليلة.

ووضعت له طبقين على السفرة القديمة المغطاة بفرش أبيض حائل مبقع، وسمعها تعود تتحرك فى المطبخ من جديد، أمام موقد الجاز.

- مش حتيجى تتعشى معايا؟

وجاءه ردها من المطبخ، وهى تغسل شيئًا فى الحوض:

- ماليش نفس دلوقت، يمكن آكل بعدين. باعمل لك الشاى، عايز شاى؟

- آه..

من فم ممتلئ.

وأخذ يحسو شايه الثقيل المسود، وينفث دخان سيجارته الهوليود اللاذعة وفمه يعود إلى إلف إحساسات المساء العادية، يتطعم البطاطس والشاى الخشن المر ودخان الهوليود على لسانه، لا لذة فيها إلا متعة العادة القديمة. وسمع بنته تكح من عتمة غرفة النوم، كحة مؤسية وهنانة تهتز بجسمها السخن الملقى على الفرش. وغشاه العالم يضيق حوله وينقبض به، والبيت كالسجن لا حول له فيه ولا يد له فى شىء.

- البنت خدت الدوا؟

وامرأته تجيبه، ولهجتها تشى بالمرارة، نعم، ومع ذلك فها هى كما ترى سخنة، ضعيفة، تكح.

وهى تأتى من المطبخ تجفف يديها فى فوطة مشعثة، وقد وقعت خصلة من شعرها الأسود اللامع على جانب جبهتها. وانبثقت فى داخله فجأة شهوة أن يأخذ هذا الوجه بين يديه، فيغمض عينيها بفمه على ما فيهما من عتاب، ويمر براحتيه على هذين الخدين فيمحو، برقة، خطوط الخيبة والمرارة التى يراها على صفحة الوجنتين، أن يحتوى ذقنها بين كفيه، وأن يدفن رأسها ووجهه جنب عنقها، فى تسليم وضراعة لأن تعفو، فما بوسعه شىء، كأنه حبيب صغير مخيب الأمل.

لكنه ظل على كرسيه، تشعفه شهوته ولا يفعل شيئًا. غريبة هذه الاندلاعات، كأنهما لم يتزوجا من خمس سنوات، كأن يديه لم تعرفا بعد مسة خديها ولا ملاسة جسمها كله، ولا خصب شعرها الناعم الهين بين أصابعه، كأنه يشتهيها لأول مرة. وترك رغبته تمضى، غير متحققة. شىء ما فى هذا الوجه المتعب المغلق يحبطه ويصده، شىء يبعدها عنه. وهو يوجس منها، كأن فى نفسه دبيبا لا يكاد يستبين من حسه بإثم ما، بذنب غير محدد.

وحفزه شىء فاختطف سترته وهب متجها بسرعة إلى الباب، وهو يقول:

- أنا رايح القهوة شوية. يمكن أتأخر بالليل.

صدمه هواء الليل، والشوارع المزدحمة الضيقة بأنوارها الكثيرة تومئ إليه وتبرق، وتغمز فى داخله فتحات حساسة، كما لو كانت الأنوار وخزات تغمز الجلد الملتهب المشدود على جروح ضاربة مفتوحة. والترام يجرى فى الشارع

مليئا بالناس. والباعة والعساكر والسيارات تقبض على هامش وعيه بأصواتها، لكنها ترميه بعيدًا، إلى بعد آخر من أبعاد غربته.

ودار بنظره فى القهوة فلم يجد أحدا من أصحابه، وهبط ثقل جديد بقلبه. ألن يجد أحدا يلعب معه الليلة؟ هذه الليلة..! لكنه لن يطيق الجلوس هنا وحده بين الناس. لن يطيق. لن يحتمل.

وانفرجت ضيقته فقد وجد شخصا يعرفه هنا، ليس صديقا بالتأكيد لكنه يعرف هذا الوجه. فقط نسى اسمه. هذا الوجه مألوف إليه. بل مألوف جدًّا. كأنه يراه كل يوم. لكنه لا يتذكره مع ذلك. هذا الشعر الأكرت وهذه النظارات على عينين صغيرتين مطفأتين، والجبهة الضيقة والذقن المنحدر إلى الوراء.

وإذا هذا الوجه القشف العنيد الجهم يبتسم له فجأة، ويقوم إليه يحييه. فاتجه إليه مترددا، يرد التحية.

ثم يقف مرة واحدة، وقد تقبضت المفاجأة بقلبه وأحس ركبتيه تكادان تتخلعان به. هذا الوجه وجهه، وجهه هو. كأنه يرى نفسه خارجا من المرآة، بل من صورة فوتوغرافية مجسمة حية إطارها عرض الحياة نفسه.

وتوقف ذهنه، وأحس أنه لم يعد يفهم شيئًا، ولم يعد يهتم.

لكن الآخر دعاه إليه وسلم عليه، وفى عينيه بريق خبيث، كأنه، هو، يفهم. والناس حولهما يلعبون الطاولة ويدخنون ويلغطون، ويجلسون على كراسيهم فى خمول، ينظرون إلى الشارع والترام والبنات. كأن شيئًا لم يحدث. كأنهم هم أيضًا لا يجدون فى الأمر غرابة، ولا ينكرون شيئًا، أبدًا، على الإطلاق.

والجرسون يأتى، والآخر يطلب اتنين قهوة على الريحة، وطاولة. كذا. دون سؤال. دون تردد. كأنهما صديقان قديمان. وهو لم يتكلم بعد، وقد عقلت المسألة كلها لسانه، لكن الآخر يسأل عن صحته وكيف الحال؟ فيرد عليه بشكل آلى، وذهنه غائب، وهو يحس ألفة به، كأنه لم يتركه إلا بالأمس فقط. كأنهما يريان أحدهما الآخر كل يوم، ويعرفان أحدهما الآخر منذ الطفولة، وقد تكلما فى كل شىء، وعرف أحدهما الآخر ظهرا لبطن، ولم يعد لديهما جديد يقولانه، فلم تبق إلا الطاولة. نوع من الألفة الوثيقة الحميمة تربط بينهما، معرفة الشخص لنفسه.

لكنهما الليلة يلعبان الطاولة على شىء له أهمية وخطر. والحماس يرتفع فى صدره الآن، ويشعره بحمو جديد غير مألوف. لا بد أن يغلبه الليلة، هذا الآخر. مصيره كله، بشكل غامض، معلق بلعبته الليلة. لا بد، لا بد أن يظهر عليه، أن يغلبه غلبة نهائية، حاسمة، باهرة. والآخر ينظر إليه من وراء نظارته، وهذه اللمعة تضىء عينيه، فهو يعرف أهمية اللعبة، لكنه واثق من نفسه، كل الثقة، هذا الآخر.

وغاظته هذه الثقة من الآخر، وأوغرت صدره، فهو يعكف على اللعب فى يقظة ودقة وحرص. وينسى القهوة والبيت والشغل، ويفقد الشارع والناس، ولا يبقى أمامه إلا الأقراص تدور وتنتقل وتخبط خشب الطاولة، تخطط مصيره فى حسابها الدقيق. ويداه ترميان النرد وعيناه تتعلقان به وذهنه يعمل فى نور سخن صاف. وهما يترامقان بنظرات خاطفة وليس بينهما إلا حساب الطاولة يتتابع ويدور سجالا. وفى داخله حس بالعداوة لهذا الآخر الذى يحمل وجهه بل يحمل نفسه أيضًا. عداوة وغربة ومقت. وهما يعرفان أحدهما الآخر حتى نبضة الدم فى غور الشرايين، لكنهما منفصلان، وجسمه يقف بينهما، حائطا من الحجر لا

ثغرة فيه، مغلقا على سره. حائطا لن تتفتح فيه فجوة. وحياته تدور من داخل الحيطان، حياته بأسرها شىء خاص، لا يهتم به أحد فى الخارج، ولا يعنى أحدا، ولا هذا الغريب.

هذا الغريب الذى يعرف ذلك كله، ولا يوليه أى اهتمام. بل بارد وقاح، يلعب مالكا زمام أمره، فى هدوء من يعرف أن الكلمة الأخيرة له.

وسأله الآخر فجأة:

- إزاى البنت النهاردة؟

فوقفت يده فجأة وبرق فيه عينيه، فى موجدة. كأنه يكايده هذا الآخر، ويساتره العداوة. يسأله عن بنته المريضة كمن يتابع أخبارها يومًا بيوم، ويسأله بكل هذه اللامبالاة. وأخذت عينه رفوف القهوة وقد رصت عليها الأكواب والفناجين وأوعية الشيشة النظيفة، صفا فوق صف، والصبى يعمل فى جد بين مواقد الجاز، بلا تعب، والجرسون يصيح من بعيد واحد مضبوط واتنين سحلب عندك، وعاد يهم بمواصلة اللعب لولا أن شلته المباغتة، دفعة واحدة، وأحس الأرض تميد من تحته، والقهوة والناس فى مقاعدهم تتألب عليه، كهزة من موج ثقيل، وخسأ بصره بالرغم منه، دون أن يتحكم فيه، ثم عاد ينظر، مشدودا إلى النظر بقوة لا تدفع. لم يكد يصدق عينيه. لكنها هناك. لا شك فى ذلك. وهو لا يحلم، لا يهذى، بل يرى بعينيه. والناس أيضًا يرونها، دون اهتمام، ثم يعودون لشئونهم، كأنها لا هى بالجديدة عليهم ولا شىء غريبا فى الأمر كله. وعاد يختلس نظرة إلى الآخر فإذا هو قد أشعل سيجارة هوليود وأخذ ينفث دخانها وهو ينظر إليه، فى هدوء، كأن الأمر لا يعنيه، بل لا يعنى أحدا. وهو يقول مشيرا إليها، فى ركن القهوة، تحت صفوف الأكواب والفناجين وأوعية

الشيشة المرصوصة، جنب مواقد الجاز: بنته، على سريرها، تحت العيون جميعًا، مكشوفة فى وسط الناس.

- لسة تعبانة برضه. معلش بكرة تصحى.

والجرسون يدور من جانبها، يؤدى عمله ولا يكاد يلتفت إليها، وهى عريانة، يلقى إليها بنظرة لا مبالية، وهو يطأ جانبا من ملاءة السرير البيضاء التى تقع من حرف الفراش على بلاط القهوة، كأنها هناك من زمن طويل.

والأمر على ذلك غريب، غريب، لا يصدق، جنونى. لكنها هناك. ها هى ذى. ليس هناك تخييل ولا هذيان، وهو صاح كل الصحوة، وكل شىء حوله مجسم ملموس. وباب القهوة مفتوح على الشارع، مفتوح على النور والزحمة والضجة بالخارج، والترام ملىء يجرى بالناس. والمارة والركاب يستطيعون أن يروها على سريرها. والباعة والعساكر يروحون ويغدون، والبنت على فرشتها، تحت الضوء القاسى، بين ضبابات الدخان، بجسمها النحيل الضيق الطفلى، وقد التصقت خصلة من شعرها الخفيف بجبهتها المدورة المنداة من العرق، وعيناها تتجهان إليه، من عريها التام، فى حيرة من الألم والمرض، عارية منهوكة ملقاة، ذراعاها ممددتان إلى جانبها، لا حياة فيهما، وساقاها الطفليتان الطويلتان لا شىء يغطيهما، وقد برزت ركبتاها فى جفاف، وعضلات فخذيها ضامرة نحيلة، وضلوعها وعظام جنبيها ناتئة واضحة، من الهزال، تحت الجلد الباهت المشدود، وباب القهوة مفتوح مع ذلك على أنوار الشارع، والناس مشغولون بلعبهم وتدخينهم وحديثهم، يلغطون ويتثاءبون من ملل قعدتهم الطويلة.

وأحس خدرا فى جسمه يشله عن الحركة. الناس كلهم يقبلون هذا

الأمر ثم يشغلون عنه، فى غير اهتمام. وهو أيضًا، بشكل لا يصدق، كأنه يعيش فى العالم، ولا يعيش فيه، يقبله، ويسلم به، فى غير يقين.

والآخر يرمى النرد، وهو لما يكد يتوقف لحظة واحدة.

واستمرت اللعبة على بعد خطوات من السرير الذى ينصب عليه النور الخشن، وعلى تلك الجثة العارية الحية تحدق إليه بعينيها الوادعتين البريئتين، لا استغراب فيهما ولا قلق، بل حيرة من الوجع وتساؤل صابر معلق.

والآخر تلمع عيناه فى ثقة.

لكنه أيضًا قد تجمد فى نفسه العزم على النصر، وتحجرت إرادته فى عناد، وهو يشعر بالخطر يحدق به من كل ناحية، من هذا الوجه الذى يعرفه، لكنه نسى اسمه، وهذه القهوة بموائدها التى يستلقى بينها سرير بنته المريضة، كأن البنت، بشكل غير واضح، غير واضح أبدًا، موضوع لعبته الليلة، الأمر يتعلق بها بشكل أو آخر.

واندلعت فى نفسه شهوة لأن يحيط هذا الصدر الضيق الناحل، صدر بنته الطفلى لما تكاد تبثق فى حلمتيه الصغيرتين عصارة المراهقة الخام، يحيطه بذراعيه ويدفن رأسه فيه، كأن فيها شيئًا من امرأته التى تركها بالبيت من زمن طويل، وأن يرتمى عليها فيخفيها عن هذا العالم فى عتمة حبه لها، أن يهب لهذا الجسم العارى المريض صحته وقوته، وحياته كلها، أن يكفر، نعم يفكر بكل ماء حياته عن ذنبه الذى لا يعرفه الآن، ولا وقت لديه يفكر فيه، ولكنه مسئول بشكل ما عن مرضها وانكشافها للضوء الصلب الجاف الذى يسقط عليها بكل ثقله فيطؤها وينوء بها، ويشلها. وتلج به رغبته أن يستغفرها، بنته، أن يبكى على حرف سريرها، على طرف قدميها الصغيرتين البارزة عظامهما

فى نحول رقيق، وأن يبرها ويعوضها ، بل يضحى بنفسه من أجلها ، نعم يضحى بنفسه، فهذا هو المطلوب منه. لا أكثر ولا أقل. حتى تأنس من هذه الحيرة التى تطل من عينيها ، حتى تستريح، وتتغطى، وتبتسم.

لكن الناس ينظرون إليها كما لو كانت شيئًا قد ألفوا رؤيته، ويستمرون فى شأنهم. وهو يشعر بما يقهره على استئناف لعبته، فها هو الآخر ينتظره ويلعب معه كأن الأمر كله غير مسلٍّ على الإطلاق، فليس هناك نصر ولا غلبة. واللعبة دائرة.

وكان الليل هادئًا وهو يرجع إلى البيت، والنجوم ترمقه من بين سطوح المنازل، والحيطان ترتفع على جانبيه، صامتة فى كبر، والأنوار قد انطفأت فى النوافذ، والأحجار مقفلة على الحيوات التى تنبض تنعس وتمور خلفها، مسدودة، مصمتة. والتعب يتفتر بجسمه، ولا هدنة هناك، وإنما هو الشوق ينزع به إلى الدفء يتلمسه من جسم امرأته فى الليل، حتى الصباح، وقد عاد لا يدفعه إلا الرهق، حتى يأوى إلى قطعة من الأرض ألفها ، ويؤوب إلى حضن أنثاه، ينشد ليلة راحة، حتى الصباح.

جروح مفتعلة(*)

أسماء شهاب الدين

رغم اتساع ثقب الأوزون، لم تهبط الملائكة أرضه أبدًا، ولم ينحنِ فيها حتى ينكسر، والبنت الصغيرة التى استخدم رحمها غذاء وكساء وسُكنى لها، تحمل ملامحه هو، وتنشر ذرات كيانه فى طقوس اليوم وإن هربت من وجهه إلى صفحات الكتب، وجروح المتشاحنين، وبعض الجرائم الصغيرة. والآن أصبحت أناها التى لم تكتمل برجولة رجل، أرحب ما فى داخله.

بدايةً كان عليه أن يظفر ببنت الواحد والعشرين ذات الخصوبة الأعلى والتجارب العاطفية الأقل، والتى اختنقت بالأبوة والأخوة والصداقة واحتشدت بالتفوق والحسن...

عند هذه النقطة يحتضر هذا المنولوج الداخلى اليومى كل مرة. فَرَدَت كريم الأساس تحت عينيها بحذر. مساحات الأبيض الاصطناعى تفتقر لروح البياض وربما لونه أيضًا فما زالت زرقة الكدمة تُطِل من خلف ذرات الكِريم. تجاهد لتحريك عنقها لتحصل على بروفيل جانبى فى المرآة، فيبرز ما تحت عينيها متورمًا. تغلق علبة (التواليت) وتستند برأسها إلى حافتها. تنتفض لطرقات على الباب. تعتدل فى جلستها أمام المرآة. تتذكر أنه لا يحتاج إلى اختبار أدبه معها بهذه الطريقة. ينفتح الباب، تركض ابنتها نحوها، تُقبِّلها على خدها.

(*) من مجموعة (ربما كالآخرين)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، وللكاتبة أيضًا مجموعة (المرأة الأولى).

تتشغل عيناها بفحص كمية الكريم على شفتى البنت، تقول لها البنت بصوت خفيض:

ـ بابا بيقول لك ما تتأخريش.

فتحت علبة (التواليت) مرة أخرى وهى تغمغم:

ـ حاضر .

اندفعت البنت إلى الخارج ثم أغلقت باب الحجرة. سمحت للضيق أن يلتمع فى عينيها. شعرت بأنه والبنت ـ دون أن تدرى ـ وعلبة (التواليت) جميعهم يتآمرون ضدها. لم يتبق لديها الكثيرمن الوقت، امتدت يدها إلى البودرة كى تكمل طقوس التنكر المعتادة .

دائمًا تتبذر الدهشة فى ملامح رئيس قسم الطب الشرعى والسموم حين تعلن عن رغبتها المتكررة فى تطبيق النوبتجيات الليلية. كان مطلبًا غامضًا لامرأة تحشر فى بنصر يدها اليسرى دبلة ذهبية، ولها طفلة فى عمر ما قبل المدرسة. يؤثر الصمت فى مواجهة صمتها. أما بالنسبة لمرضات وممرضى القسم كاد الأمر أن يكون واضحا ... كدمات وجهها التى تتفنن فى تهذيب نزقها، بعض الإجازات المرضية من وقت لآخر، وتقليص مساحة المقربين حولها إلى ما يقترب من الصفر. كانت تناجياتهم حال ظهورها تثقب ظهرها وتدفعها للاختباء. لكنهم حين حضر زوجها المهندس ليصطحبها ذات مرة لرعاية ابنتهما التى كانت تعانى تشنجات ارتفاع الحرارة وصفوه بـ" ابن الناس" وتخلخلت معتقداتهم ولم يبق من قصتها التى حاول أن يكتبها الكثيرون غير هالات الغموض وتوتر القولان .

كان يومًا من تلك الأيام التى يطلقون عليها الـ **cold days** والتى تقل فيها

حالات الطوارئ وتستقر الأمور بعض الشىء. فكرت أن تمر بالطبيب النفسى لمارسة فعل تجاذب أطراف الحديث، أى حديث. هذا الطبيب الذى رشحته لزوجها فى لحظة صفو زائفة فانتهى الأمر به إلى أن أصبح طبيبها. قتلت فكرتها حين نبتت فى رأسها احتمالية أن يهديها الزوج اتصالاً تليفونيًا بوليسيًا بالمستشفى. اشترت بعض المجلات النسائية لتستعين بها على الليل.

ألقت سلامًا غير متحمِّس على طاقم التمريض الرابض فى العنبر. جلست معهم، صمتوا تمامًا، تناولت التليفون، هاتفت المنزل للاطمئنان على البنت. اخترقت أذنها كلمة (آلو) التى نطقها بانفعال. صمتت تمامًا، سمعت قهقهة رجالية عالية. سارعت بوضع السماعة وهرولت إلى غرفتها. خُيِّل لها أنها ذات القهقهة التى رجتها منذ زمن... سلوى المدعوة بالصديقة الوحيدة التى كانت تخفض جناحيها لها ولا تمل من الاستماع إلى محادثتها التليفونية الطويلة التى قوامها الشكوى والشكوى. استدرجتها لفضفضة أعمق وداست أقدامهما الجرح. صاحت فيها سلوى مباشرة:

- اغتصبك؟

لم ترد. قذفها سلك التليفون بقهقهة رجالية. كان زوج سلوى يستمع إليهما عبر سماعة تليفون الغرفة المجاورة.

أحكمت إغلاق الباب والشبابيك. اكتشفت أنها قد نسيت مجلاتها على الطاولة هناك. لم تستطع العودة من أجلها. فتحت الراديو الذى يستقر بجانبها، ضحكة طويلة لإحدى المذيعات وموسيقى لا تطلق فيها أية رفرفة، استلقت على السرير ....

ضغط جسده بقوة على جسدها. اختناق. كممها بكفيه. تحركت يداها

فى اللا اتجاه. رفع ساقيها. صرخت ثانية. صفعها. فقدت عضلاتها تصلبها وسالت دموعها ساخنة..

انتفضت فجأةً للطرقات على الباب. أغلقت الراديو، وقامت للباب تفتحه وهى تستعيد إدراكها للمكان والزمان وتلتقط أنفاسها، تقول الممرضة:

- حالة يا دكتورة.

رطبت وجهها ويديها بالماء البارد. اتجهت إلى العنبر.

امرأتان سمينتان ترتديان جلابيب سوداء. تربت إحداهما على كتف الأخرى. جلست قبالتهما. مدت الممرضة يدها إليها بالتقرير الطبى الابتدائى. كانت إحداهما تبكى وتتمخط فى كم جلبابها. سألتها:

- حصل إيه؟

سارعت المرأة الأخرى بالصياح:

- ضربها يا دكتورة و ...

أشارت لها أن تصمت ثم التفتت إلى المرأة الباكية. قالت:

- منه لله. الـ... ابن الـ...الـ...الـ ...

من بين كلمات الحكاية التى قصتها على مسامعها المرأة وجارتها، اقتلعت معنًى واحدًا.. اعتداء متكرر من زوج على زوجته غالبًا، بقصد استحلاب أموالها أو إجبارها على معاشرته أمام أبنائها أو بدون سبب واضح. بدأت بفحص رأسها. خدش مستعرض بالوجه فى الجهة اليمنى طوله حوالى ١ سم ويبعد عن الخط المُنَصِف للوجه حوالى ٤ سم وعن زاوية العين اليمنى حوالى ½ سم. مدت يديها لذراعها الأيمن. جرح مغزلى الشكل بالجهة الأمامية من الذراع، طوله

حوالى ٢,٥ سم والمسافة بين حافتيه حوالى ١ سم. يُنَصِف تقريبًا المسافة بين مفصلى الرسغ والمرفق. منتظم الحافة. حاد الزاوية. نظيف القاعدة وغير مصحوب بكبارٍ، ومن الواضح أنه تسبب عن آلة صلبة حادة كما قالت المرأة فعلاً. ولكن التمزق فى كم الجلابية لا ينطبق على جرحها القطعى. طلبت منها أن ترفع ملابسها. شاهدت كدمة طولية يتشارك فيها اللونان الأخضر والأصفر، نقرت على ظهر المرأة وسألتها:

- من إمتى دى؟

- عشرة أيام ولا حاجة.

كانت الجروح سطحية. بالجهة اليمنى أى فى متناول يد جارتها. وحديثة أيضًا، ربما مرت عليها ساعتان أو أقل قليلاً. لقد كذبت بشأن زمن الاعتداء عليها... جروح مفتعلة، أما الكدمة فى ظهرها والتى تسببت عن خيزرانة غليظة فيرجع تاريخها إلى خمسة عشر يومًا أو أقل قليلاً كما قالت!

اصطحبتها وحدها إلى حجرة مجاورة. سألتها مباشرة عن الدافع وراء هذه التمثيلية. كانت خائفة. ربتت على كتفها واستحثتها على الكلام. قالت لها إنها قد اكتشفت اليوم فقط سرقة زوجها لما تبقى من مصاغها ليقدمه لعروسه الجديدة. قالت أيضًا إنه يضربها باستمرار ومن يمنعها دومًا من تحرير محضر له هو ابنهما الذى أصبح مجندًا الآن.

استشعرت صدق المرأة أو أرادت ذلك ربما. ربتت على كتفها مرة أخرى. خرجت. أخذت تحرر التقرير فى ظل مخاوف المرأة:

بمعرفتى أنا الطبيب..............

....

....

المدة اللازمة للعلاج: أقل من عشرين ٢٠ يومًا ما لم تحدث مضاعفات أخرى.

ثم وقعت التقرير بحيوية.

صمت(*)

أسماء يس

أمسكتنى من يدى مصرة على أن أدخل. اعتذرت. أقسمت أن أدخل.

قالت: وحياته.

فانصعت داخلة. كان للبيت رائحة الينسون. اقترحت علىَّ أن نجلس فى الصالون، لكنى فضلت الشرفة.

قالت: بيتك.

وانسحبت إلى الداخل.

تشاغلت بالنظر حولي. كانت صورة زوجها الراحل وعن يمينه صوره لعبد الناصر معلقة على الحائط. فحولت عينى إلى الشارع. كان مزدحما.

لاحظت أن السيارات العابرة - فى الغالب - نتاج دول شرق آسيا. كان صوت عبد الوهاب الآتى من مذياع لم أستطع تحديد مكانه بدقة

يتساءل بأسى: مين عذبك بتخلصه منى؟!

جاءت بصينية عليها أكواب الشاى وبعض الكعك.

قالت: تفضلى

(*) من مجموعة (كرسى أزرق فى نهاية البهو)، دار (الدار)، القاهرة، ٢٠٠٦.

قالت أيضًا إنها تفتقده كثيرًا. لم تشكُ لى من إهمال الأولاد. طلبت منى بلطف أن أمر عليها كل حين. قالت أرجوك.

شرحت لها عن الظروف التى أمر بها والتى تمنعنى عن زيارتها. ربتُّ على كتفها مؤكدة أنها لو أنجبت لكان الأمر مختلفاً الآن.

قالت وهى تودعنى عند الباب إنها لا تدرى.

موت البرتقال

أشرف الصباغ(*)

قلب صغير

أدركتُ من صراخ أمى وعويلها أن حدثًا جللاً قد وقع، لكن قلبى الصغير لا يتسع له. بكيتُ لبكائها، وعندما احتضنتنى قريبة لى زاد بكائى فأخرجونى من "المندرة".

رحتُ ألعب مع العيال فى الشارع. ولما اكتمل السرادق ووضعوا الكرسى المذهب الكبير فى موضعه، تسللتُ من بين أقرانى تجاهه، اختفيتُ تحته ورحتُ أقشر الطلاء الذهبى ووجه الشيخ محمود الشحات يكتمل رويدا رويدا.

خممتنى أمى بعد انفضاض العزاء، وعند النوم ضمتنى إلى صدرها وراحت تغنى أغنية لا أذكرها، لكنها كانت تبكى، فبكيتُ لبكائها. وفى الحلم رأيتُ جدى للمرة الأخيرة.

نسمة

لم تحضر أمى بسبب زعلها مع جدى. ولم يحضر أبى لأن جدى كان قد طرده من الدار. لكننى كنتُ الوحيد القريب من قلبها. ابتسمتْ لى فأجهشتُ بالبكاء، والقلب الصغير يكبر. فرَّتْ دمعة من عينيها، أشارتْ لى فاقتربت.

(*) أشرف الصباغ، من مجموعاته القصصية: (خرابيش)، القاهرة، دار النهر، ١٩٩٧، (العطش)، القاهرة، دار سما، القاهرة ١٩٩٧.

ولما هبَّت نسمة انطفأت لمبة الجاز وانقبض قلبى.

وعندما صرختْ عمتى انفلتتْ يدى من يد جدتى.

عبر أسلاك الهاتف

أجهشتْ أمى بالبكاء:

- البقية فى حياتك يا بنى ..

كان قلبى الصغير قد كبر وصار فى حجم البرتقالة. نمتُ بجوار زوجتى وكان بطنها المنتفخ بينى وبينها، ولما لمحتْ دمعة فى زاوية العين اعتدلتْ على ظهرها وأراحتْ ذراعها إلى رقبتى وراحت تدندن بأغنية لا أذكرها، لكنها كانت تبكى، فاستحضرتُ وجه جدتى فى الحلم وكان مختلطا بصوت الشيخ محمد الشحات ابن المرحوم الشيخ محمود الشحات.

النسر

هبت نسمة محملة برائحة عرقه وشعرتُ بملمس ذقنه الخشنة. كنتُ دائمًا شديد النقمة عليه، لكننى كنتُ أحبه بينى وبين نفسى. عندما كان يضرب جدتى كنتُ أكرهه من أعماق روحى. وفى الأيام الخوالى كان يشتمنى بأبى ثم يهجم علىَّ ويختطفنى ثم يرفعنى إلى أعلى فى الهواء ويتلقانى، وكلما شتمته كانت ضحكاته تزداد علوا وصفاء. ولما اتهمه أولاده بالجنون، وأولهم أبى، لأنه تزوج بعد موت جدتى، وكان السب هو الميراث، أبى فى قلبه أن يخضع، فطار بعيدًا بعيدًا وارتفع عاليا عاليا ثم هوى، وفى عتمة الليل كنتُ أسمع نهنهات ابنتى الصغيرة على ترانيم أغنية الأم.

أغنية مألوفة

شعرتْ زوجتى برفسات قوية فى بطنها. فى هذه الليلة طارت قشة من فوق سطح الدار القديمة وحامت طويلاً طويلاً، ورسمتْ دوائر كثيرة فى الفضاء ثم ابتعدت. فى الليلة التالية تكورت على نفسها وراحت تغنى أغنية مألوفة للقادم الجديد. وفى الغرفة المجاورة رحتُ أحكى لابنتى حكاية طويلة عن أمى.

اللمسات الأخيرة

عندما انتهوا من وضع اللمسات الأخيرة على السرادق، تسلل ابنى خلسة وجلس تحت الكرسى المذهب الكبير وراح يقشر الطلاء الذهبى. أما الابنة فكانت تجلس إلى جوار أمها لتحفظ أغنية مألوفة تمزق حنايا القلب. وفى الصباح أخبرنى الولد أنه رأى أبى فى الحلم.

موت البرتقال

تصاعد السائل اللزج إلى الحلق، كان مرا وحارقا، وأمام العين تكون غشاء شفاف أحمر له طعم حامض، فنزَّت البرتقالة آخر قطرة وانفجرت.

قوائم الحسد

أشرف عبد الشافى(*)

٥٠٠ جنيه لطارق – آخر قسط

٧٠ إيجار

٢٠ نور وميه

١٥ فستان للبنت

١٤ فرخة

٦ أنبوبة بوتاجاز

٣ شبشب حمام

١٨ خضار + أرز + سكر

لم تعد كلمة إزعاج مناسبة لوصف الحالة التى تتركنى عليها هذه الورقة كلما رأيتها، وفى هذه الليلة تحديدا التى تهيأت فيها للقيام بمهامى العائلية على أكمل وجه، بدأت المسألة تأخذ شكل المؤامرة، فالقائمة اللعينة التى نكتبها مطلع كل شهر تقريبا ولا نحذف منها الكثير فى الشهر التالى راحت تطاردنى بصورة سخيفة ولزجة وكأنها تحاول النيل من رجولتى التى كشفت عنها أمام زوجتى. فبعد أن أطلقت العنان لفنون التهامس والتلاعب، وحدث اتفاق

(*) أشرف عبد الشافى، من مجموعاته القصصية: (منظر جانبى)، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٣.

ضمنى على قضاء ليلة ساخنة، تركت زوجتى المطبخ ورحت أبحث عن عشرة جنيهات وضعتها فى كتاب لا أذكر اسمه ولأن العثور عليها كفيل يمنحى مزيدا من الطمأنينة والارتياح لشراء علبة سجائر كاملة فى الصباح وممارسة الحياة بشكل طبيعى، فإننى رحت أفر الكتب كتابًا كتابًا، وفجأة وجدتها أمامى، قائمة أخرى لعينة محشورة فى كتاب عن الشيخ على يوسف وقصة زواجه التى تحولت إلى فضيحة، كان ظهورها كفيلاً بإضافة ما يزيد على أربعة كيلوجرامات من التكشير والتقطيب اللذين شعرت بثقلهما على وجهى..

تجاهلتها، وواصلت البحث الذى أنهيته بعد شعور خفى بأن العشرة جنيهات ستتحول إلى مزيد من قوائم البؤس، وحفاظا على حالة التهيؤ طازجة وحتى لا تطاردنى قوائم أخرى، خرجت إلى الصالة وجلست على الكنبة أدخن سيجارة فى محاولة لاستعادة توازنى وتألقى الرجولى حتى لا ترانى زوجتى على هذه الحالة فتطاردنى بالأسئلة عن أسباب "التقفيل" والتى يستتبعها دائمًا حديث مشجون عن الحسد الذى يطاردنا ويحول دون إتمام حالة الارتواء، بل وإننى إمعانا فى تقمص دور الإنسان القانع الراضى بما منحه الله من زوجة طيبة وطفلتين رائعتين مددت يدى إلى المصحف الشريف الذى تحرص زوجتى على وضعه فى أماكن عديدة من الشقة العامرة بفضل الله لطرد العيون الحاسدة الحاقدة التى تلاحقنا ولأننى ولأسباب لا يعلمها إلا الله أحب قراءة سورة "النمل" رحت أبحث عنها وقبل أن أصل إليها باغتتنى القائمة اللعينة مكتوبة هذه المرة على ورقة صغيرة ومضافا إليها:

(١٣ جنيه شطاف للحمام).

موال شوق

اعتدال عثمان(*)

شوق.. يا شوق.

حين تطلع شوق من الدار تصحو الدنيا ، تنضو عنها رداء الليل. تخرج وعلى بدنها اللين جلبابها المنسوج بألوان الفجر والزرع المندى بأنفاس الكون. تحبك القمطة السماوية فتبرق أطرافها بنجوم متوارية خجلاً من صبح حسنها النوار. وتفتتح طيور القبة غناويها من أجل شوق.

أنت يا شوق تعرفين ولا تعرفين. توقيع خطوك المنغم يقول الأرض تذوب تحت أقدامك. وطرفك الساهى سيوف مغمدة، لو استلت من مكنونها لحزَّت رقاب الخلق. لكنك لا تريدين يا شوق، أو أنك تريدين ولا تفعلين.

ترضيك أحضان الخالات اللاتى ما هن بخالاتك. فى دفء كلٍّ منهن نفحة من أمك التى واراها التراب منذ ما لا تحسبين من سنين. ولماذا تحسبين وأنت نوارة البلدة تتفتحين فى نن العيون؟

- شوق يا شوق.
- مين بينادى؟

(*) اعتدال عثمان: من مواليد ١٩٤٢ ، من مجموعاتها القصصية: (يونس البحر)، (وشم الشمس).

- العواف يا شوق.
- يعافيك يا خالة.
- ابقى حوّدى حدانا النهاردة يا شوق... تاكليلك لقمة معانا ومع العيال.
- الخير كتير فى الدار يا خالة.
- عارفة يا شوق.. أهو يا بنتى تبقى فى وسطينا.
- حاضر يا خالة.

الكل عم لك أو خال، أو أخ لم تلده أمك. وحين تحلين بدار أحدهم تقابلين بالترحاب، الغالية ابنة الغالى صاحب الأفضال. فى عنق كل منهم دين لأبيك يرده لابنة الراحل الكريم، بالود الصافى وبإوزة فى العيد الصغير، ذكر بط، أو صحن كعك، أو بوقّتين من اللحم الملبس فى العيد الكبير. هذا نصيب شوق.

دارك عامرة بالخير. وزلعة الجبن القريش المملح أبدًا لا تفرغ. والعيش المرحرح يأتيك من حيث لا تعلمين.

عامرة هى الدار بعطايا قيراطين الأرض التى تفلحين بيديك هاتين العفيتين الرخصتين. تجدين على الدوام، بغير طلب منك، جارًا لك أو رفيق صبا باكر، يهرع إلى معاونتك، فى وقت عزيق الأرض وأيام البذار، وموسم الجنى يأتى بعد طول انتظار.

تلمحين إغضاءه أو تفزر وجهه بالأحمر القانى حين تقتربين. وقد يروق لك منظره، وأنت مشفقة، كلما رأيت عروق رقبته نافرة، مكتظة بدمائها، ورجفة ساعده إذا ما مد لك يدًا بكيس تقاوى أو حمل برسيم. لكن أبدًا لا تلمسك اليد. وإذا ما لمستك عن غير قصد، يسارع فيقول:

- عنك يا شوق.. روحى أنت وأنا بدالك.

تقولين وأنت بين البغددة والخصام:

- ما اشتغلشى ليه؟ أنا زيى زيك تمام.. وزى بقية البنات!

- انت حاجة تانية يا شوق.. انت هانم يا شوق.. زى هوانم البندر.. انت مش عارفة غلاوتك أد إيه يا شوق!

فينبلج سنا فمك عن بسمة راضية.

راضية أنت بفراخك، تزدحم حولك فى العصارى صاخبة فى انتظار التقاط الحب من راحتيك. تعرفينها فرخة فرخة وهى تبيت على عهدها لك فتمنحك كل صباح نعمها التى لا تنقطع، ولا تخلف يومًا ميعادها.

وأنت تحتفظين ببعض النعمة لحاجاتك القليلة، أقراص مضيئة بالشمس فى المنتصف، تطش فى السمن البلدى المحمى الوفير، تطلبها نفسك من حين إلى حين. وبما تبقّى من نعمة مكنونة فى قشرتها الهشة تقايضين على تربيعة بأوية، مقطع قماش قطن أو شنتيان، أو زجاجة مسك صغيرة، تأتى بها أم نرجس الدلالة فى صرة هائلة، وكأنها تحمل العالم فوق رأسها.

تفتح الصرة فترين العجب وكأنك أمام صندوق الدنيا. التُّلّى المقصب، المفضض والمذهب، والأطلس الزاهى بلون الزبرجد، مطوى رقائق فوق بعضها، إذا نفخت فيها تطير، أتواب الحرير الهندى والكشمير والكريشة، توب واحد من كل نوع. المراود أفنت جبال الكحل وعبأتها فى مكاحل على أصناف. البرق والترتر فى حقاق صغيرة محكمة. وزجاجات المسك والعنبر لوحدها، مرصوصة فى دستتين كاملتين.

تفاصلك أم نرجس طوال النهار. تمصمص شفتيها تارة، وتارة تلملم أشياءها وكأنها عازمة على الرحيل، ثم تقنع فى نهاية المطاف بما تعطين، إكرامًا لعيون الغالية ابنة الغالى.

وأنت تتبخترين بين البنات بجلبابك القطنى الجديد، تزوقه الست فلة الخياطة بأفانين الخرز المنمنم وشرائط الساتان الأبهة. تمنحينها ديكًا، تنتزعينه من بين أخواته. يتواثب أمامك وبين يديك، وما يلبث أن يستسلم لقبضتك الحانية ويهدأ بعد عراكه القصير. تمسين صدره وعرفه النافر والدمعة تكاد تفر من عينيك الكحيلتين بالكحل الربانى. تزعق الفراخ لحظة مذعورة لغياب وليفها، ثم تنسى فى الحال، وتعاود النبش فى الأرض المرشوشة، لعلها تعثر على حبة قمح أو فتات خبز سقط منك سهوًا وأنت التى لا تفوتها نأمة.

نظيفة الدار والبدن والسريرة، مصقولة على الدوام بقطعة الصابون النابلسى. تجلوك الرغاوى الفائرة كل عصر، ويتخلل زيت الزيتون مسام جلدك المتفتحة، قبل أن ينساب عليها الماء الزلال، ناعمًا رقيقًا. وتجففك المنشفة ذات الوبرة الطرية، تألف أعطافك من طول ما هدهدتها.

لا تنسين قطعة الصابون فى الكُنّ المسقوف حيث تستحمين، وإنما تأخذينها معك إلى المطرح الوحيد، فتضعينها فى طبق نحاسى قديم، ما تزال قشرة قصدير عهده اللامع كاسية للخارج والداخل والأطراف، ما عدا القاع. تضعين مربع شاش على الموضع الذى ناله الجنزار وفوقه الصابونة على رفٍّ خشبي، إلى جوار أدوات زينتك، مشط بحجم الكف، أسنانه ضيقة، وزجاجة ريحة صغيرة.

وفى أماسى الصيف تجلسين بجانب الطاقة التى فى حوش الدار. فى

ناحية قريبة تقفيصة الفراخ الهاجعة تؤنسك، وفى الناحية الأخرى، تحت الطاقة، دكة عليها حصيرة ملساء تتربعين فوقها، فتتسدل رخية من تحتك. والجميزة العتيقة لصق الطاقة، فروعها دانية حانية، حتى إنك لو شئت ومددت لها يدًا لأطعمتك من ثمار ساقها.

تنفذ إليك ريح التمر حنة وزهر البرتقال وصوت المغنواتى على البعد، يأتى من الوسعاية وسط البلد. ترين بعين الخيال الرجال وقد تربعوا على الأرض. الكتف فى الكتف والكفوف تضبط الإيقاع، أو تتشغل فى إحكام السجائر اللف. يضع واحد منهم ورقة البفرة على راحته وفيها من الدخان قدر معلوم. وبين السبابة والإبهام يلف الورقة على نفسها بحرص ضنين، وبطرف اللسان يلصقها ويقلوظ نهايتها حتى لا تسقط منها ذرة. يقدح شرارة اللهب فتومض الدنيا لحظة وتخبو ويصاعد عبق الدخان. أدوار الشاى الغامق تتوالى كل حين. تأتى من دوار العمدة فى هذه الأيام المفترجة. أيام مولد سيدى غريب. والحناجر بين الآه وقول كمان. "صلى على النبى"، "طويلة ممطوطة فى طرفها رنين، و"زيد النبى صلاة" عالية مجلجلة، "وحياة سيدك غريب لانت قايل كمان موال".

أنا يا ليل غريب الدار فى البلاد جوال

والأرض مهرة ولكل مهرة لا بد من خيال.

وأنا يا ليل لا عندى دهب ولا مال

أنا يا ليل بقول موال.

رأسك يا شوق يدور مع النسيم المعطر بنداء الصوت. تسندين رأسك على الجدار الطينى الأملس وتتوهين مع الفكر. من أى أرض أتى ذلك المغنواتي، وإلى أى أرض يعود؟ وما بال التمر حنة تستجمع روائحها المخزونة فى مواسمها الماضية

وتنفثها دفعة واحدة فتخضب الهواء؟ وحتى زهر البرتقال يطارد عبيره كي يبثه حنين الأرض والسماء. والكروان من علّمه النغم فأخذ يصدح الليل بطوله؟ ولماذا لم يحضر المغنواتى من قبل وجاء مولد هذا العام؟ وكيف تنامين يا شوق وقد سرق منك الصوت راحة البال؟

ها أنت يا شوق ساهرة فى فرشتك تتقلبين على الحصيرة وبساط الريح القطنى من فوقها يطير بك. صوت الكروان فى أذنيك ورأسك مشعشع بالنغم. أسراب نمل طائر تحط على بدنك وتزحف فى ثنايا الحنايا. تؤرقك لدغاتها غير المرئية وتستعذبين اللدغ الرفيق.

وفى غبشة الصبح الباكر تسرعين إلى ذلك الكُنّ المسقوف فى طرف الدار، وعلى غير عادة لك تصبين على جسمك صفيحة ماء كاملة، فيشهق فى حلقك الهواء وأنت تقطرين بالعافية وتتأهبين ليوم جديد.

تبحثين فى المطرح الفواح بسهد الليل عن المرآة المشطوفة، المدسوسة بين كومة الملابس فى الصندوق الخشبى الكبير، صندوق عرس أمك الذى ما زال فى رونق زهوته الأولى، رغمًا عن السنين. ما زالت ظهور المسامير النحاسية المقببة تتقاطع على غطائه بأشكال نجوم ودوائر لماعة. تحبين ملمسها الناعم الصقيل، كلما مرت يدك عليها، وكلما عنّ لك تحسُّس ملامسة قماش القطيفة الغالية، المدخرة ليوم الوعد. واليوم أخذك حنين إلى المرآة القديمة. تستطلعين فيها حلاوة وجهك فتوددت لك، أنت يا شوق ست الحسن والجمال. يداك تسبسبان الليل المنسدل على ظهرك، يطول حتى الكعاب، تلملمينه فى ضفيرتين معقوصتين على تاج رأسك العالى.

أمامك اليوم كله يا شوق، زرعة الغيط طالت وطلعت معها حشائش

شيطانية، تزاحم الجذور فى الأرض الطيبة، اليوم تتزعين النبت الشيطانى. ما بالك يا شوق تتزينين وكأنك ذاهبة إلى عرس؟ تختارين جلباب العيد تحت ردائك الأسود الصافى. القمطة عايقة بالبرق والترتر والخرز الذهبى الملضوم فى عناقيد، يضوى من وراء نسيج الطرحة السمراء. تشف هى وتشف، فى نور هذا الصبح، حتى تكاد تكون هواء يكشف ويبين عن شموس دوارة ثابتة، تشع حول تاج الضفائر.

ما بالك يا شوق تفركين فرط الرمان، المتوهج فى وجنتيك، فيزداد حمار الخدود، تعضين على مبسم العقيق فى شفتيك، فيكاد يتفجر منهما شربات الورد؟ وفى طريقك إلى الغيط تتبخترين وكأنك فى هودج أو تختروان فتتمايل معك الرءوس.

ها هو المغنواتى يجلس فى قهوة الحاج زيدان وكوب الشاى بالحليب فى يده، لا يصل إلى فمه ولا يعرف له موضعًا على المنضدة الصغيرة الحائرة أمامه. قوائمها الأربعة الحديدية الرفيعة لا تجد لها مستقرًا على أرض أخذت تتفلّت من تحتها. تتدحرج الشمس على سطحها النحاسى اللامع، فترتد أشعة التبر متقدة موشاة باللهيب. وهو كمن به مس، الوهج الخاطف فى عينيه، تضيق منهما الأحداق، ويتقطر الضياء النارى فى بؤبؤ العين، فترتعش أوتار الجسم وتخفق ربابة الفؤاد، وتضطرم آهة فى حبة القلب تحبسها الشفاه.

وأنت يا شوق تضحكين فى عبك ولا تظهرين. نشوة الليل تعاودك. تودين لو تتوقفين، تسألين عن الأرض البعيدة، عن الحكاوي، عن المواويل، عن الوعد والمكتوب على الجبين، لكنك تمضين فى حال سبيلك والفرح يزغرد فى صدرك.

وبعزم عشرة رجال تقتلعين النبت الشيطانى بيديك الرخصتين. تكومينه

على حد الغيط. لا تكلين وما بك من جوع أو عطش. الهواء يشبعك، وعيدان السيسبان تتأود بين أحضانك، وتتفتق لك أكمام زهر، رحيقها يرويك.

تنوين العودة قبل الغروب. تتلهفين الوصول فتحملك سحابات عتر صيفية إلى ليل آت، ينداح فيه النغم وكأنه ما ترنم إلا لك وحدك.

ها هى الجميزة تقف فى موضعها على الباب حارسة. تتلهف مثلك ساعة الفراغ إلى جوار الطاقة بعد أن تنفض عنها أحمال النهار. تنتظر صابرة رحيل غربان السوء والحداوى الغادرة الرابضة فوقها، تتحين غفلة الانقضاض على فرخ صغير أو عصفور تحمله مخالبها الحامية، كى تفر به مخترقة سماء الدار.

ما عاد بالك خاليًا يا شوق، مثل الجميزة التى يطول انتظارها كل مساء لطيور الألفة، تبيت فى أحضانها وادعة. لكن سحابة العتر ما تزال معك، تصاحبك حتى الباب، تلفك من فوقك ومن تحتك ومن حواليك. طيب شذاها منك وفى منافسك. وأنت منها خفيفة، لا تحسين لأقدامك وقعًا ولا لجسمك ثقلاً، بل إنك تطيرين إلى ما لا رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر لإنس أو جان. تطيرين إلى السماء السابعة فتتفتح الطاقة وينطلق الغناء الحبيس.

التمر طاب يا عين وهو فى العالى

طلب القطاف يا عين وهو فى العالى

يا مين يقول للجميل النخل دة عالى

وانا جملى يا عين حداه جرح تحت الحمل مدارى

لا الجمل بيقول آه ولا الجمَّال بيه دارى.

ويطول السهر ويطول والحناجر تقدح الآه. تباريح ونار خفية تزمزم تحت

عباءة الليل الحالك، فينسل الظلام خيطًا فخيطًا والجمر لا يفنى ولا السواد البهيم.

- شوق.. يا شوق.

يكون النداء فى حلم أم علم يا شوق؟

- شوق.. يا شوق!

- مين بينادي؟

- افتحى يا شوق.

- آبا العمدة؟.. يصبحك بالخير يابا العمدة!

- على فين العزم النهاردة يا شوق؟

- عالغيط يا ابا العمدة.

- لا يا شوق ما فيش شغل بعد اليوم.

- خير يا ابا العمدة... اللهم اجعله خير.

- كل خير يا شوق... أنا لية معاكى كلام.

- اتفضل يا ابا العمدة... الدار نورت.

- شوفى يا بنت الحلال.. أنت كبرت وبقيتى زينة.. ولازمك الستر.

- مستورة والحمد لله.

- يا شوق أنت يتيمة ووحدانية.. وما حدش من الجدعان الخضر فى البلد ينفعك.. لا بد ليكى من راجل ملو هدومه يصونك ويستتك بدل الشقا اللى انتى فيه كل يوم.

- أنا ما اشتكتشى لحد.. رضا على كل حال.

- يا شوق أنا طالبك على سنة الله ورسوله.

- كلام إيه دة يا ابا العمدة؟.. دة انت متجوز وبنتك ناعسة فى عمرى تمام!

- وماله يا شوق.. ما دمت قادر يبقى دة حقى.. دة شرع الله.. قلتى إيه يا بنت الناس؟

... سكتى. يبقى خلاص.. على بركة الله.. كتب الكتاب الخميس الجاى بعد ما ينفض مولد سيدى غريب.

وفى صباح الليلة الكبيرة كانت الدار على حالها، غير أن فراخ شوق أخلفت الميعاد، انفرط عقدها فى الحوش وكفت هذا الصباح عن عطاياها اليومية. وباتت الجميزة محنية، كانت قد حلت ضفائرها مع الليل وأرختها على الأعتاب.

وآه يا ليل يا عين على اللى كان وياما كان

كان فيه صبية فى العشق تسبى العقول

تمشى تهز بروج الفلك كما بنات الحور.

كان فيه صبية فى يوم سمعت ندا

طلعت على سحابة تحلب نجوم السما

يا صبية يَا امُّ الشعر خيلى والحسن بيلالى

إن كان أبوكى القمر والشمس مرسالى

لاشعل أنا القناديل من جمر موالى

وآه يا ليل يا عين على اللى بيتولد كل يوم فى منام

على اللى ما ينتهى ويبتدى بكلام

شوق دخلت الحكاية

شوق دخلت الموال.

الرهينة

إقبال بركة(*)

كان عليَّ أن أتقبل الأمر ولو مؤقتا، أن أنتهز الفرصة لأخلو إلى نفسى وأفكر بهدوء، ودون توتُّر، وبغير أن أترك أحداثا لم أصنعها ولم أشارك فيها تشوش عقلى، فالمهم الآن، ورغم كل شىء، أن أدبر وسيلة لخلاصى!

قررت أن أستخدم سلاحى الصمت والهدوء حتى لا يشعر حارسى بالأحاسيس التى بدأت تغلى فى داخلى، لا بد أن يسير كل شىء كما كان تمامًا، لأؤكد التصور الذى لا بد أن يكون قد نما وتفرَّع لديه بأننى قد تعودت على الأمر، بل وإننى لم أعد أتصور أن يحدث أى تغيير، وإننى عاجزة عن أى تصرف.

بدأت قبضة الحارس تتراخى قليلاً، بعد أن طالت مدة هدوئى المفتعل، وكنت أراقب حركاته وسكناته بطرف عينى دون أن يشعر بمراقبتى له، حتى إنه تصور أننى لم أعد أشعر بوجوده، وراحت عيناه تجوسان فى ملامحى وتتفرسان أعضاء جسدى.

أشعر بدبيب ملمس نظراته النهمة فوق ذراعى وساقى، أجز على شفتى بأسنانى، أخفى خدى براحة يدى، ألملم أطراف ثوبى، يرتعد جسدى كله لهول ما يرسمه خيالى، تتلاحق أنفاسى ويرتفع رنين ضربات قلبى حتى يطغى على

(*) من مواليد ١٩٤٢، من مجموعاتها القصصية: (حادث اغتصاب)، (يوميات امرأة عاملة).

أصوات الحيوانات داخل الحظيرة والرجال خارجها، ينكمش جسدى داخل بعضه، أتمنى لحظتها لو كنت قنفذا له أشواك.

أسمع حارسى يتثاءب، أنتهز الفرصة وأنظر إليه، أراه يمدد ساقيه، ويرخى رأسه فوق كتفيه مغمضا عينيه.

فى تلك اللحظة بالضبط.. قررت أنه قد آن الأوان.

بحرص شديد أتحرك، فسجانى من ذلك النوع المتيقظ، دراستى المتأنية لشخصيته خلال ساعات احتجازه لى جعلتنى أخمن عيوبه، وأتصور نقاط ضعفه، قدر هائل من الغرور والغباء وسوء النية يجعله يتصرف وكأنه إله من آلهة الأقدمين.. يعبد دون حق، وتقدم له القرابين دون جدوى، ويخر الجاهلون سجدًا أمام صنمه الذى صنعوه بأيديهم..

ها هو جالس أمامى، رأسه منكس فوق صدره، وغطيطه الخافت ينبعث من صدر منهمك، ويده الكبيرة تحتضن السلاح، وضمه إلى حيث ينبض القلب، ساقاه ممددتان، وذراعه الخالية ملقاة إلى جانبه كأنها مشلولة.

لو طالت يدى ذلك السلاح فسينتهى كل شىء، سيتحول هو إلى سجين وأنا إلى سجانة، سنتبادل المواقع، هو بدون السلاح لا شىء، والدليل على ذلك الحرص البخيل على التشبث به، وإشهاره فى وجهى كل لحظة.

الفرصة لم تسنح من قبل بمثل ما هى سانحة الآن، أستطيع أن أسحب السلاح من يده برفق ودون أن يشعر، فهو لا يتظاهر.. إنه نائم فعلاً.. أصيب بالإرهاق بعد يوم طويل من المطاردة والفرار.. أو من كثرة مراقبته لى وتتبعه لحركاتى وسكناتى.. من كثرة الصياح بالأوامر والنواهى.. وترديد التهديد والوعيد.. من شدة ضغطه بيده على السلاح..

منذ أن اتخذنى رهينة لم ينم بمثل هذا العمق، وأعجب كيف غلبه النعاس فى هذه الظروف العصيبة، عقلى ينادينى أن أغتنم الفرصة..

قلبى يسألنى فى حيرة: ثم ماذا بعد؟

هل أستولى على السلاح فأصبح السجانة ويتحول هو إلى رهينة.. وندور فى حلقة مفرغة لا ينهيها إلا الموت؟

أفكر بسرعة.. فلا وقت للتردد.. لو أننى أمسكت بالسلاح، فعلىَّ أن أشهره فى وجهه، أن أتماسك أمامه، ألا أضعف إزاء نظرة الانكسار بعد هزيمته.

سيفزع من نومه، ويفتح عينيه على منظرى وأنا أصيح به متوعِّدة.. سينصاع لأوامرى يقف ويرفع يديه أعلى رأسه، ويسير أمامى، ثم أسلمه للذين يطاردونه ويتوعدونه.

لا أعرف من هو، ولا من هم الذين يطاردونه ولماذا.. لكنى سأساعدهم عليه.. سيفوزون به، وقد يعيدونه إلى الحبس والتعذيب.. أما أنا فسأعود إلى حياتى الأولى. حياة بلا طعم ولا معنى، يتشابه الصباح مع المساء وتمر ساعات اليوم رتيبة حزينة سواء هنا فى الضيعة أو فى بيت أبى وزوجته الشريرة.

أتأمل وجهه النائم.. استرخت ملامح الوجه فبدا وسيما تشوبه حمرة الذين اعتادوا العمل فى الحقول، لا بد أنه فى الخامسة والعشرين من عمره، أو أكبر قليلاً. يكبرنى بعشرة أعوام على الأقل.. ما الذى دفعه إلى الهرب، وأى قدر عجيب جذبه إلى الحظيرة ليشاركنى الملاذ الوحيد فى ساعات القيظ القاسية!

ويبرق فى ذهنى خاطر مفاجئ.. تصطك أسنانى بشدة.. أغمض عينى بكلتا يدى كأننى لا أريد أن أرى ما أفكر فيه.. لكنها الحقيقة تبدو لى

ساطعة مبهرة.. كأنها شمس الصيف فى ساعات الظهيرة لا مفر من الانصهار فى غليان حممها البركانية..

أنا الآن ملاذه الأخير.

نحن معًا قد أصبح لنا مصير واحد.. لو انتصر الذين فى الخارج فالهزيمة ستكون من نصيبنا معا!

أنظر بدهشة إلى وجهه.. هل يدرك ما يدور الآن بعقلى!

كنت أرقد خلف جرن العلف هارية من العمل الشاق فى بيت صاحب الضيعة.. دائمًا أختفى عن الأنظار فى هذا المكان كلما ضاقت بى الدنيا ولم يعد لى مأوى.. سمعت جلبة شديدة خارج الحظيرة.. وقع حوافر خيول، وصوت طلقات رصاص، يحدث هذا من آن لآخر فى الضيعة، ويكون رجال صاحب الضيعة يطاردون خارجا على قوانينه.

فجأة.. اقتحم علىَّ المكان.. رأيته يدخل.

ويختبئ.. لم يرنى ولم يشعر بوجودى.. اقترب الرجال من الحظيرة، فأطلق عيارا فى مواجهتهم.. صاح.. إذا اقترب أحد منكم.. سأقتل البهائم جميعا!

تملكنى الرعب، تحركت لأهرب من مخرج آخر للحظيرة أعرفه.. شعر بى.. رآنى.. صوب سلاحه نحوى مهددا:

صاح صوت من الرجال: لا تهمنا البهائم.. سنحرق الحظيرة كلها إذا لم تخرج.

رد عليه بصوت منتصر:

- معى سمية بنت الشيخ عامر.. لو أحرقتم الحظيرة فستحرقونها معى..

متسمرة فى مكانى.. ركبتاى ترتعدان.. جسدى كله يهتز وينتفض.. عيناى تتوسلان، ولسانى مشلول.. لكنه يعرفنى جيدًا.. يعرف أبى أيضًا.. ولا بد أنه يعرف قصتى.. فكيف لا يرق لحالى!

صاح صوت قاس: يا جبان.. تحتمى بالنسوان!!

صاح صوت آخر: اخرج يا مأمون.. لن نصيبك بمكروه.. فقط سنسلمك للبك الكبير.

أحكم مأمون قبضته على ذراعى، وانطلق صوته من خلف أذنى كالقذيفة:

- لو اقترب نذل منكم فسأقتله، وسأقتلها هى أيضًا.

ساد السكون، وسمعنا وقع حوافر تبتعد.. أصغى بسمعه.. شدَّد قبضته على.. صوب مسدسه إلى رأسى وصاح:

- لن تنطلى حيلتكم علىَّ.. سأقتلها لو لمحت واحدًا منكم.

استمر السكون.. خشخشت فى الأرض أقدام، هفت فى الريح أصوات تتهامس.. نظر مأمون من كوَّة صغيرة. قال بصوت خفيض:

- فلتنتظروا إلى يوم القيامة.. لا أعرف هل مرت ساعات أم أيام أم سنوات.

أتلفت حولى، لا شىء غيره وأنا.. والبهائم..

اعتدت على رؤيتهم والبقاء بجوارهم.. بل والشكوى إليهم.. أسمى كلاً منهم باسم لا أعرف لماذا اخترته..

شمشون.. الثور الضخم الذى يقضى يومه كله معصوب العينين، يدير الساقية، لا يعرف الليل من النهار ولا يدرك الفرق بين الحقل والحظيرة.

حليمة.. البقرة الطيبة.. أول واجب لى فى الصباح أن أحلبها.. تعطى بلا توقف.. لا تعرف الشكوى ولا الاحتجاج.

عزيزة.. عنزة صغيرة يصر صاحب الضيعة على أن أربطها من عنقها بحبل.. أراها تتململ.. تود أن تقطع الحبل وتنطلق.. فى عينيها نظرة حزن عميقة.

أما مسكين.. الخروف السمين الذى يعده صاحب الضيعة للعيد الكبير.. فهو أقربها إلى قلبى جميعًا.. ما إن يرانى حتى يصدر نداءه الملح.. كأنه يخاطبنى بسر خطير.. لا أعرفه.

وأنظر إلى "مهران" المهر الصغير، وهو يتمسح بثدى أمه "عروسة" التى يمتطيها صاحب الضيعة ويدور بها فى القرية متباهيا بجمالها.. ومستعرضا بسطوته، وجبروته.

رباط خفى يربطنى بهم.. أشعر كأنى سأظل أراها وأنظف روثها مدى الحياة.. أهرب من قهرى ويأسى إلى حظيرتها.. أرتمى فى ركن منها، وأضيع فى نوم عميق.

النوم.. ما زال الرجل يغط فى نومه.. أو لعله يتظاهر كى يتيح لى فرصة الهرب.. ثم ينقض علىَّ إذا ما أتيت بحركة واحدة.. الخوف يكبلنى.. الخوف منه، كما اعتدت أن أخاف أبى، وزوجه الجبارة.. تصر على عدم ذهابى للمدرسة رغم توسلاتى ودموعى، تصر على أن أعمل خادمة فى بيت صاحب الضيعة.. وإذا علمت ما حدث فستصر أيضًا على إنقاذى من قبضة الرجل الغريب.. كى أعود لها.. الدجاجة التى تبيض ذهبا.

وإذا ما أصرت زوج أبى على شىء فلا بد أن تناله.. بالحيلة.. بالمكيدة.. لا بد أن تنجح.

أندفع نحو الرجل.. أهزه بشدة.. يفتح عينين ملتهبتى الحمرة. تشتد قبضته فوق السلاح تتسع حدقتا عينيه وهو يستمع لتوسلاتى:

- لقد ذهبوا.. قم.. اهرب..

يوجه سلاحه نحو رأسى، ونظرة عينيه تزداد شراسة وحدّة.. وقبل أن ينطق بكلمة.. أصيح به:

- فلنهرب معًا..

- أنت!

- نعم.. لا أريد أن أبقى هنا.. خذنى معك.. يهز رأسه بشدة، ينكفئ فوق سلاحه مفكرًا.

- سيقتلوننا.. إنهم يحرسون الباب بعيونهم وبنادقهم أعرف مخرجًا آخر لهذه الحظيرة.. لا أحد يعرفه غيرى..

وتعود نظرة الدهشة إلى عينيه.. لكنه لا يجيب.. لا يريد أن يأخذنى معه.. يعتبرنى حملاً ثقيلاً قد يعطله.

- أين هذا المخرج؟

- لن أدلك عليه إلا إذا وعدتنى.

عشرات العيون تصوب سهام الغضب والثورة نحوى.. عيون شمشون ومهران وحليمة وعروسة ومسكين وعزيزة.. عيون أهل القرية جميعًا.. سيتهموننى بالفجر.. بالجحود.. لأنى لم أستمر إلى الأبد فى حمل روثهم وتنظيف قذارتهم.

- هيا.. تحرك.. لم يعد لدينا وقت..

- وإذا أخذتك معى.. أين؟

قاطعته بحدة: لا أعرف.. فقط لنخرج من هنا.. نظرة الحيرة فى عينيه.. رباط يربطنى به إلى الأبد.. انصهرت الشراسة وأخفى الشر ورأيت عينى طفل خائف تتشبثان بى.. معه أستطيع أن أصنع عالما جديدا.. عالما خاليا من الخوف والبؤس.

هأنذا لأول مرة فى حياتى أمسك بزمام الأمور.. تتدفع دماء حارة قوية إلى عروقى.. يدب النشاط فى جسدى، أمد يدى لإنسان.. أنظر فى عينيه بلا خوف.

تنعكس نظرتى فى صفحة عينيه.. كأنه ينادينى.. لأول مرة منذ أن اقتحم الحظيرة واحتجزنى رهينة.. منذ أن عرفته.. ألمح نظر توسل فى عينيه ودون أن أنتظر منه كلمة.. أستدير وأتجه نحو المكان الذى أعرفه، يسير خلفى وعندما أدله على المخرج السرى تلمع نظرة رجاء محل اليأس.. يمد يده ليحتضن يدى.. يعتصرها..

معًا نندفع متسللين إلى حيث العالم الرحب الفسيح.. يبهرنا ضوء الشمس للحظات فنظلل عيوننا بأكفنا.. ثم نتقدم إلى الأمام دون أن ننظر إلى الخلف.. تلهب خطانا رغبة مشتعلة فى الخلاص.

عتبة السلم(*)

أميرة النشوقاتى

- إنت إيه يا أخى؟

سؤال يتكرر كل يوم بعد صباح الخير بربع ساعة تقريبًا، ثم أكمل إفطارى فى هدوء وأدخل حجرتى مرة أخرى.. أخافها وأخشانى ولا يوجد لدىَّ رد سؤالها الأزلى لأننى مشغول بسؤال أعقد: من هى؟

تذكرت الشقة الواسعة بزمن أكثر رحابة حين كانت هناك طرابيش ونياشين وصور من عصور أخرى ما بين الأبيض والأسود. لكن صوت قناة الموسيقى فى التليفزيون يخرجك من جو القرن الماضى. ٢٤ عامًا من العزلة تؤدى إلى كلام مختزل وصمت مهيب. هكذا كانت حياته من الابتدائى للجامعة. لكن آثار الضرب والحبس الإجبارى والاختيارى لا زالت هناك فى عينه التى تسخر بدموعها من كل الدنيا وستار جنونه الذى يحميه من كل ما يخشاه، فمن سيحاول ضرب رجل يصرخ بأعلى صوته فى ميدان التحرير ناعيًا قطة صغيرة ماتت فى الزحام؟

- حاضر حاروح الشغل أمضى واستأذن وافوت على حمدى أدى له الفلوس واطمن على فوزية واجى على الغدًا مش عاوزة حاجة؟

- ما تخافيش مش حاضيَّع حاجة هو انا عيل؟ دانا خلاص هاقفّل ربع قرن

(*) من مجموعة (بالتفصيل)، دار ميريت، ٢٠٠٨.

قريب يلاً بقى روقى كدة وما تشيليش هم ما حدِّش واخد منها حاجة خلى بالك من نفسك.

لا يعرفه الكثير لكن مدخل عمارته لديه كل الأسرار والعتبة تشهد على كل شىء

فاليوم يبدأ بحذاء جلدى صارم يليق برحلته القانونية فى أروقة المحاكم والظهر يجر وراءه العصر بينما هو يجلس سارحًا فى حديقة تتوسَّط الميدان المزدحم يلعن الحظ العاثر والضمير الغائب والرشاوى التى أصبحت من صميم شغله وفى لحظة ضيق يرمى بالملفات فى النيل ويخلع الحذاء متجهًا إلى أقرب مسجد.

-أنا بافكَّر ابقى مسيحى واعيش فى اسكندرية، فيها إيه يعنى.. دة حتى اسكندرية بلد جميلة وناسها جدعان.. دة الشباب فى المترو بيقوموا يقفوا عشان الناس الكبيرة تقعد عمرك شفت حد بيعمل كدة فى القاهرة؟

هكذا يقضى الساعات الحارة من اليوم حتى يأتى المساء وهو يداعب قطط الشارع ويغنى لأوراق الشجر ويلعن أحوال الفن المعاصر الذى لا يتسع سوى للعرى والأصوات القبيحة ثم يتقابل مع أصدقائه فى بارات وسط البلد ويسكر ليلعن للعالم مولد نجم جديد.

-لا أجد نفسى وسط الزجاجات الخضراء والموسيقى الصاخبة ومدعى الفن.

-نفسى أشتغل عندها إن شا الله لبِّيس يا سلام وآخد فى الشهر ١٠٠٠ جنيه كدة يالاً خلينا نعيش.

هكذا يتحدَّث فى المحمول الآخر أحيانًا ومع نفسه فى أغلب الوقت وهو

جالس على عتبة السلم للحظات حتى يهندم من نفسه ويمضغ حفنة البن ليخفى رائحة البيرة حتى لا تشمها هى وتتذره بكل ما يعرف

- أنا حاسافر العريش.

- أنا حاقدّم فى الكلية العسكرية.

- أنا داخل انام.

ثم يدخل حجرته ليرسم ويكتب ويرقص حتى مطلع الفجر هكذا يتأرجح يومه بين كل الاحتمالات. لعله مثل الكثير ممن لا يعرفون ماذا يريدون من الحياة. لكن رغبته فى أن يكون مثل الآخرين أفقدته احتمال أن يكون نفسه. هكذا يعيش العمر دون أن يعرف أحد حقًا، سوى عتبة السلم

الواعد

أمين ريان(*)

لم أجد بدًّا من صد زغلول عن قصده الأحمق، يصر أن ألتقى بصاحبته سلمى لأن العلاقات تأزمت بينهما منذ أسبوع.

تحاشيت ذلك اللقاء ثم اعتذرت، وأخيرًا قلت له بالأمس:

- أتحسب أنى بلغت أراذل العمر، وأنى لن أمد عينى إلى شابة - طالما تغنيت بحسنها وحنانها - مثل سلمى؟

وتجاهل الأحمق وعيدى، وطفق يعيد ويزيد فى مصدر الخلاف، ويسهب لى فى ببغائية مملة وتحليل سفسطائى عن الولاء المرحلى والولاء قبل المرحلى.

وتوقعت أن يكف الملوَّع بعد أن يصل إلى تباريح أمثاله - أى التباريح التى كانت فى الماضى تخص من نطلق عليهم الرومانسيين - وهى التباريح التى أمست بعد سقوط الحزب تباريح المنتمين واللامنتمين.

وسمعته فجأة ينوح، وهو يشعل لفافة جديدة:

- انفجرت بالأمس وحطمت شعار الزعيم، وجعلتها نوبة الهيستيريا تمزق الشعار الذى يزين حجرتى.. وتتوعَّد بحرق جميع التذكارات.

(*) أمين ريان (من مواليد ١٩٢٥)، من مجموعاته القصصية: (الموقع)، (النجيلى)، (زعتر وزحل)، (رباعية خيرى).

وتمالك أنفاسه اللاهثة وهو يشرد ببصره من خلال شباك المقهى إلى أعماق ليل الشتاء، ثم أجهش:

- تصور المجنونة تزعج والدتى فى منتصف الليل فتطّير صوابها.. تحذرها من محاولة إسعافها لأنها عزمت على الانتحار بعد أن أظهرت لها نذالتى.

- وما شأن والدتك؟

- لينحلع قلبها، إذ تقع دماء المجنونة على رأسها وليس رأسى فقط.

ورغم اضطرابى لما وصل إليه حال زغلول مع سلمى حاولت تهدئته، فقلت إنه من خير الواعدين، ولا يعقل أن يتصور أن تطوره يتوقف على مساعدة متقاعد مثلى زعزعت ثقته، وفاجأه التاريخ بما لم يخطر له على بال.

وإذا بزغلول يتضرع إلىّ كمن يتوسل إلى أحد المشعوذين، مما دفعنى إلى النفور من لوعته، والخجل من التعاليم التى كانت منهجنا فى أعداد أمثاله من الواعدين والواعدات.

وتملكتنى الحيرة عندما ارتفع صوت نواحه:

- إنك تضن علينا باللقاء وعهدنا بك مثالا فى التواصل والعطاء.

ولا أخفى عليك أننى وعدتها باللقاء إذ مهما تغيرت نظرتك للأمور، أو نذرت الاعتكاف والاعتزال فلن يضيرك أن تشفق بحائرين مثلنا، هم فى أشد الحاجة إلى مساندتك.. فى أشد الحاجة أن تشفق بنا إلى أن تباركنا إن شئت.

وهمست لنفسى: تباركنا!!! أحقًا هذا ما تلفظ به الزائغ؟

لم أصدق أذناى: إن الشقى أطلق الكلمة - ليس فقط - فى غفلة عن نفسه أو عنى، بل فى غفلة عن المرحلة كلها..

وألفيت نفسى أردد بين الهزو والرثاء:

- رحم الله أيام الثقة والانتماء.. أباركـكم!

- ومن يباركنى؟؟

لم يبال بنواحى، فقد طفق يتحدث عن المبالاة واللامبالاة الطبقية والإنسانية والأبوة التى لا تستغنى عنها الأجيال البارة فى أى مجتمع.

فإذا بى وقد انطلق لسانى أقول:

- إن ما بكما ليس إلا هزة عابرة أصابت جيلكم. غشية منشؤها الأضغاث التى تلوث هذا العصر.

وإذا به يستطرد:

- أمست سلوى تخجل من علاقتنا.. تظن أننا منبوذان طريدان، أسقط كل من أصاحبه فى الخزى والعار!!

- ربما وأنت سليل مضاربين من سادة عالم الاستغلال لم تستطع أن تتجاوز عالم الاستغلال، فإذا بك تنتكس إلى العادات والتقاليد المتوارثة.

- تقصد مغانم العائد والمردود؟

- طبعًا.. فلا شىء يسبب الإحباط فى مثل حالتكما إلا انتكاسكما إلى تلك المفاهيم والعادات التى تهدد التواصل.

- وكيف أبعد عن خواطرى أن الانتكاس ليس إلا وسوسة شيطان خبيث يتسلط علينا بسبب سحر خفى، عمل من أعمال المشعوذين الذين يكيدون لنا ليفرقوا بيننا؟

- ألم تهجر البُنيَّة أهلها وتنكرت لطبقتها، طبقة الحكام - من أجلك كما حيت لى؟؟

لا بد أن تكون جديرًا بثوريتها، وأن تعقد عليها العقد الذى تستمد منه مشروعية انتمائها إليك!!

وأردت أن أخفف من أزمة المسكين، فضربت له المثل ساخرًا بمن كنا نطلق عليهن المرحليات اللاتى وجدن فى انطلاق نظامنا ما يرضى أهواءهن مثل المدعوة "سميرة" اللعوب، التى كانت تمارس بلا حياء تعدد الأزواج، ومثل الشقراء الشهيرة التى بلغ صيتها الشأو بسبب تقلبها بين أحضان الغواة من المتقاعدين، ولكنى شعرت فجأة أن زغلول انصرف عنى وكأنه قد بلغ به السقم حدًّا لم يعد معه مباليًا بأى شيطان أو عمل خفى من أعمال المشعوذين الذين يكيدون للمحبين.

وأمسكت لسانى حتى لا أستثيره فيظن كلامى هو الوسوسة (أو الشعوذة) التى تتسلط عليه أو يتكشف فى شخصى ذلك الشيطان الخفى الذى يتسلط على ضحاياه بواسطة السحر والأعمال الخفية التى أضحت شعار المرحلة.

العوالم السفلى(*)

أمين يوسف غراب

عندما يقبل المساء، وتزدحم شوارع القاهرة الرئيسية بالعابرين وتمتلئ أرصفة شارعى سليمان وفؤاد بالفارغين من الناس الذين حرموا موارد الامتلاء، فراحوا يبحثون عنها فى وجوه بعضهم البعض، وفى عيون الحسان، وخلف زجاج الفترينات وألوان المرايا التى تصور لهم سرابهم البعيد ماء زلالا وجدولا عذبا تكاد تمتصه شفاههم الجافة، ويصوره لهم الجوع طعامًا شهيا تلعقه عيونهم النهمة ونظراتهم الظامئة، كما تصوره لهم أحاسيسهم تصويرا لذيذا لما يجب أن يكون، فيزيدهم هذا تمسكا بما هو كائن.

ويظلون كالقطيع يروحون ويجيئون ويلفون ويدورون حول الأمريكين، والإكسلسير ومامبو، كما يلف الثور المغمى فى الساقية يقطع آلاف الخطوات وهو فى مكانه، وينظر إلى الدنيا بأسرها ولكن من فوق قبة عينيه المعصوبتين.

فى هذا الوقت بالذات، وفى مغرب كل ليلة، يبدأ (أبو خطوة) عمله بعد أن يكون قد شرب قدحًا كبيرًا من القهوة السادة المزوجة بالأفيون، وتناول ساقه الخشبية وثبت تكأتها المبطنة باللباد تحت إبطه، ولف ذراعه عليها كما يلف الثعبان نفسه على فرع شجرة ميتة، وأمسك بأصابع هذه اليد نفسها ما

(*) نشرت فى مجلة "آخر ساعة"، العدد ١١٨٦، بتاريخ ١٩٥٧/٧/١٣.

أمين يوسف غراب (١٩١٢- ١٩٧٠)، من مجموعاته القصصية: (الضباب)، (هتاف الجماهير)، (نساء فى حياتى)، (امرأة العزيز)، (هذا النوع من النساء)، (يحدث فى الليل فقط).

يزيد على العشرين ورقة من أوراق اليانصيب القديمة التى مرت عليها شهور، بعد أن يكون قد لوثها، قبل أن يحملها بتراب الطباشير أو الحبر، وهو يمسك بها فى هذه اليد بالذات لأنه لا يملك يدا أخرى.

ذلك لأنه فقد ساقه اليسرى وذراعه اليمنى فى حادث سقوطه بين عجلات الترام، حينما كان يحاول نشل نقود أحد الريفيين منذ عشرين عامًا.

ويذهب أبو خطوة إلى منطقة نفوذه، وهى المنطقة التى يحددها غربا فندق الناسيونال، وتمتد شرقا إلى ناصية الأمريكين، وتنتهى عند نهاية مبنى محكمة القضاء العالى.. ويسقط أبو خطوة وسط هذا الزحام كما يسقط الحجر فى الخضم المتلاطم فلا تعرف له أثرا، ويروح يتفرس فى وجوه العابرين والذين يدورون فى الساقية ويقطعون آلاف الخطوات وهم فى مكانهم لا يبرحونه.

وكانت له قدرة عجيبة فى معرفة الناس من مجرد النظر إليهم، فهو بنظرة واحدة يستطيع أن يعرف إن كان هذا الأفندى ريفيا أم حضاريا. وإن كان هذا موظفا أم تاجرا، وهل هو زير نساء أم مدمن مخدرات. وهل هو ثرى يحمل نقودا أم مفلس يتظاهر بالثراء، وكان ذكاؤه خارقا فى سبر أغوار نفوسهم ومعرفة ألوان الطعام الذى يشتهونه، فيخاطب كلا منهم برائحة الشواء الذى يحبه، فعندما يشعر أن هذا الرجل "مثلا" يشتهى رائحة الأنثى، يقترب منه وكأنه يعرفه من زمن بعيد، ويهمس فى أذنه وهو يشير إلى رزمة أوراق اليانصيب التى فى يده ويقول:

- حاجة لوز.. ورقة.. ملبن.

فيجيبه زير النساء على الفور، مدركا بأحاسيسه كل شىء:

- بس اوعى تكون (دبة).

- فشر، وشرفك (غزالة).

ثم يضحك وهو يغمز له بعينه ويتمتم:

- والسحب الليلة.

- فين؟

- قدام الإسعاف.

- يعنى أنتظر؟

- ما تتحركش.. عيب!

ويتركه أبو خطوة، بعد أن يكون قد خط على كتفه أو ذراعه، دون أن يدرك، خطا أو أكثر بأوراق اليانصيب الملوثة بالطباشير.. ثم يغيب بقدمه الواحدة كما يغيب الدب فى الظلام، تاركا الرجل ينتظره. وهو مطمئن إلى أنه سينتظره حتى ولو يقضى الليل كله، ثم يروح يتفرس فى وجوه الآخرين، إلى أن يرى وجها تصطرع فى عينيه ثورة المراهقة، وتتقد على شفتيه قيلولة الظمأ، فيتسلل إليه يخاطب نفسه:

- آخر طبعة من باريس.

فيدرك الشاب على الفور، ويقول فرحا ناسيا نفسه:

- ورينى..

فيهمس أبو خطوة، وكأنه يهمس بأمر خطير:

- وطى صوتك ٦ أو ١٢ أو ٢٤.

فيقول الفتى فرحا:

- دبل..

- كله دبل. بقول لك آخر طبعة من باريس.

- فينطلق الفتى وكأن أحاسيسه هى التى تنطلق:

- ٢٤.

- حيلك.. ح تدفع ٣ جنيه.

ثم ينظر إلى الفتى، وإلى الأسى الذى ارتسم سريعا على عينيه ويقول:

- مع ذلك انتظر. سأرسل لك من يحملها.

ثم يتركه أبو خطوة فى مكانه مسمرا، ويغيب بقدمه الواحدة فى زحمة الناس. ويظل يسير حتى إذا ما اكتفى بصيد ثالث، ورأى عينيه مظلمتين محمرتين تشبهان عينيه هو تمامًا، بعد أن يشرب القهوة السادة الممزوجة بالأفيون، اقترب منه ودندن مغنيا وكأنه يطرب نفسه:

- إنت وبس اللى حبيبى.

فيفهم على الفور رجل المخدرات المدمن اصطلاح هذه الشفرة المتعارف عليها، ويحييه على الفور، وكأنه يحيى معه أحاسيسه المحترقة، وهو يبتسم ويتلفت حواليه هامسًا فى خوف:

- والعذال؟!

- نعكنن عليهم.

ثم يروح أبو خطوة فى ذكاء ولباقة يطمئن الرجل، حتى إذا ما اطمأن

تفاهم معه فى آخر ما ورد من بضاعة، وآخر ما وصلت إليه من جودة، وما تعرف عليه من اصطلاح، وكيف أن (ليه خليتنى أحبك) تختلف عن (دليلى احتار)، وكيف أن (والله ما انا سالى) تزيد فى الطرب عن (يا امَّة القمرع الباب) ثم بعد أن يتفاهم معه أبو خطوة على ما يريد يتركه على أنه سيرسل له صبيه بالبضاعة، دون أن يعقد معه أية صفقة. وأبو خطوة لا يعقد صفقات مع أحد ولا يأخذ شيئًا من أحد، وكل الذى يقوم به هو التعرف على شخصيات الزّبائن واكتشاف ميولهم، ثم يتركهم بعد ذلك لصبيانه يفعلون بهم ما يشاءون وهم يتعرفون عليهم من خطوط الطباشير التى يرسمها على أكتافهم أو ظهورهم.

وبعد أن ينتهى من جولته هذه التى لا تستغرق ساعة أو بعض ساعة كل ليلة، يذهب إلى ذلك المنحنى المظلم الذى يفصل بين محكمة القضاء العالى ونادى القضاة، حيث عصابته من الصبية والغلمان والفتيان والفتيات، وهى تتخذ لنفسها فى الظاهر صفة التسول أو بيع أوراق اليانصيب أو جمع أعقاب اللفائف.

وأبو خطوة يعرف أفراد عصابته معرفة جيدة. وقدرة كل منهم على امتصاص دم الفريسة. والصبى يعرف الفريسة على الفور ويدرك ميولها أيضًا من خطوط الطباشير التى خطها (المعلم). إذا كان خطًّا على الكتف فهو ينتظر آخر طبعة من باريس، وإذا كان الخط على الظهر، فهو ينتظر ذات الحسن، وأما البون الذى يتوسم فيه أبو خطوة الذكاء، ويعرف أنه صعب المراس، وليس من السهل القضاء عليه سريعا.. هذا الزبون يكلف به (زبدة) وهى فتاة رائعة الجمال، بدأت حياتها جامعة أعقاب فى عصابة أبو خطوة.

كانت وظيفة (زبدة) فى أول الأمر التلصص على رجال الشرطة وقت الإيقاع بالفريسة، ثم تخصصت بعد ذلك فى النشل، وقد برعت فى ذلك براعة فائقة. وكانت لها قدرة عجيبة على تجريد راكب أو راكبة السيارة من كل

شىء فى لحظات خاطفة، عندما يتعطل المرور وفى اللحظة التى تمد فيها يديها الجميلتين بعقد الفل داخل السيارة. وكان يساعدها على ذلك جمالها وفتنتها وأنوثتها الصارخة التى تفجرت وراحت من خلف الثوب البالى والسروال الممزق تشع نورا يخدر الزبون بمجرد النظر إليه.

ولما توسم فيها أبو خطوة هذه المهارة الفائقة وهذا الذكاء النادر، وخفة اليد التى لا نظير لها، ادخرها للصعب من الأمور، فإذا جاء هذا الصعب، وخرجت زبدة للقنص، خرجت مزودة بأسلحتها التى تعرف جيدًا كيف تستخدمها. فهى تحكم على جسدها الثوب الممزق، وتضع ثقوبه دائمًا فوق النقط التى تمزق الثوب من أجل إبرازها، فثقب على الكتف من أسفل بحيث يبرز ثنية الإبط لامعة باهرة تتشوق لها العين، وآخر فى مكان معين فوق الصدر، بحيث يكون متأرجحا لا هو فوق الثدى ولا هو فى منحدر، وإنما بين بين بحيث يستمد نوره دائمًا من مجرى القمتين، وآخر بجانب الخصر الأيمن، بحيث يجاور تمامًا فتحة الجيب، وهذا الثقب بالذات يضيق ويتسع حسب رغبتها هى، فإن أرادت أن تلقى طعما كثيرًا للقنص، بحيث توقعه فى الشباك سريعا ودون عناء، وضعت يدها فى جيبها وضغطت قليلاً فيتسع الثقب ويكشف عن ثنيات الخصر النزق المرن الذى تتموج بشرته الناصعة البيضاء وتتثنى مع همسات أنفاسها الدافئة التى تخدر بها أعصاب محدثها، ولذلك كان النجاح حليفها دائمًا، لأنها كانت تستطيع مطمئنة أن تفعل كل شىء وتأخذ كل شىء، والفريسة لاهية بالنظر إلى هذا الثقب أو ذاك، وكان أبو خطوة يعرف ذلك جيدًا، ولذلك كان لا يفرط فيها إلا إذا تأزمت الأمور.

وذات يوم تأزمت الأمور، واقترح (مطوة) و(شقرة) و(دبوس) و(شلفط) وهم فتيان أبو خطوة الذين لهم الرأى.. اقترحوا ضرورة خروج (زبدة) لهذا القنص،

والسفر خلفه إلى بنها للقضاء عليه هناك، لأن التجارب العديدة أثبتت أن صيده متعذر فى القاهرة. ووافق المعلم على الخطة التى وضعها شلفط ودبوس، وزود زبدة بتعاليمه، كما زود غيرها بتعاليمه أيضًا ثم تركهم كالكلاب المفترسة، كل يذهب إلى فريسته ويصنع بها ما يشاء، أما هو فإما أن يذهب إلى بعض الأحياء الأخرى كالسيدة، أو شبرا، أو العتبة، حيث يوجد بعض الزبائن والعملاء.. وإما أن يذهب إلى وكره فى حى معروف، حيث يكون (القط) وهو خادمه الخاص قد أعد له القهوة الممزوجة بالأفيون، وزجاجة الكونياك، ثم عشاءه المفضل المكون غالبًا من الفطير المحشو بالدجاج، وهناك تكون فى انتظاره إحدى محظياته.

ومحظيات أبو خطوة كثيرات ومعروفات وهن لسن من أتباعه أو أفراد عصابته، فهو دائمًا يفرق بين نفسه وعمله، ويعتقد أن الجمع بين الاثنين عمل لا تستقيم معه الأمور، ولذلك فمحظياته دائمًا من طبقة غير طبقته، ومن أحياء غير حيه أو منطقة نفوذه.. فهذه من السبتية وتلك من القللى، وثالثة من زينهم وهن معروفات لدى عصابته جميعًا، ولدى منافسيه أيضًا، ومع أنه كان يختارهن من صفوة الجميلات اللواتى تهفو إليهن العين ويتمناهن القلب، إلا أن أحدا كان لا يجرؤ حتى على مجرد التطلع إليهن، لأن من يفعل ذلك مصيره الموت بطريقة لا تتغير، وهى أن يغمد أبو خطوة سكينه التى يعلقها فى رقبته من عشرين عامًا فى صدره ببساطة، وكأنه يغمدها فى عنق دجاجة!

بيد أنه فى هذه الليلة لم يأمر القط، كالعادة، أن يهيئ له إحدى محظياته، وهو أيضًا لم يذهب إلى حى آخر من تلكم الأحياء التى اعتاد أن يطوف عليها من حين إلى آخر، وإنما شعر بشىء من القلق على (زبدة) التى سافرت من الصباح إلى بنها ولم تعد، كما أحس أيضًا بشىء من القلق على

(شلفط) الذى ذهب مع الزبون إلى امبابة ليجهز عليه هناك.. لكنه أمر القط أن يعد له العشاء فقط وزجاجة الكونياك، ريثما يجيء خلفه. وبعد حين كان يدق الأرض بقدمه الواحدة كالدب الأعرج فى الظلام، حتى بلغ حى معروف، ومن ثم تسلل إلى حارة درب النعناعية، وعرج منها على زقاق الزناتى، وهو زقاق ضيق مسدود من نهايته، يبدو فى الليل أشبه ما يكون بمخزن للظلام الأسود الكريه فلا تستطيع أن ترى قدمك، ولا ترى حتى الطريق الذى تسير عليه من كثرة الأوحال والمياه القذرة العفنة ذات الرائحة الكريهة. وظل يدق فى الظلام والليل بقدمه الواحدة حتى بلغ نهاية الزقاق، ومن ثم أسند جسده على الحائط، ومد يده الواحدة إلى الخيط المعلق فى رقبته ومنه تتدلى السكين ذات النصلين، تناول من جانبها مفتاحا حديديا كبيرًا وفتح بابا صغيرا، ثم دلف منه إلى دهليز مهجور كان فيما مضى طاحونة وأصبح الآن مأوى ووكرًا لأبى خطوة وعصابته، وبعد ذلك تسلل فى الظلام إلى سلم خشبى مرتكز على حائط الدهليز المهدم، وراح يصعده بمهارة فائقة. وما إن بلغ نهايته حتى أحس به القط ففتح له باب الوكر الذى يسكنه ويقضى فيه أسعد لياليه. وهو عبارة عن كشك من الخشب القديم الأسود، وضع به دولاب حديد كان أبو خطوة قد سرقه فيما مضى من مخلفات الجيش الإنجليزى، وأمامه على الأرض مرتبة من القطن ملوثة ببعض حروق من أعقاب السجاير وفحم الجوزة، وعليها بطانية من الصوف الخشن الأسود، ثم حول المرتبة امتلأت الأرض بزجاجات الخمر الفارغة، وأوراق "الحسن كيف" الفارغة أيضًا.

أما على الحائط، فوق المرتبة، فقد علقت جوزة وثلاث غابات وضعت على هيئة سيوف متعانقة، ثم طبلية أمام المرتبة من الخشب تآكلت أطرافها وشوهتها جمرات الفحم التى تركت آثارها السوداء عليها، أشبه ما تكون بآثار الجدرى

على الوجه.. ونزع أبو خطوة فردة حذائه الواحدة، وألقى بساقه على المرتبة، وهى جلسته المفضلة عندما يتناول عشاءه الشهى الذى يعده له القط. ثم أخذ يلتهم الطعام ويحتسى الخمر. وأمامه القط يأكل معه حينا، ويحتسى الخمر حينا آخر، ويشغل نفسه مرة بالنار التى يعدها للجوزة. كل ذلك وهما يتحدثان أحاديث متفرقة، تارة عن أفراد العصابة والمهام التى تلقى على بعضهم، وأخرى عن قلق المعلم الزائد على زبدة، وكيف أنها لو ضبطت أو فقدتها العصابة، تكون قد فقدت ركنا هاما يعتمد عليه، وتركت فراغا ليس من سبيل إلى ملئه، إلا أن يخرج أبو خطوة بنفسه من جديد للقنص، لأن هناك من الأمور ما لا يمكن أن يعتمد فيها على شلفط مثلاً، أو مطوة. وانتهز القط الحديث وشجعته الخمر التى لعبت برأسه على أن يتحدث إلى المعلم فيما لا يستطيع أن يتحدث به إليه وهو متمالك قواه، ومن ثم راح يحدثه عن غرامه بزبدة، وحبه الزائد لها، وكيف أنه لا ينام الليل من أجلها. وكأن هذا الحديث كان مفاجأة كبرى للمعلم لأنه التفت فى دهشة كبيرة وسأله:

- كيف.. أتضن عليك زبدة بجسدها؟

- أبدًا ولكنها تعطيه لى كما تعطيه لمطوة وشقرف وشلفط تمامًا.

- وما الفرق بينك وبينهم؟

- إننى خادمك.

فازدادت دهشته وقال:

- وهم، ما وظيفتهم إذن؟

فارتبك القط ولكنه قال:

- خدم لك. ولكنى أكثر منهم صلة بك. إننى أعد لك الطعام والشراب، وأحمل مفتاح بيتك، كما أحمل أيضًا أكثر أسرارك..

فصمت المعلم برهة ثم قال:

- وماذا قالت هى فى ذلك؟

- فى النهار تعدنى، وفى الليل أفتح عينى على الدهليز فأراها كالكرة، تتقاذفها أحضانهم جميعًا.

فأطبق أبو خطوة يده الواحدة على عنق الزجاجة التى أمامه ورفعها إلى ثغره وشرب منها طويلا، ثم أعادها إلى الطبلية وهو ينظر إلى القط بعينيه المحمرتين ويقول:

- والبنات الأخريات؟

- الذى يهمنى زبدة فقط.

فصمت أبو خطوة حينا. وبعد أن التهم ورك الدجاجة مسح على شفتيه الملوثتين وقال:

- وشقرف أيضًا يتقاذف معهم الكرة؟

- أجل.

- وأنت معه؟

فنكس القط رأسه وقال فى خجل:

- لقد حاولت أن أقطع ما بينى وبينه.

فضحك أبو خطوة حتى كاد يستلقى وقال:

- وانقطعت؟

فصمت القط ولم يجب، وضحك أبو خطوة مرة أخرى وهو يتناول الزجاجة التى فرغت ويقذفها ويتناول زجاجة أخرى، ثم أراد أن يقول شيئًا وهو يبعد عن وجهه بيده الواحدة أمواج الدخان الأسود الذى لفظته الجوزة والمصحمة وتكدس فى الكشك، بيد أنه سمع باب الدهليز يفتح ويدخل منه أ فراد العصابة بعد أن عادوا من جولاتهم، وراح شقرف وشلفط ومطوة ودبوس وبعض الغلمان يتسلقون السلم الخشبى فى الظلام أشبه بجرذان الليل، ثم دخلوا على المعلم وكره محيين فى أدب جم، واحترام زائد، وكل يتقدم خطوة ويضع أمامه فوق الطبلية ما ظفر به من غنيمته، حتى اكتظت الطبلية أمام المعلم ببعض النقود، وعدة أكياس مختلفة الأحجام، وثلاث ساعات ذهبية، وخمس نظارات ثمينة وعدة أقلام أمريكانى غالية.. إلا أن المعلم لم يلتفت إلى شىء من هذا كله، وإنما نظر إلى ساعة واحدة ورأى عقاربها وقال فى ضيق شديد:

- وزبدة.. ألم تحضر بعد؟

وقبل أن يتم كلمته كان الباب قد فتح فجأة ودخلت زبدة كما يدخل النور والإشراق، لكنها كانت مجهدة، لذلك ما إن دلفت إلى الكشك حتى ارتمت بجوار المعلم على المرتبة وهى تخرج من صدرها منديلا وتضعه أمامه على الطبلية، وقد جمعت أطرافه على حزمة أوراق كبيرة من النقد تزيد على الخمسين جنيها، ولم يكد المعلم يرى ذلك حتى تهللت أساريره وأطبق على الزجاجة من عنقها وأفرغ ما يقرب من نصفها فى جوفه. ثم مسح شفتيه وهو يهدر كما يهدر الحيوان الضخم، ونظر إلى زبدة التى ما زالت بجانبه على الفراش، وانحنى عليها ليقبلها وهو مخمور يترنح، فرأى شيئًا كأنه لم يره من قبل.. رأى ذلك الثقب الذى فوق الصدر يتأرجح ويستمد نوره القوى من القمتين

معًا، وكأن النور بهر عينيه فوقف عنده قليلاً، ولكنه فجأة وكأن شيئًا أفزعه أطبق على عنق الزجاجة ثانية، ولم يرفعها إلى ثغره كالعادة، وإنما قدمها إليها وأمرها فى عنف أن تشرب، ثم راح ينظر إليها وهى تشرب من الزجاجة، فلما دقق النظر رأى ثانية ذلك الثقب الذى فوق الصدر، ورآه فى هذه المرة كثقب صغير جدًّا فى نافذة يزدحم خلفها نور كثير، وكأنه اشتهى أن يرى النور كله، لأنه فجأة رفع يده الواحدة ومد أصابعه الخشنة المتحجرة إلى الثقب ثم هبط به إلى أسفل فانشق الثوب كله. وكانت هذه مفاجأة لزبدة. ومفاجأة أيضًا للجميع، وكانت فوق ذلك أمرا إليهم بالانصراف، فانصرفوا جميعًا، ومن خلفهم (القط) الذى حرص قبل أن ينصرف أن يغلق الباب عليهما.

ونظر أبو خطوة، وهو متكور فى مكانه بساقه الواحدة، كما يتكوَّر الكلب الأجرب على الأرض.. نظر إلى القوام الفارع الذى أمامه. ولم تخف زبدة ولم تضطرب، وإنما غمرتها فرحة كبيرة وهى واقعة أمامه على الأرض، وقد غرقت أقدامها بين الزجاجات الفارغة المكدسة حولها، تمامًا كما غرق جسدها فى الدخان المتراكم فى قلب الغرفة، فغدت فيه وهى عارية، أشبه بغانية من غانيات الأساطير تسبح قبيل الفجر وراء الغمام. وقالت ضاحكة:

- ماذا تريد؟

فقال وهو يئن أشبه ما يكون بحيوان مذبوح:

- أريدك.

- الليلة فقط؟

- كل ليلة.

- إذن سأكون محظيتك.

- والمفضلة عليهن جميعًا.

ثم مد يده الواحدة، وهو يلهث كالثور، وأنشب أظافره الخشنة المدببة فى شعرها، وأمرها أن تأتى له بزجاجة ثالثة. فنهضت متخاذلة وقدمت له الزجاجة فراح يشرب وهو ينظر إلى عينيها وصدرها فرحا ويقول:

- حدثينى إذن. ماذا فعلت فى بنها اليوم. وكيف أوقعت فريستك فى الشرك.

فقالت مبتهجة وذراعها ما زالت على كتفه:

- أهم شىء فعلته فى بنها هو أننى زرت قبر أمى.

فقال فى دهشة وهو يجاهد نفسه ليفتح عينيه اللتين بلون الدم:

- أمن بنها أنت؟

فقالت ضاحكة:

- يقولون ذلك.

- إذن نحن من بلدة واحدة. أنا أيضًا من بنها.

- كلها بلاد الله.

فقال، ولكن بعد حين، وهو ينظر إليها وسط الدخان المتكاثف. وكأنه ينظر إلى خيالات تتراقص أمام عينيه من بعيد:

- وكانت لك أم؟

فضحكت حتى استلقت وهى تقول:

- وهل هناك من لا أم له؟

- هؤلاء جميعًا الذين تعيشين فى وسطهم لا أم لهم ولا أب أيضًا.

ثم مسح على شفتيه واستطرد ولكن دون أن ينظر إليها:

- ولذلك يسمونهم بأبناء السبيل..

فقالت وهى تتناول الثوب المشقوق، وتضعه على جسدها العارى:

- ليتنى كنت كذلك.

- أعذبتك أمك؟

- لم أرها...

- ماتت وأنت طفلة؟

- ماتت وعندى عشر سنين.

- وكيف إذن لم تريها؟

- ولدتنى وهى فى السجن، وماتت وهى فى السجن أيضًا.

فقال مفكرا فى صمت، كمن تذكر شيئًا بعيدًا. وكأنه يخاطب نفسه:

- فى السجن؟

- أجل.

- لماذا؟

فقالت دون اكتراث، وهى تضع طرف الثوب على فخذها التى ما زالت عارية:

- يقولون إنها قتلت أبى.

فأحس فجأة كأن شيئًا مخيفا يقترب منه، وكأنه يطبق بأنيابه على قلبه فاضطرب وجحظت عيناه جحوظا مخيفا وهو يصرخ فى وجهها:

- ما هو اسم أمك؟

فلم تجب، لأنها صمدت فى مكانها خائفة تنظر إليه، فغرس أظافر يده الواحدة المدببة سريعا فى ذراعها العارية، وهو يصرخ ثانية كالمجنون:

- قولى ما اسم أمك؟

فتمتمت خائفة ترتعش، وهى تنظر إلى عينيه الجاحظتين، وشعرات رأسه التى تصلبت فوق جبهته كالحراب تماما:

- ماذا أخافك؟

فصرخ وهو يطبق على عنق الزجاجة ويريد أن ينهال بها على رأسها:

- قلت ما اسم أمك؟

فقالت سريعا وكأنها لا تدرى ما تقول:

- اسمها مازنة حسنين.

فتخاذلت ذراعه وسقطت الزجاجة من يده وهو يغمض عينيه رويدا ويرتمى فى مكانه ناشبا أظافره فى الحشية القذرة الملوثة التى دفن وجهه فيها وهو يتلوى فى ألم شديد ويتمتم بصوت مبحوح مختنق أشبه بفحيح الأفعى:

- إنها أمى.. إنها أمى.

فانفرجت شفتاها المرتعشتان عن صرخة مكتومة وهى تنظر إليه:

أمك.. أمك.

فلم يجب وإنما فتح عينيه فانفرطت منهما الدموع غزيرة جدًا وظل يبكى والدموع تنهمر. كل ذلك وهو ينظر إلى أشياء كثيرة لا يرى منها شيئًا ، ويتمتم بألفاظ مضطربة متقطعة.. لا يعرف لها معنى.. شقرف.. مطوة.. ويروح ينظر إلى الجوزة ودخانها الذى تمتلئ به الغرفة.. الزجاجات الفارغة المكدسة أمامه على الأرض.. الطبلية وما عليها من أشياء غالية.. ساعات ذهبية.. ثمينة.. أقلام حبر كثيرة.. نقود متعددة القيم والأحجام. منديل جميل ضمت أطرافه على رزمة كبيرة من أوراق النقد تزيد على الخمسين جنيها ، ثم رأى ثقبا صغيرا على صدر جميل يرسل نورا باهرا ، ثم الأصابع الخشنة التى مزقت الثقب وهبطت به إلى أسفل، ثم رن فى أذنه حديث قصير، قصير جدًا. بنها.. السجن.. مازنة حسنين.. الزوج الذى قتل.. الابنة التى ضلت.. الأخت التى ذلت.. الأخ الذى..

وفجأة جحظت عيناه مرة أخرى. وراحت نظراته فى جنون غريب تعربد بكل شىء.. الجسد العارى الذى أمامه. الحشية الملوثة التى يجلس عليها.. الزجاجات الفارغة التى حوله.. ساقه الخشبية الملقاة هناك.. الدخان الذى يكتم أنفاسه.. ثم رأى مع ذلك كله شيئًا لم يكن قد رآه، مع أنه طول العمر يحمله على صدره، فطرب سريعا لرؤيته حتى لكأنه يراه لأول مرة، وأطبق عليه أصابع يده الواحدة سريعا ، وفى عنف شديد حتى لا يفلت منه، وفجأة أيضًا وفى نفس السرعة وبنفس الضعف الشديد أغمد الخنجر فى صدره وارتمى عليه بجسده الثقيل حتى تساعده قواه جميعًا على الوصول به أيضًا إلى المكان الذى يريد ، ورأت هى ذلك، وأرعبتها رؤية الدم الذى انبثق من صدره على الحشية كالرقعة الحمراء، فانفرجت شفتاها عن صرخة مدوية قفزت على أثرها الجماعة التى تنام فى الدهليز، وتسلقت السلم سريعا كالجرذان الهلعة، وفتحت الباب وازدحم الكشك بالجميع. شقرف.. ومطوة.. والقط.. وشلفط.. ودبوس.. وأم سنة.. وكيداهم.. وما إن رأوا ما رأوا حتى وقفوا ذاهلين، ينظرون

إلى المعلم والسكين التى فى صدره، والدم الذى يتفجر منه ويسيل دافئا تحت أرجلهم، ثم ينظرون إلى زبدة وقد وقفت عارية كتمثال من الحجر.

وفتح أبو خطوة عينيه، ونظر إليهم جميعًا، وإلى الخنجر الذى فى صدره، والدم الذى يتفجر من حواليه، ثم إلى زبدة وتمتم وكأنه يلفظ مع بعض الكلات أنفاسه أيضا:

- أتعرفون.. زبدة.. زبدة التى كانت محظيتى هذه الليلة..

وأراد أن يقول شيئًا آخر، بيد أن زبدة لم تجعله يتمم، إذ انقضت عليه سريعا مريدة السحنة كما تنقض الصاعقة تمامًا، وفى سرعة خارقة سحبت الخنجر من صدره وأغمدته فى عنقه، وقالت وهى تجهز عليه قبل أن يلفظ السر الكبير:

- لقد أراد بى سوءا فقتلته.

ثم أطبقت ذاهلة عن كل شىء إلا العنق الذى ما زال فى يدها تجهز عليه، وتجتثه من جذوره لتجتث معه سرها.

ومنذ تلك الليلة التى ذهبت فيها زبدة إلى السجن حتى اليوم، وشلفط.. ومطوة.. وشقرف.. ودبوس.. والقط.. يتساءلون فيما بينهم عن هذا السوء الذى كان المعلم يريده بها!

عهد الهوى

أمينة زيدان(*)

رفعت القميص من على الشماعة، وضعته على جسدها وثبتته بأصابعها عند الكتفين ووقفت أمام المرآة

- لى زمن طويل لم أنظر لنفسى أين كنت طوال الوقت؟

تجاهلت الموضوع ورفعته أمام عينيها وتأملته.

- بقع أحمر شفاه وخطوط كحل أسود وأزرق وظلال لدموع وقبلات ولا أجرؤ على غسله.

شمته بقوة، وعادت تشمه، شعرت باليأس فكومته ورمته على السرير، تدلى الذراعان من طرفه، سحبت الابتسامة الخفيفة من على وجهها وأرادت أن تغسل عيناها، فلم تقدر على البكاء.

- أليس هناك احتمال؟ بأن يكون صادقًا فى اعترافه بأنه شيطان مجنون هربان. ألم تكن تصرفاته غريبة؟ ولكن هل الشياطين تأكل الفول والعدس والخضر وترتدى قمصانًا فضفاضة؟

فى المرة الأولى التى رأته فيها، أعجبها قميصه وبقيت طوال الوقت متعلقة بوجهه وبالضى المنعكس من اللون الأبيض المفروش بأرضية زهرية، مرت بها الأيام ووجدت أسبابًا أخرى تجذبها إلى إبقاء عينيها معلقتين

(*) من مجموعاتها القصصية: (حدث سرا)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٥.

بوجهه وبنفس الطريقة ومن غير أن يرتديه.

نسيت أمر القميص وباتت تبتسم لا إراديًا كلما تذكرت واحدة من الغوايات وتصعد العبرات الى عينيها حين تتذكره، وهو يتجاهلها ويصنع شقوقًا طولية بروحها سرعان ما تلتئم باتصال هاتفى وسرعان ما تعاود الابتسام.

- ثم لم يعد بمقدورى تحمل هذا النوع من الهجر فأصبحت أقسو على نفسى حين تتوق لرؤيته والتعارك معه ذلك العراك الذى لا أستطيع أن أبدأه بسبب ضيق الوقت.

فى المرة الثانية بدت وكأنها فوجئت بالقميص، وكانت تتذكر جيدًا فرحتها السابقة، حين فاجأها وسار معها الطريق كله إلى البيت.

كانت تتأمل ظهر كفه الأيمن، ترددت كثيرًا قبل أن تقول:

- قرِّب يدك

قالت ولما فعل ألصقت كفها بكفه وأشارت للعروق الزرقاء البارزة بظهر الكفين وقالت:

- انظر لديك رسم بالشرايين لنهر النيل ولدى نفس النهر.

- الكل لديه هذا النهر.

قال وابتسم وتنهدت هى وفكرت بأن أجمل ما فى السفر الرجوع وأن الفرحة الكبرى فى لقاء الأحباب، فضغطت قليلاً على نقطة التقاء البحرين بظهر كفه وسحبت يديها بسرعة وغابت فى مشهد الأفق وأضواء العواميد وتمتمت...

- يتركونها مضاءة بالنهار ويطفئونها بالليل.

- ماذا قلت؟

- العواميد.

- ماذا بها؟

- ستعرف لما يحل الظلام.

- أظن أننى سأعود قبل الليل.

- أتعرف ما أرغب فيه بشدة الآن؟ فكرت أن تسأل ولكنها فقط نظرت اليه وهما يمران بسور من السلك الشائك يحيط بأشجار منزوعة الأعناق.

ودعته وكأنها تخرج عنوة من حلم وصفته بأنه لذيذ

- فى المرة الثالثة رأيته يرتدى نفس القميص الذى حلا لى أن أسميه قميص يوسف التاريخى، (وبما أننى من النوع الذى يعيش بفطرته إلى حد ما) فقد بدأت الكلام من جديد بنفس الطريقة وكأننى أحادثه بداخل حلم اختلقته.

فكانت ابتسامته وكان صوته وكان ذلك البريق يتألق بعينيه موحيا بأنه يخفى هوى فى قلبه. فقلت امنحنى رهنًا فخلع قميصه وبان ذراعاه وصدره يشبه بسطة حجرية تتوهج بالشمس...

كان الصبح يرقص بفرح وهو يغادر بغير قميص وبدون أن أقول ما احتجت قوله أو يقول، يتركنى منطلقًا بسيارته التى بدت جيدة كفاية لرحلته.

دارت بالغرفـة كالمغيبـة تبتسـم لأغنيـة تـزور ذاكرتهـا وكانـت تحتضن وسادة.

أما أنا مهما جرى تن تن حافضل أصون عهد الهوى وان غبت يوم ولا سنة وراها سنة وسنتين وثلاث

- بقيت كما أنا عند تلك اللحظة الغواية، الوعد المريب بأنه سيعود قبل حلول الليل ليسترد قميصه.

زينة الحياة

أهداف سويف(*)

أقف فى نافذتى أرقب الطريق المدق من الحجر الأبيض، يحدوه جدار أبيض منخفض، ولكنه بعد، يحجب عنى رؤية ما وراءه فى وقفتى هنا، رمال بيضاء تتحرك بطيئا على الطريق الأبيض. كنت أتبع بنظرى نسقا منتظما فى حركتها، أشكالا تتغير وتنمو بين حمرة الغروب فى يوم وزرقة الفجر الباهتة فى اليوم التالى. وكنت، إذ أقطع الطريق، أسير على أطراف أصابعى، لا يكاد باطن قدمى يلمس الفراغات المستوية، التى تومض بيضاء بين تراكمات الرمل، وقد خيل إلى أن أشكال الرمال على الحجر يجب أن تترك للطبيعة، وحدها فلا أريد أن تغير ذرة رمل واحدة مسارها بسببى. ماذا يفيدنى أن أحاول تفسير شكل كانت لى يد فى تنسيقه؟ الطريق أمامى، وبعده يمتد الشاطئ، وبعد ذلك البحر.

أيامى

فى السنوات الأولى كنت أجلس على الحافة حيث تدفقت أمواج البحر وتدفقت، تنساب حروفها البيضاء المزبدة تقضم الرمل، برفق، ثم تنحسر، مخلفة أهلة واسعة من الرمال المبتلة، أعمق لونا، وقد انقلب اصفرارها إلى البنى الفاتح.

(*) أهداف سويف (من مواليد ١٩٥٠)، من مجموعاتها القصصية (زينة الحياة)، دار الهلال، القاهرة.

كنت أعمد إلى الجلوس فى حدود واحد من تلك الأقواس، فى المنتصف بالضبط، أجلس وكأنى فى مركب، وأنتظر، وقد تلامس الموجة قدمى، وقد تحيط بى متدفقة وتغطينى حتى خصرى، ثم تنحسر، ساحبة طبقة من الرمال من تحتى، وأنا جالسة أرقب الماء يختفى تدريجيا من حفرتين يرتاح فيهما كعباى، وخفيفا كظل سحابة عابرة، ينزلق هلال الرمل الذى أعتليه فى إثر الموجة التى كونته، فلا يلبث أن تجتاحه وتغمره الوثبة التالية من البياض المزبد.

أسند ظهرى إلى جدار الغرفة وأعد السنين: اثنتا عشرة سنة مضت منذ التقيت به، ثمانى سنوات منذ تزوجته، ومن ست سنوات أنجبت ابنته.

فى كل صيف طوال ثمانى سنوات نحضر هنا، إلى بيت المصيف على الساحل غرب الإسكندرية، فى الصيف الأول لم يكن هناك مجال للتأمل: كان همى منصرفا إلى حب زوجى هنا – فى مكان جديد على. عشقته وهو يخطو صوب مظلتى نافضا الماء عن شعره الأسود، وقدماه تغوصان فى الرمل الناعم المضياف، عشقته وهو يحمل ابن أخيه على كتفه وينزل إلى البحر، يلقى به فى اللجة ليلتقطه من جديد.. عملاق يخوض عباب الموج، أحببته وهو يلعب الطاولة مع أبيه فى العشية، وقرقعة الفيش وخشخشة الزهر تتعالى فى أرجاء الفناء، وأنا أجلس مع أخته إلى طاولة السفرة تعلمنى كيف أخط أحرف لغتهم الدائرية الزخرفية. أحببت هذا الـ"هو" الجديد – الذى سبق الإيحاء به ولكنه لم يتكشف أبدًا ونحن نعيش فى بلادى الشمالية – وقد عاد إلى قلب بلاده بعد غياب طويل، وأتى بى معه. كنا ساعة الغروب، نسير على امتداد حافة المياه، نركل رذاذ الماء المتطاير، وقبعتى الشمسية مرخاة على ظهرى ويدى، التى أصبحت برونزية فى يده السمراء، ومن المؤكد أن تعبيرات وجهى كانت تعكس تعبيرات وجهه: زوجان شابان يتقدان عافية وحبا، يصلحان لإعلانات

شركات التأمين على الحياة أو شركات السياحة تدعوك إلى إجازة قصيرة فى بلاد مشمسة.

صيفى الثانى هنا كان الصيف السادس فى عمر حبنا، والأخير فى عمر سعادتنا، كنت حاملاً فى طفلتى وأعشق أباها. أجلس على الشاطئ وأطلق العنان لأفكارى، أذكر حياتنا فى بلدى قبل أن نتزوج: أربع سنوات فى الشقة الصغيرة التى أضيفت كيفما اتفق على سطح بيت قديم، فى ساحة من الطراز الجورجى. يلقانى فى موقف الباص عند عودتى من العمل فى أيام الآحاد – إذا لم تمطر – نجلس فى الحديقة حاملين جرائدنا. سهراتنا المتأخرة فى صالات السينما. فكرت فى هذه الأشياء وافتقدتها، ولكن دونما إحساس عارم بالفقد. وكأنها باقية ماثلة، تنتظر أن نستدعيها ونحياها من جديد، متى شئنا.

كنت أمد بصرى إلى البحر. وأدرك اليوم أننى كنت أحاول أن أتبين الروابط بين الأشياء، فكرت مليا فى الماء والرمل وأنا جالسة أرقبهما يلتقيان ويتغازلان ويتلامسان، وأحاول أن أتمثل أننى على الحافة، حافة إفريقيا ذاتها، وأن اتساع البحر المقابل لا يقارين البتة بما قيوم ورائى. عجزت بصيرتى عن إدراك عالم ليس حاضرا أمام عينى، رغم أننى توغلت فى القارة، وعاينت بنفسى المساحات الشاسعة من الأخضر المغبر اللانهائى، والجبال، والسماء الواسعة، لكننى لم أكن أرى إلا الشاطئ والأمواج والزرقة، وعبر ذلك كله طفلتى.

كنت أجلس ويدى على بطنى، أنتظر حركتها: الانفجارات المتناهية الصغر، والرفرفات التى تدلنى على مكان رقودها وعلى مزاجها، وتدريجيًّا أخذنا نتحاور، كانت تكور جسدها وتكمن بصلابة فى إحدى زوايا جسدى حتى أنكفئ فى وضعى غير المريح أحثها وأنخسها لتعود إلى موقع ألطف. كنت

أدلك زاوية ما من بطنى بتؤدة، وإذا بخبطة خفيفة تسرى مباشرة نحو يدى، أنقر أنا، وتخبط هى من جديد. كنت فى التاسعة والعشرين. انتظر بدنى سبعة عشر عامًا لكى يعلق بالحمل، وها هما قلبى وعقلى يجاريانه- الطبيعة فعلت فعلها على نحو مثير للإعجاب، فرغبتى فى الطفلة نبعت من عشقى لأبيها — وكم كنت غارقة فى حبه ذلك الصيف، جسدى لا يشبع من الأب، وطفلته آمنة فى داخلى.

من موقفى هنا لا أرى سوى البياض الجاف الصلب. الوهج الأبيض، والجدار الأبيض، والطريق الأبيض يضيق فى البعيد.

كان علىَّ أن أغادر، لم تعد الفكرة تلسعنى، أضحت معتادة رتيبة، كان علىَّ أن أغادر فى فورة ذلك الغضب الحائر المجروح حين أحسست للمرة الأولى أنه ينسحب بعيدًا عنى.. كان يجب أن أذهب. كان علىَّ أن أستدير وأحمل طفلتى، وأغادر — أستدير — الحجرة تسبح فى ظل خفيف، شيش النافذة مغلق يحجب الشمس الساطعة. يطلقون على المصراع الخشبى اسم "الشيش" يقولون إنها كلمة فارسية تعنى "زجاج" الشىء الملاصق لشىء آخر يتسمى باسمه. تراودنى هذه الفكرة مرارا، وأشعر أنها ستقودنى إلى شىء ما وسأخلص إلى نتيجة منها، ولكنى لم أفعل بعد.

أمر بإصبعى على فتحة من فتحات الشيش، هنا وفى المدينة تقوم أم صابر، مربية زوجى، بكل أعمال المنزل. فى البدء حاولت أن أساعدها على الأقل، ولكنها كانت تهرع نحوى وتسحب منفضة الغبار أو المكنسة الكهربائية من يدى قائلة: عيب، عيب. أمال أنا باعمل إيه؟ خلى إيديكى حلوة وناعمة. روحى استريحى أو روحى النادى. مالك ومال الحاجات دى؟ كان زوجى يترجم ذلك كله، ثم يقول لها كلاما فهمت فيما بعد أنه يطمئنها أننى قريبا ما

سأعتاد على أسلوب حياتهم. وكنت إذا خططت وجبة طعام لا تفلح، وأم صابر تطبخ أفضل ما يتوفر فى السوق ذلك اليوم، وإذا نزلت إلى السوق ضاعف الباعة أسعارهم. وأنا الآن أقوم بتنسيق الزهور وتمليس الثنيات فى الستائر، وأتصدر المائدة فى الولائم التى نقيمها.

سريرى مرتب. فراشى العريض الذى تلقى لوسى بنفسها فيه فى منتصف كل ليلة، حين تتسلل نصف نائمة تحت الناموسية، تلتصق بى، فأحضنها بذراعى إلى أن تدفعه بعيدًا عنها. تستخدمنى أثناء نومها، فصدى وسادتها حينا، وفخذى مسند قدمها. أما أنا فأرقد راضية، سعيدة باستخدامها لى. أمسك قدمها بيدى، وأقبلها، وأفكر فى المستقبل القريب عندما يصبح من غير المقبول أن أقبل القدم البضة.

ذات مرة، منذ سنوات عديدة، وقفت أنظر إلى امرأة باكستانية نائمة على أريكة من الجلد الأسود، فى صالة ترانزيت فى أحد المطارات، كان ثوبها وبنطالها من حرير أصفر زاه، والثوب موشح بأزهار يانعة من البنفسجى والأخضر، الأساور الذهبية تغطى ذراعيها، أقراط من ذهب فى أذنيها وفى منخارها الأيسر، وعقد ذهبى يطوق جيدها. طفلها الصغير ملتصق بجسدها، إحدى قدميه محشورة بين ركبتيها، وأنفها مدسوس فى شعره. كان أثمن ما تملكه فى الدنيا معها على تلك الأريكة كاملا غير منقوص، ولذا استسلمت إلى نوم عميق. هذه الصورة خزنتها له فى ذاكرتى.

رتبت سريرى هذا الصباح، بسطت ذراعى بعيدًا ولملمت الناموسية الناعمة المنتفخة، طويتها على شكل لفة سميكة. وعقدت طرفها ليتدلى بأناقة فى الهواء فوق الفراش.

قبل تسع سنوات حين جلست تحت ناموسية للمرة الأولى كتبت: "الآن أعرف ما تحسه المرأة الأوربية فى المستعمرات". كان ذلك فى كانو، فى قلب القارة التى أجلس على حافتها الآن. كانت ثلاث سنوات قد مرت على بداية حبنا، وكان تباعدنا آنذاك مجرد تنويع لحضورنا معًا، كنا إذا افترقنا ظل افتقاد كل للآخر ينهش قلبينا، ونقول إن هذا يؤكد توحدنا الحقيقى الجوهرى، افترقنا فى مطار هيثرو على أن نلتقى بعد أسبوعين فى القاهرة لأقابل أهله للمرة الأولى.

فكرت فى كتابة قصة عن هذين الأسبوعين، عن رحلتى الأولى إلى إفريقيا، عن محمد السنوسى وهو يحدثنى بأدب جم عن المكانة الأدنى للنساء. كان مهذبا لأننى امرأة أجنبية، أوربية، جئت فى مهمة عمل، فيمكن أن أعامل كـ "رجل فخرى" فكرت فى كتابة قصة عن الطريق الطويل المستقيم فى السفر إلى مايدوغورى، والتوقف عند استراحات من الأكواخ لمضغ اللحم الذى كنت كثيرًا ما أبتلعه صحيحا. والسنوسى يحدثنى عن اللحم فى أوربا وكيف يذوب فى الفم مثل الأرز باللبن فلا قوام له. أكتب قصة الأسد الذى لمحته بين الأعشاب الطويلة فطلبت من السائق أن يتوقف وقفزت من السيارة وصوبت آلة التصوير والتقطت صورة له وهو رابض.

وحين عدت إلى السيارة كان السائق يستجمع قواه بعد أندب الرعب فى أوصاله، وأكد لى أن الأسد كان يستعد للانقضاض على. ما زلت أحتفظ بالصورة. لقطة قريبة لأسد رابض وسط أعشاب طويلة. أتطلع إلى الصورة ولا أستطيع أن أصدق ما كان يمكن أن يحدث.

ولم أكتب القصة رغم احتفاظى بما دونته من ملاحظات. هنا، فى هذه المحفظة الجلدية التى أستخرجها من درج خزانتى، قصتى الإفريقية. رويتها له

بدل كتابتها، وكنا نجلس على مائدة مضاءة بالشموع فى مطعم فى القاهرة، فقبل يدى وقال "أنا مجنون بك" كان النيل يتدفق أسفل النوافذ العالية وكانت "إلى الأبد" على شفاهنا، فى أعيننا... تزوجته، وكنت سعيدة.

أتصفح مادونته من ملاحظات، كل واحدة تنطوى على تعليق، وعلى وصف هو المقصود به، أفكارى جميعها كانت تدور حوله. أما هو فكتب يقول إنه فى المطار عاد ليبحث عنى بعد أن مضيت، ليضمنى ويخبرنى بما يشعر به من وحشة. ولم يصدق أننى لست معه لتهدئة مشاعره، وكتب يصف نبرة صوتى على الهاتف، والثنية التى فى أعلى ذراعى، وقال إنه يعشق تقبيلها.

ماذا يمكن أن أكتب؟ أجلس بمذكراتى إلى المكتب وأنتظر لوسى. المفروض أنى نائمة. هذا ما يعتقدون، هذا ما نتظاهر به: إنى أنام حتى تمضى ساعات الحر الشديد فى منتصف النهار. ولوسى هناك فى الخارج على الشاطئ وقرب حمام السباحة ولا تحتاجنى. معها أبوها، وعمها وعمتاها، وأبناؤها الخمسة.. وفرة من رفقاء اللعب والحماة.. وأم صابر تجلس هناك صابرة يقظة فى جلبابها وطرحتها السوداء، وبجانبها الكراسى محملة بالمناشف، وزيوت الوقاية من الشمس، والقبعات العريضة، والشطائر، والمشروبات المثلجة المعبأة فى برادات الترموس.

أتطلع وأراقب وأنتظر لوسى.

فى سوق كادونا فى نيجيريا كانت الذبائح المرقشة الحمراء مصفوفة على منصات خشبية تظللها مظلات رمادية من البلاستيك – فى البداية رأيت اللحم، الذباب يتدافع ويحط عليه، ثم رأيت الجوارح فوق ألواح البلاستيك الرمادية، كانت تقف على الحرف كما تفعل العصافير الصغيرة فى ساحة

سوق إنجليزى، ولكنها ثقيلة وساكنة وصامتة. كانت تربض بهدوء بارد، لا يطرف لها جفن، والشمس الحارقة تلهب رءوسها الصلعاء، اجتاحنى خوف تبين لى فى لحظتها أنه فى غير محله، وأن الجميع يعرفون بوجود هذه الطيور ويواصلون عملهم كالمعتاد، وأن وجود الجوارح مشهد مألوف فى سوق الجزارة فى كادونا.

حرارة الشمس تنفذ فى مسام المنزل. أفتح باب غرفتى وأخطو خارجة إلى الصالة الصامتة، فى الحمام أقف داخل حوض الدوش وأفتح الصنبور ليتطاير الماء البارد فوق قدمى. أحشر ذيل تنورتى بين ساقى وأنحنى لأضع يدى ورسغى تحت الماء، أضغط بكفى المبللة بالماء البارد على وجهى وأتخيل صورة سقوف إردوازية رمادية مبللة بالمطر، أسترجع صور الأشجار. أشجار تحدث حفيفا فى حركة الرياح، ثم تسقط أوراقها رشات عذبة من قطرات الماء بعد أن يتوقف المطر.

أسير بخطى خافتة على قدمين مبللتين تجفان عند وصولى إلى المطبخ فى نهاية الممر الطويل، أفتح الثلاجة وأرى قطع الضأن متبلة فى صينية معدنية واسعة، استعدادا لشواء الليلة. جبل من العنب الأصفر يرشح فى مصفاة، أتناول عنقودا فى طبق صغير أبيض. أم صابر تغسل جميع أنواع الفواكه والخضار مستخدمة محلول البرمنجنات الأحمر. وقاية لى أنا فإن لوسى لا تكف عن قضم الخيار والجزر من سلة الخضر مباشرة. ولكنها ولدت هنا، وهى تنتمى لهم الآن. لو أننى أخذتها وذهبت حين كانت فى شهرها الثامن لانتمت إلى. أسكب الماء المعدنى البارد فى كوب طويل وأغلق الثلاجة.

أخطو عائدة عبر الممر، مارة بغرفة أم صابر، بغرفته هو، وبغرفة لوسى. وحين أدلف إلى غرفتى أقف أمام النافذة من جديد، وأتطلع من شقوق الشيش

إلى البياض الذى يبدو الآن وكأنه فقد حدة إشعاعه. لو انتقلت إلى النافذة الواقعة فى الجدار المقابل، لرأيت العشب الأخضر تحيطه أجنحة ألبيت الثلاثة، ورشاش الماء يدور فى وسط الحديقة، يدور بلا توقف.

أدير المروحة فيهب الهواء على شعرى ويلف على وجهى ويبعثر أوراقى. أرجع على الأرض وأجمعها، الورقة الأولى: "تنجى يجلس إلى مكتبه برصانة، وأسنانه الكبيرة مصبوغة بلون الكولا. قرب يده اليمنى جرس دراجة يقرعه كلما أراد استدعاء الساعى" مذكرة أخرى: "يجب أن يصف عنوان القصة الأشياء الثلاثة التى نتوقف بسببها على الطريق: البول، والبنزين، وباب الصلاة" تلك كانت أيامًا خالية، ولم تكن النكات التى أرويها مريرة.

أستلقى على السرير. هذه الوسائد الأربع من إضافاتى، فهم هنا يستخدمون وسادة واحدة طويلة وعليها وسادتان صغيرتان. بياضات السرير تأتى فى أطقم، وعلى فراشى دائمًا وسادتان فى غلافين بسيطين، ووسادتان مطرزتان بما يتلاءم مع بقية الطقم مع الملاءات. وفى جانب من الشيفونيرة أحتفظ بأكياس الوسائد الطويلة المركزة، وحين أخرجها وأتأملها، أجد زهورها يانعة وزاهية وجديدة.

أرفع عنقود العنب فوق وجهى وأنا مستلقية على الفراش وأقضم حبة منه كما يفعل الرومان فى الأفلام. ليتنى ألهو، ليتنى ألهو من جديد. لكن لوسى هى رفيقة لعبى الوحيدة الآن، وهى تلهو مع أبناء عمها وعماتها فى حوض السباحة.

منذ بضعة أسابيع، وكنا فى القاهرة، تطلعت لوسى إلى السماء وقالت:

- "أستطيع رؤية المكان الذى سنقيم فيه".
- "أين؟" سألتها، والسيارة تقطع شارع الجبلاية.

- "فى الجنة".

- "الجنة؟ وكيف ترين شكلها؟"

- "إنها دائرة يا ماما، ولها مدخنة، وسيكون الجو فيها شتاء دائما".

مددت يدى وربت على ركبتها قائلة "شكرًا لك يا حبيبتى".

نعم، يضنينى الحنين، ولكن ليس إلى الوطن وحده، أحن لزمن، لزمن مضى ولن أعيشه من جديد، أبدًا. أشتاق لعاشق كان لى، ولن يكون لى من جديد.. أبدًا.

راقبته وهو يختفى. لم يكن بالضبط يختفى، بل يخفت يرتد بعيدًا، لم يكن راغبا فى الذهاب، ولم يذهب بيسر، طلب أن أمسك به، ولكنه لم يبين لى كيف. مثل حبنا كجنية الحكايات الطيبة، جردت فى لحظة من إيماننا بسحرها، تنقلب إلى امرأة عجوز حزينة، وعصاها السحرية مجرد عصا، لا فائدة ترجى منها هكذا.. كنت أرى ما يحدث أرى السدود تتشكل أمامى. خصالى الأجنبية التى كانت تسحره فى البداية أصبحت تثير ضيقه: عجزى عن تذكر الأسماء، عن متابعة تفصيلات السياسة، وصراعى مع لغته، وحاجتى إلى الوقاية من الشمس والبعوض والسلاطة الخضراء وماء الشرب. لقد عاد إلى وطنه، وكان فى حاجة إلى من يتآلف معها فى بيته. ربما استغرق الأمر سنة، تلك المعركة التى رفضت أن أدخلها ولعل لوسى الرضيعة كانت فيها حليفى، انشطر قلبه إلى اثنين، أما قلبى فقد انكسر.. وكفى.

لم أعد أرى فيه حبيبى الآن. وبين حين وآخر إذ يعدو على الشاطئ حاملا لوسى، أو ينحنى ليتفحص كوعها المجلوط، وأحيانًا إذ يلعب مع الأطفال على

الرمال، أو يجلس فى مواجهتى على المائدة الطويلة فى حفلات العشاء.. أرى رجلاً قد أقع فى حبه ثانية، فأشيح بوجهى.

كذلك رويت له حكاية أول سراب رأيته على الطريق الطويل المتجه إلى مايدوغورى، رأيت السراب ثانية على الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية فى أول صيف لى هنا، فهتفت متشكية:

- "يصعب على أن أصدق أن لا ماء هناك وأنا أراه بهذا الوضوح".

- "تعتقدين فقط أن ما ترينه ماء".

- "أليس الأمر سيان؟ عقلى يعلمنى بوجود ماء هناك ألا يكفى هذا؟"

قال وهو يهز كتفيه: "نعم، إذا اكتفيت بالجلوس فى السيارة ورؤية السراب". وأردف "ولكن إذا أردت أن تقصدى الماء وتغمس يديك فيه وتشربى فالأمر سيختلف، أليس كذلك؟".

ونظر إلى بطرف عينه، وابتسم.

بعد قليل سأستمع إلى صوت لوسى عاليًا واضحًا، تثرثر مع والدها، وهى تسير، يدها فى يده على الطريق المؤدى إلى الباب الخلفى. ثم تأتى خطوة أم صابر الثقيلة، سأخرج للقائهما مبتسمة، فيسلمنى لوسى مبللة بالماء والرمل، ويسألنى إن كنت بخير، ونظرة قلق خفيف تعلو وجهه، وقد يربت على كتفى، وأمضى بلوسى إلى حمامى، ويدخل هو إلى حمامه. فيما بعد، يعود باقى أفراد العائلة واحدا واحدا، ويستحمون ويبدلون ثيابهم ثم يجلس الجميع إلى مائدة الشواء، ولسوف يأكلون ويشربون ويتحدثون فى السياسة ويتبادلون النكات ذات المغزى السياسى الساخر اليائس.. ولسوف يضحكون، لعلهم يتوقعون أن

أهتم بالتطريز وأبدًا فى إعداد لوحات "الأوبيسون" التى يتخيل الجميع، فى الوقت الراهن، أنها ستكون ضرورية لجهاز لوسى.

البارحة، حين ألبستها ثيابها بعد الحمام، تفحصت صورتها فى مرآتى بعناية، وطلبت أن أعقد لها ضفيرة فرنسية، جلست خلفها قرب منضدة الزينة، وأخذت أجفف شعرها الأسود بالسشوار وأمشطه وأضفره – بعد ميلاد لوسى غطت أم صابر جميع المرايا فى البيت، وشرحت لى شقيقته: يقولون إن الوليد الذى ينظر فى المرآة إنما ينظر إلى قبره. ضحكنا، ولكننا لم نرفع الأغطية عن المرايا حتى أتمت لوسى سنتها الأولى.

تابعت فى المرآة وجه لوسى الجاد. أنا رأيت قبرى ذات مرة، أو خيل إلىّ ذلك، وهذا فصل من قصتى الإفريقية. الطائرة القادمة من نيجيريا حلقت فوق مطار القاهرة، ثلاث مرات سمعت صوت عجلات النزول تنفتح، وثلاث مرات سمعتها تنغلق. كان يجلس بقربى رجلاً أعمال من فنلندة، وعندما سمعنا الإعلان عن تغيير مسار الطائرة إلى الأقصر هز كل منهما رأسه وطلبا مشروبا ثانيا. وعند الفجر، فوق مطار الأقصر، أعلمونا بوجود عطل فى آليات النزول، وأن الطيار سيحاول القيام بهبوط اضطرارى وقلت فى نفسى: هذا هو السبب فى المجىء بنا إلى الأقصر، لكى نحترق فى ستر ولا نعطل الحركة فى مطار القاهرة. طلب منا أن نربط الأحزمة وأن نخلع الساعات والأحذية، وأن نضع الوسائد الموجودة خلف المقاعد على حجرنا، وننحنى عليها وأذرعتنا معقودة خلف رءوسنا. علقت حقيبة يدى، بما تحتويه من جواز سفر وتذاكر ونقود، فى عنقى وكتفى، قبل تنفيذ تلك التعليمات. تصافح جاراى الفنلنديان بوقار، وخيم على الطائرة صمت مطبق ونحن ننحدر من السماء، وحين ارتطمنا بأرض المطار تعالى صرير معدنى رهيب ومديد. وفى تلك اللحظة بدا رأسى، بل وجماع نفسى،

وكيانى بأسره، على حافة إشعاع فارغ خاو، ولكنه جلىٌ بينٌ. ثم تملكتنى أفكار ثلاث: أولاها هى، اسمه يلح علىَّ المرة تلو المرة. ثانيتها الأطفال الذين لن أنجبهم، وثالثتها أن النسق قد اكتمل: هذا ما آلت إليه حياتى.

نجونا! فأضحت تلك الفكرة الأولى: اسمه، اسمه، اسمه، تعويذة، ألم يكن هو الذى تراءى لى فى أحلك لحظات الشدة وكأن ما عداه محى تمامًا من حياتى؟ حياتى هذه عادت تتبسط أمامى. تومض بالاحتمالات، مقدر لها أن تندمج فى حياته.

انتهيت من الضفيرة الفرنسية، واختارت لوسى مشبكا أزرق اللون لعقد الذيل، دلكت وجهها بقليل من الكرم الملطف قبل أن أدعها تذهب. كانت بشرتها مسمرة باستثناء ما خلف أذنيها، حيث يبهت اللون إلى لون الذرة الفاتح يشع بزغب ذهبى، قبلت رقبتها وأنا أهمس "لوسى، لوتشية، لمبة"، وأطلقت سراحها. لوسى كنزى.. وفخى.

والآن إذ أسير صوب البحر، نحو حافة هذه القارة التى أعيش فيها، التى كدت أموت فيها، وحيث أنتظر أن تكبر ابنتى، وتبتعد عنى تدريجيا، أرى أشياء مختلفة عما رأيت فى ذلك الصيف منذ سنوات ست. الرمال تبتلع فقاعات الزبد، لتغرق عميقا، عميقا، وتلحق بالبحر فى جوف الأرض، حيث لا نراها، ومع كل نوبة جزر للمياه الخضراء، يتخلى الرمل عن بعض منه لصالح البحر، ومع كل دفقة ماء، يلقى البحر برمل آخر يستحوذ عليه الشاطئ من جديد. هذا الشريط الضيق من الشاطئ لا يعرف – على وجه البسيطة – شيئًا بقدر ما يعرف تلك الأمواج البيضاء تسوطه، وتداعبه، وتنهار فوقه، وتندثر فيه. والزبد الأبيض لا يعرف إلا هذه الرمال تنتظره، تهب فيوجهه، وتمتصه، ولكن، ماذا تعرف الأمواج عن رمال الصحراء المتراصة الساخنة، اللاهثة، على مبعدة عشرين، بل

عشر أقدام، من الحافلة التى تحفرها. وماذا يعرف الشاطئ عن الأعماق، عن البرودة، عن التيارات المعتملة على مبعدة قريبة، هناك، هناك.. ألا تراها؟ هناك، حيث يتغير لون الماء إلى زرقة غامقة.

مع كنجارو

إيهاب عبد الحميد(*)

عندما فتحت الباب، كان كنجارو ممددًا على الأرض، يطرق الباب بذيله..

أتذكر ذلك الصباح جيدًا، استيقظت مبكرًا كعادتى فى الخامسة أو السادسة، فى الحلم كنت ألتهم طبقًا من التونة، صحوت و أنا أحرك لسانى داخل فمى بحثًا عن بقايا الطعام الوهمى. قلت سأضيف إليها بعض الليمون وزيت الزيتون والكمون، أسخن الخبز، وآكل. أنا الآن فيما يمكن أن أسميه "مرحلة التونة"، وهى واحدة من مراحل أتناوب عليها، أو تتناوب على، دوريًا. هناك مثلاً مرحلة "الجبنة البيضا بالطماطم"، ومرحلة "الجبنة الحمراء" ومرحلة "الفول"، وهناك - لا أنسى - مرحلة "البيض بالبسطرمة".

فى كل مرحلة يسيطر على معدتى وعقلى نوع واحد من الطعام، أظل آكله يومًا بعد يوم، أحيانًا فى الصبح والليل، أحيانًا ثلاث مرات فى اليوم. أصبح أسيرًا له. عندما أفكر فى الأكل لا أفكر فى سواه. وبظنى أن طعام آخر سيعجز عن إشباعى. وأظل هكذا، أسيرًا للتونة، حتى يحدث ذات مرة أن أضعها أمامى فيصيبنى منها قرف، ثم فجأة ينير عقلى نور ساطع، نور "الجبنة بالطماطم". وهكذا تنتهى مرحلة التونة - مؤقتًا - لتبدأ مرحلة "الجبنه بالطماطم".

(*) إيهاب عبد الحميد، ولد عام ١٩٧٧، من مجموعاته القصصية: (بائعة الحزن)، ١٩٩٨.

على صعيد الموسيقى كنت فى مرحلة الموسيقى الكلاسيكية، مع ملاحظة أن المراحل الموسيقية لا تتماشى بالضرورة مع المراحل الغذائية، بمعنى أن التونة لا تجلب بالضرورة مزاجًا كلاسيكيًا فى الموسيقى، كما لا تجلب "الجبنة الحمراء" مثلاً اشتياقًا للروك. شغلت بعض فالسات شتراوس، وبدأت التفكير فى مستقبلى، عندما سمعت طرقًا على الباب.

كان الكنجارو ممددًا على الأرض، يطرق الباب بذيله..

لم يتوقف ذيله عن الحركة بعدما فتحت، وكأنه ما زال يطرق بابًا وهميًا. فى الغالب لم يقصد أن يطرق الباب، كان يريد فقط أن يحرك ذيله ليريح عضلاته، ليتمطى، أو يطرد ذبابة. كان مضطجعًا على جنبه، جسده محشور فى المسافة الضيقة أمام باب الشقة، عنقه ملوى، ورأسه مستند على الحائط، ينظر إلى الأرض فى شرود. استغرق الأمر ثوانى حتى ينتبه لوجودى، كان يعتقد على الأرجح أن الباب جدار، لذا أدهشه أن يرى ذلك الجدار ينشق عن كائن غريب مدهش، يقف مستقيمًا كشجرة، ويضع زجاجًا على عينه، ويبدو أنه فقد ذيله فى حادثة ما.

على الأرجح كانت دهشته برؤيتى أكبر من دهشتى برؤيته، لكن رد فعله كان أسرع، بينما كان عقلى يفكر كانت غريزته تتحرك. انتصب فجأة على ساقيه الخلفيتين معلقًا الأماميتين القصيرتين فى الهواء، ثم نظر فى عينى قليلاً وقام بخطوة كانت - دعونى أقول حاسمة - فى علاقتى به، وربما كانت السبب فى معاناتى التى استمرت بعدها سنتين كاملتين، ويعلم الله وحده متى تنتهى. لقد ألقى بساقيه الأماميتين على كتفى مثل فتاة مائعة تستنجد بحبيبها من خطر تافه.

بعد ثوان كنت فى شقتى، بصحبة كنجارو..

حديقة الحيوان..

هذا هو المكان الوحيد الطبيعى لمثل هذا المخلوق. طبعًا لا أستطيع أن أطرده وأدعه يهيم فى شوارع القاهرة، ولا يمكن أن أحجز له تذكرة "درجة اقتصادية" على طائرة الخطوط الجوية البريطانية المتجهة إلى سيدنى أو كانبيرا. حديقة الحيوان هى المكان الوحيد المنطقى. لم أذهب إلى الحديقة منذ طفولتى. المرة الأخيرة كان عندى عشر سنوات تقريبًا. كان أبى يحملنى على كتفه وهو يواصل الشجار مع أمى والسيجارة بكامل طولها نصف مشتعلة فى زاوية فمه. أتذكر ذلك المشهد جيدًا لأنه حرمنى من رؤية سيد قشطة، كان رؤية الشجار العائلى من موقعى بالأعلى أكثر إثارة، ورماد السيجارة معلق بقوة سحرية مناهضة للجاذبية، رغم التحركات المنفعلة لشفتى الوالد الضخمتين.

لا أتذكر أننى رأيت الكنجارو من فوق كتف أبى، لكن ذلك كان منذ زمن طويل. فى الطريق إلى الحديقة أفكر: إذا كان لديهم كنجارو فسيعرفون كيفية التعامل معه، وإذا لم يكن لديهم سيسعدون أن يأتيهم واحد. كم هو غريب ذلك الكائن، الواقع أن الحيوانات كلها غريبة، الزرافة أيضًا غريبة. لقد شاهدتها فى طفولتى. من فوق كتف والدى وضعت جزرة فى فمها. أتذكر خبرًا قرأته قبل أيام عنوانه: "حديقة الحيوان بلا زرافة للعام الثالث على التوالى"، ماتت آخر الزرافات فى حادث مأسوى، تناولت طعامًا مسمَّمًا. كمية السم ونوعه أكدا للمحققين أنها جريمة قتل متعمدة، لكن من ذا الذى يمكن أن يقتل زرافة سجينة فى قفص مع سبق الإصرار. وبأى دافع؟ الشارع العريض المواجه للحديقة خال تمامًا، راودتنى فجأة رغبة أن أقفز مثل كنجارو، قفزة، قفزتين، ثم عاد إلىَّ رشدى، وواصلت المشى بوقار.

أقطع تذكرة. أسأل عن الموظف المختص. رجل قصير ولحيم، بلا عنق،

بلا إبطين واضحين، وجهه حليق وشعرة خفيف فاحم السواد، وله شوارب رفيعة طويلة. كان يشبه - إلى حد بعيد - عجل البحر، باستثناء أن عجول البحر لا ترتدى ربطات عنق. يجلس خلف مكتبه، وإلى جواره يقف شاب طويل جداً، كبير المؤخرة مثل نعامة، وعلى وجهه ابتسامه ثابتة.

يدعونى عجل البحر للجلوس، ويظل النعامة واقفاً.

بعد تحية صغيرة أدخل فى الموضوع مباشرة. أحكى له القصة. أعرف أنها قصة غريبة، وبالتالى قد يستغربها، لكن ماذا أفعل؟ عندما تحدث لك واقعة بتلك الغرابة فإن كل ما يمكن أن تفعله هو أن تسلم أمرك لله، وتحكيها بكل صدق وأمانة. أتذكر كم الحكايات التى سمعتها بأذن مشككة، ونفضتُها بعد ذلك على الفور للامنطقيتها، واصمًا صاحبها - فى عقلى - بأنه واسع الخيال أو به مس من الجنون. كنت فى موقف لا أحسد عليه، لكننى لا أستطيع اختراع كذبة مناسبة. رويت لهما القصة بسرعة ودون تفاصيل، كأننى أتخلص منها، ووصلت فى النهاية للنقطة المطلوبة: أريد أن أعرف إجراءات التبرع للحديقة بحيوان.

ابتسم عجل البحر ونظر بطرف عينيه إلى النعامة، ففشخ النعامة فمه واتسعت ابتسامته. قال عجل البحر:

- ومن أين أتيت بالكنجارو؟
- قلت لك.. وجدته أمام الباب.
- إممممممممم.. وماذا فعلت به؟
- أدخلته، بدا لى جائعًا فقدمت له بعض الخضراوات من الثلاجة، خس وجرجير وخيار وجزر، وتركته فى غرفة مغلقة، وجئت لكم.

- إمممممممممم.. وحضرتك.. أين تعمل؟

- موظف فى شركة إنتاج سينمائى.

- واضح أن خيالك سينمائى.

ضحك النعامة ضحكة عالية، شعرت بدم ساخن يتدفق إلى وجهى.

- أعرف أنك لا تصدقنى، ولكن هذا ما حدث، وأنا أريد أن أحمل هذه المشكلة.

- لا أصدقك؟ طبعًا أصدقك.. بل سأروى لك حكاية لن تصدقها أنت نفسك. الأسبوع الماضى صحوت على جرس الباب، لبست الروب وجريت لأرى من الطارق، وجدته فيلاً صغيرًا يضرب الجرس بخرطومه، قلت له من أنت؟ قال "أنا الفيل أبو زلومة وأريد أن أقيم عندك ليومين". أشفقت عليه، فأدخلته بيتى، وجعلته ينام فى فراشى، ومن يومها وأنا آتى كل يوم إلى العمل راكبًا على ظهر الفيل.

ضحكة عالية أخرى من النعامة الذى فتح فمه للمرة الأولى.

تمام.. تمام.. الباشا يأتى كل يوم إلى الحديقة على ظهر الفيل.

لم أجد ردًا، كان علىَّ أن أبتلع الإهانة، ما يقوله ليس أغرب كثيرًا مما قلته فى نهاية الأمر. أحسست بكراهية جارفة تجاه هذين المخلوقين، تمنيت أن يحدث لهما حادث بشع، أن أراهما ممزقين، أن ألمس جثتيهما بيدى. وشدنى عجل البحر من خيالاتى بأن استعاد وقارة ثم قال:

- حضرتك اترك رقم تلفونك ونحن سنتصل بك.

إن الأيام الأولى مع الكنجارو كانت هى الأصعب. الحق إنه كان - على وجه العموم - مهذبًا منذ لحظة اقتحامه لحياتى. دخل الشقة فى قفزات صغيرة للغاية ليتفادى الاصطدام بالأثاث، زحف على جنبه ليمر بين الكنبة والطاولة، تمدد على الأرض متكئًا على كوعه، راكدًا ككلب مطيع.

خصصت له غرفة خالية، فى الليلة الأولى كنت أسمعه من فراشى وهو يقفز جيئة وذهابًا كانت المساحة ضيقة لا تسمح له سوى بقفزتين ذهابًا و قفزتين إيابًا. كنت أشعر أن لدىَّ أسير فى الغرفة المجاورة، يئن فى أسره، لكننى كنت عاجزًا عن إطلاق سراحه. نمت نومًا مرهقًا، وحلمت أحلامًا خانقة.

فى الصباح رأيت برازه يملأ الأرض. أعترف أننى لم أحتمل ساعتها ، ظللت أشتمه وأنا أدفعه أحيانًا وأجره أحيانًا باتجاه باب الشقة. فتحت الباب وطردته ثم أغلقت الباب بعنف. جلست على الكنبة أدخن سيجارة وأنا أقول:

- ملعون أبوه.. لست من بقية أهله.

شغلت موسيقى صاخبة وقررت تجاهل الأمر تمامًا. لكن بعد دقائق أصابنى الغم. كنت أعرف أنه ما زال هناك خلف الباب ينتظرنى أن أفتح له، كنت أعرف أنه خجلان من نفسه. هو فى النهاية حيوان يتصرف بفطرته. أعرف أن ذلك قدره. وليس له أى دور فى اختباره. أعرف أيضًا أن مشكلته هو شخصيًا أكبر من مشكلتى. هذا الكائن الذى اعتاد - بالتأكيد - على القفز فى مساحات شاسعة يجد نفسه فى مدينة صاخبة كهذه، وفى شقة ضيقة مثل شقتى، بل وبصحبة إنسان مثلى.. أى عقاب إلهى هذا الذى حط به؟ وقلت لنفسى جملتى المتسامحة الأثيرة القادرة على إطفاء صورة الغضب فى لحظة:

- ضع نفسك مكانه.

لكن تلك كانت أزمة عابرة فى علاقتى مع الكنجارو، فالأيام التالية انقلبت فيها حياتى رأسًا على عقب، ورغم أننى - عمومًا - لا أتمتع بذاكرة جيدة، فبعض الأيام لا أستطيع نسيانها، ومنها ذلك اليوم الذى فشل فيه مشروع زواجى.

أنا لا ألومها الآن - خطيبتى السابقة - فقد اختارت الخيار الصائب. وقد تزوجت وأنجبت طفلاً، بينما ما زلت أنا أدور حول قدرى ككلب يحاول عض ذيله، أقول لا ألومها، الكنجارو كان قدرى أنا وليس قدرها، ومن ثم فقد كان لديها خيار، أما أنا فلم أمتلك تلك الرفاهية.

قبل زواجنا المزمع بأسبوعين أو ثلاثة، اتصلت بى وطلبت لقائى. كنت مرهقًا من الليلة السابقة، أصاب الكنجارو ميكروبًا فى معدته على الأرجح، وتقيأ على الأرض مرتين. استدعيت الطبيب البيطرى. جاء ليعالجه، وكان طبيبًا ثرثارًا، أخذ يحدثنى عن غرائب الحيوانات التى يعالجها، من الحمير للأسماك، من العصافير لأبناء آوى، ومن القنافذ للأفاعى. استفسر منى عن كيفية وصول الكنجارو إلى بيتى، لكنه لم يندهش كثيرًا، لأن الاندهاش سيضيع منه خيط الكلام، ويجعله يلتزم الصمت ولو لدقائق، ويلعب دور المستمع.

تكلم وتكلم وتكلم وتكلم حتى دوخنى، وأنا أنظر إليه وكأننى منوم مغناطيسيًا. أتوه منه عشر دقائق فى كوابيس يقظة، ثم أعود إليه ثانية، وأفكر أننى يجب أن أطرده فورًا، لكننى أجبن، أحسد كل الحيوانات. الحيوانات تتصرَّف التصرُّفات الصائبة، عندما تترعج من شخص تتركه وتهرب، أو تهاجمه حتى يهرب. أما أنا فأجلس الآن لأتعذب بكياستى.

فى السادسة صباحًا يعلن عن اضطراره للرحيل كى يلحق بموعد أحد مرضاه. ألقى بنفسى على الفراش وأنا أطلق آهة طويلة عالية، فأستيقظ بعد

ساعة على تليفون من خطيبتى. اتفقنا على اللقاء فى الكازينو الأثير لدينا، وكان صباحًا كارثيًا.

كانت شديدة التوتر، طلبت كوبًا من الشاى وطلبت كوبًا ضخمًا من القهوة، أخرجت إصبع طباشير من حقيبتها وأخذت تقرضه فى عصبية، كانت تلك إحدى عاداتها الغريبة التى تكيفت معها، عندما تكون متوترة تأكل الطباشير، وما زاد سوءًا أنها كانت مدرسة، وعليه فقد كان يصعب علاجها من ذلك الإدمان.

عندما أفكر فى مميزات خطيبتى السابقة أتذكر منها أنها كانت جميلة، لها ساقان جميلتان كثيرًا ما قابلتهما فى أحلامى، وشفتان ممتلئتان، وصدر متين، كما أنها لم تكن ثرثارة، ولا عصبية بصورة مبالغ فيها، والأهم من كل ذلك أنها لم تكن تطلب الكثير، وفى المقابل كنت أحقق لها ما تطلبه.

أعرف أنها لم تكن تحبنى على وجه الخصوص، الحب لم يكن أمرًا مطروحًا، بعيدًا عن الكلمات التى أعرف أننى يجب أن أقولها وتعرف أنها يجب أن تسعد لسماعها، كان الأمر اتفاقًا مريحًا بين شخصين على أن يدورا كلٌّ فى فلكه، ويتقاطعا فى مساحة ضئيلة، لم أقابل الكثير من النساء على هذه الشاكلة من قبل، لذا رأيت فيها الزوجة المناسبة. أقصد... كانت تتركنى فى حالى أغلب الأوقات.

كانت الخطة كالتالى: سنتزوج فى حفل كبير، ثم تقضى شهر العسل فى شرم الشيخ، وبعدها سنسافر إلى دبى. هناك وظيفة بانتظارى، ووعد بتوفير وظيفة لزوجتى.. لكن ظهور الكنجارو، وعقلى الشارد ذلك الصباح، قلبا كل الموازين.

قالت: تبدو متعبًا.

حكيت لها عن مرض الكنجارو، فوجدتها هى فرصة ذهبية.

- الكنجارو؟ الكنجارو ثانية؟ أنت تفكر فى تلك البهيمة أكثر مما تفكر فى أنا. أنا لا أعرف أصلاً ما الذى يجعلك مهتمًا بهذا الكنجارو؟ إنه ليس كلبًا ولا قطة، إنه مجرد بقرة تقفز على قدمين. هل رأيت من قبل شخصًا عاقلاً أو حتى مجنونًا يستضيف بقرة فى بيته؟ كان عليك أن تتصرف من اليوم الأول. كان عليك أن تطرده. لا أن تدخله حياتك وحياتى..

عقلى شارد.. لا أجد ردًا.. تقرض من إصبع الطباشير وتواصل..

- الفرح بعد أسبوع. وبعدها شهر العسل. هل تستطيع أن تخبرنى ماذا سنفعل به؟ هل سنأخذه معنا إلى شرم الشيخ؟ وماذا بعد.. من المفترض أن تسافر إلى دبى.. صح؟ هل سيأتى معنا إلى دبى؟ هل ستبحث له عن عمل هناك؟ لماذا لا تتكلم.. أجبنى.. ماذا سنفعل به؟

ثرثرتها المتدفقة وغير المعهودة أربكت عقلى، لم تكن فى ذهنى خطة محددة. لقد فكرت كثيرًا فى هذا الموضوع، ولم أجد حلاً، أعلم أننى كنت أؤجل المشكلة إلى لحظة المواجهة.. وها أنا أقول كلامًا فارغًا..

- يعنى.. ربما.. نستطيع أن نأخذه معنا..

- أين؟

- لا طبعًا.. لا أقصد، أنا فقط أحاول أن أفكر بصوت عال، لا يمكن أن نأخذه معنا.. لكن.. انظرى.. أمك تعيش وحدها فى الشقة، ويمكن أن ترعاه.. أقصد..

- ماما؟ هل تريد من أمى أن تخدم الكنجارو؟ أكيد أنك جننت.
- لا.. لم أجن.. كل الموضوع أن أمامى مشكلة أحاول أن أصل إلى حل لها.

قضمت قضمة كبيرة من إصبع الطباشير لاكتها فى فمها، وبدا عليها التردد، كانت تبحث عن كلمات مناسبة تنهى بها هذه المناقشة التى أعلم تمامًا أنها كانت كانت عقيمة.

- الحل أن تتخلص منه الآن، فورًا.. نذهب سويًا إلى منزلك ونجره إلى الخارج. نبلغ الشرطة. نأتى بعمال ينقلونه على سيارة إلى أى مكان فى الصحراء، نتركه يتصرف فى حياته كى تستطيع أن تتصرف فى حياتك.. وحياتى..

خطيبتى لم تكن تعرف مدى علاقتى به، فعلى مدار شهرين تقريبًا كنا قد أصبحنا صديقين. لقد عانيت منه أيما معاناة – لا أنكر، عانيت فى ترويضه الكثير، حتى أعلمه نظام حياتى، والأماكن التى يجلس فيها، والأشياء الممنوع عليه لمسها، لقد استغرقت وقتًا طويلاً وأنا أعلمه أن يقضى حاجته فى الحمام، وكنت أمسح الحمام بنفسى بعدها، بكمامة على أنفى، واشمئزاز ظل يخفت مع الوقت.

نعم، أقول إننى عانيت منه الكثير، لكن تلك المعاناة ولدّت علاقة قوية بيننا، جزء منها قائم على الابتزاز العاطفى. أعلم.. أعلم أنه ذكى جدًا، إنه يعرف جيدًا كيف يكبلنى بالشفقة، بالإحساس بالذنب، يحنى رأسه لأسفل ويرفع حدقتيه إلى أعلى، يظهر أمامى كمخلوق مسكين لا حول له ولا قوة. أعرف أن هذه المخلوقات البرية قوية، لكن هذا ضعيف، أو – ربما، لا أنكر – يدعى الضعف.

كذلك فهو مؤدب، باستثناء لحظات قليلة – على ألا يثير أعصابى. لقد تعلم – فى النهاية – أين يأكل وأين ينام وأين يقضى حاجته، تعلم أن يتحرك ببطء حتى لا يكسر شيئًا فى الشقة، تعلم ألا يتقافز ليلاً فيوقظنى من النوم. تعلم أيضًا – وكان ذلك ممتعًا – أن يلاكمنى صباحًا. أعرف أن ضربته يمكن أن تكون قوية، لكنه يضربنى برقة، كان تمرينًا صباحيًّا جميلاً، ما زلنا نمارسه حتى الآن. ذات مرة جرحنى بحافره، وفى مرة أخرى أصابنى بتورم فى رأسى، لكنه – عادة – كان رقيقًا مثل طفل.

قالت خطيبتى فى ذلك اليوم المذكور، وهى تقضم قطعة أخرى من الطباشير الذى بات بطول عقلة إصبع:

- إما أنا وإما الكنجارو.

أغسل أوراق الخس وأحلم بالتقاعد. ما زال أمامى سنوات حتى أصل للأربعين، ثم عقدين كاملين – ربى ماذا أنا فاعل بهما – حتى أصل إلى الستين. لكن حبات الماء اللامعة على أوراق الخس الطازج تثير فى نفسى رغبة فى التقاعد.

أناول "كينج" – هذا هو الاسم الذى أطلقته عليه – بعضًا من الخس، وألتهم البعض الآخر. بعد فسخ خطبتى عانيت كثيرًا، ليس لأننى كنت متيمًا فى عشقها، ولكن لأننى أدركت فجأة حقيقة كانت تتسلل إلىَّ واحدة واحدة دون أن أجمع شتاتها: إن حياتى لن تعود أبدًا كما كانت.

لم أتقبل ذلك. حاولت أن أتصرف، لكن كل محاولاتى للتخلص من "كينج" باءت بالفشل الذريع (ينتابنى الآن خجل من كلمتى "التخلص" و"الفشل"). مع الوقت بدا مثل إصبع زائد فى يدى، وكأننى خلقت به من جديد،

قلت فى نفسى إننى مضطرب عاطفيًا هذه الأيام، هذه الشهور، إننى – لا بد – سأستيقظ يومًا وأطرده من حياتى. سأدرك بوضوح حقيقة أدركها الآن ببعض التشوُّش، وكأننى فى غابة من السافنا، سينتهى موسم الأمطار وتمتد أمامى الحقيقة واضحة وجلية وشاسعة مثل صحراء، لأفهم معادلة: إما أنا وإما هو، وسأختار الخيار الصائب، لكن "أنا" و"هو" ازددنا التصاقًا، يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر. ازدادت السافنا طولا وطراوة، بل وبدت فى فمى حلوة المذاق حتى لم يعد هناك أمل.

لا.. كان هناك ما يدعونه بـ "بارقة أمل".

علمت من صديقى المتخصص فى دبلجة أفلام الأطفال – والذى كان اعتبر حكايتى مع "كينج" كارتونية – أن له صديقًا مهتمًا بالكنجارو، رجل أعمال يمتلك مزرعة ماشية، كان ذلك حلاً نهائيًا لا بأس به لقصة ما كان يجب أن تبدأ من الأساس.

ذهبت إلى صاحب المزرعة، أنا و"كينج" الذى حشرته فى كنبة سيارتى الصغيرة الخلفية، فكرت أن هذا هو المكان المناسب لـ "كينج"، لو يقبل هذا الرجل أن يأخذه ويربيه مع أبقاره فسيجد مساحة أكبر للحركة، وربما يتصاحب على الأبقار، وأنا – وأعترف أننى فكرت بأنانية – سأتخلص أخيرًا من مسئوليته.

اصطحبنى الرجل إلى جولة فى مزرعته الكبيرة، حدثنى عن أنواع الأبقار التى يربيها، وكيفية تهجينها، والمشكلات التى يواجهها، كان طويلاً ووسيمًا، جسده رياضى، وجهه مبتسم، ملامحه مريحة للغاية. لم تكن تشوبه شائبة، باستثناء النظارة التى كان يرتديها والتى كانت خالية من العدسات.

أدخل إصبعه فى الإطار الفارغ ودعك عينه وهو يقول:

- أوكيه.. سآخذ منك الكنجارو.

- سيكون ذلك كرمًا بالغًا.

- نتكلم فى السعر.

- كم تريد؟

ضحك ضحكة عالية وهو يضرب إحدى أبقاره بكرباج صغير يمسكه فى يده.

- ههه هاهاها.. كم تريد أنت؟

- ولكن.. ماذا ستفعل به؟ أضف إلى ذلك أنك ستتكلف مصروفات أكله وعلاجه و..

- ماذا سأفعل به؟ سآكله طبعًا.. عيد ميلادى اقترب، وسأجهز وليمة كبيرة، وأفكر أن أشويه، ستكون فرصة رائعة أن يتذوقه أصدقائى، أنا أعلم جيدًا طعم الكنجارو، أكلته من قبل فى اليابان، تعرف.. اليابان من أكثر دول العالم استيرادًا للحم الكنجارو.. أنا قضيت سنوات طويلة فى اليابان، أنا أصلاً كنت متزوجًا من يابانية أيام الشباب، كانت طباخة رائعة، لكننى مللت منها. أصارحك أنها كانت باردة جدًّا. كنت تنام إلى جوارها فتشعر أنك نائمًا إلى جوار أختك.

خلع نظارته ورفعها فى مواجهة الشمس ناظرًا عبر عدساتها غير الموجودة وهو يواصل.

- كانت مهذبة جداً ولكننى مللت منها، كان لدينا حساب بنكى مشترك، فسحبت كل أموالنا وجئت طائرًا إلى مصر، فتحت هذه المزرعة.. هذا الكنجارو صغير، وزنه أربعون أو خمسون كيلو جرامًا، سأدفع لك ثلاثة آلاف جنيه.. ماذا تقول؟

لا أعرف لماذا أقص كل تلك التفاصيل، لكن فى الحكى فضفضة على أى حال، كما أنه - بطبيعته - يحوى بعضًا من الموعظة ومتعة التأمل. لذا هاك يوم آخر من المعاناة، ربما كان من أصعب أيام حياتى، لكنه زادنى صلابة، لأننى أدركت بعدها أن الأسوأ قد حدث بالفعل.

أجهز - بميكانيكية - طبق التونة بزيت الزيتون والليمون والكمون، وأفكر فى شريط حياتى، وهى عملية مفيدة لشغل وقت الفراغ، كل يوم أحاول تذكر لحظات الماضى، وكأننى أتفرج على ألبوم صور. أكلم نفسى أحيانًا، أكلم "كينج" كثيرًا. أحكى له ما ارتكبته من أخطاء وحماقات، أقص عليه لحظات سعادتى، أكلمه عن نفسى.. ماذا أقول عن نفسى؟ شخص.. يفعل بعض الأشياء، ويمتنع عن فعل بعض الأشياء، يعمل ويأكل ويشرب، يستمتع ببعض اللحظات ويشقى ببعضها، جل ما يتمناه هو أن تسير حياته بلا مفاجآت، أن ينساه القدر، لا يعيره أى انتباه. أنا.. الكومبارس الصامت الذى ينتظر أن يمنحه مدير الإنتاج خمسين جنيهًا فى نهاية يوم العمل، ويخاف أن تلعب العفاريت بعقل المخرج فيقرر له دورًا أكبر. كنت هكذا يا "كينج" حتى جئت أنت. فأصبح لى خط درامى لم أسع إليه.. منك لله يا كينج!

شممت جسدى، كان يفوح بالارتباك والتوتر ورائحة "كينج"، دوش ساخن، شاى ساخن، تناولت لقمة من التونة فأصابنى الغثيان، أفرغت الطبق فى الزبالة، سمعت طرقًا على الباب فانقبض قلبى.

شخص بملابس مدنية يستدعينى إلى أمن الدولة.

فى السيارة وضعوا عصابة على عينى، تتوقف السيارة ويسحبنى أحدهم من ذراعى، يمشى بى، نلف وندور، يقول "احترس من السقف" فأحنى رأسى، يقول "احترس من المياه" فأخطو خطوة طويلة، نصعد سلالم وننزل سلالم، أقابل محققًا يسألنى عن اسمى، مهنتى، عائلتى وأصدقائى، أحاول أن أفهم منه لماذا أنا هنا فيؤكد أنه وحده الذى يطرح الأسئلة، يسألنى عن الكتب التى أحبها، عن الصحف التى أقرؤها، عن البرامج التليفزيونية التى أتابعها، عن الأجانب الذين أعرفهم، عن خطيبتى السابقة. أقول أريد أن أعرف لماذا أنا هنا، فيقول بتهديد واضح:

- من فضلك احترم عملنا كى نحترمك.

ينتهى التحقيق. استراحة. تحقيق آخر. نفس الأسئلة. نفس الإجابات. تحقيق ثالث. نفس الإجابات. نفس الأسئلة. وأخيرًا أدخلونى إلى مكتب ضابط مهيب، طويل وعريض، سمح لى بدخول الحمام – وكنت فى أمس الحاجة لذلك – طلب لى قهوة وقدم لى سيجارة، دخنتها فى سرعة فقدم لى أخرى.

- لماذا ترتعش؟

- الجو بارد.

- فعلاً.. الجو بارد هذه الأيام.

قالها وهو يشغل مروحة السقف.

- طبعًا أنت تعلم لماذا استدعيناك.

- الحقيقة لا.

- هل تعتقد أن أمن الدولة يمكن أن تستدعى أى شخص لتحقق معه هذا التحقيق الطويل؟ هل تعتقد أن وقتنا يسمح بالتسلية على حساب المواطنين؟

- بالطبع لا.. لكن مؤكد أن هناك سوء تفاهم.

- يعنى.. لا تعلم لماذا جئت إلى هنا؟

- الحقيقة لا.

يخلع "البدلة الميرى"، يعلقها على الشماعة، ويجلس أمامى بالقميص.

- فكر فى أى شىء غريب فعلته مؤخرًا. شىء يجعلك مختلفًا عن بقية سكان عمارتك، بقية سكان الشارع والحى، شىء يجعلنا نهتم بك لهذه الدرجة.

- الحقيقة لا أعرف.

- طيب.. لأنك رجل محترم سأعطيك مفتاحًا.. قل لى.. عندك حيوانات فى البيت؟

- نعم.. الكنجارو.

- جميل.. بدأت تتذكر.

خلع قميصه وجلس بفانلته الداخلية.

- قل لى.. أين يعيش الكنجارو؟

- عندى فى البيت.

- أقصد أين يعيش أصلاً.

- في أستراليا.
- وهل ذهبت إلى أستراليا من قبل؟
- لا.
- طيب.. كيف وصل إليك الكنجارو؟
- في يوم سمعت طرقًا على الباب، فتحت فوجدته.

أشعل سيجارة، همهم بعدم رضا، خلع فانلته الداخلية، علقها على الشماعة، يجلس أمامي عاري الصدر، صدره غابة من الشعر تصلح لمعيشة نسخ مصغرة من الأسود والغزلان والأفيال والزرافات والحمير الوحشية، غابة من السافنا، متشابكة ومربكة، تفتح على صحراء بطنه الواسعة، وهضبة كرشه، وفوهة بركان صرته التي أتمنى أن أقفز فيها وأختفي في جسده مثل دودة شريطية.

واصل الأسئلة من جديد، واصلت الإجابات، نفس الأسئلة وذات الإجابات، مرة تلو أخرى، عشرة مرات، عشرين أو خمسين، تعبت.. لكن ما الذي يجعلكم مهتمين بموضوع الكنجارو؟ لأننا نهتم بكل شيء غريب، لأن ما لا نعرفه قد يكون خطيرًا، ويظل الخطر قائمًا طالما لا نعرف ما لا نعرفه، لأننا نريد أن نعرف كيف استطاع مواطن مصري أن يأتي بكنجارو، لأن المواطن الذي يأتي بكنجارو اليوم لا تعرف بم يأتي غدًا، حتى لو كان الكنجارو نفسه ليس خطيرًا، فالظروف التي أدت لوجود كنجارو في القاهرة – لو تكررت – يمكن أن تأتي بأشياء أخرى أكثر خطورة، نحن لا نحب الأمور الغامضة، لو تركنا الحال هكذا يمكن أن تمتلئ شوارع القاهرة بالكنجارو، هل تعلم حجم الخلل الاجتماعي والثقافي والبيئي الذي يمكن أن يحدث وقتها؟ حجم الخلل السياسي؟

كان ذكيًا هذا الضابط بالتأكيد، وكانت له حجته. قرر إخلاء سبيلى بعد أن أكد لى أننى تحت المراقبة، وأن الموضوع لم ينته عند هذا الحد. وقد تبين لى بعد ذلك أن تهديده كان فارغًا، وأن الأمور انتهت بالفعل عند هذا الحد. لكننى كنت تعبت، تعبت جدًا، حتى أننى شعرت بكراهية مفاجئة تجاه المسكين "كينج"، وسألته.

- هل ستأخذون الكنجارو؟

- نعم.

- الكنجارو.. خذوه.. لا أريده.

- أنت عبيط؟ ماذا تفعل أمن الدولة بكنجارو؟

نعم، كان ذلك يومًا عصيبًا، لقد مرت عليه أكثر من سنة، لكن ذكراه ما زالت قادرة على إثارة القشعريرة فى جسدى، كذلك فقد كان يومًا فارقًا، فبعد ذلك لم يتسبب لى "كينج" فى مشكلات من النوع الخطير.

إننى أكتب الآن و "كينج" مضطجع أمامى على كوعه نشاهد التليفزيون معًا، لقد قمت بعدة إجراءات للتكيف مع حياتى الجديدة، بعد فقدان زوجة المستقبل تراجعت عن عرض العمل فى دبى، ضبطت مواعيد عملى كى تتناسب مع رعايتى لـ"كينج". تخليت عن معظم الأثاث كى أخلق له مساحات للحركة. تخليت عن السجاد. عهدت إلى امرأة بتنظيف الشقة مرتين أسبوعيًا، قرأت كثيرًا عن الكنجارو. شاهدت أفلامًا عن الكنجارو. انتقلت إلى شقة فى الدور الأرضى من نفس البناية، ازددت لطفًا مع جيرانى حتى يتقبلوا وجوده. بعد ذلك تمكنت من استئجار شقة صغيرة بحديقة أصغر، أعمل ١٢ ساعة كى أسدد إيجارها.

تعرفت على صديق يملك مزرعة فى الريف. كل أسبوع أصحب "كينج" ونذهب إلى المزرعة، فى تلك اللحظات أستمتع وأنا أنظر إليه يقفز بعنفوانه حين يرى الطريق مفتوحًا أمامه، عاليًا عاليًا، وطويلاً طويلاً، عندما أنظر إليه أشعر أن صدرى يتسع، موجة عالية من الهواء تجتاح رئتى، وأبتسم، وأكون سعيدًا. طبعًا فى بعض الأحيان تراودنى أفكار سيئة، وأتمنى أن يقفز بعيدًا ولا يعود ثانية، لكنه كان دائمًا ما يرجع لى.

ما زالت هناك لحظات صعبة بالطبع، عندما ينسى "كينج" مثلاً ويعود إلى عاداته الوحشية، فيكسر شيئًا فى المنزل برعونته أو يقضى حاجته على السجادة، أو يقفز ويموء بعد منتصف الليل – من كابوس، ربما تصوره واقعًا، أحيانًا ما يكون رد فعلى عنيفًا. أجلسه أمامى وأقول له:

- هل تعرف طريقة تحضير لحم الكنجارو؟ هه؟ هات قطعة من فيليه الكنجارو، تبلها بالملح والفلفل الجبلى، أضف إليها قليلاً من النبيذ أو عصير الكيوى، ضعها فى المقلاة على قطرتين من الزيت، اقلها لثلاث دقائق على كل وجه، ليس أكثر من ثلاث دقائق، وإلا ستجف وتفقد طراوتها اللذيذة، اسحب المقلاة من على النار وغطها بـ "الفويل"، قدم لحم الكنجارو اللذيذ مع الخضراوات الطازجة.

وفى أحيان أخرى كنت أعاقبه بمعلومات عن بنى جنسه.

- تعرف؟ لو تركنا الكنجارو ليتكاثر بكل حرية سيتضاعف عدده أربع مرات كل خمس سنوات، هل تعرف لماذا؟ لأنكم حيوانات قبيحة وقليلة الحياء، تتناكحون طوال العام، ليس فى مواسم معينة مثل بقية خلق الله، يعنى ممكن أن تتسببوا فى مشكلة حقيقية لسكان أستراليا.. فاهم؟

فى بعض الأيام يكون بائسًا وكئيبًا وهو راقد بذراعيه القصيرين كشحاذى الأنفاق الكسيحين. وساعتها أقول له أشياء مهينة من قبيل:

- جلد الكنجارو أفضل جلد لصناعة الجزَم.

تلك كان عواصف عابرة تعكر صفو حياتنا الهادئة فى معظم الأحيان. وإذا نظرنا للجانب الملىء من كوب حياتى البائس سنجد أن صحبة "كينج" لم تكن تخلو من المتعة، كما لم يكن بلا فائدة، معه مثلاً لم أعد أشعر بالوحدة، لقد اختفى تقريبًا هذا الإحساس من حياتى. عندما تكون بصحبة كائن بهذا الحجم لا يمكن – نظريًّا على الأقل – أن تكون وحيدًا. الكنجارو ليس عصفورًا فى قفص أو سمكة فى حوض، بل هو مخلوق محترم. أضف إلى ذلك أن "كينج" كان – عمليًّا – مسليًا. عندما أتحدث إليه ينصت، قد ينصت إلىَّ لنصف ساعة أو ساعتين وأنا أقص عليه همومى، وبعد أن أنتهى، يعطى إشارة بأن يهز رأسه، أو يمسح خطمه فى بطنى وهو يخور خوارًا رقيقًا، ثم يضطجع ثانية على الأرض متابعًا البرامج التليفزيونية، أما أجمل اللحظات فكانت عندما أحممه معى تحت الدوش، ساعتها يعود طفلاً.. لن تفهم ما أقول إلا إذا أسعدك الحظ بأن تأخذ دوشًا مع كنجارو.

لقد كتبت كلمة هنا ثم شطبتها، ثم كتبتها ثم شطبتها، كلما أكتب أننى أحب هذا الكنجارو تتداعى إلى ذهنى كل المشكلات التى أوقعنى فيها، ليس هو بنفسه، ولكن وجوده ذاته. لقد حرمنى من الزواج وتكوين أسرة، من السفر وكسب المال، وما زال يحرمنى أشياء كانت لتصبح فى يدى ما لم يكن موجودًا، لكن العشرة جمعت بيننا، وأنا الآن أستطيع أن أقول إن حياتى الجديدة ليست سعيدة جدًّا، ولا بائسة جدًّا، وليس لدىَّ تصور لما كانت

ستصبح عليه لو لم يدخلها الكنجارو. لا أستطيع أن أجزم أنها كانت ستصبح أفضل – هل تفهمون؟ بل إنه سؤال غير مطروح، فالواقع أن الكنجارو هنا.. معى، وأن حياتى دون الكنجارو ليست سوى حياة متخيلة.

رشدى حمامو(*)

بدر الديب

كان اسمى الذى التصق بى طول حياتى، هو رشدى حمامو. وليس من شك أن قولى التصف بى قد يثير حديثًا أو كلاهما، أو على الأقل تفكيرًا. ولكن هل يثير حقًا؟ إننا تعودنا أن نقرأ ما يقال دون اهتمام بما يقال!. لقد تعودنا أن نقرأ دائمًا أحاديث لا تعنى شيئًا، أو على الأقل لا تمس فى كثير أو قليل روح من يكتبها. ولكننى لا أعرف ذلك. وهذا فى الحقيقة جانب من المشكلة التى أعرضها الآن، والتى دفعتنى إلى كتابة هذا الكلام أو تلك القصة..! من المضحك حقيقة أن تكون هذه القصة؟! فقد سألنى. منذ أيام. أحدهم. ماذا ترى فى القصة أو ما هو رأيك فى القصة؟ وقد كدت أن أطرده من مكتبى لأننى وجدت أن السؤال وقح وخصوصًا أنه يريد أن يبحث بحثًا علميًا؟

نعم. فأنا أحترم العلم جدًا. أحترم الحقيقة. وأحترم الكلام الذى يعبر عن الحقيقة. والمصيبة الكبرى فى بلدنا. هذه الأيام. إن تقرير مثل هذا القول هو ليس أمرًا غريبًا فقط ولكنه أمر غير مفهوم وغير محترم. المهم. أننى أريد أن أبدًا القصة من جديد وأريد أن أشير مرة أخرى إلى أن الاسم الذى التصق بى هو رشدى حمامو.

والصعوبة الحقيقية فى فهم معنى قولى التصق بى الاسم أن من الطبيعى أن يكون اسم المرء اسمه. ولكن المشكلة أننى وجدت منذ بداية حياتى أن

(*) من مجموعة (حديث شخصى)، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢.

اسمى قد أصبح مشكلة لا أستطيع حلها لأنها ليست فقط جزءًا من النسيج المعقد لحياتى، بل إنه معنى التعقيد والإشكال فى حياتى.

الاسم يلتصق بك! إنك تعرف باسمك. وبعد ذلك فالاسم اسمك. عليك أن تفرح به وأن تعتز به، أو على أقل تقدير عليك أن تراه أمرًا طبيعيًّا. هو جزء منك، ولكن هذا بالضبط هو ما لم يحدث لى. ولست أدرى هل كان هذا سرًّا فى الاسم نفسه، أم فى الظروف التى عشتها، أم فى تفكيرى وعقلى الشخصى الذى هو جزء من بدنى ومن الكيمياء الخاصة بهذا البدن.

لقد درست العلوم الرياضية. وتخرجت بامتياز فريد فى قسم الرياضيات البحتة فى كلية العلوم. وخلال ذلك درست الكيمياء والطبيعة وبعضًا من البيولوجى. ومع التفكير فى الرياضة، اضطررت بنفسى أن أدرس الفلسفة، ومع دراستى للفلسفة تكون لى أصدقاء يعملون فى الأدب. ومع هذا التاريخ – الذى أعرفه جيدًا، والذى لا أظن أنكم فى حاجة إلى أن أقصه عليكم – وجدت نفسى أخيرًا فى درجة وكيل وزارة للتجارة الخارجية فى جمهوريتنا.

ولكن ليس منصبى هو المهم! إن كل أهميته أنه قد أوصلنى إلى مرحلة أستطيع أن أكتب فيها القصة. أستطيع! لا بالطبع، فأنا مدفوع ومحتاج لكتابة القصة. وعليكم أن تعرفوا باستمرار أن كل أولئك الذين يكتبون القصص هم فى الحقيقة مضطرون على نحو ما إلى كتابتها، غفر الله لهم..

فلنعد إذن إلى اسمى! إن التفكير فى أن أبدًا بالحديث عن الاسم فى هذه القصة هو نتيجة للخلفية الرياضية التى تلقنتها وتعلمت من خلالها. فى الرياضة، عليك دائمًا أن تبدأ من بديهية أو من مصادرة، مهما كانت. عليك أن تقبل شيئًا، قبل أن تقيم عالمًا. وعليك أن تواصل وأن تصر على هذه البديهية، لأن بناء العالم لا ينتهى، ولأن سحر التواصل والمواصلة والسير إلى ما يمكن أن تتوصل

إليه لا ينتهى. وقد بحثت طويلاً - لا، أنا كاذب فى ذلك! - فى كيف أبدًا القصة. نعم، قد فكرت طويلاً وعانيت، واضطربت واختلط علىَّ الأمر ولكننى لم أبحث بالفعل. فكيف أبحث فى شىء مثل هذا؟

كنت أريد أن أجد بداية لهذه القصة، ولم أجد أفضل من أن أبدًا من اسمى. وعندما بدأت فى الكتابة أحسست أننى بحثت، وأحسست أننى اخترت بناء على تراث علمى عميق فى نفسى، ولكن أليس هذا تبريرًا لا عمق حقيقى له، أنا فى الحقيقة لا أعرف إلى أى حد أنا كاذب أو صادق فيما أقول، كل ما أستطيع أن أقرره الآن فى صدق كامل، أننى فى حاجة إلى بداية للقصة، ولست أحد أفضل من البداية بالاسم، لقد تعلمت من الفلسفة احترامًا كبيرًا للاسم وتعلمت من تراث أمتى ومن تراث أمى وأبى احترامًا كبيرًا للاسم ألم يبدأ الله الحياة والكون بأن ابتدع الاسم وأن أعطاه. ومن الرياضة استقر فى نفسى دائمًا أن الاسم هو الصياغة الأخيرة لأية مشكلة، وأنه فى الوقت نفسه مصدر كل الأخطاء والعيوب والنقص. وأنه قد يكون اسمًا قادرًا على الإعطاء وعلى مواصلة التكشُّف فى التحليل أو قد يكون جافًا ناضبًا كالمرأة العقيم أو الغصن اليابس أو أى تشبيه آخر قد يستطيع أن يجده أصدقائى من الذين يعملون فى الأدب.

المهم، وها أنتم تحسون أن كلمة "المهم" هذه تكاد أن تصبح مثل تقرير لاختتام الدائرة، أو كأنها محيط تم للدائرة وأنت تريد أن تخرج عنه لتصنع دائرة أخرى أو لتصنع - وهو ما أريد فعلاً - طريقًا واضحًا للمعنى لا يتحرك فى دوائر ولكن فى خط مستقيم.

كم عذبتنى هذه المعانى فى ليالى الدرس البعيدة. أيهما أفضل فعلاً. الدائرة أم الخط؟ وهل يصح حقيقة أن تستعمل كلمة أفضل وأن نمارس أحكام القيمة بين مثل هذين الوجودين؟ فإذا كانا وجودين، فهل هما كذلك فعلاً؟ أم

أنهما وجودان فى الذهن فقط ولا يحق للمرء أن يراهما واقعًا يتعامل معه ويتعاطف معه ويحكم عليه؟

إن العلاقة بين هذا كله وبين اسمى قريبة وثيقة فى ذهنى ولا أريد للقارئ أن يتعجب منها أو أن ينزعج. فأنا أريد فعلاً أن أتعامل معكم بصدق حقيقى، وكيف أتعامل بأى قدر من الصدق دون أن أفرز أمامكم فعلا كل ما تراكم من دراستى وشخصيتى. وهذه الدراسة الطويلة للرياضيات البحتة قد صنعت فى روحى فراغًا أبيض غريبًا فيه نور وفيه بداهة ولكن فيه حيرة وغربة حقيقية عن الواقع اليومى البسيط الذى يعيش فيه الناس. وقد كان هناك خلاف بينى وبين نفسى حول أهمية هذا الفراغ الأبيض الملىء بالنور الذى تصنعه الرياضة. فمن المفروض، ومن الأمور العلمية المسلمة أنك مهما ارتفعت فى الرياضة فإنك فى نهاية الأمر تريد أن تصل إلى قدر من الانضباط فى تقرير الواقع لا يتيسر بدونها، ومع ذلك فقد كنت دائمًا - عندما يجذبنى الواقع إليه - أجد أننى أعيش فى تفكيرى ودراستى فى عالم لا ينتمى إلى الواقع ولا يوصل إليه. وأن هذا الواقع هو حيوان حى متشكِّل له منطق خاص وله أعضاء وأجهزة خارجية وداخلية تتطلب أنواعًا أخرى من العلوم ومن المعايير والمقاييس لضبطها بل ولمعرفتها أولاً.

وأنا أرجو ألا يتصوَّر أحد أننى أختفى وراء الرياضة لتقرير معنى أدبى، أو أننى أستخدم كل هذه المقدمة الطويلة حول اسمى كنوع من أنواع خلق التشويق أو التوتر فى القصة. فأنا فى الحقيقة لست أدرى ما هو الاسم الفنى لهذا النوع من الأسلوب ولست مهتمًا لا بمعرفته ولا بتحقيقه. ولكننى ببساطة أردت أن أكتب هذه القصة لحياتى أو لاسمى لأننى وجدت أنها مفيدة لى، وأنها قد تخرجنى من الدائرة المتكرِّرة إلى الخط المستقيم، فهل سيحدث ذلك؟ إننى لا

أعلم، ولا أعرف من العلوم ما يجعلنى أطمئن إلى مثل هذه النتيجة أو ما يجعلنى أعرف الطريق النظرى أو التجريبى إليها.

فالإرادة أقرب إلى أن تكون مجالاً لا يمكن معرفة أبعاده ولا تحديد محاوره أو دالته الرياضية ولا تستطيع أن تجتابه فعلاً إلا وأنت تجتابه. وأنا أقصد بهذا أنك لا تستطيع أن ترسم للإرادة رسمًا يمسك بها قبل أن تتحقّق، وهى بذلك معنى غير رياضى تمامًا ولا يخضع حتى لحساب الاحتمالات.

فإذا كنت أردت أن أحقق بالقص شيئًا فأنا لا أعرفه تمامًا إلا على أنه إرادة تصبح أحيانًا رغبة وتتصاعد مرة لتكون حلمًا وتعود إلى الأرض فتكون أمنية، وفى لحظات من الجفاف الروحى أحاول أن أجعلها فكرة واضحة فلا أستطيع. وكل هذه الصعوبة التى أجدها فى تحديد ما أردته بالفعل من كتابة القصة - إذا لم تنفع فكرة الخروج من الدائرة - هو الذى جعلنى أقف عند اسمى وأحاول أن أجد فيه البداية التى لم أصل إليها بعد.

ومن الغريب تمامًا أن تكون البداية شيئًا تصل إليه. فالمفروض أنك تبدأ من البداية لتصل إلى شىء ما أو إلى مكان، أو إلى معنى ما. ولكن يبدو أن القصة غير الحياة وغير الرياضة تمامًا، وأن القصة تنتمى إلى الفن وبذلك فإن لها أحكامًا ومقتضيات وحسابات أخرى، والغريب كذلك أن أحدًا من أصدقائى الأدباء لم يقل لى إن هناك فارقًا جوهريًا بين الحياة والفن أو بين الفن والرياضة، فقد كنت أحسب أن الحياة هى المصدر الأساسى للفن، وأن الفن لا يكاد يصنع جديدًا إلا أن يحاول أن يحاكيها أو يفسرها، وفى أحسن الظروف أن يستخرج منها الحكمة والفلسفة، وكنت أحسب دائمًا أن الانضباط والدقة التى تمثلها الرياضة هى حلم لكل فن كما هى هدف كل علم. ولكننى -

وأقول الحق -- وجدت أن هذا كله غير صحيح بمجرَّد أن تجمعت لى فجأة تلك الإرادة الحيوية لأن أكتب هذه القصة.

ولقد تجمعت لى فجأة تلك الإرادة الحيوية، أو على وجه أصح. تجمعت فىَّ فجأة، فأنا ما زلت لا أحس حقيقة أننى أمتلكها، أو أنها إرادة من تلك الإرادات التى أمارسها وأنا أصنع بحثًا فى النهايات الصغرى والنهايات الكبرى، أو وأنا أضع تقريرًا رسميًّا عن منحنى التجارة الخارجية وإسقاطات حساباتها فى السنوات القادمة، أو حتى وأنا أضع الخطوط الخارجية لخطاب رقيق فى المحافل الدولية أو الاجتماعات الرسمية قبل توقيع الاتفاقيات التجارية أو بعدها.

وهى أيضًا ليست إرادة من النوع الذى أستخدمه أو استخدمته فى حياتى. فقد كادت هذه الحياة أن تقارب نهايتها، فأنا فوق الخمسين بسنوات. وإرادتى كانت كثيرة منذ أيام السفر الأولى إلى أمريكا للدراسة، وأيام الزواج وأيام الصراع الوظيفى فى الجامعة وفى الوزارة مع مصاعب الإدراك لأهمية العلم فى بلدنا أو مع سخافات ودناءات الأصدقاء والزملاء والرؤساء أو مع حيرة وتخبُّط الطلبة والمرؤوسين أمام ما يريد منهم العلم أو ما تريد منهم البلد والمصلحة الوطنية.

إن كل إرادة أو لحظة إرادة من تلك اللحظات الخاصة التى تصنع حياتى كما تصنع حياة أى إنسان، هى - فيما أعرف - ما يهتم به القصاصون وما يصنعون منه القصة بما فيها من حبكة ومفاجأة، ومن تغير للشخصية وصراع للأبطال وما يجرى عليهم من هزيمة وألم وانتصار، أليس كذلك؟ أن كل ما يقدم لنا من قصص وروايات هى مجرد محاولات لاختلاق حبكة، وبالتالى للتوصل إلى معنى من مجموع لحظات الإرادة فى حيوات الأفراد؟

وكنت أحس الآن وأنا أتحدث عن تلك الإرادة الحيوية التى تجمَّعت لى

فجأة – أو تجمّعت فىَّ كما قلت – لأكتب هذه القصة، أن الأمر لا يصح أن يكون كذلك، وأن كتابة القصص يجب أن تكون شيئًا آخر غير ما يحدث الآن، فمعظم، إن لم يكن كل ما قرأت إلى الآن من قصص، هى فى الحقيقة معادلات رياضية ساذجة، يمكن صياغة كل ما فيها من عواطف ومواقف فى رموز بسيطة وعلاقات محددة واضحة بين هذه الرموز، ولكنى لا أريد، فى الحقيقة أن أدخل فى هذا المبحث النقدى الذى يرد القصص الموجودة عندنا إلى الرياضة، لا، ليس هذا ما أريده أبدًا، وليس هذا ما تجمّع لى أو فىَّ من الإرادة الحيوية التى أتحدث عنها. ولكننى لا أستطيع إلا أن أقول قبل أن أترك هذا الموضع من قصتى، إن معظم القصص التى أقرؤها، إن لم يكن كلها، قد يكفى فى الاستعاضة عنها أى بحث سليم فى علم النفس أو علم الاجتماع، وأنها ليست من الانضباط بحيث يمكن أن نخضعها للرياضة، أى أنها ليست من الانضباط لا بحيث يمكن أن نخضعها للرياضة، أى أنها فى الحقيقة لا تستحق الانضباط الرياضى ولا تكاد أن تكون إلا فتاتًا نفسيًّا أو كسرات صغيرة من معدن وحقائق يمكن أن يصنعها وأن يستخرجها بحث اجتماعى أوّلى.

ولقد بلغنى فيما بلغنى من أصدقائى الأدباء، ومن بعض ما قرأت، أن هناك اتجاهًا جديدًا فى عالم الأدب والقصة يسمى "ضد الفن". وعلى الرغم من أننى أستطيع أن أتصور بعضًا من أهداف هذا الاتجاه وأن أتصور بعضًا من أساليبه، إلا أننى أعتقد أنه غريب تمامًا عن محاولتى هذه وعن حرصى على أن أسجّل ما تمليه علىَّ تلك الإرادة الحيوية التى تجمعت فى.

فهذا العكوف المفاجئ على الورق، استجابة لتلك الإرادة، ينشد فعلاً لا يمكن أن يكون إلا من الفن، ومعرفتى بذلك هى حقًّا معرفة بالسلب كما ترون إلى الآن، ولكنها معرفة متحركة نشطة مع ذلك وما تزيحه من أمامها

يكاد أن يكون سدودًا ضخمة أراها تتساقط وتنهار لأصل إلى لحظة قادمة أعرفها وأنتظرها من نور خاص ليس من نور الحياة ولا من نور الرياضة ولكنه أيضًا من هذا النور الأغبش الأعشى الذى أجده فيما أقرأ من قصص حولى.

ولقد لاحظت فجأة وأنا أحاول أن أصل إلى البداية كما قلت، أنَّ من الممكن لى أن أتعثر فجأة فى نوع من الكبرياء أو الغرور الذى يعمينى تمامًا ويكاد أن يقضى على هذه الحركة الدافعة المفاجئة التى تجمعت لى، وقد عزمت ولا أقول أردت، أن أقتل هذا الغرور أو الكبرياء المحتمل بأن أخضع مباشرة لما أعرف من شروط القصص وللمواصفات المتفق عليها للاحتفاظ بالقارئ وتسليته، وخطر لى أن الطريق إلى هذا قد يكون بالتوصُّل إلى شىء آخر غير البداية التى أتصوَّر أننى أبحث عنها. وأعنى بذلك التوصل إلى صياغة لحبكة حياتى ولتحديد الظروف المحيطة بى، وبكل القوى والمعانى القائمة فى هذه اللحظة من حياتى التى تولدت فيها تلك الإرادة الغريبة عنى تمامًا.

إن الظروف التى أحيا فيها الآن هى بالفعل ظروف خاصة، وقد يتصور البعض أنها السبب فيما حدث فىَّ هكذا فجأة، ولكنى، حتى ولو كانت هى السبب، وهذا كما قلت مبحث نفسى، فإنها ليست فى الحقيقة ما أريد أن أتحدث عنه. ولكن هذا التشابك مع الأخلاق، والخشية من الغرور والكبرياء يجعلنى أصر مع نفسى وأمام القارئ أن أحدثه عنها.

فليس هناك فى الحقيقة ما يمنع من ذلك على الرغم من أننى كموظف عام قد تعودت ألا أتحدث عن حياتى كثيرًا أو إذا تحدثت ألا أكتب عنها، أو إذا كتبت ألا أتصور أنها يمكن أن تكون فنًّا أو حتى أن تقترمن أى شىء يشابهه.

فليست ظروفى الحالية بغريبة أو خافية عن أحد. فأنا أعيش فى بيت فى

جاردن سيتى، أشبه بتلك البيوت التى يصنعها الوزراء، وهذا مبحث اجتماعى. فالبيت قد حصلت عليه منذ سنوات طويلة، وبعد أن وصلت إلى رئاسة قسم الرياضة فى كلية العلوم، ويتكون من خمس غرف واسعة وإيجاره القديم بالطبع لا يتفق أبدًا مع كل ما هو حادث الآن حولنا فى أسعار الشقق، أما الأثاث الذى فيه، فقد صنعته زوجتى باختيارها منذ أيام تزوجنا من أكثر من خمسة وعشرين سنة مضت، ولا أجد – حقيقة – كشفًا جديدًا للقارئ فى أن أصف له ا الأثاث، فكل غرفة قد جرت حولها قصة خاصة، إما عن صناعتها أو عن شرائها من مزاد، ولكنها جميعًا من الخشب النادر ومن صناعة أجنبية، فرنسية أو إيطالية، وأما كل الآلات الكهربائية فى المنزل فهى من أمريكا.

وأظن – فى الحقيقة – أنه من السهل على أى قارئ أن يتصور أنواع الاستيل فى الكراسى والمقاعد وفى النجف والأبسطة، فهل هناك جديد فى أن أقول إن معظم النجف عندنا تركى أو تشيكوسلوفاكى، وأن بعض ما لدينا من أثاث كان ينتمى إلى قصور الأمراء أو الوزراء قبل الثورة، وأن لدينا تحفًا وبيبلوهات من المجر والهند وهونج كونج.

إننى لا أكتب الآن فى غرفة المكتب، فقد أصبحت الغرفة ملكًا كاملاً لوظيفتى وامتلأت بدوسيهات كثيرة وبتقارير أخف أهمية ودلالة ا المراجع والكتب الرياضية والفلسفية فى المكتبة، وإن ظلت هذه الكتب والمراجع بعض ما استخدمته فى التأثير فيمن يزوروننى من الأعوان فى الوزارة أو الأجانب الذين يقتربون منى فى العمل، بحيث أجد أن من المهم أن أدعوهم لفنجان شاى أو لكأس فى منزلى، أو حتى لعشاء.

هل يكفى هذا إذن لتصوير ظروفى المادية، أم أن القارئ ومواصفات القصة ما زالا يحتاجان إلى مزيد.

إن تصوري أن هناك بذرة من الغرور والكبرياء، وأن عليَّ أن أقضي عليهما، يدفعني إلى أن أنظر إلى هذه المواصفات القصصية نظرة علمية وأن أحللها أمام القارئ حتى لا يعود فيها من جديد، وقد أستطيع أنا من أحللها أمام القارئ حتى لا يعود ينخدع فيها من جديد، وقد أستطيع أنا من ناحية أخرى أن أحقّق حريتي في الدفاع عن تلك الإرادة الغريبة التي تدفعني للكتابة.

فلكل شخص، بعد الظروف المادية المحيطة به، أي هذا السكن أو الموطن كما يقول علماء الحيوان والبيولوجي، خطان أو بعدان رئيسيان آخران هما العمل والحب. فكما يعمل الإنسان يكون، وعلى قدر ما يحب يستطيع.. هل هذه حكمة صحيحة.. لا أدري، ولكني أخضع لمواصفات.

أما عن العمل فإنني في الحقيقة لا أصنع سياسة، ولكني أولاً أؤمن بها، وأحاول ثانيًا أن أحققها. ولقد كثرت هذه الأيام الأحاديث عن سياسة الانفتاح وعن دلالتها السياسية والاجتماعية، وليس من شك عندي – كعالم ومنفذ للسياسة – أن معظم ما يقال يصدر عن أفكار خاطئة وعن معلومات ناقصة نقصًا فظيعًا بحيث يصبح الكلام مجرد كلام لا دلالة له ولا فائدة والدلالة والفائدة هما ما تعودت أن أبحث عنهما دائمًا في كل ما أعمل، وهما كل ما أستهدفه فعلاً من أي تفكير، وهذا ما جعلني دائمًا أعزف عن الكلام في الصحف وعن الإجابات المبتسرة على أسئلة لم تتضح في أذهان أصحابها.

ولست ممن ينكرون أثر الرأي العام أو أهمية توعيته، فأنا بالعكس أعتقد أن هذا بعد أساسي في أي عمل تنفيذي، ولا يمكن لأي عمل تنفيذي أن يتوصل فعلاً إلى نتائجه التي يريدها إلا بعد التفاعل الكامل بينه وبين الرأي العام.

ولكنني قد توصلت – كما توصَّل الكثيرون غيري من المنفذين – إلى أن تكون الرأي العام في جمهوريتنا مسألة تتعلّق بالتاريخ، وأننا يجب أن نعمل

وكأننا فرقة إنقاذ أو فرقة إطفاء للحريق، وأن نتحرك بسرعة، وأن نواجه المعارضات والانتقادات على أنها مسألة اضطراب وزحمة تعطل العمل وأن علينا أن نواجهها باللطف أو بالسرعة التى تجعلنا نستطيع أن نواصل عملنا، وقد يكون هذا تصويرًا بسيطًا أو ساذجًا لموقفى من العمل ومن السياسة ولكنه - فيما أعتقد علميًا - هو نتيجة مباشرة لظروفنا التاريخية منذ الثورة بما فى ذلك عجزنا عن إقامة تنظيم سياسى قوى، أو فشلنا إلى الآن فى تنظيم توصيل المعلومات كاملة إلى الرأى العام.

ويبقى علىَّ أن أقول عن عملى إننى لا أسرق ولا أرتشى ولا أتصوَّر أن يحدث هذا منى، وإن كنت أعرف أنه يحدث أحيانًا من حولى دون أن أملك قطعًا كاملاً أو قدرة حقيقية على معرفته أو على منعه. وأكاد أستطيع أن أطمئن، بينى وبين نفسى وعلى أساس من احترامى للعلم ولمناهج البحث، إن الحديث بعد هذا يجب أن يكون عملاً علميًا من مباحث علم الاجتماع أو علم الاقتصاد اللذين اضطررت إلى التعرُّف عليهما، وإلى الدخول فى مناقشات كثيرة حولهما، على الرغم من أننى كنت أفضل أن أبقى فى مباحثى حول الرياضة وحول الأشكال والأرقام، وأنا حريص تمامًا على أن أقرِّر هذا لأننى لا أريد أن يتصوَّر أحد أننى أخشى شيئًا أو أتحرَّج فى الحديث عن العمل أو عن السياسة أكثر من هذا. فلقد انتهى بى الأمر - فى حالتى الاجتماعية والاقتصادية - إلى نوع من الاستقرار يصعب أن يهزه شىء، حتى وإن انتهى دورى فى العمل أو طلب منى أن أغيره أو أن أتوقف عن أدائه، ولا شك أن هذا نفسه هو معنى جديد فيه إضافة وكشف عن طبيعة علاقتى بعملى وعن أثر عملى نفسه على تكوينى وعلى حياتى، وما أكثر المباحث العلمية التى يجب أن تتناول كبار المسئولين عن التنفيذ على المستوى الذى أعمل فيه أو على غيره صعودًا أو هبوطًا.

ولكننى أكثر اطمئنانًا الآن إلى أن الغرور والكبرياء اللذين قد أُتهم بهما، قد أصبحا غمامات بعيدة لا تمسنى ولا أقع تحتهما، وأن هذا النور المتواضع الذى أشيعه حول نفسى بمحاولة المعرفة لذاتى يحمينى منهما.

إننى أجلس الآن، بمفردى، وأمامى هذه الأوراق التى أكتب فيها ، وكل المنزل بكل ما فيه من أثاث وذكريات ساكن ثابت، يقع عليه بصرى وأعرفه فى خيالى دون أن يتغيَّر فيه شىء وكأنما قد مر الزمان الذى كان يمكن فيه أن يتغير أو أن يضاف إليه، وتأتى هذه اللحظة التى تتراكم فيها ظروف الحياة كلها لمن يريد أن يراها، دون أن تقدم تبريرًا كافيًا لشىء ودون أن تتفتح فيها كوَّة واحدة لنور على المعنى أو المستقبل، أليست هذه الوحدة التى أحسُّها الآن كافية لأن تقنع من يريد بأن الظروف المحيطة، مهما تعقَّدت أو تراكمت، وأن ظروف العمل مهما دخلنا فى تفصيلاتها لا تكفى.. نعم، لا تكفى لأن تعطينى القصة التى أريد..

إن البيت كالعمل ملىء بتفاصيل أخرى كثيرة، وهناك وهم بأن الطابع العام يقتل الفن، وأن الفن لا يحيا إلا مع التفاصيل. هناك فى البيت مواضع مليئة بالأسرار أخفيتها، حتى عن زوجتى، بل وتركتها فى أماكن نائية أو أدراج مغلقة حتى أخفيها عن نفسى أيضًا. وهناك قطع، مثل تلك اللوحة التى أعطتها لى عشيقة قديمة وعلقتها فى غرفة الجلوس اليومية على أنها عمل فنى هام بعد أن أقنعت زوجتى بذلك. هل هذا خدعة، هل يعنى هذا كشفًا جديدًا عن نفسى أو عن زوجتى؟ ربما. ولكنه أمر عادى قد عشته وعايشته سنوات طويلة الآن حتى كدت أنا نفسى أعتقد أن اللوحة، التى تختفى وراءها تلك المرأة البعيدة، هى حقًا عمل فنى يستحق الاهتمام، ولقد تكرَّر الكذب واصطنعت حوله المواقف حتى أصبح حقيقة، وهذا أسلوب عام متكرِّر فى كثير من جوانب

حياتى فى البيت أو فى العمل. وقد يستطيع الفن أن يتابع الكذب حتى يصبح واقعًا متشكّلاً بشكل الحقيقة ولكنه لا يستطيع أن يرده من جديد ليصبح كذبًا حيًّا مليئًا بدم المعاناة والخجل وجرأة الإنسان على صناعته وعلى تخطيه حتى يستطيع أن يعيش. فهذا من أسرار الإنسان التى لا تفض. ولينظر كل فرد منا إلى كل لحظات الكذب التى ماتت وأصبح يحملها معه جافة مغطاة بقشر الواقع والعادية المألوف.

إن جو العمل ملىء أيضًا بهذا النوع من القبول للأكاذيب الميتة، هناك النقص الفاضح فى الأدوات والأجهزة ووسائل المواصلات والاتصالات التى نعمل بها. وفى كل يوم نعانيها كأنها واقع وكأنها شىء لا مهرب منه ولا حيلة لنا فيه ولا يجرؤ أحد على أن يقف ليسأل كيف وضعت هنا تلك الآلات الكاتبة التى لا تكتب والتليفونات التى لا تعمل والتليكس الذى لا يرد، فإذا ردَّ لم يكن هناك أحد بجانبه ليتلقى منه، إن هذا كله هو أكثر من مجرد بيروقراطية أو نقص فى الإمكانيات، إنه ألفة بالكذب الميت على النفس، شىء قبلناه فى الماضى، وضعناه لنواجه موقفًا، ثم أصبحنا نعيش معه كأنه أمر طبيعى ثابت، إننى لا أفتعل المعنى ولا أقسو عليه، ولكن فلنتساءل كم من المنفذين يعلمون على وجه القطع أن عددًا كبيرًا من معاونيهم لا يصلح لأن يكون كذلك، ليس لديهم تردُّد فى ذلك. ليس هناك تردُّد فى حكمهم على قدراتهم أو على معرفتهم بموضوعهم أو باللغات التى يتعاملون بها أو حتى بأصول التعاقد والتفاوض مع الأجانب أو الإخوة العرب. ولكنك فى نهاية الأمر تظل تعاملِهم أمام الناس وأمام نفسك وكأنهم معاونون كبار وترى أن عليك أن تشجعهم وأن تطلب لهم حوافز للعمل وأن تظل متصورًا أنه قد يأتى اليوم الذى يتغيرون فيه تمامًا ويصبحون شيئًا هامًّا كبيرًا كتلك اللوحة التى احتفظ بها فى

هذه الغرفة، إنهم فى الحقيقة يعنون شيئًا آخر أو كانوا على الأقل يحملون فى لحظة من لحظات الماضى معانى لم تدم ولم تستقر لأننا اضطررنا أن نكذب حولها.

وقد يتصور القصاص أن عليه أن يبحث عن تفاصيل حياة الفرد أو الأفراد الذين يكتب عنهم، فإذا ما جهد وعرفها أو تصورها حاول أن يتابعها فى حياتهم وأن يعرف أثرها على شخصيتهم... إلى آخر هذه الاهتمامات. ولكنه ينسى، فى آخر الأمر، أن كل التفصيلات تبدأ نضرة حية ثم تبهت وتموت وتغيِّر طبيعتها تمامًا، وأن هذا الذى يتجمَّع منها ويتكون من تراكمها هو شىء آخر غيرها تمامًا لأنها، هى نفسها، قد تغيَّرت تمامًا مع الزمن ومع ثبوت الشخص وتكوُّنه.

وأرجو أن يكون واضحًا أننى أحاول بكل هذا التفكير الفلسفى فى بعد الزمن فى شخصية الإنسان أن أحمى نفسى من العين التى تريد أن تصل إلى تفاصيل حياتى، وأن تفسر هذا الدافع الغريب الذى أعيشه الآن للكتابة بشىء أو آخر منها.

لقد تزوجت بعد حصولى على الدكتوراه مباشرة، وأهم من كل تفاصيل الزواج، أن زوجتى الطبيبة وصاحبة العيادة المشهورة للأطفال فى سليمان باشا، قد تركتنى وتركت مصر لتعمل بالتدريس والطب فى الجزائر، فهل أقول إننى وحيد ومهجور ولذلك أعود إلى نفسى وأحاول أن أقف بمفردى عن طريق التغيير، ما أبسط هذا وما أغباه، أو على وجه أدق ما أضحله، إنه من الناحية العلمية تفسير لا يمسك بشىء، فلست مهجورًا ولم تتركنى الزوجة، ولكننا قد توصَّلنا معًا إلى هذا القرار فى محاولة عملية لمواجهة ارتفاع نفقات المعيشة ونفقات حياتنا الاجتماعية إلى حد أصبح مزعجًا لنا ومسببًا لأنواع كثيرة من الضيق، فنحن مثلاً فى حاجة إلى عربة جديدة، لأن العربة القديمة التى استهلكتها زوجتى، لم

تعد تليق بنا، وأنا ما زلت أتحرج تمامًا أن أزج بعربة الوزارة فى مواضع أو مواقف أو أوقات لا تليق... ونحن قد أصبحنا أيضًا نجد صعوبات فى شراء بدل وقمصان لى أو فساتين للسهرة وللخروج ومعاطف لزوجتى. والحقيقة أن عملى العلمى فى التأليف والتدريس قد كاد أن يتوقف تمامًا، وأصبح حسابنا فى البنك لا يكاد يعتمد إلا على ما تحصل عليه زوجتى فاطمة البورينى، من عيادتها..

ولما كنت لم أستطع، بحكم منصبى، أن أغادر البلد بكرامة، فقد كان من الطبيعى أن تدخل زوجتى ضمن هذا التيار المتزايد من الهجرة الذى صاحب سياسة الانفتاح، وليس من شك فى أن لكل واحد من الآلاف العديدة التى خرجت لتعمل ولتعود بقدرة جديدة على مواجهة تكاليف الحياة، له قصة خاصة مليئة بالتفاصيل والمشاكل الجزئية، وأن هناك آلافًا مؤلفة من القصص يمكن أن توضع حول أولئك الأفراد من الرجال والنساء. ولكن ماذا لو كتبت فعلاً تلك القصص، هل ستكون ثروة قومية ضخمة؟ هل ستكشف جديدًا عن الحركة الاجتماعية وعن الظروف المتعلقة بالحضارة وبالاقتصاد، التى تمر بها البلد، أم هل ستكون فى آخر الأمر صورة من صور القصص الفنية التى تهتم بالتفاصيل الشخصية والمواقف العاطفية، وكأنما من الممكن أن نستخلص جديدًا عن كل هذا بعد القرون الطويلة التى مر بها الإنسان ومر بها التعبير، إن الفن لم يعد كافيًا أبدًا. وليس أمامنا إلا العلم ليمسك بكل الخيوط التى تحرك هذه الآلاف المؤلفة من الخارجين. وتجعلهم يقفون فى صبر ومعاناة، أشبه بالمعجزات، أمام مكاتب الإعارة ومكاتب السفارات ليحصلوا على تصاريح العمل وتأشيرات الخروج.. وما أغربها من ألفاظ! تصريح للعمل! وتأشيرة للخروج..!.

لم تكن هذه المعانى الكلية شيئًا مما عرفته زوجتى أو صادفته على أية

حال. كان أمر سفرها شخصيًا فعلاً ومفاجئًا لنا معًا. هل كان مفاجأة حقًا؟ لقد وجدت نفسى أسقط على الفكرة وعلى الاحتمال كما يسقط الصقر أو اللص. لقد أحسست وهى تحدثنى، على مساء يوم، عن العرض الذى قدم إليها، إننى أريد أن أخلص منها أو على الأقل أريد أن أخلص نفسى. فهل وجدت البداية الحقيقية لهذه القصة بهذا الاعتراف؟ وهل كنت أريد من كل ما كتبت، ومن تلك اللحظة نفسها التى أوصلتها فيها إلى قرار السفر، إلى أن أجرد نفسى شيئًا فشيئًا من كل شىء حتى أصل إلى اسمى أو حتى لا يبقى إلا هذا الاسم.

جاءتنى ذات مساء، كما قلت، تقص علىَّ العرض الذى قدم إليها. كان ذلك فى التاسعة تقريبًا وكنت قد عدت متأخرًا من الوزارة وجلست فى غرفة المكتب أشعر أننى سأصاب ببرد قادم، فجلست إلى الفوتيل المريح بجانب الأباجورة، وأخذت الكتاب الذى كنت أقرأ فيه منذ أيام وبدأت أقرأ ساكنًا وأنظر إلى البيت الساكن والذى ما زال خاليًا منها ومن كل شىء إلا النوبى الشاب الذى يخدمنا. كان الكتاب عزيزًا علىَّ وكأنه سر، وكنت أترك نفسى له أعيد نتائجه فى ذهنى وأقيم فى عينى المناظر والأحداث التى يصفها، كان الكتاب من تأليف قس بروتستانتى سميك البدن ثقيل اللحية وكان يتابع حياة قبائل الإسكيمو فى لابلاند ويبحث الطقوس والنصوص الخاصة بعبادة الدب الأبيض وعلاقة هذا كله بفكرة الله، كان الكتاب يعطينى من الوحدة ما أريد، ولست أظن أحدًا يريد تفاصيل أكثر للظروف التى أحاطت بهذا الحادث.

كانت الوحدة والسكون إلى نهاية الحياة قد بدأت تصبح لونًا ثابتًا فى حياتى النفسية وكأنها ضوء من درجة خاصة، وكان قد مر أكثر من عام على وفاة ابننا.

لماذا تهتز الروح وبالذكرى بعد كل هذه السنين؟ ولماذا إذا اهتزت، لا

تهتز بعنف وقسوة ولكنها تميل فقط ميلاً خفيفًا فى حزن وأسى وكأنها شجرة جرداء لا أوراق فيها ولا أغصان فلا تعرف كيف تميل أو تهتز، لقد أصبح الحزن الذى يصاحب عودة هذه الذكرى أو الاضطرار إلى تسجيلها. كما فعلت الآن، مجرد اتساع فى المساحات الشاسعة الفارغة فى الروح وكأنها أرض الجليد الذى أقرأ عنه. إننى لم أكن مستعدًا، فى الحقيقة أن أتحدَّث عن هذا الفقد الذى حدث فى حياتنا، غير أننى أردت أن أسجل التفاصيل كلها ووجدتنا أسأل عن مزيد من التفاصيل.

لقد كان من الأولى بى أن تتساقط منى الدموع، ولكننى لا أبكى ولا أذكر أننى بكيت منذ أن صنعت وعيى العلمى وتكونت أستاذيتى الطويلة فى الجامعة، وكأنما المعرفة والأستاذية مرض يحرمك من هذا الحق الإنسانى فى البكاء.

وعندما مات ابننا كان موته فى حادث مخجل فاضح، فقد تهشَّمت به العربة فى الطريق الزراعى بالليل ومعه فتاة من فتيات الليل، ولم تمت هى، ولكنه كان وحده الذى مات ورائحة الخمر واضحة فى فمه وعينيه، لكننى لم أره ولم أشمه، ولكننى منذ أن سمعت الخبر اندفعت دون وعى واضح بما أفعل لأتحرك لتغطية الفضيحة وإسكاتها، كما أتحرك لدفنه تمامًا. وقد أكرمتنى الصحافة، بناء على طلب خاص من رئاسة الوزراء. كما استطعت بسرعة أن أرتب مدفنًا لائقًا بى وبعائلتى بدلاً من أن نسافر بالجثة إلى البلد فى الشرقية، فلم أكن قد سافرت إلى هناك منذ أيام الشباب، ولم تكن بى قدرة على مواجهة كل هذه الجدة فى البلد وأنا أحمل جثة ابنى وفى مثل هذا الحادث.

ومن غير المعقول أو الإنسانى أن يطلب منى أحد – حتى باسم مواضعات القصة والفن – أن أدخل فى مزيد من التفاصيل، فقد جرحتنى وما زالت

تجرحنى، كل تلك الجهود التى بذلتها لكى أخمد تفاصيل الحادث وأخفيها، ولكى أفرغ من دفن البدن الذى تشوه وتحطم كما قالوا لى. وأكثر ما يجرح من هذه الذكريات وكل هذه التفاصيل هو أن حياة هذا الابن الذى كان قد كبر وبدأ يستعد لأن ينهى دراسته الطبية، قد استحالت فجأة إلى مثل آخر من أمثلة هذا الكذب المألوف الميت.

ولكن هذا الحادث قد استوعبته فى آخر الأمر تلك القدرة الغريبة فى الروح على التشكيل بالكذب وعلى ضمه للرصيد الجامد الذى نحمله فى أنفسنا مع السنين ونعيش به وكأنه ترسبات حجرية تتراكم وتمتد صلدة صماء وإن كانت ناعمة ملساء لا تجرح.

كنت قد استطعت أن أستأنس المصيبة، وكانت الأعوام التى مرت وإن كانت مجرد ثلاثة أعوام - قد علمتنا، أنا وزوجتى، كيف نتجنب ذكر الحادث، ولكنها فى نفس الوقت قد مدت فى أنفسنا تلك المسافات الشاسعة التى تتطلّب الوحدة وتجعلها أمرًا طبيعيًا لا يحتاج حتى إلى تفاصيل لشرحه أو تبريره، كنا قد وصلنا إلى حد أن نتجنب النظر عينا لعين أو أن يديم أحدنا النظر فى وجه الآخر خشية أن ينفجر شىء أو أن نفسد هذه السكينة التى وصلنا إليها. والغريب أننى عندما كنت أنظر إلى شكل روحى بعد السنوات التى مرت على الحادث، وعلى المجاهدة لإخفائه والعيش معه، كنت أجد هذا الشكل مطابقًا لما حدث للروح فى سنوات العمل فى الوزارة، ولست أدرى هل هى طبيعة روحى التى جعلت هذا التشكُّل بالكذب المألوف الميت هو الطابع العام لنفسى كما أعرفها، أم أن هناك فى العمل، وفى البيت، تطابقًا يفرض هذه الوحدة فى السلوك ورد الفعل.

لم يكن إذن أمامى هناك فيما أرى إلا أن أمسك كالصقر، وإن سقط

على ضحية ميتة، بما حدثتنى به زوجتى ذلك المساء وهى تحكى عن العرض المقدم إليها للسفر إلى الجزائر للتدريس والعمل. أحسست ساعتها أن فلوات الجليد يمكن أن تمتد بلا حاجز ولا حركة تفسدها، وأحسست أن من الممكن لى فجأة أن أصبح دبًّا أبيض كبيرًا يطرق هذا الجليد وحده حاملاً فى عينيه، وفى خطوه البطىء الثقيل كل نعومة الوحدة وراحتها وكل احتمالات اللقاء غير المنظور مع الله أو الموت.

ولم أكن أفهم بوضوح كيف يمكن أن يؤدى الكذب، وأن تؤدى الرغبة الخفية غير المعلنة على التخلص منها، إلى كل هذه الراحة التى تصورت أننى سأجدها عندما أصبح وحدى ولا أضطر للحياة مع هذا العنصر الحجرى الكاذب إلا فى العمل فقط.

وعندما استطعت أن أقنعها فى هدوء وأستاذية، ودون أى احتمال لوجيعة أو دموع، بأن السفر فكرة عاقلة عملية وأننا - وقد جرؤت على ذكر الحادث - نستحق هذا التغيير، عندما توصَّلت إلى أنها بدأت ترى فكرة السفر غير غريبة أو شاذة أو قاسية، عندما وجدتها تصمت مقتنعة، أحسست أننى قد حصلت على شىء كبير أو أننى عدت إلى نقطة للبداية كنت أبحث عنها باستمرار.

قالت لى وهى تريد أن تفسد محاولتى. هل ستتعذب بمفردك، فقلت لها بسرعة، وأنا أخشى على محاولتى: سأفتقدكم ولكننى لن أتعذب. وإذا بها تسترد فجأة كل أنوثتها وتتحرك كالنمرة التى تحمى أولادها وتكاد تبكى وهى تقول: ولكننى أنا... سأتعذب. وأحسست أن روحى تميل إليها وتحن، وأن قسوتى التى حصلت عليها بوضوح وحسم مهددة بأن تتلاشى وأنا أستعد لأن آخذها فى يدى وأن أقبلها.

ولكننى قمت فجأة وأدرت لها ظهرى وأنا أسير لأضع كتاب الدب الأبيض فى مكانه على الرف فى المكتبة وأصمت.

وعندما انضمت زوجتى بجسدها وبذكرياتها إلى مفازات الجليد، وأصبحت وحدى تمامًا، اشتعل فجأة هذا النور الغريب الذى دفعنى إلى كل هذه الكتابة والوقفة أمام الاسم. وما أوسع الصمت وأطول التساؤل أمام الاسم الثابت المكوَّن من عنصرين. وقد أصبح. فى المفازة، نورًا ونقطة بداية لا يتجاوزها حتى الفن.

وجبة صغيرة يحفها الامتعاض

بسمة عبد العزيز(*)

مرقت فى سرعة وسلاسة من بين ضلفتى الباب، وانكمشت لتنزلق وسط الأجساد المتدافعة ولتصل قبل الجميع إلى المساحة الخالية على المقعد الأزرق المستطيل.

لم تكن عربة السيدات ممتلئة عن آخرها كما جرت العادة، بل تتخللها فراغات كثيرة تسمح بالتجول والتمدد والوقوف، دون التصاق بأحد ودون الاتكاء على أجساد أخرى...

بدورها، لم تكن الطفلة ذات الحجم الضئيل والتى لم تتجاوز العاشرة من العمر بحاجة إلى تلك الفراغات، لها أذرع وسيقان نحيلة وجسد دقيق، يبدو أنها دربته طويلا على المرور من أكثر الأماكن ضيق... احتلت موضعها فى سعادة فقلما حظت بالجلوس فى القطار، وأخذت تنظر حولها للواقفات كأنما تستطلع أحاسيسهن، وتتقبل التهنئة المشوبة بالحسد على نجاحها فى اقتناص المكان.

حالما جلست الطفلة، ازداد المكان اتساعًا فقد نأت جارتها بساقيها إلى اليسار، بينما احتضنت الجارة الأخرى، على الجانب المقابل حقيبة جلدية ثمينة وضمت ذراعيها إليها، وبدا كما لو أن الطفلة قد صارت تجلس بمفردها وسط الصحراء..

(*) من مواليد ١٩٦٧، من مجموعاتها القصصية (عشان ربنا يسهل)، دار ميريت، ٢٠٠٧، (الولد الذى اختفى)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩.

كانت ترتدى قطعًا متنافرة من الأقمشة والملابس لها حواف غير منتظمة وألوان باهتة، أما رأسها فيحمل وجهًا أسمر لا يرى فيه سوى عينين واسعتين داكنتى السواد، تعلوهما خصلات متشابكة من الشعر الخشن، أما الأجزاء التى تظهر من يديها وساقيها فمتسخة تغطيها بقع سوداء كما لو كان يعلوها صدأ... فى قدميها بقايا حذاء كاوتشوك يبرز لسانه دون أربطة، وتطوق رسغيها وعنقها بعض الحلى الرخيصة.

كان ثمة فارق شاسع يظهر ما بين الطفلة الصغيرة والسيدة المتأنقة الجالسة إلى يمينها فى ثياب فاخرة وحذاءً جلدى ذى رقبة عالية، بالإضافة لساعة يد لامعة وعدد من الأساور الثمينة، كما يفوح منها عطر لم يمر من قبل بأنف الطفلة، التى بالرغم من إدراكها لغرابة مظهرها، فإنها لم تبد عابئة بالتأفف الواضح فى نظرات جارتيها على الجانبين...

مر الوقت فى بطء وتثاقل شديدين، كانت السيدة المتأنقة تتمنى أن تترك الطفلة المكان لإحدى الواقفات، أو أن تتجه إلى أحد الأبواب لتتفرج من وراء زجاجه كما يفعل دائمًا الصغار، إلا أن الطفلة قد خذلتها وظلت فى مكانها، بل وانتهزت فرصة انكماش الجارتين كل على نفسها، لترفع إحدى ساقيها فوق المقعد وتضع الكيس المبلل الذى تحمله بجوارها ثم تخلع فردة الحذاء، وتعبث فى أصابع قدميها التى امتزج فيها العرق بالأتربة فصارت لزجة، وتصاعدت رائحة نفاذة من الحذاء الملقى أسفل المقعد.

لم تطق السيدة المتأنقة صبرًا بوجود الطفلة... بأسمالها المتسخة وبالرائحة المنبعثة من متعلقاتها، نظرت إليها باشمئزاز أضفت عليه دون جهد صرامة وحزم مناسبين، ثم أشاحت بيدها وزجرتها كى تتنحى جانبًا...

طالعتها الطفلة دون دهشة وبغير أن تبتعد عنها قيد أنملة، وكأنما اعتادت أن تثير بتواجدها حنق الآخرين..

لما لم تجد استجابة، كفت السيدة عن النظر إليها بعد دقائق وأخرجت زجاجة عطر ألصقتها بأنفها ثم سكبت منها على منشفة ورقية مشيحة بوجهها إلى الناحية الأخرى..

التقطت الطفلة الكيس الذى وضعته بجوارها وأمسكته بكلتا اليدين... أخرجت لسانها مبللة شفتيها اللتين جفتا منذ زمن، ثم شرعت فى قضم إحدى زوايا الكيس البلاستيكى الشفاف الذى تكلله عقدة محكمة فى قمته.

كان الكيس ممتلئ حتى المنتصف، سطحه دافء ومندى بفعل ما يحويه، أما فوهته فكانت تحمل آثار الصلصة الحمراء الداكنة، بينما ترقد داخله كتلة من المكرونة، التى تشبه بكرات الصوف بخيوطها السميكة الطويلة الملتفة حول بعضها البعض.

أثارت حركة الطفلة انتباه السيدة فألقت عليها نظرة جانبية سريعة دون أن تحرك رأسها، ثم اختلست نظرة أخرى ملتفتة بعنقها... اصطدمت العينان المرسومتان بأقلام الزينة والكحل، بالأسنان الصغيرة التى تجذب الكيس فى دأب ثم تبصق الأجزاء المقطوعة منه أينما اتفق.

اتسعت عينا السيدة المتأنقة فى ذعر، غير مصدقة لما تفعله الطفلة، وانتفضت ملتصقة بمن تجاورها فى الناحية الأخرى لتفسح سنتيمترات قليلة إضافية تقيها ذلك العدوان غير المتوقع، ثم علت وجهها علامات الغضب والتحفز وهى تتابعها، وبات جليًا أن الطفلة قد تجاوزت ما يمكن للسيدة احتماله، فقد احتقن وجه الأخيرة وانتفخ لتصبح على وشك الانفجار..

انتهت الطفلة من إحداث ثغرة بالكيس فأخذت تضغط مكوناته لأعلى حتى وصلت إلى فمها المطبق على الطرف، ثم صارت تمتص المكرونة وتستحلبها

فـى تلـذذ واسـتمتاع، بينمـا تسـيل أسـفل فمهـا خطـوط متقاطعـة مـن الصلصـة الحمراء..

فقدت السيدة ما تبقى لها من هدوء فصرخت فى الطفلة تأمرهـا بالقيـام من المقعد... لكن الطفلة لم تلتفت إليها ، ولم تتوقف حتى عـن تـناول طعامهـا ، وكأنمـا لا وجـود للسـيدة علـى الإطـلاق، وانجـذب الجميـع يتـابعون المشـهد وينتظرون ما ستأتى به السيدة المتأنقة فى مواجهة الطفلة الصغيرة المنهمكة فى إسـكات جوعها..

انتظرت السيدة أن تفزع الطفلـة جـراء صـراخها.. أن تبكـي، أوأن تـترك المكان على الفور، ربما دار بخلدها أيضًا أن تلك الطفلة المتشردة قد تبادر برفع صوتها.. أن تبادلها الصراخ أو أن تتفوه بألفاظ غير لائقة ، كانت علـى اسـتعداد لدخول معركـة تسترد بها هيبتهـا ، فأخـذت تتأهـب لـرد الفعـل الوشـيك، إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث.. ظلت السيدة تراقـب فـى تـوتر حركـة المضـغ المنتظمـة التى تأتى بها الصغيرة دون أن ترفع عينيها عن الكيس ودون أن يظهر عليها أى انفعال.. ولما استقر المشهد بلا تغيير، كررت السيدة محاولتها – مرتعدة من أن تصيبها شذرات الصلصة- وهـى تخير الطفلـة فـى حدة بـين أن تـذهب لتأكـل بعيدًا عنها ، أو أن تتوقف عن الأكل تمامًا..

كانت الطفلـة قـد شـارفت علـى الانتهـاء مـن محتويـات الكـيس بغـير أن تسقط منها ذرة على الأرض، أخذت تستكمل ما تبقى بتأن وهى تؤرجح سـاقيها المعقودتين وتنظر أمامها فى جزل دون أن تدخل طرفًا فى الحديث..

وقد استثارهـا هـدوء الطفلة ، طفقت السيدة تتمتم بكلمات خفيضـة عـن سوء الأدب وعن انحدار التربية ، وفساد الأخلاق، وإهمال الأباءلأبنـاءهم، وهـى تكاد تحترق غيظًا..

أجهزت الطفلة على وجبتها كاملة، اعتصرت الكيس لترتشف نقاط الصلصة الحبيسة، ثم لعقت ما علق بأركانه وكورته لتلقى به من النافذة المفتوحة وأخيرًا مسحت كفيها بردائها أعلى الفخذين وأرجعت ظهرها إلى الوراء لتزيد من انكماش جارتيها..

بعد دقائق فركت يديها وقامت من المقعد الذى ظل شاغرا.. زفرت السيدة ثم جذبت شهيقًا عميق، وكأنما كانت تحبس أنفاسها طيلة الفترة التى قضتها الصغيرة بجانبها..

اتجهت الطفلة إلى الباب وألصقت أنفها بزجاجه.. أخذت تنفخ من فمها لتصنع قطرات مياه متكاثفة وتجعله مضببًا.. رفعت إصبعها لترسم على الزجاج أشكالاً كثيرة، وبين الحين والآخر كانت تنظر إلى السيدة المتأنقة التى ترقبها فى تقزز واضح، والتى يعتريها الفضول لتعرف أى المحطات سوف تبتلع تلك الصغيرة القذرة التى تملك من الوقاحة أضعاف ما يحمل جسدها من أوساخ...

ظلت الصغيرة تبتسم ابتسامات عريضة لامبالية، تبلل إصبعها ثم تعاود صنع الضباب والرسم، دون أن تغادر القطار فى أى من المحطات المتعاقبة....
ما إن همت السيدة المتأنقة بترك المقعد استعدادًا للنزول حتى كفت الطفلة عن اللعب، وانطلقت تسبقها وتقف أمامها متشبثة بمقبض الباب، وحين انفتح الباب تركت كلتاهما القطار فى ذات المحطة...

الخطوبة(*)

بهاء طاهر

كنت قد اعتنيت بكل شيء.. أخذني صديق مجرب إلى حلاق مشهور قص شعري وصففه ودلّك ذقني وتقاضى جنيها.. وبعد ذلك اشترينا ربطة عنق حمراء غالية وأزرارا فضية للقميص. وفي النهاية عندما وقفت أمام المرآة أصبحت وكأني شخص غريب. لم أكن أكثر وسامة ولكنني كنت مختلفا: بشعر لامع وراكد كأنه ملتصق بالجلد، وذقن لامعة أيضًا ومحتقنة، وياقة قميص صلبة ومحكمة. ولأول مرة في حياتي رشقت دبوسا في ربطة العنق، وخيل إلى طول الوقت أنه سوف ينزلق ويسقط ولكنه ظل ثابتا حتى النهاية.

تعجب البواب من هيئتي وسألني وهو يضحك إن كنت ذاهبا لأخطب، فقلت له إن عندي موعدا مهما في البنك وبغير سبب أعطيته خمسة قروش فنظر إليّ باستغراب. قلت له أن يدعو لي لأني أنتظر ترقية، فشكرني ورفع يديه إلى السماء، وتمتم، وارتبكت، وخرجت من الباب بخطوات مسرعة ولسعني الهواء في وجهي فعرفت أن درجة حرارتي مرتفعة. وبينما كنت في التاكسي بدأ قلبي يدق بشدة، وتأكدت أن كل الكلمات التي أعددتها قد ضاعت وأنني لن أعرف أن أقول شيئًا لأبيها بعد عبارة مساء الخير. وبدأ العرق.

(*) نشرت في مجلة "جاليري ٦٨"، العدد ٥، أبريل ١٩٦٩.

بهاء طاهر (من مواليد ١٩٣٥)، من مجموعاته القصصية: (الخطوبة)، (بالأمس حلمت بك)، (أنا الملك جئت)، (ذهبت إلى شلال)، (لم أعرف أن الطواويس تطير).

قلت لنفسى وأنا أدق جرس الباب إن كل شىء سوف يتوقف على الأب وأننى يمكن أن أكتفى بالإجابة على أسئلته. فتحت لى الباب طفلة فى الحادية عشرة، سمراء ورزينة الوجه. وقفت خلف الباب الموارب وواجهتنى بعينين مسبلتين. عندما سألت عن الأب هزت رأسها وفتحت الباب وقادتنى دون كلمة إلى حجرة الجلوس.

ظللت بمفردى لفترة أشم رائحة غرف الجلوس المألوفة: رائحة الخشب الذى تحافظ عليه التهوية القليلة وندرة الاستعمال. كان الشيش مغلقا يحجب نور الغروب الرمادى، ولكن على ضوء النجفة الباهر شاهدت الصور: لوحة زيتية لملاحين يقفان على طرفى الجندول، ويمسك كل منهما بمجداف طويل مغروس فى الماء. وتغطى وجهيهما قبعتان عريضتان، وفى خلفية الجندول البنى، والبحر الأزرق كان هناك ريفى أوربى ألوانه خضراء وحمراء براقة. وعلى يمين اللوحة علقت صورة فوتوغرافية لرجل يضع يده على كتف امرأة فى ملابس الزفاف، ثم صور للأطفال فى أعمار مختلفة. ولفتت نظرى صورة طفلة تفرد ثوبها القصير بيدها إلى ناحية، وترفع يدها الأخرى بطريقة الراقصات الفرعونيات ولم أعرف إن كانت هى (ليلى) أم لا.

وقفت عندما فتح الباب فجأة، ودخل بالقميص والبنطلون. ونظارة طبية وخف منزلى. مد لى يده وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، كانت يده باردة. وعندما جلس قبالتى سألنى هل يفتح الشيش أم لا. نظرت للشيش طويلا ولم أستطع أن أقطع برأى. فقال إن الربيع الحقيقى فى مصر هو الخريف فهو يخلو من الرطوبة، ومن ناحية أخرى فإن هناك فى الربيع رياح الخماسين. أضفت من جانبى أن الخماسين تنقل الكثير من التراب وهذا يؤذى العين، فأسند ظهره على المقعد وقال:

- أهلا وسهلا.

وتلا ذلك صمت، كان يضع ساقا على ساق ويهز خفه فى قدمه فيبرز كعبه من الخلف أملس ونظيفاً وشديد البياض، كبيضة كبيرة.

لم يعد هناك مفر، فبدأت أتحدث دون أن أنظر إلى وجهه. قلت له إننى زميل الآنسة (ليلى) فى البنك وأطلب يدها بعد إذنه، وحدثته عن شهادتى ومرتبى وأبى. وعندما رفعت رأسى فى النهاية وجدته يميل برأسه على صدره، وبدا لى أنه لم يسمع شيئًا مما قلت، ولكنه رفع رأسه فى النهاية وقال:

- من أى بلد فى الصعيد قلت حضرتك؟

قلت له مرة ثانية عن بلدى.

فسألنى:

- من عرب الصعيد؟

- نعم.

- وهل تعرف عبد الستار بك؟

لم أكن أعرفه، فقال لى إنه مدير المنطقة التعليمية هناك وأن كل إنسان يعرفه. شرحت له أننى تعلمت فى القاهرة وتوظفت فيها بعد التخرج وربما كان هذا هو السبب فى أننى لم أعرف عبد الستار بك. هز رأسه ولم يبد مقتنعا بذلك، ثم التفت ناحية الباب وكانت الفتاة السمراء تتقدم بحذر وهى تحمل كوبا من الليمون على صينية. وضعت الكوب أمامى ثم خرجت. قال لى: تفضل، فقلت له: تفضل أنت فقال إنه لا يشرب شيئًا بسبب أمعائه الغليظة وأشاح بوجهه للناحية الأخرى. وبدا لى أنه غضب منى لذلك. لكن بينما كنت

أشرب الليمون قال لى إنه يشرفه أن أطلب يد ابنته، وأنه يعتقد أننى إنسان عاقل وأستحق كل خير. وأضاف أن الشبان العقلاء قليلون هذه الأيام، ثم حكى نكتة:

ذهب شاب من الخنافس إلى الحلاق فرشه بالـ د. د. ت. وعندما بدأ يضحك لذلك، ضحكت أيضًا باعتدال ثم شكرته وتمنيت أن أكون عند حسن ظنه.

قال بصوت هادئ: فى الحقيقة يا بنى إن الآباء يتركون لبناتهم الحرية هذه الأيام لم يكن الحال كذلك على أيامنا. كان الأب يدبر كل شىء وما على البنت إلا أن تتزوج، أما الآن فإن الأب يعلم ابنته ولا يأخذ منها مليما بعد أن تتوظف وترفض كل من ينصحها أبوها بأن تتزوجه، وفى النهاية تختار هى من تشاء، ويكون على الأب أن يتحمل كل شىء رغم ذلك. ولكن على العموم نحن أسرة محافظة.

- بالطبع.

- طبعًا ليلى ليست كبقية البنات. ليلى لا يمكن أن تعصى أمرى. أنا ربيتها وأعرفها. عندما أرادت أن تشتغل قلت لها هل ينقصك شىء؟ قالت لا. قلت لها إذن لماذا تشتغلين؟ أنا علمتك لتكون الشهادة سلاحا فى يدك لو حدث شىء لا قدر الله. قالت يا بابا كل زميلاتى يشتغلن.. أرجوك يا بابا.. أرجوك يا بابا.. وفى النهاية وافقت. من كثرة إلحاحها ليس غير.

- بالطبع هذا..

ولم أكمل.

فقال: نعم؟

قلت: هذا هو السبب.

- بالطبع. عبد الستار بك كان زميلى فى المعلمين العليا. لكن ما علينا من هذا ، أنت تقول إنك لا تعرفه. لكننى أقول لك وأرجو أن تسمع هذا جيدًا. أنا لا يمكن أن أوافق على شىء ليس فى مصلحة ليلى.

- أرجو إذا سمحت أن توضح لى..

- نعم، فى الحقيقة ليلى كلمتنى عنك أكثر من مرة. وقد سألت عنك وأنا أعرف الكثير من البيانات.. الكثير من البيانات.

قال ذلك وراح يبحث فى جوب بنطلونه باهتمام، وخيل إلى أنه سيخرج مستندات معينة، ولكنه فى النهاية أخرج منديلا وراح يمسح وجهه، ويديه، وسألنى مرة ثانية:

- هل أفتح الشيش؟

- إذا أردت.

نظر إلى الشيش ثم قال ببطء:

- عندما كنت فى الجامعة ، كنت تقيم عند خالك. أليس كذلك؟

- نعم.

- وأنت الآن تسكن وحدك.

- نعم.

- لماذا؟

- لا أفهم.

- لماذا تركت بيت خالك وأقمت بمفردك؟

- تخرجت ولم يكن من المناسب أن أبقى عبئا عليه.

- حقا؟ ألم يكن ذلك لأن خالك غضب منك؟

- مطلقا.

- يسرنى أن أسمع هذا. وبالمناسبة هذا سؤال حساس إلى حد ما وأرجو أن تسامحنى ولكن اعتبرنى كوالدك، الأرض التى فى البلد هل هى باسم والدك أو والدتك؟

- شرحت لسيادتك أننا لسنا أغنياء، إنها قطعة أرض صغيرة يزرعها والدى وأعتقد أنها باسمه.

- لا، أعتقد أنها باسم والدتك.

- ربما ولكنى لا أفهم معنى هذا، لم أقم فى البلد ولم أشتغل بالزراعة.

- ولا أنا ولكننى أفهم عدة أشياء. واحد زائد واحد يساوى اثنين. لماذا لم تقم عند واحد من أعمامك فى القاهرة؟

سكت وأخذت أدير الكوب الفارغ فى الصينية، ثم انتبهت على الفور فتركت الكوكب مكانه وقلت بصوت منخفض:

- أتعتقد حضرتك أن هذه مسألة مهمة؟

- أكثر مما تظن.

- إذن فالحقيقة أن هناك خلافًا بين أبى وأعمامى.

- ربما أكثر من خلاف. ربما قطيعة كاملة. أتعرف السبب؟

- كان هناك خلاف على الميراث كما أظن.

ضحك وقال:

- الميراث؟ ما علينا مر هذا. أنا أصدق أنك لا تعرف الكثير عن هذه المسألة. هذا.. الخلاف كما تسميه.. موجود من قبل أن تولد ومن المؤكد أن والدك لم يحدثك عنه. ولكن الآن أرجوك أن تكون صادقا معى. كل شىء بيننا سيبقى سرا.. وأنت تطلب أن تكون زوج ابنتى فمن حقى أن أعرف كل شىء.

- أنا لم أكذب.

- نعم أنت لم تكذب. ولكن الآن قل لى: لم طلق خالك زوجته؟

- أتعتقد أيضًا..

- أرجوك. قل الحقيقة.

- صدقنى.. أقسم أنى لا أعرف السبب. كان خالى كتومًا فى هذا الأمر. أعتقد أن السبب هو أنها لم تنجب.

- لكنه ظل معها عشر سنين دون أن تنجب.

- نعم.

- وهو لم يتزوج بعد أن طلقها، أليس كذلك؟

- نعم.

- وإذن؟

- ربما لم يكن هذا هو السبب.

مال نحوى فجأة وأمسك بيدى الموضوعة على المنضدة الصغيرة بيننا، فارتجفت بينما راح يهمس ووجهه يكاد يلتصق بوجهى:

- أتعنى أنك لا تعرف أنه.. أنه.. قيل إن زوجة خالك كانت على علاقة بك؟

صرخت: كذب.

فقال: أرجوك. اخفض صوتك أنا لم أقل أن هذا حقيقى. بل قلت: قيل ذلك.

- من قاله؟ كذب.. كذب حقير. من قال ذلك كاذب وحقير.

- من قال ذلك هم أعمامك.

- قالوه لك؟

- بالطبع لا، ولكنى عرفت. لا.. لا تسألنى كيف عرفت. ولكن لماذا قالوا ذلك؟

- أنا لم أعرف أنهم قالوا ذلك.

- هل تزور خالك؟

- أحيانًا.

- وله يزورك هو، أو لا.. لا داعى لهذا السؤال. هل ذهب خالك إلى البلد مرة واحدة بعد طلاقه؟

- لا أذكر.

- هذه مسألة سهلة. كان يزور البلد مرة كل سنة، فى الإجازة، وينزل ضيفا عندكم، عند أخته.

- نعم.

- متى كانت آخر مرة؟.

- منذ.. منذ ثلاث سنوات.. منذ السنة التى تخرجت فيها.

- نعم، قبل طلاقه مباشرة. ولم يذهب بعد ذلك ولا مرة.

قلت – لماذا؟

فضحك ضحكة عالية كشفت أسنانا نظيفة لامعة لا توجد بينها فراغات وقال وسط ضحكته:

- أنا.. أنا.. الذى أسألك هذا السؤال.

لم أجب ورحت أتطلع إلى صورة الجندول المعلقة فوق رأسه. بدت مغبشة قليلاً، وعندما تحسست جبينى ابتلت يدى بعرق كثير فى وجهى وحول جفونى. مددت يدى إلى ياقة القميص وحاولت أن أفتحها فتعثرت أصابعى فى زرارها المحكم واكتفيت بأن حللت ربطة العنق قليلاً. قال الأب وهو يحاول النهوض وقد اكتسى وجهه بالجد:

- سوف أفتح الشيش.

مددت يدى نحوه بسرعة وقلت:

- لا داعى لذلك أرجوك – ما يهمنى الآن هو أن أعرف.. ماذا.. ماذا تقصد بالضبط؟

- ينبغى أن يكون ذلك واضحا الآن.

- حضرتك تريد أن ترفض خطوبتى لليلى ولهذا تحدثنى عن.. عن هذه الشائعات؟

قال وقد تصلب وجهه: أية شائعات؟

- هذه القصة الغريبة عن زوجة خالى.

قال وقد عاد يميل نحوى ويهمس:

- أنا لا أفهم.. هذه مسألة ينبغى أن تكون واضحة كالشمس. أنت من الصعيد من عرب الصعيد. وتفهم هذه التقاليد أكثر منى.

- أية تقاليد؟ أرجو أن تكون واضحًا. لا داعى للف والدوران.

- سامحك الله. الحكاية كما أعلم أن خالك، وهو ابن عم والدك فى نفس الوقت كان الوحيد من الأسرة الذى يحتفظ بعلاقات طيبة مع أبيك، أليس كذلك؟

- نعم.

- بسبب النسب طبعًا. كل الأسرة قاطعت أباك لأنه بدد ميراثه فى.. لنقل فى المتعة.. كلهم ما عدا خالك.. وكان الرجل مستعدا لتحمل تهديد بالقتل.

ضحكت وملت برأسى إلى الخلف فاصطدمت عينى بمجدافى الجندول مسددين كحربتين، بينما ارتفع صوته قليلاً وهو يقول:

- لا أعرف إن كنت تتجاهل ذلك أو تجهله.. ولكن فى ذلك الوقت ذهبوا إليه جميعًا، إلى خالك، وقالوا إنهم احتملوا كل ما فعله أبوك

ولكنهم لا يستطيعون احتمال هذا (العار) كما سموه.. أى أن تكون زوجته على علاقة بك. وقالوا إنه إما أن يطلقها وإما أن يقتلوها ويقتلوك فى نفس الوقت.

- خرافة. شخص حقير أراد أن يشوه سمعتى فاخترع هذه القصة الخرافية.

- ربما، ولكن كيف تثبت أنها كاذبة؟

- هناك ألف دليل، أنا أقول لك إنها كاذبة. لست حقيرا لدرجة أن أفكر، مجرد تفكير، فى زوجة خالى. لقد كانت.. كانت كوالدتى.. كوالدتى تمامًا.

- أنا لا أبحث ذلك الآن. وأحترم كلمتك. أصدق أنه لم يكن هناك شىء، ولكن ما الدليل على أن هذه الإشاعة لم تترتب عليها هذه النتائج؟

- إننى لم أسمع بها.

- هذا ليس دليلاً.. أنت تقول إنك لم تسمع بها. ما الدليل على أنك لم تسمع بها؟

- أقسم.

- ليكن.. ومع ذلك فقد قلت بنفسك إن خالك كان كتوما فى هذه المسألة. صحيح؟

- نعم.

- ومن غير المعقول أن يحكى لك هو بنفسه عن هذه المسألة.. وأنت تقاطع أعمامك وأولادهم، بل إنك لا تعرفهم.. أليس كذلك.

- نعم.

- إذن فليس من المحتمل أن تسمع منهم أيضًا.

- هل كانوا سيكتفون بقتلى إذن؟

- لا أعرف. هذا شىء لا أفهم فيه. وأنت لا تعتقد بالطبع أننى ألفت هذه القصة لمجرد أن أقول لك إنى لا أريدك زوجا لابنتى.. كان يمكن أن أعتذر ببساطة.

وإذن؟

- إذن فالقصة حقيقية، لا أقول قصة العلاقة فلا شأن لى بهذا ولكن قصة التهديد والطلاق. إلا إن كان عندك دليل ينفيها.

- نعم عندى بالطبع عندى. لو كانت.. لو كانت صحيحة لشاعت فى كل مكان ولعرفتها. لو كانت صحيحة لاستغلها أعمامى فى التشهير بى وبأبى.

- ويجلبون بذلك العار لأنفسهم؟ لا.. لقد كانوا يريدون حصر المسألة لا إشاعتها.

- وإذن كيف عرفت أنت بها؟ من عبد الستار بك؟

ضحك ضحكة صغيرة وقال:

- رجل فى مثل مركزه يهتم بهذه الأمور؟.. لا. لا.

- إذن كيف عرفت؟

- هذا شأنى، ولكنى أؤكد لك أنها ستبقى سرا بيننا.

- ولم تبقى سرا؟ أطلقها. أطلق هذه الإشاعة فى كل مكان.

- أنا لست شريرا. وأرجوك أن تخفض صوتك.

- ولم أخفض صوتى؟ أليس هذا هو ما تريد؟ ألا تريد أن تسمع ليلى هذه القصة الحقيرة؟ أليست هذه خطتك لإبعادها عنى؟ هاأنذا أقوم نيابة عنك بهذا.. سوف أسمعها بنفسى.. هاها.. زوجة خالى.. لم لا تكون خالتى نفسها.. أو.. أو جدتى مثلاً.. ها.. ها.. ها.

انتهت محاولاته لإسكاتى بأن وقف وهزنى من كتفى وقال بصوت مرتفع إلى حد ما:

- كن رجلا. لو كنت أعرف أنك ستفعل هذا لما كلمتك أصلاً.. هل أنت طفل؟ أنت ضيف فى بيتى.

- أتريد أن أخرج؟

- لا، بل أن تكون رجلاً، وتسمعنى حتى النهاية. هل آتى لك بكوب ماء؟

- لا. شكرا.

- أنا آسف إن كنت قد ضايقتك، ولكنى صدقنى. لم أكن أعرف أنك تجهل كل ذلك.

- كنت سعيدًا بأن أجهله.

عاد يجلس فى مكانه فى مواجهتى وشبك أصابع يديه وراح يتطلع إلى صامتًا فقلت له:

- أنا أعتذر عما قلت.

قال وهو يلوح بيده:

- أنا أقدر شعورك.

قلت وأنا أقوم:

- شكرا. هل تسمح لى بالانصراف؟

قام مرة أخرى ووضع يديه على كتفى حتى جلست وهو يقول:

- لا.. لم ينته كلامنا بعد.
- إن كنت قد فهمت كلامك فأنت تعتقد أننى إنسان سيئ السمعة ولا تريدنى زوجا لابنتك. وأنا لا أستطيع أن أنفى هذه السمعة السيئة لأنه ليس عندى دليل ينفيها.
- أنا لم أقل أنك سيئ السمعة. لنقل إن ضحية إشاعات.
- ليس هناك فرق.
- ثم إننى لم أقل إننى أرفضك زوجًا لابنتى.
- إذن ما معنى ذلك كله؟
- أرجوك أن تفهمنى.. أنا حريص على مصلحة ليلى.
- لم لا تتكلم مباشرة؟
- ليكن.. أنت تريد الصراحة إذن؟ ليكن.. أن تعلم أنه فى البنك، فى وظيفة مثل وظيفتك، فإن سمعة الإنسان هى أهم شىء.
- مرة أخرى؟ هل تلمح مرة أخرى؟
- لا، ولكن..

- مستحيل. أنا لن أقبل أى تلميحات من هذا النوع قل ما تعرفه. قل كل ما تعرفه. أنا لا يهمنى شىء.

- أرجوك..

- ماذا عن العمل؟ ما من شىء يمس سمعتى فى العمل. إن كنت تشير إلى تهمة التبديد فقد برئت منها. النيابة الإدارية ذاتها برأتنى وحفظت القضية.. اكتفت بلفت نظر.

- أقسم لك أنى لا أشير إلى هذا، بل إنى لا أعرفه.

- لا. لم يعد ينفع معى هذا الأسلوب. ما دمت تلمح إلى ذلك إذن فاعلم: كانت مؤامرة مدبرة.. استغلوا حسن نيتى ودسوا على أوراقا لا أعرف عنها شيئًا. النيابة ذاتها اكتشفت ذلك. لو كان تبديدا لسجنت. أتسمعنى؟.. هذا واضح.. ولكن النيابة لفتت نظرى لأنهم قالوا إن حسن نيتى يعتبر نوعا من الإهمال. أتسمعنى؟

- نعم. نعم. أنا أسمعك.

- أنا لست لصًا.

- لم أتهمك بذلك. هل تبكى؟

- لا، ولم أبكى؟ هذا عرق. عرق.. انظر.

- إذن لم لا تريد أن أفتح الشيش؟

قال ذلك وقام من مقعده وكنت لا أراه بوضوح، ولا أرى من اللوحة غير ألوان حمراء وصفراء.

قلت:

- لم أقل أنى لا أريد أن تفتحه. قلت إن هذا لا يهمنى.. لا يهمنى أن تفتحه أو لا تفتحه.. أريد فقط أن أعرف ماذا تريد؟

وضع يده فى جيب البنطلون. وقدم لى منديله بيد مترددة فقلت له:

- شكرا. معى منديل.

وبدأت أمسح العرق من وجهى بعناية، فى جبينى وحول عينى، وعندما انتهت لم أجده أمامى. لم يكن فى الغرفة كلها، ولكن اللوحة واجهتنى بملاحيها المطموسى الوجه. ثم وجدته يقف أمامى ويمد لى يده بكوب من الماء. شربت جرعة من الماء ولاحظت عندما عاد يجلس قبالتى أن هناك ذرات دقيقة من العرق تبرز على جبينه الأبيض المجعد. كان وجهه شاحبا والتزمنا الصمت. قلت بعد فترة، وأدهشنى أن يخرج صوتى رفيعا إلى هذا الحد:

- المفروض أن الجندول فى فينيسيا.

قال – نعم؟ ماذا قلت حضرتك؟

قلت وأنا أشير إلى اللوحة:

- هذه الصورة.. المفروض أن الجندول فى فينيسيا. أقصد فى مدينة. ولكن هذه الصورة تجعله فى الريف. أقصد أن هذا خطأ.

مال بجذعه وهو جالس وراح يتأمل الصورة المعلقة وراء ظهره كأنه يراها للمرة الأولى، ثم التفت إلىَّ وقال:

- نعم، أنت على حق. هل أنت مثقف فى الفن؟

- لا ولكننا درسنا ذلك فى التاريخ. فى المدرسة.

- أنا أيضًا درست ذلك. ولكنى لم ألاحظ.

ثم قال فى حدة مفاجئة:

- استمع إلىَّ.. ليلى تحبك.

- وأنا.. جئت لأخطبها.

- ضع نفسك فى مكانى. أنت أبوها. أكنت تقبل؟

- كنت تستطيع أن تقول هذا منذ البداية. أنا آسف ولن أزعجك أو أزعج ليلى مرة أخرى. سأقول إنك رفضت.

مال نحوى وقال بسرعة وهو يهمس:

- لا. لا. لا. لا أريدك أن تقول هذا بالذات.

- أرجوك. ماذا تريد بالضبط؟

- إذن لنتكلم بصراحة كما اقترحت أنت.. هناك حكايات أو أقاويل معينة عنك يهمك ألا يعرفها أحد.

- نعم.

- لو شاعت هذه الحكايات عنك فى عملك أو حتى بين أصدقائك فيمكن أن تضرك.

- نعم.

- حتى ليلى نفسها يمكن أن تتأثر منها.. يمكن أن تصدقها.

- وإذن.

- من ناحيتى أنا لن أتكلم عن شىء.. أعدك بذلك.. ولكنى أرجو أن تتعاون معى.

- أتعاون؟ فى أى شىء؟ لو تكرمت.. لو..

- أرجوك ألا تضحك. أنا بحاجة فعلا إلى مساعدتك. لو قلت لليلى إننى رفضتك فسوف تتشبث بك أكثر. أنا أعرف هذا: وسوف تكرهنى وقد أجد نفسى مضطرا أن أحكى لها كل شىء.

- فهمت. هل أقول إذن أننى أنا الذى رفضتها؟

- لا. ولا هذا أيضًا. قل لها إننى قبلت.. إننى أعطيتك موعدا آخر لنتفاهم. بعد أسبوع أو أسبوعين.

- ثم ماذا؟

- هناك طرق. أنت تفهم فى هذه الأمور أحسن منى بكثير.. هناك بنات داخل البنك، وبنات خارج البنك (ثم وضع يده على فمه وهو يضحك) وحسب ما أعلم فأنت تعرف كيف تتصرف مع البنات.

- أنت تريد منى أن..

قاطعنى وهو يلوح بيده:

- أنت تفهم جيدًا ما أريد. تستطيع أن تقنع ليلى بألف طريقة أنك عدلت عن الزواج، ولكن دعنا من هذا. هل تعرف الأستاذ عبد الفتاح رئيس قسم الشطب فى البنك؟

- نعم. ما علاقته بالموضوع؟

- ليست له علاقة. إنه صديق قديم. فى الحقيقة وبينى وبينك هو الذى عين ليلى فى البنك. رجل خدوم وطيب. سمعت منه أنهم يريدون أن يفتحوا فرعا للبنك فى مصر الجديدة، وأنهم يريدون رئيسا للفرع الـ.. ما هى درجتك؟.. أعنى كم سنة لك فى البنك؟

- لحظة واحدة من فضلك. هل تعرض أن تشترينى؟ هل هذه هى المسألة؟ أن أترك ليلى فى مقابلة ترقية؟

قال وقد تصلب وجهه من جديد:

- ولم أريد أن أشتريك؟ ماذا تملك لكى تضرنى؟ أنا أعرض عليك خدمة مقابل خدمة. أنا من مصلحتى أن تبعد عن المكان الذى تعمل فيه ليلى وأنت من مصلحتك أن تعمل فى الفرع الجديد.

- ولماذا؟

- قلت بنفسك منذ لحظة أن ملف خدمتك ليس نظيفا تمامًا. هذه فرصة لرد اعتبارك.

- اسمع من فضلك. لا تحاول أن..

- أنا لا أحاول أى شىء.. أنت تحاول أن تنقض وعدك. أنت أخطر مما تصورت.

- أى وعد؟ اسمع، أنا لن أستسلم للتهديد. أنا أحب ليلى وهى تحبنى سأقول لها كل شىء وسوف تفهم. أتسمعنى؟ هذا هو ما سأفعله.

أغمض عينيه ومال فى مقعده. كانت ذرات العرق الدقيقة قد تكاثفت فى ثنايا جبينه المجعد، متجاورة ومتبلورة، حتى بدا كسطح كوب مثلج، ضحك ضحكة خافتة وهز رأسه وهو مغمض العينين، وقال:

- نعم، نعم. أنا أعرف هذه الشجاعة. عرفت فى حياتى كثيرين يرفضون صوت العقل، والآن العشرة منهم بقرش، ولكن صدقنى ليست هذه هى الشجاعة، الشجاعة هى أن تعرف ما بعد هذا وأن تقبله.

- أنا أعرفه وأقبله.

- لا. أنت لا تعرف أى شىء.

- بل أعرف.. تستطيع أن تلوث سمعتى فى العمل، ولعلك تستطيع أن تنقلنى إلى بلد آخر، وتستطيع أن تملأ رأس ليلى بالشك منى..

- وأستطيع أكثر من ذلك صدقنى. أستطيع أن أنشر الإشاعة التى حرص أعمامك على إخفائها. ساعتها لن يعرف أحد ماذا يمكن أن يعمل أعمامك. أو أبوك، أو خالك..

- ولكن هذا مستحيل.

- ما هو المستحيل؟

- أنت لا يمكن أن تفعل ذلك.

- ولم لا؟

- تستطيع أن تفعل بى ما تشاء. أن تنقلنى، أن تقتلنى ولكن ما دخل أقاربى فى هذا؟

- ولكن أنت تريد أن تدمر ابنتى.. ابنتى نفسها. فلم أكون حريصا على أناس غرباء عنى؟ فكر. فكر فى ذلك جيدًا. أتعتقد أننى سأتردد؟ انظر إلىَّ. وبالمناسبة هل تعرف أن خالك حاول الانتحار مرة؟

- اسكت أرجوك.

- كان ذلك بعد الطلاق مباشرة، ولم يعرف أحد من الأسرة.

- ماذا تريد منى بالضبط؟

- نقلوه إلى المستشفى فى حالة سيئة، ولكن..

- اسكت أرجوك، سأفعل كل ما تريد، ولكن أرجوك أن تسكت.

رجع فى كرسيه وقال:

- كان حكمى عليك منذ البداية أنك إنسان عاقل. لا.. لا تقم الآن. جفف عرقك قبل أن تخرج. قد يصيبك البرد فى الخارج.

❖❖❖

جففت عرقى قبل أن أخرج. ولكن بينما كنت أنزل السلم تعثرت قدمى وسقطت على وجهى. قمت بسرعة وبدأت أنفض التراب عن ملابسى وجسمى. استندت قليلاً على مقبض الباب الخارجى الكبير حتى هدأت. كان المقبض زهرة كبيرة مغلقة من النحاس.

خارج البيت كان الليل، وكان الهواء، وكانت العربات تمر بطيئة خلف بعضها وفى ظهر كل منها مصباحان أحمران، ووقفت أنتظر. لم يكن هناك برد. وعندما انتهت العربات أخيرًا عبرت إلى الرصيف المقابل، وكان هناك محل حلاق مزدحم بالمرايا. رأيت نفسى، ورأيت ترابا فى كمى، وخدشا كبيرًا متورما فوق حاجبى. تحسست الخدش بيدى. كان الجلد مهترئا ولكن لم تكن هناك أى دماء. كان الحلاق يقف مستندا إلى الباب وهو يضع يده فى جيب الجاكتة البيضاء. انتبهت إليه وهو ينظر إلىَّ باهتمام. عندما التقت نظراتنا قال لى أن أدخل وآخذ قطنًا، ثم بدأ يضحك لنفسه وحول وجهه عنى. لم أرد. أنزلت يدى عن جبينى بسرعة وعبرت الرصيف مرة أخرى. نفضت كمى جيدًا أمام الباب. ولمحت ظلى فى الزهرة النحاسية اللامعة، ثم بدأت أصعد السلم من جديد.

(١٩٦٨)

نقطة تلاقٍ

بهاء عبد المجيد[*]

رغم الهواء البارد الهارب من جهاز التكييف فإن الحرارة المنبعثة من ناحية المطبخ تثير نجلاء التى تمنت أن تخرج من المطعم وتخلع هذا التيشيرت الذى يجردها من أنوثتها والبادج الذى يحمل اسمها ويجعلها مألوفة ومعروفة لكل الزبائن، آه لو تستطيع أن تستأذن رئيسها "مستر مصطفى"، وتترك الخزينة وتغلق باب المطعم الزجاجى الرائق وراءها مهما كانت حرارة الشمس وحدَّة المظاهرات أمام المجمع، والتى تنادى بمقاطعة البضائع الأمريكية وخرق معاهدة كامب ديفيد بسبب دعم أمريكا لإسرائيل وأيضًا لتوغلها فى العراق، ولكنها للأسف هناك أشياء كثيرة بداخلها تمنعها وتسمرها فى مكانها ولا تتيح لها فرصة الخروج أو الحركة، فهذا المكان الضيق الذى يسجنها هو المكان الوحيد الذى من خلاله يمكنها أن تحصل على نقود.

الذى سيركز معها للحظات سيرى أن عينيها زائغتان خارج المطعم، ومثبتتان على الشاب الطويل القامة الذى يقف على الرصيف المجاور.

- تشكين كومبو من فضلك.
- سلطة خضراء، أرز، بيبسى أو سفن أب؟ سألتها نجلاء.
- لا بيبسى فقط.

[*] من مجموعاته القصصية: (البيانو الأسود)، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩٦.

الفتاة ذات الشعر الذهبى والعيون الواسعة والتى ترتدى بودى ضيقا يظهر تفاصيل جسدها وتكتنز ساقيها فى بنطلون، ناولت نجلاء النقود التى أعجبت بطلاء أظافرها وأرادت أن تعلق نجلاء وتسألها عن نوعه ورقمه، ولكنها ترددت واكتفت أن تردد لها باقى النقود مع ابتسامة مصطنعة كما تعلمت فى فترة التدريب الأولى التى تسبق تسلمها للعمل، أعطتها كوبًا بلاستيكيًا فاتجهت الفتاة ناحية ماكينة الصودا، وأمسكت بشفاط وأخذت تلهو به وتثنيه بأصابعها ثم ما لبثت أن وضعته بين أسنانها وأخذت تقضمه باهتمام وعصبية. ظلت نجلاء حائرة لا تدرى ماذا تفعل! فالزبائن كلٌّ مشغول بالطعام أو بالحديث أو بهز رءوسهم وأرجلهم على نغمات الموسيقى، لم تنشغل بهم كثيرًا وبات تركيزها مع الشاب الذى يقف فى الخارج والذى يأتى كل يوم فى هذا التوقيت وفى نفس المكان ينظر إليها مرة أو مرتين ثم يتجه ببصره نحو الطريق يتابع بشغف السيارات المارة ويحملق فى راكبيها. تريد أن تسأله: لماذا ينظر إليها هكذا؟ وماذا يريد منها؟ وهل ينتظرها أم فقط يتوقع قدوم أصدقائه كما هو المعتاد فى هذا المكان الذى أصبح نقطة تلاق؟ فمن يريد أن يقابل أحدًا فهذه أفضل بقعة يتقابلون فيها، ومن قتله الشوق فى أن يلتقط عابرة طريق فسيجد كثيرات منهن، ومن يرغب فى أن يتناول طعامه أو شرابه فما أكثر المطاعم المتوفرة هنا! كانت قد رأت هذا الشاب منذ فترة عندما دخل المطعم ليطلب وجبة غذاء، لا تزال تتذكر التيشيرت الأسود الذى يرتديه والذى يكشف عضلات صدره وينحسر الكم القصير عن عضلات ذراعيه المتضخمة والتى يبدو أنه يوليهما اهتمامًا بالتدريب أكثر من أى منطقة فى جسده.

لم تكن ترغب مطلقًا أن تعمل فى هذا المطعم، بل فى أحد الفنادق الكبرى حتى ولو فى نظافة الغرف، من يستطيع أن يعمل فى الهيلتون أو

الشيراتون! لكن لم يتحقق حلمها، فقد قامت بأكثر من مقابلة شخصية للحصول على عمل هناك، فقط حصلت على فرصة للعمل فى شيراتون الغردقة ولكن أخاها "محمود" لم يوافق على سفرها وقال "كيف أواجه الجيران والأصدقاء عندما تتغيبين لمدة ثلاثة أسابيع وما يدرينى ماذا ستفعلين وحدك هناك وسط الأجانب وفى هذا المجتمع الحرام؟". مرضت شهرًا عندما تفوه بهذا الكلام. تذكرت نجلاء بعض لحظات من حياتها الخاصة والتى تخفيها عن الكل: قبلة خاطفة، خوف من لحظة مواجهة مع صديق لها فى المدرسة فى غرفة مغلقة، فى منزل أحد الزملاء، وذلك أثناء تأخر المدرس لإعطائهم الدرس، وأوهام فض البكارة، فضيحة الحمل السفاح، كلام الناس، أو رؤية أخيها لها. كل هذه الأشياء عطلت وأجلت خروجها من المطعم لتتحدث إلى هذا الشاب القريب الذى يقف على الرصيف والذى يراقب السيارات المارة، كان يغيب عن عينيها بسبب تجمهر الناس فى الميدان ولكنه عاد للظهور، هو يشبه تمامًا زميلها محسن الذى كان يدرس معها فى المدرسة، كان يتكلم كثيرًا عن أشياء لا تفهمها. عن الشعر والروايات والنيل. وهو يقرأ لها الشعر تمنت أن يذهبا إلى النهر ليأخذا مركبًا، وفى وسط النهر يقبلها، ولكنه لم يفعل، ولم تجرؤ هى أن تصارحه برغبتها فيه؟ هل كان يخاف القبلة؟ أم لم يعرف سحرها؟ الذى عرفته أنه سقط من شرفة منزلهم فى المعادى فى ليلة مقمرة، ولم يروا جثته. وفى الصباح الباكر قال لها الجيران إنه لم ينزف دمًا ولم يسمع لجسده ارتطام بالأرض، وأن روحه طارت بعيدًا تجاه القمر المكتمل.

- عادل ابعد شوية، مش طريقة دية، مش لازم أقول لك دة كل مرة...

ولكن عادل زاد فى احتكاكه بجسدها وتحرشه بها بطريقة تكاد أن تلفت الأنظار لولا أنه ابتعد بسرعة عنها ولم يلاحظ الحاضرون ما حدث لانشغالهم.

عادل صديقها أيضًا فى مدرسة السياحة وهو الذى قدم لها طلب الوظيفة لشركة أمريكانا للأغذية وهو الذى توسط لها لدى المدير عندما فشلت فى امتحان اللغة الإنجليزية، وهو الذى نقلها إلى الفرع القريب من منزلها القاطن بجوار قسم عابدين، كل هذه الأشياء توحى بأنه يحبها وهى تعلم ذلك جيدًا. ولكنه ليس جادًا فى موضوع الزواج، هى تريد أن تتزوج لأن كل فتاة يجب أن تتزوج، لكى تصبح امرأة حرة فى جسدها على الأقل. الواضح أنه لا يريد الزواج من مصرية ولكنه لا يمانع أن يقيم علاقة حميمة مع إحداهن ولكن إن أراد سيتزوج أجنبية، هو بالفعل لديه علاقة مع فتاة أمريكية تدرس اللغة العربية فى الجامعة الأمريكية وبعض أصدقائه يمزحون ويقولون إنها يهودية معللين أن اسم سارة هو اسم يهودى وأنها قضت فترة طويلة فى الكابيتوا فى تل أبيب تدرس الإنجليزية لعرب إسرائيل. كثير من صديقات نجلاء يستخسرون هذا الشاب "الجدع" فى هذه البلهاء التى تضحك بطريقة تثير الانتباه والاندهاش وتتحدث العربية بلجهة شامية لأنها عاشت فى الأردن فى بداية تعلمها للغة العربية. قالت نجلاء له ذات مرة إن سارة جسدها ليس متناسقًا وأن لديها شحمًا كثيرًا فى منطقة الأرداف وتبدو من حركتها "أنها باردة فى كل شىء".

ولكنه قال إن الجرين كارد والباسبور الأمريكى هما الأهم وأن أمريكا بلد الحرية ثم أضاف بسخرية وابتسامه أنه من السهل أن يجد ما يبحث عنه من نساء ساخنات إن كانت هذه هى المشكلة، فخجلت. ولكن نجلاء باتت تسأل لماذا يتحرش بها؟ وتشعر بحرارته وثقل جسده ورغبته فيها، هى ليست بالفتاة المغرية، فجسدها ضئيل وساقاها نحيفتان ولولا عيونها لما نظر إليها أحد، فلماذا إذن هذه الرغبة، أهو حب أم حرمان؟ هى لا تريد أن تستجيب رغم حاجتها إليه، عادل يتحجج كثيرًا ليخرج من المطبخ ليتحدث إليها، ولا

يهتم بتعليقات الزملاء، يضحك كثيرًا، ونجلاء يغرقها الخجل وتخاف أيضًا من المدير الصارم. ومن الزبائن ومن أوهامها قالت: "إن تزوج شبابنا من أجنبيات ماذا سيبقى لنا، لقد أخذوا منا كل شيء". ولكنه لم يكف عن مناغشته لها، ويقول "إن لم تناغش النساء، ستصبح سمعتك سيئة". بعد الظهيرة امتلأ المطعم بالزبائن وحجبوا رؤيتها عن الشارع والشباب الواقف في مكانه وأخذت تتلقى الطلبات العديدة من القادمين، وتحاول جاهدة أن تركز في طلباتهم، وتسجلها على مفاتيح الخزينة الإلكترونية ويظهر ثمنها على الشاشة، ويخرج الريسيت ولكنها ارتبكت وأحدثت أخطاء فادحة في الحساب. هل وسامته التي جذبتها نحو هذا الواقف هناك وراء الزجاج؟ هل نظرته التي تركها منذ فترة وغادر؟ هل لغموضه؟ ولماذا ينظر إلى السيارات المارة بكل هذا الاهتمام؟ وهل يخشى المظاهرات أم لا؟ دخلت فتاة محجبة ونظرت إلى نجلاء بطريقة غريبة جعلتها تتوتر وتتكمش ثم تحسست شعرها وتذكرت أوامر أخيها بأن تغطيه، وأن تتبع طاعة الحجاب، وهي ستفعل عندما تتزوج، لماذا تتحجب الآن ربما تقابل شابًا لا يريد زوجة ترتدي الحجاب وهم كثرة هذه الأيام.

تريد أن تتعذب في الحب، وأن تنطلق في علاقة حقيقية وأن تسهر ليالي طويلة ربما تعد النجوم وتحملق في القمر الوحيد الذي تراه من حجرتها. تريد أن تلهبها حرارة المحبة عندما تنظر لمن تحب أو عندما تتلامس الأجساد أو تندمج الشفاه. لو كانتلاً رجلاً لخرجت مثلما يفعل زملاؤها من الرجال حيث يمكنهم أن يدخنوا سيجارة خارج المطعم، ويضحكوا ويتحدثوا إلى الفتيات اللاتي يعجبن بهن، إن خرجت ستقول للشاب الواقف أن ينتظرها وستمشط شعرها بطريقة جديدة وستضع عطرًا ذكيًا، وستقول له إنها لديها موضوعات كثيرة ليتحدثا فيها. همت أن تفعل لولا أن المدير ظهر فجأة، ثم وجه إليها نظرة صارمة مركزًا

فى عيونها الصارخة وكأن أبراجًا نارية قد تقابلت، وبلهجة تحذيرية قال: "أنت لا تركزين فى عملك، اتركى الخزينة وادخلى المطبخ ثم اتجه إلى عادل وقال "خذ بالك منها"، ثم سلم الخزينة لفتاة أخرى كانت تقف إلى جانبه. غاب الفتى عن الميدان بعد أن ركب سيارة وقفت له فجأة بعد ما هدأت المظاهرات بعد تدخل الأمن المركزى وتفريقه للمتظاهرين بالعصى. و القنابل المسيلة للدموع، سرحت برهة ثم دخلت فى شرود أعمق مستسلمة لاحتكاكات عادل المتعمدة والمركزة فى ركن بعيد من أركان المطبخ شبه المظلم!

بعد منتصف الليل

بهجت فرح

مسمار كبير من الصلب معقوف الطرف ملقى على أرض الطريق، استقر فى الإطار الأمامى لسيارتى القديمة فأفرغه من الهواء. نزلت من السيارة لأستبدله فاكتشفت أن الإطار الاحتياطى فارغ هو الآخر. كنت عائدًا من حفل زواج صاخب لصديق، وكان الوقت بعد منتصف الليل بقليل، استندت على مقدمة السيارة أفكر فيما سأفعل، كنت على مشارف الطريق الدائرى أمام منطقة المقابر، طوحت يدى فى الهواء وأخذت نفسًا عميقًا. كان الجو ربيعيًّا منعشًا والهواء يحمل رائحة زهور الأشجار المتناثرة فى المكان والسماء صافية، مرصعة بالنجوم كثوب من القطيفة الداكنة المنثورة بحبات اللؤلؤ، والقمر يتوسَّطها فى زهو مثل "بروش" من الياقوت فى وسط الثوب. مددت بصرى لأرى القبور أمامى، كانت أشعة القمر الذهبية تغمر المكان والرمال والجدران وشواهد القبور فتمنحها لون الحياة، وتبدو ظلالها على الأرض مصطفة متوازية ثابتة وكأنها طابور من الجند يحرسون المكان.

أمسكت برأسى وغصت فى هذا الصمت الذى احتوانى من كل جانب ولا يقطعه سوى أصوات السيارات العابرة بسرعة فائقة وكأنها تلتمس الفرار إلى حيث تدبُّ الحياة.

لم تتوقَّف لى أية سيارة ولم يعرنى أحد من الراكبين أى اهتمام وأيقنت أننى سأقضى الليل هكذا بجوار سيارتى حتى ينبلج الصبح ويكون العون واردًا فى ضوء النهار.

استبدَّ بى القلق فتحرَّكت أستكشف المكان، لم يكن غريبًا عنى برغم ما ألمَّ به من تغيُّرات، فهنا قضيت بعضًا من أيامى الخضراء، أيام كنا نزور المقابر فى صحبة العائلة، فمقبرتنا على بعد خطوات، وكم قضيت فيها من ليالى وأيام كل المواسم: طلعة رجب، النصف من شعبان، عاشوراء. كنت أحفظ هذه التواريخ عن ظهر قلب وأنتظر حلولها بصبر لأفوز برحلة ممتعة إلى مقبرتنا وحوشها الكبير.

تقدمت بضع خطوات أستعيد ملامح المكان، ها هى شجرة التوت العجوز باقية رغم عشرات السنين صامدة، صامتة معطاءة، ومن خلفها المقام الكبير الذى تصدَّع، وضاعت ألوانه حيث أقف الآن مكان جبل الجيوشى الذى أزيل وحل محله الطريق، أطرقت برأسى واستدرت لأعود إلى سيارتى المعطَّلة. جلست على حافة الرصيف، أشعلت سيجارة ورحت أتأمل دخانها وهو يتصاعد فى دوائر متعرِّجة ويذوب فى حزمة الضوء الذهبى للقمر ويستعير منها لونها ويعلو وينتشر ويتلاشى فى الظلام، كان الجو ساحرًا جميلاً بأكثر مما تحتاجه منطقة المقابر.

عدت إلى الأرض أتفحَّصها فوجدت خيالى أمامى، ابتسمت ولكنه لم يبتسم شعرت بالألفة فالظل رفيق حميم جزء منى وإن كان بلا ملامح، تذكرت أيام كنا نقف فى نفس المكان وقت الغروب لنرى من منا يطول ظله عن الآخر نجح ظلى الممتد أمامى على الأرض فى أن يستدعى زمن براءتى، سحبت نفسًا من سيجارتى الضامرة، خرج الدخان من فمى حمله الهواء، تكوَّر ثم استطال وصار له شكل الجبل، بكل تعاريجه وارتفاعاته ومنحدراته، ما زال كما هو فى مكانه القديم يمتد من أقصى اليمين حيث قضبان السكة الحديد حتى أقصى اليسار حيث ضريح سيدى بكار.

الأطفال يتسلقون الجبل، يتناثرون فوقه مثل قطع الحلوى الملونة،

يتجمعون من كل صوب، اقترب وقت الغروب، الكل يرتدى الملابس الزاهية الألوان، ينحنى البعض ليجمع قروش الملائكة، تلك الأحجار الناعمة المستديرة أسمع ضحكاتهم، أرى إخوتى وأبناء خالتى، أرانى بينهم أرتدى سروالى القصير وحذائى الكاوتش أبيض اللون، أمسك بيد ابنة خالتى شمس وباليد الأخرى ابن أختى سمير، نرفع أيادينا معًا ليطول ظلنا على الأرض ونتشابك، يختلط ظلنا بظل الأشجار والفروع، ننحدر من أعلى الجبل عدوًا حتى السفح، يفعل باقى الأطفال مثلنا، تحدث أقدامنا هديرًا يرج المكان، وتثير زوبعة من التراب، يسقط البعض وتتسخ الملابس وتنحدر دمعات صغيرة على الخدود.. نتعاون كلنا فى تنظيف ملابسنا من الأتربة قبل أن يرانا الأهل، نكتشف أن خالنا يراقبنا من بعيد، نتظاهر بعدم رؤيته ونهرع فى الاتجاه الآخر، تتشابك أيادينا الصغيرة، وننشد بعض أغانينا المحبوبة، أشعر بهواء الغروب، ورائحة التراب، وأسمع الأغانى، يقتحم المشهد صوت هائل لسارينة شاحنة ضخمة تطيح بالجبل والضريح والأشجار ويتناثر الأطفال خارج الصورة وتعيدنى إلى الرصيف والسيارة المعطلة والطريق الذى يمتد أمامى، وفوقه ظلى المسكين الذى أنهكه مرور العربات فوقه، جلست ثانية على طرف الرصيف أشعلت سيجارة ورحت أتأمل ظلى وأداعبه، رفعت يدى إلى أعلى فرفع يده، خفضت يدى فخفضها، رفعت يداى الاثنتين. فجأة ازدوج ظلى فوق الأسفلت، انتفضت واقفًا فاستقام معى ولكن بقى آخر جالسًا متكورًا فى مكانه، استدرت بسرعة أستكشف ما خلفى وفوجئت برجل يرتدى جلبابًا أبيض يجلس غير بعيد عنى مستندًا على شاهد إحدى المقابر، تسمَّرت فى مكانى وتملَّكتنى رجفة واعترانى خوف هائل ولم يخرج منى أى صوت.

فاجأنى الرجل بالكلام قائلاً: مساء الخير، أنا آسف يظهر أنى أفزعتك، تنفست أخيرًا وعاد الدم يتدفَّق فى عروقى بعد أن تجمَّد أو كاد واستندت بيدى

على السيارة منهكًا، نظرت إلى الرجل أتفحصه، كان غير واضح الملامح كصورة مهزوزة، ولكنه يبدو فى العقد الخامس من عمره أسود الشعر، زحفت بعض الشعيرات البيضاء إلى جانبى رأسه، كان جلبابه الأبيض مشويًا ببعض التراب وكان يمسك بسيجارة غير مشتعلة، كانت عيناه غائرتين مثل شخص أجهده السهر قلت: منذ متى وأنت هنا فأنا لم أشعر بحضورك. رد بهدوء: منذ قليل.

لذت بسيجارتى أسحب منها نفسًا عميقًا لعلنى أستعيد بعضًا من توازنى وأعود إلى إيقاع تنفسى الذى أربكته المفاجأة.

فأجابنى الرجل بالحديث مرة أخرى، وقال: أراك فى مشكلة منذ تعطُّل سيارتك ويبدو أنك ستقضى الليل هنا.

ابتسمت قائلاً: مؤكد سأقضيه هنا، وأنت؟ قال: وأنا أيضًا، فالمكان لطيف وأنا ألتمس بعض الهدوء، وفى محاولة منى لتبديد هذا الجو الملبَّد بالتوجس والقلق قررت أن أعرفه بنفسى، أنا جابر العدوى، صحفى بجريدة الخبر. قال: تشرفنا، وأنا جابر تفيدة هانم، فاجأنى الاسم الغريب وأفلتت منى ضحكة عجزت عن حبسها. نظر الرجل إلىَّ بثبات قائلاً: كلنا نحمل هذه الأسماء، فعندما نموت ننادى بأسماء أمهاتنا لأنها يقين، أما الآباء فيعلمهم علام الغيوب وأنا أمى اسمها تفيدة وجدتى لأمى اسمها هانم وهكذا صار اسمى بعد وفاتى جابر تفيدة هانم، فهمت؟

لم أفهم، ولم أسمع، ولم أصدق، عادت الدماء لتتجمَّد ثانية فى عروقى واضطربت أنفاسى أو تعطَّلت وسقطت فى بئر خوف لا قرار له، اقتلع الخوف قلبى من مكانه هممت بالعدو هربًا ولم تسعفنى قدماى وكأنها مزروعة فى الأرض، حاولت الاستغاثة.. الصراخ، البكاء، الكلام أى كلام، ولم يخرج صوتى، تمنيت فى هذه اللحظة الموت، حتى الموت الآن أرحم مما أنا فيه، فأنا

فى هذا الخواء، فى هذا الليل أتحدَّث مع رجل على بعد خطوات منى يقول إنه ميت، ويجلس أمامى فى هدوء، وينظر إلىَّ بدهشة!

قال الرجل: اهدأ، لماذا كل هذا الخوف أنا إنسان مثلك اسمى مثل اسمك كنت أعيش عالمك وتركته منذ خمسة عشر عامًا إلى عالم آخر سوف تأتيه أنت يومًا ما، فلماذا الخوف؟!

خرجت من بين شفتى بعض الهمهمات والحروف مرتبكة مرتجفة لا تشكل أى جملة مفهومة قال الرجل بحدة: اهدأ ستموت من الرعب. وأخيرًا خرج صوتى: سلام قولاً من رب رحيم، انصرف، انصرف أبوس رجلك انصرف. قال الرجل فى دهشة: هل تظننى عفريتًا، قلت لك أنا إنسان مثلك، قلت: يا عم جابر أنا مصدقك أنت إنسان ومش عفريت لكن أبوس إيدك انصرف أنا كدة حاموت، عاوز آخد نفسى.

قال بحزم: إذًا انصرف أنت فأنا أسكن هنا وأنت الذى اقتحمت علىَّ مكانى. قلت مذعورًا: تسكن فين؟ هنا؟ تحت.

قال نعم ولكن بشكل مؤقت، ساءت حالتى وقاربت على الإغماء. قال الرجل بأسى واضح: يا خسارة تصورت خطأ أن وجودى معك يؤنسك ويفيدك، قلت: تؤنسنى وتفيدنى، وصرخت عفريت يؤنسنى ويفيدنى. عاد الرجل لحدته فى الكلام وقال: هذه آخر مرة تنعتنى فيها بوصف عفريت وتتكلم مثل الجهلة والدهماء، فعليك الآن أن توقف هذا الخوف بداخلك وتعود إلى عقلك ورويَّتك واستعن ببصيرتك وتأمَّل الفرصة الذهبية التى بين يديك، فأمامك فرصة عمرك وخوفك يعميك عنها لتضيع منك، والفرصة فى الحياة تأتى مرة واحدة. قلت: فرصة؟ أية فرصة؟ قال بثقة وثبات: أنا، فأنا فرصة عمرك.

قلت: كيف؟

قال: أنت صحفى والأمر لا يحتاج إلى مجهود أو ذكاء لأعرف أنك مغمور وحالك ومظهرك وملابسك وسيارتك تؤكِّد أنك مطحون، ولن يضعك فى دائرة الضوء ويصلح من أحوالك إلا عمل صحفى فذ، أى خبطة صحفية بلغتكم، وها هى أمامك الآن وأنت لا تراها. تلفت حولى فلم أجد شيئًا، وداخلنى إحساس أن الرجل يسخر منى رغم الجدية الواضحة فى حديثه، وفاجأنى ثانية عندما قال: أنت تظن أننى ألهو بك أو أسخر منك، ولكنك مخطئ فأنا جاد إلى آخر الحدود، أنت صحفى صغير تقف أمام رجل مات منذ خمسة عشر عامًا ولم تفكر حتى الآن فى أن تجرى معه حديثًا صحفيًّا وتنشره لتنال شهرة تفوق شهرة المويلحى فى حديث عيسى بن هشام.

اخترق الرجل خوفى، ووصل إلى عقلى وزرع فكرة يستحيل رفضها وإن كنت أرى أيضًا أنه من المستحيل تحقيقها، وانتقل بى الحال من الخوف إلى القلق وقفزت الفكرة فى عقلى تنتقل بين الرفض والقبول والتكذيب والتصديق، تعلو وتهبط مثل صدرى وتدق بعنف مثل قلبى الذى أرهقه الموقف.

استرسل الرجل، المويلحى كتب من خياله وأنت ستكتب من الواقع وستكون أكثر صدقًا وقبولاً لدى الناس، وكان لا بد من قرار، استدرت متوجهًا إلى السيارة وأخرجت الكاسيت الصغير من حقيبتى التى أضعها بجوارى دائمًا، أحاول أن أستغرق فى تجهيز المسجِّل ووضع الشريط وعدم الإنصات لهواجسى التى تحرِّضنى على الهرب يدعمها نصف عقلى، بينما يتصدَّى لها النصف الآخر بالرفض، يذكيها الطموح وأحلام النجاح وإغراء الشهرة و الثراء وهكذا أخذت قرارًا باستكمال التجربة.

أمسكت بالمسجل بعد أن ضغطت زرَّ التشغيل واقتربت من عم جابر لأول مرة وجلست فى مواجهته، ورحت أتأمله، كان يبدو عاديًّا منبسط الأسارير، مستريح النظرات، هادئًا يشعرك بالسلام، ليس فيه ما يدعو للخوف، كان فقط يفتقد نضارة الحياة ولمعة العينين.

هدأت مشاعرى لدرجة أننى شككت أننى أحلم أو أعيش كابوسًا عارضًا ولكن الأمر لم يكن كذلك، فالحياة تعلن عن نفسها حولى بالهواء والقمر وأصوات السيارات على الطريق ورائحة الموت، قلت: تكلم يا عم جابر قدِّم نفسك احنا بنسجل.

قال الرجل بعد أن اعتدل ووضع ساقًا فوق ساق ونظر إلى أعلى: اسمى جابر، تركت عالمكم منذ خمسة عشر عامًا وستة أيام بحسابكم من مواليد مركز مغاغة محافظة المنيا، كنت رئيسًا لوردية عمال بمصنع نسيج، مارست العمل السياسى والنقابى والثقافى، قرأت كثيرًا فى الأدب والشعر والتاريخ والفن والسياسة والفلسفة، أحببت الشعر وخاصة دواوين شوقى وحافظ وبيرم ورامى وجاهين ومحمود حسن إسماعيل وعبد الصبور ودنقل، حاربت على جبال اليمن وفى أحراش الكونغو وفى صحراء سيناء ولحقنى الموت فى حادث سيارة على طريق المنيا/ بنى سويف أنا وسبعة ركاب آخرين ثم نظر إلىَّ فجأة وقال: تركتنى أتكلم ولم تشترك أنت فى الحديث المفروض أن تسألنى عما يشغلك وأنا أرد عليك.

تزاحمت الأسئلة فى رأسى ولم يخرج منها شىء، فهناك فرصة لعشرات إن لم يكن مئات من علامات الاستفهام التى تؤرقنى ومعى ملايين البشر، أن عم جابر مستعد أن يكشف لى المستور ويتكلم بصراحة عن العالم الآخر، لكن كيف أبدًا ومن أين أدخل إلى العالم الآخر؟! قاطع جابر تفكيرى قائلاً: سوف أساعدك، المفروض أن تسألنى كيف جئت من عالمى إلى هنا ولماذا؟

قلت: صح سؤال مهم.

قال: هذا حق لكل روح فى البرزخ ولكن أغلبنا لا يرغب فى ذلك لأن أرواحنا تتألّم لما نراه ونسمعه، أما بالنسبة لى فقد علمت أن ابنى أحمد سوف ينقل رفاتى إلى مقبرة جديدة اشتراها وفضلت أن أبقى بجواره حتى ينتهى من ذلك.

قلت: تقصد أنك عدت إلى قبرك لتكون مع جثمانك عند نقله.

قال: ليس لى جثمان وليس لى قبر، فالقبر لرفاتى فقط وقد انفصلت عنه وليس بيننا أية صلة منذ لحظة الموت، وبرغم هذا يفضّل كل منا إذا نزلت روحه إلى الأرض أن يكون بجوار رفاته أو بجوار أحبائه فى الحياة.

قلت: ذكرت الموت ولحظة الموت أكثر من مرة فى حديثك، فما هو الموت، قال: الموت لحظة انتقال مثلها مثل لحظة الميلاد تمامًا، ففى كلتيهما ننتقل من عالم إلى عالم، فى الميلاد ننتقل من عالم الرحم إلى عالم الدنيا وفى الموت ننتقل من عالم الدنيا إلى عالم السرمد أو الأبد.

قلت: هذا كلام مكتوب على جدران المعابد الفرعونية فى ديانة أوزوريس. أنت تراوغ يا عم جابر، ما قلته الآن ليس إجابة لسؤالى، ابتسم قائلاً: الموتى لا يراوغون ولكنك لم تكن دقيقًا فى صياغة السؤال أيها الصحفى، أنت تقصد أن تعرف ما هى الحياة الأخرى ولكنك سألتنى عن الموت.

قلت: اعتبرنى سألتك عن الحياة الأخرى.

قال: الحياة الأخرى أبدية، سرمدية، لا مرض فيها ولا شيخوخة ولا حمل ولا ولادة ولا حواس مما تعرفها أنت الآن.

قلت: لا أفهم.

قال: لأن عقلك فى الدنيا ليس مهيئًا لفهم الحياة الأخرى مثلك تمامًا مثل الجنين فى رحم أمه لا يكون مهيئًا لفهم شىء عن الحياة الدنيا رغم أنه يعيشها ويخضع لكل قوانينها منذ لحظة الميلاد ولكنه بعد ذلك يستوعب الحياة يومًا بعد يوم ويعيشها.

قلت: ولكنك تستطيع أن توضّح لى ما يمكن أن أفهمه.

قال: ما دمت فى رحم الدنيا فلن تفهم شيئًا عن الحياة الأخرى، مثلك مثل طفل ما زال فى الرحم، لن تفهم إلا عندما تغادر هذا الرحم، أى تعبر بوابة الموت وساعتها سينجلى لك كل شىء.

قلت: كيف وأنت تقول إننى سأفقد كل حواسى التى أعرفها. قال: فعلا ستفقدها ولكنك ستعوضها بما هو أبقى وأرقى، فبالموت ينقطع نور بصرك ولكن تتوهّج شمس بصيرتك، ويخمد العقل ليشتعل الإدراك والوعى والفطرة السليمة، ويتعفن جسدك لتنطلق روحك وتتحرر وتتطهر، وتخرج من سطوة الوقت والزمن والإيقاع الرتيب للحياة، لتصير جزءًا من لا نهائية الكون وزمنه الحقيقى.

قلت: هل الموت مؤلم؟!

ابتسم قائلاً: الولادة والموت لحظات انفصال ولا يفسدها قليل من الألم.

قلت: ومن قبض روحك وكيف؟!

قال: قابض الأرواح، ولا أعرف كيف، كل ما أعرفه أن هناك من صحبنى خارج جسدى وعبر بى فضاء الدنيا إلى برزخ أزرق طويل لا نهائى وتركنى هناك لأبدًا حياتى الأخرى كانت هيئته مثل هيئة خالى الذى كنت أحبه واعتقدت فى أول الأمر أنه هو ولكن عرفت أنه ملاك الموت يأتيك فى صورة من تحب أو من تكره فى الدنيا حسب درجتك.

استجمعت كل شجاعتى وسألته بشكل مباغت. هل رأيت الله؟!

قال بهدوء: نعم بالطبع رأيته.

استرسلت فى لهفة وقربت المسجل من فمه وقلت: رأيته بعينيك؟! قلت لك من قبل ليس للموتى عيون، ثم إن ذات الله لا تسعها العيون ولكنى رأيته يتجلى فى كل شىء حولى وأدركته ببصيرتى وإذا كان يشغلك أن ترى الله فيمكنك أن تحاول. التمس شيئًا من الهدوء والصفاء الذهنى والروحانى واجلس وحدك وأغمض عينيك وانظر فى نفسك جيدًا وتأملها. وسوف تدهشك النتيجة.

توقف المسجل معلنًا انتهاء الجزء الأول من الشريط، وانشغلت بإعداده لاستكمال الحديث على الوجه الآخر، وأشعلت سيجارة وحاولت إشعال السيجارة التى يحملها عم جابر ولكنه رفض، استكملت حوارى معه سائلاً: منظومة الحياة فى الأرض تقوم على مبدأ الصراع وتعتمد أساسًا على قوانين البقاء، وفيه تتغذى الكائنات بعضها على بعض، فالزرع يقتات على الكائنات البدائية والطيور تأكل الديدان والدواب تأكل الزرع والإنسان يأكل الدواب والأسماك تأكل بعضها بعضًا، ولو استغرقت فى التأمل لهذا المشهد ستجده داميًا ولا يتسم بالرحمة.

قال: كنت مثلك فى الحياة أرى المشهد خاليًا من الرحمة، ولكنى الآن أرى أن المعنى الأبعد للحياة وفلسفة الخلق والوجود فى غاية الرحمة، والحياتان لا تنفصلان فى هذا المعنى وإن كانتا تختلفان، والكائنات التى تثير شفقتك فى الحياة خلقها الله لتؤدى دورًا محددًا ومحدودًا فى إعمار الكون ومساعدة باقى الكائنات وخاصة البشر الذين هم حاملى الرسالة والأمانة.

سألته: قلت لى إنه منذ لحظة موتك انقطعت صلتك بجسدك فماذا عن عذاب القبر؟

قال: أى قبر؟

قلت: قبرك.

قال: ليس لى قبر، والقبر لرفاتى، فالجسد مثل الشرنقة والروح مثل الفراشة، فهل تتألم بعد طيرانها إن أنت أحرقت الشرنقة.

قلت: ولكن هناك مئات من الكتب تحكى عن أهوال القبور وعذابها وعن ثعبان القبر الأقرع.

ضحك عم جابر بصوت عال وقال: ثعبان أقرع؟! وهل هناك ثعبان بشعر أو بسوالف أو بضفائر، ألم ينبهك العنوان إلى شىء؟

قلت: مثل ماذا؟

قال: ماذا سيفعل هذا الثعبان؟

قلت: يضربك سبعين ضربة.

قال: السوط أكثر ألمًا والخيزران، هناك مئات من الوسائل التى عرفها الإنسان لإحداث الألم، هذا إذا كانت الأجساد تحس بعد الموت.

قلت: فعلاً، ولماذا يشاع هذا إذًا؟

قال: تأثر الإسلام بالموروثات المصرية، فالإسلام فى مصر، مصرى والفراعنة هم الذين وثقوا حساب القبر فى نقوشهم على المعابد والثعبان رمز الآلهة، والروح تعود إلى الجسد بعد ٤٠ يومًا، ولهذا كانوا أول من بنى القبو الحجرى ليجلس الميت فى يوم الأربعين، ويحاسب وتوزن أعماله وحسناته وسيئاته، وإذا سافرت إلى أى بلد إسلامى غير مصر ستجدهم يدفنون الموتى تحت الأرض وليس فى مقابر مشيدة لها أسقف وبوابات، إنه اختلاط الموروثات

الاجتماعية بالمعتقدات الدينية ثم ما هى أهمية القبر بالذات فهناك الملايين من الموتى ليس لهم قبور، ففى الهند يحرقون الجثث حتى تصير ترابًا ويلقون بها فى النهر أو على الأرض أو يحفظونها فى علبة أو زجاجة.

قلت:

لقد أربكتنى بإجاباتك وكنت حتى هذه اللحظة أظن أننى أفهم ولكنك جعلتنى أشك فيما أفهمه ولم أعد أعرف كيف سأحاسب بعد الموت، هل على معتقداتى أم أفعالى أم أفكارى؟

قال: ستحاسب على كل شىء.

قلت: وما لم أفهمه، هل عليه حساب؟

قال: ستحاسب على ما يجب أن تفهمه، وما تستطيع أن تفهمه، فاستعمال العقل تكليف، وإذا قصرت فى استعمال ما منحك الله من قدرات ومزايا ونعم ستحاسب. قلت: وماذا عما عجزت عن فهمه؟

قال: إذا كان مما أمر به الله وورد به نص فعليك أن تسلم به حتى دون أن تفهمه، وتلك أرقى درجات العبادة والإيمان.

ساورنى الشك فى أننى أحلم وتلفتُّ أتأكَّد من وجودى فى ذات المكان، ابتسم عم جابر فسألته: هل أنت حقيقة؟!

أجابنى بهدوء: وهل أنت؟

قلت فى ارتباك واضح:... أظن.

قال: تظن؟ وما هى الحقيقة والمظنة؟

قلت : الحقيقة مظنة مؤكدة ببرهان صادق.

قال: ما هو البرهان الصادق؟

قلت : ما أراه وأتأكد منه وأستشعره بالحواس.

قال: إذًا كيف ترانى؟

قلت فى تردد: أراك حقيقة.

ابتسم عم جابر قائلاً: حقيقة حية أم ميتة؟!

قلت: صرت لا أعرف، أراك ميتًا تتحدَّث معى.

قال فجأة : وأنت حى أم ميت؟!

قلت بخوف: أظن أننى حى.

قال: تظن؟

قلت: هل أنا مت ولا أدرى؟!

قال: هذا سؤال تجيبه أنت.

عدت أسأله: متى يوم البعث؟

قال: يوم البعث... لا أحد يعلم وكلنا نعرف أنه قريب.

قلت: قريب بأى معيار، بحساب الأرض أم السماء.

قال: بحساب السماء.

قلت: وكيف يكون حساب الوقت والزمن فى السماء؟

قال: اليوم على الأرض يحسب بدورة الأرض حول نفسها واليوم فى السماء يحسب بدورة الكون حول نفسه، ولا تسأل فى هذا لأنه شىء خارج حدود كل ما تملك من تصور.

قلت: الشريط أوشك على الانتهاء وأنت لم تقل لى كيف تعيشون؟ قال: نتعبد، نتأمل، نستغفر، يتعذب البعض، وينعم البعض، وينتظر البعض الآخر.

قلت: ذكرتنى بسؤال مهم: كيف العذاب والنعيم؟

قال مبتسمًا: لا تجهد نفسك فيما لن تفهم وتستوعب، فنعيم الحواس وعذابها شىء تافه لا يستحق الذكر، أما نعيم الروح وعذابها فشىء خارج حدود تصورك، قلت: حاول أن تبسط لى الأمر وأن تشرح لى شيئًا عن الجنة والنار بما يمكننى فهمه.

قال: لقد بسط لك القرآن الكريم كل ذلك وقربه من عقلك وصور أحداثًا ربطها بحواسك فى الدنيا لعلك تفهم وكفاك أن تعرف أنك أنت الجنة والنار، أنت نعيمك وجحيمك، أنت الصانع والزارع والمستحق، أنت الشر والخير والمصير، انظر فى نفسك كما قلت لك واكتشف نعيمك وجحيمك واصدق نفسك ولا تكن كذابًا.

قلت: أنا لا أكذب على نفسى ولا على غيرى، كل ما فى الأمر أننى أشعر أحيانًا أننى متأكد من أمر ما وبعد فترة يعترينى الشك فيما كنت موقنه، فأتخبط بين الأمرين، بين الشك واليقين فأكون كمن طاله حد السيف فشطره نصفين، فسار كلٌّ منهما فى طريق، نصف يقرأ ويحلم، نصف يرى ويتعامل ويكابد، نصف مغروس فى الأرض، نصف محلق فى السماء، نصف يحتمى بظل اليقين ونصف تائه فى هجير الشك، أصبحت أشعر أحيانًا أن خيالى على الأرض ليس ظلاً أو انعكاسات ضوء، إنما هو جزء منى، بعض من روحى وكيانى، أحيانًا أحس أن قدماى فى أثناء السير لا تتفقان على طريق وكأنما تريد كل منهما أن تسلك دربًا منفصلاً.

تراودنى رغبة فى الفناء وأنا أقود سيارتى القديمة، يتملكنى إحساس جارف بأن أنطلق بأقصى سرعة وأصطدم بحائط أو سور وأنهى مهزلة الحياة، أنظر أحيانًا فى المرآة فلا أجدنى، أرى شخصًا آخر أو لا أرى أحدًا، يعترينى إحساس بالذنب على شىء لم أفعله وتنتابنى حالة من لوم النفس تتصاعد معى حتى أود أن أخلع وجهى من على رقبتى وأنهال عليه صفعًا.

أصبح جلدى جدرانًا مسمطة وأنا محبوس داخلها، وأختنق وأضيق بنفسى وأحلم بالهرب خارجها وساعات أشعر بالتواصل مع الكون وأن جلدى صار شفافًا، حريريًّا مملوءًا بالمسام التى أتنفس من خلالها وأشم رائحة الحياة.

من أنا يا عم جابر؟ هل تستطيع إرشادى من مكانك فى عالمك أم أنك مثلى تائه؟

قال جابر: يا بنى أنت تمارس الفلسفة عمليًّا والفلسفة منهج الشك أما أنا فأعيش عالم اليقين، ولا يداخلنى ما بداخلك والشك إذا تمكن منك صار ضبابًا وليلاً وظلمة، تغشى بصيرتك، فتصبح مثل حاطب الليل الذى يخرج إلى الغابة فى الظلام يبتغى الرزق. فلا يفرق بين فرع الشجرة والثعبان ولا يميز بين فحيح الأفعى وحفيف الشجر فيلقى حتفه فى نفس اللحظة التى ظن فيها أنه نال مبتغاه.

كلٌّ ميسرٌ لما خلق له، وأنت وكل بنى البشر خلقتم لإعمار الكون، فمنهج الحياة الإعمار، والوسيلة هى العمل واستعمال العقل والأديان نفسها تدعو وتؤكد لهذا المنهج، وأى تعاليم دينية أو سماوية لا تخرج عن أمرين، دفع المضرة، أو جلب المنفعة ولهذا فأى دعاوى خارج هذا المنهج تصبح لا أخلاقية ولا تتفق ومنهج الخالق وحكمته ولا يمكن نسبتها إلى الأديان. توقف المسجل فجأة..... نفد الشريط. وابتسم عم جابر ونهض واقفًا، ووجدت نفسى أقف معه.

قال جابر: يكفى هذا.

قلت: هل ستتركنى؟

ابتسم جابر وهو يبتعد قائلاً: اقترب الفجر وعلىَّ أن أذهب وعليك أن تحل مشكلتك مع سيارتك.

اختفى جابر، وقفت وحدى وسط المقابر ممسكًا بالمسجِّل وظهرى للطريق. لا أعرف إذا كان هبط إلى مقبرة أم توارى خلف أحد المشاهد، أم تلاشى.

لم يكن ثمة صوت بالمكان سوى دقات قلبى التى بدأت تعلو وتراجعت الطمأنينة بداخلى وتسرَّب الخوف إلىَّ مرة أخرى ولكن هذه المرة كان مختلفاً، فقد تسلَّل الفجر وانتشرت خيوطه تخترق ستار الظلمة وتزيل غلالة الليل عن أعين الصباح وبدأت الحياة تدب على الطريق ويزداد عدد السيارات المارة ويعلو صوتها ووقفت أمام سيارتى أشير إلى السيارات العابرة وتوقفت إحداها أمامى ونزل السائق يسألنى عما أحتاجه فأفهمته مشكلة الإطار الفارغ الذى أوقفنى هنا طوال الليل، نظر السائق إلى السيارة ودار حولها يتفحَّص الإطارات وسألنى أى إطار ذلك الذى تتحدث عنه؟ ونظرت إلى إطار سيارتى الأمامى لم يكن فارغًا من الهواء كان صحيحا معافًى منتفخًا بالهواء، نظر إلىَّ السائق فى ريبة وتوجُّس ودخل إلى سيارته وانصرف دون أن يحدثنى بكلمة واحدة.

فتحت باب السيارة وجلست على كرسى القيادة وأعدت شريط المسجل وبدأت أستمع إلى حوارى مع جابر، كان الشريط خاويًا على كلا وجهيه أدرت الشريط الثانى، وكان أيضًا فارغا، لم يكن هناك أثر على الشريط لحديثى مع جابر.

تلفتُّ حولى، كان الضوء ينتشر فى المكان ولم يبق من الليل إلا بعض خيوطه، التى غزلت مع خيوط الفجر نسيجًا خاصًا يحمل لون الليل والنهار معًا ويبدو خلف المقابر البعيدة، كخلفية مرسومة للوحة عابثة.

أدرت محرِّك السيارة وألقيت بالمسجل على المقعد المجاور لى فاصطدم بزجاجة خمر فارغة، صاحبتنى طوال حفل أمس، وطوال الطريق، تحركت مبتعدًا عن الرصيف أمسح بعينى كل المنطقة، لم يكن هناك شىء غير عادى، كلب يبول على جدار مقبرة، وقطة صغيرة تبحث عن إفطارها وبعض الخنافس عائدة من رحلة الليل تحت الرصيف. عدد غير قليل من أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المحترقة وعلى قرب منها مسمار كبير من الصلب معقوف الطرف ملقى على أرض الطريق.

أيام زمان(*)

جاذبية صدقى

صورتها فى خيالى – سحر بنت الخامسة عشر ربيعها – هى هى أبدا: تضم يديها تضغط بهما على صدرها، ورأسها ملقى إلى الخلف، ووجهها مرفوع نحو السماء بعينين مغمضتين فى نشوة كأنما هناك من يمسح على وجنتها بتحنان، أو كأنما تستنشق هواء غير الذى نستنشقه كلنا! ثم تميل برأسها شيئًا إلى جانب، ترهف أذنيها مفترة الثغر عن بسمة حالمة هانئة، كأنما يهمس إليها ملك خفى بكلمات غزل يطيب لها سماعها، وتتدفع الدماء لوقعها حارة إلى وجنتيها! وتتكور شفتاها ناتئتين، وردة نضرة فى كمها، على أهبة الاستعداد أبدًا لتلقى قبلة العمر من فارس أحلامها الذى يشغلها ويحاورها بحصانه الأبيض فى يقظتها وإغفائها. فتارة هو جبار خشن الطباع، يختطفها أمامه يكاد يهصر بدنها بين أحضانه ويفر بها على حصانه عبر الصحارى والبرارى، إلى حيث يعيشان وحيدين على جزيرة نائية، أسقطها ملك الحب من الفردوس خصيصا لهما، وتارة هو رقيق يسيل وجدًا مثال رجل المجتمع العصرى بكل ميزاته، يراقصها برشاقة ويضمها إلى صدره قيد أنملة، وعيناه فى عينيها تقولان مائة شىء وشيئًا..!

(*) نشرت فى مجلة "الرسالة الجديدة"، العدد ٣٠، بتاريخ ١٩٥٦/٨/٢٠.

جاذبية صدقى (١٩٢٠ ـ ٢٠٠١) من أعمالها القصصية: (مملكة الله) ١٩٥٥، (ستار ياليل) ١٩٥٦، (بكى قلبى) ١٩٥٧، (تعالى) ١٩٥٧، (البنت من بحرى) ١٩٥٨، (شىء حرام) ١٩٥٩، (ليلة بيضاء) ١٩٦٠، (الليل الطويل) ١٩٦١، (أنت قاس) ١٩٦٦، (دبيب النمل) ١٩٦٨، (شفتاه) ١٩٨٠، (نظرة عينيه) ١٩٨٣.

حبيبتى كانت والله هى "سحر" أحببتها أكثر من زميلاتى الأخريات. وكنا فى القسم الداخلى من كليتنا أعز صديقين وأوفى رفيقتين، لا نكاد نفترق على رغم اختلاف أخلاقنا، كأنما تكمل إحدانا الأخرى. وكنا مجتهدتين فى دروسنا، لذلك لم يكن هنا كما يقلق بالنا من هذه الناحية. أما فيما عدا العلم، فلم تكن آراؤنا تلتقى البتة. وكثيرًا ما احتد النقاش بيننا وعنف، ثم فجأة نتصافى، وتحتفظ كل منا برأيها سبب المناقشة، لا تتنازل عنه لرفيقتها، ولا تتنازل عن رفيقتها من أجله. وكانت زميلاتنا ومعلماتنا تتغامزن وهن يشرن إلينا قائلات:

- ها هما مرة ثانية: السالب والموجب فى كهرباء مدرستنا!

وكان أهل سحر من سوهاج الناعسة فى أحضان الصعيد الأقصى، على حين يقيم أهلى فى القاهرة. فإذا جاء أحدهم لزيارتى، حمل إلىَّ هدية من فاكهة الموسم، أو الحلوى أو فطيرات دقيقة تتهاوى بين أناملنا رقة وعذوبة، آكلها أنا وزميلاتى فلا تكاد تحيق بأحشائنا، ونظل نتلمّظ ونتمصص أصابعنا إصبعا إصبعا استطالة للمذاق الحلو الذى مر بنا كالحلم! أما سحر فكانت السلال الصعيدية الممتازة بالمتانة وحسن الجدل تصلها تباعا، وقد حوت كل ما تحلم به أمعاء حفنة بنات فى القسم الداخلى من مدرسة أجنبية، قوام طعامها سلطة خضراء تزيد الشهية الفتية ضراوة، وشرائح شفافة من الشواء تكاد نرى من خلالها الكائنات كأنما أرسلها لنا الطاهى.. عينة!

فما كانت "مارى" الخادم الخصوصية للناظرة – تطل برأسها من حجرة الدراسة، وتهمس فى أذن معلمتنا كلمات نرى هذه بعدها وقد ابتسمت ناحية "سحر" وأومأت إليها أن اخرجى لحظات، حتى تهب البنت متوثبة تهرع خلف

"ماري" وعندما كانت "سحر" تعود ووجنتاها متوردتان وتلمع عيناها اللوزيتان نفهم – نحن أعضاء العصابة أن طردا "من إياهم" قد حل عندنا مكرما معززا!

ويدوى رنين الجرس معلنا انتهاء الدرس، فنتكالب خارجات نتزاحم حول "سحر" التى يرتفع شأنها بيننا فى تلك المناسبات، ونمرق متلصصات نختبئ فى زاوية تحت السلم. وما تلبث سحر أن تلحق بنا وهى تجرر خلفها سلة وقورة انتفخت أوداجها بالعز والخير مما تشتهى الأنفس وتسر الأعين، وضخم سطحها وبرز مستديرا ككرش محترمة يكاد يتفتق عن قطعة الخيش التى تغطيه، وقد خيطت إلى جوانب السلة بدوبارة فيعلو هتافنا فى ترحاب ونحن حول السلة العزيزة نوسعها ضما وتقبيلا ونهوى على الدوبارة قضما بأسناننا منا من تسلكها من الغرزات بدقة وحزم، ومنا من تمزع الخيش بأظفارها، ولا تنتظر فى لهفتنا وجوعنا أن نجىء بمطواة أو مقص!

وما ننجح فى شق ثغرة صغيرة حتى يشتد الصراع والتنافس ونحن ندب أيدينا تجوس فى ظلام الأعماق تصيد لكل نصيبها وتزأر إحدانا كالأسد الظافر وهى تسحب خارجا دجاجة سمينة محمرة تعمل فيها أسنانها، وتغرغر أخرى بضحكة جذلة وقد قبضت أصابعها المستكشفة على حمامة محشوة بفريك هو من النعيم! أما التى تكون من نصيبها فطيرة سخنة الحجم تنز سمنا وعسلا فكانت لا تنبس بشفة بل تفتح فاها إلى أقصاه، ويدها بعد فى أعماق السلة، استعدادا لتلقى الفطيرة اللينة الرجراجة!

وما يخفت شيئًا صراخ النسور الجارحة فى أحشائنا حتى نروح نتراشق بعظام ضحايانا. وتغترف واحدة ملء حفنتها فريكا تدسه دسا فى فم زميلتها فجأة وتضرب عليه بكفها لا تزحزحها! وقد تزدرده المسكينة تغص به، وقد

تتملّص منفلتة وتدفع الفريك بعنف من فمها رذاذًا كمدفع رشاش وهى تقلد جندى الميدان وتدور حول نفسها ونحن نكاد نموت من الضحك ونختنق بما حشرناه فى أشدقانا. ولا تسل عن صفائح الجبن القديمة وعسل النحل أما الفطير المسمى قرقوش العفريت الجميل ذو حبات الكمون المحمصة التى تزين سطحه. فدعه إلى جانب كان حبيبنا ، نتقاتل من أجله ونحشر به جيوبنا مع ما يتبقى بعد الوليمة من أرجل حمام وصدور دجاج لوقت الحاجة - ووقت الحاجة هذا كان دائمًا خلال درس من الدروس. لم يكن يهنأ لنا أكل بقدر ما كنا نتحايل خلسة على ازدراده مستخفيات وراء ضلفتى كتاب مفتوح أمامنا فى غفلة من عين معلمتنا!

وكثير ما فضحتنا رائحة ما نخبئ من أطايب بين دفاترنا.

وقد حدث أن دست "سحر" قطعة كبيرة من مربى المفتقة "دفعة واحدة فى فمها خلال حصة الأدب الإنجليزى ولاكتها مرة ومرتين.. وقبل أن تزدردها هانئة شعرت بيد تقبض على كتفها فوقف شعرها.. وجحظت عيناها.. ودارت على عقبيها لتواجه معلمتنا الأمريكية العجوز بنظارتها الذهبية الإطار مزروعة فوق أنفها تتراقص من الغضب الذى يعتمل فى صدر صاحبتها.

فشهقت البنت وكادت روحها تفلت من يأس موقفها وشدقها منتفخ كأنما فيه كرة صغيرة. وكانت المعلمة قد تسللت خلفها دون أن تشعر بها مقتفية أثر الرائحة النفاذة التى ملأت أرجاء الحجرة، تمط عنقها.. ككلب صيد أصيل.. حتى قادتها إلى مقعد "سحر".

"ما هذا الذى أرى؟ أبقرة أنت لا تنى عن المضغ؟ يا لـ"شكسبير" المسكين! يا لضيعة تعبه! لو علم أن ثمار عبقريته ستدرس لأمثالكن، لفكر مرتين قبل أن يخط حرفًا على ورق!"

كل هذا والدموع تسيح من عينى "سحر" المذعورتين، وقطعة "المضتقة" العتيدة على حالها متربعة فى عظمة داخل شدقها الأيسر.

فنظرنا بعضنا إلى بعض – نحن صديقاتها – ولم يطل بنا التشاؤم، فقد أكببنا نحشر أفواهنا بكل ما فى جيوبنا، وأحطنا بمعلمتنا "مس بارز" العجوز نتشدق تحت ناظريها، وسحناتنا تتقلص وتعوج ذات اليمين وذات الشمال من عسر ما تقاسى من المضغ والبلع! فنسيت "سحر" وتحولت إلينا مبهورة تكاد تتفجر من الغيظ. ثم صاحت بغل ووجهها محتقن وحاجباها الأشيبان رقاصان من فرط ثورتها:

- "مرحى، مرحى!"

وانقضت علينا تقرص خدودنا، وتلطم أذرعتنا، ومن كانت لها منا ضفيرة تشدها تسحبها منها كمقود الجاموسة! ثم أمرتنا كلنا أن نقف فى صف ووجوهنا نحو الحائط حتى تذهب تستدعى الناظرة.

وما إن أغلقت الباب خلفها حتى أسرعنا كالنمل النشيط نزيل كل أثر للجريمة من مكتباتنا. فكورنا لفائف الجرائد المزيتة وألقينا بها من النافذة التى فتحناها على مصراعيها ليتدفق الهواء طلقا، يدفع أمامه الروائح الثرثارة الفضاحة! وكانت إحدانا تحتفظ دائمًا بزجاجة ماء فى درجها، فدارت بها علينا نمضمض أفواهنا، ونميل على حافة النافذة إلى خصرنا، نبصق ونغسل أيدينا.

وجاءت الناظرة تدب بخطوات عسكرية، فدفعت الباب وشملت الحجرة بنظرة فاحصة لتفاجأ بما لم يخطر على بالها، حتى لقد سقط فكها وانفغر فاها من فرط دهشتها:

كانت الحجرة مثالا للنظافة والنظام، وكانت كل منا تجلس مكانها

أليفة مستكينة تتصفح كتابها أو تكتب فى دفترها. ولما دخلت وقفنا لها احترامًا ونحن نبتسم وننحنى لها بأدب ووقار ثم رحنا ننظر إليها مستطلعات بسذاجة وبراءة، وما بعدهما سذاجة وبراءة!

فاستدارت الناظرة إلى المعلمة المسكينة – التى كانت تقرض أظفارها حرجا وتحدث نفسها كمن أصابها مس وسألتها من بين أسنانها وهى تعقد ذراعيها على صدرها فى ضيق.

- "أى مس بارنز" ها أنا ذى جئت كما طلبت منى هل لك أن تخبرينى عن سبب إقلاقى؟ أدعابة أم مزاح؟

ففأفأت وثأثأت، تدور حول نفسها، وتفرك كفيها وتغمغم:

- "هن يأكلن خلال الدرس – أقسم على ذلك".

فانبرت سحر العفريتة بعينيها الصعيدتين الآسرتين ووجهها الأسمر هادئ القسمات يشع براءة وقالت بعد أن استأذنت للكلام:

- "أى ناظرتنا المبجلة: لقد كنا ندرس مسرحية "شكسبير" الخالدة "ماكبث" وبها مشهد لثلاث ساحرات وصفهن المؤلف العبقرى بقوله "يلكن الكلمات فى أفواههن الدرداء كأنما يمضغن طعامًا عسيرًا إذ كنت وصديقاتى نحاول تقليد وصف شكسبير للساحرات و...".

هنا هبت أخرى منا تتم دجل رئيسة عصابتنا "سحر" فتقول:

- "فربما ظنت "مس بارنز" – وبعض الظن إثم- أننا حقًا نمضغ طعامًا!"

فردت ثالثة بصوت صغير وهى تطرق استحياء:

- "وهل هذا يليق؟ هل جننا أو فقدنا الصواب حتى نقدم على مثل تلك الفعلة ونغضب معلمتنا الفاضلة؟"

كل هذا، ومس بارنز تشهق عجبا، وتدير عينيها الفيرانيتين فينا، مبهورة، تلهث، كأنما تشهد مسرحية فريدة.

فتعالت ابتسامة على فم الناظرة وسرعان ما وأدتها، وتتحنحت تزم شفتيها الشاحبتين فى حزم ووقار وتقول:

- آه.. فهمت!

ثم أردفت:

- "على كل حال سأرى بنفسى!"

ودارت علينا تفتح مكتباتنا واحدة تلو الأخرى تعبث بأوراقنا ودفاترنا سدى. لم تجد أثرًا وإن ضئيلا ينم عن صدق اتهام معلمتنا لنا. ولكن كان لا بد أن ننال عقابا ما حتى لا نشمت فى مس بارنز العجوز فأمرتنا الناظرة أن ندع مسرحية شكسبير إلى جانب وأن تكتب كل منا مائة مرة بخط واضح نظيف:

"يجب ألا ألعب ألاعيب شيطانية على معلمتنا الفاضلة" وتركتنا وخرجت.

فرحنا نغمغم وندمدم غاضبات. فرمقتنا "مس بارنز" فى صمت بنظرة طويلة، وفجأة انفجرت ضاحكة، وقد غلبها روحها الأمريكى المرح، وصاحت وهى تغالب الضحك:

لقد كنت "أعفرت" منكن فى زمانى! كأن الله ينتقم منى بكن!

فتكالبنا على الحبيبة العجوز وكدنا نزهق روحها تمامًا من فرط ما أوسعناها ضما وتقبيلا، والمسكينة بيننا توشك أن تفطس وتروح ضحيتنا!

وقالت زعيمتنا وهى تصوب عينيها الآسرتين نحو مس بارنز وقد شحنتهما بكل ما فى وسعها من سذاجة وفتنة:

- "أى "مس بارنز" : أغضبى أنت؟"

فنظرت المعلمة إلى سحر ومسحت على شعرها الحالك المسترسل، وتمتمت بحنان:

- "أنتن بناتى! أو تغضب الأم من بنتها.. طويلاً؟!

ومرة ثانية، تحملت مس بارنز! شهيدة فى اصطبار.. عناق وقبلات عشرين مهرة فتية!

طائر فضى

جار النبى الحلو(*)

لقيتها فوق جسر على نهر، فأخذتنى فى دفء قلبها الراجف وجرت من رياح توقعتها حين رأت وجه النهر عكرًا وهادرًا. قبل أن أتحقق من ملمح العينين والشفتين دخلنا بين جموع الناس الذين تحدثوا بلهجات عدة ولغات مختلفة. هالنى تعدد الأزياء.

اختلط علىَّ العصر الذى أعيش فيه، فأمسكت بيدها النحيفة مقلمة الأظافر، بها رعشة باردة. أطبقتُ بقوة، وانفلتنا إلى جسر آخر. ابتسمت، لمعت نظارتها فضحكت عيناها، فتحت معطفها فانتفض صدرها حياة، وتنفسنا هواء النهر. انعكست عيونها فى الشمس فضوت الشمس بلون لا أعرفه، غير أنى رأيت شعرها الأسود المحمر أكثر احمرارًا كأنه خلق وحيد، ثم سألتنى فجأة ما اسمك؟ أخذتنى اللحظة فى دهشة إذ اكتشفت أن كلينا لم ير الآخر من قبل. قلت لها: لكن كلاً منا يعرف الآخر. أطبقت بيديها الباردتين على وجهى النحيف الساخن، قالت: لست آخر. قلت لها : كنت فى حجرة فوق سطح أنعم بحياة واسعة، أكتب قصصا لا يقرؤها النقاد، قالت: لكن جدتك قاسية. قلت: درجات السلم كانت عالية وقلبى الطفل يفرح بعنقود العنب، ثم انقطعت عنى الحياة بدون وداع. أشارت إلى لوحة كبيرة للشهيد، أكدت: بديعة الألوان. أضفت: ليست كاذبة. سألتنى: ألا تحب المغامرة؟ أجبت بأننى أخاف لأن القدر يترصدنى،

(*) جار النبى الحلو (من مواليد ١٩٤٧). من مجموعاته القصصية: (طعم القرنفل)، و(الحدوتة فى الشمس)، (طائر فضي)، (الهوى).

وأردفت: أعرف أن الحياة ستتركنى وترحل.. غير أنى لست راحلا عنها. كادت تدمع، أخرجت مناديلها الورقية، تبعثرت أرقام هواتفها. خلعت نظارتها فلم أر سوى عينين، قالت بهدهدة: ليست مغامرة حب، إنها مغامرة تذوق الطعام. جلسنا تحت شجرة لها رائحة اللوز قالت: ما رأيك فى عينىَّ؟ لم أقل إنهما بديعتان وأننى بالتأكيد أعرف هذه البنت من زمن بعيد. وددت لو سألتها لماذا التقيت بها وكيف؟ وما كنت أقصد غير أن أعبر من ضفة لأخرى عبر ذلك الجسر الذى لقيتها عليه. قالت: أتعرف.. كنت أسألك أسئلة هامة تاريخية وكنت أنت ترد عليها كأنك تحفظ الإجابات، كنت تنظر أنت فى عينى أنا فأصبت القلب ونسيت أنا الأسئلة. انهمرت فى البكاء، مددت يدى مسحت بعض الدموع، ثم مكثت فى قلبى. لامست يدى وجهها بحنان لا أعرفه فيها، همست: حنانيك. تلمست قرطها الفضى، تحت ذقنها دفء غامض، وفى الرقبة عقد من الفضة وحول المعصمين تلألأت الفضة. أنا طفل هذه الفضة، أحلم بالسباحة فى مياهها. قالت: سنأكل الآن. كل أنواع الأكل التى أحضرت لم أعرفها فى حياتى المملة، بمهل استسغت الطعم والرائحة، ثم أعطت لى خرزة "السلوانة" نقعتها تحت المطر، وشربت من مائها، تبادلنا مص الخرزة وأصبحنا أصدقاء.

كنا بأيام البرد، ترتدى معطفاً وأرتدى ملابس ثقيلة، درجة الحرارة ٤، الحرب توقفت والقصائد لم تتوقف. كانت لم تصح بعد من نزلة البرد، وكنت لم أصح بعد من هموم حياتى الثقيلة، ومن السماء رهام يداعبنا فنخلع نظارتينا.

ارتدت فستانا جديدا وجوربا ونام على صدرها طائر الفضة. ارتديت بدلة جديدة، حذاء جديدا، جوربا جديدا، وقميصا جديدا، وكنا لا نعرف أننا سنلتقى ولما رأت الدنيا على هذه الحال تنفست الصعداء، قالت بفرح من هرب من قبضة أبيه: يمكننا الآن أن ننزل المدينة، ونزلنا.

فى البداية ارتعشت كطفل خائف فى زحمة السوق تسرب إلىَّ الدفء، رفعت رأسى للفسيفساء العربية، لكنها جرتنى من يدى ودخلنا المحلات لتتفرج على صورنا المعكوسة فى المرايا تبص علىَّ وأبصُّ عليها، هل يمكن أن نظل أصدقاء؟ إننا أصدقاء من زمان، وضوت الفضة بابتسامة جذلة، مشينا فى السوق ذى البنايات العالية الذى يحاكى التاريخ القديم، وحين انعطفنا بالكاد سمعت صرختها الهلعة، قبضت على كتفها، شددتها إلىَّ. تحولت إلى طفلة مذعورة فأخذتها فى حضنى. أشارت قائلة: ها هم. نظرت لم أر أحدًا. رددت بصعوبة بالغة: ها هم. لم أر سوى مدية تضوى فى زحام السوق بين السيقان والسراويل والجلابيب تضوى وتنطفئ. انحرفنا ودخلنا مشربًا، شربنا القهوة باللبن بدون سكر، حكيت لها عن أطفال أعرفهم ولا أعرفهم وظللت أحكى عن يد طفل صغير رقيقة. دفأت يدها وتدفأ صدرها وتدفأ قلبى وغنت مطربة الشام أغنيات متوالية، غنينا بشجاعة كالجنود أغنياتنا العاطفية بحماس الأناشيد حتى انتهينا لمكان منعزل عن كل القارات. خلعت جوربها وقلبها، وخلعت خوفى، أسندت وجهها بين يديها وحدثتنى عن الأبواب المغلقة والواحد الذى يقيم عليهن خوفًا وصمتًا، وحط الليل بكل ثقله وارتجفنا.

أبلج الصبح فجلسنا فى المشرب الزجاجى، جلسنا بجوار الجدار الزجاجى، لم أشاهد أى شىء من خلاله لأننى كنت مشغولاً بها. فى لحظة ما مر شخص لم ينظر إلينا، لم يكن بيده مدية، غير أنى ارتبت فى أمره وعندما تابعت من فى المشرب رأيتهن كلهن نساء وينهنهن. تسحبنا وخرجنا، اكتشفت فيما بعد أن المشرب لم يذع أى أغنية، وأن الطقس مال للدفء، وأن الماشين رموا بمعاطفهم على الطوار. قلت لها ساعات وسأرحل، قالت: لا تتكلم عن الوداع، ولتكن الساعات سنوات، بلا أعياد ميلاد بلا أجراس، ونحن لا نحب "بابا

نويل". أعطيت لها بطاقة تهنئة لكل الأعوام القادمة على ورقة من بردى تضيئها ألوان عديدة وزهرة حمراء لم يلحظها سواى، واتفقنا، سألتنى أنا الغريب عن قارتها: ماذا أبغى من بلاد غريبة؟ قلت: أنفاسك تكفينى، رنوة واحدة من عينيك، انعكاس فضتك ستحط فى القلب طائرا لن يبرحه. قالت: أنت طيب.

كانت الأشجار واقفة، والهواء باردا والبنايات عالية والشوارع خالية، كنا وحيدين سعيدين نبحث عن مكان. سألتنى: هل يمكنك أن تعبر البحر؟ قلت: نعم. أن تعبر السماء. قلت: نعم، قالت بسخرية أنت لا تعرف مشاكل جوازات السفر، نحن البنات ربطنا إلى شجرة زرعها أبى لتظلل علينا، كلهن استمتعن بالظل، لكننى تعذبت، لم أعد أحب حتى ثمار هذه الشجرة، وهم تحولوا إلى خوذات حرب، أو جاهرن بالشعر الكاذب. هل تبادلنى العملة؟ تبادلنا العملات، اختلطت هذه التى فوقها نسر ونخل وهرم وقادة. جلسنا بجوار "المتنبى" نتكلم عن "ماركيز"، بينما المطر قد أغرقنا تمامًا، وبينما الشوارع خالية جاء هو ركضا ركضا. انكمشت، وتمنيت لو يأتى إلىَّ وتفرغ الحكاية، تحسستُ جواز سفرى والطائر الفضى الذى حط فى قلبى، وانتظرته تحت المطر، شعرتُ ببرودة النصل، فردت ذراعى تشنجت أصابعى، لكن صوت ركضه خفت وخفت، أمسكت بيدها الباردة، قالت: اختفى.. ألم أقل لك. تمتمت: لكننى لم أر المدية هذه المرة.

أخذتها فى دفئى، أخذتنى فى قدرتها الفائقة على نقل الحدث إلى نقيضه، تمسح دمعتها لتضحك بصوت عال كأنها تشتاق للضحك، تربت علىَّ وتقول: لا تخف ليس هنا رجال. دخلنا المشرب، فى الحقيقة بحثنا عن حل يحتوينا بلا جدوى، بحثنا عن مكان بلا نوافذ عبثا، لأننا بالطبع لم نكن الوحيدين فى هذا البلد ونحن نشقى فى هذا البلد، علينا أن نفرح باحتراس،

شربنا القهوة فى المشرب الخالى، هى خافت وظنت أنه مصيدة، جاء النادل، قدم لنا القهوة التى شربناها فى ساعات طويلة.

لا أعرف بالضبط متى طلعت الشمس، فقد هزنى هاتف الفندق لتنزل لنشاهد قمة الانتصار.. قم.. فقمت، أخطرنى الهاتف أن الساحة مزدحمة وأنهم يحملون الصور، وأن مصير العالم سيتقرر فى لحظات وعلينا أن نقتنص اللحظة، فهربت بلا إفطار، سألتها: لماذا يتبعونك؟ ردت بدهشة: لا يتبعوننى.. إنهم يتبعوننا. اخترقنا السوق الذى يشبه تمامًا الأسواق القديمة فى الكتب القديمة، وخرجت علينا روائح الزمن العربى. درجة الحرارة ١٦ وأنا فى الشمس لا أخاف وأفرح كطفل حتى لو داهمنى الموت. أكلنا فى الشارع وشربنا المرطبات فى الشارع وتبادلنا الآراء واتفقنا على أشياء محددة فى الشارع. قالت: تعال لأعرفك عليه. كان يجلس فى طيبته الموروثة، حين رآنى بش وجهه، خرج من وراء الطاولة، احتضننى وقبلنى قال إنه انتظرنى زمنًا طويلاً وأنه حكى عنى لأبنائه جميعًا. أنا الذى لا أعرفه أحببته، نظرت فى عينيه فرأيته أنيسا وليس منهم، طلبنا الشاى، وعندما انتهينا من الترحاب وجدتنى محاطا بالتحف.. الشمعدان القديم، والأطباق المرسوم فوقها، والأكواب، والوجوه المحطمة، والساعات القديمة كانت تدق أحيانًا لا أعرفها بها نواح وشجن، لف على ذراعى تعويذة من الفضة لتحمينى، كانت من قبل قد دافعت عن الوطن على ذراع قائد، وإذا بها تحوطنى من وراء وتحوط ركبتى بقلادة من فضة اختلط عليها التاريخ "حمورابى" يكتب قوانينه والفلاح الفصيح لا يطالب إلا بحماره وموحد القطرين كان يائسًا.

ركزت على ركبتيها، قربت من عينى زجاجة ذات عنق طويل لها لون البنفسج، نزلت إلى الأرض، ركزت أمامها فأضحى لون الزجاجة لون عينيها

تهدج منها الصوت: ماذا ترى؟ رأيتُ السفن فى بحار خضراء، مناديل البكاء، النخيل مقطوع الرءوس، والأطفال الذين أعرفهم طالعونى لوحوا لى بأيديهم، يريدون رجوعى، جذبونى من ياقة قميصى، اهتزت نظارتى وتوترت، قبلت أصغرهن، لوحت لها بيد مرتعشة. قالت لى وأنفاسها تلفح الوجه: ماذا رأيت؟ رأيت عينيك. كان الرجل ودودًا، صاح: افتح يديك، وضع فيهما عملات لم أرها من قبل، لكن عليها نفس الملوك الذين زوروا تاريخنا ونفس الأميرات اللاتى حكمن خيالاتنا قرونًا طويلة، الأرقام المقروءة وغير المقروءة، كان لبعض العملات رنين، ولبعضها صوت يئن قهرا لأنهم حين اعتدوا علينا اعتدوا عليها، ورمى أمامى بالخناجر المرصعة بالأحجار القديمة، لم يخفق قلبى إلا من مدية مهملة تلمع بحذر.

خرجنا، فاجأنا الصيف فخلعنا ملابسنا الثقيلة، كانت بلوزتها شفافة من تحتها يظهر لون المشد وخطوطه المشدودة وملامح الجسد المنتشى، فرحت بها كثيرًا وضممتها حتى العرق. ركنت ظهرها للنخلة. صنوان فى بهجتيهما، نظرت إلى معجزتها البسيطة فى العينين والصمت، تابعت شهيقها وزفيرها، صعود صدرها الدقيق برغبة جامحة للحياة، ظللت أرقبها حتى غفت، ونامت، قمت وعدلت رأسها على وسادة من عشب وزهرة واحدة لها رائحة الياسمين. لم ترمش، مددت رجليها، شممت عطرها، مسحت بيدى على شعرها الذى ارتجف ثم استكان، مررت على صدرها وبطنها وساقيها، وخلعت عنها الصندل طيب الرائحة، ودعكت أصابع قدميها برفق، ثم انزلقت ونمت برأسى على بطنها، رأيت السماء زرقاء، أطل وجه فارس قديم، تمثال من نحاس أكله الصدأ، بلا درع بلا رأس الحصان، جاء الصوت من بعيد يترنم "أى شىء فى العيد أهدى إليك يا ملاكى؟" أى شىء.. يا ملاكى.. يا ملاكى فى العيد.. أى شىء.. أهدى إليك.. يا.. ونمت.

كن حولى يلعبن فى سرور، ثمة ضجيج، كنت مشتاقا أن أحدث البحر أحاديث خاصة، يرميننى بلعبهن وعرائسهن وحلواهن أصبر على لأوائهن، أفتح كتابى فأرى الحروف تنشد القواميس والجملة تشتاق التحقق، وهن تشابكن فى عراك، أخطف الصغرى، أضمها لنفسى وفى قلبى شوق للبحر. وقعت الثمرة فوق رأسى، فتحت عينى فرأيت ذات السماء وراية صغيرة ترفرف لكنها هاوية ناحية الأرض. كانت هى تتنفس بانتظام، تخرج منها رائحة الصيف، خلعت حذائى، فككت زرار البلوزة الأول، وتوسدت الصدر الساخن الذى انتفض، وسمعت هدير البحر ثم تجسد صراخا وبكاء. همست للأذن المستسلمة فى فمى: لا تبكى يا صغيرتى العجوز، وحين هم النوم أن يأخذنى سمعت فزعة للعشب وتخبطا فى سيقان الزروع. نهضت فرأيته يختبئ، التقت عينانا لأول مرة، قررت أن آكله. حافيا جريت، اصطدمت بالنخيل والشجر والحكايات المرعبة، قفزت من برك المياه، آلمنى الحصى، وكانوا يتناولون الغداء على الحشائش بينهم تلك المرأة العارية، قفزت من فوقهم مثيرا على رفاهيتهم غبارا، قلت: من لى بسعف النخيل، من لى بالعذراء؟ جاء صوته من بعيد صافيا: "جفنه علم الغزل.. ومن العشق..." وأنا أمسح عرقى أخذت لأننى تذكرت العينين مرة أخرى. أنا أعرف هذه العيون.

كانت نائمة تحلم بأنها تلعب بجوار شجرة الهال مع الأولاد، لم أكن رفيقها فى الحلم، ثم أتت أمها، أسلمتها بيدها الطيبة لأبيها ليضربها. كانت نائمة وصندلها ما زال تحت قدميها، لها ملامح الفجر، وملامح الشمال، تحت خدعة تنفسها المنتظم أعرف أنها ستنفجر بلا أمل فى لحظة سيشهدها التاريخ بدون احتشاد فى أى ساحة. سألتنى: هل سافرت؟ هل ركبت الطائرة؟ خطفت منى جواز سفرى، طالعت أختامه المدورة والمثلثة. رمت نظارتها، ووضعت كفا

على عين بألم. رجعتُ للخلف، وهى نائمة لم تكن سوى بعض الطيور قد حطت على رأسها وهدلت، طير حاول فقء عينها، رجوته ألا يفعل لأننى المسكين أحب هذه المسكينة التى سأتركها فى السماء. ابتسم الطير فى خبث ردد قائلا: كنت أطمع فى حبة عينها. وشق قلبى واختفى.

مشينا حافيين على العشب الذى مسته الشمس فامتلك دفء الجسد. قالت: إننا فى الربيع الآن. زينت رأسها بالزهور، وفى الصدر تفتحت وردتان بأريج الياسمين، ورأيت نفسى صبيا ورأيت نفسى شابا بدونها فانزعجت، رأيتنى فى الأربعين. عندما أصبحت فى الأربعين بحثت عن ظلى لأجلس فوقه أعد أيامى الباقية فى انتظار اللحظة الأخيرة حين يمد لى الموت يده فأظنه سينقذنى من تعاسة وحدتى فأسلم نفسى له. فى الأربعين وأنا أبحث عن ظلى سألتنى هى: ما اسمك؟ كم عدد بناتك؟ لماذا لا تموت فى عواصم العالم؟ ما هو طعم القرنفل؟

اكتشفت الخرزات الملونة التى تملأ جيوبى، عرفت أننى أخبئ البنات فى صدرى ولكل بنت سأصنع حقيبة من الخرز الملون. سألتنى عن فلسطين فبكيت، غير أن الزمن أنصفنى وتحولت كل الدموع الخائبة إلى حجارة، غمزت لى كهرمانة بعين فتنة، وحولها جرار الحكايات لا تنضب. فتحت كهرمانة بابها الزجاجى، كانت لافتة "مغلق" تتأرجح، دخلنا، ابتسمت هى، بل ندت عنها آهة، ربما الفرح.. ربما الخوف. لم أفتح عنوة، إنما رويدا رويدا دخلت المكان، به دفء وراحة، دارت وقالت: مكانى. كان مفروشا بالسجاجيد، مضاءً بالقناديل، مزدحمًا بالتاريخ وأبهى الصور، تحرسها العيون الخشبية، والمدافع الخشبية، والشعر كان مرسوما، ولما قرأت أول بيت اختفت.

بحثت عنها فلم أجدها، كانت العجوز ذات الضحكة المخيفة تنتصب فى منتصف المكان، حذرتنى: لا تحزن فهى كثيرًا ما ستضيع منك.. ولا تفرح

كثيرًا حين تلقاها فى الأيام السبعة فلسوف يتلوها جدب طويل. غبت أمام العجوز، متى تلبس هى الفستان الأبيض وتكون خيولها بيضاء شموعها بيضاء، هاجمتنى الطائرات، من علٍ كل الأشياء تافهة الجبال والبحار والدول. قلت للعجوز: أنا راجع. قبل أن أخرج قلت لنفسى المتألمة: ينبغى أن أودعها. كنت أكذب فقد بحثت عنها بحثا مريرا تحت الملابس، وفى أصص الورد، ووراء الصور، وفى التليفزيون، وفى جرار كهرمانة، وعندما وجدتها جرت، جريت. انفسح المكان فنزلت كل الشخوص الخشبية ترقص وتغنى.. التفوا حولنا بألوانهم الزاهية ورائحة خشبهم العطرة ورائحة الزيوت ورائحة التراب، أحضروا الدفوف والطشت النحاسى وإبريق المياه وسجادة الصوف، أخذت الربابة وعزفت كيفما اتفق، أخذتها منى وعزفت حزنا ما، دخل الحلقة أسد، جرت الشخوص مذعورة ما عدا هى التى استسلمت للخوف وأنا الذى لا يخاف وأنا معها. ركزت على ركبتى، طأطأ الأسد رأسه، كان مصنوعا من القماش، له ملمس الحيوان. انظرى إن له عينى فتاة، عيون مكحلة، كأن البنت ستخرج توا لملاقاة الحبيب الذى لن تجده حيث الرحيل هو طريق الرجال. أقعى الأسد تحت رجليها، أصيبت برعشة، وفجأة رأيت سيدة سمينة تلمع التحف الخشبية بتؤدة، بيد مدربة تلقائية، وبعين التصقت بنا، أشرت لها على السيدة السمينة، سألتها أن نشرب الشاى. قالت السيدة: لا يوجد وأضافت: إننى أراقب عقارب ساعتى المطفأة لأغلق المكان. شدت حقيبتها وشدتنى من يدى وقالت: هيا بنا. أنا هذه المرة الذى رأيت المدية بين ثديى السيدة السمينة. ظلت تشدنى حتى أخرجتنى من برد لتضعنى على حافة الربيع، هتفت: الدنيا ربيع. لعلها غنت بكل ما حرمت من غناء. رأيتنى شجرة مورقة مزهرة مثمرة قوية بين عشب وفراشات، ورأيتها طائرًا فضيًا يحط كلما شاء ويطير فى فضائه كلما أراد.

تهمس أنت معى دائمًا، كنت هنا حين جاء كان يريد أن يخطفنى،

ولكنك كنت بيننا، أخذتها تحت ذراعى والزحام شديد، يتخبط بنا الأهل والغرباء، رأيتهم يسرقون بعضهم، ويسطون على أوراق الآخرين، يبيعون سر الوطن ورحيقه، يدقون أجراس المزاد على آخر ما يملكون، أخذتها تحت ذراعى، أخذت هى تفرجنى على صورها: هذه أنا وأنا طفلة. خبطنى الشيخ وتأفف. قالت: هذه أنا وأنا مراهقة. شممت عطرها، فى شفتيها شقاوة ما. قالت: هذه أنا وأنا جامعية، وهذه أنا وأنا أنا. خبطت فى صدرها سيدة عجوز ترتدى الملابس المزركشة، العجوز لعنت وبصقت. قالت: هذه صورة قديمة لى وأخواتى ثلاث بنات صغيرات. أنزلت ذراعى، حملقت فى الصورة بدهشة، إننى أعرفهن، رأيتهن من قبل، ساخت روحى لأن البنت الصغرى المرتدية فستانا منقوشا بالورد تمسك فى يدها اليسرى مدية لامعة، ظاهرة ولا تبين، ضحكتها لم تكن صافية، خبط فى فاصطدمت ببندقيته، وقعت منه القلنسوة، لم أهتز لأننى كنت مرعوبا من نظرات البنت الصغرى الممسكة بالمدية، بإصبع يرتعش حاولت الإشارة إليها، قالت: هى أنا حين كنت فى العاشرة، وهذا خنجر كنت ألهو به، على مقبضه تمددت الأفعى، وكان هدية لأبى من بلاد اليمن. سألتنى: أتعبت؟ أجبت: لا. مشينا على مهل، قالت عندى سيارة، لكنى أود أن نتعرف على العالم بأقدامنا، ثم أردفت: أنا الآن لا أخافهم.. هل تعرف معك لا أخاف. قلت: مع أن الطريق مغلق ومفتوح على السماء. مطت شفتها. تمتمت: هى ساعتنا الذهبية التى نعيش.

نسيت تمامًا حكاية الصور. أمسكتها من يدها اليمنى فوجدت بكل إصبع خاتما من خواتم الزواج. لم أدهش ولم يمسسنى الأذى، فقط كنت سأسأل فقالت قبل السؤال: هذه مجرد تجارب وحين أنَّت أصابعى الخمسة اكتشفت أنى خدعت كل هذه المرات وكانت الخواتم قد ضاقت على أصابعى

فلم أستطع الخلاص منها. انفعل وجهها وعقدت حاجبيها، قالت بصوت حاد: لا تظن أننى تزوجت، كما أننى لم أحب، بحثت عنه فلم أجده، وكانت النهايات مدهشة، أما الموت فكان سجنًا أو هربًا أو قتلاً. هب علينا الخريف، واحتمينا بالسيارة، تعرفت على ملامحها من جديد. طول قامتها ومحيط الخصر، انتهزنا يومًا مشمسًا وشاهدنا بقايا الحضارات المعروضة فى علب زجاجية، ودخلت بها البناية الأثرية العالية، الأروقة خالية وفصول الدروس شامخة، نفسًا لنفس أصبحنا. لا فرار منها. تمكن الطائر منى وصرخت باسمى، وخرج إخناتون من النقوش يتلو: أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء. مرت الثوانى منذ لقيتها على جسر كمئات الأعوام ومعرفة ملايين السنين وما غرس فى الروح من أنين. زعقت: يا حبيبى. كالتى تنادى فى البرية، دثرتنى بردائها الوحيد، وقفلت بابها علىَّ تجفف عرقى سبع سنوات طوال. مرضت وحللت دمى فوجدتها فصيلتى. قالت العجوز: إن عمرى قصير وإنها دم حياتى.

تفضى الطرقات الخالية إلى خلاء، وما توهمته سكونا قطعته أصوات لحيوانات شرسة، لم أشأ القول. وقفت، بصت فى عينى، وهمست بصوت لم يبرح قلبى حتى الآن: ستوحشنى. للسيارة جنون خاص وظلمة ممتعة، تتحول الكائنات لكائن واحد ونفس واحد ومصير واحد، لم أكن أعرف عذوبتها هذه ولا ضحكتها هذه. تكاد السيارة تطير فى السماء السوداء لترتطم بالمصابيح الصفر، والموسيقى تهدر عالية. ماذا لو هوينا؟ ماذا يضير الشاة بعد ذبحها، خلت الساحات والميادين. بهتت الصور، ولا يلمع فى الكون سوى لون أحمر شفاه، وأصبح للحياة طعم الموت الجميل فاستسلمنا للسيارة التى تمضى وحدها من ظلمات لنور، غير أنها شهقت عندما اصطدمت السيارة بالأرض، وفتح الرجل الباب، وطلبوا منى جواز السفر. مدت يدها هنيهة، واختفت اختفاء

نجمة واهنة وراء السحب. وهم أتموا معى الإجراءات بخشونة وفظاظة فتشوا جيوبى وصدرى، انتزعوا كل ما ملكت روحى. رمونى فى طائرة واسعة خالية صامتة، ربطت حزامى وكألم قديم عاودنى أحسست بشىء ما فى ظهرى أو صدرى. مغمدة بعنف من زمن لا أدركه. عرفتُ ألمها، غبتُ فوق السحاب. وفى القلب نقر طائر الفضة نقرتين. ثم فرد جناحيه، ولم يطر.

هداية أهل الورى
لبعض ما جرى فى المقشرة

جمال الغيطانى(*)

... اطلعت على هذا المخطوط منذ شهور فى خزانة كتب أحد الجوامع القديمة بالجمالية، وأثارنى بغرابة موضوعه، إذ لا يمت إلى أىٍّ من المسائل المتعلقة بالفقه أو الشرع، حيث تضم هذه الصفحات ذكريات آمر السجن الذى عرف فى عصور المماليك الغابرة باسم المقشرة، وكثير من صفحات المخطوط مفقودة، غير أنى آثرت نشر ما وجدته لندرة مادته وغرابتها، ولم أتدخل إلا نادرا كذا لاحظت أن المؤلف لم يحدد عصر السلطان الذى تولى فيه أمرة المقشرة. غير أنى أرجح أنه كان زمن السلطان الأشرف قايتباى. أو الأشرف قانصوه الغورى، آخر سلاطين المماليك. ولعل القارئ أو الباحث يجد فى هذه الصفحات مادة مفيدة وصفحات مهمة لبعض مما كان يجرى فى مصر خلال هذه الأزمان البعيدة. غفر الله لنا ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا.

رب يسر وأعز

اغفر ذنوبنا يا سلطان السلاطين، واستر عيوبنا يا أرحم الراحمين، إياك

(*) جمال الغيطانى (مواليد ١٩٤٥)، له من المجموعات القصصية: (أوراق شاب عاش منذ ألف عام) ١٩٦٩، (أرض أرض) ١٩٧٢، (الزويل) ١٩٧٤، (الحصار من ثلاث جهات) ١٩٧٥، (حكايات الغريب) ١٩٦٧، (ذكر ما جرى) ١٩٧٨، (إتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان) ١٩٨٥، (منتصف ليل الغربة) - مختارات قصصية ١٩٨٤، (أحراش المدينة) - مختارات قصصية ١٩٨٥، (ثمار الوقت) ١٩٨٦

نعبد وإياك نستعين، اللهم صل وسلم على سيد المرسلين الذى كان نبينا وآدم لم يزل بعد بين الماء والطين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.

فلما كنت قد توليت إحدى الوظائف الغريبة فى زمانى، التى أخدم بها مولاى السلطان، ونظرا لما وقع لى من حوادث غريبة، ونوادر قد تبدو للبعض أليمة وللبعض ظريفة، ولما كنت أقضى جل وقتى فى المقشرة، قلت فلأخط شيئًا مما أراه وما أسمعه، ومن يدرى، ربما قرأ مولاى أشرف زماننا ما كتبته فيعرف إلى أى حد تفانيت فى وظيفتى وذقت فيها الألم، وكدت أرى منها الهلاك، عندئذ يرق قلبه، وينعم علىَّ بتقدمة ألف أو ربما دنانير من بعض جوده، واعلم غفر الله لنا أجمعين، أن السجن الذى أنا آمره، يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله، وسمى بالمقشرة. لأنه أقيم موضع كان يقشر فيه القمح. والعامة والسوقة والمشايخ وجميع أهل مصر يقولون إنه من أبشع السجون وأشدها هولا. يقاسى المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف. والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف بهم إذا دخلوه. ولو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سرا أو علانية وهم من بنائه يبتعدون، اللهم عافنا شره وبلاءه. وأسمعهم يقولون هذا فأسخر منهم. لا يستبعد واحد منكم نفسه عن المقشرة. ربما اليوم وسط عيالك وإلى جوار امرأتك، وفى الصباح فى أسفل طباق بالمقشرة.

وفى بعض الليالى التى أقضيها هنا أضيق بوجودى وبنفسى. فى النصف الثانى من الليل يكون الهدوء غويطا كالموت والظلام مخيفا حتى للذين ألفوه. وأسمع أصواتًا تجىء من الأحياء المجاورة. لا يبين فيها صوت الرجل من صوت المرأة. ولا تفسر منها كلمة. أقوم متجولاً حول السور الذى يعلو البناء. إذ اقترب من منتصف السطح أسمع هسيسًا. أصوات رفيعة ممطوطة يقشعر لها البدن. من

هنا يبدأ سلم حلزونى هابطًا إلى عمق كبير. على جانبيه حفر ضيقة فى الجدران. لا يتمدد فيها الإنسان على راحته كما لا يمكنه الوقوف بطول قامته. هذه هى المواضع التى يربط فيها المحابيس. وربما نزلت من حين إلى حين يتقدمنى السجانة ينيرون السراديب. وأسأل نفسى ما الذى يفكر فيه شيخ قضى هنا ما يزيد على سبعين عامًا. أو شاب مضى عليه عامان. أتأمل وجوههم. أداعبهم وربما ضربتهم فجأة وصحت فيهم أنه لا أمل لهم يرجى. فالوجوه تبدو كريهة ممقوتة. وإذا أردت أن تجعللاً رجلاً من المحابيس الجدد يبكى كالنساء ويقول أنا امرأة، فأخبره أن عياله مات منهم اثنان وأن زوجته طلبت الطلاق منه وتزوجت. وإذ ينزل الليل تطلع الوطاويط ويسمع صوت أجنحتها عندما تصطدم بالجدران أو أفواهها تأكل النبق المختطف من شجرة قريبة. وساعات يصرخ المحابيس من أسفل وتنبعث رائحة كريهة مهولة تهب فى أحايين كثيرة فجأة ويكاد السجانة أن يهجوا على رءوسهم لفظاعتها. ولم يعرف سبب ذلك.

جاءنى سجان كبير وأخبرنى أن الأمير طقطباى مقدم ألف أرسل جملة محابيس لإيداعهم عندنا. قلت كم عددهم. قال أربعون ولم تمض ساعة أو أكثر وكان الليل قد نزل تمامًا حتى سمعت جلبة بأسفل. وقفت عند حافة السور وأنا أتحرق لرؤية المحابيس الجدد. هكذا كلما جاء وارد جديد تمنيت أن أراه بسرعة. وأروح أخمن من أعلم. إننى لا أعرف من يجىء إلى المقشرة إلا بعد تسلمى له، ومن يعلم. ربما كان أحد الأمراء ربما الأمير الدودار أو أتابيك العساكر نفسه. لا يعلو إنسان فى بر مصر والعرب والعجم على المقشرة. وإذ يكون واحدًا. كلام مطموس فى الأصل. ماذا يدور بباطنه. وكيف. وكيف يجد نفسه الآن. بعد أن كان فى صباح اليوم نفسه. أميرا عظيما تدق على بابه الكوسات (الطبول) ويمشى السعاة أمام ركبه. وقبل شكه فى الزناجير

(الحديد) أضربه مرة واثنين وثلاثًا وأجعله يقاسى من البهدلة والمشاق ما لا خير فيه. لا يعلو إنسان على المقشرة. أنت أمير. أمير فى بيتك وعلى نسائك. وأقول له ربما خربوا بيتك واغتصبوا نساءك ونهبوا شاشك وقماشك. وكلما علا الإنسان فى مقامه زدنا فى إيلامه. هكذا يقول مولانا وسبحان من له الدوام.

قمت متجولاً فوق السور. الطريق الكبير تحتنا مقطوع. الرجل من المارة عليه خمدة. فمن أيام نادى مولانا بألا يمشى أحد بعد العشاء ولا يغادر المماليك الطباق ولا ينزلون إلى المدينة ملثمى الوجوه. ضربت الحجارة بيدى وناديت سجانا كبيرًا. سألته متى يصل الوارد الجديد؟ قال بعد ساعة زمن. قلت ألم تعرف بعد من هم؟ قال إنهم فلاحون. هززت رأسى بلا اهتمام. هذا شىء يثير القرف. سألنى أين نضعهم؟ قلت فى القاعة الصغرى. قال: الأربعون مرة واحدة! قلت: نعم.

رب يسِّر وأعن

.. كل منهم كعود البوص أو عصا الخيزران، ثيابهم مقطعة، أيديهم مربوطة إلى بعضها. عيونهم جاحظة كأنهم زجوا إلى يوم الحشر. لا تعلو منهم همهمات أو أصوات. أما الليل فساكن لا يبدد هدوءه صوت. ولن أنام فى وقت قريب. فلأعرف بعض أحوالهم. قال سجان كبير إننى لن أجد فيهم ما يسر. كلهم مثيرون للقرف. سألت واحدًا منهم. ماذا فعلت يا ابن معيكة؟ طلع صوته متحشرجًا غليظًا. والله لم أجن ذنبًا ولم ينكسر علىَّ درهم واحد من مال السلطان. صفعت آخر على قفاه وتلقى الصفعة بهدوء كأنه يقول. اضرب غيرها ورجعنى إلى امرأتى وعيالى. ثم قال إنهم كانوا فى الغيط يرمون البذار ولا يدرون إلا الفرسان يكبسونهم. وينتقون أربعينلاً رجلاً ويشكونهم فى الحديد. سكت الرجل وصاح فلاح عجوز. جاءوا بنا على أننا عربان يا سيدنا، ما قدروا يمسكوا عربيًا واحدًا من أهل الجبل. فأمسكونا نحن حتى يقولوا للسلطان:

انظر أحضرنا لك أربعين عاصيًا. ونحن لم نعص ولم.. درت حولهم ولمحت أربعة صبية صغارًا يتمنى أى من المحابيس أن يسكن مع واحد منهم، صاح سجان كبير آمرًا إياهم بألا يزعقوا فى الليل، لأن السلطان سوف يعرضهم قريبا. ا رتفع عويلهم كالنساء. زعقت فيهم فسكتوا. ورأيت رقابهم نحيلة جدًا وعظامهم بارزة. لمحت شابا عيناه واسعتان. سألته هل أنت متزوج؟ قلت امرأتك شابة؟ لم يرد. كتفاه عريضتان. قلت على مهل. لن ترى عيالك أبدًا، تصور هذا وتمعَّن فيه جيدًا، ظل صامتا، وقلت له إنك أول من ستقطع رقبته أو يوسط على باب زويلة، ألا تخاف؟ فقال أنا حزين وبى رجفة، قلت هذا لن يمنع وأشرت بيدى وغمزت بعينى، سألنى فجأة، كم سأقضى فى الحبوس؟ أطرقت لحظة ثم قلت له: أتحب أن تعرف! لم يرد، قلت: إذا قدر لرقبتك ألا تقطع أو جسمك أن يوسط فربما تقضى عندنا تسعين عامًا إذا قدر لك أن تعيش هذه المدة، وربما سنة، وربما عشرين، لن تخرج إلا إذا أمر السلطان بذلك، وأنت من سيوصل أمرك إلى مولانا؟ هل تعرف والى القاهرة أو أميرًا كبيرًا حتى يشفع لك عنده؟ رأيت الخوف يغشى عينيه، قلت لنفسى هذا واحد لا يعرف ما ينتظره فلأقل له ولأتمعن ما يدور على وجهه ولأخمن ما فى نفسه، وها هم بقية الذعر مصغين كأن على رءوسهم الطير، قلت هذا إذا لم تمت مطعونًا "بالطاعون" أو لم يمص الوطواط دمك، واعلم أن الوطواط فى المقشرة كالرجل والعقارب كالبغال، أما إذا شعرت أنا بالملل فى أى ليلة فربما جئت بك عندى لأعريك وأقطع لك "كلام فاحش آثرت حذفه" واعلم أننا لو فعلنا ما نريد بك، تصور، أى شىء يخطر لنا، فلن يتكلم أحد، ولن يرفع رجل سبابته احتجاجًا، ولن تعول عليك امرأة أو تنوح عليك زوجة، قلت لنفسى إننى أعرف تمامًا ما يجرى الآن فى عقله وصدره، فلأبعث فيه ما قد يسقطه ميتًا.

سلطاننا نفسه لا يملك أن يفعل مثلما أفعل. هل يستطيع أن يقول ما أقول لأى من المحابيس فى السلطنة؟ همس الفلاح العجوز، والله يا أمير ما عملنا شيئًا. ضربه سجان كبير على وجهه، ونزل الصمت فوق الجميع كالمصيبة.

وكان القمر ينسحب على حائط السماء مخنوقا مبتور الوجه، اقتربت من الشاب عريض الكتفين. طبعًا أنت لا تعرف كل ما عندنا من ألوان العذاب، والويل لك لو أشار واحد من أصحابك عليك وقال إنك تحوز مبلغا من المال حتى لو عشرة دنانير. تكلب وتخوزق وتعصر أطرافك وأصداغك وتخلع أسنانك وتدق فى فروة رأسك أو تخلع أبزازك ونشويها ونطعمها لك. لاحظت أن ثبات عينيه قد اهتز، وشفتيه ترتجفان. قربت وجهى من وجهه كاد أنفى أن يلامس أنفه، وفجأة زعقت عليه زعقة عظيمة فتراجع إلى الوراء متعثرا، فانطلقت ألكمه فى صدره لكما هينا طريا لكى أعرف تمامًا ما يحدثه من أثر، وصحت منبها إياه وإياهم أنه لن يرى أمه أبدًا. أبدًا. ولن يسمع نداء زوجته إذ يرجع من الغيط. وفى الجب سينسى ملامح أولاده وأسماءهم قلت لهم كلهم وأنا أعتدل فى وقفتى: لن تعثر شمامة لكم على أثر.

وصحت على سجان كبير فرفع عصاه. وتدافعوا فوق السلم الحلزونى الضيق وهم يعولون كالنساء وكلما أوغلوا فى البعد إلى أسفل. ماتت صرخاتهم. وفى الطبقات السفلى سيحاول رجال ربما مضى عليهم ستون أو سبعون سنة أن يعرفوا القادمين من العالم الذى باتوا يجهلونه، ذات ليلة عندما نزلت بنفسى لأضع الأمير أقباى الطويل فى الحبس. سمعتلاً رجلاً يزعق من مكان مظلم مررنا به يسأل عما إذا كان يوجد عالم حقيقة أم لا. وآخر يسأل عن أحوال الناس وعن أى حى جاء القادم الجديد. وتتلاحق الأصوات حتى كاد أقباى الطويل أن يموت رعبا على نفسه. لكنه لم يمت. استندت على السور

الحجر بذراعى ورأيت المدينة عليها خمدة. وكانت الليلة وسط بين الخريف والشتاء. وعما قليل تجىء الأمطار وتهطل حتى توحل الأسواق وتمسى المقشرة مكانا مهولا مفزعا. تنبهت إلى أننى لم أصلِّ العشاء فاستغفرت ربى. ومشيت إلى غرفتى. لحقنى سجان كبير وأخبرنى أن السلطان سيأمر بعرض هؤلاء المحبوس ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة. لم أرد وطلبت منه سجادة الصلاة.

درة

قال ابن سيدة:

السجن هو الحبس. والسجان هو صاحب السجن. ورجل سجين يعنى مسجون. وقال رحمه الله أيضًا وحبسه يحبسه حبسا فهو محبوس وحبيس واحتبسه وحبسه يعنى أمسكه عن وجهه ومنع حركته وخنق جولاته وروحاته.

رب يسر وأعن

من ليالى أوقفنى الشيخ مسعود عند حارتى بعد أن تركت بيتى قال ألا تخاف الله يوم القيامة، قلت أستعيذ به وإليه ألجأ، هل رأيتنى فاسقا أو مقصرا فى الفريضة أو أبلغك عنى الذعر أنى جدفت فى حق ربى، لا والله يا شيخ مسعود، قال لا هذا ولا ذاك، لكنى أسمع أنك تذيق المحابيس صنوفا من العذاب وأنك تجمع الكثيرين فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة وقد يرى بعضهم عورة الآخر، قلت كل عمل وله سوءاته وميزاته يا سيدنا، واعلم أن كل ما بلغك كذب من أوله إلى آخره، قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، طلبت منه أن يدعو لى بالمغفرة، قال: اللهم احجب عنا بلاءك وشرك فمضيت وبنفسى منه، كأنه يظننى آمرًا لبرج القلعة ولخزانة شمائل وسجن الديلم أيضًا والعرمانة، وما ذنبى أنا؟ هل أنا الذى ابتدعت المحبوس؟

أليس أمير المؤمنين وثانى الخلفاء هو الذى ابتدع الحبس فى الإسلام! وابتاع دارا فى مكة يضع فيها ما يرى أنه يستحق أن يوضع ويوثق، والله ليس غريبا أن تجىء إلى المقشرة يومًا يا شيخ مسعود. عندما أمشى فى السوق والناس حولى يتدافعون فى اتجاه سوق الليمون. وباعة يصيحون، وغلمان يعودون. نهاية النهار وبداية الليل. تزيد الحركة ويكثر البيع والشراء وفجأة يحل الهدوء والسكون. كأن العالم مات. عندما أمر فى هذا الطريق يثور بى خاطر. لا بد أن جميع هؤلاء سيجيئون إلى المقشرة ويصبحون تحت إمرتى. ليسوا مرة واحدة. لكنَّ كلا له دور. كلٌّ عليه عدة لا بد أن يقضيها أو يقضى. طلعت إلى حجرتى وأنا من الضيق فى أمر عظيم. طلبت إحضار الأمير مغلباى الذى خامر على السلطان وركب جامع السلطان حسن وحاول أن يتعبث بعرش السلطان ويسطو عليه. كان داهية. لا يجرؤ مملوك أو واحد من أولاد الناس أو العوام أن يعترض سبيله. والله لأفعلن به وأجعله.

هنا أصاب الورقة تلف جعل الأحداث تتوقف، غير أن ما يلى هذا لا يبعد الأحداث كثيرًا عن سياقها الطبيعى.

❖❖❖

ولا أدرى إلى أين؟ وهممت أن أستل سيفى وأطيح برأس كل من يقابلنى. غير أن المصيبة عظمى فهدأت روحى. الأمر لا بد أن يدبر فى هدوء. لو شاع وافتضح لاهتزت رأسى. أى أيام سوداء فى انتظارى! كل سيوز السلطان علىَّ بكلمة. أما أتابيك العسكر نفسه فسوف يركبنى فوق بغل بالمقلوب ويجرسنى فى القاهرة كلها. ارجموه، اضربوه، عذب ولدى، قتل رجلى، قطع ذراعى، خوزقنى، دخل خنجره المحمى فى. رمانى ثلاثين عامًا كاملة لأنه طمع فى

امرأتى فحبسنى ليخلو له الجو وينالها. الفاسق. الزانى. يا رب الطف. يا رب أعن. يلطمنى السوقة والعامة. ويصيح المنادى أمام الركب. هذا جزاء من لا يتحفظ على حبوس السلطنة وأى حبوس هربت يا خراب ديارى. أربعون فلاحا لو قتل مثلهم فى الطريق لما ارتفع أصبع ولا اهتزت شفة، جمعت السجانة، صحت فيهم ضربا وركلا ورأيت أبدانهم تكاد أن تتخلع لهول رعبهم، صرخت عليهم أتعرفون أى هول ينتظركم؟ أنتم أدرى الناس بالمقشرة، يستعدون مكانا بعيد المنال منكم، غير أنى بعد وقت جمعتهم، لو افتضح الأمر، لو ذاع الخبر، لقتلتكم أجمعين، وعقدت يدى أمام صدرى وتمنيت من الله ألا يرسل السلطان فى طلب العربان المفسدين ليعرضهم، وخرجت إلى الطريق طافشا على وجهى، وفى قلبى جمرة نار، أقبل رجال يرفعون بيارق حمراء ويدقون الطبول، يتقدمهم رجل حول وسطه قماش أحمر يدور حوله بسرعة كبيرة والرجل يلف ولا يدوخ ولا يقع، وكانوا يزعقون فى حماس. الله. الله. تمهلت حتى مروا وكان المغيب يقترب، وعما قليل ينزل الليل فجأة، هب الهواء باردا حتى وخز عظامى، توقفت حائرا والطريق تزداد به الحركة وتعلو وتذكرت عيالى وامرأتى فى البيت، تمنيت أن أمتطى جوادا يمضى بى ولا يتوقف لكنهم سيدركونى، حرت فيما أفعل، وصحت بنفسى. الثبات. الثبات. نزلت ثلاث درجات تؤدى إلى جامع قديم منخفض، وكان الهواء مقبضا، وقفت خاشعا وتذكرت عددهم. أربعون فلاحًا. والأمر لله.

❖ ❖ ❖

سبحانك إنى تبت إليك وأنا أول المؤمنين. اللهم اعف عنا واغفر لنا، اللهم لا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم المارقين، أرجو رحمتك بقولك – إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين – ذنوبنا كثيرة، وطاعتنا يسيرة، كلنا تحت

الزلة والتقصير، يا رب لولا ذنب المذنب لما ظهرت صفة عفو الكريم، ولولا تقصير المقصر لما بان غفران وحلم الحليم، اللهم إنى ألوذ وأستجير بحبيبك الذى نزل فى حقه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

❖❖❖

رب يسر وأعن

سألت سجانا كبيرًا، هل رآكم الأهالى؟ هل زعق عليكم المماليك؟ فقال لا صغير ولا كبير أحس بنا، فالمماليك لا ينزلون من القلعة بعد المغيب، ودرك الوالى لا يجولون فى الطرقات إلا بعد توغل الليل. ثم من نحن؟ ألسنا جند السلطان؟ اسم كل منا يعرفه أهالى البلدة أجمعون. وفوقنا تجمعت غيوم ثقيلة ناءت بحملها السماء ومالت حتى تكاد أن تلامس البيوت. زعق أولهم عندما طالعنى. ماذا فعلت يا أمير. صفعته بالصوت على وجهه. ودققت فى الورم المستطيل الأحمر المفاجئ الذى انتفخ مكان الضربة صرخ أحدهم كالنساء. يا خراب بيتى وعيالى وقال آخرون إنهم ما جنوا شيئًا يؤاخذون عليه وإن واحدا منهم لم يغش مخلوقا ولم يشوش على إنسان وقال بعضهم إنهم أكثر أهل مصر طاعة لكل ما قيل وما سيقال. فماذا فعلناه حتى تحطوا علينا فجأة ونحن نبيع الليمون فى السوق وتأخذوا جمالنا وأحمالنا وتشكونا فى القيد الحديد؟ قالوا إنهم غلابة، وأن أهاليهم سيموتون حزنا عليهم، لأنهم راحوا مصر ولم عادوا، أنا لى عشرة أولاد يا سيدنا، أما أنا فقد وضعت حياتى فى قفة الليمون التى حملتها فوق عنقى لأبيعها فى السوق، رحت أصغى إلى ما يقولونه، وثمة برد وسلام ينزل على قلبى، لم أتكلم، الفلاحون الذين أتى بهم الداودار لم يكونوا كهؤلاء فى الزعيق والصراخ. لكن هذا بطبيعة الحال، الآخرون جاءوا من

قراهم مباشرة، أما أولئك فما أغرب حالهم، رجل يخرج من بلدته ولا يرجع، ولن تعرف امرأته ولا عياله ما جرى له، وبعد أيام يطلب السلطان عرض العريان المفسدين المتعبثين فى الأرض الذين أسرهم الأمير الكبير، فتضرب أعناق البعض ويوسط الآخرون، وتتدلى أجسامهم الهزيلة من باب زويلة وباب الشعرية، وقد ينثنى الواحد منهم فيجيف لحمه ولا يجد من يدفنه حتى يتصدق عليه مؤمن فيدفنه، ولن تنتطح فى ذلك شاتان، ويروح كل منهم على أمره ويخلو مكانه وينتهى خبره، قلت لهم وكلهم مصغون كأن الصور قد نفخ فيه النفخة الأولى فخربت الأرض جميعها. أنتم من العريان المفسدين ومهما زعقتم وقلتم غير هذا، فأنتم تقطعون الطرق وتهاجمون ركب الحج، ستقولون نحن تجار ليمون، نزرعه ونبيعه، لكن لن يسمعكم أحد. رحت أدور حولهم أتملى جحوظ عيونهم وملامحهم المرتعبة والرجاء المخلوط باليأس فوق الوجوه، عجبا أهذه الرءوس كلها ستمشى بالقش بعد قليل، ارتعش جلدى وطاف بدماغى خاطر طردته بعيدًا واستعذت من الشيطان الرجيم، الغيوم الثقال حبلى بالمطر وعما قليل ينزل السيل كالبحار، صرخاتهم تطلع إلى الفضاء الوسيع، حتى لو سمعتهم الدنيا كلها فمن يسأل أمر المقشرة؟ تراجعت إلى الوراء خطوة وزعقت على سجان كبير أن يرميهم فى الطباق الأوسط وأن يربط كلا منهم إلى الجدار بثلاثة مرابط حديد، قبل أن ينزل السلم سألته كم عددهم؟ فقال: اثنان وأربعون، قلت له: وكم كان أسرى الأمير، قال: أربعون، أطرقت مقدار درجة وقلت له: أرسل إلى اثنين خلعت خنجرى من جرابه وأبرق نصله فى الهواء.

❖ ❖ ❖

هكذا تنتهى أوراق المخطوط فجأة وأكاد أكون متيقنا أن هناك أجزاء مفقودة منه، كل ما أرجوه ألا تكون يد الفناء قد امتدت إليها فأنهت عليها. لذا أرجو

من هواة ودارسى المخطوطات القديمة إذا ما عثروا على الأجزاء المكملة لتلك الأحداث الغريبة أن يتكرموا بإرسالها إلى، حتى أنشرها ويمكن الاستفادة منها.

السلعوة(*)

جمال مقار

مهداة إلى الأهل والخلان

١

فى قلب قلب السحر، نعم فى قلب السحر، كان جاد راجعًا من سفرة طويلة، حاملاً خرجًا على ظهره، واضعًا فيه ثلاثة أشياء، خيبة مسعاه، وبقايا رغيف يابس، ومنديلاً لرأس امرأته أوصته عليه مرارا، قالت له:

تعرف يا جاد، ترجع من غير المنديل أبو ترتر، أنشف ريقك وأطين عيشتك.

وبينا هو ماشٍ، فكر الرجل أن شيئين من الأشياء التى يحتويها خرجه، لن تسأل عنهما امرأته، ما دام سيعطيها منديل الرأس، لأنها ستذهب، وتربط رأسها بالمنديل، بل ستنسى حتى أن تسأل إن كان أصاب مالاً أو حلالاً، لأنها ستنظر طويلاً إلى الترتر الملون ودوائره الصغيرة تتدلى أمامها وهى تسأل مرآتها:

يا مرآتى يا حياتى، أنا أحلى ولا علوية؟

ولما كانت مرآة البيت خادعة ومائعة، فستقول لها:

(*) نشرت فى مجلة "إبداع"، العدد الرابع، القاهرة، خريف ٢٠٠٧.

وللكاتب مجموعات: (الضعيفة يأكلها القراد)، (طريد وقصص أخرى)، (سفر الطفولة).

علوية من؟ بلا نيلة، أنت، طبعًا، طبعًا، أحلى وأجمل من مائة علوية وعلوية.

كانت أفكار الرجل متعبة، وأيضًا كانت قدماه، لأنهم مشوا معه طويلا وكثيرًا، لذلك لم يفكر فى أى شىء آخر سوى أن يصل للبيت، عند ذلك أخذ باله أنه أمام جنينة المانجو الكبيرة المساحة، التى تفصل بينه وبين داره، ولم يضيع الرجل وقته، ولم يشأ أن يجهد أفكاره، وبنَطّة واحدة، أصبح داخل جنينة المانجو الكبيرة المساحة.

كانت ثمار المانجو تتدلى أمامه، ومع ذلك لم يمد يده ويأخذ حتى واحدة، ليس لأنه أمين، لكن لأنه فكر فى خفيرى الجنينة الطويل القوى والقصير الشرس، وعندما رفع وجهه للسماء البعيدة، أبصر الفجر الهال، يدلى أول خيوطه، لينزل عليها من السماء المظلمة البعيدة، فرح الرجل جدًّا ومد يده يجذب خيوط الفجر، وهو يغنى أغنية جميلة من تأليفه، تقول الأغنية:

بيقولوا عينك سفينة وياما غرقانين وقالوا إنك ناسينا على موانى الحنين

والشط اللى جمعنا، رجعت ليه السنين من غيرنا ما له معنى وخطاوى حيرانين

قطع غناءه نباح كلاب سعرانة وغضبانة، انتبه الرجل، ونسى أن يكمل الأغنية، ونسى خيوط الفجر التى أبصر من خلالها الكلاب وهى تدور حول شىء، لم يقدر الرجل أن يراه، مد الرجل خطوته، وشدد قبضته على عصاه الثقيلة، وكلما اقترب، ازدادت الكلاب غضبا وسعارا، حتى إنها ركزت بأقدامها فى الأرض، وانتفش شعر ظهورها، وهى تزمجر.

٢

رفع الرجل عصاه فى الهواء، وأقدم نحوها مهوِّشا عليها، ارتدت الكلاب للخلف، وبادرت الرجل بنباح قوى، واستعدت للهجوم عليه، طوح الرجل عصاه فى الهواء مرتين، ونزل بها على ظهر واحد منها، فعوى عواء مرا متألما، ذلك ما جعلها تدرك أن الرجل يمكن أن يكون أشد شراسة من الكلب متى غضب. لذلك انصرفت واضعة ذيولها بين فخذيها، ولما ابتعدت أكثر، أرسلت له نباحا كالسباب. جعل الرجل يضحك فى قلب الفجر، وهو يأخذ خطوتين نحو ذلك الشىء الصغير المكوم على الأرض، الذى أثار غضب الكلاب.

فما الذى رآه الرجل؟

❖❖❖

رأى الرجل جروا صغيرا جائعا لدرجة أن جلده يشف عن عظامه البارزة، كان يرتعش من البرد، ثم أصدر صوتا ضعيفا يشبه النواح أو المواء، أنا لا أعرف.

انحنى الرجل عليه، وحمله بين يديه، ارتعش قلبه لصوته الشاكى الباكى، وفكر:

طول عمرك يا ولد يا جاد ونفسك تربى كلبا، لكن أباك لم يكن يحب الكلاب، ومرة بعد مرة، كان يطرد الكلاب الصغيرة التى تحضرها، والآن أنت وبيتك الوحيدان فى البلدة، اللذان بلا كلب، هذا ما لا يصح أبدًا.

قال وهو ينظر للجرو فى شفقة:

سآخذه وأربيه.

خبأ الرجل الجرو فى عباءته، ليحميه من البرد، ومشى، ولما طال به المسير، قال:

أرمى نظرة عليه.

رفع الرجل طرف عباءته، هناك ناحية القلب، رأى الجرو الصغير نائما سعيدا، فرح الرجل جدًّا، لكنه لم يستطع أن يكمل فرحته، لأنه وجد نفسه أمام باب جنينة المانجو، لا، ليس لأنه وجد نفسه أمام جنينة المانجو، لكن لأنه وجد خفيريها الطويل بشاربه الكث، والقصير بحدبة ظهره ووجهه الذى يقطر شراسة يجلسان أمام قصعة نار، يستدفئان.

ما إن رآياه، نطا من جلستيهما، واحد أمسك عصاه، والآخر تناول بندقيته، زعقا زعقة واحدة بصوت عال:

قف مكانك.

تسمر الرجل، وهو يبسمل مرتجفا، اقترب الخفيران منه، وطلبا أن ينظرا ما يخبئ فى خرجه، أنزل جاد خرجه، وفتحه، نظر الخفيران فيه، ضحكا كثيرًا، وقالا فى صوت واحد:

٣

شيل خرجك، وامش يا متعوس يا موكوس.

حمل الرجل خرجه، وخطا خطوتين اثنتين، سمع وسوسة تهامس الخفيرين عليه، قبل أن يصيحا صيحة واحدة:

قف مكانك يا متعوس.

قال الرجل:

خير؟

قال الخفيران:

نشوف ماذا تخبئ تحت عباءتك.

رفع الرجل طرف عباءته، وقال:

مجرد كلب صغير بردان وجوعان.

رأى الخفيران الجرو النائم، تبادلا النظرات، ثم انفجرا فى الضحك.

سألهما الرجل:

لماذا تضحكان؟

قال الخفيران بلهجة ساخرة:

نضحك يا سيد المتاعيس، لأن هذا ليس كلبا.

قال يرد سخريتهما:

وماذا يكون لو لم يكن كلبا، قط مثلا؟

قال أطول الخفيرين:

هذا ثعلب.

بينما قال أقصر الخفيرين:

هذا ذئب.

بينما قال الرجل بإصرار غبى:

هذا كلب صغير، أنا أراه كلبا، إذن هو كلب.

ضحك الرجلان كثيرًا من جاد بشاربه الذى انتفش من الغضب ووجهه المغيظ، وقالا فى صوت واحد:

مبروك عليك.

انصرف الرجل عنهما ساخطا مغتاظا، وقال لنفسه:

صحيح العجول ليست لها عقول.

٤

واطمأن الرجل جدًا، وكرر قولته مرتين، فازداد طمأنينة، ربت بيده على جروه النائم فى وداعة، وعاد يغنى أغنية جديدة من تأليفه، لأنه نسى الأغنية الأولى.

❖❖❖

كانت الشمس تصعد فى تكاسل مدارج الجبال البعيدة، لتطل على الدنيا النائمة، رأت الرجل جاد المجهد البردان يجرجر قدميه من طول المسير، أثار ذلك شفقتها، فأرسلت له بعض شعاعات ناعمة كفراء الأرانب الصغيرة ودافئة مثل صدر أم حنون، أيقظت الدماء فى عروقه، لذلك شكر الرجل السماء، وأيضًا شكر الشمس، واستطاع أن يوسع خطواته، حتى اقترب من بيته، ومع ذلك كان صوت موتور ماكينة المياه يجيئه من بعيد، بق بق بق، وكان الرجل يحب صوت ماكينة المياه، لأنه يسرى بخدر فى أطرافه، ويبعث بالنوم إلى أجفانه، لكنه أيضًا كان يحب الصباح، ويشتاق مع كل خطوة لامرأته وبيته، ويتمنى أن يصل إلى بيته، لأنه كان جوعان وتعبان وبردان.

ومرة أخرى فكر فى امرأته، كم ستفرح بهذا الكلب، وتذكر ما قاله الخفيران وابتأس، قال لنفسه مطمئنا:

أسأل امرأتى، فهى من قرية تقع خلف الجبال البعيدة، وتعرف جيدًا الكلب والثعلب والذئب وابن آوى، وتعرف أيضًا أنواع طيور، عشت عمرى لا أعرف أسماءها، وعندما أسألها عنها، تقول لى (هذا أبو الخضيريا رجل، وذاك ملك الصيادين، وتلك هزاجة الصحراء)، نعم، نعم، ما أسعد أن يكون للإنسان امرأة تعرف أنواع الطير وجنس الحيوان.

هكذا اطمأن الرجل لذكاء امرأته ونباهتها وحذقها، ومشى بسرعة أكبر كأن جنيًّا مس قدمه اليمنى ولمس اليسرى.

❖ ❖ ❖

لما اقترب جاد من البيت، كان عمود من الدخان يصعد من غرفة الخبيز، اشتم الرجل رائحة الخشب المحترق، وصعدت معها رائحة الخبز الصابح، وفرح جدًّا جدًّا، ورفس الباب بقدمه اليسرى، ارتمى الباب، وانفتح، وأحدث صوتا عاليا، وخطا الرجل أول خطوة بقدمه اليمنى، ودخل الدار، نهضت امرأته (عبلة) الهبلة، رأته، نطت من الفرحة، وفرحت، فرحت، وجرت عليه، لكن الرجل لم يستطع أن يحتضنها، لأنه كان يمسك بيد عصاه، وبالأخرى طرف عباءته حتى لا يقع الجرو منه، هكذا وقف الرجل مثله مثل باب الدار، غضبت المرأة، رجعت للوراء خطوتين وهى خزيانة مكسورة الخاطر، ونظر الرجل لوجهها الغاضب، وأخيرًا فهم، ركن عصاه على الحائط، ورفع طرف عباءته، وضع الجرو الصغير على الأرض، وفتح ساعديه، واحتضن عبلته طويلا.

٥

وضعت المرأة أذنها على قلبه الدافئ من ملامسة الجرو، وسمعت دقاته، وأحصتها جيدًا، وعلمت من عدد الدقات أن رجلها لم يعرف فى غربته أى امرأة أخرى.

نظرت المرأة إلى الجرو الصغير طويلا، وعندما سألها زوجها:

أهذا كلب؟

قالت المرأة:

لا، ليس كلبا.

عاد الرجل يسأل:

أهو ثعلب؟

ردت عبلة:

ليس ثعلبا؟

أطال الرجل حبال صبره، وسأل:

يمكن ذئبا؟

ليس ذئبا.

ماذا إذن يمكن أن يكون؟

قالت المرأة:

إنه سلعوة.

وما السلعوة؟

هجين من كلب وذئبة.

هب الرجل من مكانه مذعورا:

يعنى مصيبة.

صمتت المرأة طويلا وهى تنظر للجرو الصغير النائم فى وداعة، بينما هم الرجل بحمل الجرو، ليرميه فى النهر، رفعه فى عنف من الأرض، فأيقظه، نظر الجرو إلى المرأة بعينيه اللوزيتين الجميلتين البريئتين، وداعب أمومتها، وأثار شفقة قلبها، وعندما ابتسم لها، أطلت أنيابه الصغيرة الحادة، فحركت كوامن الشر فى نفسها، لأنها كانت تكره جيرتها وأولاد جيرتها، قالت المرأة بلهجة ناعمة للرجل الذى هم بالخروج:

جاد يا حبيب الفؤاد، انتظر، يمكن لو ربيناه نستأنسه، ويبقى أليفا معنا.

سألها الرجل:

هل سمعت عن مثل ذلك من قبل؟

٦

أجابت المرأة:

لا، ولكن سمعت أن ذئابا ربت طفلا، ولم تؤذه، وما أعرفه أنه يجب على البشر رد الجميل.

فرح الرجل جدًّا لذكاء امرأته وقلبها الكبير، ووضع الجرو على الأرض، وعبث فى خرجه، وأخرج المنديل أبو ترتر، وقال للمرأة:

المفاجأة الثانية.

فرحت المرأة جدًّا عندما رأت المنديل، وفردت ساعديها وطوقت عنق الرجل.

❖❖❖

ذهبت المرأة للمرآة، وقفت أمامها ووضعت المنديل أبو ترتر على رأسها، وجعلت شوشيته تتدلى، وتنزل على جبينها، وسألت المرأة المرآة:

يا مرايتى، يا حكايتى، أنا أحلى ولا فوقية؟

أجابت المرآة فى مكر، لأنها كانت تخشى شر المرأة، وأيضًا كانت تخشى أن تكسر:

أنت أجمل مائة مرة ومرة من فوقية.

وبينما كانت المرأة تعيد السؤال على المرآة معددة الجارات جارة جارة:

طيب أنا أحلى ولا علوية؟

علوية من؟ بلا قرف، أنت أجمل ألف مرة.

كان الرجل يجلس على الكنبة، ويحاول أن يؤكل الجرو قطعة خبز، وكان الجرو يدير رأسه يمينا ويسارا محأولاً التملص من يد الرجل الذى حاول أن يفتح فمه.

جاءت المرأة، رأته، وابتسمت، قالت له:

اتركه لى، وقم أنت استحم، واسترح.

ذبحت المرأة أول دجاجة من دجاجاتها المائة، ريشتها، وهى تنظر إلى الجرو الذى اجتذبته رائحة الدماء، خطا نحوها، وتمسح فى رجلها، وأن لها أنينا جائعا موجعا.

فتحت المرأة بطن الدجاجة وانتزعت الكبد، ورمته للجرو الذى لقفه فى الهواء قبل أن يسقط على الأرض.

لما استحم الرجل، وخرج من حمامه، وضعت المرأة الدجاجة أمامه، فأخذ ثلثيها، وأعطى المرأة والجرو الثلث الباقى، وأكل حتى امتلأت معدته بالطعام، عندها نهض، تجشأ، وارتمى مرة أخرى على الكنبة، تثاءب، وانطلق يشخر، بينما أخذت المرأة الجرو فى حجرها، وربتت على شعر ظهره، حتى تسلل النعاس لعيونهما، فناما كما نام الرجل.

٧

كبر الجرو قليلاً، وأحب المرأة كثيرًا، لأنها كانت تحضر له طعامه، ورك دجاجة، رأس حمامة، كبد بطة، كان الرجل ينظر فى إعجاب لامرأته لأنها استأنست السلعوة، لكن السلعوة لم تحب الرجل أبدًا أبدًا، لأنه كان يحاول من حين لحين أن يلقمها قطعة خبز أو قطعة خيار.

❖❖❖

يومًا، سمع الرجل صرخة امرأته، نط من سريره، ورأى المرأة تقف أمام دجاجة قتيلة من دجاجاتها التسعين، نهشت مؤخرتها، بينما كانت السلعوة تقف وعلى فمها آثار دماء طازجة، غضب الرجل جدًّا، قال وهو يتناول حبلا من من تحت الكنبة:

سأربطها، وأجرها، وأرميها فى النهر.

عند ذلك بكت السلعوة، وبكت لبكائها المرأة، وقالت:

أنا غلطانة، لأنى تركتها من غير أكل من البارح، وأنا أعرف أنها لا تطيق صبرا على الجوع.

انكسرت حدة الرجل، لما رأى بكاء المرأة وسمع أنين السلعوة، رمى الحبل من يده، وخرج إلى السوق، وذبحت المرأة دجاجة من دجاجاتها، ريشتها، وفتحت بطنها، وانتزعت كبدها، وقبل أن ترمى بها فى الهواء، لقفته السلعوة من يدها.

❖ ❖ ❖

وصل جاد إلى السوق بمزاج معتكر، ودماء فائرة، وعندما ساوم مساومة بائخة مع قروانة بائع الغلة على ثمن كيلة من القمح، نهره الرجل، فلكزه جاد، صفعه قروانة، فنطحه جاد، عندها اجتمع عليه ناس قروانة وعياله، وأوسعوه ضربا وركلا.

رأى عماد الدين ابن جارتهم الغالية علوية، ما حل بجارهم العزيز جاد، جرى الغلام، حتى وصل دارهم، وأخبر أمه، فرحت أم الولد جداً، وفتحت شباكها الواطئ، وفى شماتة تظهرها ولا تحاول إخفاءها، زعقت لتسمع الجميع:

الحقى يا عبلة، يا عبلة راجلك، لا يقتلوه فى السوق.

نطت المرأة من جلستها على الكنبة، وجرت نحو السوق دون أن تضع على رأسها المنديل أبو ترتر، ومن خلفها جرت السلعوة، وصلت المرأة السوق

وصدرها يعلو ويهبط، رأت زوجها مطروحا على الأرض وعيال قروانة يهمون أن يقتلوه، أشارت المرأة للسلعوة:

عليهم يا مبروكة.

اندفعت السلعوة نحوهم، شتتت شملهم، ثم تناوبتهم واحدا واحدا، عقرت ربلة ساق سالم ابن قروانة، وأنشبت أنيابها الحادة فى مؤخرة قروانة نفسه، ونهشت ذيل جلباب آخر، ولم تعبأ بضربات العصى، التى نزلت على ظهرها، لأن السلعوة كانت تأكل الكبد والأوراك ورءوس الحمام، وكانت عظامها قوية قوية، ولما رأى الرجال ذلك، انهزموا، وفروا هاربين.

❖❖❖

٨

وعاد جاد إلى بيته منتصرا نشوان، ينظر فى فخر وتباءٍ إلى زوجه وسلعوته. ولما وصلوا البيت ذبحت المرأة دجاجتين من دجاجاتها الثمانى والثمانين، وأعطت السلعوة كبدا وكبدا آخر، وفى المساء، وهم جالسون إلى العشاء، مد الرجل يده إلى الدجاجتين، فوضعت المرأة يدها على يده، وقالت :

عندك، دجاجة بأكملها لمبروكة.

ابتسم جاد وهز رأسه موافقا، بينما أطلت عليه السلعوة بعينيها العسليتين، وأبرزت له أنيابها شاكرة، وحين هم أن يضع يده على الدجاجة الثانية، سمع دقا ثقيلا على باب الدار، نهض، وفتح الباب، رأى أمامه ثلاثة من الدرك، قال كبيرهم:

نريد أن نرى الحيوان، الذى تربيه فى دارك يا جاد.

حلف جاد عليهم بالحرام والعتاق ليدخلوا ويتناولوا عشاءهم أولاً وقبل كل شىء، وهش المرأة والسلعوة التى أخذت دجاجتها فى فمها.

عندما انتهى الدرك من عشائهم، وغسلوا أيديهم، وضع جاد فى جيب كل واحد منهم حفنة قروش، وابتسم، فابتسموا أكثر، وهم يربتون على بطونهم، وقال كبيرهم:

أين كلبك لنراه، ونخبر مقدم الدرك.

نادى جاد:

مبروكة، تعالى.

سأل وهو يمسك بطوقها ويرفع رأسها إلى الدرك:

ها، ماذا رأيتم؟

تبادلوا النظرات، قالوا فى صوت واحد:

هذا كلب ابن كلب.

صرف جاد سلعوته، وكشف للرجال عن مواضع الضربات التى نالها من قروانة وعياله، قال كبير الدرك لواحد من الدركيين اللذين معه:

خذ قوله، واكتب أسماء الذين ضربوه، لنوقع عليهم العقوبة اللازمة.

قال جاد:

لا، أنا لا أحب أن يُؤذَى أحد، فقط اجعلهم يدفعوا لى ما يشفى جراحى.

دفع قروانة وعياله ثمن خطأهم غرامة كبيرة.

لكن قروانة كان يشعر بالظلم الفادح الذى حاق به، وكل يوم يلوك مع طعامه مرارته تحت أضراسه، وهداه تفكيره أن ينتظر غياب القمر، وانتظر حتى دخل القمر تربيعة المحاق.

٩

عندها قفز قروانة من فوق سور غرفة الخبيز، ومشى على أطراف أصابع قدميه، وعالج الباب الداخلى حتى فتحه، رأت السلعوة قروانة بعينها المفتوحة، وفتحت عينها الأخرى المغمضة، طارت فى الهواء، وهى تزوم زومة مسعورة، جعلت قروانة يبول فى سرواله، قلبته على ظهره، وأعملت نابها فيه، فأطلق صرخات استغاثة يائسة، أيقظت جاد وامرأته، نهضا من رقدتيهما، ولولا أن منعا السلعوة عنه، لافترسته.

مرة أخرى أخرج جاد الحبل من تحت الكنبة، لكنه فى تلك المرة كان ليقيد به قروانة المتوسل الباكى.

ومرة أخرى جاء كبير الدرك، رأى قروانة، وصفعه صفعتين ثقيلتين على صدغيه.

قبل قروانة يد جاد من أجل أن يسامحه، وسامح جاد قروانة على عشرين جنيها صحيحة مليحة، ونصحه فى حكمة أبوية أن لا يفعل فعلته تلك مرة أخرى.

❖❖❖

مرت الأيام، وكبرت مبروكة، أخشنت، وفقدت كل البراءة، واستحالت عيناها العسليتان إلى لون أحمر دام، وذبحت المرأة دجاجتين من دجاجتها الخمسين، أعطت مبروكة واحدة، وهى وزوجها لم يكملا الأخرى،

لأن مبروكة أنجزت أكل دجاجتها بسرعة فائقة، ثم استدارت ولقفت نصف دجاجتهما، وهما يضحكان.

❖❖❖

ساءت أحوال جاد، وامتنع الناس عن مخاطبته أو التعامل معه إلا حذرا من غضبته، ومضت الأحوال تتحدر به بسرعة كل يوم جديد، وذبحت المرأة ثلاث دجاجات من دجاجاتها العشرين، أعطت مبروكة دجاجتين، وأخذت هى وزوجها دجاجة، لكن مبروكة التهمت وجبتها فى سرعة فائقة، ولفت على ثلاثة أرباع دجاجتهما، ولقفتها من أمامهما، وهما ينظران فى صمت إليها.

❖❖❖

نحف عود جاد جدًّا جدًّا، وامرأته تذبح أربع دجاجات من دجاجاتها العشر، وتنهض لتريشهما، نهض هو الآخر، وذهب إلى المرآة، وقف أمامها، خافت المرآة من مشهده البائس، وعندما سألها:

أيتها المرآة، كيف أبدو أمامك؟

قالت له وهى تنظر فى خوف إلى السلعوة التى تقبض بأنيابها على دجاجة لم تريش:

أنت أجمل وأقوى وأصح رجل فى البلدة كلها.

١٠

بالطبع كانت المرآة تكذب، لأن المرض كان يتمشى فى جسد جاد، وهو غير منتبه له.

يومًا بعد يوم، تمكن المرض منه، حتى جاء صباح حاول فيه النهوض، فسقط من طوله، ولزم داره شهورا قاسية، باعت فيها عبلة مصاغها، لتؤكل السلعوة، ولتحضر أطباء البلدة، ليروا علاجا لجاد، لكنهم حاروا فى أمر مرضه.

غابت المرأة أيامًا ثلاثة، ذهبت إلى القرى البعيدة، وأحضرت معها حكيما من خلف الجبال، حجم الطبيب بالمحجم جلد فقرات عنقه، وأفصد الدم من فوديه، وانتظر ثلاثة أيام، لكن جاد لم يشف، وضع الطبيب ميسما محميا على بعض أجزاء جسد جاد، وانتظر أسبوعًا. لكن جاد لم يبل.

جمع الحكيم عدته، ووضعها فى خرجه، وقال للمرأة:

يا امرأة، ليس لرجلك من شفاء، إلا إذا أذن الله.

وقفل الحكيم عائدا إلى بلدته الواقعة خلف الجبال البعيدة.

سحبت المرأة السلعوة، وأغلقت عليها باب غرفة الخبيز، وذبحت دجاجة، وطيبتها لتؤكل جاد، لكنه عاف الطعام ومجه، فأكلت المرأة والسلعوة الدجاجة المطهوة، وعلى مر الأيام التالية، أكلتا ما تبقى من دجاجات واحدة بعد واحدة.

حملت المرأة نحاس بيتها لتبيعه فى السوق، وتشترى طعامًا لها وسلعوتها، لأن المرأة كانت تعرف أن السلعوة لا تطيق صبرا على الجوع.

بكت وهى عائدة من السوق نحاسها الذى باعته لتاجر خسيس، استغل حاجتها، دوّخها وبخسها حقها، بينما كانت السلعوة تمشى بجانبها تتشمم رائحة اللحم الذى تحمله معها، بينما كان الناس يردون أبوابهم قبل أن يروها أو تراهم.

ذلك الصباح البارد الغائم، نهضت، وهى تشعر بعضة الجوع فى بطنها الخاوى، ذهبت لترى جاد، كانت السلعوة تربض على الأرض قابضة بأسنانها على كبده، رمت المرأة نظرة عليه، رأت بطنه مبقورا، اقتربت المرأة من السلعوة، وقالت:

حسنًا فعلت يا حبيبتى، فما كان له من شفاء، أرحته والله من العذاب.

انحنت عليها لتربت بكفها على ظهر السلعوة، فظنت أن المرأة تريد أن تأخذ قطعة من الكبد، كشرت عن أنيابها وزمجرت فى غضب، نهضت والدماء تصعد إلى عينيها، خافت المرأة جدًّا، وتراجعت إلى الخلف بسرعة، وهى تصرخ فيها:

مبروكة، مالك، أجننت يا مبروكة؟

طارت السلعوة فى الهواء، وفى قفزة واحدة، رمت المرأة على الأرض، وأعملت الناب والمخلب فى جسدها الزاوى.

أحاديث جانبية

جميل عطية إبراهيم(*)

حدثتنى والدتها حديثًا طويلاً.

امرأة عجوز جدًّا، ذهنها متوقد، ونظراتها فاحصة. كانت تحدثنى عن صديقى، وعن إعجاب ابنتها به، وترمى ببضع كلمات غامضة وتنثرها وسط الحديث. ثم طلبت منى دعوته إلى زيارتهم.

وكان صديقى قد أحس يومًا رغبة من ابنتها فى الزواج، وكان يعتقد أنها معجبة به، وكانت معرفتهما تعود إلى ثلاث سنوات مضت، فطلب مقابلتها، وسألها الزواج، فنظرت إليه فى دهشة حقيقية – كما أخبرنى بعدها – ورفضت طلبه فورا، ودون تردد. وقال لى إن كلماتها كانت حاسمة ولا تحتمل تأويلا، وهاج وثار، وابتعد عنها عدة أسابيع. ولهذا تعجبت من هذه المرأة العجوز لأنها تتحدث بثقة كأنه سوف يقبل دعوتها له. وقلت لها متعجبا:

- لماذا؟

قالت لى:

- هى ابنتى وهو ابنى.

قلت لها:

(*) نشرت هذه القصة فى مجموعة (أحاديث جانبية)، مختارات فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

- هو غاضب. يطلب الزواج منها وهى ترفض.

قالت لى:

- لندع هذا الأمر حتى يحين وقت الحديث فيه.

وكنت أعرف طباع صديقى جيدًا واندفاعه، ولهذا لم أعدها بشىء، وقلت لها، إننى سوف أسأله.

قالت العجوز مبتسمة إن هذه هى رغبة ابنتها، وقالت لى أيضًا، إنه عندما يحضر إلى زيارتهم، سوف تتحدث إليه وتقنعه برأيها.

وكنت لا أعرف مقصدها تمامًا، وأحسست بشىء غريب فى عينى ابنتها – وكنت أعرفها جيدًا عن طريق صديقى – وعندما سألتها رأيها فى أمر هذه الدعوة، قالت لى الفتاة، إنها تفضل عدم دعوته هذه الأيام، لأنه لا يزال غاضبا منها.

فنظرت الأم إليها غاضبة، وقالت لى:

- هى طائشة. دعنى أتصرف.

وأخبرت الأم العجوز بمخاوفى، فربما يغضب من دعوتها له، وربما يظن أن ابنتها قد غيرت رأيها ثم يفاجأ برفضها.

قالت لى:

- إنه طيب وسوف يتفهم الموقف.

قلت لها فى ضيق:

- إنه لا يفهم شيئًا سوى أنه يحبها ويود الزواج منها ولن يقتنع بشىء آخر.

قالت المرأة فى ثقة:

- إنى لا أعتقد ذلك، لكننى أعرف، أنها عنيدة جدًا.

قلت لها:

- ربما هى لا تحبه، وهذا مفهوم، ولكنه يحبها.

فمضت العجوز تحدثنى عن حياتها السابقة وتجولها فى الصعيد مع زوجها وحادثة وفاته وزواج ابنتها الكبرى، وفشل زواج ابنها الأصغر، وسفرها إلى الخارج كل سنة لزيارة ابنتها الكبرى، وحياتها مع ابنتها الصغرى بمفردهما، ثم سألتنى، هل أنا متأكد تمامًا أنه يحب ابنتها؟

قلت لها مؤكدًا:

- نعم.

وكانت الفتاة تأتى إلينا من وقت إلى آخر، تقدم لى شيئًا أو تلقى بكلمة ثم تتركنا. وكان وجهها جامدا، عليه ابتسامة خفيفة شاحبة لا تفصح عن الرضا أو الغضب، ترتدى ملابس بسيطة أنيقة، شعرها ينسدل على كتفيها وتنظر إلىَّ، فلا أعرف ماذا يدور فى عقلها؟

وقالت الأم لابنتها:

- ما رأيك؟ إنه يحبك.

قالت الفتاة وهى تغادرنا:

- لا أعرف!!

كنت أرقب الأم وهى تتحدث مع ابنتها، وتأكدت أن عينى الفتاة تشبهان

عينى والدتها وأن تقاطيعهما واحدة، ورغم تقدم الأم فى العمر، فقد كان وجهها به مسحة من جمال سابق تفتقده ابنتها فى شبابها. وكنت أحس بالحرج، فقد كان صديقى حزينا وغاضبا، وكانت الفتاة تتحدث عنه ببرود. وحل علينا صمت كئيب لا يقطعه سوى كلمات ترحيب من الأم، واعتذرت عن البقاء حتى العشاء، وقبلا عذرى ولم يلحا علىَّ بالبقاء.

فى الطريق أخذت أستعيد شتات الحديث، وقلت لنفسى، إذا أردت أن أخبره بما دار بيننا، ماذا أقول له؟

وكانت الأحاديث بيننا قد تشعَّبت، ومست مواضيع متعددة لا تخصه وتتعلق بأزمة المواصلات والسكن والعمل والغلاء والحر، وأخيرًا انتهيت إلى أنه يتعين على أن أروى له كل شىء بدقة منذ دخولى المنزل حتى لحظة خروجى منه.

ومضيت بعدها أروى لصديقى حديث الأم بدقائقه ورأى الفتاة وهو لا يقاطعنى وعندما انتهت من حكايتى، سألنى، قال:

- وأنت. ماذا فهمت من كل هذه الأحاديث؟

قلت له:

- والدتها تصر على دعوتك لزيارتهما فى البيت.

قال لى فجأة، إننى أحمق، وإننى سوف أظل أحمق طوال حياتى، وضايقتنى الإهانة، وسألته: لماذا؟

قال لى:

- هذه العجوز امرأة شريرة.

نفيت ذلك بشدة عنها، فقال لى:

- هذه العجوز قد أفصحت عن نواياها بحكمة وقد فهمت مرادها وبلغتنى الرسالة.

وكنت قد نسيت أن أخبره بأنهما فى صدد شراء سيارة جديدة، فقال لى:

- لا بد أنهما قد أفصحا أيضًا عن نيتهما فى شراء شقة فى المعمورة.

قلت له:

- كلا.

قال لى:

- أو عمارة فى المعادى.

قلت له:

- ماذا تقصد؟

ولم أكن أخبرته بقصة شراء السيارة الجديدة، فقال لى، إنه لا يقصد شيئًا.

بعد قليل، قلت له:

- الأم تنوى السفر إلى الخارج فور انتهاء الصيف.

قال لى:

- هذا يعنى أن الفتاة ترغب فى الزواج قبل حلول الشتاء ضد رغبة أو مشيئة والدتها.

وهكذا أخذت أحاديثنا تدور فى حلقة مفرغة، فقلت له، إن الأمور قد أصبحت واضحة، وأن الفتاة ترفض الزواج منك، ولا شىء آخر.

قال لى فى أسى:

- نعم.

وطلبت منه أن ينسى الموضوع برمته، فقال لى:

- لا أقدر.

وتفهمت مشاعره غير أننى كنت قد مللت الحديث فى هذا الموضوع، ورأيته مندفعا، أحمق فى حبها، وأن الفتاة موقفها واضح منه، ومصرة على الرفض فى الوقت الذى يجرى فيه هو وراء الأوهام ويسبب لها الكثير من المتاعب.

وبدأت أتعاطف مع الفتاة فى موقفها الواضح، وعندما سألته بعد عدة أسابيع، عما إذا كان لا يزال يحبها، رفض إجابتى، وقال لى، إننى شرير. واتهمنى بعدها أننى قد أسأت فهم حديث أمها بسبب سوء نيتى، وتعمدى، وأنه كان يتعين علىَّ أن أخبره بالحقيقة.

وكان غاضبا. وأخذ يسبنى ويتهمنى بالخداع والنفاق، فغادرته حانقا ولم أرد عليه، ولم أجد جدوى من مناقشته.

فى اليوم التالى، سألتنى الفتاة عنه، فقلت لها:

- لا أعرف شيئًا عنه.

فقالت لى:

- أنت تكذب.

قلت لها غاضبا هذه المرة غضبا حقيقيا:

- أنا لا أكذب.

فأكملت حديثها، قائلة: إننى شرير.

ولم أعد أفهم شيئًا مما يدور حولى، لكننى أدركت من لهجتها أنه قد أخبرها بشىء ما. شىء قد أخفاه عنى بالأمس وهو يحدثنى عنها. وكانت نبرة الغضب والضيق واضحة فى صوتها، فابتعدت عنها دون مناقشة، وقلت لها:

- لننس الموضوع برمته.

فاقتربت منى مترددة وهى تقول:

- لا أقدر.

قلت لها فى ضجر وقد اتهمتنى بالكذب، إنى لا أعرف شيئًا ولا أود معرفة الموضوع برمته.

غلفت صوتها برقة ومسكنة، ولمع التوسل فى عينيها، وقالت لى:

- لا تكن شريرا.

وأخذت تروى لى حديثها الأخير معه، وسبب ترددها فى الزواج وأشياء كثيرة عن والدتها، وكنت أرى الأمر كله لا يعنينى، غير أننى أستمع لها فى شغف حقيقى.

وسألتنى بعدها:

- هل لا يزال متمسكًا بى ويحبنى؟

قلت لها ضاحكًا، فى مقدورها سؤاله بنفسها، فقالت لى:

- أنت صديقه وتعرف كل شىء عنه.

قلت لها فى ضيق:

- هذه الأحاديث كلها قد أصبحت مملة ولا معنى لها ، وإننى سوف أقطع علاقتى بكما.

فقالت لى، إننى أمزح، وافترقنا وأنا عازم على مقاطعتها.

فى اليوم التالى، دعتنى والدتها لزيارتهما مساء، فاعتذرت بشدة، فادعت أننى قد أسأت فهم كلمات ابنتها، فقلت لها، إن الأمر كله قد أصبح لا يعنينى البتة. فقالت لى المرأة فى مكر، إنه صديقك.

قلت لها غاضبا:

- نعم هو صديقى. ولكن الأمر يخصه وحده. ويمكن حسم الأمر معه بالرفض أو القبول.

قالت لى المرأة:

- نعم. ولكن فيما بعد.

وأضافت أنها تود الحديث إلىَّ قبل حسم الموضوع – وكأنه لم يحسم بعد – وأن ابنتها هى التى طلبت منها دعوتى على العشاء وذلك لأمر هام، وعلىَّ أن أصدقها. لكننى رفضت الدعوة بشدة، ولم أجد معنى لذهابى إليها لنجتر ذات الأحاديث. وعندما وضعت سماعة التليفون، أحسست بأن هذه المرأة العجوز شريرة، وأن صديقى كان على صواب فى قوله، وأنها تدبر شيئًا خفيا، وحاولت أن أنسى الموضوع، لكننى لم أقدر.

وكانت زوجتى تربطها بالفتاة ووالدتها علاقة قرابة بعيدة، فسألتها عن رأيها، فقالت لى فى لهجة جادة:

- هل يحب صديقك الفتاة؟

وغاظنى سؤالها، وقلت لها:

- طبعًا.

فطلبت منى أن أبتعد عن الفتاة، وأن أتحاشى الحديث إليها فى هذا الموضوع، ونصحتنى بتغيير عملى والانتقال إلى المركز الرئيسى بعيدًا عنها، ورأيت زوجتى تغار من الفتاة، لدرجة أن تنصحنى بترك عملى، وكنت أعرف أنها تكره الفتاة ووالدتها، فقلت لنفسى:

- لا بأس. وصمت.

وفجأة قالت لى زوجتى غاضبة:

- صديقك يكذب. وأنت شرير مثله. وأن الفتاة على صواب فى ترددها.

قالت هذه الجملة الطويلة فى نفس واحد كأنها قد حضرتها من قبل لترميها فى وجهى. وكانت عصبية إلى الدرجة التى اقتنعت فيها بأننى شرير وأن صديقى يكذب ولا يحب الفتاة حقيقة.

وطلبت منها أن تنسى الموضوع.

فاتهمتنى غاضبة، بأننى لا أقدر الموقف تمامًا.

للأفيال ذيول وأنياب

حجاج أدول(*)

قطعان.. قطعان.. قطعان.. كل قطيع مترامى الأبعاد تتدفق داخله كُتَل داكنة. كل كتلة فيل ضخم يدب فى هرولة على أربع أقدام، كل قدم شجرة جميز عضلية لحمية هائلة. ورعبها ضعفان، رعب من المطاردين المردة القساة، بُثت صورهم هكذا فى ذاكرتهم الجماعية التى ولدوا بها، ورعب من أجرام كبارهم بأقدامهم المفزعة وخطرها أشد. مذعورون.. لم يقل لهم كبارهم صراحة أنهم مهرولون فى الشتات يأسًا وجبنًا إلى الموت الجماعى فى المقبرة الجماعية التى يبحثون عنها. لكن.. مثلما قرر الكبار ذلك، فهمت الصغار ذلك بدون بث صريح، فهمت أن الانتحار اختيار كبارهم هربًا من الموت. وبالتالى تقرر عليها الانتحار دون أن تستشار. الأفيال زحام.. الأفيال شتتها الهرولة فصارت قطعانًا نائحة هاربة خارج الغابة الكثيفة حيث كان موطنها الأصلى. صارت تهرول فى مساحات حشائش ممتدة والشمس فوقها مؤلمة اللهب. الأفيال جلودها تغضنت وعيونها الصغيرة ضاقت أكثر واحتلها صفار اليأس والقذى حف حوافها. والدموع تشر.. تخر.. تفر. مساحات قطعوها وخراطيمها فى هرولة الهروب مهدلة ذليلة، تقطر مخاطًا عسى أن يرحمها المطاردون لها. الذكور فى هرولتها سقطت منها ذكورتها بعد أن ذبلت ولفظتها بطونها اللحمية المرتخية، الإناث تيقنت أن لا فرج فانسد أسفلها ولم يعد لها فرج. صار جرحًا قديمًا غلّفته قشرة صفراء بلون القذى الذى يحف العيون العليا. زحام.. قطعان.. كتل آفيال

(*)حجاج أدول (من مواليد ١٩٤٤)، من أعماله القصصية: (ليالى المسك العتيقة) ١٩٨٩، (بكات الدم) ١٩٩١، (Take A Way) ١٩٩٩، (الشاى المر) ٢٠٠٢.

تتجرف إلى مقبرة العدم انتحارًا. جف الأمل فيبس العقل وطُمر الإدراك، فتهاوت عزيمتهم كآذانهم الشاسعة المتهدلة على جانبى الرءوس الضخمة الغبية. زحام.. قطعان تتحدر إلى الموت.. دخلت فيافى الجفاف. الشمس فيها تحتل قبة السماء تبث جحيمًا. أقدام الأفيال تسوخ فى الرمال، ظهورها خاصة الصغيرة منها تكاد تذوب شحومًا سائلة. جوفها جف وينفث نارًا. ألسنتها تتدلى أمامها تبحث عن رطوبة ترطبها فلا تجد سوى السخونة الحنظلية. الأجيال العجوزة تخلفت عن قطعانها وصارت تترنح فى المؤخرة، ثم تسقط فيلاً بعد فيل عجوز فى الغابات، ثم فى الأحراش، ثم ها هى تبقع صفار الفيافى بجثثها الداكنة. كل مسافة جيل يشيخ فيتهدل فيخر صريع التعب. فيل بعد فيل بعد فيل. صارت المسيرة مخرات تسقط فيها أجيال بعد أجيال بعد أجيال. صارت المسيرة الهروبية نفسها هى مقبرتهم غير الجماعية. أفيال صغيرة كثيرة وُئدت. دهستها أقدام كبارها فسحقت عظامها وتناثر لحمها مزقًا وانفجرت دماؤها واستقرت بقعًا حمراء مبرقشة بين أجداث آخر الأسلاف المقتولة إنهاكًا وجبنًا. تضاءلت القطعان. أجرام الأفيال تتحل وما زالت الأجيال الأصغر مذعورة تنوح رافضة الموت الانتحارى. هرولة الآباء والأمهات مستمرة والخوف والجبن الموروثان يشلانهم أن ينظروا خلفهم فى غضب ليروا مطارديهم. ذاكرتهم الموروثة ما زالت تتلو عليهم كوابيس صور المردة الذين أتوا إلى غاباتهم. فلما واجهوهم ليطردوهم أشهرت المردة أفرعًا خشبية تطلق من أطرافها رعدًا وصواعق تصيب الفيل منهم فى أذنه وتلقى به أرضًا يفرفس! ركبهم الرعب فأبعدوا رءوسهم ووضعوا مؤخراتهم مكانها لتطل ناحية الأفرع غير الخشبية القاتلة.

هربوا مهرولين صارخين لأزمان وحقب حاملين معهم تهويمات مرعبة احتلت ذاكرتهم طوال هرولة الشتات. يسقط منهم فيل بعد فيل بعد... طال

الهروب والقطعان احتلها التعب من طول الزمن والمسافات. توقف فيل صغير بعد أن تحرك عقله نافضًا ما حُشر فيه، همس له العقل : الموت خلفك رعدًا وصواعق.. والموت يلازمك إرهاقًا وتعبًا وجبنًا. الموت فى الهرولة التى لا تنتهى يتهددك دهسًا وسحقًا تحت أقدام آبائك وأمهاتك.. فلتقف. توقف الفيل الصغير والتفت ناحية مطارديه ومطاردى عشيرته ليزأر فيهم رفضًا. كُتل الأفيال الكبيرة تتدفع من حوله. يتفاداها.. فيل بعد فيل بعد فيل وكأنهم يهجمون عليه هو! وهو يريد أن يرى مطارديه ليزأر. دهسته أم أنثى وسحقه أب ذكر. فراسخ.. توقف فيل صغير آخر. ثم فيل صغير ثالث وخامس وسابع. التفتوا ولم يعودوا معطين مؤخراتهم ذات الذيول النحيلة ناحية قاتليهم. كبارهم يكادون يقتلونهم. غبار عظيم خلفهم يمنع عيونهم العليلة من رؤية الخوف الذى يطاردهم. معهم توقف فيل عجوز مضطرًا بدلاً من أن يسقط ميتًا من الإعياء. التفت مع الصغار. توقف عجوز ثان وثالث وخامس وسابع، خفت دبدبات الأقدام والقطعان توقفت. أعادت رءوسها إلى المكان الصحيح حيث العدو المطارِد..............؟! أين انفجارات الأفرع غير الخشبية؟ أين المردة القساة الذين يطاردونهم؟ أين التجسيد لما هو محمول فى ذاكرتهم؟ على بعد يقف قزم عارٍ ممصوص وقد فاجأه أن الأفيال توقفت والتفتت ناحيته تنظر إليه فى غضب. لم يعد يرى مؤخراتها الراكضة بأذيالها القصيرة المرتعشة.

إنه قزم حديث أرسله قومه الأقزام ليواصل مطاردة قطعان الأفيال العُشبية. أعلموه أن عليه كل مسافة أن يطلق من فمه صوتًا عاليًا مقلدًا الرعد والصواعق. لكنها الآن أبعدت مؤخراتها وواجهته! رءوسها رآها من قبل، كان يراها ميتة أو تلفظ أنفاسها الأخيرة. كم اندهش لعظم جماجمها وضخامة أنيابها وغلظة أقدامها. لكن.. الآن يرى الجماجم حية تنظر إليه غاضبة ثائرة!

يرى الأنياب مشرعة عليه! أعطاهم مؤخرته وأسرع هاربًا. الأفيال بُهتت.. فلا رعد ولا صواعق ترديها.. ولا مردة! مجرد مؤخرة ضئيلة بيضاء مرتعشة تهرول هاربة! رفعت الأفيال رءوسها عالية وخراطيمها إلى السماء وزأرت معًا فارتج الكون. الأنياب مشرعة للأمام والعيون ترصد الهارب وقد جفت منها الدموع وبصقت قذاها فلمعت شراهة الانتقام. أفواهها العظيمة فتحات بركانية للغضب، والأنياب أسلحة عاجية بيضاء تشتهى اللون الأحمر. تقدمت تدب. تتأوه الأرض تحت ضربات الأقدام العضلية الثقيلة وهى تطارد الشىء القزمى الهارب.

كوبونات

حسام فخر(*)

تدخل علىَّ ابنتى متهللة وتقول:

- صنعت لك بيدى هدية..

تمد كفها الصغير بدفتر يحمل على غلافه كلمة "كوبونات" يخطها الطفولى الساذج المبتدئ.. أفر صفحاته فأرى:

هذا الكوبون خاص بأبى وحده وممنوع أن يستخدمه غيره

الصلاحية: صالح للاستخدام ٢٤ ساعة يوميًا سبعة أيام فى الأسبوع طول العمر

القيمة: قبلات كثيرة جدًا

أقلب الصفحة وأجد:

هذا الكوبون خاص بأبى وحده وممنوع أن يستخدمه غيره.

الصلاحية: صالح للاستخدام ٢٤ ساعة يوميًّا سبعة أيام فى الأسبوع طول العمر.

القيمة: أحضان بلا عدد كلما أرادها.

(*) حسام فخر، من مجموعاته القصصية (وجوه نيويورك)، (حكايات أمينة).

وفى الصفحة التالية:

هذا الكوبون خاص بأبى وحده وممنوع أن يستخدمه غيره.

الصلاحية: صالح للاستخدام ساعات الصباح يوميًا سبعة أيام فى الأسبوع طول العمر.

القيمة: فنجان قهوة فى السرير مع الجريدة.

أستمر فى تقليب الصفحات.. عشرات الكوبونات المكتوبة بخطها الطفولى الساذج المبتدئ تزين حوافها سلاسل من القلوب الوردية.. كلها خاص بى وحدى وممنوع أن يستخدمه غيرى.. تعدنى بالنوم فى حضنى، وبمساعدتى فى وضع ملابسى فى الدولاب، وبتصفيف ما تبقى من شعرى، وبمسح دموعى إذا ما سالت رغمًا عنّى أمامها، وبإعادة طبقى بعد العشاء إلى المطبخ، وبالسير معى على شاطئ البحر لو سمحت ظروف عملى أن نذهب إليه، وبإطفاء التلفزيون عندما ينقل صور الصواريخ تنسف الأعراس فى القرى البعيدة، وبغسيل أسنانها كل يوم صباحًا ومساءً، وبرسم أى عدد أطلبه من الشموس الذهبية المتوهجة لأنظر إليها فى أيام الضباب الرمادية التى تخنقنى.. ابنتى جميلة وحنونة ومعطاء... وأمريكية..

الغـروب

حسن الجوخ(*)

على باب شقتنا تعالت طرقات، طرقات غريبة! إننى أميز جيدًا طرقات أقاربى وأصدقائى وزملائى، أعرفهم بأسمالهم الرخيصة، وأصواتهم المشروخة، ومشكلاتهم المألوفة.. هرولت فى اتجاه الباب يسابقنى فضول كبير، فتحت فاحتوتنى دهشة مفاجئة، خيمت لحظة صمت معاندة.. لم أدر كم لبثت على تلك الحال. تنبّهت على صوت أنثوى امتزج بالرقة والتوسُّل والحزن فى آن معًا: ممكن أدخل؟ لحظت أن الباب ما زال مواربًا، وإننى أقف كتمثال، جذبت الباب، وتراجعت خطوة للخلف، قلت متلعثمًا:

انحنيت أقبل أطفالها - البنتين والولد - وأنا أنثر كلمات الترحيب، أخدش صمتًا أصرَّ أن يتواصل، متوجهًا إلى حجرة والدتى العجوز، المقيمة الوحيدة بالشقة معى، بعد أن شرقت الدنيا وغربت بإخوتى فى بلاد الله، لحظة انفراج باب حجرة الوالدة انخرطت هى فى بكاء، تخلَّله نحيب متقطع، أخذت والدتى تهدئ من روعها بصوت هادئ وقور، وهى تحرك حبات المسبحة بين أناملها.. بينما رحت أتساءل - بين وبين نفسى - عشرات الأسئلة: هل...؟ ومتى...؟ ومتى...؟ وأين...؟ ولماذا...؟.

(*) من مواليد ١٩٤٩، من مجموعاته القصصية: (السيف و الوردة)، هيئة الكتاب ١٩٨٨، (السمر ذوو العيون الذهبية)، هيئة الكتاب ١٩٩٤، (الجدة حميدة)، سلسلة الكتاب الفضي، نادي القصة ٢٠٠١، (زائر النهار)، سلسلة أصوات أدبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

.... الليل يجثم بصمته الثقيل على بيوت حينا الفقير، اللهم إلا من نباح كلب أو مواء قط.. ضوء السهارى كان شاحبًا كابيًا، يرسم على الحيطان والكائنات أشكالاً خرافية، وأنا كطفل ألوذ بحضن أمى الدافئ الطرى وهى مستغرقة فى النوم، كنت لحظتها بين اليقظة والنوم، رأيته يتسلّل إلى الحجرة على أطراف أصابع قدميه، مركزًا نظراته القلقة على وجه الأم، فانتبهت، ركزت، داخلنى الخوف.. وجدته "بكرى" أخى الأكبر اهتزت المقاييس فى رأسى، ساورنى شك، ولكننى حينما دققت النظر تأكدت، فتح ضلفة الدولاب بهدوء وحذر شديدين، ويداه مدسوستان فى جورب قديم، أخرج كيسًا أسود اللون، لفه بعناية، ووضعه تحت إبطه الأيسر، وحينما نظر تجاهى تظاهرت خائفًا بالاستغراق فى النوم، تنهّد بصوت مكتوم.. ثم خرج بظهره، منسحبًا على أطراف أصابع قدميه، ساحبًا نظراته الحذرة شيئًا فشيئًا من على وجه الأم، وترك باب الحجرة مفتوحًا رغم شدة البرد.

احتلت ملامحه المخيفة بؤرة مشاعرى، فدبت فى أوصالى رعشة خوف.. ازددت التصاقًا بصدر أمى ولم أدر متى غلبنى سلطان النوم. فى الصباح لاحظت أمى أننى بللت الفراش فاندهشت؟ أن يفعل ذلك طفل تجاوز الست سنوات ولكنها بدلت ملابسى على عجل، وفردت المرتبة على الشرفة فى الشمس، قبل أن تذهب إلى عملها الشاق. ولم يمر ذلك اليوم ككل يوم، وربما فى نهايته نسيت كل شىء لكن فى المساء رأيت أمى تصرخ، تشق طوق الثوب، تصيح: "ضاعت تحويشة العمر، عشرة آلاف جنيه، جنيه ينطح جنيه، حق أولادى الأيتام يا خلق...". أردت أن أقول شيئًا فصوب أخى "بكرى" نظراته المتوعدة إلىّ فانخرست.. ورويدًا رويدا تجمّع حول أمى سكان البيت.. اختلطت الأصوات، وعلا اللغط معبرًا عن الدهشة والاستنكار للجرم... فرك جارنا العجوز، الحاج

وهدان كفيه متحرجًا، حوقل.. ثم ارتفع صوته فى حزم: عمومًا السارق ليس غريبا يا أختى، من أين اشترى "بكرى" الشبكة؟، ومن أين دفع مهر "ناهد" حبيبة القلب صباح اليوم؟.. ماذا جنيت بإصرارك على الرفض؟ هل يفيدك الآن دماغك الصلب؟ كفى عن إلصاق التهم بالخلق، بلغى الشرطة لتعرفى الآن أن كلامى هو عين العقل". ردت أمى بصوت ذابل، كاظمة بركان الغيظ، ونبرات صوتها تجسد منتهى الحسم: "ولد عاق، وعقوقه فاق الحد، سأقضى عليه بيدى، فموته أفضل من أن يعيش كلص..." فرد الصمت جناحيه على المكان، وانصرف الجمع رجالاً ونساءً وغلمانًا، تنهد "الحاج وهدان" وهو يغلق باب شقته. ثم قال: "إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ..." التفتت أمى إلى "بكرى" وحدقت فى بؤبؤى عينيه، فسقطت نظراته أسفل قدميه، تلجلجَ، اصفر وجهه غرست أظافرها فى لحم كتفيه، جرجرته بقسوة فسيطر عليه الرعب، تملّص من بين يديها بحركة ماهرة، وكأنه لاعب سيرك، فر هاربا، لم نره، أو نعرف عنه شيئًا منذ ذلك اليوم، اعتبرناه قد اختطفه الموت.

وها هى ذى زوجته تفجؤنا بهذه الزيارة الباكية لتوقظ ماضيًا قد دفن من زمن، وتهز كيانى بشدة، كيان شاب شاعرى الوجدان مثلى... دورته فراغ الشقة مضطربا دونما هدف.. ثم ذهبت إلى باب الشقة محكمًا رتاجه، فإذا كان هناك واحد يحب فهناك عشرة يكرهون ما زالت دموعها تتحدر على خديها، ونظراتها الحائرة مصلوبة على الأشياء، البنتان والولد يقفون فى وجوم ودهشة متسائلة، ونحيبها يسترسل فى صوت منطفئ النبرات، لا شعوريا ثرت ثورة شاب نفد صبره فارتفع صوتى حادا: كفى، ما الموضوع بالضبط؟! دنت منى بضع خطوات خجلى، وهى تكفكف دموعها.. هدأ روعها إلى حد ما، تكسرت الحروف فوق شفتيها الزرقاوين، شعرت أمامها أنى عملاق، وهى

تتأقزم. كان شعورًا مريحًا رطب نفسيتى إلى درجة كبيرة، حملقت برهة فى سقف الحجرة القذر.. ثم قالت: "أعذرونى، لم أجد غيركم ألجأ إليه، فالدم لا يمكن أن يكون ماء، والظفر لا يخرج من اللحم... ابنكم... الفشل الكلوى كاد يقضى عليه، و...". قاطعتها فى حدة واضحة: "أخى بكرى" الفشل الكلوى، متى...؟ أنت السبب يا ناهد..." صرخت: اسكت، أبعد نظراتك اللائمة عنى، إنى أختنق، خلاص، آخر جنيه من ثمن الأثاث أخذه صاحب أجزخانة الشفاء، تحملت كثيرًا، وبذلت قدر المستطاع، لكن العين بصيرة واليد قصيرة". قذفت بكلماتها فى وجهى، وسرعان ما ضمتها لوحة الصمت الثلج... دقت أمى صدرها أكثر من مرة - فى حركات سريعة متلاحقة، وفجأة مزقت صرختها الصمت: "ابنى مات".

كوبرى السيدة

حسن عبد الموجود(*)

"أنا شفته وهو طاير". لا يدرى متى كانت آخر مرة سمعها.

لاحظ وهو يسلم ناحية اليسار برصًا يسير فوق الحائط، ويدوس على نشع الجير الأخضر الفاتح فيحوِّله إلى هشيم يتساقط على البلاط النظيف.

المشهد ضايقه، وحتى لا يشعر بالتشاؤم خاصة أنه لم يبدأ يومه بعد.. تلكأ فى النهوض من سجادة الصلاة، ورفع يديه بالدعاء.

شعر بالطمأنينة قليلاً ودفع عن ذاكرته صوت صرير العربات المسرعة ثم فرملتها المفاجئة وظلها وهى تتجه إليه من السماء.

فكر ذات مرة أن الله يختبره، لكنه تضايق من طول الاختبار، لم يسمع عن اختبار طويل إلا فى حالة أيوب، وهو ليس على استعداد لتقمص دور أيوب الجديد، لأنه يعرف أن النبوة لم تكتب له. قال له القرين الأيمن إن الوصول إلى هذه المرحلة من التفكير سيدفعه إلى منطقة الشرك، وغمزه فى جانبه مؤكدًا له أن الشيطان يجلس على طرف السرير. فى هذه اللحظة ورغم تسرب رجفة صغيرة إلى بدنه تفل ثلاث مرات فى الفراغ الذى يعتقد أن وجه الشيطان يحتله.

نظر إلى صورة زوجته وهو يتجه إلى الصالة، رحلت بعد أن شهدت سقوط السيارة السادسة، لا يدرى - حتى الآن - السبب الذى كان يضحكها حينما

(*) حسن عبد الموجود، من مجموعاته القصصية (ساق وحيدة)، دار ميريت.

تعلم بأمر سقوط جديد، مع أنها كانت تعلم – أيضًا – المبالغ التى سيتكبدها لإصلاح الدكان.

فرد موظف رئاسة الحى الشكوى، وقرأ بصوت بطىء: "مقدمه أحمد سلامة العوضى، صاحب دكان بقالة كائن بميدان السيدة عائشة، وتتلخص مشكلتى فى أن كوبرى السيدة عائشة به خطأ فنى فى المنطقة التى تعلو الدكان بالضبط، وهذا الخطأ يعرفه كل المسئولين، واعترفت به هيئة الطرق والكبارى، وكتبت عنه الجرائد والمجلات (شعر عند هذه النقطة أن صوت الموظف بدأ يكتسى بالجدية وشكر ابن شقيقته الطالب الجامعى الذى كتب الشكوى) وشاع بين الناس باسم كوبرى الموت، وهذا الخطأ الفنى فى الكوبرى يؤدى إلى انفلات العجلة من يده، فيتجه رغمًا عنه إلى السور ويتخطاه، ويسقط فوق دكانى تمامًا، وبخلاف الجثث التى اضطررت للتعامل معها ١٢ مرة حتى الآن والعفاريت التى ملأت الدكان ودفعتنى للاستعانة بشيوخ وقساوسة لإخراجها مما كبدنى مبالغ طائلة تجاوزت الثلاثة آلاف جنيه حتى الآن، فإننى أضطر فى كل مرة إلى دفع مبالغ كبيرة لإصلاح الواجهة، وشراء بضاعة جديدة بديلة للتالفة، إلا أنه لم يحدث شىء، ولم يدفع لى أى تعويض عما تعرضت له، وبما أن الخطأ الفنى موجود فإن الحوادث ستستمر وأنا الخاسر الوحيد فى المنطقة، وقد استغل محمد عبد الستار السيد صاحب دكان البقالة المجاور لدكانى هذه الحوادث فى تخويف الناس منى، والقول إن الذى سيشترى بضاعة من دكانى سيدخل العفاريت إلى بيته، لأن دم ضحايا الكوبرى على هذه البضاعة، أرجو الاستجابة إلى الشكوى وتعويضى بمبلغ مناسب، وتكليف الحكومة لهيئة الطرق والكبارى بهدم كوبرى السيدة عائشة وبنائه من جديد".

ضحك الموظف: مرة واحدة؟!

توقف ليتبين هل يسخر أم لا، غير أن الموظف أكمل: أنا شخصيًا عارف إنك بتتعذب، بس إحنا وكل الجهات الحكومية عملنا اللى علينا!

حاول قمع الغضب ولكنه انفلت: زى إيه؟!

وهو يفتح باب البيت ويسير فى الزقاق المؤدى إلى مجرى العيون، رنت فى دماغه كلمات الموظف وهو يعيد إليه الشكوى مطوية، قال له إن إحدى هذه الشكاوى تسببت فى إغلاق الكوبرى أمام المواطنين ابتداء من منتصف الليل وحتى السابعة صباحًا، كما أقامت هيئة الطرق والكبارى مطبًا صناعيًا فى مدخل الكوبرى ووضعت لافتة تحذيرية للسيارات القادمة من صلاح سالم والأتوستراد لتهدئة السرعة.

مفيش فايدة!

ربما أنهى بها الموظف الحوار بينهما، وربما قالها هو غاضبًا وهو يعيد الشكوى إلى جيبه، لا يتذكر بالضبط، وصل عند هذه اللحظة إلى مدخل الكوبرى، رأى شخصًا يركن سيارته الفيات الحمراء عند المدخل ويهبط منها ويزيح اللافتة – التى تشير إلى إغلاق الكوبرى حتى السابعة صباحًا – إلى الجانب، ثم يركنها على سور الكوبرى، ويعود إلى سيارته منطلقًا إلى أعلى، نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى الثامنة إلا دقيقتين أو ثلاث، وصل إلى اللافتة وفكر، ماذا كان سيحدث لو أن دكانه فى هذا الجانب، السيارات القادمة من قصر العينى ومجرى العيون متجهة إلى الأوتوستراد وصلاح سالم لا تتعرض إلى خطأ فنى يقلبها على رءوس الجزارين والبقالين وبائعى الطيور والفول والفلافل والقهوجية.

لوح لمن يعرفهم، ولم يركز فى الطريقة التى حيوه بها، لاح له ميدان

السيدة عائشة خاليًا من المارة، عبر من أسفل الكوبرى إلى الناحية الأخرى حيث دكانه.

عرف فى تلك اللحظة أسباب خلو الميدان، فقد كان هناك جمع كبير من المارة يحجبون دكانه عن مرمى نظره، خفق قلبه، خاصة مع العبارات التى بدأت تصل إلى مسامعه من الجمع الذى يولى له ظهره، يا حول الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، أنا شفته وهو طاير.

اخترق الأجساد مستخدمًا قوة يديه حتى وصل إلى دكانه. طالعته ماركة سيارة "تيوتا زيتى ميتالك" نصفها تقريبًا مختف داخل الدكان، فيما كان عدد يحاول تخليص ما تبقى من السائق من خلف الدركسيون، لم ير وجهه، وإنما جزء مغطى بالدم من ذراعه، وتبين لون سترته الصفراء، غامت عيناه وهو يرى علب السمن والزيت والبسكويت والشيكولاتة والملبِّس والسجائر تغطى المكان حول السيارة، قفز إلى ذهنه رقم ١٣ ولم يستطع أن يبعده عن ذهنه، كان يكره التشاؤم ولكنه وجد نفسه وجهًا لوجه أمامه، تذكر ضحكة زوجته، غير أن موجة كراهية صعدت إلى أعماقه، شعر أنه انتظر كثيرًا ليعترف لنفسه بكراهيتها، قرر الانسحاب، وترك جسده للأمواج تحركه باتجاه الميدان.

أنين الروح

حسن نور[*]

جرجر الحمَّال ساقيه فوق رصيف المحطة بعد أن حمل على كتفيه وظهره المحدودب حقائب من كل الأحجام.. ينوء بحمله الثقيل وسنوات عمره الطويلة.. ضمر عوده وجف دمه ووهن عظمه من طول ما عاناه خلال سنوات عمره القاسية، جاهد على ألا يسقط تحت حمله.. كان يتوقف كل بضع خطوات لينطر حمله فوق ظهره ليحقق توازنه.. زحف وراء الخلق الزاحف فبدا كعربة بلا ملامح، تدفعها الريح. قرقر بطنه وغامت عيناه وتصدعت رأسه من أثر الجوع، ثقل عليه حمله، كاد رأسه يلامس الأرض.. كل جزء فى جسده تقوس.. يخطو فينبعث من فمه أنين ومن فتحتى أنفه حشرجة.. أحس بالوجع يسرى فى كل أجزائه.. ساقيه وكتفيه وذراعيه وظهره، فكر أن يلقى بحمله ويركن إلى جدار.. يمدد جسده ويغمض عينيه ويروح فى سبات عميق لم يذق طعمه طوال عمره، فربما يسترد عافيته، لكن أنى له ذلك وصاحب الحقائب تدب قدماه فوق أسفلت الرصيف حتى ليكاد وقعها يخرق أذنيه.. تحامل على نفسه وراح يسحب ساقيه حتى خرج من باب المحطة إلى نهر الطريق.. تخلص من حمله، ثم راح ينقل عينيه بين أجزاء جسده ليستوثق من أنه لم يفقد شيئًا منها أثناء مشواره المضنى. صلب طوله فوق سيف الرصيف المقابل لباب المحطة، مرقت سيارة أجرة من الطريق الضيق ووقفت أمامه. قال للسائق مستجديًا: ساعدنى يا ابنى.. كان

---

[*] من مجموعاته القصصية: (الهاموش)، (أنا الموقع أدناه)، (خور رحمة)، (عينان زرقاوان)، (دوامات الشمال).

شابا فى عمر ولده الذى لم ينجبه.. نظر مليًّا دون أن يحرك ساكنا.. همس لنفسه: الأمر لله، وراح ينقل الحقائب.. حقيبة حقيبة إلى شبكة العربة المثبتة فوق ظهرها. مسحت عيناه الخرزيتان الورقة المالية الصغيرة المستكينة فى باطن كفه، ثم دمدم غاضبًا: خمسة جنيهات يا عديم النظر.. كل هذه الحقائب التى ينوء بحملها أقوى حمار بخمسة جنيهات..؟! إلى الطوار المقابل سار بقطيع همومه، تقبض كفه سندوتشى الفول والطعمية، انزوى فى ركن.. استند إلى جدار.. مسحت عيناه المكان قبل أن يبدأ فى التهام لقيماته. ترى كم تبقى معك..؟ تراءى له وجه زوجه وقد وضعت الإبرة المعدنية فوق أسطوانتها المشروخة: هاه يا سبع البرمبة.. بكم عملت اليوم.. أربعة جنيهات.. ماذا سنفعل بها.. و.. و.. سد أذنيه وأغمض عينيه ليرتد بذاكرته للوراء.. يسأل نفسه عمن عرفه عليها، لماذا اقترن بها هى بالذات؟

ثم يعود ليقول لنفسه.. لكنها جد معذورة.. نعم، ولكن ماذا عساى أن أفعل وأنا من يومى فقرى.. أورثنيه أبى عن أبيه.. لم أهنأ بيوم من عمرى، لا فى طفولتى ولا حتى فى صباى.. تفتحت عيناى على تعالَ ياحمار.. اذهب يا طور.. هكذا كان يصرخ بها الأسطى، ثم رمانى بالمفتاح ١٣ المعدنى فأطاح بقطعة كبيرة من جلد وجهى، فررت منه إلى مكوجى وضع المكواة ساخنة على ظهر كفى فحرقت جلدى، فانتقلت لأعمل لدى ترزى فراح عماله يشكشكون جلدى بإبرهم لما تباطأت فى تطيير العصافير*، فسولت لى نفسى أن أهرب من أبى إلى الشارع فهربت.. أقضى يومى متسكعا بين الخرائب وأكوام القمامة، مع القطط والكلاب.. ألتقط لقيمات وثمرات فاكهة معطوبة أسكت بها جوعى، وأنام فى الأماكن المهجورة، لكنهم لم يتركونى لحالى، فقد انقضوا علىَّ من كل جانب، وضربوا كل جزء فى جسمى، تكوَّرت على نفسى، وحاولت إحاطته بذراعى وساقى وكتمت صراخى، وظلوا يضربوننى حتى

سمعته يصرخ فيهم.. كفى.. كان طويلا كباب.. قال: يبدو أنه خامة طيبة.. هاتوه.. بعد يومين بت بينهم فى الطل، وأكلت معهم مما يشحذونه من الناس، وفى اليوم الثالث أعطونى خرقة قذرة، وحددوا لى مكانا أمام أحد المطاعم التى يتناول فيها الناس وجباتهم، ويجيئون إليها بعرباتهم الأنيقة.. أتظاهر بتنظيفها حال رؤيتى لأحدهم مقبلا نحو سيارته.. يهشونى كذبابة ضايقتهم، لكننى أظل لأبدًا لهم حتى يلقون إلىَّ بالربع جنيه أو حتى بالبريزة. لم يهدأ أبى حتى عثر علىَّ.. ليته ما وجدنى، فربما كانت الصياغة أفضل لى، وربما كان النوم فى الطل أدفأ، فما فائدة حجرة أستأجرها ولا تأوينى، وما فائدة أجر أتقاضاه لا يكفينى، وزوجة نكدية وأربعة بطون لا تشبع، وعشر أعين تسلط علىَّ حال رجوعى كل مساء، وكأنها تسألنى: هاه.. ماذا أحضرت لنا..؟ لم يعد لى مهرب إلا الموت لأرتاح مما أعانيه.. لماذا لا يجىء.. أين أنت يا ملك الموت لتقبض روحى وتنتشلنى من هذا الشقاء.. ليتك تجىء الآن.. نعم.. الآن.. رآه قائلا أمامه، يخرق صوته الرعدى أذنيه: لبيك عبد الله.. ذعر.. انقبضت أساريره.. زاغ بصره.. تداخلت المرائى أمامه.. التصق بالجدران.. انكمشت أعضاؤه.. ابتل سرواله.. أعياه البحث عن لسانه حتى وجده.. تلعثم فى سؤاله: ماذا.. ما..ذا تـ.. تريد.. لماذا.. جـ..جئت..؟ ـ لقد أسأت الأدب، وطلبت ما ليس لك بحق، ومع هذا فها أنذا أمامك لأحقق طلبك. ـ لا لأ.. لقد أسأت الأدب حقًا، فلا تعاملنى بإساءة أدبى، فقد ظننت خطأ أن الموت راحة لى من هذا الشقاء..و.. سوف أ..أ ينظر يمنة ويسرة فلا يبصره.. اطمأن قلبه.. أخذ نفسا عميقا.. امتلأ صدره بالهواء.. تمتم فرحا: الحمد لله.. الحمد لله.. لم أمت.. ما أجمل الحياة بكل مآسيها..

◆ تطيير العصافير: اصطلاح على طريقة تعلم الحياكة اليدوية بسرعة كبيرة وذلك بإدخال إبرة بخيط غير معقود الطرف، فى قماشة وإخراجها، وتكرار هذه العملية بسرعة كبيرة.

أمى

حمدى أبو جليل(*)

لم أقصد، كانت مجرد رسالة تافهة من تلك التى ترسلها هيئة المعاشات لها كل عام لسببين: أولهما يرجع إلى رغبة مشروعة فى مشاركتها المعاش، وثانيهما التأكد من أنها مازالت تمارس الحياة.

خلال الأربعين يومًا التالية لموت أبى، التى دربتنى على إتقان مظاهر الحزن الذى ولد هيستيريًا ومضحكاً، ومع تمام الأربعين أصبح أكثر تمهلاً ووقارًا وكآبة، وبدوت قادرًا ومستمتعًا وجديرًا بأن استبدل باسمه البدوى المصحوب بصعوبة فى النطق اسم (المرحوم) السهل الجاذب لنظرة العطف كما تجذب أكوام القمامة أفواج الذباب.

فى تلك الأربعين الغابرة حين كنت أخجل من الضحك على الأهمية الطارئة التى صاحبت (المرحوم).. كانت رسائل هيئة المعاشات تأتى متوالية.. محذرة ومتوعدة: (أى محاولة للزواج معناها انقطاع المعاش) كنت أخجل من قراءة هذه الجملة وأطمئن لهفتها بكلام يؤكد استمرار المعاش كانت لا تصدق منه حرفًا واحداً.

بعد أن انتقلت الرسائل إلى المرحلة الموسمية، خفتت حدتها، بل إنها فى سنوات كثيرة كانت لا تبخل على أى بالتهنئة بالأعياد المختلفة، ربما لأنها

(*) حمدى أبو جليّل، من مواليد ١٩٦٧، من مجموعاته القصصية (أسراب النمل)، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٧، (أشياء مطوية بعناية فائقة)، هيئة الكتاب، ٢٠٠٠.

فقدت الأمل فى مسألة الزواج، وتهيئ الجو جيدًا لأمر جديد وحاسم يكون انقطاع المعاش.

يبدو أن أمى انتبهت للمؤامرة جيدًا، فقد أخذت تهمل الخطابات التى تتأكد من أنها موجهة إليها، عن طريق تلمس حروف اسمها فلا تعرف سواه، تبلل إبهامها وتمرره ببطء شديد فوق الاسم المكتوب على الخطاب، حرفًا حرفاً، ولما تنتهى رحلة إبهامها فوق آخر حرف تتأكد فورًا من أن الخطاب موجه إليها، أو إلى، فإذا كان لها تلقيه بإهمال فى أى ركن قريب منها ولا تنظر إليها مطلقاً، ولكن ذلك الإهمال لم تصبر عليه طويلاً، ففجأة جمعت كل خطاباتها ورصتهم فوق بعض بحرص شديد، ومع وصول كل خطاب جديد من هيئة المعاشات تعدهم مرات عديدة.. مرات عديدة وتخطئ فى العدد وتسألنى:

(أنا عمرى كام؟!)

تزامن مع ذلك (العد) الذى تخطئ فيه دائمًا اختصار ملحوظ فى أشيائها، والمساحة التى تتحرك فيها داخل البيت.

مع كل خطاب تضمه إلى قائمة الحساب، وتمدده فوق إخوته، تستغنى مباشرة عن حاجة من حاجاتها وتطويها فوق الخطابات.

أو تغلق حجرة جديدة من حجرات بيتنا الواسع. بدأت المسألة بالحجرات الأقل أهمية، كحجرات البهائم والفرن والتبن والفراخ، وبأشيائها التافهة، كأكواب الشاى والأطباق والملابس القديمة والبطاطين، ثم سرعان ما شملت قرارات الاستغناء والطى الأشياء والحجرات الأكثر أهمية، فأغلقت أمى حجرة الجلوس، والصالة، والباب الأمامى للبيت، وطوت – إلى غير رجعة – (الطرحة) – طبيعى التى أتى بها خالى من بلاد الحجاز، التى كانت تفخر بطراوتها وبركتها دوما.

وبعد أن ازدحمت الأشياء المستغنى عنها، وبعد أن خصصت أمى لها حجرة بمفردها - أسمتها "حجرة صاحب النصيب" - اتجهت أمى إلى تكهين أشيائها الاستراتيجية، وقصرت استعمالها على طبق واحد من نوع (الألمونيا) القديم هو الذى بقى من جهاز عُرسها... تطهو فيه طعامها على الكانون، وتنظفه جيدًا وتملؤه من الزير وتشرب حتى ترتوى وبالباقى يكون الشاى الذى يشرب من الطبق مباشرة، كل ذلك فى الحجرة الوحيدة التى ظلت مفتوحة من حجرات بيتنا العشرين، تنام فيها، وتأكل، وتعد الخطابات، وتستحم، وتفعل كما يفعل الناس، وتعانى من أوجاع الروماتيزم، وتشتاق إلى أى جنس حيًا وميتاً، وتتهيأ لاستقبال الزائرين الذين لن يأتوا مطلقاً. أمى لم تقيد فى سجلات المواليد المصرية كما أبناء جيلها، فقد ولدوا فى الفترة التى كان البدو يعتدّون بعدم انتمائهم إلى وطن، وكانت الحكومات - بلؤم شديد - توافقهم وتميزهم على ذلك. وكنت أطمئن نفسى بالعدد القليل العائش من أندادها، ومع موت كل واحد منهم كنت أسألها: هل المرحوم من عمرك؟!.

وكانت ترتبك حين تقول بتهدج: "لا !!".. وبعد أن تتأكد أنها ضغطت ضغطًا جيدًا على (لا!!) تضيف: "أكبر".

موت آخر (شيخ عرب) كان يناديها باسمها مجردًا من صفة (حنى)[1] جعل الاعتماد على الشواهد التاريخية فى تحديد عمرها أمرًا حتمياً: سألتها عن ثورة (١٩١٩) وسعد زغلول، ليس لأنها مهتمة بالتاريخ الثورى المصرى، ولكن لأن أحد أبناء عمها كان ضمن قادة هذه الثورة، وقطع البدو فيها أسلاك التليفونات وقضبان السكك الحديدية، وهجموا على مراكز الشرطة، وقُتل

---

(١) حنى: جدتى.

ثمانية منهم برصاص الإنجليز، حين قلت: (الإنجليز)، أبدت دهشتها وقالت:

- "عارفتها الثورة، مهنكش إنجليز"
- "أمال هم أهجموا على المراكز ليش"

"نين ما الحكومة وواحد اسما "سعد زغلول" خذوا (حمد الباسل)[1] وحطوه فى السجن هجم "البوادى على المركز، وقصّوا قضبان لقطار"

لا شك فى أن إسهاماتها التاريخية هذه دمرت حجة دامغة كنت أكسر بها عيون أبناء الفلاحين أثناء المشاحنات، متفاخرًا بأجدادى البدو، معتقدًا بأنهم ثاروا من أجل تحرير الوطن من المستعمر، غافلاً عن أن ثمانية منهم ضحوا بحياتهم طائعين لمجرد سجن أحدهم!.

(وغيابهن عنك يهشمن فى غيرك

طول المدى لا موتن لا شابن)[2]

لا أعرف لماذا تغنت أمى بهذا الشعر، ألتؤكد إسهاماتها التاريخية؟ أم لأنها حسبت مثلى عدد السنوات التى تفصل بين مولدها الافتراضى قبل (١٩١٩) وعام (١٩٩٨).

أم تراها استحسنت مثلى إقامة هدنة عشر سنوات كاملة مع متوسطات أعمار الإنسان المحصورة بين (الستين) و(الشبعين) واقتنعت مثلى أن عمرها ستين عامًا بالضبط.. حسب الحسبة بدقة وقلت: أنت من مواليد ١٩٤٨/١/١ كان ذلك

---

(١) حمد الباسل: أحد زعماء ثورة ١٩١٩م.

(٢) شعر بدوى: إن غياب المصائب عن الإنسان لا يعنى زوالها، ولكن يعنى أنها مشغولة بتهشيم إنسان آخر، لأن المصائب لا تموت أو تشيب!.

مريحًا ورائعًا، عشر سنوات كافية ليس فقط لتغيير العالم، بل إبادته، فابتسمت ابتسامة مصحوبة بهزة واثقة للرأس، ظننتها إشارة لتشغيل العمر الافتراضى الذى حددناه، ولكن عندما انتبهت إلى أن الفرق بين (٤٨ و(٩٨) خمسون عامًا فقط، أيقنت أن افتراضى أفرط كثيرًا، فى التفاؤل، وأن هز الرأس بثقة هو الفعل الوحيد الذى تواجه به تزويج بنات البدو للفلاحين ء وآلام قدميها، وسخافات أخى، وتجاعيد وجهها، ورسائل هيئة المعاشات.

لم أقصد، رسالة عادية قرأتها بملل، ولم أنتبه إلى فراغ خانة (الميلاد) من (ساقطة قيد) إلا وأنا أضغطها داخل المظروف، وخانتنى بلادتى فى الحساب، وتشبث التاريخ بشدة (١/١/١٩٠٠).

ووجدتنى غير قادر - بالمرة - عن الكف عن تحسس تجاعيد وجهها، والارتباك حين تغط فى نوم عميق، ولا أعرف لماذا بدت عادية ولم تهز رأسها عندما قلت مداعبًا (١/١/١٩٠٠)، تراها لم تصدقنى، أو ربما حفظت - الملامسة - أرقام التاريخ كما حفظت حروف اسمها بالضبط.

رحلة

حمدى البطران(*)

لم أصدقه، طلبت منه أن يجلس ويتريث، أمام إصراره فتحت له محضرا.

قال:

- قتلتها.

ثم وقع على المحضر، أودعناه الحجز. فى الليل أرسلناه للنيابة. عاد ومعه قرار الحبس.

...

لم أصدق حكاية القتل.!

كنت أعرفهما زوجين متحابين. هى رقيقة. خجولة. تنتمى إلى الهامسين عشقا. وهو يبكى لأتفه الأسباب. يطلب المساعدة لذبح دجاجة. ينتمى إلى فئة العاشقين همسا.

...

طلبنا منه الإرشاد عن مكان الجثة، والسلاح المستعمل. قدم لنا الفأس والسكين. عليهما آثار دماء.

أما الجثة فقال إنه دفنها فى حفرة بجوار النهر.

(*) من مواليد ١٩٤٠، من مجموعاته (المبعدون)، و (وقائع غرق السفينة).

...

ذهبنا معه. فتشنا المكان والأماكن المحيطة فلم نعثر على شيء. رجعنا معه إلى البيت وفتشناه. لم نعثر على الجثة. أعدنا سؤاله عن مكانها. قال :

- أكلتها !.

- أنت مجنون؟

- أبدًا. !.

سألنا الأهل والجيران ، أجمعوا على كذبه. سألناهم عن المجنى عليها قالوا :

- سافرت.

- إلى أين؟

- الله أعلم.

...

أعدنا تفتيش البيت عثرنا تحت مرتبة السرير على خطاب موجه إليه. قرأناه. عرفنا أنها سافرت لعشيق!

سألناه عنه. أنكر. ضربناه. قال :

- أعرفه .

- تعرف عنوانه؟

- بالتأكيد.

...

اصطحبناه إلى المكان. عثرنا على الجثة بعد كسر الباب. لم نعثر مع الجثة على ما يفيد التحقيق.

...

بعد أن رفع الطبيب الشرعي مشارطه عن الجثمان. كتب:

- الوفاة طبيعية!

عربة مترو أخيرة

حنان الدناصورى(*)

لم يتحول الشك فى أنها تركت الدواء إلى يقين إلا عندما رأيتُ هذا الصباح بعينى رأسى الأقراص البيضاء تستقر فى جوف التواليت. كان لا بد من التوجه إلى الصيدلية، فارتديت ملابسى على عجل وخرجت فورًا.

- "رايحة فين ع الصبح، الرجالة مستنينك ع الناصية ولا إيه؟"

كان صراخها يلاحقنى حتى انحناءة السلم الأخيرة، ونظرة إشفاق فى عينى البواب وأنا أعبر الطريق.

- "اصحى يا حاجة".

تلفتُّ، لم تكن غيرى تعبر الطريق نصف غائبة، وصبى على دراجة يتفادانى بأعجوبة متلويا بدراجته التى يقودها بذراع بينما يشيح بذراعه الأخرى نحوى ويلتفت بجسده كله للخلف:

- ركزى يا حاجة!

كان يرتدى جلبابًا على اللحم، لكنه يبدو سعيدًا ومبتسما وخفيفا، بينما كنت أسير كعجوز متعبة.

الصيدلى الذى كان يعرف طلبى من الأقراص منذ سنوات، كان يجهزه

(*) حنان الدناصوري، من مجموعاتها القصصية: (ثلاث نقاط للألم)، دار المحروسة، ٢٠٠٧.

منذ اجتزت باب الصيدلية، لكننى قلتُ فى حسم: "لأ..لأ" فأعارنى أذنه مستفهمًا، فقلت:

- ريسبريدال سوليوشن.

الصيدلى العجوز فهم من طلبى دواء بديل عديم اللون على هيئة محلول أنها توقفت عن تعاطى الدواء، فأزاح ما أعده جانبا، وهز رأسه مؤكدا على إضافته للعصير دون علمها، وحذرنى أنها ربما تكتشف الأمر بعد فترة، وتدخل فى نوبة هياج لن تنتهى إلا فى المصحة كما حدث من قبل.

عشرة أعوام وأنا أنتقل بها من مصحة إلى أخرى. أراقبها بشدة فى البيت، وأخرج معها فى أوقات الهدوء، وكان الصيدلى العجوز يكلمنى أمامها على أن العلاج لى، لكنه قال اليوم: "ألف سلامة عليكى يا حاجة" ولم يقل: يا دكتورة. خمنتُ أنه بدأ ينسى، ولاحظ هو انزعاجى، فتراجع عن كلامه، وقال: ألف سلامة على الحاجة. التمست له العذر فقد كان الشبه فى زجاج الصيدلية الخارجى يقترب كثيرًا بيننا: استطالة الوجه، وانطفاء العينين، وانحناءة الظهر، فقد تجاوزتُ الأربعين، ولا زلت مثلها بلا زوج ولا بيت ولا أطفال، حتى رسالة الماجستير- التى ما زلت أحتفظ بأوراقها - لم أكملها.

عند مدخل العمارة حيتنى الجارة العجوز بنظرة مواسية، وكانت هى ما تزال فى الشرفة تواصل صياحها وشتائمها. كرهتها جدًّا فى تلك اللحظة، وتجاهلتُ نظرات المارة التى تنتقل بينها وبينى، وقررت ألا أعود. حين خرجت للشارع الرئيسى، بدا صوتها يتلاشى، ولامست شمس خريفية هادئة وجهى وغاب صوتها. نظرت إلى السماء، بدت زرقاء واسعة وخالية إلا من سحب ضئيلة كندف قطن ناصع البياض. غمرنى دفء فتنفست بعمق. أبهجنى عرض الشارع كأننى أراه لأول مرة.

رأيت المترو يوشك أن يتحرك، والولد بالدراجة يمرق بجوارى تاركًا المقود هذه المرة، فانتابتنى خفة، وقفزت فى عربة المترو فى اللحظة الأخيرة. ابتسمت لنفسى وأنا أنهج من خطواتى السريعة التى لم أعتدها. منذ متى لم أركب المترو؟ ومنذ متى يمر فى الشارع دون أن ألحظه؟ ربما منذ كنت أمضى سنة الامتياز فى الدمرداش. كانت العربة فارغة فى ذلك الوقت من صباح الجمعة. شعرت بالحيرة وأنا أفاضل بين الأماكن: مقعد فى اتجاه حركة المترو حتى لا أشعر بالدوخة أم عكسها؟ بجانب النافذة أم لا؟ حتى دعانى الكمسارى للجلوس "واقفة ليه دة كله فاضى".

جلست بجوار النافذة عكس حركة العربة، كما كنت أفعل وأنا صغيرة لأعد الأعمدة بين محطة وأخرى. فى بداية العد أخطأت وشعرت بدوار، لكننى أكملت. لم أشعر بمرور الوقت وقد ازدحمت العربة الأخيرة بنساء ورجال وأطفال يتكلمون ويضحكون ويصيحون. توقف المترو فجأة فملت إلى الخلف ثم رفعت رأسى، فوجدتنى أمام شرفته تمامًا. لسنوات وأنا أمر أمام منزله، ولا أرفع وجهى لأواجه الشرفة حتى لا أضعف وأصعد إليه. كان ينتظرنى كل صباح على تلك المحطة، نذهب إلى الجامعة ونعود سويًا. وطوال سنوات الدراسة، كانت الحياة جميلة بطريقة تدعو للشك، لكننا لم نكن سوى صغار أبرياء فلم نفهم.

ظهرت أعراض مرضها منذ ماتت أمى، فساندنى وخفف عنى لسنوات، لكن الأمور ازدادت سوءًا ولم تلُح فى الأفق أية حلول ممكنة. سنتان بعد التخرج، ثم طلب منى صراحة أن أخرج قليلاً من هذه الدوامة، ولا أغرق نفسى فيها، فثرت عليه، وأنهيت العلاقة معه، وتخلصت من كل ما يذكرنى به، الصور، والرسائل، والهدايا. تذكرت الآن وردة حمراء مجففة ترقد بين أوراق

رسالة الماجستير التى لا أعرف متى توقفت عنها، مع كلمات ساذجة عن السعادة لكنها صادقة وبسيطة.

اجتاحتنى الآن رغبة مفاجئة لرؤيته، نزلت من المترو. سرت فى ذات الطريق الذى قطعته كثيرًا معه، يراوغنى لحن أغنية غامضة. حين أحس بخطواتى على درجات السلم عصفور وطار على حافة نافذة السلم، ورفرف بجناحيه مبتعدًا، بدت السماء قريبة. توقفتُ وداخلنى يقين أن باب الشقة المواجه سوف يفتح عن وجه أعرفه قبل أن أضع إصبعى على الجرس.

شارع منصور

خالد إسماعيل[*]

هو صحفى "شيوعى" من السويس وهى ست بيت من الجيزة، ترتدى بنطلونًا أظهر عظمة مؤخرتها، وأنا فى بيته أشاهد مسلسل تليفزيونى، وصلت متأخرة عن الموعد حوالى ساعتين، وقالت له:

- آسفة.. اتأخرت عشان التِّعبان.

- ما له التعبان يا روح خالتك؟ قرصك؟

- لأ.. كان ف المنور.. أنا خايفة أوى..

وأنا من الصعيد وكأس البراندى أمامى، والمسلسل وصل نقطة بكاء امرأة، بعد ثوانٍ عرفت أن ابنها عوضين قتله العمدة الظالم، وصاح عبيط القرية: "كله سلف ودين.. كله سلف ودين"، وتذكرت كلمات مسئول قالها ضمن برنامج إذاعى: "إن النهضة التى نعيشها نراها واضحة فى دراما الشاشة الصغيرة"، فدلقت الكأس فى جوفى وأشعلت سيجارة، وهو وهى غابا فى أوضة النوم، وأنا مع البراندى والمسلسل والبنطلون الذى أظهر عظمة مؤخرتها، وهى لم تكمل حكاية "الثعبان" فتولدت فى رأسى أفكار حول "الثعبان" – رمز الجنس – عند بعض أساتذة التحليل النفسى، والثعبان الأقرع الذى بسببه قطعت علاقتى مع عثمان أمير جماعة التوقُّف والتبيُّن المعتقل منذ سنوات فى سجن

---

[*] من مواليد ١٩٦٨، من مجموعاته القصصية: (درب النصارى)، هيئة قصور الثقافة، (غرب النيل)، دار ميريت.

العقرب على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوى، كنا طالبين فى ثانوية طما، والأستاذ حماد مدرس اللغة العربية يتحدث عن العمل بالتنزيل وعذاب القبر والثعبان الأقرع الذى يدك القبور على الكفار، فضحكت، فقال عثمان: "إنت كافر، والحواة - وأصلهم من الحَلَب يخرجون الثعابين بعبارات، الواحد منهم ينادى فى الشارع:

- رفاعى مدد.. حاوى مدد..

فنسمع صفير الثعابين، فندعوه لدخول بيوتنا، فيدخل، فنكتشف - بعد دقائق - أننا لا نعيش فى بيوت، بل فى كهوف أو فى حلقة من حلقات البرنامج التليفزيونى "عالم الحيوان" والحواية عهد أمان بين أصحاب البيت والضيف - الثعبان - فلا يمص دم أفراخ الحمام التى يربونها فى بنيات، وهى سمراء على وجهها فقر قديم يمتد إلى جدها الرابع - على الأقل - وصدرها الضخم دال على أنها أنهكت فى بيوت الطلبة - بمنطقة أبو قتاتة - والإقامة فى غرف تظهر فى المسلسلات والأفلام وفيها وابور الجاز أبو كوشة، وبراد الشاى والجلباب المقلم والطاقية للدلالة على انتساب الطالب إلى الريف، وفى الأغلب، يكون هذا الطالب شيوعيًا، أو عضوًا فى جمعية "اليد السوداء"، يكره الإنجليز والملك ويصرخ:

- كلنا بنحب مصر.. كلنا فداكى يا مصر..

ثم يبكى على صدر زميله الذى جاء رابطًا يده بالشاش، وارتعاشة وجهه الأبيض السمين تدل على أن أباه "موظف" ثم تظهر صورة أم جالسة على سجادة الصلاة تدعو لابنها بالنجاح أو صورة أب أمامه "مصحف" مفتوح، ووجهه غارق فى هدوء ورضا، والمسبحة فى يده اليمنى، يفركها، ثم يضعها فى جيبه وقبل أن ينهض تقول له زوجته "المحجبة":

- حرمًا يا حاج..

فيجيبها:

- جمعًا يا حاجة.. إن شاء الله نقف على عرفات أنا وانتى.

وصديقى الشيوعى، يكتب الشعر بالفصحى ويهدى قصائده إلى عمال حلوان، وعمال كفر الدوار، ونشط فترة فى عضوية "منظمة العفو الدولية"، بعد خروجه فى الانقسام الشهير الذى أصاب حزب العمال الشيوعى السرى، وقال لى – مرة – إن السمراء التى فى حضنه الآن اسمها "غادة" وإنها "بنت جدعة جدًّا" قرأت رواية "الأم" للكاتب الروسى مكسيم جوركى، وآمنت بـ "الاشتراكية" وأنه أهداها كتبًا مبسطة فى النظرية الماركسية لأنه يؤمن بأن المرأة مهمة جدًّا فى أى تنظيم سياسى ثورى.

شربت الكأس الأخير.. انتابنى حزن وقررت أن أشترى زجاجة أخرى.

فتح باب الأوضة.. وجاءنى مبتسمًا وهمس:

- هية دلوقتى مستتياك، تخش، تطبطب عليها وبعدين تعزم عليها بسيجارة.

- أنا فاهم كل حاجة.. ماتخافش على اخوك.

وذهنى موزَّع بين "أورفانيدس" – بائع الخمور – والخوف من الفشل، والرجولة، والشراب المقطوع، ورائحة قدمىَّ، والفانلة التى اصفَّر لونها بفعل العرق، ومؤخرتها المثيرة.

(٢)

الزجاجة الثانية فى شنطتى، وأنا فى "شارع منصور"، عساكر الداخلية كانوا واقفين ببنادقهم، والبراندى أثقل رأسى.. يجب أن أشعر بالسعادة، بعد أن جعلته يمر بين فخذيها ويصل إلى "الموضوع" لكن سرعة القذف أفسدت اللحظة، لم تُعطِنى "غادة" فرصة تقبيلها، ولم تغمض عينيها، ولم تتأوَّه، ولم تقل بدلال "النار.. النار.. انت مفترى.. بالراحة عليَّة".

ولم يعجبها الوضع الذى اقترحته عليها، بل زجرتنى لما قذفت.

- أديك بوَّظت الملاية!

وقالت بقرف واضح:

- هوة أنت بتنام مع الواحدة كدة؟!

- أيوة.. إننى زعلانة؟

- لا أبدًا.. بس حاجة غريبة!

- طب قولى ع الوضع اللى يريحك..

- أنا اللى أقول؟!

ولبست هدومى وشكرتها وقلت لها:

- يا "غادة" إحنا بنى آدمين قبل أى حاجة.

(٣)

فى التاكسى الذى حملنى من شارع منصور إلى المقطم كنت كأننى فى البلد، أشم روائح الطبيخ يوم السوق، وأرى فاطمة ابنة "على الغنيمى" الصياد -

الحافى دائمًا وعلى كتفيه المقطف والشبكة -- وأمها "مكيَّة بت جاد الكريم المقرقر" التى تبيع الطماطم فى "رهبة الحميدات" بجوارها "زين العابدين" ولدها، و"فاطمة" عرفتها أثناء عملى فى فرق مقاومة دودة القطن، أحبت "محمد عباس الفورد"، وكنت سألت المرحوم أبى عن معنى كلمة الفورد، فقال لى إنها ماركة سيارات، وروى لى أن عباس كان عامل تراحيل يحمل مقاطف الطين مقابل أجر يتقاضاه من المقاول ويجرى على السقالة بسرعة جعلت أنفار الترحيلة يربطون بين سرعته وبين السيارة ماركة فورد التى يركبها المهندس أو مدير الأعمال أثناء مروره لمراقبة عمليات حفر الترع وتطهير المصارف، فصار اسمه عباس الفورد، والبعض كان يسميه عباس الفورت ومحمد ولده حبيب فاطمة كنا نسميه محمد الفورت، وكان من عشاق المطرب محمد فؤاد الذى ظهر فى ثمانينيات القرن الماضى، واشتهر بأغنية "خلى بالك منهم فى السكة"، وشغل محمد الفورد موقع رئيس اتحاد طلبة مدرسة التجارة الثانوية المشتركة بطما، وجمع فلوس من الطلبة قبل امتحان شهادة الدبلوم، ورتب العزومات لمراقبى اللجان "أكل وحشيش وخمرة ونسوان"، وفى السنة التى قررت الحكومة تجديد كابلات تليفونات القاهرة كان ضمن عمال الحفر فى شارع قصر النيل، والأزهر، وطلعت حرب، وعمل فى أحياء راقية يسكن فيها لاعبو كرة القدم وفنانون ومذيعات فى التليفزيون، قدموا له الهدايا والبقاشيش فأغدق علينا حكايات عن هؤلاء النجوم والعمارات التى يقيمون فيها وأنواع السيارات التى يملكونها، حبه لفاطمة استغرق سنوات وانتهى بانفجار كابل كهرباء جعل جسده قطعة لحم باردة، جاء به موظفو الشركة الأجنبية فى صندوق، سهرت قريتنا ليلة وخرجت الكلوبَّات لتسهيل رحلة الدفن فى المقابر الواقعة على طريق القاهرة أسوان الحربى، الذى تقع قريتنا عليه.

(٤)

وصل التاكسى ميدان القلعة، وفاطمة تبكى بجوار قبر حبيبها محمد عباس الفورد، شعرها منكوش وعيناها أكياس دم، وشها وارم من اللطم، وعندما وضعت المفتاح فى كالون الباب، عادت إلى بيت أبيها، وأخوها زين العابدين دخل عيادة الدكتور أحمد جلال إخصائى الأمراض التناسلية، ولم تكن معه مصاريف عملية الحقن المهجرى، وزوجته طلبت الطلاق لأنها تريد أن تخلف حتة عيل وأمه ماتت، وأنا حزين.. حزين على نفسى وعلى عمرى اللى ضاع.

الحنان السرى

خالد السروجى(*)

لا أعرف منذ متى بالضبط بدأت أراقبها. ولكنها سنوات طويلة لم أمل فيها مراقبتها. شباكها فى المنزل المقابل القريب جداً لضيق شارعنا، يهبط قليلاً عن مستوى شباك غرفتى، بشكل يجعلها مكشوفة بكاملها أمام عينى لحد الإحساس بالمعايشة لشدة القرب ووضوح الرؤية.

سنوات طويلة مضت منذ غادرت شقيقاتها البنات المنزل الواحدة إثر الأخرى، وغادر الأب الحياة بعد فترة قصيرة من مغادرة آخر بنت.

فى المساء تغلق باب غرفتها بالمفتاح ثم تفتح إحدى ضلف دولابها المغلق أيضًا بالمفتاح. تتحاشى بإصرار غريب النظر فى المرآة. وتبدأ نشاطها اليومى، أولاً بإفراغ محتويات الكيس البلاستيكى الكبير، ثم بفتح العلبة المعدنية الصدئة، وتبدأ عملها وقد اكتسى وجهها بحنان غريب: ملابس صغيرة جداً، تتهمك فى تطريزها.

أبتسم دائمًا وأنا أستمع إلى طرقات أمها العنيفة على باب غرفتها، ثم أتوقع سلوكها المزمن فى هذه الحالة: الارتباك. واحمرار الوجه، ثم الإسراع بإعادة المحتويات إلى الكيس والعلبة، ووضعها بعجلة فى الدولاب وأغلقه بالمفتاح، ثم فتح الباب والشكوى المتكررة من ثقل السمع. ثم أراقبها بذات الابتسامة عندما تغلق الباب بالمفتاح ثانية، وأتوقع ما سيحدث: فتح ضلفة

(*) من مجموعاته (ابتسامة الوجه الشاحب).

الدولاب المغلقة، وإخراج الكيس ثم العلبة، وتحول ملامح الوجه إلى الحنان السرى.

سنوات أراقب بشغف هذا السيناريو الذى قد يبدو أحيانًا مملاً.

يوم واحد فقط كان مختلفًا فى حياتها وحياة المنزل، الذى أضيئت فيه أنوار الغرف كلها تقريبًا. وكان وجهها مضحكًا للغاية تحت تأثير كم المساحيق المبالغ فيه، والذى جعلها أقرب ما تكون لـ"بلياتشو". وجاء ضيوف لم يلبثوا أكثر من دقائق، ثم انشغلت عن مراقبتها بهموم أخرى.

ولكننى عندما عاودت مراقبتها، كانت تتأكد من أن باب الغرفة محكم الغلق.

سيرك حلاوة

خالد ثابت

سرادقها أحمر كبير مزركش

واللافتة الكبيرة تقبع فوق كرسى على حافة المدخل

الفقيدة أحلام الشحات حلاوة...

لقد ماتت

ثم بدأت النقاط الحصينة تستكمل انهيارها تباعًا.

وجودها المزدحم بأطماعها وصراعاتها يختفى، لن تنام فى سريرها أو أى سرير آخر، لا مزيد من التذمر ولا مزيد من السباب، كما أنها لن تصدر فواتير جديدة تستحق الدفع.

حتى اسمها الذى كان "أحلام حلاوة" سقط على اللافتة الأخيرة والشحات داخل الصورة مشهرًا ولأول مرة....

يا سلام.. أحلام الشحات...

مضاف ومضاف إليه..

كلمتان بينهما علاقة شاذة...

الغريب أنها معلنة.. هكذا عينى عينك مضاف و..

الأغرب أن العجز سمة سائدة فى كل التكوين.. نكرة ومعها كلمة

طفيلية.. يجمعهما بناء مجهول النسب... ومع ذلك فإن هذا التكوين الرخيص يستطيع أن يدون المعانى والإيحاءات ويدغدغ بها قلوبا وعقولا.

ماتت أحلام الشحات حلاوة

آه يا أحلام.. أنا لا أملك الجنة لكن الدعوات لا تكلف شيئًا...!

إليك دعوة بجنة الخلد.. بل أحلى مكان فى جنة الخلد، مكان متميز يرضى غرورك ويطفئ الحريق المسعور فى داخلك! تباغتين به المؤمنين المجاورين والذين لن يحظوا بمثل ما حصلت عليه... خاصة بعد الإقفال النهائى لدار الاختبار التى استحوذت فيها على أحلى ما كانوا يمتلكون.

ولو كانت النار ترضيك فإليك دعواتى الحارة بالجحيم...!

فى داخل السرادق قليلاً رجل أبيض جدًّا يقف إلى جواره رجل مسن ورجل عاجز ورجل كفيف ورجل أخرس، يتحالفون بعزيمة وتصميم على طرف سجادة مؤجرة.. يقفون عليه صفًّا واحدًا، عائلة واحدة!

يتلقى الرجل الأبيض أكف رجال آخرين قادمين للعزاء..

يتوارى خلف صمت وشكر وإجابة مريبة تقول: سعيكم مشكور

ويتوارى الآخرون خلفه ويتقبلون العزاء.

فى الداخل أكثر... رجال يجلسون على مضض، يتبادلون ملامح مؤقتة وإيماءات محدودة نحتوها بارتجال على وجوه خشب.

لم أتعرف على أى منهم لكن أشياءً فيهم تبدو مألوفةً، ربما رأيت "أحلام" فى صحبة أحدهم يومًا، فأصدقاؤها الذكور كثيرون، كانت شغوفة بهم، تدعوهم "الصبيان"، تخطفهم، تروضهم ثم تتفنن فى استخدامهم..

تصنع منهم حكاياتها ويدفعون فواتيرها، ثم تحولهم إلى تاريخ..

تجعل منهم أوطانًا وأعداء، صغارًا وكبارًا، صعاليك وملوكًا، أحيانًا أتذكر معامل الطرشى البلدى عندما تعن سيرة أحلام، الألوان والملح والتعفن أشياء مشتركة بينهما..

استخدمها الصبيان كثيرًا ودللوها حتى جعلوها ثقبًا أسود يفضى فقط إلى عدم، بلا ولاء ولا وطن، عندما تطمئن وتسكن.. تضج فتزهد وتخون وترحل.. وكأنها تستعذب التشرُّد والفزع.

حوّلت كل ذكورها إلى أشباح وحكايات ليلية.

تحرق كل الصور والأوراق وتتركهم يكتبون على الرماد أسئلة وهذيانًا.. أين ذهبت أحلام؟ لماذا رحلت؟ هل تحب من جديد؟ ألا تحزن؟ ألا يؤلمها الفراق؟ من أين لها بكل هذه القسوة؟ قاتلة هى أم وليدة من حرام؟

سحقت عقل الدكتور عبد العاطى وكرامة سيد النجار وقلب الرجل الكبير.. حتى الشيخ الحلالى استباحت لنفسها بيته ونسله.

الزهد لعبة تجيدها أحلام كما تجيد الكراهية... مناورة تتعامل مع التوازنات بطريقة فعالة، لتعظيم المكاسب ومكاسبها..!

لقد تنبأ لها سيد النجار "ربما من باب الغل" أن أحدهم سيحشُّ رقبتها عما قريب.

فى المنتصف يقبع كرسى عالٍ جلسته طويلة ومسانده قصيرة، خشبه المرمم غارق فى طلاء ذهبى فقير، تكوين يتسم بالبلاهة.. كل نِسَبِهِ على عداء بعضها، فوقه قارئ يسكب القرآن فى فوهة الميكروفون بطنين آلى، يبدو خليجى المذاق أحيانًا ويغوص فى الرمال المتحركة طوال الوقت.

فى شتاء عام من الأعوام التحقت أحلام بشيخ لكى تتعلم القرآن وعلومه، اشترت حجابًا ومصاحف وكراريس خضراء وأقلامًا ومسوحًا وبخورًا ومسابح كثيرة..

كانت تحلم من أجل العمرة فى الشتاء التالى..

فى شتاء تالٍ كانت داخل بنطلون ضيق وبطن عارية وسهرة ليلية مديدة تحتسى خمرًا مع أحد صبيانها... أصبحت تقر بالكاد أن الله موجود.

يصل القارئ إلى آخر الربع ويختمه بدعاء مهيب... أمن الجميع ثم أفاقوا من السبات وتبادلوا التحركات.

فى بعض من المنتصف فتيان يملأون المكان بالجينز ومحاولات لإضفاء فكاهة مستترة على شفاه وعيون لا يعنيها الأمر. تذكرت المضاف والمضاف إليه، تسرب إلى إحساس بغيض غامض، وأحسست بحلول أحلام.

تذكرتها عندما كانت تصرخ مبهورة بحكايات غبية محايدة كنت ألقيها بترفُّع وتفكُّه، كان انبهارها يملأ فراغاتى وتشقُّقات نفسى، يرضى غرورى ويملؤنى بالنشوة. كنت أظن كلماتى مأثورات لديها وأنى النبى فى حوارييه المخلصين.

لكنى الآن لا أعرف إن كان من الممكن فعلا أن توجد الفكاهة فى مواطن الحزن فتتكون تلك المفارقات العبقرية، أم أن الأمر برمته مجرد صنعة محبوكة باقتدار بليغ، "فبركة فى فبركة"، فلا هؤلاء حزانى ولا أولئك يضحكون ولا أحلام كانت مأخوذة بما أقول!

فى ما بعد المنتصف رجال مجهدون شاردون بعضهم يغط فى ما يشبه الحزن، وكثير منهم يختبرون الوجوه الأخرى ويختبئون فى الصمت.

رأس مالت إلى أذن تسأل فى همس:

- هو اللى احنا عزيناه دة يبقى جوزها؟

- أيوة.

- أول مرة اشوفه.

- ما تشوفش وحش.

- تفتكر أحلام حتدخل الجنة أم النار؟

- تروح مطرح ما تروح اللى حيسرى على الناس حيسرى عليها.

- حرام عليك الكلام بالشكل دة... اذكروا محاسن موتاكم..

- محاسن المرحومة؟.. حاضر بس بعد القرآن.

تبادلا نظرة ثم حفرا ضحكتين عميقتين محفوفتين بالصمت وأنفاس متلاحقة.

ترى أين أنت الآن يا أحلام فى الجنة أم فى النار، هل يمكن أن يكون مثواك الجنة؟

ولم لا؟

أحلام الشحات امرأة من البشر فى لوحاتها مساحات خضراء بجوار خرائبها وحرائقها لقد اجتاحتنى فى أحد مواسمها بنزعة متصوفة حارقة، ترصد وتبكى وتكتب وتتحدث عن الغفران والوجد.. تباغت الحيارى بالفضل وتعيرنى بدناءتى الحيوانية من حين إلى حين. لقد أدهشتنى حتى تصوَّرت أنها تتحول شيئًا فشيئًا إلى كائن شفاف بديع الطباع، أو أنها ستصبح امرأة مثل رابعة العدوية.. لا أذكر على وجه التحديد متى حدث هذا..

ربما فى عهد حكم الشيخ الحلالى عليها.. ربما.. لم أعد أذكر التواريخ، فالأيام شديدة التشابه والاقتراب!

ثم إن موتها سيصنع فراغًا دنيويًا له أثر.

أحياء عديدة فى الحياة الدنيا لن تكون بدونها كما اعتادت أن تكون، ستتغير أشياء وتضيع أخرى للأبد.

سيتقيأ الجميع من أجلها كل طقوس الموت الموروثة على أكمل وجه.

سيعيدون صياغة المشاعر والأفعال بما يكرس فكرة الضياع وانقطاعها الأبدى.

كثير من التصريحات سيتغير سياقها وبناؤها... على رأسها جملة يقول مطلعها: قالت لى أحلام...

فى شريان السرادق بين صفوف الكراسى رجل يمشى بسرعة، يناور الأرجل ببراعة متجهًا إلى القاع، يحمل صينية لها بريق مستهلَك وعليها فنجان وكوب ماء.

فى القاع.. صف طويل من الكراسى المعدنية الفارغة يبدأ من الجانب الأيمن وينتهى إلى القماش الآخر حيث رجل مجهد الوجه يجلس وحيدا خائر القوى.

يتناول الرجل الفنجان بيد مرتعشة، يرتشف فى ألم ثم يسقطه على ملابسه.

يتلقف الجرسون الفنجان الهابط من الهواء.

ينحنى إلى الرجل ينظف بمنشفة قذرة بقعة القهوة من قميصه.

يقول له:

- حصل خير يا أستاذ.. الحمد لله أنها جاءت على قد كدة.

يتمتم الرجل فى وهن:

- الحمد لله.. الحمد لله..

فيرد فى إشفاق:

- دلق القهوة خير... والله خير.. ربنا يصبرك.

يبدأ الرجل الذاهل فى البكاء، ويعود الجرسون إلى عمله...

يعبث الهواء بأقمشة السرادق الأحمر وبحالة الكآبة التى يكد الجميع بإخلاص لإغراق المكان فيها.

أحسست بغربة وتمنيت الخروج، لا أحد يشبهنى ولست على علاقة بأحد، أكاد أختنق.

الرجل الباكى سرقنى إليه... سرقنى عشر مرات من قبل وربما عشرين.

يا لألمك يا رجل... من تكون؟ ولماذا أنا وأنت هنا؟

لماذا لا يبكى أحد آخر معك؟

لماذا لا يحزن أحد؟

لقد ماتت أحلام يا صبيان.. لن يكون هناك أحلام بعد ذلك.

هل من الممكن أن تكون ابن أحلام؟ أم أنك أحد ذكور السيرك الموتورين؟

غريب أمرك يا بنت حلاوة... سرادقك يشبهك كثيرًا... نفس المرار والفراغ والخداع.

كأنك صنعته بنفسك.. وكأنك أرسلت الدعوات ورسمت الأدوار!

سأخرج..

سأغير على زوجك وهو يتلقى العزاء، سأسلم عليه بحرارة، سأحييه على خدماته لك بإخلاص لعله يدرك أنه لا يعرفنى، وربما أسلّم على كل ذكور العائلة.

سأعبر المدخل بطريقة لا تجعله مدخلاً..

سأخرج

ظلام الليل الطبيعى أكثر وضوحًا ورحابة، سأمشى على الرصيف وأراقب الناس والكلاب الضالة وربما أبزغ على الدنيا من عيون القطط.

سأمارس أشياء سهلة، سأبدّد الساعات كما لم أفعل من قبل

قمت فى هدوء، توجهت نحو الرجل الباكى.

مسحت ظهره بيدى!

نظرت بين عينيه.

وألقيت عليه العزاء منى...

قلت له إن الموت هو مصير الجميع والفقد قدر محتوم والألم شىء بشع وأنك تموت موتًا بطيئًا بالغ الألم

لا شفاء لك ولا تعويض، لا أمان فى الدنيا وربما لا جنة فى الآخرة وبكل تأكيد لا أحلام...

أقدم لك بكل تقدير التعازى الحارة المجانية...

البقاء والدوام لله.. واخبط راسك فى الحيط..!

عندما انتهيت كان قد بدأ يرفع نظره إلىَّ وعندما مضيت كان نحيبه قد ملأ كل فراغات السرادق.

إنه الآن ينفذ.. يتناغم مع الموت.. والتناغم مع الموت شىء بديع، لأن الموت هو الأصل والفصل.. الحياة علامة استفهام ما بين الماضى والموت..

لا بأس أن يراقصه قليلاً من أجل بعض التفاهم..

فى غزوة عنيفة للهواء أخذ يهاجم المصابيح المعلقة، وعوارض السقف بخبث وبرود، يدور حول نفسه وتدور الأصوات التى يبعثرها حوله، ظل يتهكم ويسخر حتى بدد كل رصيدى من الدفء.

تتأرجح الأضواء وتلامس البرودة ظهرى... يتملكنى رعب وألم مسموم كذلك المربوط بذكراها منذ سنوات عديدة...

هل من الممكن أن تكون أحلام قد ماتت فعلا أم أنها كذبة أخرى وخداع بصر؟

من داخل ظلام الطريق ألقيت نظرة أخيرة إلى السرادق، أحسست أننى حزين ويتيم، أدركت حرقة البكاء فى صدرى.

مصيبة أن تكون أحلام قد ماتت أو أن أكون أنا إنسانًا حيًّا بين الناس.

حبل الوداد

خليل الجيزاوى(*)

تهز رأسك مُتعبًا، حزينًا، تنفض عنها هذه الأفكار السيئة دفعةً واحدةً، تُدرك أن الولد خياله واسع مثلك، لذلك هو يقفز من اللحظة الآنية إلى فضاء الزمن، يتجول فيه، يسبح مع من يهوى، يُحب أن يستدعيه لزمنه الحالى، لكن حين تُمعن فى كلام الولد، يتحول شكك إلى يقين، لأن كل ما يقوله، يتخيله، يحلم به، يتحول إلى إدراك حقيقى! هل ينقلك الولد إلى ماضٍ جميل تُحبه، تهواه؟

كلما تنظر للولد، تتأمل تفاصيل ملامح وجهه، ترى الطفل الذى كنته، تتذكر كلام جدك:

إذا أردت أن ترى نفسك صغيرًا، انظر إلى أقرب أولادك شبهًا بك!

تبتسم للتفاصيل الصغيرة المُتشابهة بينكما، تلحظ تصرفاته البريئة، تهمس لنفسك:

هل كنتُ بريئًا لهذه الدرجة!

لا تزال تقبض على مواقف، ذكريات كثيرة، تفاصيل محددة فى تلافيف الذاكرة، تُطل على براءة سنوات الطفولة، أشجارها الخضراء تقف

(*) خليل الجيزاوى، (من مواليد ١٩٦١)، من مجموعاته القصصية: (نشيد الخلاص)، (أولاد الأفاعى)، (حبل الوداد).

عليها عصافير الجنة، ترقبها، تُغرد معها عبر نافذة نور الصباح، لا تزال تحيا، تعيش هذه التفاصيل، عبر تلك السنوات البعيدة/ القريبة، ترفض أن تُغادر أرضها، زمنها، رغم اشتعال رأسك بالشيب المُبكر، تُردد لنفسك هامسًا:

أنا الطفل الأشيب!

تطرب كثيرًا، متى تسمع الآخرين وهم يؤكدون، أنك برىء، المدينة المتوحشة لم تنل منك، لم تلوثك بعد! أنك تعيش وسط أهل المدينة/ القاهرة الذين قست قلوبهم مثل الحجارة، بطيبة أولاد البلد، رغم كثرة المؤامرات التى تحاك ضدك بليل أسود غشيم، بتدبير أولاد الأفاعى.

صوت جدك لا يزال يتردَّد داخلك:

ماء النهر طاهر دومًا، لأنه يغتسل من الأدران التى تُلقى فيه أولاً بأول!

تبتسم للولد الذى يُشبهك كثيرًا، تهمس مُؤكدًا:

نعم التاريخ كائن حى، شجرة مورقة، أحداث تجرى منذ زمن بعيد، لا تزال تجري فى دمائنا، نتنفس رائحتها فى لحظتنا الراهنة، لأنها تتكرر باستمرار!

هل دُهشت حقًا لكلام الولد؟

أبى... أبى لقد رأيت جدى!

مُندهشًا تتسع عيناك، الولد يُواصل كلامه فرحًا:

ضمنى لحضنه قائلا: إنك تُشبهنى كثيرًا!

حطت طيور الجسد واهنةً، مزقت بلونة أحلامها سكين الولد، خيوط من عرق بارد، تسيل على الخدين، خلف الأذنين، يدك تتشبث بيد الولد، تقعد

به، تأخذه فى حضنك، دقات القلب تتلاحق بسرعة، تضمه أكثر، بما تبقى من عافية، هل أدركت وجعك؟ هل أحسست بالسكين البارد الذى استل روحك؟

خائفًا مفزوعًا تضم الولد، تُخفيه بذراعيك، تهمس بهلع:

ماذا تعنى هذه الزيارة؟

يُفرفر الولد بين ذراعيك، يُواصل كلامه:

قال جدى: أعرف أن أباك مُغرم بالقصص، فهل قص عليكم قصة ذبح إسماعيل؟

إنها أول قصة تعلمها فى المدرسة، فى المساء قصها علينا، بتفاصيل مُدهشة، مُشوقة، كنا نتحلّق راكية النار فى ليلة شتوية باردة، نأكل حبات الجوافة، يتعارك أبوك على حبة الجوافة ذات القلب الأحمر!

مُندهشًا تهمس لنفسك: هل رأى الولد جده حقًا؟

لقد ذكر واقعة حقيقية، لم تُخبره بها من قبل! ماذا يحدث بالضبط؟

والدك مات فى ديسمبر ١٩٧٤، وقتها كنت بالصف الثانى الإعدادى، نحن الآن فى ديسمبر ٢٠٠٦.

تضرب كفًا بكف! مُرددًا:

هل رأى الولد جده حقًا؟ أم رآه فى تفاصيل ملامحك؟

حين أكملت الأربعين، كان كل صاحب من أصحاب والدك، كلما يُقابلك عقب صلاة الجمعة بالجامع الكبير، فى زياراتك المتباعدة لقريتك، يأخذك فى حضنه باكيًا، يقول بود، محبة، الدموع تملأ عينيه:

سبحان الله! لقد أصبحت تُشبه والدك تمامًا!

يتأملك مرة أخرى، قائلاً:

حتى تسريحة شعر أبيك الناعم للوراء!

بود زائد يمسك يدك، يجذبك إليه مُؤكدًا:

نأكل لقمة مع بعضنا، أنت ابن الغالى!

تجد نفسك تتعلّل بالسفر للقاهرة، الشغل، الأولاد، تُعقب مُؤكدًا:

إن شاء الله الزيارة القادمة يا عمى!

يحضنك مرة ثانية، وهو يبكى، تجد نفسك تبكى فى حضنه مثل طفل صغير!

كان أبوك يعشق صيد السمك، كثيرًا تراه يتردد على البحر الكبير، تجده ينصت لليمام، يُردد خلفه لحنه الحزين، تراه ينظر للبراح الواسع الأخضر، على مدد الشوف، وقد تعلّق بالسحاب الأبيض، يضمك هامسًا:

آه يا ولد! لو خلق الله لنا جناحين مثل الطيور!

تضم الولد لحضنك هامسًا:

الآن أنت تُحلّق مع طيور، عصافير الجنة، ماذا تريد من الولد يا أبى؟

تتذكر كلام جدتك:

احذروا زيارة الميت لأولادكم!

خائفاً مرعوبًا تضم الولد لصدرك، تُغمض عينيك خشية الآتى، تهم أن تسأل الولد:

هل أمسك جدك بيدك وهو يُغادر البيت؟

لكنك لم تستطع، لأن الولد تملص منك وفرَّ من حضنك، وقف بعيدًا يرقبك مُندهشًا، حائرًا!

تتكفئ على نفسك مُحاسبًا، مُعاتبًا، لائمًا، هامسًا:

ماذا أخذت من ضجيج العاصمة، الأضواء، بعض الشهرة، حرقة الدم فى دوامة العمل التى لا تنتهى، كثرة الهواتف التى تُلح عليك بقضاء حوائج الناس.

اخترت أن تعيش وحيدًا وسط عشرة ملايين يسكنون القاهرة كغرباء، طلعت من الدنيا بابنتين وولد، ها هو والدك يزورك بعد اثنين وثلاثين عامًا، يقص على ولدك قصة إسماعيل!

لقد قصصت عليه مئات القصص التى تعلمتها فى المدرسة، فلماذا اختار قصة الذبيح إسماعيل؟

يا لقسوة فرٍّ، وكرِّ السنين، الأحلام الخضراء طيبتها نيران الاحتراق بفقد الأحبة، براح سنوات الطفولة اختزلته الأيام فى شقة مُضاءة بالنيون، لا تعرف الفرق بين ليل أو نهار، كثيرًا ما يفاجئك الولد، أيام الإجازات، مُتسائلاً: هل طلع الصباح؟

آه من عذابات الشوق، غياب الأحبة، لو كنا ندرى بهذا الرحيل/ الفقد المبكر، كنا تزودنا أكثر، ملأنا العينين، الصدر، بمحبتكم، فهل الشوق هو الذى دفعك يا أبى للزيارة؟

دامعًا تقف مُواجهًا بابه الحجرى، تقبض على يد الولد، اليد الثانية تمسح غبار السفر المفاجئ، تُواجهه:

السلام عليك يا أبى فى دار الحق!

أنت تعرف أنى أحبك!

تشهد أنك ما غضبت منى يومًا!

يشهد أصحابك أنى الابن البار بك، لأنك أستاذى الأول وصاحبى!

الجميع يحسدوننا على علاقتنا الحميمة! دائمًا كنت أنا بيدك، فى الجامع، الشارع، الأفراح، المآتم!

تمامًا أفعل مع الولد ما تعلمته منك، الصحبة وحسن النصيحة!

هذا ولدى الوحيد، هو يُشبهك كثيرًا!

إنه يحمل اسمك، أليس هذا دليلاً على امتداد حبل الوداد بيننا!

عفوًا يا أبى ها أنا أبادر بالزيارة! سأكررها كثيرًا!

عفوًا يا أبى من هذه اللحظة زيارتك لنا لم تعد تُسعدنا!

نعم أحبك، لكن حبى للولد أشد، هل تريد أن أكرهك؟

نعم يا أبى، كُف عن هذه الزيارة الـ.....!

حتى لا ينقطع حبل الوداد الذى يربطنا!

المنخل الحرير

خيرى شلبى(*)

بعد انقطاع لا يدوم أكثر من جمعتين تعود البهجة من جديد..

إذ ما يكاد الأسبوع الأول يمر حافلاً بالأرغفة الطازجة والأقراص القاعمة والفطير المشلتت والعصيدة المصنوعة بالدقيق والعسل، حتى تبدأ من جديد سحب من الهم تسيطر على دارنا لا نعرف لها سببًا، لكن لون الأصبحة يتغير ويبدو كأن أبى وأمى غير منتبهين إلينا. ثم تجىء ليلة يتعشى فيها الأب معنا على غير العادة فنلاحظ أن وجهه قد خلع عن نفسه كثيرًا من الملاءات السوداء حتى صفت صفحة الوجه عن ملامحه الحقيقية. يسيطر الهدوء من جديد على أمى فتتربع معنا فوق الحصيرة حول الطبلية، وقد صفا وجهها هى الأخرى وانسدلت على جانبيه مقاصيص الشعر الفائض بغزارة من تحت المنديل أبو أوية..

فنعرف أن السحب الغليظة الداكنة التى لا نعرف سببها قد بدأت تتجلى..

فى الصباح تبكر فتجدنى مبحلق العينين فى انتظارها. تذهب إلى الحوض الأسمنتى الذى نستحم فيه فى ركن القاعة. تغسل وجهها بكوب ماء. تسحب شاشها الأسود. تلف به رأسها. تتجه إلى أبى فتصحيه برفق. يتقلب ثم

(*) خيرى شلبى (ولد عام ١٩٣٨)، من مجموعاته القصصية: (صاحب السعادة اللص) ١٩٨٢، (المنحنى الخطر) ١٩٨٤، (أسباب للكى بالنار) ١٩٨٧، (سارق الفرح) ١٩٨٩، (الدساس) ٢٠٠٠، (أشياء تخصنا) ٢٠٠٤، (عدل المسامير) ٢٠٠٤، (تقليب المواجع) ٢٠٠٨، (ما ليس يضمنه أحد!) ٢٠٠٩.

يجلس. يدب يده فى جيب الصديرى، يخرج الكيس يتناول منها حفنة من القروش الفضية والشلنات والبرايز الورقية، يعدها فى كف أمى قرشًا قرشًا ونصف فرنك نصف فرنك وشلنًا شلنًا وبريزة بريزة تعيد هى عدها من جديد قائلة: الله واحد..

- مالوش تانى... العدد ثلاثة. تصرها فى طرف المنديل أبو أوية وتعقد عليها جيدًا ثم تعود فتتعصب به لتختفى العقدة بين طيات المنديل..

أتبعها فى قفزة واحدة إلى الخلاء. أظل أتبعها وأنا أعرف أنها ذاهبة إلى مخزن الحاج داوود. يشملنى الفرح حين أراها متجهة إليه. يقابلها ابنه الكبير "طلب" الذى يغازل كل نساء البلدة بلا استثناء كحق سلمت له البلدة به لثقتهم فى أن أباه الحاج داوود قد رباه بشدة وأدبه فأحسن تأديبه، وأن هذا الغزل مجرد غزل فارغ. تقول له أمى وهى تتجاهل ما فى رد صباحه فى إيماء إلى الورد والفل والياسمين والقشطة الريانى.

- بكام القمح النهاردة يا سى طلب؟

يقول لها من خلال ابتسامته الأزلية الشابة:

- بعنا بتلاتين الكيلة.. إنما عشانك بتسعة وعشرين.

تقول بتلقائية:

- هزّ، ودكّ طبعًا.

وهى كلمة ترد بها كل من تسمع السعر، وتقصد أنها يحق لها أن تجلى بنفسها وتعبئ الكيلة وتهزها حتى يستقر القمح فيها وينتظم فتتسع مساحة الكيلة لقمح كثير، ثم تدك وتكبس، وتحط قمحًا، وتهز وتدك. ورغم أن

"طلب" سوف يبيع لها بهذه الطريقة إذ أن السعر الذى يطلبه يحسب حساب هذه العملية ، فإنه يحتج احتجاجًا مسرحيًا قائلاً:

لا.. قايم.. بتلاتين قايم. أى أن الكيلة تمتلئ دفعة واحدة وكفى. لكنه يقصد من ذلك أن تظل السيدة المشترية تقول له محتجة: "هزّ ودكّ"، وهو يردد خلفها: "قايم".. "هزّ ودكّ".. "قايم".. فإذا ما انتبهت السيدة إلى ما فى الكلمة من غمز خبيث لطيف احمر وجهها خجلاً ولكزته فى كتفه بعشم فيتلقى اللكزة بحركة مسرحية كأنما أصابه لهب لذيذ، وفى العادة يترك السيدة تبرك على الكيلة وتعبئها بالطريقة التى تشاء.

على أن أمى لا يروق لها مزاحه وإن جاملته بالسكات، وفى الواقع لا يروق لها أى مزاح وهذا ما يطمئن أبى ويضايقه فى نفس الوقت، تتجاهل غزل "طلب" وتتجه نحو جبل القمح فى نهاية الحجرة قائلة:

- يا خوية انت باين عليك فايق ورايق.

ثم تبرك على الكيلة وتظل تعبئ، وتهز، وتدك، وتعبئ وتضيف قمحًا، حتى يعلو القمح فوق حافة الكيلة، فتضع من كف يسراها حاجزًا تستند به المرتفع الهرمى الزائد ثم تدلق فى قفتها الكبيرة، وهكذا تفعل أربع مرات ثم تختلس حفانًا أو حفانين فى غفلة من "طلب" الذى يحلو له أن يصيح فيها منبهًا وهو يعد فلوسها:

- شايفك بضهرى.

فترد عليه باحتجاج باسم:

- فاكرنا حرامية.. طب ما دام قلت كدة بقى أهه.

ثم تغترف حفنتين أخريين ترمى بهما فى القفة.

تعود إلى الدار وقد تحولت إلى جسد يتلعبط تحت القفة الثقيلة فى عياقة لا مثيل لها، فأدهش كيف ينفض جسدها عن نفسه كل هذه البهجة وهى لا تشرب إلا المر ليل نهار، تحط فى وسط الدار بمساعدة عمتها "قطيفة" التى تدخل وراءها من تلقاء نفسها لهذا الغرض، تجىء فاردة ساقيها واضعة فوقها الصينية، وتغرف من الطشت قدرًا تضعه عليها وتروح بكفها تسحب حفنة حفنة تفردها على الصينية لتنتقى من بينها قطع الطين والحصى والدنيبة، وهكذا إلى أن تنتهى من نقاوة القمح كله حبه حبة، ويكون النهار قد انتصف، فتنادى عمتها "قطيفه" لتساعدها فى رفع القفة على رأسها، أكون قد سبقتها إلى الطريق وقد بدأت أنسى شبح الأيام الفائتة تشملنى زأططة وفرفشة فأروح أضرب الحصى بقدمى وأترقص فى مشيتى وربما غنيت، أترنح فوق شواطئ القنيان بشقاوة وهى من خلفى تصرخ كل حين فى فزع صائحة بى أن أمشى مثل خلق الله، حتى نصل إلى ترعة المشروع عند الموردة بجوار الكوبرى الذى هو نفس الطريق يفصل بين جزأين من الترعة يتصلان بماسورة واسعة مهولة تحت الأرض، الموردة عبارة عن شاطئ مبنى بقطع كبيرة من الحجر يتناسق فى دوائر يتخلله سلم حجرى عريض هابط إلى المياه، كذلك الأمر بالنسبة للشاطئ المقابل.

يستقبلنى مهرجان النساء بكرنفال بهيج من الألوان، أفخاذ مطوية وأرداف مكتنزة وأثداء مندلقة وشعور منسابة وأجساد لامعة ساطعة فى ضوء الشمس تنتفض بالحيوية والنشاط فيبدو كأنه احتفال كبير، بعضهن يغسلن المواعين بهباب الفرن وحزمة القش، بعضهن يغسلن الثياب بالصابون، بعضهن يغسلن القمح.

تنضم أمى إلى هذا الحفل الجميل.. تعافيهن بالعافية وتهبط الدرج إلى

مستوى المياه فتجلس هى الأخرى طاوية فخذيها مبرزة عجيزتها، تنتزع القفة الملآنة من قفة فارغة تتناول مقطفًا صغيرًا كان مطويًا تحت إبطها، تملأه بالقمح وتغطسه فى قلب الماء فتسود صفحة الماء بما كان فى القمح من تراب ووسخ، تهزُّ المقطف تحت الماء ثم ترفعه يشُرُّ منه الماء المسود، تعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع ثم تدلق القمح المغسول فى القفة الفارغة بعد غسلها هى الأخرى، وهكذا إلى أن تنتهى من غسل قمحها ثم تتقرفص ناظرة إلى إحدى جاراتها دون أن تنبس بحرف، فتترك الجارة ما فى يدها وتجىء لتساعد أمى فى حمل قفتها على رأسها، لكنها قبل أن تستدير لتمضى تلقى حواليها نظرة فاحصة مستعدة للهلع فى البحث عنى، أكون قد انضممت إلى الأولاد، إذ خلعنا جلابيبنا وألقينا بأنفسنا فى قلب الترعة نطيش ونقذف بعضنا البعض برذاذ المياه، وتخرج لنتمرَّغ على تراب الطريق فنكتسى أثوابًا كثيفة من حصى داكن نتوجه بطرطور من الطين نلصقه فوق الرأس ونمشى هكذا ذهابًا وجيئة نخيف المارة ثم نقذف بأنفسنا من جديد فى قلب الماء، يدهمنى صياحها الذى تزداد فيه – كلما صاحت – نبرة أحس أنها عورة لا يجب أن يراها الآخرون أو تصافح آذانهم "يا واد ياللى تتشك فى لسانك.. تعالى إلاهى ما توعى تبات.. إلاهى تنزل ما تطلعش يا ابن بطنى.. يلا قدامى فوت"، فبسرعة أمسح بقايا الماء عن وجهى وأسحب ثوبى وأجرى به عاريًا خلفها، وبعد خطوات تكون الشمس قد جففت جسدى فأرتدى ثوبى.

نصل إلى الدار. تصعد أمى إلى السطح. تفرش الحصيرة وجوالين، تفرد فوقها القمح الطرى، تجلسنى أمامه ممسكًا بعصا طويلة، وتنزل لتكنس الدار وتعد وجبة العشاء على عجل، لا بد أن تكون عينى فى وسط رأسى ترقب أى غراب مفترس أو حمام سابح أو عصفور باحث عن حبة رزق، لأرفع العصا أذب أى هجوم على قمحنا. إذا سرحت قليلاً فى لعبة أو فى فكرة التسلُّل إلى سطح

الجيران لسرقة كوز من الذرة أشترى به العسلية. تذكرت قرصة قرصتها لى أمى ذات يوم نسيت فيه القمح فمر حمار ضال أكل منه حتى شبع ويومها ابتلعت أمى غصتها وقطعت من خدى قطعة تلهب دمى كلما تذكرتها.

تنتهى الشمس من أداء مهمتها على خير وجه فتلف وجهها بالملاءة القرمزية وتنسحب إلى ما وراء السطوح والأضرحة والحقول البعيدة وتظل تشاغب قمحنا باسمة حتى يدركها الليل فيفرد فوقها عباءته السوداء، وحينئذ تجمع أمى قمحها حبة حبة تعيده إلى القفة وتنزل برفق وحذر هابطة السلم الخشبى الرفيع المسنود على حافة السطح، وتمضى خارجة موصية عمتها قطيفة أن تجعل بالها من الدار وأن تنبئ عبد الشافى – أبى – بأنها عائدة بعد وقت ربما يمتد إلى منتصف الليل.

فى بلدتنا ثلاث ماكينات للطحين، لكن أمى تختار ماكينة العمدة مصطفى الجيار الكائنة على مقربة من ترعة السلمونية من المدخل الشرقى للبلدة، تختارها ليس لأن صاحبها العمدة وإنما لأن الأسطى عبد السلام الذى يديرها ويجلس أمام القادوس يمت إليها بصلة قربى، إذ هى تفرض علينا أن نناديه: يا خال، وإذا خاطبته قالت: يا عبد السلام يا اخويا ويقال إنه من عائلة أبيها المرحوم، وأنها لذلك تجعل منه أخًا لها وخالاً لنا، وأنه ليجاملها مجاملة علنية يعرفها الجميع ولكنهم جميعًا يتغافلون من أجل خاطر عيونه، فهو الوحيد الذى ولفت عليه الماكينة وباتت لا تدور إلا بيديه ولا أحد غيره يعرف خلتها.

تقطع أمى تذكرة بأربع كيلات توزن على الميزان ذى القاعدة الخشبية والرمانة المتحركة على قضيب مضلع محفورة فيه شرط وأرقام وعلامات، تدفع عن كل كيلة خمس مليمات ثم تأخذ التذكرة وتتجه بها مباشرة إلى الأسطى عبد السلام أمام القادوس وتعطيها له، فيعززها فى سلك معقوف بجواره مع

سوابقها، فلا يتذمَّر أحد من الزبائن لأن أمى أخذت دوره، بكل ثقة وخجل تصعد أمى بالقفة على سلم خشبى ثابت يوصلها إلى السطح حيث فتحة القادوس الواسعة التى تشبه نفيرًا كبيرًا، تنتظر حتى تغيب آخر حفنة قمح كانت فى قعر القادوس، ثم تسرع بدلق قفتها فى فتحة القادوس، على الفور يكون الأسطى عبد السلام قد تابعها بوجهه العريض الأسمر المكتنز الملامح المطبق الشفتين على بسمة صحراوية عصية على الانطلاق، ومثل كل الوجوه فى الماكينة اكتسى بوبرة من الدقيق الأبيض تسوى بين جميع الوجوه، يسرع ببرم دائرة حديدية صغيرة على يمينه يغلق بها تيار الدقيق المتدفق من فتحة أسفل القادوس، ولربما أحست صاحبة الدقيق أنه اختصر من حقها دفقة أو دفقتين أو ثلاثًا، لكنها تكتفى بإرسال نظرة ذات معنى إلى الأسطى عبده ثم ترفع قفتها وتمضى.

ترمى له القفة الفارغة فيتلقفها ويضعها أسفل الفتحة السفلية ثم يدير العجلة فينهمر الدقيق انهمارًا كثيفًا حبيبًا، وتهبط أمى لتقف أمام القادوس تفرد الدقيق المنهمر فى القفة وتكبسه حتى تمتلئ القفة فتجىء بغيرها، وحينما تقل كثافة الانهمار ترفع ذراعيها وبكفيها الجميلتين تروح تضرب وتضرب فوق خشبة القادوس بكل عنفوان وقوة حتى يجود بآخر ما فى جوفه من شعيرات الدقيق، هذا القادوس كم يتلقى من ضربات النساء طول النهار والليل فلا يكل ولا يمل ولا ينى يدفق فى قففهم ذلك الشريط الأبيض الساخن، ويعرف الأسطى عبد السلام أن صاحبة الطحين التالى قد أفرغت قمحها فى القادوس منذ برهة وأن كثافة الانهمار قد عادت من جديد لكنه يتغافل لبرهة غير وجيزة تتلكأ خلالها أمى فى الفرد والكبس وهى تنكس رأسها فى خجل ينبئ عن شدة الامتنان والشعور بالذنب، ثم يغلق الأسطى عبده دفق الدقيق ويساعد أمى

فى حمل القفة، وقبل أن تمضى تستدير باحثة عنى بنظرات وجلة وقد اصطبغ وجهها هى الأخرى بقطيفة من الدقيق، أكون قد انتهيت من مهمتى الصعبة فى مغافلة خالة "ست البلد" وسرقة حفنتين من الترمس المملّح اللذين حشوت بهما جيبى ورحت فى اطمئنان تام أشيع فى فمى الحبة تلو الأخرى يقشرها.

أمضى خلفها ممسكًا بجلبابها هذه المرة أحاول الانتظام فى إيقاع جسدها المنتفض تحت قفتين ثقيلتين، والليل مخشوشن بصفير الصراصير ونقيق الضفادع ونباح الكلاب.

تدلف أمى داخلة الدار باسم الله الرحمن الرحيم، تنادى من أول العتبة فى هدوء قائلة: يا عبد الشافى، فيخف أبى لاستقبالها حاملاً عنها بعض حملها ليضعاه على المصطبة الكبيرة التى ننام علينا كلنا، وهنا يحلو له أن يعود فيستغرق فى النوم، تجىء أمى بالطشت وتضعه فوق المصطبة وتجلس أمامه، تنتظر قليلاً، أزحف نحوها شيئًا فشيئًا علنى أعرف فيم شرودها ذاك، أنظر فى عينيها فأجد فيهما أبحر من الحزن الغامض العميق، فينقبض قلبى، يركبنى الغم، أضع رأسى على فخذ أمى المتربعة محاولاً الاستغراق فى النوم كأبى، أشعر برعشته وسخونته فأعرف أنها لا تزال متعبة وأسمع دقات قلبها تطن فى أذنى. أتوقع أن ترفع فخذها لتدفعنى عنه صائحة: "حل عنى بقى خلى عندك دم". لكنها لا تفعل، بل تمرر يدها على ظهرى فأستتيم فى لذة فائقة تخدعنى حتى لأغيب عن الوعى لفترة طويلة يحلو لى أن أطيلها بقدر، بعدها أفتح عينى فى شغف فأرى خيال أمى مجسدًا على الحائط بجلستها، بالفصل الحاسم بين إليتيها كأنها عارية من كافة الثياب، يتدحرج رأسى فوق حجرها رائحًا غاديًا كأن فى جسد أمى قوة شيطانية تدفعنى بعيدًا لترتد بى وهكذا فى عنف وقسوة شديدين، فأعرف أن المنخل السلك لم يفرغ من همته بعد، وأستشعر

شيئًا كالغضب العارم كالسخط يتصاعد من جسد أمى وأنا رائح غاد ما بين باب اليقظة وباب النوم. فى قلب المنخل السلك، ووسط الدقيق، ملعقة وضعتها أمى لتكون ثقلاً يحفز الدقيق على الزحف فى دوامة مع حركة المنخل، لا تنى تضرب جدار المنخل مرة حادة وأخرى خافتة: "تشك تشك تشك تشك" دوامة الدفء المنبعثة من صدر أمى وما تحت الصدر تجعل صوت ضرب الملعقة فى جدار المنخل يخفت شيئًا فشيئًا ثم ما يلبث أن يختفى تمامًا، ثم ما يلبث الكون كله أن يختفى لبرهة أشعر خلالها كأننى مقبل على هدأة عظيمة بهيجة ممتعة وكأن الكون قد انتظم فى إيقاع جميل متلاحق السرعة، دم تك دم تك دم تك دم تك دم تك.. أفتح عينى من حب ومن بهجة فتسقط على الحائط المدهون بضوء اللمبة نمرة خمسة.. صورة أمى لا تزال متربعة على الحائط لكن رأسى هذه المرة يؤدى فوق حجرها رقصة هادئة يجسدها الإيقاع الجميل، والمنخل نصف طارة سوداء معلقة فى الهواء رائحة غادية فى انضباط وإحكام كأن ثمة مغناطيس خفى يتحكم فى ضبطه، كل ما هنالك أن كفى أمى المتقابلتين تتبادلان لمس المنخل كلما ارتد إليها، مجرد اللمس فحسب كأنها تعزف الموسيقى، الدقيق الأبيض العلامة ينسرب من المنخل مثل ضوء الكشاف، فأعرف أن طور المنخل السلك قد انتهى وأن المنخل الحرير قد بدأ يعيد نخل ما سبق أن نخله المنخل السلك ليفرز العلامة من السن، تتسرب إلى أنفى وخياشيمى أحلى رائحة فى الوجود مسكرة، لا أعرف إن كانت رائحة الدقيق الساخن أم رائحة جسد أمى المشع بالدفء والحرارة؟ أم الرائحتين معًا؟ وإذ يشغلنى التمييز بين الرائحتين أكون قد ذبت فى نوم عميق عميق، وصرت جزءًا من موسيقى المنخل الحرير يرسم على الحائط فى الضوء العليل ظلالاً من الألحان.

حرب أطاليا

خيرى عبد الجواد(*)

حين قامت الحرب بيننا، نحن أبناء حارة على أبو حمد، وبين شارع عشرة الكبير، بعياله الذين يبان الواحد منهم مثل "الفلق"، لم يكن يستطيع أحدنا التنبؤ بالنتيجة النهائية، ومن الذى سوف يكسب فى النهاية.

لكنها بدأت. وما كان علينا إلا أن نحارب مهما كانت الخسائر، ومهما كانت النتيجة.

هكذا بدأت صباح يوم أحد شمسه طالعة وهواؤه وفير. لما كنت أطير طائرتى "الفانلة" من فوق سطح بيتنا العالى، وكان الولد "جالون" يطير طائرته "النجمة" من شارع عشرة. ولم تكن رائحة الحرب التى سوف تقوم منتشرة فى الجو، فقد كان صافيا، وطائرتى تقف ساكنة فى الهواء. مقتربة من مواقع النجوم حتى إننى خفت أن تصطدم بالشمس وكنت أغمزها يمينا فتميل، وأغمزها شمالا فتميل، وأتمايل فرحا، وذيلها يتمايل مع الهواء وجناحاها يهفهفان. تركت كل الخيط فعلت حتى لامست الشمس. لحظتها فاجأنى خاطر نفذته على الفور. بعثت للشمس خطابا مررته من الخيط حتى وصل الميزان فتمايلت، وشممت رائحة الحرب، فقد لمحت طائرة الولد "جالون" تطير فوق سمائى. ولمحتها تقترب من طائرتى، ورأيته يغمزها فتميل نحوى. لم يكن أمامى

(*) توفى فى ٢٠٠٨، من مجموعاته القصصية: (حكايات الديب الرماح)، (حرب أطاليا).

سوى أن ألم خيطى بأقصى سرعة، وكان هذا مستحيلا لأسباب: منها – أن الخيط سوف يلتف على بعضه ويتشابك. ومنها: أن الخطاب الذى بعثته للشمس فما ردت – كان يعوق حركة اللم لالتفافه حول الميزان. ومنها أيضا: أن الخيط كان مشدودا جدًّا فخفت أن ينقطع فتقع الطائرة. على هذا الأساس تم اتخاذ قرار سريع وحاسم.

- قلت: سوف أقوم بعمل مناورات، قد تفلح وتبعد طائرة الولد جالون عن طائرتى.

- وقلت لو اصطاد جالون طائرتى فسوف أقتله هو وشارع عشرة كله.

وبدأت على الفور فى المناورة.

أخذ يغمز فيقترب، وأخذت أغمز فابتعد. وكان العيال قد تنبهوا للصراع الدائر بين الطائرتين فوقفوا فوق الأسطح يتفرجون، ولمحت عيال شارع عشرة يقفون جنب جالون يهتفون ارم يا جالون، ارم عليه. وهتف عيال شارعنا: حاسب يا جمال سيب الخيط يا جمال، سيصطادك يا جمال. استمرت المناورة عشر دقائق كان الجميع خلالها يهتفون:

- صده يا جمال: صده يا جالون.

مهارتى الشديدة فى المناورة يعرفها العيال، لكنهم يعرفون أيضًا أن خيطى ضعيف، وأن طائرتى صغيرة عملتها بعد طفح الدم لما بعت كتب المدرسة لحسن العلاف فى "المسامحة". وأن طائرة الولد جالون معمولة من "الأزاز"، وأن بها موس حلاقة أسفل الذيل.

وكان هذا ما يخيفنى فى الحقيقة. فلو أن ذيل طائرته جاء على خيطى فسوف ينحله ويقطعه. وهذا ما حدث بالفعل فى المرة الأخيرة.

لما خرجت عن مدار طائرته بأعجوبة هتف لها العيال وأخذوا يصفرون ويصفقون، وكنت قد تعبت حين أعاد المحاولة فاقتربت طائرته جداً. فدعوت عليه أن يموت من وقته وساعته. أصبحت فوق طائرتى تماماً. ثم أخذ يغمزها يمينا وشمالا فيحتك الذيل بالخيط وينحله. اضطربت طائرتى، وتشقلبت فى الهواء، ثم إنه بحركة بارعة تعجب لها العيال صار تحت طائرتى، كان علينا أن نلم خيطينا بسرعة رهيبة. كنت أعلم أن نتيجة المعركة سوف تحدد الآن، فالأسرع هو الفائز. أخذ يشد وأنا أشد. انقطع خيطى فسحب الطائرتين ناحيته، وعيال شارع عشرة ينطون ويضحكون، وعيال شارعنا نزلوا إلى شارعنا وتجمعوا، فعلمت أن المعركة سوف تبدأ الآن.

عند نزولى الشارع كانوا واقفين، ولما لمحونى تجمعوا حولى.

قال سعيد فرجانى:

- لا بد وأن نؤدبهم ولاد الكلب.

وقال شعبان عبد السميع:

- حرمونا أن نطير طيارة.

وقال محمد عبد القادر:

- دائماً يصطادون طائراتنا.

وقلت:

- يجب قتل جالون بأية طريقة.

عند هذا الحد، انفض مجلس الحرب وتفرقنا. طلعنا بيوتنا، لبس كل منا حذاءه الكاوتش حتى نعرف نجرى، وأخذ كل منا نبلته المعمولة من جلد

الخنازير التى رأيناه فى عزبة الزبالين. ولما تجمعنا مرة ثانية أخذنا فى لم الزلط الصغير حتى ملأنا جيوبنا.

حانت ساعة الصفر فانطلقنا وقد ساق كل واحد عجلته الكازوز أمامه، وصلنا خرابة شارعنا المؤدية لشارع عشرة. اختبأنا خلف ساتر الزبالة وانتظرنا. أطل محمد عبد القادر برأسه "القلقاسة" وقال:

- أراهم مجتمعين.

وأطل سعيد فرجانى وقال:

- جالون واقف يلم الخيط ويضحك.

وأطل شعبان وقال:

- يعطونا ظهورهم ولاد الكلب. وعندما أطللت قلت:

- اهجموا عليهم. أسرعنا بوضع النبل فى أصابعنا وقام كل واحد بتعمير نبلته وبدأنا الحرب. نشنت على قفا جالون وقذفت.

صرخ جالون وصرخ العيال وجروا. وقذفنا وجروا، لكنهم عادوا يتقدمهم جالون. وحين لمحونا، كان الطوب يتساقط علينا من كل الجهات، وجيوبنا خلت من الزلط فأمسكنا طوبا صغيرا، كانوا أسرع وكان أسرعهم جالون. اقتربوا وابتعدنا بظهورنا ولم يكن أمامنا سوى الجرى فجرينا وتركنا عجلات الكازوز الذى تعبنا فى لمه من عند "الكوكاكولا" ومن تحت كراسى المقاهى فى شارع همفرس الكبير. جاءت طوبة فى رأسى محمد بعد القادر وشعبان عبد السميع فصرخا وبكيا والدم يغمر وجهيهما فخفنا وجرينا أسرع. حين نظرت ورائى، كانوا قد اقتحموا ساتر الزبالة ودخلوا شارعنا، وفاجأنى جالون بطوبة أصابتنى فى قصبة رجلى بكيت لها على الفور.

عند وصولنا حدودنا، كانوا قد كفوا عن اللحاق بنا لما رأونا ندخل بيوتنا، ثم إننا خرجنا مرة ثانية بعد أن ابتعدوا ورأينا عجلاتنا الكازوز فى أيديهم فأصبنا بالحسرة.

قلت: لا بد من هزيمتهم.

وقلت: لا بد من قتلك يا جالون الكلب، وقتل أم حظ أمك التى تبيع الجاز "الرتل" بخمس تعريفات وكابون. أيضًا سوف نقتل أباك الذى ندخل عنده لنشاهد خيال الظل فيسحرنا ولا نعرف رءوسنا من أرجلنا حتى يسرق ما معنا.

قال شعبان:

- لم نكن مستعدين للحرب.

وقال مصطفى:

- هزمونا على أرضنا.

قلت:

- إننا لم نهزم بعد، وإن علينا أن نشن حربًا جديدة نقتل فيها شارع عشرة كله. وتدمير محلاته المعمولة بالزجاج الملون.

قال محمد عبد القادر:

- ونسرق فيديو الحاج عبده الجزار، بل نسرق كل محلاته.

ولكن كيف يتم ذلك؟

لم يتكلم أحد. وكانت رأس محمد تنز دما فكبسناها بالطين، وجلست أربط رجلى عند القصبة، وكانت تؤلمنى.

واحد فى شارع على أبو حمد لم يتوقع أن حربا شاملة على وشك الوقوع، وأن معركة أخذ الثأر يعد لها فى الخفاء فى سرية كاملة، وكانت توقعاتنا كالتالى:

محمد عبد القادر: قد تشتعل الحرب فى أية لحظة، فور انتهائنا من الاستعداد الجيد لها.

مصطفى: أتوقع أن تنحاز بولاق الدكرور لشارع عشرة، خاصة إذا هاجمنا السوبر ماركت الذى على أول الشارع، كذلك المقاهى التى يجلس عليها العيال، وعلى هذا الأساس يجب وضع - بولاق الدكرور فى حسابات الحرب.

شعبان: علينا تقسيم أنفسنا لعصابات، عصابة تهجم عند أول الشارع، وأخرى من المنتصف عند الخرابة، والثالثة من آخر الشارع، وبذلك نسد عليهم جميع منافذ الهروب.

قلت: علينا أن نبحث فى أمر السلاح. يجب شراء أكبر كمية من البمب والصواريخ الصغيرة والكبيرة، كذلك حرب أطاليا، حتى نشيب ولاد الكلب الجبناء، لما نشوف من الأقوى.

كانت النقود هى كل ما نحتاجه لشراء أسلحة الحرب، ولم يكن مع أحدنا سوى مصروفه القرشين، اتفقنا أن نشترى "بلى" ونلاعب عيال الحارات المجاورة. بدأنا نلعب "الترنجيلة". و"المثلث"، ولأن مهارتنا عالية جداً فقد ربحنا "بلى" كثيرًا بعناه واشترينا الأسلحة: خمسة بواكى "بمب"، ٢ باكو شرائط حرب أطاليا، عشرين صاروخا سريعة الاشتعال، علب ورنيش فارغة، وعقدنا مجلس الحرب، وتم تحديد ساعة الهجوم فى السابعة مساء الخميس لحظة

يلعبون "حاورينى يا طيطا" وعند بدء مسلسل "سنبل" حتى نضمن خلو الشوارع، ونضمن أيضًا عدم تقديم المساعدة من بولاق.

مرت الدقائق بطيئة قبل بدء العد التنازلى، كانت قلوبنا ترجف من لحظة اللقاء، رغم ثقتنا من هزيمة الأعداء هزيمة لا يرفعون فى وجوهنا عينا بعدها أبدًا.

حين وصلنا للرقم صفر، انطلقنا، جيوبنا مليئة بعلب الورنيش المعمرة بالبمب وحرب أطاليا، أيدينا تحمل الصواريخ الكبيرة والصغيرة، فى الجيب العلوى لكل منا مشط كبريت ماركة "الهلب"، ولم ننس أن نردد ما ردده "على"، بطل "رد قلبى" حين قال له "سليمان" انت من الضباط الأحرار يا على. لأن على يحب "إنجى" "مريم فخر الدين". انقسمنا ثلاث فرق، انطلقت كل فرقة لتنفيذ مهمتها. معى مصطفى وسعيد فرجانى وشعبان وابو العلا، كل واحد مثل "الشحط". عند وصولنا الخرابة انبطحنا خلف ساتر الزبالة. رأيناهم يلعبون "حاورينى يا طيطا" انتظرنا حتى وصلت بقية الفرق أماكنها. قلت الآن نبدأ تنفيذ العملية، ثم إننى صرخت: خذوا يا جبناء. طوحت وطوح العيال علب الورنيش ثم اختبأنا خلف ساتر الزبالة. سمعنا صوت الانفجار عاليا، فى اللحظة التالية سمعنا صوت انفجارين وصوت صراخ، أخذنا فى إشعال فتيل الصواريخ وطوحنا بها. أضاء الضوء الناتج عن الانفجارات الشارع فرأيناهم يجرون فى فزع شديد، خرجنا من خلف الساتر، أشعلنا شرائط الحرب أطاليا وجرينا خلف الأعداء ورميناها عليهم وجرينا، وكانوا يجرون. سمعنا صراخا عاليا وأصوات بكاء وساد الظلام. فرغ ما معنا من أسلحة فبدأنا نتراجع نحو الخرابة، رأيته يجرى تجاهى فعرفته، جالون زعيم العصابة. جريت وجرى ورائى. أخذنى مقص رجل فوقعت على وجهى ووقع فوقى. ضربنى أسفل رأسى بسيف يده. استدرت له

فضربنى على عينى بقبضه يده. كانت ضربته شديدة فصرخت، ظل يلكمنى وكنت أعيط من شدة الألم فإن يده مثل "المرزبة". حين قام من فوقى كانت رأسى تنزف، وعينى اليمنى "مزغللة"، أما عينى الشمال فما عدت أرى بها فأغلقتها، ثم إنه ضربنى "بالشلوت" وأنا أهم بالجرى وصرخ ورائى: عاملين شطار وشجعان يا أولاد الكلب. التفوا حول محمد عبد القادر ومصطفى وشعبان وبقية الفرقة وعدموهم العافية وكانوا يصرخون من شدة الضرب، لكنهم وقفوا وجروا ناحية شارعنا، جرينا بأقصى سرعة وجروا وراءنا، فاجأتنى طوبة فى ظهرى فانقطع نفسى لحظتها، ثم إننى انفجرت باكيا. بكى محمد عبد القادر وهو يعرج، كان مصطفى يمسك رأسه، أما شعبان فكان يصرخ ويقول كسروا ذراعى. وسمعنا صوتهم وراءنا:

- اوعوا نشوف واحد منكم هنا يا اولاد الكلب. ولما وصلنا حدودنا، جلسنا على أرض الشارع – وبكينا.

فى الصباح نزلنا الشارع، وفى أجسامنا وعلى وجوهنا آثار المعركة، وعقدنا مجلس الحرب، بحثنا فى كيفية شن هجوم سريع وحاسم يكون المعركة الفاصلة نرد فيها على الفضيحة التى حدثت بالأمس، وكالعادة أخذنا فى اعتبارنا جميع التوقعات المحتملة بالنسبة للحرب، ثم أقسمنا نشيد النصر، وبدأنا نعد أسلحة جديدة للمعركة.

لا تطفئى النار يا جدتى

راضية أحمد(*)

لما كانت الجدة تكنس تراب الفرن، وكنت أجلس أمامها القرفصاء، يسحبنى الوهج المتبقى من جمر الخبيز.. قلت وقد كنت على وشك غفلة انتشى لها كل جسدى.

- اتركيه يا جدتى.

كان الماء بالقماشة المهترئة بسيخ (العرصة) وهى تحك فى السطح الساخن برحم الفرن يصدر صوتا كصوت لحريق أوشك أن ينتهى بفعل الماء، فبردت النشوة بجسدى وكنت على وشك الانفجار من جدتى التى كانت مؤخرتها فى وجهى وقد مطت رأسها بداخل الفرن كالعرسة..

- يا جدتى.. اتركيه.. لا تطفئى النار.

كان الولد يقف أمام الدار يرقب كل شىء وأرقبه لما كنت حانية بجسدى وأنا جالسة فوق حجر صغير ويداى بين فرائسى ورأسى مائل.. يتام فوق ركبتى. تركت الجدة بعضًا من الجمرات ودست فرطًا من الذرة فى بطن الهشيم ثم رمقتنى بغيظ وذهبت لتغتسل.

كان الولد ما زال واقفًا.. يتظاهر بالانشغال بعصاته وهو يمد عينيه إلى عقر دارنا من خلال الجزء الموارب من الباب.. ثم إلى جسدى، وكانت حبات

(*) من مجموعاتها القصصية: (حلم دافئ) ١٩٩٦، (فرح العوانس) ٢٠٠٥.

الذرة من فرط السخونة تتفتح فتصدر صوتًا لفرقعة، تسحب الولد شيئًا فشيئًا إلى باب الدار حتى كادت أن تراه جدتى وهى ترص الفطير بالمندرة فنادت:

- يا بنت قومى من وجه النار.

ادعيت بأنى لا أسمعها ولم أرد حتى يئست واختفى صوتها ولم يبق إلا صوت حبات الذرة بداخل الجمر، وضحكاتنا المكتومة أنا والولد الذى ما زال ممسكا بالعصا ويحرك شيئًا فى جيبه باليد الأخرى وهو يلهث بوهن وقطرات العرق تملأ وجهه.. يحرك يده من تحت جلبابه وتنفلت من فمه أصوات كأصوات لخراف تمضغ حبات فول يابسة.. وتنتقل نظراته سريعة.. مضطربة تتفحصنى ثم تستقر وتهدأ فوق وهج الجمر، ويشدنا الوهج الأحمر الملتهب نحن الاثنين وقد بدأت الظلمة تلف الدار داخلها وخارجها ولم يظهر غير عين الولد الزائغة وأصابعى التى تمر فوق جسدى برفق خلسة. وأسمع جدتى تحدث (الكلافة) بشىء غير مفهوم عن أختى الكبيرة، وجاء اسم سعدية الماشطة بين الهمهمة وكلمات تحمل فى رنينها عند اختراقها للأذن كالمسامير.. روائح لغرفة عمليات أو حانوت حلاقة فى الريف.. صبغة يود.. مقص.. مشرط.. ثم طهارة.

كان الهواء البارد ينفلت من بين شقوق الدار فيدخل من تحت قميصى فأحكم كفاى جيدًا بين فخذى وقد بدأ النعاس يغافلنى، وجدتى تزمجر وهى تشيح بيدها وقد أوصدت الباب فى وجه الولد.

في حضرة صاحب المدد

رامى المنشاوى[*]

من الحضرة تنطلق التمتمات. في الحضرة تتعطر الألسن بذكر الله. في خشوع تسرى برقة تداعب حراس المكان. وعلى يمين ضريح البدوى أقيمت.

الفاتحة ميدان الرحمة الإلهية. الصمدية توحده لا صاحبة له ولا ولد. المعوذتان حماية للعبد من شر الوسواس والعين.. .يس... إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم... وصل عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

كانت الأصوات تتناغم. تعلو وتهبط باتزان يديره الذى يتوسطهم وتعلوه هالة من نور فتجعل من وجهه شمس صغيرة انسيابية مطلقة في ابتهال خاشع لمالك الملك.

تسرى الطمأنينة في العروق. تروى الظمأ. مع إغماض العين استشعر السكينة... تلامس الجلد. قشعريرة بسيطة يعقبها استكانة.

تفوح رائحة البخور تضفى على المكان رائحة من سحر الجنة وعبقها... كانت أم عادل جارة والدى والتى تجاور مسجد الشيتى على ناصية شارع البوابة. تدور بقربتها الجلدية المصنوعة من جلد الماعز وبيدها إبريقان تسقى الجميع وهى تردد

اشرب وصل على النبى

---

[*] من مجموعاته القصصية: (حارة أبو شليب) ٢٠٠١، و (ليلة عزاء) ٢٠٠٣.

الحاجة أم عادل التى تعودت مراقبتها بعد أذان الفجر أيام السهر أمام الكتاب على ظهرها القرية الجلد. ملتفة بالشال الأسود ساترة قدميها بالجورب البنى. لونها ثابت مهما اختلفت ألوان السنة. تنطلق بحيوية قاصدة المسجد الأحمدى ثم تئوب بعد انتهاء العشاء.

الشيخ عادل مقيم شعائر مسجد الشيتى ابنها والذى انقلب حاله من النقيض إلى النقيض.

نرقبه. نتابع حركاته. انفعالاته المفاجئة. ثيابه الرثة. العِمة التى تآكلت. اختلاف ألوان الجوارب وربما ألوان الحذاء.

ماذا جرى يا شيخ عادل؟! لا حول قوة إلا بالله.

تجواله فى الطريق. وجهه المنكس جهة الأرض كمن ارتكب فعلاً. لا يسلّم على أحد ولا يرد سلام أحد. يرفع وجهه فجأة. يضحك بصوت جهورى. ينتبه المارة وأصحاب الدكاكين يصرخ بفزع "يا حنان يا منان"، ثم يمضى لحال سبيله. كل حمله مخدة من القطن وزجاجة بلاستيك عادة ما تكون فارغة. صلاته العصر بالناس وتجاوزه السبع ركعات. ينهى الصلاة بضجر المصلين بالشيخ الذى فقد عقله. يفرد قامته غير عابئ. يكبر لركعتى سنة ما بعد العصر!

كنت واحدا من الذين شاهدوه فى المسجد الأحمدى. واقف فى الميضة يتلفت بارتياب.. يصرخ

"يا حى يا قيوم يا صاحب المدد والنور.. المدد على طول المدددددد"، حى

وحين تطلعت إليه مد يده تجاه وجهى وصرخ

قبـّل

بعزة والى يقف. والجميع حولنا من الرواد يحوقلون

اهدى يا شيخ عادل وصل على النبى

لا حول ولا قوة إلا بالله

يزوم. ينتقل من مكان لآخر. فى حركات عشوائية. يلهث. يطارد شبحَ مجهولٍ. همَّ وهجم على الدرويشة. استل سيفها الخشبى الأخضر. حركه يمينا لاح يسارا طعن الفراغ والدرويشة التى تربط رأسها بعصابة خضراء مكتوب عليها "لا إله إلا الله" شاركت هى الأخرى. راوغت. شاركتة فى مطاردة المجهول... تشد من أزره.

❖❖❖

كانت سميرة التى تجاوزت الثلاثين وما تزال بكرًا تنصت لابتسام فى اهتمام وهى تروى:

"والله يا بت شاهدته على سطوح بيتهم الواطئ قبل الفجر ما يقول الله أكبر. عارى كما ولدته أمه. مصطفى زوجى ذهب لتوه للفرن. والنوم خاصم عينى ... طلعت الشرفة بصيت لقيته كما هو .... ياه يا بت يا سميرة "توقفت عن مضغ اللبان وهى تتذوق شفتيها فى اشتهاء".. يعطى الحلق للى بلا ودان".

ردت سميرة

اختشى يا بت.

مخاوى.. الشيخ مخاوى جنية يا عبيطة.

تنهدت سميرة وأعادت ربط شعرها تفضح نظرات ابتسام التى تلمع وفمها ما يزال يلوك اللبان الدكر.

❖❖❖

انتقلت أم عادل بين الحضرة. بخطوات محسوبة اعتادت قدماها التنقل عبر الخطوط البيانية غير الواضحة. تروى الجميع والمرويين يلوحون بأيديهم علامة الشكر والحمد دون أن ينشغل لسانهم بغير الذكر.

اقتربت أم عادل من الشيخ صاحب الهالة وكان قد فرغ لتوه من الحضرة، خلعت القربة ثم وضعتها جوارها واستندت بظهرها على الحائط الذى يعلوه الشباك المغلق على شعره النبى المختار.

كان الشيخ قد أغلق فمه ويده تسير على المسبحة دون تحريك شفتيه.. تثاءب وعينه لا تزال مغمضة.

قالت بعد تنهيدة خارجة من جوف ملتهب.

الخيبة زادت يا سيدنا.. والأمل فى العافية تاه فى طريقه للقلوب.. عادل هجرنى هجر بيته وزوجته وفاطمة الصغيرة... وكما ترى هايم كيف الشارد فاقد اللب والخلاص.

ضغطت المرأة على لسانها وهى تبكى.

ألصبر نفد يا سيدنا

انتهى الشيخ من التسبيح فتح نصف عينيه يردد

"لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين" قبَّل المسبحة ثم وضعها بجيبه "اسمع ندائى يا رحيم بما سمعت به نداء عبدك زكريا"

وجَّه عينه لأم عادل:

استهدى بالله يا ام عادل ... ولا تنسى انك انت السبب.. دعاء الأم حر لا

يقيده طاير ولا نايح. ادعى له بالرحمة والثبات ربك ذو مغفرة واسعة رحمته وسعت كل شىء.

أم عادل تتخرط فى البكاء وأنا أتابع حبات المياه التى ترشح من القرية وتسرى على السجادة الحمراء فترسم نهرًا بلون الدم. ......

نهضت أم عادل تروى ثم استندت على جدار المقام تبكى وهى تردد بصوت شجى:

"المدد يا صاحب المدد. طلب الهداية مرادى. بركتك معايا يا بدوى يا سليل النبى المختار. قصدتك يا سيدى وانت الكريم على الولاية.. القلب عليل والولد تايه فى ملكوت الخالق. الحُرقة فى القلب ما يكتمها الدوا ... يا شيخ العرب يا بدوى كريم.. كريم وعالم بأمر العباد يا رب. قادر كنت قطعت لسانى قبل ما ادعى قاصدة بابك يا بدوى وعلمى بكرمك واسع... واسع للعباد من كل النواحى بحق مريديك من كل النواحى. رجَّع التايه ونوَّر بصيرة الضال. الدمعة جفت والحرقة لبدت فى الجوف ... كريم ... كريم يا صاحب المدد".

دمعة دمعتين إغفاءه خفيفة منع من سقوط الجسد تشبث الأيدى فى المقام كان الشيخ قد توقف عن التسبيح. ظلَّ شاخصًا بعينه جهة باب الضريح، يبتسم تحسبه راقد. لا يحرك جفن ولا يزحزح شفة ثابت كأنه لوجه متجمد من الموت رنَّ الصوت القادم من الجوف البعيد" كريم بعبادك يا رب".

جيبة ديرتى

رضا البهات(*)

أريدك معى يوم الثلاثاء فى مشوار مهم.. أرجوك لا تنسى، اعمل حسابك سنتأخر لبعض الوقت. فى الحقيقة استبشرت خيرًا بمكالمة المهندس حمدى رغم نبرة صوته المتوترة. فهى دعوة مبطنة لأن أقرب ما بينه وزوجته، بعد أزمة مما يحدث بين قدامى المتزوجين. ومدام منى زوجته زميلة لنا فى العمل. التحقت بالقسم الذى أعمل به بالمصلحة، آنسة حديثة التخرج. من يوم أن زاملتنا وهى فتاة بسيطة، ملابسها أنيقة وحديثة فى احتشام. وشعرها معتنى به دون مبالغة أو صبغات. وهى عموما فتاة هادئة، تسير بخطى متزنة، وبدون استعراضية كالتى تنتاب الفتيات المحبوبات. تنتعل دائمًا حذاء مستويا بلا كعب، مما يشى بثقتها بنفسها.

تسرع دائمًا إلى تقديم العون فى شعور فطرى بالمسئولية. لا تتحدث أو تتلقى حديثًا إلا ابتساما. فتشعر فورا أنها أختك.. أختك الطيبة. كان من الطبيعى أن يدور همس بيننا رجالا ونساء، تلخصه جملة واحدة.. بنت جدعة.. خسارة تروح لواحد لا يعرف قيمتها أو يبهدلها.. فإن علمت بما دار بيننا قالت:

ماتخافوش عليا.. أنا برضه ليا خربوش.. وكل واحد بياخد نصيبه.

يمر الوقت، ابتدأ حرصها على مظهرها يزداد. مع لمسات خفيفة من الماكياج بدت بها أكثر جاذبية، وإن لم تفقد هيئتها المتزنة أبدًا، أو تتحفظ فى

(*) (من مواليد ١٩٥٥)، من مجموعاته القصصية: (طقوس بشرية).

سلوكها الأخوى والمرح مع الجميع. كنا قاطنى الدور الرابع من المصلحة أسرة واحدة. ولم يكن أمر عضو جديد يوشك على الانتساب إلينا ليخفى، وبالمصلحة نساء، لا تفوتهن شاردة حتى ولو كانت دبوسًا جديدًا شبكته إحداهن فى صدر الفستان.

عرفنا أنه مهندس وسيم يكبرها بسنوات قليلة. يعمل بمصنع لمنتجات الحديد والصلب. وما أسرع ما ابتدأ فى الظهور صحبتها. والحق أنه بدا شابًا دمثًا وملتزمًا يستأهلها.. بدا أيضًا أنه يحبها ويحترم عملها. بعد الخطوبة ظلت منى هى هى. لم يتغير من طباعها شىء. وكلما طلبت منها الحاجة تقى حين يكفهر جو المكتب بسبب أزمة ما أن تغنى لها مطلع أغنية تذكرها بأيام خطوبتها. كانت منى تخجل فى البدء. وبعد رجاء قليل تتقشع الغمامة التى ظللت المكان، مع بحة صوت متفائل يغنى:

سمعت وردة، بتقول لوردة

الدنيا حلوة، أوى النهاردة

مرتين أو ثلاثًا يتردد الغناء الحلو، قبل أن تتفجر ضاحكة وتدفن وجهها فى المكتب. خاصة إذا كان حمدى موجودا فى زيارتها.

كانت تصفه لنا بأنه شخص مثقف ويحب الحياة وإن بدا من النوع المحافظ شوية لذا لم يكن مفاجئا لنا أن نراها ذات صباح فى فستان ضيق وقصير، كثير القصات والأزرار.

يشبه زيا عسكريا نسائيا. فستان من القماش الطوبى الخشن. الذى يذهب لونه بالوقت عند مواطن الشد. وكان موضة الفتيات فى تلك الأيام. وقتها صاحت مدام هند موظفة الكمبيوتر ودلوعة المكتب: إيه دا كله يا منى؟.. وهو يسمح لك بهذا؟ كدة هتهبلى الرجالة وهم مش ناقصين.

أجابت منى:

حمدى شخص محافظ آى نعم، لكن مش قفل. بالمناسبة هو اللى ا شتراه لى.

شيئًا فشيئًا صرت أقرب الزملاء إلى حمدى إذ كان مثلى محبًا للقراءة. ونتبادل دائمًا كتب القصص والتاريخ وحياة المشاهير. ولم تكن تعليقاته تخلو من انفعال وتأثير بما يقرأ.. خاصة الأدب. وكان مثل الكثير ممن عانوا فى حياتهم، يرى أن حياته جديرة بأن تصنع رواية مؤثرة إن هى وجدت من يكتبها. وقد يأخذه الانفعال إلى حد أن يحدثنى بحماس عن خططه المستقبلية، التى ينوى فيها أن يسجل ما جرى بحياته على شريط كاسيت أولاً، ثم يعكف على تفريغه كتابة. تمر أسابيع وأعود إلى سؤاله عما أنجزه من حلمه. فيتحدث بنبرة أسى عن تكاليف الحياة الزوجية. وضرورة أن يوفر لأسرته القادمة الأمان أولاً.

وكيف أنه مشغول باستثمار ما تحصل لديه من مال كمكافأة نهاية خدمة فى المصنع. بعد أن قرر ذلك سعيا إلى العمل الحر فى السوق مضيفًا بنبرة واثقة:

الاستثمار.. وحده استثمار البورصة يضمن دخلا كريما بلا مجازفة أو تعب.. العمل برضه مرهق. وعموما أنا لم أغامر بوضع كل البيض فى سلة واحدة. إنما وزعته بين أسهم شركتين. فلا صناعة السيارات ستتوقف، ولا الناس سيكفون عن أكل الشيكولاتة والحلويات.. وكل من الاستثمارين عملاق يغطى الكرة الأرضية.

اقترحت عليه بما لدىَّ من معرفة عامة:

مجال الكمبيوتر، يخيل لى أن مستقبله قادم ومضمون.

قال بنبرة قاطعة:

بعد سنوات ستصنع هذه الأجهزة محليًا، وتفقد امتيازها، ولا تنسى أننا شعب الأمية فيه أغلبية. كان حمدى قد صار واحدًا منا. وصار تزاورنا الأسرى أمرًا مألوفًا. إلى أن أضيف إلى أسرته بنت وولدان. لم تكن تعترض حياتهما من منغصات سوى ما يتشاكى به سائر المتزوجين، ويزول وحده أو ينسى. ومثلما يحدث دائما، كان قد شاب شعره قليلاً.

وصارت مدام منى أسمن قليلاً من غير أن تفقد حيويتها أو مرحها القديم.

لم يكن لكبار السن فينا أن يدعوا أزمة كهذه تطول هكذا. فكان أن رتبت الحاجة تقى مقابلة تجمعنا إليه فى كافتريا شهيرة اعتدت الجلوس بها. حيث أغطس هناك.. فى الدور العلوى فى كرسى وثير من الجلد خلف واجهة الزجاج المطلة على أحد شوارع وسط الصخب والزحام، لذا ذهبت قبلهم بوقت يتيح لى ذلك.

ما إن أنهيت فنجان القهوة حتى لمحته.. حمدى لا يمكن بالطبع أن أخطئه. يسير ببطء وسط تيار العابرين على الرصيف المقابل. ظل سائرا حتى الميدان. وعند الإشارة راح يعبر إلى الرصيف القريب. بخطى متمهّلة كأنما يسير بلا هدف. بعد قليل رأيته يمر تحت نافذة الكافتيرها ماضيا إلى النهاية الأخرى للشارع. هو ذاته، إنما فى بدلة كاملة واسعة قليلاً، ورابطة عنق عريضة. لم أره على هذه الهيئة أبدًا. رأيت أيضًا شعره اللامع الغزير والمكتمل، مسرحا إلى الوراء بعناية كهل أصلع. وجهه ملغد، حليق الذقن، رقبته مثنية، ويده فى جيبه. هيئة غريبة على عاشق قديم مثقف وبسيط. بدا مثل كبار الموظفين الذين يتمسكون بهيبتهم الحكومية طوال الوقت. كنا فى أصيل يوم خريفى حيث يضفى هدوء الجو مسحة من الشجن على النفوس ويرشد الطقس المحايد

تصرفات البشر إلى أبسط الاختيارات. ويسود المقاهى والشوارع جو احتفالى فاتر ومفعم يقرب ما بين العابر والعابر، ويجعل من نبرات الصوت رسائل ودود ة تخلو من التوجس المعتاد. رأيت حمدى ثانية على الرصيف المقابل بذات السير المتمهل يمسح بيده على شعره. وينظر إلى لا شىء من وهج الفتارين ومهرجان الأنوار الوشيك. بدا كما لو أنه يبدد الوقت إلى أن يحين الموعد. ولم يكن متاحا لا أن أشير له، ولا أن يرانى.

عند محل عصير توقف وظل منتظرًا فى تؤدة أن يناوله البائع كوبه.. ظهره إلى الشارع ويده لا تزال فى جيبه فى خلو بال. أخرج منديلاً مسح به على شاربه. ومضى بذات الخطو إلى دأبه الدائرى، كمن يؤدى واجبًا. السير إلى الشارع حتى التقاطع ثم عبور الطريق إلى الرصيف الآخر... وهكذا كهل وقور لا يحتمل أن يلمسه أحد فى الزحام فيميل بكتفه، أو يمسك ذراعه عن الحركة، أو حتى يتوقف تفاديا لعابر مسرع.

كان ثمة دقائق بقيت على الموعد لمحت مدام تقى وزوجها يظهران من نهاية السلم الداخلى للكافتيريا قلت مرحبا:

اتفضلوا... أنا شفته معدى هنا من شوية، يعنى على وصول.

أشرت لهما إلى حيث رأيته. فإذا هو إلى ذات المحل واقف مرة ثانية. ويرفع زجاجة مياه غازية إلى فمه. ثم ينظر إلى صورته فى مرآة المحل، فيسوى شيئًا من هندامه. وأخيرًا ترك الزجاجة إلى منتصفها، عابرًا الطريق مباشرة إلى باب الكافتيريا الرئيسى.

بالطبع جرى فى البدء كلام كثير، حول الحياة والظروف والأبناء وترددت العبارات المألوفة فى مثل هذه المواقف. واختص الأستاذ عبد المولى الزواج

بعض التهكم، مثلما يفعل الرجال عادة بينما يرضخون فى أعماقهم لكل ما جرت به الأيام. من أول لحظة للتعارف، وحتى أحاديث ما قبل النوم الخافتة التى ترتب بكل جدية أفضل المصائر المتاحة للأبناء.

لم يعد يجوز الزعل فى سنكم يا باشمهندس. دى عشرة عمر، وبعدين بنتك ما شاء الله صارت عروسة. بهذا اختتم الأستاذ عبد المولى كلامه، وأردفت زوجته:

– والله يا حمدى منى ست طيبة وتعزك. وضميرها دايما سليم.

نطق حمدى أخيرًا، وإنما بلهجة من يخشى أن يبدو ضعيفًا:

إذن لتقنعوها أنتم بالتخلى عن لبس هذه الهدوم. وكمان بنتى لازم تطلع زى ما انا شايف. لو أصرت منى سأمنعها من الشغل وهذا حقى. شعر مكشوف وجيبة ديرتي، والله أعلم فيه إيه كمان. الجيبة نفسها اسمها ديرتى... يعنى قذرة ومن صنعوها برة سموها كدة. كفاية اسمها. قلنا جميعًا كلاما مشابها، يعنى أن لكل جيل ظروفه. وأن البنت لا تزال صغيرة، فعمرها ١٢ سنة و... سيبها ياحمدى تفرح بنفسها شوية.

اندفع سائلا باستنكار:

– صغيرة؟.. أمى التى هى جدتها متجوزة وهى فى سنها كدة.

وهكذا بدا أن السبيل إلى إصلاح الأمر لا يزال بعيدًا. فنهضت مدام تقى وزوجها. وطلب حمدى أن نبقى لبعض الوقت. أخذ يحكى لى عن كيف أنه يرى البنات تجذبن الجيبة لأعلى فتبدو أقصر، أو تدرنها فتصبح فتحتها من الخلف.

وكيف تجتهدن فى إنزال صبغتها لتزداد قذارة.

صمت قليلاً ثم أردف: دول بيعملوا العجب يا أخى عشان الشبان يحبوهم. والله أعلم الجيبة جاية ازاى. من جسم خواجاية لبياع روبابيكيا لمستورد بواقى لخرج دلالة أو بياع فارش على الرصيف.. يعنى من إيد لإيد ومن جسم لجسم. أمال سموها ديرتى ليه؟. لم أظفر منه بجديد، فقلت... وموضوع قصة حياتك اللى كنت ناوى تكتبها!. فتحدث عن الأمان، وأن الفلوس هى الأمان وأضاف: فاكر موعد الثلاثاء.. بكرة، كنت قلت لى إن لك صديقا أو قريبا خبيرا فى البورصة ضرورى أن تقابلنى به. أسهمى انضربت وأنا سأضيع. عاوز ناخد رأيه قبل أن أبيع الأسهم بخسارة.. استشارة يعنى، وياخد الأجر الذى يريد. افترقنا وأنا حزين لمشكلته الجديدة. إذن فقد كان موعد الثلاثاء لهذا السبب قمت فى المساء بالاتصال بهذا الصديق. الذى دعانى لأن أطمئن حمدى وأن يصبر على البيع. وشرح لى أن شركات السيارات تصنع أيضًا السيارات العسكرية. والتى يزداد الطلب عليها الآن بفعل الحرب فى العراق، وأفغانستان. على الأقل لتعويض ما تدمره الحرب.

ومن جانب آخر أوضح لى أن إعصار إيفان الشهير قد شارف موعده هذا العام.. فى الخريف والمتوقع أن يكون كاسحا إلى حد أن مساحات شاسعة من مزارع البن والكاكاو سيتم تدميرها بالكامل. هذه السلع أيضًا سترتفع أسهمها بعد انهيار، أضاف: خلى هذا الكلام لك ولصاحبك فقط... فقلت مازحا: عاوز كام على هذه الاستشارة المهمة؟ قال بطريقة موجزة: كفاية أشوفك ونشرب شاى. نحن لم نتقابل من سنوات... باى. فى الطريق إلى مبنى البورصة، بدا حمدى ساهمًا ومرهقًا. قال: لم أنم ولا دقيقة أمس. قعدت أدعو الله أن ينجينى من هذه الكارثة.. وأنا حاسس كدة إن ربنا سيستجيب لى بإذن الله. يشبه مبنى البورصة من الخارج معبدًا رومانيًا. تنهض أعمدته عالية إلى

جانبى واجهة، عليها كلمة البورصة بأحرف غليظة من النحاس المصبوب وبثلاث لغات تبرق أحرفها بلمعة الذهب. تطاولها أقواس من الحديد المشغول صانعة بكية مزخرفة. وثمة بوابة عالية تذكرك ببوابات القصور التاريخية. تطلع إليها عدة سلالم دائرية من الرخام إلى البوابة يقف بعض أشخاص فى زى موحد تتدلى من خواصرهم أجرية السلاح. وحول الصرح الهائل تناثر غيرهم فى لبس مدنى، لا يكفون عن الحركة، وقد علقوا تحت آباطهم أسلحة رشاشة. بينما أحيطت هذه القلعة الحصينة بأعمدة قصيرة مدقوقة. تصل بينها سلاسل، صانعة حدودا صارمة. بعد البوابة الفارهة، اجتزنا بابًا أصغر من الخشب السميك المصفح برقائق النحاس. يقوم على فتحه للداخلين اثنان فى زى أقرب لزى سفرجية المطاعم الكبرى.

سلمنا الباب إلى ممر مكشوف، ومنه إلى باب مروحى من الزجاج يتلقف الداخلين فرادى ويفرغهم فرادى فى دهليز خفيف الإضاءة مبطن بالموكيت الأخضر، كان حمدى يتقدمنى كشخص اعتاد التردد على المكان. لم يكن الدهليز المعتم ذو البساط الأحمر ينبئ عن كل هذه الإضاءة التى انفجرت خلف باب قصير متأرجح يفتح إلى الجهتين، على ساحة يزدان سقفها العالى بقباب زجاجية ملونة تكتظ بالضوء. كأنما نحن فى صحن مسجد أو كنيسة عتيقة تمتلئ بالمصلين والضجيج بعد انتهاء الصلاة صخب وزحام لا يناسبان وقدر الهدوء الذى يلف البناء من الخارج كل شىء هنا يتحرك وكل حركة عجولة، ولا أحد يشعر بأحد. لحظة يلج الداخل هذه الصالة، يفقد الشعور بجسمه، لكثرة ما يلتصق به من بشر. ما إن تسرى فيهم كنبضة الكهربا ء حتى يهرعون، ويشقون طريقهم بالأكتاف فى كل اتجاه. الحركات عصبية، والملامح مشدودة إلى بناء مكعب عال. مكعب أسود قاتم فى مركز الساحة،

يستقر على قاعدة عريضة كقاعدة تمثال. تتحاشد حوله الجموع، وجوههم مقلوبة لأعلى صوب شاشات ثابتة من النيون. تعلوها وتسفلها شرائط دوارة من النيون الملون. تتقلب فيها الأرقام والعلامات فى سرعة مذهلة. تتوقف لثوان، وتعود لتمتلئ بأسهم زرقاء وحمراء ومثلثات، تومض لثوان ثم تختفى جميعًا ليحل محلها خط متقطع يغير مساره فجأة بطريقة تفهم مغزاها العيون المنصوبة لأعلى. وفى كل لحظة لا يكف الواقفون عن الزحزحة. والحركة المتوترة فى محاولة للحاق بشريط الضوء الدوار. كان النصب الرخامى الأسود فى المركز، يشبه قرصًا عملاقًا من الجبن الرومى، نزلت عليه السكين مرتين بطريقة عشوائية. فبقيت له استدارة أسطحه واستواؤها فى آن، تلمع على سوادها نقط من البياض. وحول هذا الصرح كانت أيدى المريدين تحاول لمس القاعدة الكبيرة، بينما أبصارهم معلقة بعلامات وأرقام عالية لا تطال إلا بالعيون التى يزداد الشريط النيونى الدوار توهجا لها، وتتكاثف عليه الأرقام وتتوالى.

وبين كل دفعة ودفعة من الأرقام يومض الشريط، بومضات قوية متتابعة من ضوء أحمر. ما إن تهدأ حتى تعلو أصوات وتلوح أيدى فوق الرءوس. حتى إن العين لا تبصر فى الفراغ سوى فضاء من الأيدى المتضرعة، والأصابع المستغيثة، والأصوات الضالة تتصادم فى الهواء المكيف. ثم.. لحظات، ويهدأ كل شىء وتتهد الصدور لدى تتابع نقاط خطوط، تظل تتخابط وتطلع وتنزل بسرعة. قبل أن تنتظم فى هيئة موجات عشوائية مكسرة، كتلك التى تظهر على المونيتور فى غرف العناية المركزة. علامة على انهيار كيان كان حيا يتنفس قبل حين. فوق الرءوس، كانت تتقاطع أسلاك وكابلات سوداء سميكة. وتتفرع فى اتجاهات شتى. يطير بعضها عابرا الحاجز الزجاجى. وهو حاجز بطول الصالة يصطف خلفه عدد من الموظفين، وقد ولوا وجوههم شطر لوحات صغيرة أمامهم.

وهم رجال قصار ونحاف بصورة زائدة. وآخرون مفرطون فى السمنة. جميعهم فى زى متشابه. برابطات عنق متدلية وبدون جواكت. مشمرو الأكمام، يبدو بعضهم كرياضيين سابقين، لهم أذرع مفتولة وصلعة لامعة. يظهر بعضهم وهو يتبادل الحديث والتسمع عبر ثلاثة تليفونات فى ذات الوقت مستخدما يديه وكتفه. وكلما لمح شيئًا ما على لوحة أمامه، انتفض واقفا ملوحا بنوتة لفتا لأنظار زملائه البعيدين. تاركًا سماعة تليفونه مدلاة إلى جوار الكرسى. أما زملاؤه البعيدون فترتعش رابطات أعناقهم فوق كروشهم المتهدلة، وقد أصابتهم المفاجأة لرؤية كفه وقد ارتفعت فوق الحاجز إلى أبعد مدى. انثنت منها أصابع وانبسطت أخرى أو انقبضت فى إشارات متفق عليها. وتتبدى آثار ذلك التخاطب الشفرى على وجوه الجميع فى التو. ومن غير أن يخفض الواحد منهم بصره من فوق الحاجز.

يرفع سماعة تليفونه متسمعًا للحظة ويدعه إلى تليفون آخر، وقد احتفظ بالأول معلقا بواسطة كتفه. ويعيد ترجمة ما سمع مثبتا إشارة أصابعه على وضع معين فى الهواء. برؤيتها تسرى نبضة فى الصالة الواسعة. ويهرع زملاؤه إلى شق الزحام من كل اتجاه. صوب قبلة واحدة فى قلب الصالة. حيث الصرح الرخامى الأسود المنقط بالبياض. ثم تعم فوضى ثقيلة خانقة. فلا تعرف من يخاطب من! أو غاية ذلك الجهد الذى يبذله الواقفون فى التقاط العلامات الصوتية وشفرة الأصابع. أو أزيز الأجهزة أو حتى حركات الشفاه البعيدة. والتى تخص جميعًا أسهمه وسنداته. رغبت فى أن أقول لحمدى.. والله رافقت مرضى كثيرين، ونساء على وشك الولادة وشاهدت عنابر وغرف عمليات دمار زلازل وحرائق. وشفت أقصى علامات الفزع على الوجوه. وما تخيلت أن هناك فزعا أعظم من فزع من ينقذون الحياة من براثن الموت. اليوم يا حمدى رأيت هذا الأعظم.. فزع

من ينقذون الموت من براثن الحياة.. وبدلاً من هذا قلت له تيجى نمر فى عودتنا على منى والعيال؟ إيه رأيك؟ بدا أنه لم يسمعنى جيدًا. وأجابنى بأن أعاد ما قاله لى فى الصباح: والله أنا ظللت طول الليل أصلى وأدعو بقلب خاشع إن ربنا يستر. ألن نقابل صديقك هنا؟ هل تعرف مكانه؟ بعد محاولات للاهتداء إلى موضع الصديق، أشارت فتاة لنا بغير كلام إلى أعلى اليمين. إلى كوريدور معلق لصق الحائط. يروح ويجىء عليه بعضهم بين أبواب زجاجية، يدفعونها بالأيدى فتغلق وحدها. وبالطبع شققنا الطريق بصعوبة. كان ثمة صروح أصغر من الصرح الرخامى الأسود، متناثرة هنا وهناك. حول كل صرح حشد من الملهوفين، يتلقفون شرائط من الورق المخرم الملىء بالأرقام تقذف به هذه الصروح من جوانبها. لم تكن التماوجات على شاشاتها الصغيرة أيضًا تكف عن الارتعاش الذى ما إن ينتهى حتى تصطبغ بألوان فوسفورية حمراء وصفراء، قبل أن تتفجر الأرقام والعلامات المسجلة عليها إلى شظايا تظل تتضاءل وتتضاءل فى العمق حتى تتلاشى. كأنما يتم تدميرها فى واحدة من ألعاب الأتارى.

بدا الموظفون أكثر توافقًا وألفة مع ما يحدث كانوا يسيرون وعلى وجوههم أقصى علامات الجدية ممسكين بأوراق كثيرة وأقلام. قمصانهم خرجت من البناطيل، وتدلت شمرة أكمامهم، بينما تخلصوا من تطاير رابطات العنق بطرحها خلف ظهورهم. هناك فى الأعلى استقبلنا أحدهم ولما عرف بوجهتنا طلب منا الانتظار قليلاً. فى الكوريدور كنا أنا وحمدى كالواقفين فى ممشى سفينة. نمسك بالدرابزين ونشرف من هذا العلو على أذرع وأكف تضرب الهواء. وتلوح بما ظهر منها فوق السطح. وبينما رءوس تتحرك عشوائيا حسبما يدفعها الزحام. حيانا الصديق بحرارة، وأشار لنا إلى غرفة معزولة هادئة تطل على الشارع قائلاً بحميمية مسمعًا إحدى الآنسات: تعالوا نشرب شاى هنا.

جاءت الفتاة بثلاثة أكواب من الشاى الأخضر. تولى هو وضع الأوراق فى الماء المغلى. لم أكن أستطعم هذا النوع من الشاى. ولكننى خجلت أن أقول ذلك. دفعت فتاة أخرى الباب مستأذنة وناولته شريطًا من الورق وضعه أمامه. كان ثمة فتيات أخريات تتنقلن بين الغرف حاملات ملفات أو ديسكات. كن جميعًا على نحو واحد.. كثيفات العطر، ممشوقات وذوات ملامح جميلة وجادة. ترتدين زيا موحدا. تايير أزرق فوقه بلوزة بيضاء، وتعقدن منديلا ورديا حول العنق. كن يشبهن مضيفات الطائرات إنما بدون غطاء رأس. كان جاكت التايير قصيرا محكم الإحاطة بالخصر، وبصفى زراير إلى الجانبين يبرزان طلعة النهدين. أما الجوب فضيق قليلاً فى حشمة. خال من أية إكسسوارات تلفت النظر. وبالطبع كانت الأحذية ذات كعب عال يشبه المسمار ولهن أظافر طويلة مطلية باللون الأحمر القاتم. يتحدثن بنبرة خفيضة طول الوقت. بدون تدلل أو مجرد إيماءة تدل إلى أنوثتهن الوقورة. أناقة وجمال وثقة بالنفس لا تكون إلا لسكرتيرات الشركات الكبيرة، اللائى يتحدثن بلغات شتى. ويمكنهن حل مشكلة لأجل صفقة بالملايين. أو إنفاذ عقد كبير معطل. أعاد صديقى حديث تليفون الأمس على حمدى مضيفا.

كما ترى، أنا هنا أعمل فى غرفة العمليات. ومثل هذا الكلام ممنوع هنا. ولولا الصداقة ما كنت ذكرته. قبل سنوات كانت هناك صديقة لزوجتى. سيدة أعمال معروفة. اشترت بكل ما تملك أسهما فى إحدى شركات المقاولات. وكان أن انهارت السوق ومعه أسهمها. نصحتها بالتريث فى البيع إلى أن أجد لها مخرجا. لم تثق بكلامى وباعت. استأذنت سكرتيرة يسبقها عطرها. تلت على صديقى تقريرا سريعا بالإنجليزية من سطرين، فسجل ما سمع فى دفتر أمامه وواصل الحديث. هه.. باعت وبعد أسابيع قليلة حدث زلزال مصر

الشهير فى خريف١٩٩٢ وقفزت أسهمها بصورة غير مسبوقة، وكلاكما يعرف ما حدث، فقد تناولته كل الصحف وقتها. قامت السيدة بقتل زوجها وأولادها الثلاثة.. وانتحرت فى النهاية. فاكرين حضراتكم الحادثة دى.. على المساهم هنا أن يعرف متى يتريَّث ومتى يثب وكيف يثب.. هه! أومأت له بالإيجاب. تملؤنى الدهشة لغرابة عالم أطلع عليه لأول مرة. وبينما ظل حمدى منصتًا له باهتمام. انصرفت بعينى إلى النافذة. أستعجل الوقت كى أخرج إلى فضاء الشارع، وزحامه الذى يزخر بالصخب من كل نوع: دوشة شوارع القاهرة المحببة، وبشرها الكثيرون الوادعون فى الخريف.

ليلة زفاف السيد أحمد

رفقى بدوى(*)

حين تحرش به فى المرة الأولى، ابتسم له وأحنى رأسه، وتأسف متحاشيًا الصدام، فهو يعلم انه بيّت النية على خناقه بأى شكل من الأشكال لذلك، كلما حاول أن يصطدم به، ابتسم له وأحنى رأسه وتأسف. كان رأس السيد أحمد دائمًا محنيًا وفمه لا تشاهده مفتوحًا إلا لتقديم الأسف والاعتذار.

البعض وصفه بالتهذيب، والبعض الآخر وصفه بالجبن، إلا أن سلماوى ومن على شاكلته، قد نعته بالجبن لأنه دائمًا ما يحنى رأسه لسلماوى، ويفتح فمه عن آخره ما بجوفه من حروف تشكل آسف. كل المحيطين بالسيد أحمد والمحيطين بسلماوى يعلمون علم اليقين أن هناك شيئًا ما، خبىء بينهما، سر من الأسرار الذى لا يقدر أحدهما أن يفصح عنه، وهذا السر تظهر تجلياته فى تحرش سلماوى المستمر بالسيد أحمد وأسف السيد أحمد الدائم لسلماوى. عندما جاء موعد زفاف السيد أحمد دعا كل الأصدقاء والمعارف، وتكرم بدعوة أصدقاء سلماوى، بل ذهب، ودعا سلماوى بنفسه، ولما اجتمع الشمل وامتد السرادق بالمدعوين، دخل السيد أحمد قابل المأذون، وعاد متأبطًا عروسه، وجلسا، ثم قام السيد أحمد ورفع الطرحة عن وجهها، اندهش كل المدعوين حين عرفوها، واندفع سلماوى بكل غضبه ناحية الكوشة وبيده

(*) رفقى بدوى: من مواليد ١٩٥٠، من مجموعاته القصصية: (هرمونيا الحزن والعبقرية) ١٩٧٧، (هذا ما حدث أولاً) ١٩٨٣، (البحث عن حقيقة ما يقال) ١٩٨٣، (صباح الحب الجميل)، (القابض على الجمر)، ١٩٩٨، (بياع الحلوين) ٢٠٠٦.

مدية ، إلا أن أمه قد خلعت فردة حذائها بسرعة وضربته على وجهه، ثم جلست مرة أخرى بجوار عريسها ، فى الوقت الذى لم يحن فيه السيد أحمد رأسه، ولم يتأسف، كان سلماوى قد فر مسرعًا واختلى بنفسه خارج السرادق واضعًا كفيه على وجهه وراح يبكى بحرقة.

زكى سالم[*]

ما أجمل العودة إلى البيت، ففى هذه الشرفة عشت أسعد أوقات حياتى. حين كنا نجتمع جميعًا، أنا وأبى وأمى وإخوتى. كل منا يحكى عما حدث له خلال يومه، وكل منا يشعر بالآخر ويحبه. نتسامر ونضحك حتى ونحن نتناول الطعام.

والآن ها هى أمى تعيش وحيدة. بعدما رحل أبى، وتفرقنا جميعًا من أجل لقمة العيش. وكلما عدت فى إجازة، أسرع مشتاقًا إلى أمى، وإلى هذا البيت الحبيب. أجلس لساعات طويلة فى هذه الشرفة الجميلة. أسترجع الذكريات، وأتأمل فى هذه الحياة الدنيا.

واليوم وأنا أشرب الشاى بالشرفة، رأيت رجلاً ومعه صبى يتحاوران أمام محل عم محمد الجزار. إننى أعرف هذا الرجل جيدًا، إنه الأستاذ "سعيد منصور" مدرس الرسم. هذا رجل لا يمكن أبدًا أن أنساه. تركت الشاى، ونزلت لأسلم عليه. أسرع إليه، وأنا أسترجع كلماته التى تفتح وعيى عليها. فهو أول من حدثنا عن أهمية الكتب، والموسيقى، واللوحات الفنية، وهو أول من كلمنا عن دور الثقافة فى نهضة الشعوب وتحررها. هو من علمنا معنى

---

[*] زكى سالم، من مجموعاته القصصية: (عين العقل) دار الثقافة الجديدة ١٩٩٦، (عقد الفل) دار الثقافة الجديدة ٢٠٠٠، (تقاسيم على أشجان قديمة)، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨.

الديمقراطية الحقيقية، ونبهنا لدور الديكتاتوريات العسكرية، والقبلية، فى تخلف منطقتنا العربية.

وعندما كنت أتذكره طوال هذه السنوات الماضية، كنت أتصوره وقد أصبح فنانًا مشهورًا يحادث الناس عبر وسائل الإعلام، ويشرح لهم العلاقة بين الفن والحرية. بينما معارضه ولوحاته الفنية تدور حول الكرة الأرضية.

وصلت إليه داخل محل الجزارة. سلمت عليه بشوق حقيقى، ولكنه بالكاد تذكرنى، وارتبك بشدة وأنا أقول لعم محمد هذا أستاذى.

إنه ما زال يعمل فى مدرستى! سألته بسذاجة إن كان أقام معارض فنية؟ فقلب يديه وعلى وجهه ابتسامه حزينة! كنت أتمنى أن أحادثه عن أشياء كثيرة. فدعوته مع ابنه لزيارتى لكنه اعتذر، إذ كان يبدو عليه الارتباك الشديد، والقلق العميق. أهذا حقًا أستاذى الفنان الذى كان يعلمنا؟!

وجدت عم محمد يزن نصف كيلو مليئًا بالدهون، فمددت يدى – بلا وعى – أزيحه، وسألته إن كان أعد لى اللحم الذى طلبته؟ قال : نعم. فأخذته، وأعطيته للصبى وأنا أقبله، وقلت لأستاذى إننى أسكن هنا، وفى انتظار أن يشرفنى.

تمنع الرجل بصدق، وأنا أقول له إن النبى قبل الهدية. لكن تشبث ابنه باللحم أنهى المجادلة. وأنا أشد على يده رأيت علامات الفرح والسعادة على وجه الصبى، بينما الدموع متحجرة فى عينى أستاذى!

أمى.. حين غنت

زين عبد الهادى

كان يخيل لى أن أمى حين تغنى، تغنى لمتخيلين يعيشون فوق كوكب الزهرة، أو أقرب إلينا قليلاً، على القمر مثلاً أو لبشر يعيشون هناك بين نقطتين مضيئتين فى قلب السماء، ولم أكن أظن أن أحدًا يمكنه أن يسمعها.

كانت تبدأ فى الغناء أثناء إعدادها للطعام فى انتظار قدوم إخوتى من المدرسة وكنت أصغرهم، وكنت مستمعها الوحيد، أما فكرة وجود مستمعين آخرين على كوكب الزهرة أو القمر مثلاً، فذلك لأننى كنت أعتقد اعتقادًا جازمًا لم تستطع أن تفتته الأيام بأن أناسًا أجمل منا بكثير يعيشون هناك، وأنهم أصحاب الحق الوحيد – بعدى - فى سماع أغانى أمى، وأنه لا أحد على الأرض يمكنه إدراك قيمة غناء أمى، على الأقل فى الشارع الذى نقطنه.

بعد انتهائها من أعمالها المنزلية تقوم بإعداد المائدة وتغيير ملابسها، وتضع زهرة بيضاء فى شعرها الأسود الفاحم – عادة من أحد أعواد الفل المتراص فى أصص على شرفة منزلنا، وأحيانًا لم أكن أدرى من أين تأتى بها، ربما من معجب من المعجبين الذين أتخيلهم يسكنون بعيدًا هناك خلف السحب والنجوم، ثم تتوقف عن الغناء يومًا، وحين تنتهى من غنائها أنصت لتلك الخبطات المكتومة التى كنت أسمعها آتية من الحوائط، وكانت هى تبتسم فكنت أبتسم بدورى، إنهم إذن المعجبين السريين الذين لا أراهم مطلقًا، ثم نجلس إلى المائدة ويدخل إخوتى وأبى ونجلس لنتاول طعامها الذى كنت أرى نغمات صوتها العذب تسير على سطحه ذى الأبخرة التى كانت تتشكل أمامى مكونة تلك الحدائق الضبابية السحرية.

كنت أظن أن تلك الخبطات هى تصفيق هؤلاء الذين يعيشون هناك على كوكب الزهرة أو القمر أو بين النقطتين المضيئتين البعيدتين، وحين يأتى المساء أهرب إلى أحضانها حيث تغنى لى فى صوت هامس لا يسمعه أحد سواى فى تلك اللحظة، قالت لى إنها غنت لى كثيرًا حين كنت فى بطنها، أسكن فى تلك الكومة من الوسائد الحريرية، وحين أرفض لسبب أو لآخر مستعجلاً غناءها، كانت تقدم لى صوتها عن طيب خاطر.

حين ماتت أمى وكنت كبيرًا، وأيقنت أننى عشت طويلا على الخزعبلات والأوهام التى ترهلت فى عقلى، وتأكدت أنا أن أحدا لم يفتقد غنائها سواى، كان قد مر على وفاتها عدة أيام قليلة، وكنت فى المساء وحيدا فى المنزل، دق جرس الباب، وكان الظلام مسيطرا، حتى أنه ابتلع كل الظلال التى كان الضوء يتركها هناك على الدرج، وحين فتحت الباب لم أستطع التحقق من ملامح القادم الذى سألنى

- انت ابن الست اللى كانت بتغنى؟

- أيوة.. مين حضرتك؟

- مش مهم.. أنا حبيت بس أقول لك اننا هناك فى كوكب الزهرة وحشنا غناءها جدًّا.. البقية فى حياتك!!

مقهورة

زينب صادق(*)

بكت أمى يوم ولادتى. دموعها نزلت على وجهى لسعتنى، قالت أمى إننى نظرت إليها وانفرجت شفتاى عن ابتسامة وتعجبت من ابتسامة طفلة يوم مولدها! وكانت تحكى عن هذه المعجزة لكل من يأتى لتهنئتها على البنت ثم يصدم. قالت أمى إننى كنت طفلة غير مزعجة، قليلة البكاء، كثيرة الابتسام، نادرة الأمراض، وتلك المميزات جعلت إخوتى الثلاثة الكبار يحبوننى ويلاعبوننى. كانت أمى حريصة على أن ألعب بلعب البنات ولا ألعب بلعب الصبيان أو ألعب معهم. كانت تخاف أن أقلدهم فى خشونتهم. كانت حريصة أن تجعل منى أنثى فى تصرفاتى وحديثى وعلمتنى طهى الطعام وأنا فى التاسعة من عمرى. فى ذلك الزمان كان معروفًا أن البنت الجميلة هى التى تتزوَّج، أما الخالية من الجمال فكانت تحاكى الشبان فى تصرفاتهم وحياتهم وتهتم بالمذاكرة لتصل إلى أعلى درجات العلم وتعمل ونادرًا ما تتزوج! فألحقتنى بالدراسة فى مدرسة لبنات الأسر الراقية فى ذلك الزمان. يتعلمن بجانب العلوم والآداب الأعمال المنزلية والطهى والحياكة. وكانت الدراسة بمصاريف مرتفعة حسب اقتصاد ذلك الزمان. وكانت أمى تخاف من سخرية البنات منى، والحقيقة أنا لم أجد أننى لست جميلة، وكانت ابتسامتى تضىء وجهى، وتحبب البنات فى، وكذلك مرحى وخفة دمى. كانت أمى لا تعترف بجمال البنت إلا فى وجهها. ربما لم

(*) زينب صادق: نشرت قصتها الأولى "لست خائنة" بمجلة (حواء الجديدة) العدد ٣٩، بتاريخ ١٩٥٧/٦/٢٢. وهذه القصة تنتمى إلى تاريخ لاحق.

تلاحظ أن الله وهبنى الجمال فى بدنى. هذا الجمال لاحظته زميلاتى فى الدراسة، والشبان فى الطريق ولولا خوف شبان الحى الذى نسكنه من إخوتى الكبار لكانوا غازلونى علنًا.. لقد تجرأ أحدهم يومًا ووضع فى يدى ورقة بها أبيات من الشعر يتغزَّل فى، كنا وقتها أثناء الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦. وكنت ممتلئة بالحماس للدفاع عن بلدى وانضممت لمسيرة من بنات وأبناء مدارس الحى لنعرض استعدادنا للدفاع عن أرض الوطن، أثناء مسيرتنا وجدت ورقة شعر الغزل فى يدى. لم يبتعد العاشق الولهان عن جو الحرب فكتب ضمن غزله." وخصرها صاروخ.. يعلوه مدفعان.." يومها تشاجرت مع أمى لأنى سرت فى مظاهرة مثل الشبان.. وزاد خوفها ألا أتزوج وقد وصلت إلى عمر السادسة عشرة، استمعت إلى نصائح النساء من القريبات وأخذتنى إلى حى شعبى فى بيت قديم لتعرضنى على شيخة معروفة ببركاتها فى تزويج البنات، هكذا فهمت وأنا جالسة فى ذلك الجو الكئيب. قالت الشيخة بعد أن نظرت إلىَّ إنه يلزمنى "عمل" يجعل الشبان يتنافسون على الزواج منى.. وذلك العمل سيكلف بعض المال وبعض الوقت.. لأنها ستصنعه من العضو التناسلى لكلبة فى فترة طلب العشار. ظنت أمى أننى لم أفهم مع أنها وضعتنى فى مجال دراسى وبنات يفهمن فى أمور الحب والجنس أكثر من الذى فى كتب الدراسة! ربما لأول مرة أغضب من أمى وبكيت عندما عدنا إلى البيت وسألتها: هل أنا فى نظرك كلبة تريدين من الكلاب أن يحوموا حولى لأختار كلبًا أتزوجه..؟؟

شهقت أمى من المفاجأة وصفعتنى لأول مرة فى حياتى، وحذرتنى أن أحكى عن هذه الزيارة أو هذا الـ"عمل" لأى أحد.. ثم صالحتنى وأقنعتنى أن أضع ذلك الشىء لأجل خاطرها. وبكت من خوفها ألا أتزوج وأصبح عانس كبيرة يهرب منى الرجال لقبحى.. وتهرب النساء تشاؤمًا منى، ولا أجد سندًا لى

فى الحياة بعدها.. كنت واثقة من نفسى فلم تخفنى تحذيراتها.. ولم يكن ذلك الشىء سببًا فى زواجى.. أقنعت أمى أننى أعلقه فى ملابسى الداخلية وكنت أضعه فى درج دولابى. لقد كنت فى العمر الذى يلتفت فيه الشبان للشابات طلبًا للزواج، وتقدم لى أكثر من شاب من عائلتنا ومن الجيران ومن أصدقاء إخوتى.. وكانت سعادة أمى أننى أنا التى كنت أتدلل وأرفض وأنتقى، كنت فاهمة نفسى، ماذا أريد ومن أريد، كان بدنى الفائر بالأنوثة هو الذى يوجهنى، هو الذى كان يجذب الشباب لطلبى للزواج، وليس كما ظنت أمى أن إقبالهم علىَّ من "سحر عضو الكلبة" واخترت زوجى بصيحة شعرت بها من بدنى، وفهمت فيما بعد أنه مولود تحت برج من أكثر الأبراج الفلكية حبًّا للجنس.

فى ذلك الوقت كان عمرى سبعة عشر عامًا، وفى السنة النهائية من مدرسة البنات وقالت حكومة الثورة إنه من الممكن أن نعمل معادلة بسيطة ونلتحق بالجامعة، وكان غير مسموح بالدراسة الجامعية من تلك المدرسة، قلت رغبتى فى الالتحاق بالجامعة، واعترض خطيبى، وكان مرشحًا لبعثة دراسية فى الخارج، وكان لا بد أن أسافر معه، وافقت بصيحة من بدنى.. وفرحت لفكرة السفر للخارج، من التى كانت تحلم فى ذلك الوقت بالسفر إلى الخارج..؟ كان حلمًا مستحيلاً. .أتممت دراستى المعادلة للشهادة الثانوية العامة وتزوجنا.. سافرنا إلى الإسكندرية وقضينا شهر عسل جميلاً جدًّا فى شقة أسرته هناك. بعد ذلك عشنا معهم إلى أن أتى موعد سفرنا. على الرغم من أن لديه شقيقتين وشقيقين إلا أنه كان الآمر الناهى فى البيت. طلب من أمه أن تعلمنى طهى الطعام الذى يفضله وتدربنى على العادات التى يحبها وتحفظنى مطالبه. فى بيت أسرته كنت أعمل بمساعدة الأختين والأم. أما فى الخارج فكنت أقوم بالعمل المنزلى وحدى. كنت خادمة طوال اليوم فى البيت ليعيش

كما كان فى بلدنا تمامًا. وخادمة فى الفراش فى الليل. كان خروجنا من المنزل نادرًا.. للنزهة أو الفرجة على البلد. عندما حملت بابنتى الأولى هناك، أصر على أن أضع فى بلدنا خوفًا أن يكون المولود ذكرًا وتكتب شهادة ميلاده هناك، ويطلب فى جيشهم عندما يكبر، خاف أن يحارب وطنه مع أبناء ذلك الوطن، كنا فى وقت اضطرابات سياسية، بعد ولادة البنت عدت إليه، وقرر أن يأخذ حذره حتى لا أحمل مرة أخرى ونحن فى الخارج لنوفر مصاريفنا. همست لأمى بشكواى، فخبطت على صدرها وقالت: أتشكين من شىء تتمناه كل النساء؟ وأنت هل كنت تحلمين برجل يطلبك كل ليلة..؟ حذرتنى من الشكوى ومن التذمر أو التمرد ومن التفكير، مجرد التفكير فى ترك الزوج!

لم أكره ما شكوت منه لأمى، لكنى كنت أكره أنه أصبح شيئًا فشيئًا روتينيًا مثل الأشياء الروتينية التى يجب أن نقوم بها كل يوم، مثل تناول الطعام والدخول إلى الحمام. أحيانًا أكون متعبة أو.. غير راغبة لكنه كان يخضعنى لرغبته، والغريب أننى فى أوقات الامتناع الشهرى أو أثناء شهور الحمل الخطرة كنت أشتاق له.. أليس بدنى هو الذى اختاره..؟ فى أول زواجى كان خضوعى للزوج إجباريًا، كنت صغيرة، ومع مرور السنين وجدت أن خضوعى له اختيارى. وجدت أننى مقهورة باختيارى! ربما بدون أن أدرى علمت بناتى الثلاث عدم الخضوع ومقاومة القهر.. أى قهر يقع عليهن.. أخذن منى جمال البدن وأخذن من أبيهن جمال الوجه وتدربن على الذكاء بالقراءة والعلم، واخترن أزواجهن بتفكير عقولهن، ونبضات قلوبهن لم يخترن بصيحات من أجسادهن.. فهل علمتهن هذا أيضًا دون أن أدرى..؟؟ عندما حدثنى زوجى عن هذه الحبوب الجديدة المنشطة للرجال، قلت له إننا كبرنا الآن ولسنا فى حاجة إلى نشاط الشباب وقد استمتعنا بحياتنا.

سألنى بجديَّة يعنى أنى لست متضايقة لأنه يطلبنى كل أسبوعين أو كل شهر؟!!! كدت أبكى.. وكدت أضحك. وكدت أقول له حقيقة مشاعرى منذ السنة الثانية لزواجنا.. ولكننى ابتسمت وربَّتُّ على ظهره وقلت له إنه أحسن الرجال.

أبيض.. وأسود!

سامى فريد(*)

كانت تكشف شعرها وقد أدهشنى هذا كثيرًا. عند مدخل الصيوان وقفت تنظر نحوى. نظرت إليها وراودنى شك فى أنها ربما لا تكون هى... كنت أجلس إلى اليمين من الشيخ محمد الفيومى على بعد مقعدين من القانونجى محمد عطية. نظر الشيخ الفيومى إلى محمد عطية بمودة شديدة وهو يتابع أصابعه التى تجرى على أوتار القانون. صاح واحد من الجمهور أعد يا شيخ ورد الفيومى: حاضر. ربت فوق كتف محمد عطية ثم رفع كفه إلى أذنه وراح يغنى والناس فى نشوة: علمتنى قولة الآه لاجل اقلها لك.. قمت واقفا فالتفت الشيخ نحوى. أشرت بوجهى ناحية مدخل الصيوان. فهم الفيومى الإشارة وهز رأسه فتركت مكانى خارجًا أبحث عنها. لم أجدها. فكرت فى العودة لكننى كنت قد سئمت الموضوع كله فانصرفت أخوض فى الحوارى المظلمة وقد طارت وحطت ودارت من حول رأسى أفكار كخفافيش الظلام.

فى الليل زارتنى. جاءت من سقف الغرفة من زاويتها اليسرى نازلة على شريط من نور شديد السطوع، رفعت كفى فوق عينى أحجب النور حتى أراها. مدت نحوى ذراعها فمددت نحوها ذراعى والتقت كفى بكفها. سرت خلفها حتى خرجنا إلى الفضاء الواسع. صامتة كانت وهكذا صمتُّ أنا أيضًا. لم أشأ أن أسألها عن أبى. كنت منشغلاً بمتابعة المشاهد التى أراها حولى. لم تكن

(*) سامى فريد، من مجموعاته القصصية: (رائحة البحر)، مختارات فصول، ١٩٨٧.

سماء الليل مظلمة كما تصوَّرتها. أمام الباب الكبير فقدتها. بحثت عنها وسط الحشود الكثيفة من الناس لكننى لم أجدها. أصابنى رعب حقيقى فصرخت: أمى! رن الصوت وتردد صداه كبيرًا واسعًا لكن مخلوقا لم يلتفت! ..... رفع الجميع رءوسهم نحوى عندما دخلت. نظرت إلى ساعتى. كانت تشير إلى الحادية عشرة. غمز لى بعينه نحو باب الإدارة قائلا: ادخل. أضاف بابتسامة يسيل منها الخبث: الريس يسأل عنك. لم أجلس إلى مكتبى. طوحت نظارتى الشمسية فوق الأوراق ومضيت إلى هناك. فى طريقى إليه مررت بمكتبها. مددت يدى أمسكت ذقنها بين الابهام والسبابة ضاغطا بشدة وأنا أقول بصوت خرج كالفحيح: ستأتين الليلة. مفهوم؟ ستأتين! قالت وهى تحاول تخليص وجهها: سأصرخ! تركتها ومضيت داخلاً. قلت إننى أرى أمى كثيرًا هذه الأيام فى نومى وتساءلت هل يعنى هذا أننى سأموت؟! قال وهو يرج النرد فى كفه قبل أن يلقيه: يا سيدى.. كلنا سنموت. عدل وضع خرطوم الشيشة بين ساقيه ساحبا نفسا عميقا من مبسمها أطلقه من فمه وفتحتى أنفه وهو يسعل. غمز بعينه مشيرا إلى امرأة كانت تقف على الطوار المقابل ثم سألنى مبتسما فى خبث: ما رأيك؟ كانت المرأة تكشف شعرها. تأكدت هذه المرة أنها هى. أغلقت صندوق الطاولة بعنف وأسرعت أعبر الشارع اليها محاذرا من السيارات المارقة. لم تكن على الطوار ولا فى أى مكان قريب. أشار لى صاحبى أن أعود فلوحت بذراعى فى الهواء فى زهق عائدا إلى بيتى أغوص فى زحام الشوارع والأضواء والبشر.. فى الليل عادت. نزلت على شريط النور. ابتسمت وهى تمد نحوى يدها. أخفيت يدى خلف ظهرى.

بانت الدهشة فى عينيها واتسعت وتحولت سؤالا. قلت معاتبًا: لأنك تركتنى أمام الباب وحيدًا وغريبًا فى زحام بشر لا أعرفهم. قالت: تذكر جيدًا. أنا لم أتركك. أنت الذى تركتنى ولم تأت خلفى لهذا جئت إليك الليلة فهيا ولا

تضيع الوقت. أضافت بلهفة: الليلة سيفتحون الباب. اقتربت خطوة فتراجعت فى فراشى حتى التصقت بالحائط. نظرت إلى أعلى ونظرت خلفها ثم انطفأ شريط النور ولم تعد بعد ذلك. توقعت أن أراها واقفة على الطوار المواجه للمقهى وتمنيت ذلك لكنها أيضًا لم تأت. سحبت مقعدًا لأجلس وفى فراغ رأسى كان صوت الشيخ الفيومى يدور مغنيًا: لك يا زمان العجب فى كل أحوالك آشار صاحبى إلى عامل المقهى بطلب الطاولة والشيشة وفنجانين من القهوة المضبوطة. من راديو المقهى كانت أسمهان ما زالت تصر على أن فيينا روضة من الجنة. سألنى صاحبى وهو يفتح الطاولة ولم تعد منذ ذلك اليوم؟ قلت فى فتور: لم تعد ونظرت يائسا إلى الطوار المقابل. قال وهو يومئ برأسه بعيدًا حتى تلك المرأة التى كانت تشير إليك من الطوار المقابل لم تعد تأتى هى أيضا!! كنت أفتقدها بشدة ورحت أمنى نفسى بعودتها فى أى لحظة.. فاجأنى سؤاله وهو يرتب قشاط الطاولة أبيض أم أسود قلت دون تفكير أى شىء.. أى شىء!

بيت العانس

سحر توفيق(*)

ما الذى أقحم وجهك فى حلمى هذه الليلة؟

منذ زمن بعيد لا رأيتك ولاحلمت بك، فما الذى أتى بك إلى حلمى هذه الليلة؟

قد تخرج أحيانًا مبكرًا لتستمتع بالصباح، والهواء النقى برائحة القدى، والترعة تستحم بها الجياد، الصبيان يتقافزون حولها، يغسلونها، ويلعبون فى المياه فى صباحات الصيف الدافئة، أوراق الأشجار تحمل قطرات الندى لا تزال، تحملها برفق حتى لا تسقط، فإذا ما تغلبتَ عليها، تركتَها تنزلق من بين أطرافها بعد أن تغسل صفحتها.

وعندما تقف عند الجسر ترقب الشروق، تظل عيناك تتبعان الكرة الحمراء الهادئة، الهادرة، حتى تفاجئهما بعد حين ببريق لا تتحملانه، فتنكسران مبتعدتين عنها، وتنزل أنت فى طريق العودة لتنام طيلة النهار الحار.

أما الآن فلا أستطيع أن أرقب الخيل ولا الشمس، فعلىَّ أن آتى بالخبز، وأن أتدثر جيدًا من برد البكور الشتوى.

وعندما تبدو الخيوط الذهبية الكليلة تشق طريقها بصعوبة بين السحب، سوف أكون فى طريقى إلى العمل.

(*) سحر توفيق، من مواليد (١٩٥١)، من مجموعاتها القصصية: (أن تتحدر الشمس) ١٩٨٤، (بيت العانس)، ٢٠٠٦.

والآن ما الذى جاء بهذا الطائر الغريب الصغير يطير قرب الأرض يبحث عن بقايا تركها عمال النظافة هنا وهناك؟ طائر مشقوق الذيل يطير وعيناه فى الأرض حتى يكاد يصطدم بقدمى لولا أنه يحيد فجأة، هل رأت عيناه أخيرًا حركة قدمى؟ أو التقطت أذناه صوتهما فانتبه؟

وأنت أيتها الشجرة الرعناء التى اصطدمت بها عيناى فلم أستطع إنزالهما حتى جاوزتها ومضيت عنها، أنت أيتها الشجرة الرعناء، ما الذى جعلك تزهرين فى طوبة؟ أذرعك خلت من الأوراق وأطرافها امتلأت بالأزهار الحمراء الكبيرة الغريبة.

لماذا لم تصبرى حتى يأتيك الربيع كالأخريات؟

رفقاء صفٍّ واحد، مدرسة واحدة، لكنك دائمًا اعتدت أن تثير المشاكل، مشاجرات دائمة، ورغم ذلك ترحيب دئم بك، لم أستطع أبدًا أن أفهم كيف تقتحم؟

كنت أجلس هناك فى الركن البعيد، الصخب حولى، وأنا أقرأ وأنفرد بعالم آخر، لكن لحظة دخولك تشد الجميع، لحظة دخولك تبدأ الهجوم: "ماذا بك اليوم، هل ضربتك زوجة أبيك؟"

– "بل قابلت وجهك الجميل!"

تشتد الضحكات، ولا تنسى أن تقتحم عزلتى أيضًا: "ألا تزالين من يومها جالسة هناك؟"

وينتهزون الفرصة للنيل منى: "دعها فى حالها، إنها لا تهتم بك"، "اتركها فهى مشغولة بهذا الكتاب الذى لن تنتهى منه قبل عامٍ آخر!!"

لا حَلَّ لى إلا أن أبدى الوقار، أبتسم ابتسامة المنسحب، وأغوص فى كتابى مرة أخرى، لكنى لا أقرأ، أرقبكم من بعيد، أحلم بعالم آخر.

كنا أيضًا نسكن فى بيت واحد، فى الليل أراك تتسلّل من فتحات السور الخلفى للحديقة، أضحك وأنا أرقبك.

- "لا تخبرى أمى أننى أتيت متأخرًا هكذا".
- "أنت ثمل!!".
- "ثمل؟ غير صحيح، فقط أحس بدوار بسيط، شربت ملء كوب كبير دفعةً واحدة".
- "تمزح!".
- "أقسم لك، تراهنت على أن أفعل، وكسبت الرهان!".
- ....
- "اسمعى، لماذا لا تأتين لنتحدث قليلاً هنا فى الحديقة؟".
- "ماذا كنت تفعل فى بيت العانس؟".
- "آه، كانت تفرجنى على ألبوم صورها".

أما أنا فلم أستطع أبدًا أن أقتحم.

وفى الفصول، تدور المناقشة، ويسود المدرسة الهدوء، ومن مكانى فى الفصل، تتعلق عيناى بشجرةٍ وحيدة، أذرعها خلت من الأوراق، ولكنها امتلأت بزهورٍ حمراء كبيرة، ولا نزال فى طوبة.

- "ماذا كنت تفعل فى بيت العانس؟".

- "آه... كانت تفرجنى على ألبوم صورها !!".

وقلت ساخرة: "ألبوم صورها فعلاً، وكيف وجدته؟".

ضحك: "كلكن سواء!".

وغضبت: "بالقطع لا، لا يمكنك أن تقول أننى وهى سواء".

ابتسم بغموض، وازداد غضبى: "من تظن نفسك؟ لقد اجتاحك الغرور".

قال برقة: "أنا أستحق ذلك!".

- "وكلكم سواء!".

- "الرجال؟ نعم، طبعًا".

- "مغرورون، وأغبياء!".

- "مغرورون جائز، أما الثانية فلا!".

- "أغبياء، النساء يلعبن بكم!".

- "ولكن هذا بإرادتنا دائمًا، صدقينى!".

- "النساء يحكمنكم!".

- "ونحن نحكم العالم!".

- "حكم الدمار والهلاك!".

- "ولكننا نحكم العالم!".

- "من الظاهر فقط، الظاهر فقط أن الرجل يحكم".

- "اسمعى، الرجل يحكم ويسود، أنت، ما اسمك؟".

بدأ يتغير، وقلت: "ماذا تقصد؟".

- "لمن تدعين؟ أليس لاسم أبيك؟".

- "آه، هذه مسميات، الامتداد الحقيقى هو للأم!".

- "غير صحيح، ندعى بأسماء أمهاتنا يوم القيامة فقط".

- "هذا هو الدليل، الامتداد الحقيقى هو امتداد البطن من البطن".

مرت لحظة صمت، هدأ مرة أخرى، ثم أجاب: "هذا امتداد عضوى فقط، وليس ماديًا!".

- "ما العضوى وما المادى؟ لقد أجبت نفسك".

ثم تذكرت: "ماذا كنت تفعل فى بيت العانس؟".

لم أستطع أبدًا أن أقتحم.

كنت آتى هنا لأشترى أشياء صغيرة، ومنذ زمن لا أتيت ولا اشتريت الأشياء الصغيرة، لكنى لم أهتم لذلك أبدًا، لم أهتم لذلك أبدًا.

ما رأيتك ترحل، وما أردت أن أراك ترحل، والآن أسأل، أسألك، وأنا أقاوم الإحساس بالندم، لماذا رحلت حينئذ؟ ولماذا عدت مرة أخرى؟

ماذا أقول سوى أن أحتضن الشىء الوحيد الذى ما يزال يخصنى، وأسألك: ما الذى أتى بك إلى حلمى هذه الليلة؟

أنظر نحو الشجرة.

فى المنزل الصغير القديم، شجرة مانجو كبيرة كانت تظلل الحديقة، وبضع أشجار أخرى صغيرة، وعندما تتسلل فى المساء من سور الحديقة الخلفى، دائمًا أراك، تدخل بيتك من النافذة الخلفية التى تؤدى إلى غرفة نومك مع أخيك، وأنا فى نافذتى، دائمًا أراك، لكنك كنت تبدو وكأنك لا ترانى.

كنت تتسلل إلى بيت العانس، أما اليوم، لا أحد يتسلل إلى بيتى، لا أحد.

سحر الموجى[*]

عدى النهار

والمغربية جاية

تتخفّى ورا

ضهر الشجر

وعشان نتوه فى السكة

شالت من ليالينا القمر

لم يختف القمر تمامًا ليلتها. على العكس.. كان موجودًا وبدرًا. لكنه كان حزينًا هزيلاً أصفر الوجه يقاوم هجمات سحب القاهرة الملوثة بالقهر القديم. وكان صوت عبد الحليم يرزح تحت وطأة الانهزام والعشق. كأن الزمن قد توقف عند تلك اللحظة. كأن أكثر من ثلاثين عامًا مجرد جزء من الثانية.

"ماكانش ممكن وقتها نعشق بجد، نحب واحدة ست وتبقى هى حياتنا. إزاى تحبى وانت كل كيانك مع واحدة تانية. كانت مصر وقتها بالنسبة لى مَرة جميلة. إتعلمنا نحبها وغرقنا فيها".

قالها والسيارة الفضية تسير ببطء عالم مثقل بأسراره على ضفاف "حابى".

---

[*] سحر الموجى، من مواليد ١٩٦٣، من مجموعاتها القصصية (سيدة المنام)، دار شرقيات، ١٩٩٨.

تتين عجوز نائم لم يعد يعنيه كثيرًا ما يحدث خارجه. تنعكس ظلال القمر الكابى على ملامح وجهه وهو يقود فتبرق العينان بأثر دمعة قديمة توقفت عند بوابة الروح ورفضت الانزلاق.

أخذتُ أنظر إلى جانبى الطريق. "حابى" عن يميننا وبيوت طرة تطل برأسها من بين تلال الأسمنت عن اليسار. كنا نسير عكس اتجاه النهر، وعكس الزمن. طالما حكى لى أن هذا كان طريقه وهو صبى. يتوقف عند كنيسة العذراء، يدخل ليوقد شمعة ويشم رائحة البخور والهدوء وتمسح نسمة رطبة على وجه أحزانه فى هجير الصيف. وفى نهاية الطريق يرقد ملعب صباه وأماكن الغزل الأولى وتلك الغرفة التى ذاكر فيها لامتحانات الجامعة وعاد إليها باكيا بعد أن أخرجوهم من حلم ذاقوا فيه طعم اللمة والدفء ودفعوا بهم إلى برد فبراير الذى دامت رعشته فى قلوبهم طويلا.

وكان هذا أيضًا طريقى لسنين طوال. أتذكر فقط الخروج إلى القاهرة، وأنفى الذهاب. كان الخروج محاولة للحياة، ولم أكن أعرف ما هى بعد. كان حلما بالتحليق، ولم يكن قد نبت لى جناحان. ولأول مرة منذ سنين أقرر العودة بعد أن كنت أنقبض عند اقترابى من بدايات هذا الطريق. تلك هى اللحظة التى أتصالح فيها مع مكان ظلمته بالكره لأسباب تخرج عنه، ولم يكن إلا مقهورا مثلى. كان مكانا بديعا، مقر العائلات العريقة والبيوت الراسخة الأنيقة ذات الحدائق الخلفية. ماذا تبقى منه الآن. أصبح مثل قمر الليلة كابيا ومثل امرأة عجوز تحملُ آثار جمال قديم، يمكنك أن تتخيل ما كانت عليه من بهاء منذ نصف قرن تقريبًا، يقف بكبرياء يدارى تهدم البيوت وانكسارها.

وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها
جانا نهار مقدرش يدفع مهرها

امتزج صوته بالدموع فى صوت عبد الحليم. يسترسل فى حديث يشدنى من داخلى إلى زمن آخر لم أعشه لكننى عرفت عنه ورأيت أطلاله فى رجال تهدموا وفقدوا الاهتمام- أو سرق منهم- فتناسوا أيامًا كانت تحملهم فيها ريح الغضب من طرقات الجامعة إلى الشوارع المحيطة بها ومنها إلى ميدان التحرير يصرخون فيها قهرهم وطعم الخيانة ويحلمون بالثأر.

"كنا بندافع عن المبادئ اللى همَ علموها لنا. كنا عايزين نشارك زى ما طلبوا مننا. وكنا رافضين نصدق اللى حصل. رافضين نكره لأنه بيحبها زينا. ولما كنا نخش السجن، كنا بنبقى فرحانين إننا قد الحب. وعارفين إنها هتيجى- المَرة الحلوة دى- وتخرج ولادها".

تغيرت معالم الطريق. احتلوا أماكن أخرى من جسد النهر. نوادٍ. نقابات. مصانع. والغبار باق. تخترق السيارة كثافته كنصل حام فى قلب الجرح القديم المغلق على صديده. فتتساءل أشياء للخارج والألم واحد.

فكرت للحظة أن أطلب منه الذهاب إلى حلوان إذ كنا نجوب القاهرة بلا هدف محدد إلا وجودنا معًا والموسيقى. لكننى تركت ثقتى فيه تقودنا وأنا غير مصدقة تمامًا أننا نبغى نفس الاتجاه فى نفس اللحظة. سعادة خفيفة تمحو آثار مرارة من فوق وجه الطريق العابس الذى يذكرنى فقط بموال اللوم الذى كنت أسمعه يوميا ذهابا وإيابا عن تقصير ما. إهمال. عدم استطاعتى أن أكون ما كان مفروضا على أن أكون، تلك العذراء السماوية تحمل رضيعها ولا تتبرم.

لا يزال للمكان هدؤوه وعدم اكتراثه بما يحدث خارجه. بيتى القديم ها هو. لم أعرف إن كنت سعيدة أنه اختفى فى ركن قصى من الذاكرة أم أننى أشتاقه لا أزال. أصبح كهلا. لكنه يحمل سنين لى نظفت خلالها نوافذه وشرفته

الكبيرة وأحببت الحديقة والهدوء والحلم القديم الذى خاننى ببيت مزدحم مثل بيت جدتى وضحكات أطفال يلعبون.

يا هل ترى الليل الحزين
أبو النجوم الدبلانين
أبو الغناوى المجروحين
يقدر ينسيها الصباح
أبو شمس بترش الحنين

الحنين. تلك الكلمة السحرية التى تحمل حاؤها حنينا وحلما وحنانا وحنوا ينسال بهدوء مع الياء. الحنين هو ما جاء بنا هنا. هو ما يجعلنا فى تلك اللحظة نلتحم فى حضن فيه حاء حنين أخرى حتى لو كان كل منا ينظر خارج النافذة فى اتجاه عالمه. وكان يجمعنا الشىء ذاته.

"كنا بنحبها. وكنا موهومين. لكن كنا عايزين نصدق. كان لازم نصدق حلمنا ونخلص له. علمونا نحبها. ولما بقينا على باب الدنيا وفى عز الحب، اتخطفت مننا. وراح الوهم. أكلنا الخبطة على دماغنا وفضلنا مش مصدقين. مش فاهمين هى اتخطفت، تاهت، مشيت بمزاجها مع راجل تانى، اتقتلت واحنا بنتفرج ولاّ لسه فيها نفس. بعضنا فاق وركز فى حلمه الخاص. وبعضنا وقف عند عجز اللحظة. وكلنا مشينا وسيبناها لهم".

هنا النادى. وهناك المدرسة، وبيوت أصدقاء طفولته. من بينهم ذلك الذى كبر وذهب يحارب ولم يروه ثانية. هذا هو بيته القديم. العطار والبقال وعم عبد الباسط صاحب محل الكرشة. كل الأشياء لا تزال هناك.

توقف بالسيارة أمام السوق، ونزلنا فى وقت واحد، كنت أريد أن أرى

مكان بائعة الفجل، تلك المرأة التى جعل منها أسطورة. تتربع فى جلبابها الأسود أمام المشنة كل صباح وتبقى متجهمة بعض الوقت. يعرف أن مزاجها قد بدأ يعتدل عندما تبدأ موال الشتيمة لجيرانها من الباعة "أنكش لكو شعرى يا ولاد الوسخة"، ولم يكن باستطاعة أحدهم أن يكرهها إذ كانوا يرون تلك الابتسامة التى تخفيها تحت هذا التجهم. وكان هو يعرف بشكل ما كيف تكون فى بيتها البسيط، تفوح منه رائحة الطبيخ المسبك. كان يرى فى هذا الحِجْر شبهًا لحجر جدته- سرير من لحم دافئ. ربما أكون قد اشتريت منها جرجيرًا وخسًا يومًا ما. لا أذكر لها وجها لكننى أحببتها من حديثه عنها. لديه القدرة أن يحول الأشياء العادية إلى أساطير مثل كيميائى قديم. ربما لم يكن يحول التراب ذهبا، لكنه كان يراه كذلك.

عندما أدركت كم يبدو منظرنا غريبًا فى حوارى السوق الضيقة بعد الواحدة صباحًا- وكان واضحًا أننا لسنا هناك للشراء- حاولت أن أكتم نوبة ضحك ازداد عنفها عندما تخيلت أن الباعة ربما يعتقدوننا مباحث تموين. اكتست ابتسامتى بظلال حنان عندما خرجت إلينا قطة صغيرة مشعثة ومتسخة من تحت كومة خضراوات ذابلة. مِلت على القطة أداعبها فرفعت إلىَّ عينين منكسرتين فيهما دهشة من يتعرف على معنى الحنان. عندئذ جذبنى خارج السوق ضاحكا وصوت بائع الطماطم الأسمر النحيل يصلنا : Welcome Egypt.

كيف بقينا رغم الانكسارات.

كيف تمسكنا ببهجة الحياة وأشياء كثيرة تذهب ولا تعود.

كيف بقيت تلك المرأة القوية ذات الألف وجه، تختفى خلف سحب القهر السوداء، ثم تعود تأخذ حمامها، "تغسل شعرها"، وتمشطه بتأن وهى جالسة فوق الكنبة عند النافذة الصغيرة المطلة على الحارة الضيقة المرشوشة بالمياه

وقت العصر، وكوب الشاى الصغير تتصاعد أبخرته برائحة النعناع الأخضر يستند إلى حافة النافذة.

تحلم ببكرة واللى هيجيبه معاه

تنده عليه فى الضلمة وتسمع نداه

تصحى له من قبل الأذان

تروح تقابله فى الغيطان

لا يزال القمر يرزح تحت ثقل طائر رخ من تراب. يطل ضوؤه الحزين من بين الأجنحة العملاقة. ينعكس النور على وجهه فتبرق فى العينين لمعة غضب وتحدٍّ. وتتسال دمعة وحيدة. أمد إصبعى إليها ألتقطها فى الطريق إلى الانزلاق.

عطر هارب(*)

سعد الدين حسن

... وإذا بروحه الظامى يقوده فى الأصيل الشاجى للفيافى البكر...

فى قلبه يتبع هاجس صبوته وفى قلبه عطر نورانى، العطر يتضوَّع من سراج الجسد، وخرائطه الإيقاعية تنطق بقوة من نواظم موسيقية غامضة، جعل يستقطر من فيضها السائل تعويذة لقلبه، وحين اقترب من الموشومة بالسُّمرة والجمر، تسلَّل فى رقة جارحة إلى زخارفها المنمنمة مجذوبًا لكنوز سحرها، وإذا بها تفر كطائر مذعور مهرولة تجاه الخفى.

الفيافى لم تعد بكرًا، وقف وحيدًا عند السهول والمنحدرات، يجابه الأعاصير، والأرض من تحته تنبعث منها زفرات بلا ظل، وكل ما فى الوقت من عينيها يفيض.

مشى وحقول الحنطة بالأصفر تستبدل إهابها الأخضر، والترعة بجواره تنتفخ مثل سحابة، طقطق القلق فى قلبه كأنه طحلب يطقطق مثل حطب يطقطق فى مصطلى، وتبسَّم حين رأى النحل يمارس مجونه مع الأقحوان. توقف فجأة وأنصت لهمهمة بطيئة ممطوطة الأجنحة هناك فى بركة الأثل واللبلاب، سأل رجفته كيف يعود إلى أول قلبه، وقال لقلبه: هذه شذرات دون الرزاز.

روحه الظامى يلهج بالخطو والآيات، هاجس صبوته يهمهم همهمة النحل،

(*) من مجموعة (عطر هارب)، دار ميريت، ٢٠٠٨.

وقلبه يحمل لهيبًا من الصرخات والأسئلة. ترى هل يجد السر الذى يمزق به جسد الظمأ. قرفص على حافة الترعة وجعل يبنى قصورًا من العوسج والأمنيات محددة ودقيقة مثل الخيوط الرقيقة للذاكرة، يأتى الهواء فيمحوها بلسانه الرطب.

قفز واقفا حين رأى حزما من الضوء الخاطف تتقاطع فى بؤرة الوقت تتسلق لحظاته تمكث فيها هنيهات، وابتهج بالفراغ المحشور بينه وبين الضوء وراح يضرّج المكان كله والضوء بروحه التى تكشف عنه وتحجبه وراحت روحة تبتكر جماله:

— نور يسقسق ويتنامى.
— مزنة عطر فواح تتهمر فى كل الجهات.
— موجات من الأنفاس القرمزية الطاهرة محسوسة، يمكن السباحة فيها بلا بلل.
— بحيرات من النبض والرنين البكر تسبح فيها قوارب من الرقة البشرية والحنان الإلهى.
— نور ينطق ويوقد الكائنات صوب حريتها المزكومة وعدلها المثقوب.
— عصافير تجلب طيران العصافير من الغد إلى اليوم.

حدّق بعيدًا وطويلاً ليرى الحقيقة تتبدّى له من غير طيوفها ومن غير أن تنزلق مقلتها على أى سور، وحيث النار لا تهجر لهيبها والأشكال لا تتبع أشكالها، وحيث النبض والرنين لا يغادران جسميهما، وحيث جماله يشعل جماله، ويشعل فى قدس أقداس قلبه قنديل الخلود.

بغتة هجس أصواتًا من خلفه تئن، دار فرأى العطش يقتحم صدور النباتات والبيوت البعيدة، موجات الضجر الرمادية تدمدم بصوتها الأعمى،

القلق الثقيل فى عنفوان الأشجار ينبش قلب الأرض، قافلة اليعاسيب التائهة ما تزال تائهة، حشد الأشباح الأصم الأبكم، هو حشد الأشباح الأصم الأبكم، أشباح شموع فى حلم، نبع صاف ماؤه لا يغيض، ذبابة المقابر الزرقاء تمتص كائنا لا يبين فيلتذ ولا يتلاشى، يمامات خضراء تغفو فى جرح الهديل، ورأى عطره الهارب.

فى تأمله الذاهل، كان فى حجم العطش كما هو فى كل زمن فى ذلك الحين فى هذه اللحظة فيما مضى وكما سيكون إلى الأبد.

ليس غير تلك العيون وحدها، هى التى تستطيع إبلاغه بروحها، ويستطيع هو إبلاغها بروحه.

فى هذه اللحظة كانت حزم من الحنطة تطفو بين الغيوم، فيما قلبه يخرج من شق بين غيمتين مختلجًا، وحين يدخل السكينة يدندن يدفع للدندنة نبض فريد من الغبطة، ويتساءل من أين يأتى هذا الصخب بين الغيوم.

بغتة تبرق عيناه كجمرتين تتوقدان وهو ممدد تحت شجرة شعر البنات، هل سقط على هدُبيه ريش طائر ما، ما إن تهدأ اختلاجته حتى يتمدد بجسمه كله كأرنب برى يرقد بين الحلفاء والشجر، فتأخذه سنة من حلم، فيرى سرًّا بعيدًا فى النعاس، ويرى دخانًا مبكرًا فى مكان ما من قلبه، ويستيقظ مذعورا حين يرى لهبًا يصَّاعد فى بيت الوجود.

ما إن يستفيق من نعاسه حتى يتسلل بين غصون وأوراق شجيرات البازلاء والفلفل مأخوذا بالثمار فى زغبها الأول، ثم ينهمك انهماكًا فى التهام بعض الثمرات، ويتوقف هنيهة ليصغى إلى طائر يسقسق بين الغصون، ثم يمسك بشجرة فلفل يهزها هزا فيطير يعسوب مشتبكًا بفراشة بيضاء يتراشقان فى قلب الضوء بالتماعات مدهشة.

ولما يسمع صخب الغيوم يجرى قفزا كما لو كان سمكة تقفز مبلبطة فى الماء، وقفزا يخترق عصافير تتطاير لاغطة، وزنابير آزَّة ولاذعة، لكأنما تدفعه غاشية من شهب خفية، فيسرع القفز، ينفجر الحزن المدوّى فى روحه على الفور حين يسمع هسيسا ما فى صدره يناوشه مثل كابوس ثقيل، فيتوقف بغتة ليمسك بفراشة نائمة على تويجة صفراء، متمتمًا أفيقى، أفيقى وكونى لى أيتها الأنوثة النائمة.

فجأة أسقطت غيمة ضفائرها وجعلت نحل شعرها بلا انقطاع، فيما هو يقف ملتصقا بصفصفافة كأنه روحها.

فجأة أسقطت غيمة ضفائرها وجعلت تحل شعرها بلا انقطاع، فيما هو يقف ملتصقا بصفصافة كأنه روحها.

وهاجمه سعال، فظل يسعل بشدة لمرات متتابعة كما لو أن كلبا يعوى فى سرداب، وظل فى انتفاضاته المرتعدة تحت الشجرة إلى أن توقفت الغيمة عن حل شعرها.

انحنى نصف انحناءة، وتسلل بأصابعه إلى شىء ما أمامه فإذا به عصفور يلفه الزغب، رفعه إلى فمه، وشوشه، ثم جففه بكم جلبابه ودفع به إلى عشه.

لما تبدّت له شمس الغروب فى حنّائها، لمع قلبه إذ ترسمه برقة فى قلب الغسق، أصابع يده التى من ورقة سرو، وتبدى وجهه الطفل يقلقه إحساس متوحش فى جسده الذى من شجرة توت.

مشى وعشب أخضر قد نما على جسده كله، ولما رفرفت عيناه فى الأفق كان سر قلبه يطل من نظراتهما، ومضى بروحه الظامى يتبع هاجس صبوته، وحيدًا، يتمزق فى اختلاجاته وهو يتابع البعد الحلزونة للطيور.

الداخل

سعد القرش(*)

من الخارج، يبدو المكان كأنه غيط مهمل.

تتداخل فروع الشجر، بما يوحى بعدم العناية. وحول بوابة واطئة، لا يعرف الداخل أنها مفتوحة أو مغلقة، تتجمع أوراق الخريف. وإلى يمين الداخل، خُصٌّ معتم، تثقبه شرائح الضوء. أما البواب الكهل فغير منتبه، ربما ثقة منه بأن الداخل يعرف طريقه.

ينزلق الشاب إلى المكان. يحاول التخلص من أوراق أشجار غمرت قدميه، ويخفى ارتباكه بالنظر إلى الشيخ المتكئ على أريكته، بالقرب من البوابة. يقول الرجل وهو يمد وجهه إلى شريحة من النور، فى موضع محدد تمامًا، وكأنه يعرف الشاب:

- أهلاً يا حسن!

يبتسم الرجل بخبث لا يخفى على الشاب، ويبين وجهه خاليًا تقريبًا من الأسنان، ثم يخفى فى العتمة تجاعيد وجهه.

يتفادى حسن منحنيات، وعيدان ذرة متناثرة، على جانبى طريق أشبه بمدق للسيارات، ثم ينقذه الدليل الذى استدعاه أمس. فى المسافة الممتدة من

(*) من مواليد ١٩٦٦، من مجموعاته القصصية: (مرافئ للرحيل) ١٩٩٣، (شجرة الخلد) ١٩٩٨.

البوابة إلى العالم الغريب، لا يسمع شيئًا من كلام كثير يقوله الدليل. يسيطر عليه ذهول التجربة الأولى، فى مكان لا يشعر فيه أحد بأحد، إلا من يريده: لا شىء منسقًا، فوضى تسحر العين، يتحرك كل من بالداخل كما يحلو له. صبيان وبنات، فتيان وفتيات، سيدات رشيقات، وشبان حليقو الرءوس، وآخرون مرسلو الشعر، ورجال سمان تمتد كروشهم بما لا تصل إليه أيديهم. عراة أو يرتدون حللهم كاملة. على الأرض مباشرة، أو فوق أسِرة أو أرائك، ثابتة أو تهتز فى الهواء، بلا عُمُد يراها، تحت أشجار مختلفة الأنواع، لا تثمر كلها فى فصل واحد من العام، ولكنها الآن مثمرة، رغم هذا الخريف الذى لا يتجاوز البوابة.

يبحث بنظرات زائغة عن اتجاه البوابة، ولا يعثر عليها. يسأل نفسه: هل ألغوا الطريق؟

ينهاه الدليل عن أية محاولة للهروب:

- اسمع يا حسن، شرحت لك «أنهم» يطلبون منك أن تحضر زوجين، على استعداد لتنفيذ أى تكليف، يفضل أن يكونا مستعدين للعب الدورين، مع أى أحد هنا.

يفيق حسن، ويدرك لأول مرة خطورة الأمر، ويحاول التحكم فى انفعاله.

يواصل الدليل ببرود:

- فى المسافة من البوابة إلى هنا قلت لك هذا، ولم تعترض.

- لم أسمع شيئًا، وأريد إعفائى. لا أنا أعرفك، ولا أنت رأيتنى.

يبدى الرجل تعاطفًا حقيقيًا، ويبدو عاجزًا عن المساعدة:

- مع هؤلاء الناس، لا داعى للمغامرة، أو التذاكى. حدث خطأ بسيط فى

الإبلاغ، مجرد تشابه فى الاسم، مع شاب عاطل مثلك، اسمه حسن أيضًا ، دلنا عليه قواد سابق. ساعِدْنى على إتمام اللعبة للنهاية، ليلة واحدة تمر بسلام ء حتى لا يسمع بنا أحد.

يفرك حسن عينيه غير مصدق، يريد أن يتأكد أنه ليس ضحية كابوس:

ـ لا تحاول أن تدفعنى للجنون. أنا لم أر أحدًا ولا شيئًا، ولا أعرف هؤلاء.

يختفى الرجل بلا مناسبة، ويمتد الخلاء باتساع القدرة على الرؤية.

يسأل نفسه: هل كانت بالمكان أسوار ساعة الدخول؟

يتذكر أنه رأى مصابيح متناثرة بلا ترتيب، بلا أعمدة، كأنها معلقة بسقف سماء أشبه بخيمة كبيرة. الآن لا يزيد عددها كثيرًا. فهل تنتهى حدود هذه الساحة حيث تلتقى بها السماء؟ ومن أى طريق يبدأ الهروب؟

يفاجئه الدليل:

ـ يجب أن تنتهى المهمة بسلام.. سلامك أنت. لا تفكر فى الهروب مرة أخرى.

ـ ما الخطورة فى خروجى؟

ـ الخطورة أو الخطأ فى الدخول. يجب إتمام المهمة.

ـ طمئِنْهم تمامًا، كأنى لم أدخل.

يبتسم الرجل من طيبة قلب الشاب:

ـ هؤلاء لا يخافون شيئًا ولا أحدًا. لا سيادة هنا لأحد عليهم. شعار المكان: «افعل ما تريد، وما يريد منك الآخرون: لا ترفض لأحد طلبًا ولا أحد يرفض لك طلبًا». كل شىء مباح.

- هل يشملنى الشعار؟

- نصفه فقط.

- والله ما انا فاهم، أخرجنى من هذا الكابوس، بدلاً من الفضيحة.

يضحك الدليل، سخرية وإشفاقًا:

- فى قاموس المكان وقانونه، لا وجود لهذا المصطلح، لا يعنى شيئًا. خارج البوابة تسترد الفضيحة هيبتها.

يهمس الشاب لنفسه أن هذا الكلام لا يمكن أن يخرج من قواد. ويلومه الرجل على إساءة الظن:

- لا أحاول إيذاءك بكلمة، فلماذا توجه إلىَّ هذه الإساءة؟

تسيطر عليه الدهشة، من قدرة الرجل على قراءة أفكاره. يشعر حسن بالحرج لأول مرة:

- ماذا تكون؟

- هذا لا يعنيك، اسأل نفسك أولاً، من تكون الآن؟

يتوسل إليه بصدق طالبًا إخراجه:

- لم أخطئ فى حقكم، ولا استدعيت نفسى.

يهز رأسه:

- ولكنك رأيت، ومن يعرف يصبح جزءًا من قانون المكان.

- قانون المكان أن كل شىء مباح، وأنا لا أعترف به. ولم أمد يدى إلى ثمرة فى الحديقة.

ـ ولكنك مددت عينيك. هل تتكر أنك رأيت. رأيت كثيرًا، أكثر مما ينبغى، لمن ينشد الخروج.

يحس بالحرج، ويقدر أن هذا الواقف أمامه ليس مجرد قواد، بل يعرف عنه كل شىء: ما فعل، وما رأى، وما يفكر فيه، وما ينوى عمله. يهم بالسؤال، فيعاجله الدليل:

ـ قلت لك إن نصف شعار المكان يشملك: «افعل ما يريد منك الآخرون، ولا ترفض لأحد طلبًا».

قبل أن يفكر فى الرد، يختفى الدليل، وتهبط فوق كتفه يد دقيقة التكوين، لا ظل لأصابعها المنحوتة التى يحبها، فى غير هذا الموقف. تسأله:

ـ جربت أن تحمل سيدة فى غابة؟

يجيب كالمسحور:

ـ حملت سيدات، بعيدًا عن الغابة.

ينتبه لخطوها الشفيف، كأنها تسرى ولا تسير، لا صوت لوقع قدميها. ويستدرك:

ـ لكنى لم أجرب أن أحمل ملاكًا.

يتحدث بلتقائية تخلو من المجاملة، وهى تبتسم:

ـ احملنى وتكلم.. أريد أن أسمعك.

تستقر فى منتصف المسافة، بين الصحو والنعاس، وتواصل الهمس:

ـ حين أشير إليك توقف، لنستمتع بلذة الصمت.

يرنو إليها، وهو مسحور، ويسأل نفسه: هل تحركت شفتاها حقًا أم لا؟

يحملها بين ذراعيه، وتلتصق فى وداعة بصدره. يمرق من بين أجساد لبشر لا يشعرون بهما، ولا ينصتون لكلامه إليها: عن أهله، وحكاية استدعائه، وتهديد الدليل له. وهى كأنها غائبة عنه، لا تسمع. إلا أنها تتوقف موضحة:

- لم يهددك، بل أبلغك.

يستريح لكلامها الودود، ويسألها عن كيفية الخروج، فتتسرَّب من بين ذراعيه، ويستدير عائدًا، فينسد أمامه الخلاء. ويجد الدليل عنده، بالضبط أمامه.

يأمره «أحدهم»، فيستجيب. يتذكر نصف الشعار «افعل ما يريد منك الآخرون، ولا ترفض لأحد طلبًا». يخشى أن يصير مَطِية لصاحب هذا الجسد. يعز عليه جسده، فلم يفكر يومًا فى أن يقربه أحد.

يتلكأ قليلاً. يتأخر خطوات عن السائر أمامه بثقة. يسمع منه تحذيرًا، من غير أن يستدير.

بدون أن يدرى، يطلق حسن صيحة «لا». ويمضى الرجل، وتتكون دائرة من الأجساد حول حسن. يعنفه الدليل:

- تصر على اختراق القانون؟

- أى قانون، وأى احتراق؟

- لم تُسمع هنا كلمة «لا»، والغريب هو الصيحة!

- نسيت أن أستغيث بشياكة!

يشير إلى لا أحد، حيث لا ظل لذراعه:

- خذوه.

يمضى مسبوقًا برجل، ومتبوعًا بآخر، فى طريق كأنه أعد الآن. وقبل نهايته، يفاجأ بأن جدرانًا نبتت لهذا الطريق، فيصبح ممرًّا مكسوًّا، بإضاءة خافتة، وتمتد جدرانه إلى حيث يصل بصره.. ارتفاعًا وطولاً. وكلما أوشك الممر على الانتهاء، وجد حسن بوابة واطئة، لها اتجاه واحد، إلى الداخل، ثم ينشق الجدار عمن يقفون بانتظارهم. يشيرون إليه، فيدخل وينسحبون.

ينفتح الباب قبل أن يدفعه، ولا يسأله الجالس عن شىء، بل ينظر إليه، ويسجل أشياء، تملأ ملفًّا من الصفحات، ويكاد حسن يسأله من أين يستمد هذه السرعة فى الكتابة. ويهز رأسه فى غير أسى:

- لو لم تقل: «لا» لهان الأمر، ولكنك قلتها فى صيحة غير محسوبة، ولا مسبوقة.

قبل أن يفتح حسن شفتيه، للإيضاح، ينفتح باب. يحمل الرسول الملف، ويتبعه حسن فى صمت. ثم يسلمه إلى باب آخر، ينفتح تلقائيًّا. يتصفح الملف فى لحظة يشعر حسن أنها كافية لمثله، لالتهام كل التفاصيل المكتوبة. يستعد للكلام، للرد، للاعتذار حتى، ولكن الجالس، كأنه نسخة من السابق، ينظر إليه بعينين تخترقان العروق إلى دمه، وأيامه الماضية. ويكتب تقريرًا آخر فى بضع صفحات، ثم يغلق الملف:

- لو لم تقل «لا» لهان الأمر.

يفتح حسن فمه، فيمد الجالس يده بالملف، إلى من هبط إلى المكان لتوه. ويذهب به إلى الذى يقرأ الصفحات القليلة، ببضع هزات من رأسه، بنظرات هابطة إلى أسفل. ويكتب تقريرًا فى صفحة واحدة:

- لو لم تقل «لا».

يوشك حسن على الانهيار، يريد أن يصرخ، إلا أن صوته ينسحب تمامًا. يريد استدعاء الصرخة، وهى تستعصى عليه. يمضى فى صمت وراء حامل الملف، يناديه فلا يرد. يشعر بالإهانة، ويسرع قليلاً، ويمد يده إلى كتفه، فيحس فراغًا دافئًا.

فى لمحة ينتهى من قراءة الصفحة الواحدة. يقول حسن:

- أنا...

لا يقاطعه، وإنما يسجل سطرًا واحدًا، ويعجز حسن عن الكلام، ويظل فمه مفتوحًا بعد أن يُطْلِق أناه.

يقول بدون أن ينظر إلى حسن، ويد أخرى تمتد إليه، كأنها تهبط من فراغ، حيث لا سقف للغرفة:

- لو.

يدخل حامل الملف بسطر واحد، فى ورقة بيضاء، وحسن ينتظر الدخول، ويراقب حركة باب وحيد، ينسد به الممر، ولا يسمح له بالدخول عَبْره مباشرة.

يقرأ ملامح وجه الخارج بعد أن ترك الملف، ويحدث نفسه: هذه فرصتك الأخيرة، بعد أن أطلقت صيحة جلبت عليك اللعنة، وما دام تقرير دخل، فإن بالغرفة شخصًا ما، لعله كبيرهم، وإليه ينتهى الأمر كله، ولا وقت لديه لقراءة أكثر من سطر واحد. ماذا لو اقتحمت عليه وحدته، وأبلغته شكايتك؟ لن تخسر كثيرًا، ربما لا تخسر شيئًا. قل له يا سيدى ليس كثيرًا عليك أن يقول واحد «لا» واحدة، بعد ليلة من الطاعة لم تخترها، ولم تتعمد المجىء.

فى لمحة، يتحسس طريقه، فى غفلة من الخارج المطْمَئِن، فيجد الملف موضوعًا بعناية، فوق ديوان فخم، فى غرفة ليس بها أحد.

ينغلق الباب فجأة، وتنفتح نافذة، حيث لا جدار، على حريق بلا حدود.

عطر فى الظلام[*]

سعد مكاوى

فى عصر كل يوم كنت أقوم بهذه الرحلة البغيضة، فأقبع فى ركن العربة والعصابة على عينى والخادم ذو العين الواحدة يصف لى بعض ما نمر به فى الذهاب والعودة بين العباسية حيث كنا نسكن وشارع فؤاد الأول حيث كانت عيادة الطبيب، فكأن "سمعان" هذا كان عينى فى محنتى...

وكنت أدعه يصور لى بأسلوبه الفذ ما تقع عليه عينه الواحدة، وأعكف على فصول حياتى الساذجة الصغيرة أتمثل فى ظلام الأربطة صورها. ولم تكن أول مرة قدر لى فيها أن أخضع لمبضع جراح العيون، ولن تكون فيما أحسب وأحس الأخيرة. لقد سبق لى أن عانيت هذه المحنة فى فناء المدرسة الابتدائية، هناك فى ذلك الركن القصى حيث نصبت تحت شجرة الجميز تلك الخيمة البيضاء التى جعلنا ننظر فيها ولا نقربها، ونسمع عنها أكثر مما ترى أعيننا منها.

وكنت، منذ جاءتنا الخيمة بمعداتها، وطنت نفسى على يوم رهيب فى الأيام، ذلك بأن عينىَّ كانتا مريضتين منذ الحداثة، وهما أبدًا مثقلتا الجفن، ووزارة المعارف لا تريد أن يكون بين تلاميذها من كان على شاكلتى، وقد تكون الوزارة على حق، ولكنى فى ذلك الوقت لم أكن أرى رأيها.

---

[*] سعد مكاوى (١٩١٦- ١٩٨٥)، من مجموعاته القصصية: (فى قهوة المجاذيب)، (قديسة من باب الشعرية)، (رجل من طين)، (كلمات فى المدن النائمة).

وكـان حتمـا أن يجـىء دورى، فسـرنا ذات صباح إلى الخيمـة، صـفا مـن سبعة أطفـال أبريـاء مطرقـة رءوسـهم واجفـة قلـوبهم كـأنهم يسـاقون ظلمـا إلى المشنقة. واستقبلنا الطبيب فى ردائه الأبيض وهو يقلب فى وعاء من الزنك عددا كبيرًا من الأسلحة المعدنية البراقة، وثمة تلك الرائحة الكريهة القوية الخاصة التى أبغضها إلى اليوم وأبغض معها عيادات الأطباء ومخازن الأدوية وهؤلاء الناس أنفسهم – الرائحة التى تضم معانى الصحة والمرض فى جوها الحاد الثقيل.

وفى ظلام العصابة البيضاء، أذكر اللحظات القاسية التى عشـناها فـى تلك الخيمة، وقد وقفت أرقب رفاقى إذ يحملون الواحد تلو الآخر إلى "المشرحة" فيرفع "شارب الدماء" ذو الرداء الأبيض سلاحه بيمناه فى غير اكتراث، ويمـد يسراه فيفتح بأصبعين منها عين "الضحية" ويدفع جفنيه إلى الوراء فـى غلظة مهنية تعودها وألفها... ونغلق نحن عيوننا حتى لا نشهد المبضع وهـو يهـوى "فـى" عين الصديق وإن هى إلا دقائق معدودات حتى نرى صاحبنا العزيز يخرج محمولا على الأعناق دون ضجة أو اهتمام...

وتعود إلى ذهنى صورة عودتى إلى البيت فى ذلـك اليوم البعيد فـى عربة كهذه العربة ومعى نفس هذا الخادم الأمين الذى ألفت أن يقوم لى مقام بصرى كلما حجبت اللفائف نور الدنيا عن عينى، وكيف حاول "سمعان" فى الطريق أن يضحكنى ويسلينى، فلما بدا لى أن أسأله كيف فقد عينه وعما فعل يوم أن فقدها، أضحكه هذا السؤال وقال إنه ظل يبكى بالأخرى حتى بدا له أنه قد يفقدها أيضًا إذا أمعن فى البكاء فكف عنه وقنع بقسمته..

فى ذلك اليوم تعلمت أن الأمور فى هذه الدنيا نسبية قبل كل شىء...

ورأيتنى بعين الذكرى أدخل البيت فأنال من أهلى عطفًا جميلاً، ويعدنى أبى هدية طيبة أختارها يوم يرفع الحجاب عن بصرى، وكان عجبا أن يقع

اختيارى على "نظارة سوداء"!... ثم تقبل خالة لى فى مثل سنى كانت فى ذلك العهد تقيم معنا فتقول لى إن "بهيجة" تسأل عنى وقد رأتنى أدخل البيت فى رعاية الخادم والأربطة حول رأسى فخشيت أن يكون قد أصابنى شر فى الطريق.. وأنهض فى حراسة هذه الخالة الصغيرة فأقف فى النافذة، وأسمع على الفور من ناحية بيت "بهيجة" صوتها المشفق يسألنى فى حنان ولهفة عما أصابنى.. ثم لا أكاد أجيبها حتى تكون يد قاسية قد ردت النافذة فى عنف، وإذا هو أبى قد دخل علينا لينهانى فى غضب عن مخاطبة تلك "المرأة"...

وتنساب بى العربة وأنا أتمثل فى الظلام محيا "بهيجة" التى كانت أسرتى تمنعنى عنها وتغلق فى وجهها النوافذ كلما سمعتها تناديني من بيتها القريب... وما كانت تدعونى لتلحق بى أذى، بل كنت أجد عندها ما لا أجد فى بيتنا من الروح والأنس والمحبة. كانت بهيجة "صديقتى". نعم، صديقتى الوحيدة فى الشارع. وكانت فى العشرين، وكنت دون العاشرة. وكانت حسناء. نعم، الحسناء الوحيدة فى الشارع. وكانت تلبس كغيرها من النساء، بيد أن فى زينتها قليلاً من التكلف والإسراف لم يكن يخفى علىَّ، ولم يكن يسوءنى وإن ساء غيرى...

وكان لها عطر يدير الرءوس، ويعطر الأنفاس، ويذيع من حولها فيمس القلوب كعصا الساحر، ويقول عنه أبى إنه "فضيحة" تضج منها السموات.

نعم، كانت غانية...

ولم تكن هى تحدثنى عن حياتها، ولكنى فهمت مما يتطاير حولى من الهمس أن صديقة طفولتى تكسب عيشها من هذه التجارة المريبة التى كانت أول مهنة احترفتها المرأة... وكان أهل الشارع يكرهونها، ويسبونها ويغلقون فى وجهها أبوابهم، وترتسم على وجوههم أمارات المقت والاحتقار لذكر اسمها...

وكانت هى تعرف ذلك وترضخ له وفى عينيها هذا الظل الشقى التعس الذى كنت أحبه فيها وأحبه ما عشت فى عيون النساء...

وأحسبنى كنت الشىء الوحيد الطيب الكريم البرىء فى حياتها.

فى أول مرة رأيتها كنت مع رفاقى نلعب الكرة فى الشارع الضيق الطويل، وبعض النسوة من ساكنات الشارع قعيدات النوافذ والشرفات والمشربيات يتفرجن على لهونا وصخبنا، وفيهن المشتركة معنا فى اللعب بنصائحها تسديها من مقامها العالى، والعابثة بما نحن فيه من لعب كأنه الجد، والتى تود لو نزلت إلينا لتمرح مرحنا وتضحك الحياة وتغضبها معنا... وكأن علىَّ أن أدير ظهرى وأضرب إلى الوراء الكرة المصنوعة من الجوارب القديمة، فما كدت أتهيأ لقذفها حتى حدثت ورائى معجزة صغيرة: ذلك أن حدة النقاش التقليدى بين رفاقى تلاشت دفعة واحدة حتى كأنهم اختفوا من المكان فى غمضة عين، وصدرت فى الوقت نفسه حركات غريبة من النوافذ والشرفات، فالتفت محجمًا عن إرسال الكرة لأتبين الأمر، فرأيت زملائى قد تجمعوا صفا إلى الجدار وأبصارهم رانية إلى مدخل الشارع، وتتبعت ببصرى أبصارهم المتحفزة المتطلعة، فما وجدت شيئًا يستحق أن يكف له الأطفال عن الحركة والجدل وتختفى رءوس النسوة من هذه الفتحات اللاتى يعرفن الحياة ويطللن عليها من وراء خشبها.. وإنما كانت هناك فتاة مقبلة تتهادى فى شىء من الرفق والعجب... حتى إذا ما أصبحت منا على خطوات، رأيت الرفاق الصغار يتنازعون بينهم أمرًا فى همس خطير، وما كادت القامة ذات الجمال والدلال تمر بهم حتى انطلق الصف كله خلفها كأن هزة كهربائية واحدة قد حركته ووجهت إرادته تلك الوجهة الواحدة المنكرة:

- الملعونة!.. الملعونة!

واضطربت خطا العابرة، وانسدلت أهدابها على وجنتيها، واصطبغ بلون الدم محياها الحزين. وتقلّصت أناملها فوق حقيبة يدها، وعضّت أسنانها شفتها، وكأن الدموع توشك أن تطفر من عينيها لتستدر الشفقة والرحمة من أولئك الطغاة الفجرة الذين كان صوتهم الرهيب المنكر يتبعها كظلها وهم يدقون أكفهم الصغيرة دقًّا منغومًا على وقع الكلمة الظالمة....

وعندما ثبت إلى نفسى، صرفت رفاقى بلسانى ويدى عن هذا اللهو العتيف الظالم، ولم تلبث العابرة أن اختفت فى أحد أبواب الشارع غير بعيد من بابنا، بعد أن التفتت نحوى فى إيماء شكر وعرفان...

وما كادت تفعل حتى عادت الرءوس النسوية الفارغة تبرز فى فتحاتها، وتصايح نسوة الشارع الضيق الطويل، وكان عجبًا أن أسمع هؤلاء النسوة اللاتى احتجبن عند مرور المنبوذة وقد انطلقن يصفن معطفها وثوبها ويتحدثن حديث العارفات عن نوع قماشها وثمن المتر منهما، ولم تنس إحداهن أن تحث أولادها على قطع الطريق علينا كلما خطرت فى الشارع، بعد أن نالتنى بالسخرية وتوعّدتنى برفع أمرى الفاضح إلى أبى المدرس الذى "لا يعرف كيف يربى أولاده قبل أن يتصدى لتربية أولاد الناس..".

وتنساب بى العربة دائمًا بين العيادة والبيت، وفى مخيلتى هذه الصور القديمة العزيزة، و"سمعان" ماضٍ فى "إذاعته" لا يكف عنها إلا ليسعل أو يبادل العربجى الحشاش نكتة لطيفة أو دعابة عابرة... وإنى لأجسم الأمانى فى ظلامى: فأتخيل أن "بهيجة" ستلقانى بعد هذه الأعوام السبعة، وستلقانى من جديد وفوق عينى هذه العصابة البيضاء، فأتنسّم فى الظلام عطرها الذى لا ينسى، وتحنو علىّ كما كانت تحنو على عهدنا الماضى، فتأخذنى فى ذراعيها إلى صدرها، وتذوب على يدى عطفًا ودموعًا وقبلاً، وتغمر كتفى وخدى ورأسى المعصوب بقبلاتها الممتزجة بالدمع والعطر...

ولست أكتم عن "سمعان" هذا الذى أحلم به يقظًا، وأنه ليسخر منى فأنصرف عنه غاضبًا إلى ذات نفسى أنطوى عليها وراء ظلماتى ولا أعود أعبأ به إذ يذيع بطريقته الفريدة وصف ما نمر به من المناظر والحوادث، وهو يفعل ذلك فى صوت جهير يلفت أنظار المارة، وكان هو لا يعجبه هذا الالتفات فيشتبك أحيانًا فى معارك كلامية مع أولاد البلد، وقد يحلو له أن يلتحم مع بعضهم فى "قافية" يطرب لها صاحبه العريجى الحشاش وإن كانت تملؤنى ذعرًا.. ففى ذات يوم، وكنا نجتاز فى عودتنا ميدان العتبة الخضراء الذى كان بحاله القديمة مدينة كاملة غريبة، توقف "سمعان" فجأة عن إذاعة آخر الأنباء، وسمعته يطلب إلى الحوذى أن يأخذ بلجم الخيل لتكفَّ عن السير، ثم أحسست به يقفز من العربة إلى الشارع وهو يهتف بى فى دهشة وفرح صادق: "إن فيك يا بنى شيئًا لله!...".

ومالت العربة على جانبها الأيمن وقد هدأت الخيل وأوشكت أن تكفَّ عن الحركة المنتظمة السريعة.. ثم ذاع من حولى العطر القديم الذى طالما عطر أنفاسى وأيامى، واحتوانى جسد دافئ ممشوق كالرمح، وطوقتنى ذراعان عبلتان رخصتان، وأطبقت على فمى شفتان حارقتان كان بينهما ريح الجنة، وتهادت العربة فى رفق وقد أصبح الخادم الظريف إلى جوار السائق يحكى له قصة لا أسمعها..

وهمست حين خلى بينى وبين الكلام: بهيجة!!

فلم تجبنى من فورها، فقد كانت - بين البكاء والضحك - مضطربة لا يقر لها قرار، وأفعم روحى عطرها المألوف، واضطراب جسدها الملتصق بى، ودق قلبى فى صدرى كالطبل، وانقلبت أرض الله الواسعة عربة يجرُّها زوج من الخيل العجفاء فى شارع صخاب من شوارع القاهرة، ثم أشربت روحى ذلك الصوت الحبيب يهتف بي: حدثنى ما بال عينيك؟ ألا ترحمانك أبدًا يا مسكين؟

وهل كتب علىَّ أن لا أراك إلا وعلى نور عينيك حجاب؟... أتذكر عهدنا؟... أتذكر كيف كنت تسعى إلىَّ متلمسًا طريقك براحتيك، فأدخلك بيتى، وأسكنك صدرى، تنام فى أمنى، وتصحو على حبى، أبكى لنفسى فتبكى لى، وأضحك لك فتضحك للدنيا، فما كانت الحياة عندنا يومئذ إلا دموعًا وضحكات!..

قلت: ما أحسب عينىَّ اكتفتا يا صديقتى، وأكبر ظنى أنهما لن تدعانى طويلاً قبل أن تطلبا إلىَّ فدية جديدة عن نورهما من دمى وأعصابى، ولكنى أعدك وأشهد السماء أننى لن أسلم فى المرة القادمة تسليمًا، فليست المسألة لعبة بعد كل هذا الذى عانيت وإنما هى مسألة فيها نظر!

قالت: مسكين يا حبيبى! إننى أهب أعوامًا من عمرى ثمنًا ليد سحرية تهبط الآن فترفع عن بصرك الحجاب لأرى روح الرجل الذى حل فى عينيك مكان روح الطفل ولتمتحن من فورك أثر السنين السبع فى صديقتك التى فرقت بينك وبينها الليالى..

قلت: إنى لضنين علىَّ الزمن بهذه الساعة الرائعة، ولا يعجلنى أن أحث البصر، فإن حرمانى المؤقت منه يجعلك تسبغين على هذا العطف اللذيذ الذى قد أحرم بعضه متى ارتدَّ إلىَّ!... ثم إن لى فى هذا التصوُّر فى الظلام لذة الخلق الفنى... إننى أتصورك الآن، وأراك برغم الظلام رأى العين ورأى القلب، وأتحسَّس محياك بأناملى، وأتخيل رسمه البعيد الراسخ فى مخيلتى، ويرسم لى خيالى خطًا متموجًا يلمع فى هذا الظلام كجدول من الفضة الذائبة يحدِّد لى شخصك الحبيب: فهذه ثروة شعرك حيث يبدأ الجدول الفضى رحلته وسط السواد، وهذا هو يميل فى رقة فيعبر عن جبينك وعينيك وأنفك وشفتيك وذقنك، ويدخل بعد هذا دخولاً لطيفًا إلى حيث عنقك الأتلع الطويل، ويهبط

بعده قليلاً وفى حذر ليعود فيرز فجأة عن يمين وشمال بروزًا وقحًا محرضًا يرسم به صدرك الناهد بتوأميه، ثم أراه بعد ذلك يتلوّى كالثعبان فى بحثه الملتاث عن أسرار جسدك الغامضة حتى ليكاد يضلُّنى، ثم يصل بى وقد تهدَّج صدرى ولهثت بأنفاسى إلى قدميك.

وعندما قالت لى، فى إيحاء الأنوثة البليغ، إنها سعيدة إذ ترانى قد بلغت مبلغ الرجال، أحسست فى تلك العربة، وفى تلك الساعة، إنى أسعد رجل صغير فى العالم... ولست والله أذكر ما أجبتها به، ولعل سمعان فى مقعده العالى سمع طرفًا من حديثى، فإن له أذنين كبيرتين وإن لم تكن له غير عين واحدة، فقد سمعته يغالب الضحك وهو يهمس فى أذن صاحبه الحوذى همسًا خبيثًا، ثم سمعت الحوذى يسعل وهو يهوى بسوطه على ظهر الخيل قائلاً:

- مسألة لم يعد فيها نظرًا!

شرف الدم(*)

سعيد الكفراوى

(١)

واتكأتُ إلى شجرة المستكة أنتظر.

كان ابن عمى قد أعطانى ظهره، وخطا ناحية قبو المقبرة الغربية تعوص قدماه فى لحم الميتين، الذى أصبح بمرور السنين سبخًا بنيًا تذروه الريح.

على عتبة الدار، تحت السراج المطفأ المعلق فى العقد المتآكل، تجلس عمتى "مريم"، عندما أحست بى وضعت كفها على جبهتها وتأملتنى لحظة ثم قالت: "ها أنت قد جئت"، ولما سألتها عن أخى خفقت عيناها الكليلتان وقالت بدون أن تنظر ناحيتى "كلهم هناك" وأشارت بيدها ناحية المغارب، ثم أردفت "يبنون المقبرة".

مرت لحظة صمت وأنا واقف أطل عليها، كومة من عظام، أسمعها تقول لنفسها "الدوام لله، والأمر لصاحب الأمر"، رأيتها تغيب عنى، تتأمل تيار الماء الجارى فى النهر الصغير أمام الدار.

أقف فى الممر الذى يفصل بين المقابر، أتأمل أبو الهول البارك فوق

(*) نشرت فى مجموعة (دوائر من حنين) عام ١٩٩٧.

سعيد الكفراوى (من مواليد ١٩٣٩)، من أعماله القصصية: (مدينة الموت الجميل)، (ستر العورة)، (سدرة المنتهى)، (مجرى العيون)، (دوائر من حنين)، (البغدادية)، (يا قلب من يشتريك)، (شفق ورجل عجوز وصبى).

ظهورها، وأشم رائحة الرماد، شواهد من رخام مطموسة اللمعة تحمل أسماء من رحلوا.

عمى الكهل يجلس القرفصاء بجانب المقبرة، يشد ذيل ثوبه من بين فخذيه ويطل شعر صدره الأشيب من فتحة الجلباب، يكبس على رأسه طاقية من صوف الغنم، وبصعوبة مسح على جبهته التراب. تأملت جلد رقبته المكرمش وتفاحة آدم بارزة وسط خطوط من تجاعيد متقاطعة كالمصير.

عندما رآنى حاول النهوض، لكننى شددت على يديه أن يبقى، كان صامتًا كبيت مهجور، ينظر ناحيتى وقد حفرت الدموع مسارين على وجهه وسط غبرة الرماد.

قال:

- حتى العظام تحمل ملامحها.

سقط رأسه على صدره، وسمعت نشيجه يعلو فى المكان.

كانت المقبرة قد أزيل شقفها القديم، وسمعتهم يتصايحون مع ضربات الفؤوس، ودك الكواريك "انفح التراب من هنا". "الحفر يمضى إلى عمقه" "حاسب العظام. اركنها بجوار الجدار".

خطوت صاعدًا كوم التراب، ونظرت فى عمق المقبرة، كانت عميقة على نحو ما، رطبة، يشيع بها سكون الموت.

ضربات الفئوس، وجهد الرجال الذين يرفعون التراب، والأحجار القديمة السوداء مكومة فى الركن.

راودنى شعور غامض عندما فكرت فيما قاله عمى. اختلج جسدى

وضغطت أضراسى "عمى آخر من بقى من الكبار. يحمل على كاهله سنينه وينتظر فى الرواق القديم دوره".

خرج ابن عمى من مد الظل الممدود، يحمل ألمًا مضاعفًا، بيده جوالاً من الخيش، وكان قبل أن يغيب عنى قد قال لى "جمد قلبك، وهيئه للاحتمال". وعندما نظرت للرجال الذين يحفرون، رأيتهم يتوقفون ثم يرفعون ظهورهم وينظرون ناحيتى بنظرات غامضة بينما يمسحون جباههم بذيول جلابيبهم.

حل صمت مفاجئ، سمعت فيه النبض الحى، وأدركت أنهم يقودوننى بغير ألم فى فجيعة ما. أنا أعرفهم. هم لا يفاجئونك، يسحبونك من يدك على دروب غير واضحة، ويشركونك وقد طقطق منك شعر الرأس.

تعثرت فى الأحجار وكدت أهوى، وتبعت ابن عمى حتى اختفينا عن النظر.

على حصير مفروش فوق ظل التمر حنة، قبض ابن عمى أسفل الجوال وقلبه أمامى. هوت على الحصير الجماجم الخربة، تصطك بعضها وتحدث صوتًا مكتومًا اخترق قلبى. كانت موحشة وشائهة وقد اخترقها البلى والرميم.

شعرت للحظة كأننى أقف على الشاطئ الآخر للأبدية، همست وأنا أتأمل كوم العظم الخارج من لحده القديم.

- أهلى.

قرفص ابن العم مثل ذئب، وجلست أنا على الحصير أمامه.

مد يده وحمل جمجمة واجهنى بها، أخذت أتأمل فجوات العينين والفم والأنف، والجبهة الضيقة، والثلاث أسنان الباقية فى الفك العلوى، وسرعان ما

اكتست العظام باللحم والملامح، وشعت بالنور الإنسانى الحى، وبرقت العينان بالحنان القديم، وتحركت الشفتان ببسمة طيبة منورة، صحت:

- إنها أمى أمينة.

- هى والله.

وخفت أن أمد يدى وألمس رأسها وأنا أراها تحدق ناحيتى بفجوتى العينين الفارغتين.

ركنها ابن العم ورفع الرأس الأخرى فواجهنى الفك السفلى كامل الأسنان بينما العلوى خاليًا تمامًا، فصحت من غير وعى:

- ستى هانم.

- هى، عندما فتحنا القبر، وضربته الشمس رأينا أسنانها تضوى كحبات الماس. وتعرفت على "الطاهرة" أختى، وعمى "عبد المنعم" هؤلاء الذين قضوا فى حياتى قبل أن يرحل أبى.

استندت إلى جذع الشجرة مقهورًا وسألته صارخًا:

- وأبى؟

صمت لحظة، ثم نظر فى عينى، وتشاغل بإشعال سيجارته، حثثته صارخًا:

- أبى؟ أين أبى؟

أجاب:

- لم نجد له أثرًا.

نهضت واقفًا وقد تكاثف رعبى فيما صعد من الأروقة الضيقة صوت المقرئ:

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور).

ووجدتنى أعود إلى الدار طفلاً.. ينتزعنى ما فات مما أنا فيه فى لحظة واحدة.

فناء يسوره الحجر، وحظيرة فى حضنه من لبن أخضر، وكافورة وتوتة، وخلايا من النحل الأليف، وأبى جالس بجرمه الهائل يفتل حبلاً من التيل وينظر ناحيتى، وأنا أمسك بقرنى الحيوان مرتديًا قميصه فيما تعنفنى جدتى: "استر نفسك"، صامت وهائل وكأنه روح المكان.

- يا سلامة.

ابتسم.

- قل يابه يا ابن الكلب.

- خذنى معك الليلة لأسوق البهيمة فى الساقية.

- سآخذك.

وأشعر بدمه ينتفض فى دمى. يمتد من أول الميلاد حتى لحظة أندفس فى حضنه داخل عباءة بنية لها رائحته التى لا تنسى.

فرد بدنه قائمًا، وخطا ناحية النهر، ورأيته يتجرد من ملابسه ويخطو أول الليل إلى الماء، ساترًا عورته بيده، وسرعان ما يغيبه النهر فيما تتلاحق أنفاسه حيث تأتينى وأنا أشاغب مع الحيوان.

وقت ميِّت، والمقابر المتناثرة تنظر لخضرة الأرض بحزن جليل.

مرت لحظات من الصمت نشطت فيها الريح، وذرت التراب فى دوامات خريفية، امتلأ الجو برائحة العظام فصدعتنى الرائحة الصاعدة من الكهوف فهربت ناحية السماء المفتوحة لآخر مداها، ورأيت ركض السحب إلى الفناء.

- أين أبى؟

هتفتُ بها مصحوبة بألم غامض، كنت أنظر إليهم وقد توقفوا عن العمل ينظرون حيرتى ولا يجيبون "أنت الإنسى الفرد الذى رأت عيناه ما رأت" صفر صوت الريح كالجرس، فركضت أتبعه مفارقًا من يحفرون، بينما فى آخر لمحة من نظر، رأيت أخى يقطع بفأسه السحلية نصفين، أحدهما انطمر فى التراب بينما الآخر يرف ملتائًا على نفسه، وأنا أجرى بالشوط برأسى يطن فيه صوت المقرئ الكفيف.

(٢)

الريح والشمس والمطر يهبون على المدينة فيسحبون منها السنين.

وأنا وقد غدوت كهلاً ما أزال أبحث عن أبى. برغم تلك السنين التى سحبتها منى الشمس والريح والمطر إلا أننى لم أتكيف أبدًا مع لوحات النيون، وإشارات المرور، وزحمة الظهيرة، وواجهات العرض، والملصقات بخطوطها المختلفة، مارست عادة تغيير الفصول، وتأمل النهايات، ومقاومة أشواق القلب تجاه أبى الذى لا أعرف إن كان حيًّا أو ميتًا.

بدأت بتدريب نفسى على الخروج من زمن لزمن، أجتر ما جرى يضنى القلب، وأنهض مطوفًا بالأماكن التى كان يألفها أبى.

قطعت الطريق المضفر بالكافور والتوت، مخترقًا الحقول لأجد رفيق عمر أبى جالسًا فوق حصير تضفره ألوان زرقاء وخضراء وحمراء، وبجانبه طاقيته وبيده سبحة من العنبر تتتابع حباتها فى ارتطام رصين، يطل رأسه الصغير من فتحة ثوبه، فيما يشبه وجهه تينة جافة، ويرمش بعينين كليلتين ناحيتى وقد غامت ذاكرته فيما يشبه شبورة الصباح.

عندما سألته عن أبى، لم يجبنى وغاب يتأمل ذلك الطريق الذاهب إلى بطن البلد:

- أبى يا عمى.

قال:

- من ذا الذى يريد أن يرحل قبل الأوان؟

وراح منى حتى لم أعد قادرًا على احتواء ذاكرته، ورأيت وجهه شاحبًا كالقرط، وتذكرت ما مضى عندما كانوا فى مضيفة الدار، شرق البيت، حيث كانت تأتى رائحة المعسل والشاى، وطعم العشاء، ونسوة الدار جالسات على حافة الليل ينتظرن أمر الرجال، وأنا الصغير أنصب الفخاخ على شاطئ النهر للقطا والعصافير أول الصباح.

عدت للسوق المروع بالبشر، وزحمة الحيوان، وأصوات البيع والشراء، هناك كان يقف فى وسطهم فاردًا طوله. قلت: "كان دائمًا وسط الناس"، مسحت المكان بعينى فارتد نظرى حاسرًا، كان يجس الضرع، ويتأمل هامة البهيم فإذا ما ختم بالفرادة والعافية، سحب الشارى حلاله ومضى. وعدت أتكئ على السور ناظرًا إليه وهو يفك مقود الجواد ثم يشدنى من ثوبى ويثبتنى على ظهره، لاسعًا كفله بخيزرانته فيعدو الجواد على السكة التراب، وأنا أصرخ بكل عزم الخائفين، يأتينى صوته "تشبث أو تتكسر رقبتك".

أخلاط من صور، وذكريات قديمة يطفح بها قلبك، وأنت تدور من مكان لمكان. تعود من نفس البداية، وتتشغل بالمستحيل فيما يهرم منك البدن، وينظر لك الخلق باعتبارك أحد البهاليل، يحاصرك زمنك، ولقفة النفس التى تأتى بالحنين والضنى.

أغلقت اليوم خلفى باب منزلى بالمدينة التى أقطنها، نزلت من المترو ودرجت على أرض الميدان، ينحدر الجنود المتورطون بأحذيتهم الثقيلة من بوابة المحطة، يتأملون البنت التى تقف فى كشك بيع الزهور المنداة بالماء.

كانت الشمس حادة صيفية، عندما انطويت على ظلى، وعندما فارقنى صار تحت قدمى فوطئته ومضيت ومضى معى. صدى لرنين ترام، وشارع خفت منه الزحمة وتراجعت حركته. وأنا أقف أرقب واجهات البيوت القوطية، وتماثيل الجص التى تحمل شرفاتها فى صبر السنين، وأبراجًا مدورة ومسدسة يقف على علوها حمام غريب فى مدينة غارقة فى الزحمة والفناء، مدينة لم تعد من لحم ودم.

كانت واجهة المحل الذى أقف أمامه من مرايا مصقولة لامعة.

وكانت الشمس تسقط على بدنى فتعكسه المرايا بجلاء.

والمدينة التى أمضيت بها أفدح العمر تبدو فى هذا الوقت باغية وقديمة، تذكرت فى لحظة المرايا هذه حينما كان يزورنى صاعدًا من مشرق النور حتى هذه الضاحية قرب النهر.

- لا أحد يفرط فيما ورثه.

ويسبقنى على الشاطئ المزهر، واقفًا بالقرب من الماء الجارى، يتقدمنى بخطوات متأملاً تلك المراكب الراحلة بأشرعتها المفرودة بالريح والشمس تغرب المنتهى البعيد.

يغرف بكفيه الماء، ويطوح به ناحية الضوء، فأرى وأنا أتأمله لؤلؤ الماء ينداح كالأحلام.

كانت طرقاتها التى على الباب، والتى أعرفها بعزمها، وصرامتها، أفتح الباب فأراه واقفًا بقامته المديدة، ووجهه الصارم يشيع فيه حنان كالنور، بجانبه، على الأرض "زوادة" من خير، لا يقطع عوايده أبدًا، ينفلت ابنى الصغير من بين قدمى فيلتقطه رافعًا إياه حتى وجهه، هاتفًا به:

- أهلاً سبع الغريبة.

لحظة أشعر فيها بتيار الدم ينتفض، بادئًا من عروقه، مارًا بشراييني حتى ابنى الصغير، الذى يضمه الآن فى حنية.

للكهل الذى يدب بالعصا على الإسفلت ذاكرة حية، وله فسحة من زمن يبحث فيها عن السنين.

نخلة الميدان بلا عراجين، وشجرة البلاد العربية بلا أوراق، وأنا أقف فى زحمة ضوء المرايا يجذبنى الذى يأتى تجاهى من قلب قلب نورها الحى.

من القادم نحوى؟

الكهل الذى وخط رأسه المشيب وانطوى على جروحه؟

كأننى أعرفه، أمضيت معه عمرى منذ ولدت، ومنذ كنت أركب جواد الريح رامحًا على السكك التراب، وأستدفئ فى قماش العباءة الحى.

روعت عندما شبه لى أننى فهمت، لكننى تماسكت، وغلبنى الشعور ببهجة الاكتشاف والتعرف فى هذه اللحظة من العمر الأخير.

قلت: سلالة من سلالة، أب عن جد.

وكنت أخطو ناحية المرايا متأملاً ذلك الواقف فيها، وكأننى أشق الغيوم مثل طائر، الحاجبان، والعينان، والشفتان المزمومتان، ولمعة العين الخاطفة كحد السكين، والحزن المغلف الوجه كقناع قديم، والرأس وقد اشتعل شيبًا.

أخطو وقد ملأتنى البهجة كلما تعرفت على ذلك الذى فى المرآة، كأننى أنسحب من تيار متدفق على أرض غير قلقة، وصوت موسيقى يعلو من محل المرايا، وأنا أتأمل ذلك الذى أعرفه، والذى أمضيت عمرًا باحثًا عنه، منذ تعرفت على الموت فى مقبرتنا النائية.

كنت قد جمعت عزمى عندما صرخت فى الشارع، وقد نفذت الصرخة من الطين إلى الماء.

- أبى.. أبى.

البطيخى يبيع الشيكولاتة

سعيد بكر(*)

متأخرًا التحقت بمدرسة الشيخ عبد الواحد.. كنت قد تجاوزت سن الالتحاق بما يزيد عن عامين وأصبح عايدة الشرمة يغيظنى كلما ذهب فى الصباح إلى المدرسة.. يؤرجح حقيبته يمينًا ويسارًا ويخرج لى لسانه.. الفارق بيننا ليس كبيرًا وإن كان قد سبقنى فى دخول المدرسة.. أبكى فى دهليز البيت وأصرخ فى وجه أمى معاتبًا لأنها لم ترجُ الشيخ عبد الواحد ليقبلنى وكانت تقول وستارة الدمع تكسو عينيها:

- تعرف حالتك..

أغادر البيت وهى تزعق خلفى أن أعود.. أشيح بذراعى مقسمًا أننى لن أعود إليهم مرة أخرى.. يا ولدى عد..

أهيم على وجهى فى الأزقة والحوارى.. أجلس كثيرًا عند عجور أراقب النار وهى تتأجج داخل فتحة الفرن وعجوز يأمر الرجل الواقف أمام الفرن بأن يلقى فى فتحة النار بالمزيد من نشارة الخشب التى يجلبها من مصنع الأخشاب بباب ستة.. يصنع منها تلالاً بجوار باب الفرن ونظل نتقلب فوقها وهو ينهرنا ويسب أمهاتنا الزانيات اللائى تركننا فى الحوارى نشاكس خلق الله ونعطل أعمالهم.. كنا نبدر النشارة فى الحارة كلها فيروح بنفسه يجمعها بالمقشة

(*) سعيد بكر، من مجموعاته القصصية: (عويل البحر)، (الصعود على جدار أملس)، (هزيمة فرس أبيض)، (الشمس لا تدخل القبو)، (شهقة).

المصنوعة من جريد النخيل ويكومها عند مدخل الفرن من جديد.. كنا لا نجد شيئًا يشغلنا فى الصباح حين تخلو الحارة من زعمائنا الكبار بذهابهم إلى المدرسة، نجوب الأزقة الخلفية نقطف حبات من التفاح الأمريكانى من الشباسى العجوز الذى يقذفنا بما تصادف بيديه وهو يبتسم قائلاً:

عفاريت.. فترد عليه أم شيحة البربرية بائعة الجاز والخردوات التى كثيرًا ما تعلق بها رائحة الجاز رغم حرصها ألا تمس الخردوات الرقيقة قطرة واحدة من البرميل الكبير الموضوع فى ركن الدكانة الضيقة والذى لا يترك لها مساحة كافية للتنقل بين الأرفف المثبتة عشوائيًا فى الجدران الأربعة. - الأولاد أحباب الله. ولأنى أكبرهم سنًا فقد كنت البديل للزعماء الكبار فى فترة الصباح وأثناء وجودهم بمدرسة الشيخ عبد الواحد.. اعتدت على اللقب الذى ألصقه بى عايدة الشرمة وأستجيب سريعًا لمن يدعونى به.. لم أعد أخجل من منظر قدمى الغريبتين واللتين ولدت بهما هكذا دون رغبة منى فى الاحتفاظ بهما.. كثيرًا ما كنت أفكر فيهما وأهمس لنفسى لماذا أنا بالذات الذى خلقنى الله بهاتين القدمين المشوهتين.. وتقول أمى ناهرة إياى:

- لا تقل هذا.. لا تكفر..

لم أكن أفهم ما الكفر ولكنى تألمت كثيرًا لأن الله وهبنى هاتين القدمين ولم يهبنى مثل قدمى عايدة الشرمة الذى يتباهى بقدميه ويزهو بهما أثناء إصابته للأهداف فى مرمانا وما يجعل أولاد الحارة يتحمسون له ويتجمعون حوله ويتمسكون به فى فريقهم دونى وهم يرددون:

- لا نريد كسح..

نتسكع بلا هدف.. قد نلعب البلى مع أولاد الحارات الخلفية.. يكسبون

ما معنا إلى آخر بلية فى حوزتنا وقد نختلف على الفائز والخاسر هنا فتشتبك أيادينا ونتعلق برقاب بعضنا البعض.. حين ينهكنا التجوال والجرى هربًا من أصحاب الدكاكين الصغيرة نعود إلى مريضنا المفضل فى دهليز بيت أم الشامية.. الدهليز كبير وواسع به سلالم مستديرة تحصر أسفلها مكانًا واسعًا نختبئ فيه عن العيون.. نحصى غنائمنا من البلى وما اختطفناه من الشباسى وأم شيحة البربرية وعجوز الفران.. نقتسم الغنائم بالتساوى وإن كان البعض يريد أن يهبنى جزءًا من نصيبه تفضلاً واستحسانًا لقيادتى لهم فى الحوارى ولأننى العيدل فى الفترة الصباحية وقنوع النفس ولا أجور على نصيب غيرى كما يفعل عايدة الشرمة الذى يستولى فى أحيان كثيرة على غنائمنا كلها بالقوة ودون أن يفوه أحدنا بكلمة رفض.. موقعنا أسفل السلالم يحمينا من بطش آبائنا وأمهاتنا لأن الساكن الأرضى للبيت غالبًا ما يكون فى الخارج طوال النهار وهو رجل طيب القلب لا يؤذى أحدًا وإن كان يغضب فى أحيان نادرة علينا ويشخط فى وجوهنا:

- ماذا تفعلون هنا يا أولاد الكلب.

ويصرخ خلفنا محذرًا إيانا بالعودة مرة أخرى:

- لو رأيتكم هنا سأقطع أرجلكم.

فى بعض الأوقات لا نفهم سر غضبه المفاجئ لأنه كثيرًا ما يرانا نقيم أسفل السلم نلعب ملك أم كتابة دون أن يثور.. بل يضحك فى وجوهنا..

لا ندرى لماذا أطلقنا على الرجل لقب البطيخى.. هل لأنه يبيع البطيخ فى الشادر الكبير الذى ينصبه فى المساحة الشاغرة أمام باب عشرة أم لأن له رأسًا مستديرًا ويشبه كثيرًا البطيخ الذى يبيعه.. ولكن الرجل تعود على ندائنا له بالبطيخى حتى شاع الاسم فى الحارة كلها والتصق به.

ذات يوم عدنا من تجوالنا فى الحوارى بلا غنيمة تذكر.. الشباسى العجوز لم يعد يضع الفواكه أمام الدكان بل أخلى لها مكانًا بالداخل وحرص على الجلوس أمامها اتقاء لأيادينا المتطاولة على بضاعته.. جيوبنا خاوية وريقنا أصابه الجفاف ولم نشأ أن نرجع إلى بيوتنا فتتلقانا أمهاتنا بالسباب والقذائف طاردين إيانا من جديد فى الحوارى.. جمعنا دهليز بيت أم الشامية.. تحيرت عقولنا فى البحث عن شىء يلهينا ونمضى به وقت الصباح الطويل.. لكن شيئًا لفت أنظارنا أسفل السلالم.. لاحظت عيوننا بروز قالب طوب فى الحائط لم يكن على هذا الوضع فى المرات الكثيرة التى تأوينا أسفلها حوائط السلم.. جاهدنا فى انتزاع القالب من باب التسلية لا أكثر فلم نكن ننتظر الظفر بشىء من الحائط.. ولم يخطر ببالنا أننا سنعثر على شىء فى جوف القالب المنزوع.. لكن المفاجأة أذهلتنا تمامًا.. القالب محشو بقطع كثيرة وصغيرة مغلفة بالورق السيلوفان مختلف الألوان.. حين انتشرت القطع على الأرض هتفنا جميعًا فى صوت واحد:

- شيكولاتة..

كانت تشبه قطع الشيكولاتة التى تبيعها أم شيحة فى دكانتها الصغيرة.. عمتنا فرحة طاغية.. رحنا نتقاسم الغنيمة التى لم نجهد كثيرًا فى الحصول عليها.. هبطت علينا من السماء.. بدأت تلعب برءوسنا ألوان الورق السيلوفان البراقة فدب بيننا الخلاف.. بعضنا أراد الظفر بالورق السيلوفان الأحمر.. وآخرون أغراهم اللون الأزرق.. تخاطفت أيادينا القطع وأصبحنا نتدافع بالأذرع والسيقان.. تلقت وجوهنا صفعات طائشة.. وبكى صغارنا فى السن وانتحوا ركنًا مؤثرين السلامة.. صال أقوياؤنا.. حاولت قدر طاقتى أن أوقف الصراع الذى دب بينهم.. لم أستطع.. تناثرت القطع فوق أرض الدهليز وداستها الأقدام.. انتقلنا دون إرادة إلى الزقاق متدافعين بأيدى بعضنا البعض.. تعالت

أصواتنا.. تصادف مرور أبى قادمًا من قمة الزقاق.. نهرنا ودس جسده بيننا.. حاول التفريق بيننا فلم يكن بمقدوره إلا أن صفع وجوهنا بعنف.. وقفنا ننظر إليه وأنفاسنا المتهدجة نسمع لها صوتًا كالفحيح.

- لماذا تتشاجرون؟

ولمح ما بأيدينا فتساءل:

- ما هذا..؟

قلنا معًا:

- شيكولاتة..

- من أين أتيتم بها..؟

وفى صوت متداخل:

- بير السلم..

انتزع من يدى واحدة.. فتحها بعناية.. بحلق فيها بحذر.. وراح يغمغم بكلمات لم نفهمها.. قربها من أنفه وتشممها بحرص

- هل أكلتم منها..؟

- لا..

ثم انحنى يجمعها من بين أصابعنا وهو يقول:

- لو وصلت إلى بطن أحدكم لمات من فوره..

جزعنا.. حمدنا الله لأننا لم نذقها.. عاد أبى يبتسم فى وجوهنا ثم دس يده فى جيب بنطلونه وأخرج قطعًا معدنية.. ناول كل واحد منا قطعة قلبناها فى سخرية دون أن نتحرك.. شخط فى وجوهنا:

- لماذا تقفون هكذا.. هل تريدون أن أسترد نقودى..؟

هرولنا مبتعدين.. نادانى.. ما كدت أقف أمامه حتى غرز فى وجهى سبابته مهددًا:

إياك أن تخبر أحدًا بما حدث.

وهتف خلف ظهرى وأنا أعدو نحو الأولاد:

- ولا أمك..

كرهت أنانية أبى الذى استحوذ على الشيكولاتة كلها مغريًا إيانا بقطع من النقود الفضية وتساءلت هل سيأكلها أبى وحده أم سيوزعها على من فى البيت فيهب كلاً منا عددًا لا بأس به..

قبيل الغروب حل بجسدى التعب والإرهاق فقلت لأمى:

- سأدخل لأنام..

- نوم الظالم عبادة.. طول النهار أنت وأبوك لا نعرف لكما مكانًا..

قلت وأنا أفرك عينى:

- أبى الآن عند كعبورة..

- ماذا يفعل عند كعبورة...؟

- يدخنان الشيكولاته التى عثرنا عليها فى دهليز بيت أم الشامية.. لون الغضب وجهها حين ذكرت بيت أم الشامية التى استولت عليه من أبى بحيلها وطرقها المريبة وأمى لا تعترف بملكية أم الشامية للبيت رغم أن أبى قد أظهر لها حجة الملكية حتى تتخرس وتسكت.

- ألم أنهك عن اللعب فى بيت أم الشامية خطافة الرجال..؟

- لماذا لا ألعب.. أليس بيتنا..؟

مصمصت بشفتيها وقالت فى حسرة..:

- ادخل لتتم أفضل لك ولى..

ولكن طرقات على بابنا الخشبى اقتلعت جذورى فانتفضت وغمغمت أمى:

- اللهم اجعله خيرًا..

هرولت نحو الباب لأفتحه.. امتدت يد من الخارج وطوقت عنقى.. البطيخى بصلعته المستديرة واللامعة يلتف حوله أولاد الحارة:

- أين الشيكولاتة التى عثرت عليها..؟

فى صعوبة أجبته:

- أخذها أبى.

- وأين أبوك..؟

- عند كعبورة.

أطلق سراحى واندفع إلى الخارج.. جزعت أمى وهى غير فاهمة لما حدث وهرولت خلف البطيخى.. لم ينتبه أبى أو كعبورة إلى البطيخى الذى دفع باب الحجرة الصغيرة وهما يفترشان الحصيرة ويستندان إلى الكنبة خلفهما.. رائحة قوية ونفاذة هبت على وجوهنا حين انفتح الباب على اتساعه ورفع أبى عينيه قائلاً:

- تعال خذ نفسًا..

أدركنا أن أبى ليس فى وعيه تمامًا وكان كعبورة منطرحًا إلى جواره كجثة هامدة.. صرخ البطيخى:

- أين الشيكولاتة التى أخذتها من الأولاد..

أدركت أن البطيخى كان متحرجًا من البوح بالحقيقة على الأقل أمام أمى التى راحت تنتظر نتيجة ما تراه.. ضحك أبى ضحكًا غريبًا ارتج له بطنه المنتفخ ثم دس مبسم الجوزة التى صنعها كعبورة بيديه من زجاجة خل مستديرة وعود من البوص فى فمه وقال وهو ما يزال يضحك:

- فى بطنى..

ولطم البطيخى خديه فى عنف صارخًا:

- يا خراب بيتك يا بطيخى..

أقعى إلى جوارهم وهو يضرب صلعته بعنف:

- خربت بيتى الله يخرب بيتك..

كنت أعرف أن أبى لم يأكل الشيكولاتة كلها إنما خبأها فى صندوقه الخاص الذى يضم أغراضه ثم أغلق عليها الغطاء بالقفل الكبير.. التفت إلينا البطيخى وهو يرفع يديه فى الهواء وبان كدر شديد على وجهه ونظر إلى أمى التى ظهر عليها أنها تقززت منهم فأولتهم ظهرها وخرجت إلى الحارة.. وصرخ البطيخى:

- أموال ناس يا هوه..

وقال أبى زاعقًا:

- شق بطوننا لتحصل على أموالك..

ولما لم يجد البطيخى جدوى من أبى الذى بدا مسطولاً تمامًا خرج إلى الحارة وراح يمرمغ نفسه فى ترابها وهو يلطم ويشد سوالفه الباقية فى رأسه الصلعاء.. لولا عبثنا ما اكتشف أحد أن البطيخى يتاجر فى المخدرات.. لم يعد يظهر فى الحارة.. لا يدخلها إلا والليل يكحل جنباتها.. كما انقطعت العلاقة بينه وبين أبى ولم يعد يساعده فى بيع البطيخ فى الشادر الكبير وكانت أمى تقول له:

- قطعت رزقك بيدك..

فيضم شفتيه إلى بعضهما البعض ويضرط بفمه قائلاً:

- طظ.

يوم من الأيام

سعيد سالم(*)

صباح اليوم

استيقظت فى السادسة ككل صباح، حولت الأيام جسمى إلى روبوت مبرمج. منذ زمن بعيد أتمنى أن أصحو لصلاة الفجر. حاولت كثيرًا أن أوفق بين الاستيقاظ فى الرابعة والنصف للصلاة، والذهاب إلى العمل فى الثامنة فلم أفلح، ذلك لأننى أعجز عن مواصلة النوم بعد الصلاة فأتوجه إلى العمل مصدع الرأس معتل المزاج، فتقل كفاءتى المهنية وأثور لأتفه الأسباب.

ارتديت الترينج سوت استعدادًا لجولة مشى وهرولة حول التراك بالنادى عملا بوصية الطبيب لتوسيع شرايين قلبى الضيقة، والتى أساهم فى ازدياد ضيقها بالتدخين والقهوة والشاى متعللا بأن هذه المكيفات ترفع من ضغطى المنخفض فتحفظ توازنه.

أعرف الكثيرين من غير المدخنين ماتوا بالقلب والضغط المرتفع والضغط

(*) سعيد سالم: من مواليد الإسكندرية، ١٩٤٣، المجموعات القصصية المنشورة: (قبلة الملكة)، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ١٩٨٧، (الموظفون) اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ١٩٩١، (الجائزة) قايتباى للطباعة والنشر، ١٩٩٤، (رجل مختلف)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، (الممنوع والمسموح)، مختارات فصول، ٢٠٠٢، (أقاصيص من السويد)، هيئة الكتاب، ٢٠٠٥، (قانون الحب)، (الكتاب الفضى)، ٢٠٠٦.

المنخفض وضيق الشرايين. بجوار البيت كان صندوق القمامة الذى وضعته الشركة الأجنبية بعد فشل الإدارة المحلية فى تنظيف المدينة، رأيت سيدة تنبش فى الصندوق لتستخرج منه بقايا طعام سكان العمارة، وبجوارها كلب يؤدى نفس العمل، أولتنى ظهرها فى خجل حتى لا أرى وجهها.. أنا الآخر تظاهرت بعدم رؤيتها احتراما لكيانها الإنسانى.. بطرف عينى لاحظت أن ملبسها لا يوحى بالتشرد قدر ما يوحى بالفقر. ليس من عادتى أن أحمل معى نقودا خلال تلك الجولة، فالنادى قريب جدًا من البيت، أصل إليه وأعود منه ماشيًا، ساعة كاملة قضيتها ماشيًا تحت سطوة شعور جارف بالذنب أفقدنى بهجة اليوم فلم أستمتع بجمال الخضرة وألوان الزهور وزقزقة العصافير على أشجار النادى ككل يوم.. شغلت بالتفكير فى نظام الكون وتوزيع الحظوظ على البشر فتبين لى أنه سر يحير الإدراك وقد يذهب بالعقل. تأملت عصفورا صغيرا يضرب بمنقاره فى النجيل ليستخرج دودة طويلة سمينة من باطن الأرض، ظل يطوح بها بمنقاره يمينا ويسارا محاولاً أن يقطعها ليسهل عليه ابتلاعها دون جدوى، حتى جاء عصفور كبير فخطفها منه وطار، ظللت أتأمل وجه العصفور المسروق طويلا حتى طار متعقبا خصمه.

لقد لمحت وجه تلك السيدة فى نفس اللحظة التى توارى فيها كل منا عن الآخر لأسبابه الخاصة، نعم لقد كان وجهها شاحبا حزينا، لكنه كان يحمل بقايا جمال قديم شرخته الأيام، ولمدة كسر من الثانية لمحت فى عينيها تلك النظرة الكسيرة المنهزمة فانتابنى شعور قوى بأننى وحش كاسر عديم القلب والإحساس والضمير، عدت إلى البيت وبعد خروجى من الحمام أفطرت جبنا وبيضا وزيتونا وبصطرمة ومربى وشربت الشاى ودخنت سيجارة لأؤكد لنفسى ذلك الشعور القوى الذى انتابنى أمام نظرة تلك السيدة.

أثناء الإفطار سقطت منى قطعة من الجبن على الأرض فألقيت بها فى سلة القمامة المنزلية الأنيقة لأدعم من تأكيدى على نفس الشعور وأتلذذ بتعذيب نفسى وأمعن فى إذلالها، انتقاما من ذلك المشهد الافتتاحى على باب منزلى ليوم من أيام حياتى التى لم أفهم لها معنى محددا حتى الآن. لقد كنت على يقين أننى أحد المسئولين عن وقوع هذا المشهد وأن حسابنا جميعًا سوف يكون عسيرًا فى الدنيا والآخرة.

ما إن جلست إلى مكتبى حتى جاءنى الساعى بالقهوة المحوجة ووضع لى وردًا جديدًا بالفازة ورش الحجرة بالعطر وأدار جهاز التكييف، حين أشعلت سيجارتى الثانية وذهنى خال تمامًا عن الديدان والسيدة والعصافير الصغيرة والكبيرة وصناديق القمامة وحكام العالم الثالث وسياسة الغاب التى صارت تحكم العالم.

تصفحت الجرائد كان برجى يقول احرص على سعادتك من عيون الآخرين.. كانت العناوين الرئيسية فى صفحة الحوادث تشير إلى العديد من قضايا الفساد، وكانت دخول أبطالها جميعًا تبلغ ملايين الجنيهات والديدان وقطع الجبن الملقاة فى سلال القمامة الأنيقة.. كعادتى لم أستغرق أكثر من دقائق قليلة فى النظر إلى العناوين، ثم بدأت العمل بالجلوس إلى الكمبيوتر لمتابعة الرسائل الإلكترونية الواردة إلى المكتب.

ظهر اليوم

أعدت زوجتى سمكا مشويا وإوزا بطعام البحر وسلطة خضراء وسلطة طحينة، ولأن أحد الأبناء لا يأكل السمك فقد أعدت له شرائح من اللحم المشوى، أكلت بشراهة بعد أن تأكدت تمامًا ـ مرة أخرى ـ من أننى وحش كاسر عديم القلب والإحساس والضمير.

اتجهت إلى فراشى لأنام ساعتين ككل يوم حتى أستطيع أن أسهر مع كتبى وقراءاتى المتنوعة التى لا تنقطع. قبل النوم قلبت الريموت فى قناة تصور مشاهد اقتحام الجيش الإسرائيلى لبيوت الفلسطينيين بالدبابات والجرافات، بينما الأطفال يجرون يمينا ويسارا وهم يقذفونهم بالحجارة.. غيرت القناة فظهر جنود الجيش الأمريكى وهم يقتحمون بيوت العراقيين ويفتشون نساءهم وأطفالهم ويضربونهم بكعوب البنادق. سارعت بتغيير القناة فظهرت فتاة نصف عارية تتلوى وهى تتغنى بكلمات شديدة التفاهة. أغلقت الجهاز ورحت فى نوم عميق.

قمت من النوم متجها إلى الثلاجة، التهمت ثمرتين كبيرتين من المانجو ثم شربت زجاجة مياه معدنية مثلجة كاملة، وقلت الحمد لله من صميم قلبى على نعمه التى يخصنى بها ويغرقنى فيها، وأنبت نفسى كثيرًا على قلة شكرى له، ثم طمعت فى ثمرة ثالثة ما إن قطعتها بالسكين حتى وجدت دودة طويلة تسرح فى قلبها. كدت أتقيأ ما أكلته وسارعت بإلقاء الثمرة المعطوبة فى سلة القمامة الملونة الأنيقة.. وفى تلك اللحظة ترامى إلى سمعى نباح كلب يأتى من الشارع.. كنت ناقما بشدة على البائع الذى خدعنى لأننى لا أسرق النقود التى دفعتها له، وأنا أعمل بها من الثامنة صباحا حتى الثالثة من بعد ظهر كل يوم من أيام حياتى التى ما زلت أحاول عبثا أن أفهم لها معنى محددا حتى الآن!

شربت الشاى وأجريت بعض المكالمات التليفونية مع أصدقائى وصديقاتى وهم كثيرون لا حصر لهم، ومعظمهم لا يرجى منهم نفع ولا فائدة، أما أضرارهم فلا مفر منها ولا مهرب من ضرورة تحملها فأنا لا أستطيع العيش بدونهم لأنى أكره الوحدة وأمقت العزلة والتقوقع.

جاء البواب ليحمل كيس القمامة من داخل السلة ويضعه فى صندوق القمامة الكبير الموضوع إلى جانب باب المنزل. كنت قد طلبت منه أن يشترى لى

قاروصة سجائر ومزيلا للعرق. أعطانى بقية الحساب فنفحته بقشيشا لا بأ س به وانصرف غير شاكر لاعتياده على ذلك.. وللحق فهو لا يتبرم عندما لا أعطيه شيئًا وكأن الأمرين لديه سواء، وهذا ما يثير دهشتى أحيانًا.. الفارق كبير بين نظرة الاستقرار والطمأنينة الساكنة فى عينيه، ونظرة اللوم الدفينة الناطقة فى عينى السيدة، والتى تبدو كما لو كانت موجهة إلى الكون بأسره، وكان يحيرنى كثيرًا أننى لست أدرى هل كانت تبحث عن الطعام فى نفايات الصندوق لنفسها فقط، أم أن هناك أفواها أخرى كانت فى انتظار هذا الطعام. شعرت باحترام شديد لشجاعتها وواقعيتها ورفضها الاستسلام لليأس، ومن ثم فقد تعاظم شعورى إياه وتضاعفت حدته، لكنى لم أجرؤ على التفكير فى قتل نفسى قصاصا من أى شىء، فعرفت أننى لا أختلف كثيرًا عن الدودة التى كانت تمرح فى ثمرة المانجو أو الكلب الذى كان يشارك السيدة فى البحث عن الطعام.. حقًا لقد عرفت ذلك والتزمت الصمت!

بعد المغرب

جلست فى الصف الأمامى بالقاعة التى عقدت فيها الندوة، مدفوعا بنهمى الشديد إلى مراقبة أحوال البشر عن قرب، وتأمل نظرات أعينهم والنفاذ قدر المستطاع إلى أعماق سرائرهم بعد أن يتحولوا إلى كائنات أخرى بفعل تحول ظروفهم من فقر وفاقة إلى ثراء وجاه، ومن ضعف وذلة إلى قوة وتجبر.. بعبارة أخرى أنا مجنون بمراقبة فعل الزمن على الناس وأشيائهم رغم ثقتى بانعدام جدوى تلك المراقبة على الإطلاق.

كانت الضيفة كاتبة شهيرة تمت إلىَّ بصلة قرابة بعيدة، وهذا أحد دوافع حضورى فضلاً عن اهتمامى بعنوان الندوة الذى تزايد بعد حادثة الصندوق.

عرفت منذ صباها وهى تخطو خطواتها الأولى فى دنيا القلم. كان تواضعها الاضطرارى فى التقرب إلى أهل الثقافة وهى تعرض عليهم بضاعتها.. اليوم أصبحت كاتبة ذائعة الصيت. دخلت إلى القاعة فى خيلاء تحفها كوكبة من الصديقات والأقارب وقد ارتدت فستانا فاقع اللون وإن كان أنيقا كل الأناقة فى تفصيله على جسدها. كان موضوع الندوة حول التكافل الاجتماعى، وكانت كمية المساحيق والأصباغ التى وضعتها على وجهها قد عجزت تمامًا عن إخفاء كهولتها وفشلت فى مداراة جلدها المتغضن وتجاعيده الغائرة.

بين اللحظة الأخرى كانت تزيح خصلة شعرها المستعار بعيدًا عن عينيها برقة مصطنعة. بدأت بالحديث عن تاريخها الأدبى وقد تركت فتحة قميصها عند الصدر عرضة للهواء! ولأننى لم أكن قد رأيتها منذ سنين عديدة فإننى فى البداية لم أكد أعرفها على الإطلاق، وحين تقدمت لمصافحتها قبل صعودها إلى المنصة ادعت أنها لا تذكرنى وأنها تبذل جهدا ملموسا حتى تتذكر من أنا!! كان من المستحيل أن أذكرها بما كان بيننا فى يوم من الأيام. ولما صرحت لها باسمى سألتنى فى برود عن أحد أشقائى ثم تجاهلتنى بذكاء، لم لكن يا لها من جبارة تلك السيدة التى استطاعت قدماها أن تحملاها لتتحنى على صندوق القمامة باحثة فيه عن بقايا طعام.. إنما الجبار الحقيقى هو الزمن الذى يعبث بعيون البشر فينطقها بما يكتمون.. كانت السيدة تغطى شعرها بطرحة سوداء كالحة، وحين تحدثت الكاتبة الكبيرة عن التكافل الاجتماعى أكدت على أن الحب بين أفراد المجتمع هو الحل الذى لا بديل له لقيام التكافل، وإذا بأذان العشاء ينطلق من ميكروفون مسجد قريب، فتوقفت عن متابعة الحديث حتى انتهى الأذان وكف الحاضرون عن الثرثرة، ثم

فوجئت بسيل عارم من هجوم الشباب بأسئلة وتعليقات عن التفاوت الرهيب فى دخول المواطنين وعن البطالة وعن الوساطة فى تعيين أبناء الواصلين وعن اغتراب وعن تزايد معدلات الجريمة، إلى أن وقف أحدهم قائلا لها:

حدثينا عن الظلم لا عن التكافل لو كانت لديك الشجاعة الكافية!

تعثرت فى الرد وارتبكت فلم تقدم للشباب كلاما مقنعا سواء من منطلق دنيوى نسبى أو من منطلق دينى مطلق، لم أعرف لارتباكها سببا وهى المتمكنة من التلاعب بالكلمات، لكن يبدو أن الواقع كان أشد سطوة من بيانها.. كما أننى لاحظت أنها كانت ترمقنى فى غير ارتياح وهى تتكلم من حين لآخر، ولما لم أجد جدوى من مواصلة التواجد فى قلب هذه المهزلة غادرت المكان وكلى دهشة لعدد الصحفيين والمصورين الذين جاءوا لتغطية هذه الندوة الفاشلة، فى طريقها إلى باب الخروج سمعت تعليقا عابرا من شاب يقول:

ليتها تموت وتريحنا هى وأمثالها من الكذابين.

مساء اليوم

فى طريقى إلى نادى اليخت المطل فى دلال على البحر، كنت أرقب فى شغف صناديق القمامة المرصوصة بطول الشاطئ، وكان الناس كثيرين جداً يأكلون ويتمتعون لاهين بالأمل غير عابئين بشىء.. والنساء يدخن الشيشة على المقاهى بجوار أزواجهن السعداء... فما الداعى للقلق وعقد الندوات للحث على التكافل، وما هم بحاجة إليه، فكل يتكفل بنفسه ويحصل على طعامه بأية وسيلة حتى ولو من داخل صندوق قمامة.. أنا مثلاً مدعو للعشاء مع شلة اليخت على سمك مياس وبلح بحر وما تيسر من مشروبات نختمها عادة بالقهوة ونظل ننفث دخان سجائرنا فى الفراغ. انطلقت صهاليل النساء فى أرجاء المطعم

الفسيح المكيف فشعرت بنشوة الحياة.. أنا لا أحب التجمعات الذكورية المملة الخالية من النساء، بل إنى أرى فيها شذوذا عن طبيعة الحياة السوية التى تجمع بين الرجل والمرأة فى كل شىء.

على استحياء ناعم سألت إحداهن طبيب أمراض جلدية عن علاج حكة يعانى منها قريب لها فى مكان حساس، أيقنت على الفور أنها تتحدث عن حالتها هى إذ يمنعها الحرج من المصارحة أمام الملأ. كان زوجها المهندس المعمارى جالسا إلى جوارها منهمكا فى الحديث مع حسناء مطلقة عن كلب زوجته الذى يقاسمه نصيبه من الجمبرى، قالت زوجة الطبيب وهى تتمتع بخفة ظل لا تخلو من خبث جميل.

- تكلمى بصراحة يا سوزان لا حياء فى الطب من هو المريض؟

نظرت سوزان من حولها فى حرج غير أصيل محاولة كتم ضحكة تلح عليها ثم قالت:

- سأقول اسمه فيما بعد.

استعرض الطبيب أسباب الحكة المحتملة فأوقع سوزان فى حيرة ألزمتها الصمت، حين أصرت زوجة الطبيب على مطاردتها.

- من هو يا سوزان؟

عندما انتبه زوج سوزان إلى الحوار حسم الأمر قائلا:

- روكى

- كلبك؟!

صاحت زوجة الطبيب بنبرة تفيض عطفًا وحنانًا وإنسانية

- يا حبيبى

وهنا أكد الطبيب أن سبب حكة روكى هو أكل الجمبرى، ثم تبين أن صاحبته تطعمه كميات هائلة من الشيكولاتة فحذرها الطبيب من إصابة الكلب بمرض السكرى وأكد لها أنه سوف يصاب بالعمى لو استمرت فى تدليله بهذه المأكولات، كادت سوزان تبكى وهى تؤكد أنها أجرت له عملية كتراكت فى عينيه من قبل، لكنه لم يشف حتى الآن.

ثم انتقل الحديث إلى كلب الطبيب هونى حين هاجمه كلب آخر أضخم منه فطرحه أرضا مما أدى إلى كسر ساقه - وقد حدثت هذه الواقعة فى أمريكا - وأجريت عملية جراحية للكلب فتم تخديره وتجبيسه بالفيبر جلاس - بعد أن اختارت الزوجة لون الفيبر المفضل لديها والمتجانس مع لون الكلب - وكان جيرانه الأمريكان دائمى التردد عليهم للسؤال عن تطور صحة هونى والطمأنينة على حالته النفسية بعد نجاح الجراحة التى كلفتهم ثمنًا باهظًا.

آخر الليل

كانت زوجتى مهيأة فوق العادة لاستقبالى وكان مزاجها رائقًا، أما ابتسامتها فكانت موحية بقضاء ليلة سعيدة.. ثم نمت نومًا عميقًا فلم أشعر بنفسى إلا حين دقت ساعتى البيولوجية معلنة السادسة من صباح يوم جديد.

استشارات ثلاثة
لباشكاتب حزين على عمره

سعيد نوح(*)

استشار عبد العظيم محمود الشهير بـ"أبو ريعو" الله والهدى الإسلامى والشيخ مجدى فى موضوع الإسهال الذى أصابه.

أما الله فقد ظل ثلاثة أيام يسأله وهو يتناول القهوة الموضوع عليها ليمون وحبات الحمص الناشف أن يخفف عنه ألمه، وبعد أن يئس استشار "الهدى الإسلامى" الذى ذهب إليه فى تمام الساعة السادسة والنصف من مساء اليوم الرابع وبعد أن دفع مبلغ ٣ جنيهات وأمسك فى يده بورقة تحدد دوره فى الكشف أمام دكتور لم يعرف اسمه، وخرج من عنده وفى يده ورقة أخرى مكتوب بها مجموعة من الأدوية دفع فيها مبلغ ١١ جنيهًا وصار لمدة عشرة أيام يتناول تلك الأدوية دون أن يظهر أدنى نتيجة تذكر مما جعله يستشير الشيخ مجدى أخا زوجته والذى كان يتابع استشارته السابقة عن كثب. ولما كان الشيخ مجدى ذو الأربعين ونيف من الأطباء الذين أخذوا العلم الطبى من مجموعة الأمراض التى أصيب بها هو وأبوه وأفراد من عائلته، وتعمق فى الطب حتى إنه ترك كل شىء تعلمه فى مدرسة التجارة المتوسطة، وتفرغ للطب من لحظة أن عينه مكتب العمل فى عيادة شركة النصر للسيارات فى بدايات السبعينيات ومن هنا قرر الدكتور مجدى أن يبدأ معه من الصفر، لم تطل فترة الاختبار

(*) من مجموعاته القصصية: (أوراق العربة الجنوبية)، ١٩٨٩.

لأكثر من أسبوع قرر خلالها الشيخ مجدى أن يرمى بثقله الطبى بعد أن يئس من مراجعة كل حالات الإسهال ومنحه بعض "السفوف" ذات الألوان المختلفة، ولقد شاء الله أن ينصر الدكتور مجدى وينقطع الإسهال بعد ساعات خمس فقط من تناول عبد العظيم "السفوف" مما جعله يبش فى وجه زوجته ويقول لها:

- يظهر سر الشيخ مجدى باتع يا أم ريعو.

- ما انا قلتلك من الأول يا ابو ريعو دة غاوى، وبيقرا، ومطلع.

- عندك حق والله.

قالها بفم مليان قبل أن يهز يده ورأسه فى الهواء ويضيف:

- يا خسارة الفلوس اللى دفعتها عند الدكتور الحمار بتاع الهدى.

- فداك يا بو ريعو، الحمد لله ان ربنا كرمك يا اخويا.

مضى الليل وجزء كبير من النهار دون أن يدخل عبد العظيم الحمام، ولا مرة واحدة مما جعل الفأر يلعب فى عبه وهو يجلس فوق التربيزة المهكعة أمام مبنى المحكمة. بعد مضى ساعات ٢٤ وبالتحديد فى نفس الساعة التى شرب فيها الحبوب مختلفة الألوان أحس بألم شديد فى معدته مما جعله يجأر بصوت أصاب زوجته بحالة هستيرية لم تتخلص منها إلا وهم فى عربة جارهم أبو عيون زايغة المدعو سيد حسين الذى أغاثها، وحمل هو وباقى سكان البيت عبد العظيم وذهبوا به إلى مستشفى النصر للتأمين الصحى، رفض الأطباء التدخل للكشف عن ما يصيب المدعو عبد العظيم والذى كان يجأر إلا بعد أن يروا كارنيه التأمين الصحى. ولما كان المدعو يعمل عرضحالجى على باب الله ونيابة ومحكمة حلوان لم يجدوا بدا من الذهاب إلى المستعصية (مستشفى حلوان العام).

- هو خد إيه؟

سؤال خرج من فم الدكتور النبطشى فى الاستقبال.

- هو كان عنده إسهال وبعدين اخويا الشيخ مجدى.

ثم رفعت يديها فى اتجاه السماء وهى تضيف:

- ربنا يستره يا رب ادى له شوية حبوب خف والحمد لله بعد اما عَلبنا فى اللف على الدكاترة الأسبوعين اللى فاتوا.

- وأخوكى الشيخ اسمه إيه دة اللى ربنا..

لم يكمل كلامه نظرًا لتدخل الأخت التى لم تتركه يكمل وقالت له:

- الشيخ مجدى يا اخويا.

- الشيخ مجدى بتاعك ده دكتور؟

- لا ، بس هو قارى ومطلع وياما عيى كتير، وكتر الحزن يعلم البكا.

- آه، دهة بقى الباز أفندى قارى ومستوعب الأشياء.

- لا دة الشيخ مجدى اخويا انا.

- ما انا عارف طبعًا انه هبابك يا ست انتى يا متخلفة.

- الحقونى، بطنى هتتفرتك. اعملوا معروف، أبوس إيديكم.

بتلك الجملة أنهى عبد العظيم الكلام حول أخيها الشيخ.

- طب اعمل معروف الحقه، ثم اقترب منه وهو يضيف:

- شوف الراجل اللى بيفرفر قدامك وبعدين نشوف الغلط على مين.

عرض قدمه الحاج محمود صاحب البيت الذى يسكن فيه أبو ريعو، وهو يمسك بيد عبد العظيم الذى صار وجهه أزرق.

- ما انا لازم أعرف إيه الحبوب اللى خدها.

- اعمل له غسيل معدة يا دكتور.

عرض آخر تقدمت به الست أم حسنى جارة المريض والتى صممت على الذهاب معه إلى المستشفى للاطمئنان عليه مثلما فعل أبو ريعو – ذاته – مع المرحوم زوجها.

- طلعى الناس دى كلها بره يا نيرس.

أمر خرج من الدكتور، وهو ينظر باحتقار إلى المرأة التى كانت تنظر للمريض وتواسيه وتهون عليه الأمر قائلة:

- شدة وتزول يا أستاذ عبد العظيم.

- طب نفهم الأول هو عنده إيه يا دكتور.

تساؤل خرج من فم سيد حسين وهو يزهو بنفسه.

- عنده تسمم واضح يا سيدى، ممكن بقى حضرتك تاخد الزيطة والزنبليطة اللى عاملينها دى علشان اعرف اشوف شغلى.

- خليكى معاى يا ام ريعو، أنا بموت.

- إن شا الله العدوين يا اخويا.

قالتها الزوجة وقلبها يكاد يطير من الخوف ودموعها على خدها.

لخمسة أيام تتقل خلالها المدعو عبد العظيم على مستشفيات مدينة قصر والمقطم وعين شمس التخصصى وعاد مرة أخرى إلى مقبرة الغزاة قبل أن يخرج منها جثة هامدة فى عصر اليوم السادس دون أن يكتشف أى من الأطباء ما أصابه على يد الدكتور مجدى أخى زوجته التى ترملت وهى فى بداية الثلاثينات.

٩ شارع النيل(*)

سكينة فؤاد

كنت أعرف أنه سيحدث ولا تسألونى كيف عرفت.. منذ سكنت شقتى فى بدروم السلم - أنا أقول شقة تجاوزًا فعندما قلت الحجرة فقط نظر إلىَّ السيد البواب شذرًا وكاد يلقينى من نافذتها الوحيدة لولا أنه اكتشف أن يده ستضعنى على الأرض أو تحتها.. فالنافذة لا تعلو إلا بأشبار - مع ذلك أقسم لى أن الشمس تدخلها..

وبعد ذلك قال إنه قال "ستدخلها" - والفرق كبير بين ما يحدث وما سيحدث وهو لم يقل إن الشىء الفلانى يحدث - لكنه قال سيحدث - والقادم علمه عند الله ولما كنت أعرف أنه لم يوجد مستحيل.. وما لا يحدث الآن قد يحدث - فقد وافقته - كعادتى فى الموافقة دائمًا وقلت له اطمئن ستدخلها الشمس والهواء وكل شىء فى يوم ما - وتتسع من المشى فيها.. ولا أعرف لماذا تصوَّرها نكتة.. وأقسمت له أننى جاد أتحدث.. وأننى ليس من طابعى الترويج للنكات التى يمتلئ بها البلد.. وأنا أعنيها أنه سيحدث وتتسع من المشى مثلها مثل الدنيا تتسع من السعى فيها وأنا أسعى على أقدامى منذ جئت أم الدنيا أعمل وأدرس، وأحلم بالفرج الذى سيأتى من أوسع أبوابه.. وأعظم ما فى هذه الحجرة أنها تتسع بقدرة قادر لكل شىء..

(*) سكينة فؤاد، من مجموعاتها القصصية: (محاكمة السيدة س)، (٩ شارع النيل)، (ترويض الرجل).

فى البداية لم أفهم لماذا اختاروا للسرير أن يتوسط الحجرة رغم أنه خلال واحد وعشرين عامًا - هى كل عمرى المديد تعودت أن أنام مستندًا إلى الحائط، ففى أحلامى يتكرر كثيرًا الصحو على فزع السقوط من مرتفع.. لذلك فالمكان الطبيعى والضرورى للنوم عندى وراء الحائط.

ولأول مرة أجد السرير يتوسَّط الحجرة.. وبدأت أتكشف الحكمة لما وجدت كل جانب من جوانب الحجرة الأربعة مشغولاً.. وكل جانب أصبح مطرحًا لمنفعة من المنافع.. فمطرح لمنضدة صغيرة وحولها فيما يبدو مقعدان.. وأشار السيد البواب وقال "حجرة السفرة" - وفيما يبدو أن وجهى أسفر عن جهلى فأراد تبسيط الأمر واستخدم لغة أفهمها فقال:

- حجرة الطعام.

وللركن الثانى من الحجرة أشار وقال:

- الصالون.. روميو وجولييت.. حرير طبيعى.. ثم أسعفنى باستخدام لغتى وقال:

- حجرة المسافرين.

وللركن الثالث ولشىء يبدو كان يقال له فى الماضى "دولاب" وقد أسعفته وأشرت وقلت:

- دولاب ملابس.. والحمد لله ليس لدينا ما نضعه فيه لأنه آيل للسقوط.

والحمد لله لم يسمعنى البواب لأنه اتجه للركن الرابع والداخلى من الحجرة حيث موقد بوتاجاز يتكئ على أنبوبة تتكئ على صندوق يعلوه حوض لغسيل الأطباق والوجوه.

"وهذا ليس كل دورة المياه".

وفتح السيد البواب ساترا ممزقا وراء محل الأدب.

ولاحظت أنه يكشف عن عبقرية المعمار المصرى حيث يمكن استغلال شبر فى شبر فى إقامة دورة مياه ومربع فى إقامة خمسة منافع..

وهكذا اتضحت الحكمة من توسط السرير للمكان.. وقد اتجه إليه السيد البواب ليرينا متانته. وما إن لمسه حتى ارتفعت عاصفة من التراب.. فنظر بعيدًا حتى أطل معه وأنشغل عن العاصفة الداخلية بمشهد الشارع الواسع الذى تأتى به النافذة الأرضية العريضة.. هالنى اندفاع سيارات الأتوبيس بسرعة مهولة دون أسباب واضحة، ففى النهاية ستعتقل فى إشارة.. ولكن ربما يغرى بالجرى السريع اتساع وطول الطريق المجاور للنيل.. وهذه عبقرية الظروف أن أسكن - أنا - على النيل حيث علية القوم وسكن البيوتات العالية ممن كنا نسمع عنهم فى القصص والحواديت - وهو فأل حسن بالمستقبل الذى نتطلع إليه - وقد كانت جدتى أم "اسماعين" وكانت تغضب أشد الغضب ممن يقلب نون اسمها إلى "اللام" فهكذا حفظته عن أجدادها.. والمحفوظ عن الأجداد ينتمى إلى المنزلات - وجدتى "أم اسماعين" كانت تقول خدوا فالكم من عيالكم.

وهاهم عيالهم يضعهم الزمن على شاطئ نيل القاهرة العظيم الذى قالوا إنه تم بيعه وترحيله أو تسكينه للقادرين رغم أن شاطئ نفس النيل فى قريتنا كان ملكا لأصغر عيل من عيالها.

ولكن ها نحن نسكن النيل.. حقيقة فى جحر تحت الأرض يرى الدنيا من أقدامها وعجلاتها.. وعبقرية معماره جعلت الحجرة الواحدة خمسة منافع وأضاف إليها السيد البواب الحديقة - وهى الخرابة التى دلفنا منها.. وإن كان ضوء الغروب لم يسمح باكتشاف كافة الملامح.. ولكن البوابة الحديدية

الضخمة تقف متوحشة والصدأ يغطيها كلها.. وتبدو والله أعلم أنها كانت تتصدر من الخلف باب سلم الخدم بقصر أهل عز قديم قرروا تحويله إلى عمارة.. ويقولون والله أعلم إن خلو الواحدة فيها وصل إلى نصف المليون - ولكنهم أقاموا العمارة على الأساس القديم - ولما نزعوا أكوام التراب التاريخية اكتشفوا مخبأ تحتها - قالوا إنه كان من مخابئ الحرب العالمية الثانية.. وفى قول ثان إنه كان مخزن أثاث القصر - وفى قول ثالث إنه سلاملك القائمين على الخدمة.. ولكن الملاك الجدد أقاموا لهم مساكن جديدة فى الجزء الأكبر من مساحة الأرض التى كان اسمها الحقيقة.. والبواب الجديد يقوم بتأجير حجرات الدور المسحور من الباطن.. وهكذا جئت أحمل كارت التوصية وأحفظ توصية ثانية أن أكتم كل ما عرفته وأن يبدو علىَّ أنى لا أعرف حتى تسهل لى الأمور.. ولم أفهم لماذا لا أعرف أو ما هو الذى يجب ألا أعرف.. ففى الحقيقة لم أكن أعرف شيئًا.. أو أهتم أصلا أن أعرف فعندى ما يكفى ويزيد.

رميت النظر خارج النافذة الواطئة التى سأرقب منها العالم. جاء من نصفه الأسفل وإن كان قد بدا كأنه عالم من العجل المجنون يلف ويدور وراء بعضه.. سيتغير العالم والمنظور عندما تأتينا النافذة بهذا النصف من النساء.. فلا مفر من الانشغال والتسرِّى حتى نجمع ما نسميه مهرا وترضى به ابنة حلال قنوعة تستغنى بالحب والمبادئ وتشترى رجلاً فى زمن عز فيه الرجال والحب والمبادئ وتستغنى بهم عن الوجاهات المزيفة وترضى ببيت على النيل وتزرع خرابته وردا أحمر وأصحو من النوم على صحبة منه جمعتها بيدها، فآخذها.. ووردها.. و..

وصحوت على السيد البواب.. قال:

- خلصنا يا افندى فالمطرح ينتظره طابور والناس تدفع الملايين لتسكن على النيل والمطلوب منك ملاليم.

ورغم أننى أوافقه تمامًا، رغم أن النيل لا يأتى إلا بارتداء الملابس (أ قول حكاية الملابس تجاوزًا - فالقليل الذى لدينا أليق بالانتحار فى النيل، والأمر لا يزيد عن غيارين داخليين وطاقم خارجى.. وغدًا بعد أن نصبح سكان بيت سنكون بمشيئة الله سكان ملابس).

المهم الآن أن النيل لا يأتى إلا بالذهاب إليه والجلوس على شاطئه ومنيت نفسى بتناول كعكة ساخنة بالسمسم أصبحت بربع جنيه بعد أن كانت على نيل شاطئ قريتنا بخمسة مليمات مع ملحها ودقتها.. أو قد يأتى النيل - من داخل شقتنا بمد الرأس لتأتى طرف العين بطرف مائه من بعيد ولكن إدمان هواية مشاهدة النيل من نافذة شقتنا قد يهدد رقبتنا بالامتداد ويهدد بتحولنا إلى نوع من ظاهرة الزرافة البشرية.

وضحكت لنفسى أهنئها على احتفاظها بقدرة المرح رغم ما مر وسيمر بمشيئة الله من صعوبات، فراتب الليسانس لا يغطى أسبوعًا من شهر المدينة بعد إرسال نصيب الوالد والإخوة الأعزاء وتأجير شقة والانتماء إلى نوع المخلوقات المستقلة فى مساكن منفردة - وعند نيل المدينة - والانفصال عن طبقة سكان المجاميع فى الأحواش الشعبية. سيأخذ الراتب كله - وعليه يجب أن يبدأ على الفور تدبيرنا لوردية إضافية مسائية.. ثم عمل خارجى بعد استنفاد كل العدد المسموح به للحصول على ورديات فى نفس جهة العمل.. ثم إن الليل طويل.. وغدًا يأتى يوم لا يكون فيه إلا نوم طويل لا قيام ولا جلوس فيه.. ثم إن محاولة فهم أسرار الثراء السريع التى ظهرت على بعض الزملاء فى الأرشيف ونجاحهم فى الانتقال إلى إدارات أخرى.. رغم أنهم أحدث فى التعيين ورغم أننا أضفنا لليسانس الدبلوم ولكن تأكد أكثر جهلنا الكامل بكل شىء.. فحمدنا الله على الأخلاق والستر.. ولكن لم يطل صبرنا حتى كانت جوائزه للطيبين والصابرين تظهر.

يبدو أن عيونى الملعونة كما تفضحها السذاجة والدهشة فضحتها الفرحة.. فأخيرًا شقة مستقلة بخمسة منافع وباب مغلق.. وآه لو تعلمون حكمة الأبواب المغلقة هى التى أوصلتنا إلى طريق السلامة.. ونافذة تمد اتساع الحجرة إلى طرف النيل البعيد.. وتأتى بالعالم من نصفه الأسفل – وهى رؤية لا يدرك حكمتها ومنافعها إلا من أدرك وبحسبة بسيطة أن توفير تدابير إكمال نصف الدين لن يحدث إلا فى الستين وإنجاب الأولاد فى السبعين وفى التسعين يبدأ جنى قطوف الراحة والدوران حول العالم والفرجة على ما يفعله عباد الله من سكان الكواكب الأخرى حيث يقولون إن هناك مخلوقات تركب الطائرات وتذهب إلى بلاد الخواجات والدنيا الجديدة والقديمة بأسهل مما يستطيع سكان كوكبنا إذا ما اعتزموا السفر من قريتهم إلى "أم الدنيا"، وبالطبع هذه الحسبة ممكن أن تنسف كلها على يد ابنة الحلال التى تشترى المبادئ والحب وتبيع بهرج الدنيا وتزرع الحديقة وتعد لنا إفطارا شهيا بعد ليلة من الحب المصفى – وتقطف ورد حديقتها وتأتينا به.. فنصل النهار بالليل ونخلط الحب المصفى بالعسل المصفى وتتحقق النبوءة وتتسع الحجرة بالحب وتتكيف بالمشاعر.

عرف السيد البواب أننى قد وقعت عقد الجحر السعيد واكتشف بذكائه اللعين أننى رتبت الأحلام ووزعت الأركان وملأت الجدران بالصور وتمددت إلى جانب الورد وأشعلنا الموقد وتناولنا عشاء دافئا.. كذلك لا بد أن السيد البواب قد اكتشف أننى قادم من عطش طويل فى زنقة الطفولة والمراهقة الظروف حتى أصبح المجد الوحيد فى العالم جحرًا أملكه والأمن الوحيد بابًا أغلقه.. ووراءه أفعل كل ما أريد.. وأتمطى وأقفز وأتثاءب وأصرخ وأضحك وأبكى وآتى بالحاجة الوالدة.. تعرف أن لها بيتًا له جدران وسقف وباب يغلق عليها وحدها، فبعد أن عاشت عمرها غريبة فى طرف قاعة فى دوار كان لها ثم

أصبح لامرأة ثانية.. وأصبحت الجديدة وأولادها الجنس الأرقى لذلك أتعاطف أشد التعاطف مع الزنوج والملونين.. ولكن الحاجة لم تصبر على نفسها حتى تطول الراحة والاستقلال (لقب الحاجة لم تأخذه الحاجة بعد حجة - فلم يكن عندنا أجر الذهاب حتى مشيا على الأقدام ولكنها كسبت الحجة واللقب بقدر ما عملت وأخلصت ونزفت عرقًا وصبرًا).

ولكن زمن الراحة لم تستطع أن تصبر عليه حتى يأتى ولم تمل ترديد:

- (عمر الشقى بقى - ولن نخاف على أنفسنا إلا إذا بدأنا نرتاح) وأضحك وأنا أهبط بأصابعى فى الحفر الغائرة وأصعد على العروق النافرة فى ظهر يدها وأقول:

- كأننا يا حاجة لا بد أن نشقى لنعيش فى أمن.

وتستغفر الله لى ولها وتحمده على فضله ونعمه علينا وتقبل عظام يديها فأكتشف شقوق شفتيها ثم أخشى أن أعترف لها بحلمى المخجل وطمعى المتوحّش فى الدنيا.. أريد جدرانًا لها سقف وباب وشباك.. وبالإمكان التنازل عن الشباك والرضا بطاقة يدخل منها الشمس والهواء.. وبالإمكان أن تكون الطاقة على منور داخلى فلا تأتى إلا بالهواء وتستعيض عن النور بمصباح جميل للكهرباء يدخل فى تشكيلات الزخرفة لتجميل الحجرة التى سنملأ جدرانها بالصور والألوان، فالجمال حق ولو كان فى جحر.

وكانت الحاجة تزم شفتيها المزمومتين أصلاً وتتعجب من أين أصابنى المس ولا توقف دعواتها الصالحة ليعطينى الرضا ويجعلنى فى حالى ويكفينى شر الطريق وشر نفسى وشر الحرام والسوء وأصحابهما ودخول الشيطان فى الدماغ والأصحاب الذين يغلبون الشيطان.. وأعرف أنها تشير من بعيد لليوم المشهود.

ولا أجرؤ أن أقول لها حتى لا تشهق شهقة تأتى فيها بآخر أنفاسها التى تسحبها بالكاد من صدرها الطابق على ظهرها.

إنها ولدت ولدا يرى فى يقظته ومنامه أن الذين غيروا العالم جاءوا من ظهر آدم وبطن حواء لم يكن لهم ذراع ولا أصبع زائدة وأن كل ما زاد عليهم أنهم لم يتعلموا الصبر والرضا وحكمة نزول سلمات الواقع والأحلام وتضييق الدوائر حتى سكن ثقب إبرة وإحكام إغلاق باب الثقب.. والحمد لله والدعاء أن يديمها نعمة ويحفظها من الزوال.

استطعت أن أمنع البوح بالكلمات.. ولكن لم أستطع منع الصرخة وما انفجر معها من كلمات:

- أعطانا العالم لنسكنه ما دام بالحق والعدل.. فمن سجننا فى ثقوب الإبر.

يومها.. جمد الفزع ملامحها وفمها المفتوح كأن وحشًا نهش قلبها.. الخوف من أن يكون لها ولد يفتح فمه ويتدخل فيما ليس له ولا لآبائه وأجداده.. كان رعب دنياها وآخرتها.. وقفزت وأطبقت على أذنى وتلت فيها تكبيرة الأذان ثلاث مرات ورددت الشهادة واستعاذت من الشيطان الرجيم ونذرت أن تذبح (من المؤكد أنها لم تقصد أكثر من فروج – وفى الغالب استبدلته بوهبة يوم من أيام صيامها الطويل).

المهم أنها نذرت النذر لو تركونى لحالى وقالت لهم إننى لا أعرف وفى الحقيقة أن فطرتها الطيبة صدقت فى أننى لا أعرف.. فقد كانت الشواغل والهموم والمسئوليات والعصا أكبر من أن تترك لنا منفذًا نطل منه على ما تحت الأرض أو ما فوقها ولكن من باب العناد لا أكثر ولا أقل قلت لها:

- ولكن أنا لن أتركهم.

استعاذت الحاجة بالله وبسملت وقرأت أورادها وطلبت أن يكون كلامى خفيفًا عليهم وأكدت لهم أنين لا أعرف.

أحن الآن لنفس الصرخة القادمة من عمق الهم النائم فى القلب.. وأقفز فى الهواء وأسقط ممددًا على السرير فاردًا ذراعى أجنحة حتى يأتى أوان التحليق (تصوروا.. ما زلت أحلم.. كائن مدهش وعجيب هذا المخلوق الذى أحمله).

فيما يبدو أن السيد البواب ونتيجة كارت التوصية الذى كنت أحمله مع تزكية أحد معارفه فى قريتنا - ولو أن السيد البواب لم يتذكره على الإطلاق - ولكنه على كل حال ولطيبة معدنه ولبركة دعاء الوالدين تنازل عن كثير من الشروط المادية وأظنه قال إن الأمر لا يحتاج إلى توقيع عقد، فالتأجير من الباطن - وأصحاب البيت المسافرون دائمًا تركوا له تدبير المكان.. وأكد على الالتزام بما قلته من أننى أعمل طول النهار وسأعمل بمشيئة الله جانبًا كبيرًا من الليل.. فوجودى سيكون مثل الأشباح لن يحس به واد ولو تصادف وحدث وجاءت الطوبة فى المعطوبة وجاء أحد الملاك من أوربا لجنى الأموال فعلىَّ أن أقول إننى من أقارب السيد البواب وأن الإقامة ليست دائمة وحذار أن أشير من قريب أو بعيد لتأجير.. وعلى كل حال - أضاف السيد البواب كل هذا من باب الاحتياط - لأن أولاد الأصول لا ينظرون لمثل هذه الأمور.

وأظن كل هذا حدث ومن أجل أن أكون وحيدا قبلت بكل الشروط ودفعت كل ما كان فى الجيوب واستخدمت الحكمة المناسبة للمقام "اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب" مع أننى عشت العمر على "القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود" وكانت كل الأيام من اللون الثانى - ومن يدرى ربما صرف ما فى الجيب يأتينا باللون الأبيض.

كل هذا لا يهم الآن.. المهم أنه لأول مرة فى التاريخ البشرى – ما أملكه هو تاريخى أنا – وعليه فلأول مرة أملك بيتًا وأغلق بابًا.. وفعلتها.. وقفزت وصرخت.. وضحكت وبكيت.. وخمد العالم وسكن وسكنت بجانب الحائط.. وبكيت.

لا فائدة الطبع غلاب.. الأرض والبكاء.. انتفضت وقمت أتجول من حجرة المعيشة والجلوس والمطبخ ومحل الأدب – فكرت أنه من المستحسن ضمن مشروعات تطوير وتجديد القصر تعليق لافتات إرشادية توضح هوية كل منفع من المنافع، فقد يلتبس الأمر على بعض الزوار ولا يفهمون سر الموقع الوسطى للسرير وحكمة توزيع المنافع حوله.

طردت الخاطرة الملعونة فبعد الألف عام الأولى قد نسمح لأحد باقتحام المكان.. عموما نترك تحديد عدد السنوات لما يتطلبه الشقاء من آثار أزمنة الالتصاق واحد وعشرين عامًا وسبعة شهور وخمسة أيام وعشر ساعات فى قماقم مغلقة.

هذا القصر.. لا أحدثكم عن الاتساع والجمال. وفتح النافذة يمد الاتساع إلى النيل.. والنيل يسافر إلى الجنوب.. وفتحتها.. أضيف للمشهد الحى اللحم والدم.. فها هو النصف السفلى لمنتظرى الأتوبيس على محطة تقف تحت النافذة مباشرة.. عرفت أنهم بعد قليل سيتحوَّلون إلى سكان للمحطة وأن الأمر سيطول وأمامى أوقات للتأمل ودراسة حالة البشر من نصفهم الأسفل.. فالوقفة تدل.. والحذاء يحكى.. وفتح السيقان وضمها لغة.. والوحدة فى العالم تتيح إتقان لغات الأعراض كلها.. وتحويل النفس إلى آخر مأمون ومضمون التعامل معه.. ومن يدرى فقد يحدث وتخون النفس نفسها فما يتبادلونه وينشرونه يحكى العجب ويقيمون الأدلة على أن الذراع أصبحت تخون صاحبها أعوذ بالله. ما لنا باب يغلق

ويفصل بيننا وبين العالم، ثم إنه تحقيق لحلم طويل ولد وتجدد عند كل العتبات المغلقة.. إنه الحدود والبوابة الفاصلة بين النار والجنة وبين الزحام والعرق والنار والمطاردة إلى ظل وحائط وغطاء وفراش ولقمة وكتاب - وصاحبت الورد - من يدرى قد يأتى أوان.. وخطاب إلى الأهل والأحباب فى قرية "أبو الطيب" تخبرهم فيه أننا نغلق الأبواب والأفواه ونغض الأبصار.. وغض البصر إو إسقاط العين إلى أسفل يأتينا بالعالم من نصفه الأسفل - ما لنا ومال كل ما هو فوق - حكمة الجدة أم اسماعين كانت "من نظر إلى فوق تعب" ثم إن النظر إلى أسفل يسمح لنا أن نستمتع على استحياء ونرقب حركة العالم وكأننا لا نرقب.. ومن يدرى ماذا يحدث لو فتحنا جيدًا وأتتنا الصورة كاملة.. هذه ميزة نصف النظر.. أو النظر إلى أسفل.. وفى حدود هذه المعرفة المتواضعة جدًّا.. اكتشفنا ملامح الكارثة.. فماذا لو كانت المعرفة أكثر.

كان هذا هو الخطاب الأول ولم ننس فيه ذكر العنوان مستقرنا أو مستقلنا الجديد وراء بابنا المغلق (٩ شارع النيل).

أعدت قراءة الخطاب.. لم يعجبنى ولم أفهم ما يقصده كاتبه فكيف سيفهم من يقرؤه.. مزقت الخطاب لحين تستقر النفس وتهدأ فرحتها الغامرة فتقدر على التعبير والتوضيح.. وتذكرت الموسيقى فجئت بالترانزستور.. واستعدت أصابعى لتقفز كعادتها - كل نشرات الأخبار - وتبحث عن كهف الموسيقى فتدخله وتختبئ.. ولو وجدت أدوارًا شرقية يثقل الحنين إلى الأهل والأحباب.. ولو عزف الناى نفرد شارع كل جلاليبنا البيضاء ونتسابق فوق حقولنا الخضراء.

تعجبت لحالتى الموسيقية.. فلا درستها ولا كان الوالد الشيخ من رواد الموالد ولا الوالدة من محاسيب المظ أو "الست" وفى الأغلب أنها لم تعرف من

أنواع الأصوات إلا اثنين.. الزغاريد والصويت فمن أين جاءنى هذا المس الكهربى لكل صوت جميل، ولما بدأ سن الفهم والإدراك وسمعت حس الليل فى "أبو الطيب" وشجن الحزن وضربات الماء فى الشط وشبع الأرض بعد العطش.. عرفت سر مس الإيقاع لروحى.

ولكن الآن للصمت والوحدة والباب المغلق أجمل أصوات سمعتها منذ وعيت وجودى.

قررت احتفالاً بالليل المباركة التضحية والفداء بنصف كيلو لحم ضأن لأجرب موقد البوتاجاز وأشاهد شعلته المباركة كشعلة الأولمبياد.. أخشى أن تأخذنى الجلالة وآخذ الشعلة وأنطلق أجرى فى شارع النيل احتفالاً بالنصر فيظنوننى بطلا رياضيا قادما من جبال الأوليمب.. وفضلت أن أبعث الحركة والحياة فى دورة المياه فأمامنا متسع لنفعل كل ما حلمنا به.

يبدو أن الشبع بالحلم ملأ المعدة بغير طعام.. ففى السادسة صباحًا كنت ممددًا طولاً وعرضًا وأقدامًا فى السرير.. يبدو أنه الحرمان الطويل ومحاولة التمدُّد فى أكبر مساحة بعد أن كانت ضرورات النوم الضيق تقتضى الانكماش فى مكان بلا مساحة.. لعن الله علوم النفس جعلتنا نعرف ونفهم ونقترب من تفتيح العين والعقل على وسعهما.. وما نعرفه ونفهمه كل يوم لا يسر العين ولا الخاطر.

طردت الخواطر السوداء وقفزت من الفراش أعيد اكتشاف المملكة فى ضوء النهار.

فتحت النافذة.. أمسكت بزمام عقلى حتى لا ينفلت وتطيره الفرحة التى ليس له عهد بها.

المشهد رائع.. حقيقة الجدران ضربت فيها رطوبة أسقطت طلاءها الجيرى والأثاث بقايا مخلفات قصر وعز.. كرسى ضخم كأنه أعد ليجلس فيه أربعة فى وقت واحد.. وسقط منه ساق وذراع وعليه بقايا دهان يلمع ورسوم نساء ورجال.. فقئت عيونهم أو طارت رءوسهم - ولكن ملابسهم شىء عظيم ومهول وأكوام فوق بعضها كأنهم لم يكن لديهم شىء يفعلونه غير أن يلبسوا.. والمنضدة - أظن أن السيد البواب قال فيما قال ولم أسمعه - لو سمعته كنت لن أفهمه - إنها من قصر الإمبراطور لويس التاسع وفحصت المائدة فإذا بها مرفوعة فوق جسد أسد ضخم نزع ذيله ورأسه وقرص المائدة استبدل وحمل الأسد فوق رأسه المقطوع طاولة خبز ألواحها تشققت.. والمقعد من عصر السيد القناوى وكراسى مولده الخيزران والمقعد الثالث من شركة البلاستيك - والثلاجة الصغيرة وجهها لا يختلف كثيرًا عن ظهرها - ولم أكن فى حاجة لاكتشاف أن "القلة" المنصوبة فوقها اعتذار للعطل.

ولكنه جحر أملكه وسيتسع ويكبر ويتغير.. عدت إلى النافذة برغم أنها السابعة، فالزحام اكتمل وسكان المحطة يتكاثرون وعلى وشك الدخول من حافة نافذتى الواطئة.

أغلقت النافذة..

كذبت إحساسى البغيض أن الخارج سيدخل رغم إغلاق النوافذ والأبواب.

تنبهت للأعراض المتكررة لمرضى الدائم فكلما اقتربت ملامح راحة أو بوادر انفراج بدأت أستعيد ذكريات التشاؤم وأدلة المستحيل وإثباتات العجز.

من زمن يضغط إحساسى بجريمة ما تحدث فى مكان ما.. يبدو أن حلم الليل الطويل يكذبه النهار الشاق المنتظر.. وعلىَّ الآن أن أجرى لألحق بعمل الصباح وأستعد لوردية المساء وأواصل البحث عن فرصة فى مهن الليل.

سمح لى الأتوبيس رغم الزحام المضنى أن أقرأ أسماءهن كلهن.. ملون بجانب أجسامهن مرسومة بالحجم الكبير تكشف إلى جانب مواهبهن الطبيعية عن مهارتهن اللولبية.

ضحكت وخجلت للخاطرة الملعونة بفرصة فى هذه المهنة الليلية الرائعة.. وتذكرت الخبر الذى قرأته على الصفحة الأولى عن فريق الباليه النسائى الأوربى الذى ظهر أن كله كان من الرجال.. ولعنت أبا العالم إذا كان فى النهاية سيأخذ منا هذا أيضًا.

وأطبق الزحام.. وتذكرت براعة أجدادى الفراعنة فى صنع أوراق البردى.. كانوا بفعل ضغط الصخور الثقيلة يدخلون أعواد البردى فى بعضها حتى تصبح لوحًا واحدًا.. لو كان لديهم أتوبيساتنا لأركبوا فيها الأعواد وحصلوا على نفس النتيجة.. والمرأة الواقفة أمامى صنعت معى لوحًا واحدًا.. والمكان المتاح لى ولها ولأخرى فى الجانب الثانى ورابع ورابعة.. وربما أكثر.. الفراغ المتوافر لا يتسع إلا لواحد منا.. وأصبحنا كلنا واحدًا.

واستحال النزول أو فضلت ألا أنزل وذهبت محطتى.. وبعدها.. وبعدها.

كل يوم كان يتأكد للبقاء بالداخل حكم وفوائد.. وأتوبيسات المدينة الكبيرة أضافت إليها ما عزّزها وقوّاها.

ولكن الوعى القادم من التوهان اللى كنا فيه.. يكتشف أن لعدم النزول أسبابًا أخرى أيضًا.. فالسائق يأخذ فى وجهه ويلغى كل المحطات ويجرى.

الأنباء القادمة من عند السائق تقول إنه صدرت أوامر بتحويل الخط.. و.. ومحاولة جمع المناظير المتراجعة إلى الوراء أثناء اندفاع السيارة إلى الأمام.. والتقاط التفاصيل بين الرءوس المتلاحمة تقول إن الناس تجرى فى الشوارع والملامح لطريق على جانبيه مقابر.

الارتجاج الذى أحدثه الخبر فصل الكتلة وأحدث فراغًا وهلعًا وجعلنى ألعن اللحظة وكل ما كان فيها.

الأنباء القادمة من عند السائق تقول إنه أخلى الطريق لمطاردة قتلة الرئيس.. وأن تحويل الخطوط ومنع التوقُّف أوقع المدينة فى بركة.. ولكن الحال سيعود إلى ما كان عليه.. وإن كانت العودة فى ظل الربكة قد تستغرق ما بقى من النهار.

تحايلت حتى انزلقت عند أول منحنى تباطأت عنده عجلات السيارة.. وأخذت كل الطرق الجانبية إلى بابى المغلق.. فوسط الربكة لا أحد يعرف حسابات الظروف.. ومالنا ومال ما يحدث فى هذا العالم.. الأحداث تبرز بسرعة مدهشة حكمة الفرحة الغامرة بالجحر السعيد.

حتى النافذة أغلقتها.. من يدرى ماذا يدخل منها غير الضوء والهواء والنيل من بعيد.. وأنا أغلقها لاحظت أن طرف عينى استحال عليه ما كان يفعله وهو يأتى بطرف النيل من بعيد.

من المؤكد أنهم لم ينقلوه لكن عينى كعادتها لما أضطرب تهتز ويرجف طرفها.. والعين اليمين بالذات وحاولت الإفلات من صوت جدتى وانتظارها للشر طالما جاءتها رسالة فى عينها اليمنى - كما كانت تقول.

حاولت أن أقاوم هذا الإحساس المرضى بأن الكون كله يرتج.. أعرف وأطمئن نفسى أنه ميراث التشاؤم.

وانقضى نهار أو اثنان.. وبدت الأشياء والأيام كأنها عادت إلى قواعدها سالمة.. ويبدو أنى أحتاج إلى وقت حتى أعود.

لم أقصد النوم فى تلك الليلة بملابسى الكاملة. التعب هو الذى فعلها..

ونسمة باردة بدأت تتسلّل إلى الكون ولا تقدر على مواجهتها الملابس الداخلية والعظام التى يبدو أن أمراض الشيخوخة سبقت واقتحمتها.. ودون هذه الأسباب – كنت أفضل أن أبقى فى الأيام الأخيرة بالملابس الكاملة.. ليس لدىَّ أسباب واضحة.. فليس من مواهبى قراءة الغيب.

عندما استيقظت على هزة ترجُّ الكون وانفجار وزجاج ودم يتطاير مع ما كان يتطاير فى الهواء.. وارتطام وصراخ وهرج ومرج وناس تقفز من شىء لا أستطيع أن أتبينه.. وأظنهم ينزلون أو يصعدون من سلم ويحاولون الخروج من طاقات أو نوافذ صغيرة.. وأنا أين..؟!

منبطح على بطنى والسقف فوق رأسى مباشرة.. ويد تتناولنى لتخرجنى من تحت السرير.

للوهلة الأولى بدا أننى سأتقلّب على الجانب الآخر فأجد نفسى نائمًا فوق السرير.. وأننى كعادتى أصحو داخل كوابيسى لأطمئن نفسى أننى وهى نحلم وأن ذهاب السيارات فوقنا ذهابًا وإيابًا عشرات المرات وتقليم أطرافنا وصيدنا من الغابة وبيعنا فى أسواق المواشى وترحيلنا فى سراديب وزنزانات سفن بخارية إلى بلاد بعيدة لا أهل لنا فيها ولا ناس.. وختم حوافرنا بالنار أو نزع العيون أو الأظافر.. أو عضو من الأعضاء فكل قصر يختار لمماليكه علامة.. ونحاول الفرار فيطاردوننا على ظهور الخيل ويطلقون الرصاص.

تكرر الكابوس عشرات المرات.. وأصحو وسطه أرتجف من الخوف وأدخل فى الحائط وأتشبث به وأستوثق أنه ما زال حلمًا بتحسُّس أعضائى والتأكد أنها ما زالت مكانها وأعطى لنفسى الأمان.. وأغمض عينى.. وأعود لأواصل المطاردة من النقطة التى وقفت عندها.

ومددت يدى أتحسَّس المكان.. فوجدت أيادى تلتقطنى.. وجمهرة من

الناس حولى وكشافات ضوئية تضرب فى عينى.. وأظن أننى صافحت أيادى كثيرة وسمعت أصواتًا بعضها معتذر.. وبعضها مشجع وازدادت دهشتى فتفاصيل الحلم تختلف تمامًا هذه المرة.. والأتوبيس يدخل بمقدمته من النافذة ويقف عند السرير ليأخذنى إلى مكان عملى.. فالرفاهية لا يمكن أن تصل إلى هذا الحد.. وأرض الحجرة تمتلئ بالجرحى.. سيارات الإسعاف وصلت.. والشرطة.. وضباط وعسكر من لحم ودم.

بدا الحادث بسيطًا للغاية.. ففى غبش ضباب الصباح.. وحيث كانت الشبورة شديدة.. ونتيجة لهطول الأمطار (لا كان الصباح مكرًا.. ولا هناك شبورة.. ولا موسم أمطار.. ولكن كل شىء يجب أن يكون له أسبابه)، ونتيجة لكل هذه الأسباب انحرفت سيارة الأتوبيس واقتحمت جدار مخزن مهجور فى أسفل عمارة ضخمة تطل على النيل.. والإصابات طفيفة والخسائر لا تذكر.

وبقيت مشكلة وحيدة.. هذا الكائن الذى عثروا عليه فى المخزن مختبئًا بملابسه الكاملة.

وبدأ التحقيق..

حكيت للضابط الشاب القصة بحذافيرها والتى حرصت على أن أشهدكم عليها من أولها.. لأننى كما قلت لكم من أول كلمة كنت أعرف أنه سيحدث.. لأننى ببساطة شديدة لم أتعود أن آمن لشىء.. فالراحة لغير أهلها طوال عمرها نذير شر.. والشر قادم.. قادم.. كان ذلك يحدث فى زمن الناس الطيبين.. ما بالكم بزمن الشر.. و"الحاجة" قالت حكمتها دون أن ترى زمننا:

"لن نخاف على أنفسنا إلا إذا بدأنا نرتاح".

وبغير الراحة بدأنا نخاف وحدث الشر وجاء.

وعاد لى الضابط من انشغالات كثيرة ومقاطعات.. ويبدو والله أعلم أنه مهموم بحدث على وشك الوقوع.. وسط كل مشاغله عاد لى ونصحنى بعدم اللف والدوران.. فالحقيقة سيأتى بها ولو مخبأة فى قمقم فى سابع قرار.

وأقسمت له وأعدت حكى القصة بحذافيرها.. فنظر بصبر نافذ ووعيد وتهديد لمراوغتى وإصرارى..! وطلب عقد الإيجار.. فقلت له إنه اتفاق شفهى مع السيد البواب فطلب إحضاره على الفور.

فجأة حدث هرج ومرج وأبعدونا لاستقبال من بدا أنهم كانوا ينتظرون القبض عليهم الليلة.. امتلأ قسم الشرطة بالخلق.. وجاءت شخصية كبيرة فيما يبدو أنها ذات أهمية بالغة.. وضباط كبار.. كأنه يوم القيامة أو عبور البرزخ بين الدنيا والآخرة.

كم مضى من الأيام والليالى فى الحجز.. أظنهم قالوا إن المهمة فشلت وسيعاودون البحث من جديد وسيفتح التحقيق مع كلِّ المقبوض عليهم.

جاءوا بى معهم.

حكيت الحكاية بحذافيرها للسيد الضابط.. أعاد إلىَّ نظراته التى ضاق صبرها بمراوغتى وإصرارى على الكذب.. أقسمت بكل رءوس الأجداد.

أفهمنى الضابط أن كل هذا لن يفيد وعلى أن أستنقذ نفسى بالاعتراف وقول الحق، فالظروف حرجة والأحداث بالغة الخطورة والشبهات تحوم فوق الرءوس فهنا حادث مقتل الرئيس وأكثر من جريمة قتل بلا قاتل.. واغتصاب.. وإطلاق الرصاص فى الشوارع.. ثم إنهم بمعاينة المكان اكتشفوا مخزنًا مسحورًا للسموم البيضاء فى المخبأ الذى وجدونى بداخله.. ويتطلب الأمر إثبات براءتى من كل هذه القضايا.

استنجدت بشهادة السيد البواب.. ولم يكونوا فى حاجة لاستدعائه، فهو ضمن المقبوض عليهم فى حادث مخزن السموم.. سألوه عن تأجيرى للحجرة.. نفى فالمكان مهجور ولا يعرف كيف تسلّلت إليه أنا والسموم.

قالت لى نظرة الضابط وهو يأمر بإعادتى إلى الحجز أنى سأمشى المشوار كله حتى تثبت صحة ادعاءاتى.

لم أقل له إننى كنت أعرف لأنه كان سيسألنى.. وكيف عرفت!!

ولما كنت لن أجد إجابة فربما اعتبرها اعترافًا.

ولكن النبوءة حدثت أو حدستها قبل أن أعرف كيف أواجهها وكل ما استطعته أن أبقى مرتديًا ملابسى فى انتظار لحظة الاقتحام، فإغلاق الأبواب لم يكن مزاجًا.. ولكن ضيق اللقمة والمكان والظروف والحظوظ.. والظهر والأقدام التى تمزّقت تحت سياط كل من طالوهم وآخرهم عصا الوالد.. كنت محبوبًا ومقربًا.. وكان طيبًا.. ومع ذلك نهش بعصاه ظهرى.. صرخت أستنجد برحمته.

قال لى:

- هى التى تضربك يا ابن الكلاب.

وواصل النهش – ونواح الحاجة وعويلها وندبها على حظها وولدها والسيد الوالد يحكم وثاق أقدامى التى علّقنى منها فى الهواء.. وكلما تعبت ذراعاه أكمل الجلد بلسانه.

تخرج فى مظاهرة.. حارس الحق أنت يا ابن الكلب.. مالك ومالنا كلنا ومالهم.. هذه دنياهم يفعلون بها ما يشاءون فعزها لهم وشقاؤها لنا.. نغلق أبوابنا علينا.. ومن له ظهر لا يضرب على بطنه.. ونحن عدمنا الظهر والبطن والحيلة.

وتنوح الحاجة وتضرب قمة رأسها التى فكّت عصبتها لأول مرة فى تاريخها وتفردها ممزَّقة تنوح بها فى الهواء - ولأول مرة أكتشف أنه لم يعد باقيًا فى رأسها إلا بقايا نتف من الشعر الأبيض المصبوغ بالحناء - لا أعرف لماذا تصوَّرت طويلاً من طول ما ضربت رأسها بكفيها أن سقفه سيقع عليها.. وكعادتها لا بد أن تعين الوالد فى كل ما يفعله كأنها ما وجدت إلا لتكون عونًا له.. فتصدق على كلامه وتكمل وهى قابعة على التراب وراء الباب تسدُّه بظهرها.

لا ظهر لنا يا ولدى ولا بطن.. ومن خاف سلم.. والباب الذى يأتى منه الريح نغلقه ونسلم ونستريح.

ويأخذ منها الوالد الكلمة وعصاه ما زالت تلوح فى الهواء وجسده كله يرتعد.

أقطع من لحمى الحى لآتى لك بالقرش لتتعلّم.. أدفع وأجوع وينقصم ظهرى وأتمرَّغ فى التراب لآتى لنفسى بالخراب.. لو عرفوا فسيقطعون عيشى ويخربون بيتى ويطردوننى من الميرى ويطاردوننى.. ويموت العيال وأمهاتهم وجدك وعمتك.

أقطع من لحمى لتغدر بى يا ابن الكلاب.. هل تقدر على حمولة لحمك يا حارس الحق.. واحرس الحق فىَّ وفى أهلك إذا كان عندك ذمة ودم.

وتنوح أمى وتضرب سقف رأسها.. وتذوب فى غلبها وهى تتوسَّل لى أن أرحم ضعفها ولا أكون أنا والزمان عليها.

واشترينا السلامة وأغلقنا الأبواب ودخلنا الحلم.. واستكفينا.. ونفذ السيد الوالد نصيحة أهديت إليه من أهل الخير أن يشغل الولد عن فراغ يتسلَّل منه الشيطان إليه.. فدعانا للمشاركة فى حمل مسئولية ميراث اللحم والدم وبينه

سبعة من الإخوة يتعلمون بمراحل التعليم المختلفة.. وأخذ الموت والزواج نصيبه فى الباقى.

وفررنا من القرية للمدينة حيث جاء التعيين ومعنا الوصايا العشر.. والقسم العظيم على كتاب الله ألا نمد العين أو اليد أو الأنف أو الأذن أو اللسان فيما ليس لنا.. وبعد أن كنا نستطيع أن نجرى وراء البقرة فى الساقية.. أصبحنا نحن بقر سواقى المدينة.. ورضينا بالهم.. ولكنه لم يرضَ بنا.. فرغم إغلاق كل الأبواب يجب علينا إثبات البراءة من عشرة اتهامات على الأقل كل واحد منها أكبر وأعظم من الثانى.

ولما جاء الوالد يجر سنواته وغلبه ومرضه ووحدته وخوفه وفزعه ولومه وتأنيبه.. حملها كلها وجاء يزورنى ويقول لى:

- لو سمعت الكلام..

أقسمت له أن كل ما حدث كان لأننى سمعت الكلام ولأن الباب كان مغلقاً..!

صنعة لطافة(*)

سلوى بكر

فاض الكيل بالنقطة ولم تعد تحتمل الحياة مع الخط، لأنها تمضى جل وقتها لاهثة تدور وراءه طالعة نازلة وكأنها فى دوامة لا تنتهى، فهو يصير حروفًا فى بعض الأحيان، ويكون عليها أن تلبى أوامره سريعًا بأن تقبع تحته تارة، أو تستقر فوقه تارة أخرى، أما عندما يتدور أو يتثلّث أو يتربَّع، أو يتخذ أيًّا من الأشكال الأخرى فإن النقطة تبلغ ذروة غيظها وغضبها منه، إذ أنه يكون متجاهلاً لها تمامًا، ولا يعيرها اهتمامًا وكأنها غير موجودة بالمرة فى هذه الدنيا.

عند الغروب ذات يوم، وبينما كانت الشمس تودِّع النهار على أمل اللقاء فى اليوم التالى، كانت النقطة واقعة أسفل الخط وقد تشكَّل على هيئة علامة استفهام فداخلها شعور مريح بأنها موشكة على الانهيار، كما لو أنها صخرة كبيرة ستقع وتنفصل عن جبل شاهق، لذلك قرَّرت أن تضع حدًّا لعذاباتها وتحسم ما جال برأسها طويلاً فقالت للخط مباشرة دون مواربة وفى صرامة وحزم:

لقد تعبت بسببك بما يكفى، وسئمت الحياة معك، لذلك سأفارقك ولن

(*) من مجموعة (نونة الشعنونة). ولسلوى بكر مجموعات منها: (زينات فى جنازة الرئيس)، (مقام عطية)، (عن الروح التى سرقت)، (عجين الفلاحة)، (إيقاعات متعاكسة)، (شعور الأسلاف).

أعيش معك بعد اليوم. سأرتحل بعيدًا، ولن أكون لك، سأصير حرة أرتع كما أشاء فى فضاء الصفحات. سأحيا من الآن فصاعدًا لذاتى وأوليها ما تستحقه من العناية والاهتمام، فأنا فريدة، خاصة: مميزة، لا مثيل لى فى الكون، ساحرة، فاتنة، صغيرة كبيرة، متكتِّلة، مصمتة، مغلقة، غامضة مبهمة، مدملكة، مثيرة، رزينة، مستقرة، ساكنة، متحفظة، ملمومة، مضمومة، ولن أسمح لأى كان أن يستغلنى ويحط من قدرى، أو يعاملنى باستعلاء واستخفاف. أية فرادة هى أنا، وأية عظمة مستحيلة فى الخلق أكون.

نظر الخط إلى النقطة بدهشة، وهو يتأملها جيدًا، فلطالما تبرَّمت وتذمَّرت، لكن فى كلامها، هذه المرة، نغمة جديدة غريبة، لم يسمعها منها من قبل أبدًا، لذلك فكر مستغربًا وهو يسائل نفسه:

الآن.. تتحدث عن الحرية؟! أتفكر فى ذاتها بعد كل هذه السنوات؟! لو قالت ذلك منذ زمن طويل لقلت: أجل، إنها متأثِّرة بهوجة الأفكار المنتشرة فى كل مكان، ولكن الآن... كلام عن الحرية؟! هل تظن هذه الغبية أن العالم ما زال يعيش زمن حركات التحرُّر، ويرفع شعارات الاستقلال؟! ألم تسمع عن النظام العالمى الجديد؟! ألا تعرف أن كلمة الحرية صارت من الكلمات الشاذة الغريبة الموشكة على الانقراض تقريبًا؟

ابتسم الخط للنقطة ابتسامة صفراء مستخفة، لحظتها النقطة فزاد غيظها وصارت تغلى فى داخلها أكثر، لكن تلك الصفراء لم تحل دون استمرار هواجس الخط أيضًا فاستمر مسائلاً نفسه:

ولكن من أين لمثل هذه المفعوصة بمثل هذه الأفكار؟! إنها لا تغيب عن عينى، وتدور حولى كالثور فى الساقية طوال الوقت، فكيف يتسنَّى لها التلفُّظ بكلمات من هذا النوع؟ لعلها تغافلنى عندما أنعس وأنام فتذهب سرًّا إلى ندوات

حقوق الإنسان، أو علها تنتمى – دون علمى – إلى جمعية من جمعيات النساء الجديدة المنتشرة فى كل مكان الآن.

راح الخط يتأمل النقطة جيدًا ، ويتمعن فيها طويلاً ، علّه يكتشف متغيرات جديدة طرأت عليها ، فلما توصل إلى أنها ما زالت كما هى مجرد نقطة صغيرة ، لا أزيد ولا أقل، تنهد بارتياح وطقطق أصابعه فى رضا وملل، ثم قال لروحه:

اتركها يا ولد تبعبع وتفضفض عن روحها قليلاً ، فكم من مرة هبت وثارت وزوبعت وعفرت وغضبت وحزنت لكنها فى النهاية تطلع لفوق، ثم تهبط على لا شىء. إنها صغيرة ضعيفة، حمقاء، رعناء هوجاء، لا حول لها ولا قوة، تظن أنها قادرة على العيش بمفردها بعيدًا عنى، لكن هيهات، فهى لا تستطيع التحرك قيد أنملة من مطرحها إلا بإذنى ومشيئتى، فلتسكت يا ولد حتى تهمد نارها وتصفو لوحدها ، لكن النقطة نجحت فى إقلاق الخط بعد أن حاول طمأنة نفسه، وجعله يتوتر فعلاً ، فلقد استمرت فى ثورتها ، ولم تكف عن الكلام وراحت تقول:

ثم إنك بدونى تفتقد كل معنى، وينتفى منك المبنى فأنت محكوم ومرسوم بى، ولا يمكن أن تكون إلا إذا كنت أنا سبحان المتجلى الجبار، يضع رزقه فى أضعف خلقه.

زفر الخط بمرارة وضيق وهو يهمس لروحه: "اللهم صبرك يا روح" ، اسكت يا ولد وامسك نفسك فهى نقطة، مجرد نقطة تافهة لا راحت ولا جاءت فلا تنسق وراء استفزازها ، تثاءب بملل وفضل أن يتجاهل الأمر كله ويتركها لينام قليلاً حتى تهدأ ، فتكور راسمًا من نفسه دائرة صغيرة، وراح يصفر لحنًا خفيًا هادئًا لينسيه مهاترات النقطة وشغبها ويجلب له النعاس. اغتاظت النقطة

أكثر من سكوت الخط ولا مبالاته بالرد عليها، وجاءت حركة نومه كدليل جديد على قلة احترامه لها واحتقاره واستخفافه بها، لذلك اندفعت تقول حانقة:

ثم إننى سبب وجودك، وسر حياتك، فأنا البيض وأنت الفيض، إذا انبعث فانشطر، فأتكاثر فأتلاصق فأتماسك فتكون أنت، فأنت بعض من بعضى، وأنا التى جسدتك لتكون من مبتدأ أساسك حتى منتهى راسك.

انتفض الخط منتصبًا حادًّا كالعصا، فقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ولم يستطع حمل المزيد من استفزازات النقطة، والسكوت على كلامها المتكبِّر المهين، وانطلقت كلماته كالحمم وهو يقول:

اسمعى أيتها البائسة المغرورة، لم أكن أرغب أن أرد عليك فى البداية، أما الآن وقد سمعت منك ما سمعته، فلسوف أواجهك بحقيقة وضعك فى هذا العالم، فوجودك لا معنى له إلا بوجودى يا مهملة، يا مبهمة، يا محدودة، يا مسدودة، يا كئيبة، يا مريبة، يا غريبة، يا وصمة – إذا كنت وحيدة دونى – على بياض أية صفحة. أنا الذى يحميك ويذود عنك ويقول خلُّوها، لا تزيلوها، فهى مهما كان شكلها نافعة لا تغيب عنها الضرورة، ولها بعض من الكينونة، حتى وإن كانت فقيرة، صغيرة، لا تستبين ثم عن أية حرية تتحدثين؟! وهل لك من خيار حتى تختارين، وتبتعدين؟ أنت لا حرية ولا انتقاء. أنا الحر الذى يمكنه الصعود شمالاً أو الهبوط جنوبًا، السريان شرقًا أو التوجه غربًا. أنا المربع. الواهى، الغليظ، المعلوم، الحر، الرامز، المشير، الرهيف، الممدود، المضروط، المنكسر، الكاسر، المستقيم، الموضح، المشدد، المحيط، المثلث، المستدير، المفرود، الممدود، الملموم، المستوى، المنحنى، الرفيع، العريض، القصير، الطويل، القائم، المائل، الرأسى، الأفقى، الفاصل، القاطع، الباتر، الصارم، الحاد، المنساب، المستقيم، الرقيق، الدقيق، اللين، الطيع، الواضح، الجلى،

المحدد، الواصل، المانع، الحائل، الدال، السلس، المرن، المتعرج، القافل، أنا الذى أكون حرفًا، فأتجسد ألفًا وهاء وحاء، أنا المتحول السرمد: تحير فى كنهى الفلاسفة، وتغنى بى المنشدون، ألم تسمعى من قال: الحرف يسرى حيث القصد: ألا تدركين كيف أننى المتجلى ببهاء المعانى، والقادر على التجسد والتسامى؟ أنا الذى أكون شموسًا وأقمارًا وبحارًا وأنهارًا، أنا الورود والأشجار، والمتجسد بهيئات الذوات، منى تتكون الجبال والتلال والبشر والأسماك والطيور. أنا من حفظ ذاكرة الزمان، ورسم معالم المكان، أجرد الأشياء فى جوهرها فتبقى أبدًا إذا ما فنيت وغاب مظهرها.

ابتسمت النقطة ساخرة فى تشفٍّ وهى تتمدد قليلاً لتتضح وتستبين ثم قالت:

تحدثنى عن الغرور! وأنت لا تكف عن قول أنا، أنا أنا، أعوذ بالله منك يا شيخ ومن قول: أنا، ألا تعرف أنها سبيل الشيطان؟! ألم يبلغك قول من قال: "ذواتنا ناقصة، وإنما تكملها الصفات. وأما ذات الله فهى كاملة، لا تحتاج فى شىء إلى شىء، إذا كل ما يحتاج فى شىء إلى شىء فهو ناقص".(*)

غضب الخط كثيرًا لسخريتها منه، وعيبها فيه، فقرر أن يفحمها ويرد لها الصاع صاعين، فرد عليها بلؤم شيطانى – ربما لأن إبليس تمكن منه بعد أن غافله ودخل حلقه عندما كان يتثاءب لينام – قائلاً وقد تحشرج صوته بحنق التوتر والانفعال:

أصرت تردين علىّ؟! ترفعين صوتك فى حضورى، وتسخرين منى؟! ما شاء الله، والله جاء خيرك يا نقطة، والله عشنا وشفنا! لكن بما أنك نسيت أن العين

(*) عين القضاة للهمذانى.

لا تعلو على الحاجب فصرت تتقديننى وتصفيننى بالغرور، بل وتتفلسفين فى المعنى والمبنى، وتخوضين فى حديث الصفات والكمال والنقص، فلتعلمى أنك فسيفة من ضلال الظلمات، ووجود تعز عليه الصفات. أنت كئيبة، مريبة، عديمة المبتدأ والمنتهى، لا وجه لك ولا قفا، دوامة فى الدجى، ومتاهة من العجز وقلة الحيلة، أنت عين عمياء بلا رامش، ووجودك بمثابة هامش الهامش، لا تملكين من أمرك أمرًا. ومع ذلك تتشدقين بالبقاء والذهاب، والحضور والغياب، ألا تعلمين أنه ما من ضرورة لوجودك إلا بوجودى، وأنك لا تملكين أن تجودى، فأنت بلا فعل، بلا حركة، وأنا المجسد حيثما كنت، أما سمعت من قال: "الحركة حياة فلا سكون فلا موت ووجود فلا عدم"(*)؟ وأنت قمة العجز وغاية السكون.

شعرت النقطة بمرارة الذل تجتاح حلقها. إذًا ها هو الخط يعيرها بما غاب عنها من حظ فى الطبيعة وينكر عليها كينونتها المحدودة المتواضعة. لا يتقبل منها نقدًا، ولا يسمع لها احتجاجًا. ينكر عليها مشاعرها وكأنها قدت من صخر بلا إحساس. ودت لو تبكى لو تصرخ، بعد أن استجارت منه، لكنها قررت ألا تستسلم أو تتراجع، فعلى الخط أن يفيق من سباته ويدرك أن الدنيا تغيرت والزمن يسرى بروح جديدة فلا يمكن أن تستأثر القوة وحدها بهذا العالم، ولا يمكن للتفوق أن يكون معيارا للوجود، ففى الكون متسع للجميع، وعلى الكل أن يتعايش مع الكل. لذلك تماسكت، وراحت تبتلع الإهانة، مصممّة على خوض المعركة حتى النهاية، وردت عليه بهدوء قائلة:

مشكلتك أن ذاتك متورّمة، تحجب عنك رؤية ما حولك، لذلك فأنت

(*) ابن عربى.

جاحد وناكر للجميل، تعيِّرنى برسمى وكسمى، بينما لا تنظر إلى الشمس أمامك وهى تفترش الأفق كنقطة ضخمة رائعة من الضياء. أنت لا ترى نقطة الأرجوان البهيجة وهى تبتعد، بينما تعيرنى بكسمى ورسمى، وأنت الذى لا يستقيم وجودك إلا بوجودى، أنسيت أنك لست إلا المسافة التى بينى وبينى؟ أنسيت أن أصلك منبعه أصلى؟ ولا تكوين لك إلا من تكوينى؟ صحيح أ ننى صغيرة، محدودة مسدودة، لا أروح ولا أجىء لكنك لا تستطيع الاستغناء عنى، فعندما تتجسد فى كلمات أكون أنا ملح الكلام وأساس الإفهام، أما سمعتهم يقولون عندما يكتمل المعنى برسمي: وهكذا وضعت النقاط فوق الحروف. ثم إنى بابك الساتر إذا أمسكت وانتهى منك المقال، فإذا كنت بعدك فهم أنك أوفيت وأكملت، لقد كنت أظنك من إخوان الصفاء وخلان الوفاء، لا تبخس الصديق ولا تعير الرفيق، فما بالك وأنا أجود عليك بفضلى، أنسيت أنك واحد، وأنا التى أجعلك عشرة ومائة وألفا وآلافا؟ أنسيت أننى أحل عليك بركتى التى هى من بركة الله، فتزيد وتتكاثر إلى ما شاء الله؟ لن أسترسل فى الحديث عن نفسى، ولكن عليك أن تعلم أن الدنيا تغيرت، وعصر العبيد قد ولى وراح، فليس لنفس أن تتسلط على نفس، ومهما كان ضعفى، أو فقرى، أو قلة حيلتى، فإن جبروتك وتكبرك لن يجدى معى بعد اليوم، ولن تستقيم حياتى معك أبدًا، إذا ظل الحال كما هو عليه.

تمطى الخط وتمدد فى استرخاء وهو يقول لها بعد ما أدرك هزيمتها وتراجعها من الهجوم إلى الدفاع.

إن ما تقولينه ما هو إلا بعض من حلاوة الروح المتبقية لك. اجرى يا شاطرة، العبى بعيدًا عنى كما تشائين، ولكن قبل أن تذهبى انتظرى قليلاً فسوف أريك شيئًا.

صعد الخط عاليًا، بسرعة فوق السطر، فرسم ألفًا، ثم انزلق سريعا إلى آسفل فعمل راء وبعدها تلاعب بجسده فخلق ميما فسينا فعينا فدالا، ولما انبعج بظرف كانت الصاد فالطاء أما الحاء فقد سحبها بصنعة لطافة سرت إلى اللام واللام ألف وأخيرًا تدولب ليستقر هاء فى مطرحه مرة أخرى.

كادت النقطة أن تتفجر غيظا وهى تشاهد كل هذه القدرات المدهشة المبهرة الساحرة للخط، التى لا تستطيع لأى منها سبيلا، فلم تتمالك نفسها وشرعت تبكى بمرارة بينما الخط يسألها ضاحكا ساخرا، متشفيا:

هه؟ ما رأيك؟ تفضلى واعملى شيئًا واحدا مما عملته ثم تحدثى بعد ذلك عن الحرية. مشكلتك هى مشكلة كثيرين من أمثالك فى هذه الدنيا، يتشدقون بعبارات طنانة لا مصداقية لها، ويتبنون نظريات لا يقدرون على تنفيذها وإثباتها فى الواقع. من البديهى يا عزيزتى أن نفعل ما نستطيعه، لا أن نتشدق بما لا نستطيع، ولكن كم من البديهيات غابت عن هذا العالم، إن أمثالك كثيرون، أفنوا أعمارهم فى سبيل كلمات ظنوا أنها قادرة على تغيير العالم، والحقيقة أنها لم تغير إلا مصائرهم التى سارت من بؤس إلى بؤس. أنت صغيرة يلزمك الكثير لكى تعرفى وتدركى.

بدت النقطة وكأنها لم تسمع حرفًا واحدًا مما قاله الخط، فقد انكمشت على نفسها تبكى بكاء متواصلاً، كانت خلال هذه اللحظات تفكر فى تاريخها، عذاباتها، آلامها الدائمة التى لا تنتهى فى هذه الحياة. لم تكن تفكر فى النظريات ولا فى تغيير العالم كما يظن الخط، فقط كانت تتمنى أن تستريح قليلاً، أن تشعر بوجودها ككائن حر يتحقق مرة بمفرده فى فضاء فسيح، خال، بلا صراع.

أخذ حجم النقطة يتناقص شيئًا فشيئًا كلما سكبت مزيدًا من الدموع. كان لونها يبهت، ومساحتها تتلاشى وقد تشوهت صفاتها وفقدت ليونتها وتكوينها الجميل. تجمد الخط فى مكانه مرتعبًا وهو يلحظ غيابها وتضاؤلها المتزايد أمامه. شعر بخطورة الموقف ومدى المصيبة التى ستحل به لو أن النقطة استمرت على هذا الحال. إنها تتلاشى تختفى، تضيع، وستأتى اللحظة التى لا تبين فيها أبدًا. فكر ماذا سيفعل بدونها، وما الذى يحل به لو غابت أو اختفت كيف سيتخلّق ويتكوّن ويتحوّل؟! كيف سيتمكّن من أن يصبح باء أو ثاء؟ كيف يرتسم شينًا أو ضادًا أو قافًا أو فاءً أو تاءً مربوطة وغير مربوطة؟! وفكر أيضًا ماذا سيكون مصيره عندما يكون أرقامًا. إنه لن يستطيع بعدها أن يكون عشرات ومئات وألوف وألوف ألوف. لن يتمكن من الاستفهام، ولن يتيقن من معانيه. كاد هو الآخر أن يبكى وهو يستعرض فى رأسه صورته بدونها. وحيدا ضائعا. ناقصا عاجزا بعيدًا عن الاكتمال. تضرَّع صوته وهو يناجيها ويرجوها ويناشدها قائلا:

- لا.. لا.. أرجوك.. كفى، كفى، أنت تضيعين روحك بالنواح، جسدك صغير، ضعيف، لا يتحمل كل هذا الحزن والانفعال. وفرى دموعك. أنا لا أستطيع الاستغناء عنك أبدًا. هل فكرت كيف سأكون وحيدا بعدك؟ كيف ستكون حياتى وأيامى بدونك؟ ومستقبلى فى غيابك؟

راحت النقطة تراجع مع نفسها كلماته وتتساءل: هل هو صادق حقًا فيما يقول، هل هو يتراجع ويراجع نفسه فى علاقته بها؟ وهل نبرات الصدق التى سمعتها لتوها منه كافية لأن تجعلها تعيد النظر فيما قررته؟ ثم إنها فكرت فى مصيرها هى أيضًا. إلام ستئول حياتها؟ وكيف ستعيش وحيدة فى هذا العالم؟

لقد اكتشفت أن الرباط بينهما هو نوع من القدر الأبدى الذى لا يمكن أن ينفصم أبدًا ولكن آه لو يفهم. آه لو يفهمها هذا الخط ولو مرة واحدة ويتمثل مشاعرها وأحاسيسها.

بعد صمت طويل نطقت النقطة ترد على الخط قائلة:

- إذا كنت جادا فى كلامك، فيجب أن تعترف بفضلى عليك، وضرورتى لك، وأن بقائى معك يجب ألا يخل بكينونتى، فلقد سئمت الحياة مع الحب والكره فى آن، فإما تفاهم فحب فاحترام، فاستمرار، وإما اختلاف، فبغض، فازدراء، ففراق، فأنا لا أحب شعرة معاوية، لكننى أصبو إلى حبل الوداد المتين الذى يمتد – لو شاء الله- إلى يوم الدين.

تأملها مجددًا بإعجاب وافتتان، ثم هز رأسه وتبسم وكأنه يرى وردة تتفتح، وبدت له بالفعل جميلة، قوية، مؤثرة، على الرغم من صغرها وضعفها، لكن إلى أى مدى سيمتد تمردها هذا؟ وما الذى سيترتب عليه؟ مد لها ذراعيه ليحتويها بينهما، واستجابت هى رغم ما فى داخلها من تساؤلات فتلاقيا وهما يشكلان على نحو غاية فى الروعة حرف النون اللازم بداية لرسم كلمة نور.

عود كبريت

سليمان فيَّاض(*)

دكان المكوجى شق كالخص فى جدران من الطين، وابور الجاز يفح نارًا وصهدًا، والمكوى فوقه تفح صهدًا. الشارع أسفل الرصيف، غارق كالرصيف فى الشمس، يفح صهدا. الولد المكوجى، ابن الأعوام الستة عشر، يمسح عرقه بالفوطة السخنة التى يمسك بها المكوى. لا صوت سوى صوت الوابور، وزن الذباب على الرصيف. وفى الشارع كلاب استلقت على جنوبها فى ظلال الجدران المقابلة. انقطعت الرجل من الطريق فى اليوم الحار. الولد المكوجى يدوس بالمكوى على الأقمصة البيضاء، قميصًا بعد قميص.

الولد المكوجى، رأى ظلا على ترابيزة الكى. التفت لصاحب الصوت:

- ولّع لى.

الولد المكوجى شعر بالغيظ، قال له:

- مفيش كبريت. ادخل ولع من الوابور.

(*) نشر قصته الأولى "سندريللا" بمجلة "البوليس" العدد ١٤٣، بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٢٧. ومن مجموعات سليمان فياض (ولد عام ١٩٢٩) القصصية: (عطشان ياصبايا)، (وبعدنا الطوفان)، (زمن الصمت والضباب)، (الصورة والظل)، (القرين ولا أحد)، (وفاة عامل مطبعة)، (الذئبة)، (ذات العيون العسلية)، (الشرنقة).

صاحب الصوت شاب من الشارع، خايب مدارس، رأى بجانب الوابور علبة كبريت بها أعواد كبريت. قال للولد المكوجى:

- ناولنى الكبريت.

الولد المكوجى كرر:

- مفيش كبريت.

الشاب خايب المدارس رفع يده، فرد كفه، هوى بها على صدغ الولد المكوجى العرقان. دوت الصفعة.

الولد المكوجى جبن.

الشاب مد يده لمشط الكبريت وأشعل السيجارة، ثم دس مشط الكبريت فى جيبه، ثم نفخ دخانا فى وجه المكوجى، ثم مسح يده من أثر العرق فى القميص الأبيض، ونزل عتبة الدكان إلى الرصيف.

صاحب المحل كان قادما، رأى الولد المكوجى يبكى. سأله. عرف ما حدث. فار الدم فى رأسه، كان يرتدى بدلة جندى فى إجازة، سحب من جيبه مطواة قرن الغزال. لحق بالشاب خايب المدارس، فى الطريق، من الخلف شرط عنقه بالمطواة. انقطع العرق الذى فى الرقبة، واندفع سرسوب الدم الصاعد إلى الرأس ودار فى اندفاعه مع الشاب، كلما دار مترنحا حول نفسه، وسقط الشاب على الرصيف المقابل، يشخب عنقه دما على حجر الرصيف. خرج الولد المكوجى من شق الدكان، ووقف على العتبة، ينظر بفزع. الجندى صاحب المحل غطس فى حارات الحى، الخوف جمد الولد المكوجى فظل واقفا، ينظر لسرسوب الدم الأحمر. المرأة العجوز، كانت عائدة من الحارة إلى الشارع، رأت سرسوب الدم فصرخت زاعقة:

- الحقوا الراجل يا ناس.

واندفعت نحو الشاب: جثت بجانبه رفعت رأسه، وضعته على فخذها، على ثوبها الأسود. أخذت تحاول إيقاف سرسوب الدم. الشاب فى غيبوبة على ساقها. امتلأ الطريق بالناس. تحلقوا. سمعت أصواتهم، وهى ترد الدم جاهدة:

- ما فيش فايدة دا عرق الرقبة.

دارت أقراص التليفون وراء النوافذ، تقاطعت الأصوات الملهوفة، تطلب الإسعاف، البوليس. الدم يتدفق على الثوب الأسود. المرأة العجوز صارت جالسة فى بركة مسودة، تبكى، وتتشج، كأنه ولدها.

جاء الإسعاف بعد نصف ساعة، والبوليس فى إثره، الجسد المرتجف كان قد سكن، والدم قد توقف. قال رجل الإسعاف:

- انتهى مات.

المرأة العجوز أُنهِضَت ملوثة اليدين، والساقين، والثوب، بالدم. بدت ذاهلة. ضابط البوليس يسأل المرأة، والولد المكوجى، عما حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ قال الولد المكوجى:

- عود كبريت.

حجر رشيد(*)

سمية رمضان

الطريق إلى رشيد تحفُّه مليون نخلة. مليون علامة استفهام تتطاول على السماء. بعد أربعين كيلومترًا من الإسكندرية يبدأ النخيل فى التراجع الفوضوى أمام حفريات (المقاولون العرب). فى شرق الميدان بجوار النقطة: متحف رشيد: بيت "عرب كلى" سابقًا والأطفال يتدافعون. صعدت وراءهم إلى الطابق الثانى والمدرس يشير فوق الرءوس الصغيرة:

- انظروا إلى التماثيل الشمع يا ولاد. هكذا كان الناس يأكلون وقتها. كانوا يأكلون السمك.

وكانت الرءوس الصغيرة تشرئب كل مرة يهم المدرس "بشرح" المعروضات، وعندما ينتهى ترتخى الرءوس كالأزهار الذابلة. رأس صغير واحد ظل يتطاول كل مرة قبل أن يعيد المدرس "الشرح" يسأل فى صوت عالٍ والعينان تتفحصان التماثيل الثلاثة من وراء درابزين الإيوان.

- فين حجر رشيد يا أستاذ؟

لم يعره الأستاذ انتباها وراح يكرِّر:

- انظروا.. كانوا يأكلون السمك هكذا.

(*) سمية رمضان فى قصتها (حجر رشيد)، مجموعة (منازل القمر)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩.

على جانبى الإيوان وضعت أوانى فخارية لصقت فوقها على الحائط بطاقات كتبت على آلة كاتبة عتيقة: "زير للشرب من العصر العثمانى" كانوا يأكلون السمك ويشربون. وجاء صوت الطفل مرة ثانية:

- فين حجر رشيد يا أستاذ؟

فجأة علا صوت راديو بالخارج على أغنية لم أسمعها من زمن.. "جتلوه السودانية" يا ابويا من فوق ضهر الهجين.. وكما بدأ اللحن فجأة انقطع فجأة. وبدأ مد الأطفال فى الانحسار.

شعرت بالظمأ والولد صاحب سؤال الحجر يرفع صوته مرة أخيرة قبل أن يغادر الحجرة فى رتابة أثقلت قلبى.

- فين حجر رشيد يا أستاذ؟

ووجدتنى أجيبه فى قسوة:

- حجر رشيد فى المتحف البريطانى فى لندن؟

كانوا قبل أن أنطق يحدثون جلبة تدافع التلاميذ الصغار أمام معروضات المتاحف ولكن بعد أن علا صوتى هكذا وسطهم صمتوا تمامًا. نظر إلى المدرس نظرة عاتبة، ثم هش على أطفاله وقال:

- يللا بينا يا ولاد من هنا.

انزلق عقلى ينفى عن نفسه العزلة التى فرضها على المدرس فى جملة واحدة انصاع لها الصغار فى هدوء. ولأن انصياعهم الصامت هذا آلمنى أكثر مما آلمتنى نظرة الرجل وهو يبعدهم عنى وجدتنى أثأر لنفسى منهم فى صورة الطفل الوحيد الذى تجرأ على السؤال. عينان تبتلعان الوجه النحيل وسؤال يائس على

وشك الصمت. سوف يعود إلى الإسكندرية وسوف تتلقاه أمه ولن يسألها إذا كانت تعرف أن حجر رشيد ليس فى رشيد ولكنه فى متحف فى لندن. وحتى إذا سألها، فسوف تقول: نعم أعرف، ثم أسرعت بالتعليق على اتساخ الحذاء. وربما قالت: والله؟ ثم تسرع بالتعليق على اتساخ الحذاء. كم من الإجابات نجهل؟ تذكرت أولادى عندما كانوا أطفالا والأصغر ينظر إلى الأكبر ميهورا وهو يجيبه من وراء الأطلس الكبير:

- "إلبا" تبعد عن رشيد بألف وثلاثمائة وستة وأربعين ميل بحرى.

والصغير يسأل – يعنى إيه ميل بحرى؟

- واحد وثمانية وثمانين من عشرة كيلومتر.

يستدير الصغير إلىّ فى تلقائية تنم عن حدسه أن أخاه لن يفيده أكثر من هذا:

- يعنى إيه "نفى نابليون إلى سانت هيلينا"؟ ثم قبل أن أستجمع مفردات معقولة للرد:

- فين حجر رشيد؟

لو لم تكن صناعة الحياة هى صياغة الأسئلة فماذا تكون؟

قطعت رحلة العودة إلى الإسكندرية ووصلت جراج بيتنا فتداعى إلىّ صوت الحاج حسن السايس الوقور، يقول لمحدثه فى ثقة وتؤدة:

- ليس على المسلم حرج.

ما إن هممت بالنزول من السيارة حتى وجدتنى وجها لوجه مع طفل المتحف. التقت عينانا فجرى يختبئ خلف فترينة الحلوى فى أقصى الجراج. ولم

أتركـه لحالـه، خطـوت نحـو الفترينـة التـى يرتـزق منهـا الحـاج حسـن فـى خـط مستقيم ووقفت أحملق فى الصغير من علياء طولى، أستلهم من استجابتـه مدخلا للحديث وهو يرفع عينيه فى حذر وينكمش ثم ينظـر خلفـه فيتأكـد ألا فـرار. الحائط من ورائه وعلى يمينـه ضلفة الفترينـة وعـن يسـاره وقفت أنـا وقـد تبـدل داخلى فى لحظة من كيان حامٍ يمتد بدفء الوعد إلى شىء مخيف ومهدد. لقد تسبب فزعه فى أن تنامى مرة أخرى نفس الحس بالقسـوة التـى أجبته بها عـن مكان الحجر ونحن فى المتحف. عدت أدراجى أفتش حقيبتى أبحث عن المفاتيح.

عندما كان أولادى صغارا كنت أعتقد أنى لا أحيا الحياة إلا لأرويها لهم قبل النوم. وعندما كبروا على حكاية قبل النوم بدأت أكتب قصصـا أتوجـه فيها إليهم بالكلام وكان أصدقائى ممن تصوروا أننى أكتب للكبار يقولون إن لى حسا تربويا متعاليا يفسد القصص. لماذا ظللت أكتب وقد كبر الأطفال على القصص؟ لماذا يصر الناس على أن الورود أساسية فى إشاعة البهجـة علـى الحفل؟ وبعد الحفل؟ تتسلل الديدان إلى الورود تذبلها. من أين جاءتنى تلك الصورة البشعة؟ ومن قائل الأبيات: "حبيبتى مثل وردة حمراء حمراء؟ هل كنت أحيا حتى الآن لو كانت لى ذاكرة حديدية حافظة تعيد الرد على كل الأسئلة المتكررة بنفس الدقة كل مرة؟ وكيف أحيا الآن ولا أستطيع أن أقول حتى للأصغر وأنا متأكدة من انصياعه "هيا بنا إلى المكتبة افتح الموسوعة البريطانية، المجلد ١٩ حرف الراء فنقرأ وأعيننا تلمع كأننا وقعنا على كنز ثمين:

روزيتا:

- قبطى: رشيت. عربى: رشيد.

بلدة تقع على الفرع الغربى للنيل أو "فم" روزيتا على الضفة الغربية. أسماها الإغريق بوليبتين. عندما تملحت قناة الإسكندرية وفروع أخرى ازدهرت روزيتا مثل مينائها الأخت داميتا على الفرع الشرقى، كان طريق التجارة الرئيس بالبر إلى الهند يمر بها حتى حفر محمد على قناة جديدة ربطت الإسكندرية بالنيل. لقد أصاب روزيتا الآن كثير من العطف. يربطها بالإسكندرية خط سكة حديد. حجر روزيتا الشهير الذى وفر مفتاحا لفك شفرة آثار مصر القديمة وجد بجانب قلعة سان جوليان، أربعة أميال شمال البلدة فى عام ١٧٩٩، وجده بوشار ضابط فرنسى. والحجر مصنوع من البازلت على هيئة بلاطة حجرية محفور عليها بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية، قرار من الكهنة المجتمعين فى منف بمؤازرة بطليموس أبيفانيس. وقد سلم الحجر للإنجليز عند استسلام الإسكندرية (١٨٠١) ويوجد الآن بالمتحف البريطانى.

عندما فتحت المجلد العتيق، وجدت أننى كنت هنا من قبل، تحت قلعة سان جوليان خط ومثله تحت استسلام الإسكندرية.

عين حلوان

سمير الفيل(*)

لو أخرجنا الولد الصغير من الصورة ستكون الفرصة أعظم لسبك قصة معقولة حول سبع شخصيات تضمها صورة قديمة التقطت بالأبيض والأسود. إن الصورة تفكر فى طمس بعض الملامح والذكريات ولكننى بقدرة قادر سأكون قادرًا على المباغتة، وسأهمل العصافير التى كانت تمر فى الفضاء مشقشقة فى فبراير من عام ١٩٧٢، وأنا أبحث بكل قواى عن بنت جميلة آحبها.

فجأة أعلنوا عن الرحلة إلى عين حلوان الكبريتية، ووجدتنى فى الطريق إلى هناك. أجلس مصادفة إلى جوارها، وأبص فى عينين خضراوين فرحتين، ممتلئتين بفرح الكون. وهى لا تعرف أننى أريد أن أستشف مدى قبولها لى، لكنها تتغافل عن النظرة، وتلقى بكامل اهتمامها نحو الغيطان والأشجار التى كانت تفر كأشباح القرون الوسطى، ومعها عواميد الكهرباء، وحقول الفول.

مررنا بالحديقة اليابانية، وقد تركناها وسرنا نحو عين حلوان، ونحن

(*) سمير الفيل، من مجموعاته القصصية: (خوذة ونورس وحيد)، دار سما، ٢٠٠١، (أرجوحة)، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١، (كيف يحارب الجندى بلا خوذة؟)، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١، (انتصاف ليل مدينة)، (اتحاد الكتاب)، ٢٠٠٢، (شمال.. يمين)، سلسلة إبداعات شرق الدلتا، العدد ٤، أبريل ٢٠٠٧، (مكابدات الطفولة والصبا)، دار الكنوز الأدبية، بيروت، يوليو ٢٠٠٧، (صندل أحمر)، دار فكرة للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، "قبلات مميتة"، دار اكتب، القاهرة، ٢٠٠٩.

نقف فى رحابها الآن. الولد يواجهنى ولا يريد أن يخرج من المشهد حتى يجعل الحبكة ممكنة. حسنًا سأتجاهله بكل وسيلة ممكنة وربما أصفعه فى لحظة مواتية بغلٍّ دون أن يخاصمنى أبوه، فالأدب فضلوه على العلم. أشعر بعين تراقبنا من بعيد. عين الأستاذ مجاهد الذى يريد أن ينشر الفضيلة بطريقته المحتدة والعنيفة. إنها نظرة تخترق صمتنا المؤرق، ويبدو أنه قد غضب فعلا حين ترقرقت ضحكاتنا صافية.

كانت نشوى إلى جوارى تمامًا، وشعرها منسدل من ناحية واحدة هى اليمنى، وبيننا ٣٠ سم أو أقل قليلاً، إنها تشبك ذراعيها تحت نهديها تمامًا، ويظهر خاتم فضى صغير على شكل زهرة لوتس فى إصبعها الخنصر. حلق صغير على شكل حبة الحمص مرصع بفص من الياقوت المقلد يشغل أذنيها.

أذكر أننى لحظتها كنت أميل لجهة اليمين ميلا غير طبيعى البتة، ولا يليق بصورة تذكارية، وهو ميل سببته لى حقيبة المدرسة الثقيلة التى حملتها مع توالى السنين حين كان المدرسون لا يعطوننا الجداول المدرسية، وكنا نضطر لدس الكتب كلها فى جوفها فتنتفخ، ويظهر حز بلون محمر سيظهر للرائى لو كشفت الكتف بعد الذهاب أو العودة.

أراها شاخصة ببصرها للأمام، وفى ملامحها سحر غامض. لم أكن قد قرأت عن الموناليزا لذا فسيكون صعب علىَّ أن أشبهها بها. سأقول إنها قريبة فى تقاطيعها المليحة من مشيرة ابنة خالتى والتى كانت أكبر من سنها بأعوام قليلة أو ربما تشبه ملامح فلاحة من الدلتا صورها محمود مختار وقد زرت متحفه فى نهاية كوبرى قصر النيل ووقفت متعجبًا من مهارة نحته، وارتعبت من ضخامة الأسدين الرابضين فى طرفى الكوبرى.

لا ينبغى أن يقتصر حديثى عن نشوى حتى لو كانت هى التى استرعت

انتباهى فى رحلة حلوان، أجدنى أميل إلى تذكر لون بلوزتها الصوفية. كانت فستقية ولها صف من الأزرار الصدف الذهبية أما تنورتها فقصيرة، وتصل لما فوق الركبة، ولمن يريد أن يصطاد فى الماء العكر عليه أن يتوقف فوراً إذ أنها ارتدت تحت التنورة أو الجيبة - يبدو أن التنورة تذكرنى بالتنور أى بيت النار فأجدها كلمة غير مناسبة بتاتا عن قصة حب سأحكيها - جوربًا بلوت زهرى خلاب. أعتقد أنه كان يصل إلى خصرها، فلو أنها وضعت ساقًا على ساق فلن يظفر شخص مراهق مثلى بأى غنيمة - باعتبار أننى شاب عمره واحد وعشرون عامًا، ولم يسبق له تقبيل فتيات إلا مرات قلائل تحت السلم الخشبى للبيت أو فوق السطوح فى الليالى التى يختفى فيها القمر، وبصورة غامضة ومتسرعة خوفا من الأهل ودخول النار - وقد صدق حدسى عندما تسابقنا لتسلق أحجار هرم خوفو الأكبر، فسبقتنى وتوقفت بعد تسعة أحجار واضعة يدها على جانبها الأيسر. قالت لى بصوت خافت متألم: "ساعدنى".

كنت أمنى نفسى أن أصارحها بأنها جميلة جدًّا، وقد خلبتنى بروعتها لكننى وجدت نفسى أضع يدى على قلبها بدون أى سوء نية وأرتعب من الدقات العنيفة المتتالية. بدت لى كطبلة يدقها زنجى فى أعماق قارة إفريقيا. لقد أجلستها على حافة الصخرة وخجلت عندما شعرت بيدى تجسها. نظرت فى عينى بعتاب فسحبتها، واعتذرت بنظرة خجلى.

كانت هناك سيدة أجنبية تمر بنا فطلبت منها جرعة ماء فهزت رأسها مرحبة. قالت الكلمة الوحيدة التى حفظتها من مقرر الإعدادى **"love"**، وكانت مخطئة لأننى لم أكن قد أحببتها بعد. كنت قد رسمت خطة بينى وبين نفسى أن أصارحها بجمالها حين نبلغ نصف المسافة للقمة التى تلتحم بزرقة السماء. لكنها تجلس مخطوفة اللون، وأنا فى حيرة من أمرى: "ماذا بك؟".

فكرت أنها قد تموت لحظيا، وأتهم بجريمة لم أفعلها. يبدو أننى ارتبكت وذعرت وطفرت الدموع من عينى فقد وجدتها تقترب منى كلية حتى تماس كتفانا.

همست لى بخفوت مذعن: "لا تخف".

خلعت سترتى الصوفية غير هياب من البرد: "ضعيه على كتفيك".

شملنا سكون "سأكون بخير".

رمقتها بنظرة تجمع الوله بالشفقة. ابتسمت بصعوبة: "قلبى ضعيف. ورثت ذلك عن أبى".

قلت مواسيا: "قلوبنا ضعيفة لأننا نحزن كثيرا"، فتندت عيناها. وجدت أن الصمت فى هذه الحالة خير من الكلام. بقينا فترة نتأمل الناس والأحصنة والجمال بسنامها المتأرجحة تحتنا.

سرى الدفء من يدى ليديها اللتين بدتا باردتين جدًّا. قالت: "بنا نهبط".

وافقتها ووجدت سلوى أختها الكبرى، مدرسة الجغرافيا التى فاتها قطار الزواج تلوح لنا فيما تبرطم بهيرة بكلمات ساخطة بما يعنى أننا تأخرنا.

كانت سلوى هى التى جاءت بنشوى طالبة الثانوى، وببهيرة شقيقتها الوسطى التى تزوجت تاجر موبيليات ثريًّا وبخيلاً. فشل زواجها، ورجعت لبيت أبيها بطفل أشقر وعفريت فى شقاوته. تركته حين جاءت الرحلة مع والدتها المسنة. رأت الشقيقة الكبرى أن تحضرها معها كى تسرى عنها. ظلت بهيرة مكتئبة، ولم تضحك ضحكة واحدة طوال الرحلة.

أراها فى الصورة أشبه بطائر أبو قردان، فرقبتها ملتوية بصورة غريبة،

وهى ترتدى فستانًا مزركشًا، وتجلس فى المقدمة مادة ساقيها نحو اليسار ولا يظهر موديل حذائها، فقد قص بمقاس الكادر، وهذا يهمنى جدًّا، فقد كنت أتعرف على الشخصية من شكل ولون وموضة الحذاء، فكما يعرف أصحابى قضيت زمنا فى مهنة بيع الأحذية.

لن أبتعد عن الحقيقة إذا قلت إنها كانت تنتعل حذاءً أحمر بفيونكة، وهو ما يؤكده وجود توكة من العاج الأبيض وقد تدلت منه شرائط حمراء كموضة هذا العصر.

بهيرة رأتنى أمسك بيد شقيقتها فى الحديقة لنعبر جدولا صغيرا فحدجتنى بنظرة قاسية فتركتها على الفور، وأنا أتمتم لنفسى: "لا شىء جرى. لا شىء". سألتنى نشوى: "لماذا تكلم نفسك؟" أخفيت النظرة المعاتبة، وقلت إننى أقطع وقت فراغى بتنظيم أشعار فاسدة. ضحكت كما لم تضحك من قبل، وشدتنى حتى لا يرتطم ساقى بنوع من الصبار فدخلت برأسى فى أفرع التين البنغالى المتدلى. علت ضحكتها أكثر: "تذكرنى بأفلام شارلى شابلن الصامتة".

أخرجت منديلها ومسحت العفار ودم شحيح لا يؤبه له: "خذ بالك من نفسك". قالتها بثقة واعتزاز، ومدت يدها تساندنى فى خطواتى المتعثرة فشممت عطرا دوخنى أكثر. سألتها عن اسمه فقالت لى لفظا إنجليزيا لم أستوعبه. استولت علىَّ الدهشة لبراعتها فى التحدُّث بالإنجليزية وأجلستها على العشب بالقرب من حوض ياسمين: "هل تعرفين معنى أن يهديك شخص وردة بيضاء؟".

هزت كتفيها لأعلى مستفسرة، فطرت وأحضرت وردة غرستها فى شعرها فبان منظرها متألقا، وفاحت رائحة البتلات المنعشة. قالت لى وهى تلوح لشقيقتيها إنها هنا: "الورد لغة من لا يجيد الكلام!".

فوجئت بنظرات بهيرة تتبعنا. وجدتنى أنحاز لصف مطلقها تاجر الموبيليا الذى سرحها بإحسان وخلص نفسه من مثل هذه النظرة الخرساء.

لن يرتاح لى بال حتى أنتهى من الحديث عن سلوى. إنها تجلس أيضًا فى أقصى الصورة من الناحية المقابلة. رأسها كبير ونظرتها تحمل وداعة الدنيا. بلوزتها صفراء وجونلتها - هذا أفضل من التنورة والجيبة، وسأسعى لتثبيت الكلمة فى كل ما أكتبه تاليا - سوداء مع فتحة من الخلف لا تظهر بالصورة لكننى أتذكرها.

سلوى ظلت معى بالمدرسة، ولم تتزوج سوى فى سن الخامسة والأربعين بعد أن ماتت زوجة الأستاذ عبد الحكم مفتش الرياضيات فطلبها للزواج ولم تمانع. كان هو مفتشها الصارم، ويبدو أن هذه العلاقة الرسمية انسحبت للبيت فقد كانت توقره فى حديثها عنه، وتقول كلما جاءت سيرته: "الأستاذ راح"، "الأستاذ جاء". لم يسكن قلبها سعادة من أى نوع.

لم تنجب وقالت مدرسات خبيثات إنها تستخدم "اللولب"، وقالت أخريات مؤدبات: "بل حبوب منع الحمل". ووصل إلى الأسماع أنها بعد أن زهقت من تصرفات المفتش الباطشة، تشاجرت معه مرات لأنه لم يكن يريد أطفالا وهى تريد.

انكسر فرحها المتبقى وظلت بلا أطفال حتى أصيب زوجها بالذبحة الصدرية، ومات فسألت أبناءه أن يبقوها فى البيت تطبخ وتكنس وتمسح وتساهم فى النفقات فهى مستورة. وافق الابن الوحيد لكن البنات رفضن أن تظل بالبيت رغم أنه بإيجار أربعة جنيهات فى الشهر تدفع بوصل مختوم.

بهذا لم تحصل من هذه الزيجة غير على نصيب محدود من معاش المفتش

وشبكة متواضعة من الذهب عيار ١٨، وعشر شهادات استثمار لا تتعدى قيمتها مجتمعة ألف جنيه.

الصورة أخذت بعد زواجها بعام ونصف لذا كانت ما زالت بشوشة، وهى على النقيض من شقيقتها بهيرة فحين لمحت يدى تسرح شعر شقيقتها برفق، وهى مرهقة فى أتوبيس العودة هزت رأسها متبسمة وكأنها تقول لى: "عش أيامك. أسعدها واسعد أنت أيضا".

لقد انشغلت بالشقيقات، ولم أقترب من فتاتين جالستين فى منتصف الصورة. لا يسعفنى الأبيض والأسود بالتفاصيل الكاملة. سأبدًا من العشب الذى يظهر فاتح اللون وهو أخضر ومتموج بدون شك. أما التى تضحك من قلبها فهى بثينة ابنة ناظر الثانوية وطالبة الهندسة. دقيقة فى كل شىء. مهندمة فى اختيار ملابسها. وهى فتاة وطنية ومثقفة، فقد كان معها كتاب عن جمال عبدالناصر الذى كان قد مات منذ سنتين فى سبتمبر ١٩٧٠. بثينة بين كل جلسة وأخرى تفتح الكتاب لتقرأ صفحة وتنتحب. قالت إن أخاها استشهد فى حرب الاستنزاف ١٩٦٩. لما أخبرتنى بوجود وسام فى البيت حصل عليه لقيامه بأعمال بطولية سنوات الصمود طلبت رؤيته ووافقتنى نشوى فى ضرورة القيام بزيارة بيت بثينة.

بعد انتهاء الرحلة بأسبوع اصطحبت نشوى حسب اتفاقنا، وزرنا البيت بعد المغرب. كانت صورة شقيقها البطل بحجم كبير وتحته دون تاريخ الاستشهاد. لم تفتح بثينة أى كتاب فى حضورنا لكنها فتحت المصحف وراحت تتلو بعض سوره ثم أغلقته بخشوع. قامت وأحضرت الوسام فى علبته القطيفة فبدا محنطا كالمومياوات. مسسته بباطن يدى فارتجف قلبى وانخرطت نشوى فى بكاء خافت. احتضنت فتاة الهندسة التى بدت متماسكة وصبورة. مضت لتعد لنا

أكواب الشاى. فى واقع الأمر لم أجسر على أن تمتد يدى ناحية يد نشوى، فقد احتل صدرينا حزن عظيم لفّنا بأوجاعه المؤلمة. نكسنا نظراتنا فى زخارف السجادة النبيتى المفروشة فى حجرة الصالون والتى تتداخل فيها أفرع مشجرة مع ذيل طاووس جسده أخضر مشوب بزرقة قانية.

سألتنى فور أن خرجت بثينة: "ماذا تريد منى؟".

قلت صادقًا: "لا أعرف. أحتاجك بقوة".

لمحت عينيها مغرورقتين بدموع طفرت دون إرادة منها: "أنشعر بالحب وبلادنا مهزومة؟". أطرقت وأحسست بأننى فى قمة الخجل. غرقت هى فى صمت ثقيل. دخلت بثينة بالشاى محاولة أن تعيد الصفاء لأنفسنا قالت مصطنعة المرح: " أمى تريد أن تسلم عليكما".

قلنا فى نفس واحد: "نتشرف".

دخلت سيدة فى مثل سن أمى، مرتدية السواد وعلى رأسها طرحة بنفس اللون تنفر منها خصلات بلون الفضة. قالت: "شرفتم يا اولاد".

بعد أن تحدثنا عن الرحلة قالت: "عرفتكم من الصور، وأجملها صورة عين حلوان. يقولون إن مياهها تشفى الروماتيزم؟".

قلت بصوت فضحه الألم: "صحيح".

قالت نشوى: "ليتك جئت معنا".

زفرت فى أسى، وهى ترمق الصورة بزيها العسكرى فى إطارها: "والمرحوم؟".

نظرت إلى ملامح الشهيد. وجدت بؤبؤ العين يرمقنا فى عشم، وبود حقيقى. شعرت أنه يفهمنى، ويعرف كم أنا حزين.

فيما نحن نهبط السلم صادفنا ظلام. أمسكت يد نشوى. وجدتها باردة تمامًا فاقشعر بدنى. قالت وهى ترتجف: "لا عليك". لم أكرر المحاولة، وهى استندت على الدرابزين فى خطواتها الحذرة، ولما صرنا فى الميدان تفرقنا دون كلمة.

البنت السادسة التى بقيت ولم أحدثكم عنها هى أمنية. أعرف أن اسمها فيه موسيقى وتفاؤل. وقد انعكس ذلك عليها فهى محبوبة من الجميع. حصلت على بكالوريوس التجارة وتعمل فى بنك حكومى. كان خطيبها قد دخل الجيش وأرسلت تستأذنه كى تذهب فى رحلة مع خالها رمزى. قمة سعادتها أن تستمع لأغانى عبد الحليم حافظ. معها مسجل صغير تلصقه بأذنها وتروح تستمع لأغنياته وتغنى معه أيضًا. أذكر لون ملابسها تمامًا. تايير كحلى مع حلقات معدنية صغيرة فى الصدر. أمنية حصلت على الإجازة بصعوبة وكانت معها رسائل من خطيبها أرسلها من الجبهة. كانت الرسائل معطرة وتسكنها ورود صغيرة ملونة. تُرِى صويحباتها الخط فقط دون الكلام. تضع أصبعين فوق الكلام الممنوع عليهن قراءته. وجدتها قبل التقاط الصورة تفرجهن، وكلها مرح ولطف.

لمحت عبارة "حبيبتى الغالية"، وضحكت لأننى تصورت أنه بعد أن أتم خطوبتى لنشوى فسوف أرسل خطاباتى تحمل نفس العبارة. وزارة الحربية أجلت دخولنا الجيش لوجود عجز فادح فى أعداد المعلمين. فوتت علينا فرصة إرسال مثل هذه الخطابات بحرارتها وسطوعها وجمالها. حين انتهت حرب أكتوبر دخلت الجيش، ولم أخطب نشوى، وبالتالى لم أرسل خطابات لها.

إن صوت أمنية عجيب. فيه روعة وسحر. ذلك الصوت الذى يتسلل للقلب بلا مقدمات. سألتها عن علامات الحب فقالت: "هو شىء لا يوصف". كانت

نشوى تتصنت لحوارنا. جاءت وجلست. قالت بقدر من الشفافية: "لا يوجد تعريف محدد للحب. لكنه موجود. مثل الكهرباء التى لا نراها ونشعر بتأثيرها". كدت أقول: "مثل الله الذى نعرفه دون أن نراه؟". أمسكت عن الكلام وخشيت أن تفهمنى نشوى خطأ فتمتنع عن حبها لى.

لم يبق فى الصورة غير الأستاذ رمزى مفتش التربية الرياضية. شخص هادئ الطباع، وسخى، أعطاه الله ميزة رائعة، وهى قدرته الفائقة على رسم المناظر الطبيعية بألوان زيتية. كانت محال الموبيليات تستعين به فى رسم "روميو وجولييت" على ضلف الدواليب، وكان يكسب الذهب. بعد الحرب كسدت التجارة وعمل فى رسم اللوحات فى أطر مذهبة، والاشتراك بها فى معارض تشكيلية محلية. لم يعد السوق رائجا فسافر إيطاليا وعاد بعد سنة مع زوجة من روما. كلما رأيتها فى الرحلة تذكرت ليوناردو دافنشى. قد يسألنى أحدكم ولماذا لم تظهر فى الصورة؟

أسارع بالقول إن كاحلها قد التوى وهى تسير فى أحد الشوارع المؤدية لعين حلوان فقالت بصوت خشن بعض العبارات وترجمتها حيرة يلفها حسرة وجدتها تسكن ملامح الأستاذ رمزى ممشوق القوام. كانت "جانيت" جميلة جمالا باردا ومتعالية وعنطوزة - لم أجد كلمة واحدة تحقق المعنى فقررت الإبقاء على الكلمة الأعجمية - وسألت نفسى: "لماذا تبدو نشوى الصغيرة أكثر أنوثة منها؟".

عرفت بعد سنوات طويلة أن الجمال نسبى وخاص وشخصى. صوت الحياة وقد تفتتت لأيام وشهور وسنين علمنى الكثير. وقد روعتنى جانيت عندما رأيتها خلسة تفتح البلوزة وتخرج نهديها لتعرضهما للشمس التى بزغت حين فجأة من وراء السحب. كانت قد صارت وحيدة فى منضدة بعيدة عنا. جاء زوجها بجريدة

وبسطها فوق نصفها العلوى المكشوف، فأزاحتها، وزمجرت فى وجهه. بهتت نشوى واحمر وجهها وقامت غاضبة منى لأنها رأت عينىَّ تمتصان المنظر.

يبدو أنه الجسد الذى يسكر، ومع النظرة المعاتبة بدون أية كلمة عرفت أن نشوى لى وأننى لها. دبلتها الفضية التى خلعتها فى نهاية الرحلة ووضعتها فى إصبعى مع هدهدة السيارة عبر الطريق الزراعى ونحن نعود لمدينتنا كانت تحمل كل تلك المعانى. لم تكن لمسات عفوية ولا اشتهاء محرمًا ينتهى مفعوله بوصولنا لمحطة النهاية.

لقد أخرجته من الصورة عمدا، فهو صغير ولا يليق أن يسكن "حكاية". كان فى سن الثامنة حين جاء مع والده الأزهرى المعمم - سابقا - الذى تحول من عبادة الرحمن لفن التمثيل فخلع الجبة والقفطان وارتدى البدلة الأفرنجى. كان رخيم الصوت وتزوج فى فترة انتقاله لدنيا الفن ولما ذهب لليبيا وعاد بأموال قارون قرر إنشاء مسرح خاص ولكن المشروع فشل بعد أن حاول تطبيق نظريات بريخت فى هدم الحائط الرابع.

كان الصراع قد نشب مخيفًا بينه وبين مجموعة مثقفين يساريين بعد أن اصطدم بمشكلة لم تكن فى الحسبان. حين راح يعرف بمذهب الكاتب الطليعى والثورى فنان ألمانيا الشرقية الشهير عن المسرح الملحمى. كان ينطق اسمه "برتولت بريشت" وهم ينطقونه "برتولد بريخت". من أجل النزاع على حرفين فشل المشروع، وعاد الرجل للجبة والقفطان. ثم بنى مسجدًا تحت بيته لم يكن يدخله سوى يوم الجمعة. أما ابنه ممدوح فقد حقق حلم أبيه حين دخل المعهد العالى للتمثيل وتخصص فى فرع الديكور، ولوسامته صار نجما. من أجل سواد عينى الولد الداهية اشترى الأب تلفزيونًا ٢٩ بوصة وكان يدعو زملاءه لمشاهدة المسلسلات التى يشترك فيها ابنه. المشروب الذى يقدمه دائمًا هو الخروب باردًا أو ساخنًا.

ممدوح هو الولد الصغير الذى يظهر فى الصورة، وأراه وترونه معى عقلة إصبع يخب فى قميص مهدل على الكتفين وبنطلون بلا حزام ويبدو بلؤمه المعهود وقد راح يضحك للعدسة بلا سبب، والحمد لله أنه كان بينى وبين رمزى. إذ أنه لو جاءت وقفته بينى وبين نشوى لكان مزاجى قد تعكر، ولم تكن الصورة صالحة للكتابة عنها.

إننى أتأملها الآن بحنين دافق، وقد اقتنعت بعد خطوبة نشوى لضابط شرطة من أبناء الأثرياء أنها قد فضلت الجاه والمال عن الحب البرىء. كلما نظرت فى الأفق واستعدت حادثة الصعود إلى الهرم خفت عليها أن تموت بداء القلب فيتيتم أطفالها. حين أخبرتنى سلوى أنه قد تحدد موعد الزفاف فى قاعة شهرزاد برأس البر امتنعت عن الذهاب.

لما انخرطت فى صفوف الجيش، وحبست فى معسكر الأساس خمسة وأربعين يومًا، خلت أننى نسيتها. كانت تزورنى أحيانًا فى خلسات الكرى. تجذبنى من يدى كى نواصل الصعود لقمة الهرم العالية. كنت أفلت يدى بصعوبة، وأدخل طوابير التمام وأصلب فى الشمس الحامية. عدت فى إجازة ميدانية طويلة. سلمتنى شقيقتها سلوى كيسين ملفوفين فى رابطة نايلون أنيقة. كان الحمص، والفول السودانى، وقطع الشيكولاتة، مع ورقة صغيرة عليها اسم المولود وعبارة "تبارك الله أحسن الخالقين".

كنت حليق الشعر وأسمر البشرة من الوقوف فى طوابير التدريب. أخذت الأكياس ومررت مصادفة ببيت العائلة. لمحتها تنشر الأقمطة القطنية البيضاء فى أحبال الشرفة. حركت الدبلة الفضية فى إصبعى بإصرار غريب. أما هى فقد رنت نحوى بظل ابتسامة، ولوحت لى ثم أغلقت الزجاج. رأيت وجهها الصبوح خلف الألواح الشفافة، ترمقنى فى أسى موجع. ظللت مشدوها لنظرتها حتى انتهى الشارع، وما لبثت أن اختنقت ببكاء لم يغادر قلبى أبدًا.

متولى وبدرية(*)

سناء البيسى

عندما أيقظه صراخ ابن أخته ودعاؤها عليه شكره فى سره لأنه أنقذه من الكابوس الذى رأى نفسه فيه سمكة تغرق فى زيت مغلى، وكامتداد لا إرادى لحلمه المزعج دعك رقبته كأنه ما زال يتخلص من أسلاك تليفون التفت خيوطها حول عنقه لتخنقه. فى نومه أيضًا كانت أسلاك التليفون تمتد فوق بحر واسع بلا نهاية. حط هو كعصفور على خيط منها وجاءت بدرية خطيبته عصفورة تقفز بجانبه تناجيه ولا ينقطع رنين قبلاتهما.. رأى أيضًا فى المنام الأمواج تحتهما تغدو جبالا تلامسهما قممها فتطير بدرية كنقطة فى الأفق بينما تلتصق قدماه فلا يستطيع فكاكا. تتحول الأمواج إلى بحر من البشر يصرخون بهدير هائل.

اليوم الجمعة موعد عطلته الأسبوعية التى كان يريح فيها طبلة أذنه من عذاب رنين التليفونات ويرخى تشنج أعصاب إصبعه من الدوران فى القرص فى عمله على سويتش السنترال العمومى يطلب نمر ناس فى كل المحافظات وينادى على طالبيها ليتكلموا فى الكابينة نمرة واحدة واثنين. تقبل بكل الرضا ساعات العمل الإضافية يوم الإجازة ليستطيع أن يكمل تحويشة مهر بدرية. أصبحت راحته فى مثل هذا اليوم أن يذهب لبيت العروسة ليتناول الغداء الذى

(*) من مجموعاتها (الكلام المباح)، منشورات دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٢.

تخصه الحبيبة أثناءه بالاهتمام المبالغ فيه بل وتتعمد ملامسة ذراعه وهى تملأ الصحن أمامه بنفسها..

انتزع متولى نفسه من الفراش. قام فتعثرت قدماه فى العجلة التى تذكر أنه حملها على كتفه ليصعد بها السلالم بالأمس ليركنها على حائط الغرفة خوفا من عبث ملاعين الحارة الشياطين الصغار الذين صنعوا بها الأعاجيب بالرغم من السلسلة والقفل. أذاب الماء تصلب وجهه. أراحه من شعور أنه مدهون بالغراء. تناول منشفة من وسط كوم الغسيل. إحساس كما لو كان قد لدغ. تفحص وجهه فى شطفة المرآة. هناك خدش دموى ممتد عبر جبهته. اكتشف دبوسا مختفيا فى المنشفة. أمضى نصف ساعة يزيح فيها صناديق وحللا وصفائح وزجاجات ودجاجات حتى عثر على فردة حذائه تحت دكر البط. صفق الباب وصوت نداء أمه يرجوه بلا طائل أن يبل ريقه بكوب شاى. قفز ببهلوانية حتى لا يغرقه ماء برائحة نفاذة انسكب فجأة من نافذة مرتفعة. ترك الحارة بشعور مبهم أن هذا اليوم ليس مثل الأيام الأخرى. استعاذ بالله وحاول أن يملأ شاشة ذهنه بوجه بدرية.

لأنه ولد بهذه المدينة التى تطل على البحر وجاء عمله على سويتش التليفون العمومى، فإن الغالبية من الجمهور تكون من المصطافين الذين يريدون أن يطمئن عليهم الأهل فى الغربة. الطابور يصل إلى الرصيف وإصبعه تدير أرقاما لا يرد منها إلا ما ندر. النمر التى تبدأ برقم التسعة استحالة. المباشر مقطوع مع مصر. يا دكرنس الله ما يغلب لك خط ردى. أسيوط عطلانة. كلمى يا زقازيق. يا منصورة. يا خلق بالدور. حاضر. كابينة تسعة يا أستاذ. قولى آلوه يا حاجة. مرة ثانية. مقطوع النفس. يا طهطا. على الخط يا طنطا. يا سيد يا بدوى. يا بدرية. باقى على مهرك الكثير. وحياة راس أبوك محال فى يوم من الأيام وانت على

ذمتى أوافق انك تلبسى مايوه يكشف لحمك للعيون الجعانة. تقعدى على الرملة ست الستات وأنا أخرج من البحر أجرى ناحيتك. آلوه يا عالم. ردى يا طلخا. يا زفتى.

تحسس خدش جبهته ثم مسح بأصابعه على شاربه وأصلح من وضع كيس الجوافة على ذراعه ومد يده يطرق الباب برفق. توقع كالعادة هرولة أقدامها وانفراج الباب عن طلعتها البهية. لم يحدث. خيل إليه أنه سمع همهمة وأصواتا بالداخل ثم أطبق الصمت. دق الباب بصوت أكثر ارتفاعا. انتظر. لم يحاول أن ينظر إلى أعلى عندما سمع حفيف أقدام وهمسات يطل أصحابها عليه من درابزين السلم. يعرف أن جيران بدرية يتلصصون عليه فى زياراته الأسبوعية. أعوذ بالله من شر العيون التى تشق الحجر. عاد يطرق الباب بشدة. صوت مغنى فى راديو يصرخ "يا غاليين على". خيل إليه أنه يسمع مشادة بالداخل. أخيرًا خطوات بدرية. ستفتح له مائة مرة الباب. سيهرع أولادهما يحتضنون ساقيه ويحملون عنه أكياس المانجة والبطيخة الحمراء النقاوة. لن يستطيع أن يقبلها اليوم. ابتسم فى سره. السنين جاية وستلوى وجهها إذا نسيها فى هيصة الأولاد. أبدًا. أنت الأصل. بعد كتب الكتاب نتمشى على الكورنيش ونسمى كل عيل باسم. حنروح المنتزه والمعمورة ونتغدى فى أبو قير. يا بدر. يا بدرية..

ترنحت ابتسامته وتجمد مكانه عندما انفتح الباب بحركة عنيفة. هى بدرية بلحمها ودمها لكن بنظرة أخرى محايدة باردة أخرست إطلالة التحية على لسانه. تركته واقفا وانفلتت بجواره تصعد السلم. أمها وخالتها فى الصالة تقطعان على الطبلية رءوس اللفت للتخليل. لم تنهض واحدة منهما لملاقاته كالعادة. قالت خالتها وهى منهمكة فى شق رأس اللفتة الضخمة. قال يا قاعدين يكفيكم شر الجايين.

مقابلة غريبة. ماذا حدث؟! ما بال بدرية تتركه لريا وسكينة وهى تعرف أنه يمسك أعصابه لأجل خاطر عيونها حتى لا ينفلت لسانه وكفه فيدير فيهما الضرب لتهكمهما على فقره وغيبته التى طالت فلم يستطع للآن الحصول على حجرة للعروسة.

المستوظف راجع من الديوان. المحروس فاكرنا حنقوم نضرب تعظيم سلام.

يظهر يا اختى المرسال ما قابلش الجدع. منه لله. حار ونار فيه الريع جنيه. كان وفر عليه المشوار. قسمة ونصيب يا ابنى. شبكتك وقزازة الريحة والعقد الكريستال والشرابات النايلون وكل خيط فى إبرة سلمهم المرسال لوالدتك.

لم ينطق.. وسط ذهوله سمع الضجة آتية من بئر السلم بصوت أمه. حضرت مندفعة بقذائفها وحمم لسانها..

انزل يا ضنايا. انكشف الغطاء.. بعت لحم بطنك يا أم بدرية للمهكع ابو فلوس وكوم مساخيط. الحرامى أبو كشك مستورد.

ومقام سيدى أبو العباس ليكون ابنى متجوز من بكرة الصبح ست ستها..

تدافعت أيد وتصاعدت صرخات وتمزقت جلاليب مخططة ومنقوشة. وهرست الأقدام حبات الجوافة وتعثرت فى رءوس اللفت..

فى يوم الجمعة التالى لم ينهض متولى من النوم حتى أذان الظهر ظل بعدها شهورا يقول لأى شابة فى سن بدرية تطلب منه أى نمرة توصلها لأى بلد.. الخط عطلان والحرارة مقطوعة!!

وتغيَّر لون عينيها

سناء صليحة

حملقت فى صورتها.. لم تعرفها رغم الملامح المألوفة.. هناك شىء ما خطأ.. تركزت نظرتها على العينين اللتين تطلان عليها من المرآة.. يا إلهى متى تغيرت عيناها؟! متى تحجرت النظرة لتصبح مجرد سطح معتم لا يعكس أى شىء؟ كانت عيناها رغم ضيقهما أبرز وأجمل ما فى وجهها.. عينان معبرتان تلمعان دائما.. فى أول عام لها بالجامعة كتب زميل قصيدة فى عينيها، دسها بين أوراق كشكول محاضرات.. فى أول عهدها بالعمل اشتد بريق عينيها ولكن سرعان ما حجبته غلالة حزن رقيقة تقلصت إلى نقطة صغيرة عندما أحبته وعاد اللون الأزرق يزغرد فى عينيها من جديد.. كانت عيناها نافذتها الوحيدة الصادقة على العالم.. العيون لا تكذب.. حقيقة تعلمتها عندما كانت ترتكب خطأ فتطالبها أمها أن ترفع وجهها وتنظر فى عينيها وهى تتكلم.. ولعله ولنفس السبب اعتادت أن تهرب بعينها بعيدًا عن وجوه الناس عندما تشعر بالزيف فتبدو وكأنها تطل على عالم لا متناه لا يراه غيرها. عندما امتدت حبال الصمت لتخنق آخر ما بينها حاولت أن تصل إليه عبر عينيه، فلم تطالعها سوى نظرة زجاجية ارتدت إلى أعماقها لتبعث فى نفسها قشعريرة..

حاصرتها العيون الزجاجية فى كل مكان فهربت بنظراتها الحائرة بعد أن ازدادت لحظات التعاسة والإحباط.. فى لحظة مجنونة صفعها.. لأول مرة شعرت أن عليها أن تخفى عنه دموعها التى لم تسقط.. اندفعت إلى الحمام.. بللت وجهها بالماء وتحسست مكان الصفعة.. توقفت حركة المنشفة الدائرية وحملقت

فى المرآة.. لقد تغير لون عينيها.. اتسع الإنسان الأسود واختفى اللون الأزرق وراء الغلالة الداكنة التى انتشرت لتحجب عنها نافذتها الصغيرة.. شدت المزلاج وخرجت لتواجهه بوجه حيوان ميت تحجرت عيناه على نظرة زجاجية باردة.. بعدها لم تعد تهرب بعينيها...

الحائل

سهام بيومى (*)

الظلال تتسلل واهنة من أسفل إلى أعلى، لا تلبث أن تتكاتف. تمتد. تفترش الجدران المنتصبة، تطمس ملامحها المتآكلة، امتلأت السماء بسحب رمادية داكنة. تسللت خلال الخيوط الحمراء المتناثرة، أحاطت بقرص الشمس، ازداد احتقانًا. رفعت كفى، لم أشعر سخونة، لم أر بقعة ضوء تغمر يدى. اندفع تيار بارد. سحبت يدى من فوق السياج. كومتهما تحت إبطى. بزغ ضوء المصباح شاحبًا على ناصية الطريق، انبعث صرير خافت أخذ يتعالى شيئًا فشيئًا حتى وضح تمامًا. أطللت برأسى من فوق السياج. كان الأعمى سائرًا يعزف على آلته، يحيط به عدد من الأولاد والبنات.

هبطت الدرج إلى الطابق الأسفل، بينما أندفع مسرعة إلى الداخل ارتطمت بشخص ما. أضأت المصباح. كان الصغير يمسح مرفقه بكفه وهو ينظر نحوى بغضب، وضع يديه خلف ظهره ووقف ملتصقًا بالحائط. اقتربت منه. تطلع بعينيه نحو السقف، انعكس ضوء المصباح على وجهه، كانت عيناه محمرتين وآثار دموع جافة على خديه. لم أقل شيئًا. دخلت المطبخ حملت رغيفًا تحت سترتى، عندما مررت بالصغير كان يحدق فىَّ بشدة، وقبل أن يتحرك من مكانه كنت أسارع بالخروج من بوابة المنزل الزجاجية.

(*) سهام بيومى، ١٩٤٩، من مجموعاتها القصصية: (الخيل والليل)، دار المستقبل العربى، ١٩٨٤.

الطريق بارد مظلم. توالت دفعات الهواء البارد، تصفق النوافذ المشرعة، تكنس أرض الطريق. تتعالى دوامات الأتربة. سرت ملتصقة بالجدران الرطبة المتآكلة. لملمت أطرافى. سارعت الخطى.

كان الأعمى جالسًا على جانب الطريق. أمامه طبق مملوء بالطعام وقد التف حوله البنات والأولاد. اقتربت منه. دسست الرغيف بين يديه، ربت على ذراعى. كان يتناول طعامه بعجلة وشراهة، وتهتز رأسه الضخم مع حركة فكّيه. تغوص التجاعيد فى خديه ثم تنتفخان ككرتين صغيرتين، عندما يمد عنقه تبدو التجاعيد المتراكمة على رقبته، تهتز نظارته ذات الإطار الخشبى الواسع والثقبين فى منتصفهما، يمد يده ليثبتها فوق أنفه.

أنهى طعامه سريعا. أشعل لفافة، بعد ذلك أخرج آلته من صدر جلبابه المهترئ. داعب أوتاره بهدوء. تحسسها بأصابعه الغليظة المخشوشنة مارا على كل جزء منها. أمسك القوس، مر به على الوتر عدة مرات دون أن يلامسه. توقف وتنفس بصوت مسموع. أمسك القوس مرة أخرى وبدأ بعزف، تعالى صوته بالغناء مرددا أنشودة الفارس الملثم الصامت. نهض الأولاد والبنات. التفوا حوله. ارتفعت أيديهم بالتصفيق.

أخذ رأس العازف الأعمى يختلج بانتظام مع حركة القوس المشدود على الوتر. يتعالى صوته الأجش بالغناء تارة ثم يعود إلى الانخفاض حتى يستحيل بحات هامسة، لم أعرف كثيرًا مما يقول. كنت أردد بضع كلمات معه، وأصفق حتى يلتهب كفاى.

أخذت قطرات العرق تتفصد على جبهته وتسيل فى خطوط مستقيمة بجوار أذنيه، بينما رأسه يختلج فى حركة رتيبة متشنجة مع حركة القوس المشدود على الوتر، أطوف بعينى خلال الأولاد والبنات، أراقب الفارس الملثم

الصامت خلال الحدقات المتسعة والأيدى الملتهبة، خلال القامات المنتصبة والأجساد المتلاصقة.

عندما أتى العازف إلى المقطع الأخير كان يلهث بشدة، وبعدما انتهى من الغناء تكوم بجوار الجدار يلتقط أنفاسه.

فى عودتى كنت أقفز بخطوات متلاحقة وأطلق بفمى صفيرًا فى هدوء الطريق.. الهواء راكد كثيف مثقل، ترتطم بوجهى برودته الطازجة. والسماء محمرة توشك بسقوط أمطار.

دلفت من بوابة المنزل الزجاجية. هوت صفعة شديدة على وجهى. كان واقفا أمامى يزمجر بقامته الطويلة الممتلئة. أسرعت جريا من أمامه. مررت بها واقفة منكمشة بجوار الحائط تعض على شفتيها. دخلت غرفتى، صفقت الباب ورائى. سمعت صياحه يتعالى مهددًا ثم أنهاه مزمجرًا.

تبعتنى بعد قليل. قالت إننى مخطئة ويجب أن أعتذر، لكننى نمت ووجهى للحائط. جذبت كتفى متوسلة، أبعدت يدها بشدة. قالت إننى عنيدة ورأسى صلب وإننى سأجلب على نفسى التعاسة، وسمعتها تبكى بصوت مكتوم.

فردت الغطاء فوقى وأطفأت المصباح، وسمعت باب الحجرة يغلق وخطواتها تتباعد.

كان المطر قد بدأ يتساقط فى الخارج، وكنت أسمع بوضوح تساقط قطراته فى إيقاع منتظم، وما زال صوت العازف الأعمى ينبعث من الطرقات الباردة المظلمة مرددا أنشودة الفارس الملثم الصامت. حاولت أن أردد معه. أخذت أسنانى تصطك بشدة ولم أستطع فتح فكى المطبقتين. شعرت بالبرودة تسرى فى جسدى. أحكمت الغطاء حولى.

أخذ إيقاع المطر فى الإسراع حتى تحول إلى هدير مستمر، وما زال صوت العازف الأعمى يتردد برتابة ووضوح مع صرير آلته المتلاحق. كنت أنتظر حتى يكف المطر عن السقوط، بعدها..أستطيع رؤية قوس قزح.. وهو يسرى لامعًا بطول السماء.. بألوانه البهيجة.. يضىء برك المياه الصغيرة فى الشوارع وكنت أتمنى أشياء كثيرة.

عندما أخذ إيقاع المطر فى الخفوت.. أسرعت.. ألقت الغطاء.. اقتربت من النافذة، كان المقبض مغلقا بإحكام. وكانت قطرات ماء قد تكاثفت على زجاج النافذة، أخذت تتجمع وتسيل فى خطوط مستقيمة. اقتربت منها بوجهى. مررت عليها بلسانى، لكن بعد أن أبعدت رأسى وجدتها تسيل كما هى على الجانب الآخر للزجاج.

روح من لحم ودم

سهى زكى(*)

خرجت من آدم.. صنعك الله له كى تتحمَّلى
ما لا يستطيع تحمله وكان أول اختبار لك
وله مع تلك الشجرة والتفاحة الشهيرة
أقنعتِه بالأخذ.. لم ترضَىْ أن تعيشى فى
الجنة بلا هدف، تشربين وتنامين وتلهين.

١. بعيدًا عنها..

ضوء قمر يشع من السماء، ما هذه الإضاءة التى تدفعنا للاطمئنان من ظلمة الأرض العتمة؟!

لأول مرة أشعر أننى كبيرة، لا أخاف انقطاع الكهرباء المفاجئ فى منتصف الليل ولا أخاف من ظلال الناس الظاهرة من الشبابيك الناتجة عن الشموع ولمبات الجاز ربما لأننى تأكدت أن الظلال لا تخيف، بل الشىء الوحيد الذى يمكن أن يخيفنى الآن، هو ظهور إنسان حقيقى فى الظلمة!!

تراودنى أفكارى المعتادة بقوة، أقف فى بلكونة الصالة، ألمح رءوس الجيران وهى تتحرك بنشاط والشباب المراهقين الذين تجمعوا حول بالوعة المجارى فى منتصف الشارع، خرج الجميع للحديث والتسلية حتى تعود

(*) سهى زكى: من مجموعاتها القصصية: (كان عندى طير)، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٨م.

الكهرباء، سلوكهم هذا أشعرنى بالأمان مع انقطاع النور عنى لأول مرة وأنا وحيدة مع ابنتى المتكوِّمة فى بطنى...

امرأة وحيدة فى منزل مقطوع الكهرباء مع جنين هو الوحيد الذى يشعر بى، يرافقنى ويؤلمنى الآن...

كانت تراودنى دائمًا تلك الجملة، ولا أعرف كيف أكملها..

"إذا أردت أن تتطهر..."

وأقف على هذا، ولماذا يشغلنى التطهر أصلا؟!

ربما كلما تذكرت أيام الأصدقاء المنسية منهم ونكرانهم لوجودى الآن فى الصالة المظلمة وأنا فى انتظار زوجى المسكون بأرواح العظماء، المفتون بالصدق والحب لمن يرى قلبه بوضوح وهو يدخل كعادته ليحكى لى قبل أن يدخل من الباب ما صار معه فى الدنيا المسعورة عليه... وربما لأن نفس الأصدقاء لم يحاولوا إشعال الشموع التى أحضروها لى وله وتركونا بلا أعواد ثقاب حتى ننير الطريق، فدائمًا أتذكر كم كنت عمياء القلب وأنا آخذ منهم الشموع ولم أكترث أبدًا لطلب الثقاب...!

التطهر دائمًا لا ينبغى أن يكون لغير طاهر، بل من يبحث عن الطهر طاهر بالأساس..

كانت نصائح البعض عندما أسأل عن أسلوب للتطهر هى، إذا أردت أن تتطهرى عليك بالحجاب والذهاب للحج أو قراءة القرآن والصلاة باستمرار...

أما أمى فكانت الوحيدة التى تنصحنى بالزواج والإنجاب، ولم أفهم وقتها ما العلاقة بين التطهر والإنجاب؟!

أقف فى بلكونة الصالة بصوت عالٍ موجه للسماء اللامعة بنغبشات النجوم المنثورة بقوة.. أحدثنى بيأس...

"إذا أرادت أن تتطهرى عليك أن تلدى!"

نعم علىَّ أن أحمل وألد؟!

٢. حمل..

مع طلوع روح من روحك تموت أشياء أخرى.

فتولدين من جديد مع المولود الشفاف الذى نزل حالا بدم طاهر من رحم واهن تمامًا من أول نبضة تشعرين بها تتكون تراتيل التوبة المرجوة ومع ارتفاع الصوت الصادر من ذلك الساكن تحت القلب مباشرة يعزف لحن الترنيمة الملائكية، وعندما يزداد الحجم وتنمو تفاصيل الجنين الملائكى داخلى ويبدأ فى "زق" البطن و"رفس" جدار جسمى كله يجبرنى على الشعور برغبته فى الحياة خارج حدود البطن، فيبدأ برقص عنيف على موسيقى صنعها بنفسه حتى يصل لغايته "ويوجعنى" جدًا إلى أن يطهرنى من كل ذنوب الدنيا ويولدنى معه..

وقتها لا يمكن أن أسأل كيف خرج منى مخلوق؟!

وقتها ستعرفين لماذا اختار الله امرأة كى يقربها منه ويضع جنته تحت قدميها..

فلا تسألنى عن سر الأوجاع وسر تتبع النغبشات الناعمة فى أحشائى.. لا إجابة أبدًا عن هذا السؤال... لن تعرفى إلا بعد أن تحملى روحا ودما ولحما داخل بطنك، فهذه الحركات البهلوانية التى تقوم بها قطعة منى فى تجويف كنت أعتقده ملكى أنا فقط فإذا بهذا التجويف هو سكن أساسى لنطفة رائعة

وضعها إحساس ربانى داخلى فينفخ الله من روحه الطاهرة فى هذه النطفة التى تتحول لبنى آدم!

يسكن المخلوق العزيز مكانه الآن، يشعر بى.. فى الحزن، الفرح، الطيران، السقوط، حتى هذه الدموع التى أذرفها كلما ضاق على العالم يشربها هو ليدفع بيده الصغيرة جداً مكان "السرة" فتفزعنى وأهب واقفة، فيعود لمكانه هادئا مطمئنا بعدما أخرجنى من أحاسيسى المؤلمة، فهو يكره جداً أن أشعر بالحزن، فلا أحزن أبدًا طالما أن كائنى العزيز وروحى الثانية فى أحشائى فيتبعنى ولا يتركنى لست وحيدة!

٣. ولادة

تنام صغيرتى نوما هادئا.. تداعبها الملائكة وتحوم حولها بإصرار على عدم إيقاظها، يخبرونها الآن أن أمها تموت فتئن أنينا يشبه أنين قطة صغيرة ثم تبكى بكاء حزينا، وعندما يخبرونها أن أباها يموت تبتسم، لكنى أعتقد أنهم يخبرونها عن مستقبلها فتبكى لما فيه سوء وتبتسم لما فيه من فرح...

من المتفق عليه بينى وبين المعتقدات الموروثة أن الملائكة بالفعل تداعبها وتجالسها طول الوقت وأنا بعيدة عنها، وعندما تنام تأتى لتؤنسها حتى أعود لها عندما تصرخ قائلة لاااا!...

الملائكة الصغار بأجنحتهم ترقص لأعلى موسيقى ناعمة آتية من الجنة، فما إن يتركوها ويذهبون تصرخ ألما حتى احتضنها فتأمن...

نسيت زحام الشوارع وعجنى الدائم بين الناس... نسيت كيف أكون غاضبة، نسيت كل الوجوه الأخرى التى كانت تملأ ذاكرتى بلا داع، حتى

العمل ذلك الشىء الوحيد الذى يسعدنى لم تعد له هذه الأهمية، فكل ما يشعرنى الآن بأهميتى هى تلك الابتسامة الملائكية لصغيرتى.

٤. بداية الأبدية

أمى عودى سريعا لمكانك المفضل على الأرض فى الصالة.. أمام البابور الذى لا يشتعل إلا بحرارتك، عودى لأفراخك، فلا يسمن ولا يغنى لهم أى طعام لأنك غير موجودة...

أخيرًا التأمت جروحك، كم كنت قوية، أنت من ربيت أربعة قطط وحدك حتى صرنا سيدتين ورجلين يحسدنا الناس على صحتنا وفوران دمائنا ومرحنا وطيبتنا، كما يحسدوننا على شفافية نادرا ما تتجمع فى عائلة واحدة.. الوحيدة فى هذا الزمان التى تسامح، حتى تفر الدمعة من عينيك، وإذا كانت العذراء مقدسة لأنها لم تعاشر رجلاً، فأنت مقدسة لأنك لم تعرفى أى شخص فى هذا الكون غيرنا.

لا داعى للحزن كلما نظرت لوجهك فى المرآة محاولة حفر ملامحك الأخيرة قبل إجراء تلك العملية، أيضًا لا داعى لأن تطيلى النظر فى أولادك وأحفادك..!

بهدوء صعدت روحك المريمية صعودًا هادئًا دون أن يشعر منا بما رأيته فى برزخك المزين لاستقبالك، صعدت صعودًا جميلاً بلا ضجيج تزفك نفس الملائكة التى كانت تحوم حول ابنتى وهى نائمة، ملائكة صغيرة نقية بلا ضجيج يقلق من سبقوك ولا من سيلحقك.. كما عشت هادئة ذهبت هادئة بعد أن احتضنتى ابنتى بقوة لم تدهشنى، ومع ذلك لم أظن وقتها أنها نظرة الرحيل..

كان الاستعداد طويلاً لنهاية الرحلة الدنيوية...

كم من بروفات للملابس قمت بها قبل أن ترتدى فستانك الأبيض الأخير وكم من أشخاص صادقتهم وجيران جاملتهم، ببرونزية ملامحك وقصر قامتك..

امتلأت بطنك بتشريحات المذنبين، لا أعتقد أن الأمومة لها معنى آخر غير أمومة العذراء وأنت ذهبت لأمى العذراء.

هكذا دون أن تعلم للدنيا لونا آخر غير الأبيض ولا تعرف بشرا غيرنا نحن الأربعة الضالين فى الدنيا، تجلسين وحيدة بانتظار عودتنا من التيه المستمر وما إن نعود نجلس حولك ملتفين فى دائرة محكمة، تطيرين بقسوة الحكيم العالم ببواطن الأمور

- إنى راحلة..!
- ضحكت منها وقلت لها.. إلى أين سترحلين؟
- نظرت لى نظرة بها غيم ورددتها..
- سأرحل إلى بيتى وأهلى.. أنا هنا ضيفة ثقيلة، فمكانى الذى ينتظرنى ليس به أسنان أو لسان ولا تسكنه العقارب والثعابين، بل ساكنوه من الأرواح المتعبة من الشقاء والألم الذين عانوه فى دنياهم... فزغردى لى واضحكى
- أغمضت عينيها بهدوء شديد تاركة لنا الدنيا بما فيها متحدية أن نستمتع بها

نامت.. نامت.. إحدى آيات الله على الأرض.. نامت دون صوت فيه همهمة أو آهة، نامت وتركتنا بين أشجار الغابة يأكلوننا ونأكلهم..!

عرفت بعد أن جاءت ابنتى وذهبت أمى أن الأرواح الطيبة تكون حول الأم

دائمًا تنقذ لها أبناءها من المرض، عرفت معنى أن تكون الجنة تحت قدميها، فقد عاشت لنا ومعها قلوبنا فى رحلتها الجديدة للأبدية؟!

قصة حب

سيد البحراوى(*)

استندت إلى جدار ظليل أرقب الميكانيكى وهو يعمل بهمة ونشاط ونظام فى إصلاح السيارة. كان شابًا وسيمًا. كانت حرارة الصيف حادة ومع ذلك سقطت قطرات من المطر لدقائق. لا يحدث هذا إلا فى أوروبا والإسكندرية. على اليمين انفتح فجأة شباك فى الدور الأرضى، وأطل وجه جميل وشهى لامرأة ثلاثينية. بشرة قمحية فاتحة، عينان صافيتان، شعر أسود، جبهة عريضة، وكذلك كل الوجه، مع استطالة تجعله أليفا، الشفتان تتحركان انفتاحا وانفراجا مع حركة الأسنان التى تلوك اللبانة التى فضحت حشمة الملابس الكاملة، نظرت إلينا ثم إلى الشارع يمينا ويسارا بهدوء وثبات ثم استقرت واقفة تنظر دون قلق لمدة دقائق، ثم أغلقت الشباك واختفت، وإن كان ممكنا أن ألمح حركتها خلف الزجاج ذهابًا وإيابًا.

بعد دقائق أخرى عادت إلى الظهور، هذه المرة كان الميكانيكى يعمل فى وسط الشارع، وجهت نظرتها إليه مباشرة، لم ينتبه، كان مشغولا بحديث وهو يعمل، لكن حواسه التقطت النظرة، وتواصلت عيناه معها لحظة، قبل أن يواصل حديثه وعمله بهدوء وثقة ونظام.

(*) سيد البحراوى (من مواليد ١٩٥٣)، من مجموعاته القصصية: (طرق متقاطعة)، (صباح وشتاء).

إغماض العين

السيد زرد(*)

لم يكن ممكنا أن تكون النهاية إلا على النحو الذى حدث. ما كان لشىء أن يغير من مسار الأحداث وتداعيها ويوصل إلى غير النهاية التى قد وقعت.

لا أسع - من وراء قولى هذا - إلى نفى مسئوليتى عما وقع، بيد أنها الحقيقة، يجب الإقرار بها والتسليم بوجودها.

يمكن البدء فى استعادة ما جرى من أى نقطة، والانطلاق فى أى اتجاه، حيث سيتم الوصول - حتما - إلى نفس النهاية.. تمامًا، مثل وضع الإصبع على أى موضع بالكرة، إذ يمكن الوثوق بأننا بمنتصف الكرة تمامًا. وأينما اتجهنا، نتيقن من أننا بالقطع سنعود إلى نقطة البدء.

لا أريد أن أناقش المسألة على صعيد الجبر والاختيار، فذلك مستوى آخر للتناول، أرى أنه يزيد الأمر تعقيدا، ولا يفيد على الإطلاق فى حالتنا. فلنبدأ من أية نقطة..

ها هى تتقافز إلى ذاكرتى تلك اللحظة التى امتدت فيها يدى لتحوى لأول مرة يدها، فأدرك - على نحو ساطع - أن هذه المرأة أنثاى، وأنها لى حتى النهاية.

(*) السيد زرد (من مواليد ١٩٥٧)، من مجموعاته القصصية: (من أزمنة العشق والارتعاب)، دار الغد، القاهرة، ١٩٩١، (إمساك العصا)، أصوات أدبية، القاهرة، ١٩٩٣.

لم تكن قد انقضت على عودتى من الغربة سوى أشهر معدودات. عدت بعد سنوات ممتلئا بالمال والخواء. رحت أفتش عن بدايات جديدة للحياة: عمل بديل عن الوظيفة التى تركتها، وزوجة عوضا عن الحبيبة التى نسيت ملامحها، وأصدقاء خلافًا للصحاب القدامى.

بعد أشهر من العودة، لم أعثر سوى على مسكن جديد. انتقلت إليه، حاملاً وحدتى وبطالتى وجهامة وجهى الأربعينى الذى لفحته شمس الصحراء.

فشلت فى العثور على عمل يلائمنى، ولم أجد من يصلح صديقا. أما الأقارب فقد سئمت شرههم وعوزهم واحتياجاتهم التى بلا انقضاء. وتبدت فكرة الزواج فى الواقع مأساوية وبائسة إلى حد مفجع.

قررت أن أستكفى بنفسى عن العالمين. فأحضرت كل صنوف الخمور، واستحضرت كل نساء العالمين عبر الدش، ورحت أصرف أيامى مخمورًا مستثارًا. وإذ يستفسر الأقارب عن حالى، أزعم أنى منشغل بدراسة مشروع كبير.

لبثت هكذا وقتا لا أحصيه، ربما أسبوعًا أو شهرًا أو عامًا.. لكن صرت كأننى كنت أحيا هكذا منذ ولدت، وكأننى سأظل كذلك أبدًا.

رنين الجرس أفزعنى، أصيل أحد الأيام، فانبعثت من مرقدى، دائخا عطشان. فتحت الباب لأجدها أمامى بثيابها البيتية وشعرها المحلول. تومئ إلى شقتها المقابلة وتسأل عن انقطاع المياه. استغرقت وقتا أطول من المألوف حتى أدركت الأمر. وغمغمت بأنى لا أعرف. أزاحتنى برفق، ودخلت إلى المطبخ تفتح صنبور المياه، لتتأكد من أن المياه مقطوعة عن كل الشقق.

كنت ما أزال متسمرًا ببلادة جوار الباب، حين آبت تتفحصنى والمكان.

ضحكت وهى تشكرنى، فمددت يدى مرتبكا أشد على يدها، لتتوهج بداخلى الشرارة التى ما كنت لأخطئها

فى اليوم التالى، فى نفس الموعد، كان رنين الباب، وكانت هى متجملة فى ثياب بيتية أكثر فتنة، تقدم لى طبقا من الحلوى صنعته بيديها. لم تصغ لممانعتى، ودخلت إلى حيث وضعته.

فى أيام، كانت قد عرفت كل شىء عنى، وعرفت طريقها إلى سريرى، وعرفتنى بزوجها الموظف صباحا سائق التاكسى إلى ما بعد منتصف الليل، المكدود دوما، والمدين بباقى أقساط ثمن السيارة.

فى التوقيت الذى رأته مناسبا اقترحت أن أسدد عنه الأقساط، وأن أشاركه فى التاكسى. لم أمانع، ولم يعترض. فكانت تأتى به فى الأمسيات ليجلسا معى تاركين ابنتهما نائمة. فنتظاهر ثلاثتنا بأننا نتحاسب فى إيراد السيارة.

لا أعرف تحديدا متى أحسست بأن زوجها يدرك طبيعة علاقتى بامرأته، وأنه يتقبل ذلك لأسباب لا أعلمها.. بل وكدت أجزم بأن ابنتها الصغيرة، يداخلها شىء من الإدراك، يجعلها تعمل على ابتزازى بطلبها الملح للحلوى واللعب بوقاحة.

لبثنا فى تظاهرنا الكاذب ومتوائمين تمامًا، تكتنفنا غلالة من الرضا والسكينة. كنا فى حالة تعادل، لم يُغبن أى منا. أتغاضى عن حصتى فى إيراد التاكسى، وأتقاضى مقابلاً شهيًا من الجسد الأنثوى الباذخ، دون أن أنسى أداء فريضتى من حلوى الصغيرة ولعبها.

كنا شركاء: التاكسى، يركبه هو طيلة اليوم، ويحرث به دروب المدينة ويستأثر وحده بنتاجه، وفى آخر الليل، يتركه أسفل العمارة مستهلكا.

والمرأة، كانت لى طوال اليوم، أمتطيها وأجوب بها شوارع اللذة فوق سريرى، وفى آخر الليل، أتركها له ممصوصة هامدة.

كنا يمكن أن نستمر هكذا إلى الأبد ن فى تعادل واتزان، بلا ضغينة أو إحساس بالخسارة. لا أعرف – تحديدا – ماذا أقلق سكينتنا وأخل بوضعية الاتزان.. أهو كلام الجيران الذى أخذ يتناثر من حولنا ويترامى على أعتاب مسامعنا؟!.. أم مرد الأمر إلى أن كلا منا أشبع إلى حد ما احتياجاته، لم نعد فى نفس حالة الاحتياج والاضطرار لذا رحنا نطمح إلى أشياء أخرى ونتطلّع إلى المزيد. فأراد هو الاستئثار بالإيراد والزوجة، ورغبتُ فى الجمع بين اللذة والربح.

فجأة، وبزعم أنه تنبه إلى الشائعات، امتنع عن الحضور، ومنعها هى الأخرى وشدد الرقابة عليها.. لكأنه ما باعنى – زمنا طويلا – جسد امرأته وحصّل الثمن نقدا وحالا.. لكأننا ما كنا – جميعًا – متواطئين.

تكسرت قشرة التواطؤ الرقيقة، فبانت حقيقتنا البشعة.. وكانت المواجهة الدامية، التى تركت آثارها على جسدى وملابسى، وجعلتنى أقع على الأرض جوار ثلاث جثث مسجاة، أحاول إغماض العين، فى انتظار مجىء من يقبض علىّ.

كذبت امرأة

السيد نجم(*)

كأن باب الشقة عاند الانفراج، حتى سمعت وزوجتى من خلفه، صوت حشرجة وخشخشة، لم أعرف مصدره، إلا بعد أن هاجمتنا كومة ضوء ياهت، احتوت الممر المظلم.

بدت لنا من خلال الفرجة الضيقة.. مترددة فى دعوتنا للدخول. نظرت إلى زوجتى سريعا، وإلىَّ مليا، حدقت مبحلقة فى صمت.

لأننى أعرف ماذا أريد، ولماذا جئت؟ قررت ونفذت ما لم أستطعه منذ عشرين سنة، لعشرين سنة تمنيت لو أرى موقع سترها مع زوجها الذى فضلته علىَّ. اقتحمت المكان الذى يمارسان فيه ما تمنيته معها، هى حبيبتى التى كانت، وهو زوجها الذى مات.

سارعت بالاندفاع إلى الداخل، على غير قواعد "الإتيكيت" التى عادة ما أتبعها مع زوجتى، أو أية امرأة أخرى، بالضبط كما سارعت بالثرثرة. لم أكن أدرى ما ينطق به لسانى، انشغلت عيناى بجوانب الحجرة، ذى الطلاء المتشقق،

(*) السيد نجم: من مجموعاته القصصية: (السفر)، القاهرة، ١٩٨٤، دار الثقافة الجديدة، (أوراق مقاتل قديم)، القاهرة، ١٩٨٨، هيئة الكتاب المصرية، (المصيدة)، القاهرة، ١٩٩٢، هيئة الكتاب المصرية، (لحظات فى زمن التيه)، القاهرة، ١٩٩٣، هيئة قصور الثقافة، (عودة العجوز إلى البحر)، الإسكندرية، ٢٠٠٠، دار الوفاء للنشر.

وحتى ارتطمت بعينيها. أعترف، أنا لم أذهب للعزاء، كنت أتحدى الزمن الذى انقضى؟!

نطقت بكل الكلمات المملة السخيفة التى أعرفها فى مثل تلك المناسبات الموجعة. ألفاظ العزاء كلها كاذبة.. كل همى ألا أترك لها فرصة واحدة لاكتشاف كذبى، فبالغت فى العزاء. المدهش أنها تركتنى أثرثر بلا أدنى انفعال، تمنيت لو لم تصمت، علنى أتأكد أنها لم تكتشف ما أضمر.

فجأة، توجهت بكلّيتها ناحية زوجتى: "أهلا يا حبيبتى"، لم تحاول أن تومئ برأسها شاكرة، أو حتى تسبل جفونها امتنانًا بما سمعت. انزاحت إلى مقدمة المقعد الفوتيه ذى القاعدة المتسعة، وأدارت كل جسدها.. كله، حتى قدميها، وقد ارتدت "شبشب زنوبة" بلاستيك، لم تسعَ لأن تستبدله من باب اللياقة مع ضيوفها. ولا حتى استبدال هذا الجلباب أو الفستان الكالح الأسود. لمحت أحد أزراره الصدفية البيضاء يتدلى على الجانب الأيسر لصدرها. طلبت منها لو تمزقه حتى لا يسقط وتفقده. الغريب أنها ابتسمت ولم تعقّب. فضلت الحديث مع زوجتى الصامتة.

قالت ضمن ما قالت، إنها تعيش خريف العمر، وأن زوجها مات فى الوقت المناسب! أظن أنه فى مثل تلك المناسبات، لا يتحدثون سوى عن مآثر موتاهم. وربما التأكيد على الشعور بالحرمان بسبب فقد المرحوم.. ماذا فى رأس تلك السيدة المحنكة؟!

اقتحمت حديثهما، الذى هو من طرف واحد. بدأت بذكريات طفولة الولد الجن.. طفولتى، وشبابى الماجن، وكيف أننى لم أترك ضلالة إلا وعقرتها إمعانًا فى أننى فقدت شيئًا لم أستشعره فى حينه، أما الآن...

ما إن نطقت (الآن)، حتى أزاحت "الشبشب"، وأخفت قدميها تحت فخذيها. فضلت أن تتربَّع فى جلستها. هكذا فى بساطة وسلاسة العشم، بلا أدنى درجة من الحرج، على الرغم من أنها لم تر زوجتى من قبل. زوجتى التى لم تنبس ولم يبدُ عليها علامات القبول أو الرفض.

.."ماذا لو شربنا فنجانًا من القهوة.. السادة؟"

وكأنى لم أنطق، تابعت هى حديثها الغامض، بينما لمحت أنا أظافر زوجتى تسحج المسند الخشبى لمقعدها.

بعد كل تلك السنوات لم أكن أعرف أن هذه السيدة التى أظن أننى كنت أحبها، تستطيع أن تكذب!

كيف لها بكل تلك القوة.. وأدارت جسدها ضد رغبتها؟ على يقين أنا، أنها على شوق لأن تنظر إلى بؤرة رأسى من خلال فرجتى عينيها.. واثق أنا، مثلما كانت تفعل، وتفتعل الأفاعيل كى لا أنظر إلا لعينيها. وما كنت أرى عينيها إلا أنها من عسل ولبن وخمر لا يسكر.

سيماء وجهها محايدة فى بلادة. لا يبدو عليها التفاتة المنتبه إلى جسده الذى يتكاثر. ما كانت إلا رشيقة القد، نحيلة فى رقة. كانت نسمة موجة بحر مالح تتهادى.. لا تعلو ولا تبقى ساكنة.

ذاكرتها البيضاء، اكتشفتها من كلماتها.. لا يقدر عليها إلا من يكره على فعلة ما. تبدو لى وهى تتلمس جسدها على غير إرادة منها، منهمكة فى حديث لم أسمعه، ولم تنفعل له زوجتى الصامتة. فقط، أراها تربك هذا الجسد، وبحذق خبرة الأيام تابعت وشوشات أناملها، تلك التى بدت وكأنها كائنات غامضة تزحف فوق صحراء فسيحة.

شعور أشبه بالفرح انتابنى، أحسسته بين ضلوعى، لأنها تريد أن تكشف لى عن أسرار جسدها! وإن بدا لى عن غير إرادة منها، وهكذا يبدو عفويًّا!!

طال انتظارى، أكيد تلك السيدة تضمر أمرًا لا تريد الإفصاح عنه. بينما تبدو زوجتى كلوحة "الموناليزا" التى تظنها تراك أينما كنت واقفًا أمامها.. لولا أن لمحت تلك السجحات التى بدت أكثر عمقًا عما قبل، فى المسند الخشبى لمقعدها!

فلما عبرت عتبة باب الشقة إلى الخارج مسرعًا، عانقت السيدة الحزينة زوجتى التى بدت باسمة، وطلبت منها معاودة الزيارة.

سألتنى: "كم انقضى من الوقت؟"، أخبرتها واثقًا: "ساعتان"....

فضحكت زوجتى بفرح غامض، وبصوت عال، بينما نحن فى حدود مسامع حبيبتى: "بل أقل كثيرًا من ساعتين"

انفرط العقد، لا أدرى كيف اندفعت قائلاً بأنها سيدة مملة، ولا تحمل أى قدر من الكياسة أو الذوق، حتى أنها لم تقدم القهوة السادة الواجبة.. وكيف أنها لم تستقبل عزاءنا بالحزن الواجب؟ وكأننا جئنا لرؤية قوامها البدين، وطول قامتها القصيرة، وشعرها المجعد، والهالة السوداء حول عينيها المدغمستين.. إنها سيدة مربكة حقًّا.. نادم أنا على ما بذلناه من جهد من أجل مواساتها...

اقتربت زوجتى أكثر، كنا ما زلنا فوق إفريز الشارع. كادت أن تسد فمى بصفحة وجهها، بينما أطراف أصابعها فوق شفتيها، تأمرنى بالسكوت..

فسكتُّ.. ليس لتحقيق رغبتها، ولا كرهًا فى الأرملة، ولا لأننى

اكتفيت بما نطقت.. لأن أطراف أصابع زوجتى بدت واضحة لى، مصبوغة بالدم، وقد علقت بأظافرها نسائل رقيقة من ألياف خشب مسند مقعدها الفوتيه هناك.

جراح رمضان الأخير

سيد الوكيل(*)

سحبتنى السيدة من يدى لتدفع عنى الحرج، وعبرت بى الطرقة الضيقة، وهى تتفادى بمهارة الاصطدام بأثاث البيت الصغير. تفعل ذلك كامرأة علقت سنواتها بسخاءعلى تلك الجدران. وأنا أشعر بيدها ترتجف، أصابع ممتلئة خشنة، تليق بربة بيت، وليس فى الحجرة سوى ضوء خفيف يتسرب من خصاص الشيش المغلق، ورائحة لم أميزها أبدًا. وقفتُ عند الباب فيما تحركت هى فى اتجاه السرير. انحنت بجسدها قليلاً وهمست: حمدى.. انت صاحى؟ بعدها نظرت لى بوجه حزين وقالت: نايم.

اقتربت قليلاً، وتأملت وجهه الشاحب ناتئ العظم والهالات الدكناء حول عينيه اللتين لم أعرف إن كانتا مغلقتين أم مفتوحتين. مددت يدى ومسحت برفق فوق شعره الملبد بالعرق، وجبهته الدافئة.

تبعتنى حتى باب الشقة. شكرتنى وهى تفتح الباب وتتنحى جانبا لأخرج. لم أفكر فى مصافحتها، فما رغبت فى ملامسة تلك الارتجافة الخشنة مرة أخرى. لحظة خروجى قالت بنفس الصوت الهامس: رمضان كريم.

(*) من مجموعة (للروح غُناها) ـ مختارات فصول ـ١٩٩٧.

سيد الوكيل، من مجموعاته القصصية: (أيام هند)، (للروح غناها)، (مثل واحد آخر).

بمجرد أن عبرتُ الشارع رأيتهم يجلسون فى مكانهم المعتاد. من بعيد بدا لى أحمد طه بقامته الطويلة، وبشرته السمراء. فيما جلس عيسوى بجوار عبد اللطيف، وهو ينفخ دخان الشيشة من فتحتى أنفه الواسعتين، وحين جلست، كانت أكواب الشاى مازالت تصعد بخارها بهدوء.

دون أن ينظر إلىَّ مد مبسم الشيشة ناحيتى فتناولته بصمت. وضع صبى المقهى كوب الشاى الرابع بمجرد أن رآنى. كنا نرقب حركة الشارع المصطخب بنظرات مصمتة، ولم يكن مباغتًا لنا هذا الاصطخاب فى شارع كهذا، غير أن حركة الناس بدت أكثر نزقًا، ولا بد زاد من اضطرابهم قلقهم بشأن الغد، ومع كل هذه الضوضاء كان صوت أغنية وحيدة يتردد بترنيمة جنائزية فى وداع رمضان، ربما تخرج من كل البيوت والمحال فى لحظة واحدة : (والله لسة بدرى يا شهر الصيام). بدت كنداء كونى ينطلق فى الجو بلا حدود.

أخيرًا، تكلم عبد اللطيف، قال إنها مهزلة أن نواجه كل سنة بهذا الاضطراب فى تحديد موعد العيد.. وتمنى ألا يكون العيد غدًا، قال بقلق إنه لا زال لديه جزأين من القرآن لم يختمهما، وحين أحس أن أحدًا منا لا يشاركه قلقه بشأن العيد صمت. وتحرج أحمد طه وقال على سبيل المشاركة: فعلاً.. الأيام بتجرى.

لا بد أن عيسوى أكثرنا افتقادًا له. عيسوى هو الذى علم حمدى الشطرنج، ولا بد أنه فى لحظة ما ندم على ذلك، حين اكتشف أنه علم إنسانا شيئًا رهن عليه كل حياته، أدمنه حتى راح يقامر بكل شىء

ليشهد موت الملك. ولا بد - أيضًا ندم لما أدرك أنه خلق لنفسه منافسًا عنيدًا ومتفوقًا عليه فى أغلب الأحيان، على أية حال، كان هو الوحيد بيننا الذى يشارك عيسوى هذه اللعبة بعدما أطلق أحمد شكرى لحيته وحرم على نفسه لعب الشطرنج، ثم شيئًا فشيئًا حرم الجلوس على المقهى حتى اختفى تمامًا، أو ذاب بين آلاف الوجوه المطموسة، ولم يعد من المتوقع أن نراه ثانية إلا فى مشهد مأساوى كذلك الذى رأينا فيه فواز مطاوع فى جريدة صباحية. بلحية طويلة وجلباب أبيض. والرصاص يغطى صدره بالدم.

لم يرفع عيسوى مبسم الشيشة من بين شفتيه حتى وهو يلتفت ناحيتى ويسألنى.. زرته؟

هززت رأسى بالموافقة، فقال: كلمك؟

قلت: كان فى غيبوبة، لم يشعر بوجودى.

أعاد وجهه ناحية الشارع وقال بسخط: الحال من سيئ لأسوأ.

كان يفاخر بأنه الوحيد بيننا الذى يحمل ذكريات الحرب بالقرب من قلبه؟ ويعرف أن الشظية التى سكنته تتحرك بإصرار ناحية القلب، وكأن الحرب بالنسبة له لم تنته. لا تمل بعد كل هذه السنين أن تسعى لقتله.

فى الأيام التى يحلو لى فيها ذكر شىء عن الحرب لأبناء أختى، أو عندما يسألوننى، كنت أستعيد جانبا من حكايته، أفعل ذلك كلما انتهت حكايتى دون أن تثير فى عيونهم دهشة ما، ويظلون يحتفظون بابتساماتهم الفئرانية تجاهى، حتى عندما أخبرهم أنه كان يمكن ألا

يكون لهم خال لو أن هذه الشظية اندفعت فى اتجاه القلب بضعة مليمترات، لم يفكر أحدهم أن يسألنى.. إذن أين الجرح؟

فى واحدة من زياراتى كنت أجلس بجواره على حرف السرير. كان غائصا فى جلبابه الأبيض النظيف، وكانت تلك الرائحة التى لا أميزها أكثر حضورا. نجح فى ابتسامة منحها لى وبسرعة أغمض عينيه، همست باسمه فهمس باسمى، وبدلا من أن أبكى اعترفت له أنى أستعير حكايته، أنسبها لنفسى وأحكيها لأبناء أختى.

ابتسم وهو مغمض العينين، وهمس بحروف لم أفهمها، فقلت: حروبنا لم تعد تعنيهم.

كانت السيدة قد حكت كيف أصرعلى اصطحاب أولاده إلى مبنى بانوراما الحرب، وهناك داهمته بشدة تلك الآلام التى تعاوده كلما فاحت فى الجو رائحة رمضان، أو حتى.. كلما سمع صوت الشيخ رفعت.

لا أحد يصدق أن طبيبا لا يعرفه، أخرجه من بين الجثث التى تم التصديق بدفنها، ليعيش بقلب جريح عشرين عامًا.

قال عيسوى: إنهم أهملوا علاجه حينها، كان يجب إخراج الشظية، لماذا تركوها فى جسمه؟

قالوا إن أخطار الجراحة كبيرة، وحين أخبروه بذلك رفض أن يقامر بحياته مع أنه بعد ذلك قامر بكل شىء.

شخر عيسوى وقال إنهم شوية قوادين، ولو كان واحدًا منهم لعالجوه فى الخارج، واتهم أسامة عبد الله بأنه تخلى عنه لما كان فى

المستشفى. وحين قلت إن أسامة لم يكن يملك شيئًا له..كان مجرد عسكرى. شخر من جديد. حسم أحمد طه الموقف بجملة مختصرة لما قال: نصيبه كدة يا جماعة.

تذكرت أننى حتى الآن لم أرد على رسالة أسامة الأخيرة، برغم تأكيداته على الرد السريع. كان فى نيتى أن أرد قبل انتهاء رمضان لتكون مناسبة للتهنئة بالعيد، ولم أكن قد أخبرتهم بعد بتلك الرسالة، فأنا أعرف أن رسائله لهم ظلت تقل شيئًا فشيئًا حتى توقفت قبل انقضاء العام الثانى على سفره، فيما ظل يرسل لى كلما احتاج أمرا، إذ تصادف أننا عُينا فى مصلحة واحدة. فى الحقيقة.. هو ليس واحدًا من الذين حرصت على استمرار علاقتى بهم بعد التسريح من الجيش. لكن فى أول أيام استلامى العمل وجدته أمامى، كان حز البيريه ما زال فى رأسه الحليق، وكنت أعرج بشدة بسبب الكاللو الذى لازمنى منذ أول يوم لبست فيه البيادة، وقتها تأكد لى أن مصائرنا جميعًا وضعت فى زجاجة واحدة ألقى بها قرصان مجنون فى بحر.

فى إجازته الأخيرة زارنى لبضع دقائق، كان وزنه زاد كثيرًا وقد أطلق لحية خفيفة مع شارب، وتفوح منه رائحة مسك نفاذ، فبدا فى فانلته (المونتيجو) أكبر من سنه كثيرًا. قال إنه فى عجلة من أمره، وإنه ما جاء إلا ليسوى بعض سؤالات فى الإدارة بخصوص تجديد الإجازة، وإنه كان يبغى لو جلس معى وقتا أطول. هو هناك بخير لولا تلك الأخبار السيئة التى تأتيه من مصر وتنغص عليه حياته لأن الإخوة فى المملكة أكلوا وجهه لما وصلتهم أخبار حادثة اغتصاب فتاة العتبة. ولما قلت إنه مجرد حدث عادى فى مدينة بحجم القاهرة انزرد وجهه وقال: إيش فيكم يا مصريين.. هادا الدم فى عروجكم صار مويا؟

لاحظ أنى استغربت لهجته فحاول تغيير الكلام وسألنى عن الشلة واحدا واحدا، واعتذر بأن وقته ضيق ولن يسمح له برؤيتهم. لكنه لم يسألنى عن حمدى. قبل أن يودعنى منحنى مسبحة وطاقية من الحرير المطرز وقال: هدية من عند الرسول، فقلت... عليه الصلاة والسلام.

قال عيسوى.. إن رمضان من غير حمدى ليس له طعم ، وحتى العيد بلا رائحة، ضحك عبد اللطيف، وابتسم أحمد طه، وحين نظرا إلىَّ أدركت حجم المفارقة فى الموضوع، فلا بد أن عيسوى هو آخر من يتكلم عن الروائح والطعوم، فكلنا نعرف أنه مصاب بضمور فى الأنف أفقده حاسة الشم، وهو دائمًا يعزو هذا إلى قنبلة الغاز التى صوبوها ناحية الملجأ ليجبرونا على الخروج، أما أنا فأعرف أنه الوحيد بيننا الذى شرب الشاى يوم صب النقيب عمر مصطفى لترا كاملا من الكافور فيه،ومع ذلك، وحتى بعد أن أصبح أمره معروفًا بيننا، ارتضيناه عرافًا لنا.

كان يتنبأ بأن أحمد طه سيكون أطولنا عمرًا، فهذا الطويل الهادئ ماكر جدًّا على غير عادة الطوال، يقتصد فى كلامه وحركته ولو قدر لما استهلك من اليوم سوى بضع ساعات ولو عامله الله بالمثل لجعله قزما تعسا. أما عبد اللطيف فهو إنسان عادى سيعيش حياة عادية، ويموت ميتة طبيعية كأى حمار، وتكهن لى بأن أكون الأقصر عمرًا، فلست فى رأيه سوى حيوان يقبل على كل شىء بشراهة، يأكل ويشرب كبغل، ويضاجع مثل ثور.

كان يلمح إلى علاقتى بأم طارق، جارتى التى مات زوجها وتركها قبل أن تشبع من الرجال. وحين سأله عبد اللطيف.. وماذا عنك؟ قال إنه لا يشم بما فيه الكفاية ليعرف، فضحكنا.

ومع أنه من الغباء أن نعلق مصائرنا بلسان رجل لا يشم ولا يتذ وق، إلا أنه كان فعلا يتميز بهذه القدرة على الاستشعار البعيد ككلب ولف، وكنا نستفيد من هذه الميزة، إذ كان يكتشف طلعات الطيران ربما قبل أن تتحرك من قواعدها، ولما سألته عما يتوقعه لصديقنا المريض قال: الله نفسه لا يمكنه أن يعرف مصير رجل يحمل فى قلبه شظية، ضرب عبد اللطيف كفا بكف وقال: أستغفر الله العظيم وقال أحمد طه... الأعمار بيد الله.

أدركت أننى مثل كل مرة لن أمسك قلما ولن أكتب ردا على رسالة أسامة. فكرت أن أخبرهم، أو أنقل لهم تحياته لكنى لم أجد مبررا لذلك.

كان لافتا للجميع هذا الصوت الصاخب الذى دوى فى الجو فجأة، فى الحال أدركنا سببه فتبادلنا النظرات فى صمت، وطافت بشفاهنا ابتسامات واهنة. عبد اللطيف وحده هو الذى قال بقلق... العيد بكرة!!! وتساءل إن كان يمكن استكمال جزأى القرآن الليلة أو غدًا مع إقراره بأنه يستحق الحرق بنار جهنم، فقال أحمد طه: كلها أيام ربنا.

كان عيسوى يعلق على برودة الجو، ويتنبأ بسقوط الأمطار، ويوجه كلامه لأحمد طه الذى يهز رأسه فى صمت كما لو أنه يسمعه، غير أن عيسوى توقف فجأة وقال لأحمد طه... تيجى أعلمك شطرنج.

نظرت لأعلى وأدركت أنها فعلا توشك على الإمطار، فهذه السماء ضاربة بحمرة عجيبة ربما مصدرها الأضواء التى على الأرض،

رفعت ياقة الجاكت ليغطى القفا وناديت صبى المقهى لأدفع ثمن طلباتى، وفكرت أنه من المناسب أن أمنحه بقشيشا كبيرًا على سبيل العيدية.

وفيما كنت أفكر إن كان من الممكن زيارة المرضى فى صباح العيد أو أن ذلك يزيد آلامهم، كانت حبات مطر كبيرة تتساقط، فتحركت مع الناس فى طابور بجوار الحائط، وسمعت أحدهم يضحك بصوت عال ويقول إن أعيادنا أصبحت تأتى فى الشتاء كأعياد النصارى، وحتى لا أشعر بملل الطريق تشاغلت بالتفكير فيما علىَّ أن أدفعه من عيديات لأطفال معارفى، وعندما أحصيتهم اكتشفت أنهم تضاعفوا عن العام الماضى.

لأزيل الطين العالق بحذائى كنت أحك نعليه على درجات السلم، ومع أنى كنت أفعل هذا بحذر حتى لا أزعج أصحاب الشقق التى أطفأت أنوارها، إلا أن باب شقتها فتح بهدوء، وهبت منه رائحة الياسمين التى اعتادت أن تجذبنى بها كذكر النحل.

بين دفتى الباب الموارب رأيتها فى الروب الأزرق الثقيل المفتوح عند الصدر. بدت ملامحها فى الضوء الخافت شاحبة مضطربة. مدت يدها، وعندما مددت يدى أحسست بارتعاشها كما لو كنت ألمسها لأول مرة، وهى تسحبنى للداخل همست بصوت منكسر: رمضان خلص.. وحشتنى.

بمجرد أن أغلقت الباب طوقتنى وبكت، كنت مبلولا وباردا فأحسست بأنفاسها دافئة على رقبتى، وكان التليفزيون مفتوحا ويرسل أضواء ملونة لصور لم أتبينها بوضوح وهى بين ذراعىَّ، سمعت صوت المطربة القديمة تنشد.. الليلة عيد.

فتحتْ باب الحجرة الجانبية، بحذر أطلتْ للداخل. عادتْ تغلقه بهدوء، وبنفس الحذر أدارتْ المفتاح فى الثقب، همستْ وهى تبتسم وما زالتْ عيونها تلمع بالدموع.

- نايم.. بيشخر.

فى تلك اللحظة تذكرت أننى لم أحسب طارق فى قائمة الأطفال الذين يستحقون عيدية، ولاحظت أن ملامحها أصبحت أكثر تألقا وهى تحكى عن إصراره على السهر حتى الصباح ليشهد مجىء العيد، وأن النوم غلبه وهو جالس على الكنبة أمام التليفزيون بملابسه الجديدة فحملته للداخل. عندما نامت بين ذراعىَّ كنت أفكر فى أهمية علاقتى ببعض معارفى، وضرورة أن أعيد النظر فى قائمة العيديات.

فهرس

- خيرى شلبى (بانوراما القصة المصرية القصيرة) ٣
- حسين حمودة (هذه المختارات.. هذا البستان) ١١
- آمال الميرغنى. شاب وفتاة ٢٣
- ابتهال سالم . بدد ٢٩
- إبراهيم أصلان. الطواف ٣٣
- إبراهيم المصرى. نار الغيرة ٣٩
- إبراهيم عبد المجيد. الشجرة والعصافير ٤٩
- إبراهيم عيسى. ذيل حصان ٥٩
- إبراهيم فهمى. بحر النيل ٦١
- أبو المعاطى أبو النجا. الوهم والحقيقة ٧١
- إحسان عبد القدوس. إلى أين تأخذنى هذه الطفلة ٨٧
- إحسان كمال. ممنوع دخول الزوجات ١١٣
- أحمد أبو خنيجر. شجرة وامرأة وفتاة ١٢٣
- أحمد الخميسى. قطعة ليل ١٢٧
- أحمد رشدى صالح. الزوجة الثانية ١٣٣
- أحمد زغلول الشيطى. مفتاح قديم ١٥٣
- أحمد الشيخ. احتمالات بداية ١٥٧
- أحمد غريب. حفر ١٦٩
- أحمد فاروق. قبل الكتابة ١٧٣

- أحمد هاشم الشريف. اللصوص ١٧٥
- إدوار الخراط. حيطان عالية ١٨٥
- أسماء شهاب الدين. جروح مفتعلة ١٩٧
- أسماء يس. صمت ٢٠٣
- أشرف الصباغ. موت البرتقال ٢٠٥
- أشرف عبد الشافى. قوائم الحسد ٢٠٩
- اعتدال عثمان. موال شوق ٢١١
- إقبال بركة. الرهينة ٢٢٣
- أميرة النشوقاتى. عتبة السلم ٢٣١
- أمين ريان. الواعد ٢٣٥
- أمين يوسف غراب. العوالم السفلى ٢٣٩
- أمينة زيدان. عهد الهوى ٢٥٧
- أهداف سويف. زينة الحياة ٢٦١
- إيهاب عبد الحميد. مع كنجارو ٢٧٥
- بدر الديب. رشدى حمامو ٢٩٧
- بسمة عبد العزيز. وجبة صغيرة يحفها الامتعاض ٣١٧
- بهاء طاهر. الخطوبة ٣٢٣
- بهاء عبد المجيد. نقطة تلاق ٣٤٥
- بهجت فرح. بعد منتصف الليل ٣٥١
- جاذبية صدقى. أيام زمان ٣٦٩
- جار النبى الحلو. طائر فضى ٣٧٧
- جمال الغيطانى. هداية أهل الورى لبعض ما جرى فى المقشرة ٣٨٩

- جمال مقار. السلعوة ٤٠١
- جميل عطية إبراهيم. أحاديث جانبية ٤١٩
- حجاج أدول. للأفيال ذيول وأنياب ٤٢٩
- حسام فخر. كوبونات ٤٣٣
- حسن الجوخ. الغروب ٤٣٥
- حسن عبد الموجود. كوبرى السيدة ٤٣٩
- حسن نور. أنين الروح ٤٤٣
- حمدى أبو جليل. أمى ٤٤٧
- حمدى البطران. رحلة ٤٥٣
- حنان الدناصورى. عربة مترو أخيرة ٤٥٧
- خالد إسماعيل. شارع منصور ٤٦١
- خالد السروجى. الحنان السرى ٤٦٧
- خالد ثابت. سيرك حلاوة ٤٦٩
- خليل الجيزاوى. حبل الوداد ٤٧٩
- خيرى شلبى. المنخل الحرير ٤٨٥
- خيرى عبد الجواد. حرب أطاليا ٤٩٥
- راضية أحمد. لا تطفئى الناريا جدتى ٥٠٣
- رامى المنشاوى. فى حضرة صاحب المدد ٥٠٥
- رضا البهات. جيبة ديرتى ٥١١
- رفقى بدوى. ليلة زفاف السيد أحمد ٥٢٥
- زكى سالم. أستاذى ٥٢٧
- زين عبد الهادى. أمى حين غنت ٥٢٩
- زينب صادق. مقهورة ٥٣١

- سامى فريد . أبيض وأسود ٥٣٧
- سحر توفيق . بيت العانس ٥٤١
- سحر الموجى . عدى النهار ٥٤٧
- سعد الدين حسن . عطر هارب ٥٥٣
- سعد القرش . الداخل ٥٥٧
- سعد مكاوى . عطر فى الظلام ٥٦٧
- سعيد الكفراوى . شرف الدم ٥٧٥
- سعيد بكر . البطيخى يبيع الشيكولاتة ٥٨٥
- سعيد سالم . يوم من الأيام ٥٩٥
- سعيد نوح . استشارات لباشكاتب حزين على عمره ٦٠٥
- سكينة فؤاد . ٩ شارع النيل ٦١١
- سلوى بكر . صنعة لطافة ٦٣٣
- سليمان فياض . عود كبريت ٦٤٣
- سمية رمضان . حجر رشيد ٦٤٧
- سمير الفيل . عين حلوان ٦٥٣
- سناء البيسى . متولى وبدرية ٦٦٥
- سناء صليحة . وتغير لون عينيها ٦٦٩
- سهام بيومى . الحائل ٦٧١
- سهى زكى . روح من لحم ودم ٦٧٥
- سيد البحراوى . قصة حب ٦٨٣
- السيد زرد . إغماض العين ٦٨٥
- السيد نجم . كذبت امرأة ٦٨٩
- سيد الوكيل . جراح رمضان الأخير ٦٩٥

المجلس الأعلى للثقافة



الغلاف: محمود مراد